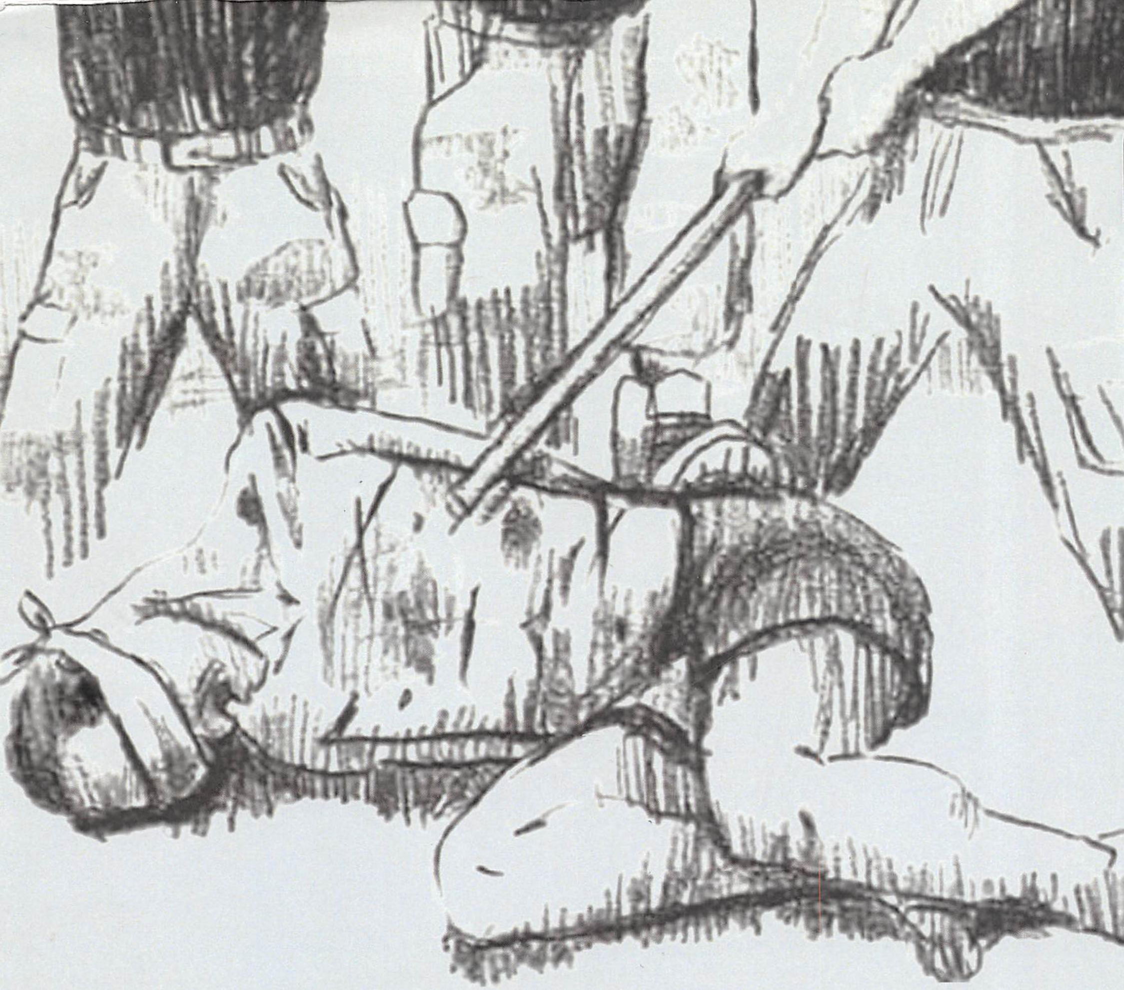


المركز القومى للترجمة

القسوة

شرور الإنسان والعقل البشرى

تأليف : كاثلين تايلور

ترجمة وتقديم

فردوس عبد الحميد البهنساوى

2044

يقدم هذا الكتاب مقاربة علمية لظاهرة القسوة باعتبارها واحدة من أكبر المشكلات فى المجتمعات الإنسانية. وهو محاولة لاكتشاف آلية اتخاذ القرار فى عقول البشر قبل فعل القسوة وارتكاب الجرائم، وبذلك تفترض المؤلفة أننا "لو فهمنا لماذا يرتكب الناس الجرائم الفظيعة، فقد نستطيع منعها".

يطرح الكتاب أفكاراً مهمة عن دوافع أفعال القسوة ومن بينها التهديدات المختلفة، وأهمها التهديد بإنكار الحقوق، أو تغيير الثوابت الأخلاقية، أو التدمير المادى (فى الحروب).
لكن المؤلفة ترى أن القسوة تنشأ أساساً من فشل الإنسان "فالقسوة أدعى أن ترتبط بالفشل وليس بالحقد والكراهية كما نظن"، ويذكر الكتاب شواهد كثيرة على فظائع القسوة فى جرائم الاستعمار، وصراع المستعمر من أجل الموارد، وهو بالفعل ما يتعارض مع ادعاء تقدم الغرب فى القرن العشرين.

القسوة

شرور الإنسان والعقل البشرى

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر 2006 تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: رشا إسماعيل

- العدد: 2044
- القسوة: شرور الإنسان والعقل البشرى
- كاثلين تايلور
- فردوس عبد الحميد البهنساوى
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة كتاب:
CRUELTY: Human Evil & the Human Brain
By: Kathleen Taylor
Originally published in English in 2009

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: 27354524 فاكس: 27354554
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

القســـوة

شرور الإنسان والعقل البشرى

تـــــــــأليف: كـــاثــلـين تــايـلـــور

تـــرجمة وتقـــديم: فردوس عبد الحميد البهنساوى

2014

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

تايلور ، كاثلين .
القسوة: شرور الإنسان والعقل البشرى/ تأليـف: كاثلين تايلور .
ترجمة وتقديم: فردوس عبد الحميد البهنساوى .
ط ١ – القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤
٥٢٤ ص، ٢٤ سم
١ – القسوة
(أ) البهنساوى، فردوس عبد الحميد (مترجمة ومقدمة)
(ب) العنوان ١٧٩

رقم الإيداع: ٢٠٨٧٨ / ٢٠١١
الترقيم الدولى: I.S.B.N - 978 - 977 - 704 - 880 - 4
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

قائمة الأشكال البيانية
والرسوم التوضيحية

تقديم

يتعرض هذا الكتاب لظاهرة القسوة باعتبارها نوعًا من السلوك الذى يُجّسد شرور الإنسان، وترى المؤلفة د/ كاثلين تايلور- كما جاء فى مقدمة الكتاب - أن من يرتكب أعمال القسوة ليس بالضرورة شخصًا منحرفًا أو مريضًا نفسيًا أو شريرًا بالفطرة، بل إن "القسوة سلوك منطقى ينفذه بشر عاديون".. فهى تفترض أن "كثيرًا من العنف لا ينبعث دون إعداد مسبق فى عقول من يمارسونه، فإننا لا ندرى فعلا كيف استعد الشخص لهذا الفعل قبل أن يحدث"؛ لذلك تحاول هنا تناول أسباب القسوة من منظور علمى يرتبط بالعقل البشرى وآلية وكيفية عمل المخ.

لكنها تؤكد أن "دراسة القسوة مشروع متشعب واتباع الأسلوب العلمى فيه محفوف بمخاطر كثيرة ويكتنفه كثير من دواعى عدم الفهم"، ثم تستدرك للإيضاح: "إننى لا أدعى أن العلم لديه الإجابات المطلوبة... والموضوع غير مترابط علميًا ومنطقيًا؛ لأنه يعتمد على متغيرات اجتماعية وأخلاقية وثقافية، كما أن التغيرات الكبيرة فى المخ تحدث دون أن يُستدل عليها"، أى أن المتاح والممكن من معلومات غير كامل بالضرورة.(*)

(*) اعترف علماء كثيرون بذلك، ونُشر هذا بمجلات علمية عديدة فى لندن أوائل عام ١٩٩٩، عندما أعلن العلماء ومن أجروا التجارب فى المراكز البحثية فشلهم فى فهم عمل المخ، وقد نشرت جريدة الأهرام بالقاهرة ذلك يوم ١٩٩٩/١/١٤ فى مقال تحت عنوان العلماء يعلنون فشلهم فى فهم المخ.

ثم تطرح المؤلفة عدة تساؤلات وتحاول الإجابة عنها في الفصل الأول: ما الذى يمكن وصفه بفعل القسوة؟ ومن الذى يرتكبه؟ ولماذا ترتكب أعمال القسوة؟ مع الإشارة إلى السياق الاجتماعي للقسوة والأدوار التى يؤديها المشاركون فيها.

وقد حددت المشاركين بثلاثة: الفاعل، الضحية، المشاهد (من يحكم). وتتعامل المؤلفة مع القسوة فى الفصلين الثانى والثالث على خلفية ارتباطها بمبادئ الأخلاق الأساسية والوضعية، مع الإشارة إلى بعض المناهج الفلسفية وبعض الآراء والأحداث والمبررات والدوافع التى تؤدى إلى فعل القسوة.

أما الفصل الرابع فيمثل محاولة التعامل العلمى مع هذا الموضوع من منظور التعرف على الآلية البيولوجية (فى المخ) التى تدفع الإنسان للقسوة، فيما يتعلق بعلم دراسة الجهاز العصبى وعلم النفس التطورى وعلم النفس الاجتماعى. وترى المؤلفة أن الإنسان يتأثر بالعواطف والأحاسيس التى تدفعه إلى الفعل القاسى، وهذا ما تتناوله فى الفصل الخامس.. كما أنها تنظر إلى "المعتقدات" باعتبارها هى التى تقود إلى الأفعال القاسية والجرائم الفظيعة، فتطرح هذا الرأى فى الفصل التالى، ثم تركز فى الفصلين التاليين على نوعين من الدوافع هما تبلد المشاعر مع غلظة القلب والسادية، على التوالى. وتقدم د/ كاثلين فى الفصل الأخير خلاصة هذه الأفكار مع تساؤل حائر: هل يستطيع البشر الامتناع عن أفعال القسوة؟

ولقد بدا لى من الجزء الأول فى مقدمة الكتاب (مع ما جاء من إحصاءات وذكر لبعض المصادر) أن الكتاب يختص بالتناول العلمى للموضوع، لكننى بعد عدة صفحات لاحظت أن هناك تركيزًا واضحا ومتعمدا على نظرية النشوء والارتقاء لداروين وعلى تاريخ المحرقة

اليهودية "الهولوكوست"(*)، مع الإشارة المتكررة إلى تركيا باعتبارها مسئولة عن قتل الأرمن.

أما عن القيمة العلمية للكتاب؛ فلم تضف كثيرا "نظرا لصعوبة الموضوع"، كما قالت المؤلفة في المقدمة في محاولة للتبرير. ويرتكز التعامل العلمي في الفصل الرابع على ثلاث نقاط مبدئية: ١- إن النهايات الطرفية لكل خلية عصبية تتشابك مع النهايات الطرفية للخلايا الأخرى ٢- إن الخلايا تتصل ببعضها بواسطة إرسال كهربي كيميائي ٣- إن الشق الكيميائي في هذا الاتصال هو سوائل يسمح لها بالدخول إلى المخ (تدخل في مكوناتها أنواع الغذاء الذي نأكله). وعلى هذه الخلفية عندما تصل المدركات الحسية إلى المخ من خلال الحواس تتفاعل معها الخلايا العصبية مكونة "بنية" أو "نمطًا" عصبيا ينتقل إلى باقي الخلايا وإلى مراكز الإثابة في المخ (فتكون ردود الفعل إما بالألم وإما السعادة)؛ وعندئذ يُتخذ القرار بالفعل. وعلاوة على هذه التفاعلات العصبية داخل المخ توجد خلفية نفسية وأخلاقية واجتماعية تتمثل في العواطف والمعتقدات والتهديدات، وكلها تؤثر في اتخاذ القرار. وما يدفع إلى اتخاذ القرار بالقسوة أيضا هو "فكر الإقصاء"، الذي تغذيه الأنانية والجهل وتبلد الحس وتحجر القلوب أو الحاجة إلى السيطرة والتحكم.

(*) هناك العديد من كتابات مماثلة تهدف إلى التذكير بالمحرقة في مضمون دعائي: أذكر منها مثلاً كتاب الخطايا السبع للذاكرة لمؤلفه "دانييل سكاكتر" رئيس قسم علم النفس بجامعة هارفارد Daniel L. Schacter: The seven sins of Memory: Miflin Company,2002. وكتاب آخر، مثلاً، لأربعة مؤلفين صدر عن مركز الترجمة بالقاهرة وعنوانه "أس الشرور". قامت بترجمته د/ سهام عبد السلام وكتبت نقدا له د/ هدى زكريا.

وهناك صعوبات كثيرة تصادف المترجم، وهي في هذا الكتاب- بصفة خاصة- متنوعة منها: صعوبات في اللغة والأساليب وتراكيب الجمل، مع اختلافات وفروق ثقافية. فقد كان بعض المفردات له دلالات خاصة (غير معتادة) في ذهن المؤلفة، كما جاءت مفردات في صياغات جديدة غير مألوفة أو متداولة، وبعض المفردات عامية متدنية لا تُكتب ولا وجود لها في القواميس مثل: rump, Buttock, arse, coprophagy؛ وكان كثير من السياقات والتراكيب إما غير مكتمل وإما متشعب؛ فينشأ عنه الغموض أو تشتيت للمعاني. مما اضطرني إلى التفسير وشرح ما فيه لبس أو غموض. كما لاحظت غياب الربط السليم بين الجمل "cohesion"؛ بسبب إغفاله أو استخدام الروابط فيما لا يفيد وما لا يلزم مثل: الإكثار من استخدام However، وكذلك عدم انسياب وترابط الفكر في مجمل المضمون "Coherence". وقد كان التوافق في التراكيب "agreement" مشكلة أخرى، فأحياناً تتغير صفة الفاعل فجأة في الجملة نفسها أو تختلف الضمائر فيها؛ فيكون الانتقال من الغائب إلى المخاطب أو من المفرد إلى الجمع أو اختلاف اسم الإشارة عن المشار إليه مثلاً... إلخ.(*)

والأخطاء النحوية صارخة أحياناً، مثل الملاحظة رقم (١١) في صفحة ٢٧٤: (This does not surely tells us). أما استخدام علامات الترقيم، وهو له دخل دلالي في السياق، فهو مربك وغير سليم، وأوضح مثال على ذلك استخدام الأقواس في أول الجملة؛ بينما يفترض أنها تأتي لتعزل جزءاً من السياق في منتصف الجملة.

(*) في صفحات كثيرة منها (٥٢، ٨٧ ، ١٧٣، ١٦٧، ١٩٤، ١٥٩، ٢١٠، ٢١١، ٢٢٣، ...إلخ) وأرقام الصفحات من النص الأصلي.

ونشأت بعض الصعوبات – أيضا– من الاختلاف في كتابة أسماء الأعلام والأماكن. فقد كتب اسم الزعيم "ماوتسي تونج" مؤسس الحزب الشيوعي في الصين هكذا: Mao Zedong، بدلا من الهجاء المعروف بالإنجليزية "Mao-Tse Tung". كما كتبت أسماء بعض البلدان بالألمانية مثل: "Auschwitz"، وهي بلدة صغيرة في وسط بولندا إلى الجنوب اتخذها الجيش الألماني معتقلاً للأسرى عندما احتل النازي بولندا، بينما الاسم في كل الموسوعات هو: Oswiecism.

وقد مثّل اختلاف الثقافة محاذير في نقل بعض الأفكار والتعبيرات خاصة فيما يتعلق بالعقائد والأديان. وقد جاء في بعض العبارات ما به مساس بالعقائد الدينية والعلاقة الإيمانية بالله سبحانه وتعالى؛ لذا حاولت نقل المعنى بأسلوب لا يمس العقائد الثابتة عن العدل الإلهي مثلاً.

كما لاحظت أنها عند الحديث عن المسيحية لا تذكر اسم المسيح إطلاقا، بل تشير إليه بعبارة "مؤسس المسيحية" Christianity founder؛ وكأن هذا الدين هيئة أو مؤسسة. كما جاء حديثها عن "الطبيعة" من منظور أنها القوة المهيمنة على الكون أو بديل عن الخالق جل وعلا. أما ذكر لفظ الجلالة؛ فقد جاء في سياقات غير لائقة مثل: "إننا نخشى السادية بقدر وبنفس شعورنا بالخوف من الله" أو "الله لا يوافق على الإجهاض كما يدعي بعض أتباعه (his followers). والتصرف في الترجمة ضرورة في هذه الحالة حتى ينقل المترجم المعنى في تعبير يتسق مع الثقافة المنقول إليها.

وعلى الرغم من هذا الاختلاف في الثقافة، فإن التعرف على ثقافات ورؤى مغايرة يتيح لنا إدراك كيف يفكر جانب آخر في عالمنا. ولا شك أن هناك جانبا إيجابيا في التعرف على الطروحات الفكرية في الغرب

ومحاولة فهم وتقييم هذا المنطق المخالف فى رؤية العالم والحكم على الأمور مع الانتباه إلى بعض القضايا التى تهمنا ومنها:

من المهم تفّهم المنطق الغربى فى التعامل مع الغير؛ كما ورد فى هذا الطرح الواضح: "لماذا أعطى الحق لمن يطلب ويناشد وهو الأضعف ولا يملك قوة يواجهنى بها؟". (ص ٥٤-٥٥). إذ يبدو أننا لم ندرك ذلك حتى الآن، فنحن فى السعى لنيل حقوقنا "نطالب ونناشد"؛ وقد نسينا الأمر الإلهى الحكيم "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة".

هذا الإصرار على وجود سيل لا ينقطع من الكتابات التى تُذكر بالمحرقة، ومن خلال أقنعة وتخصصات مختلفة؛ كان من الأدعى أن يعلمنا كيف نكتب بلا انقطاع دفاعا عن قضايانا من وجهة نظرنا وأن نُذكّر بها ونصر على التعريف بها.

ما ذكرته الكاتبة عن ميل الثقافة الغربية إلى فكر إقصاء الآخر شيئًا مهمًا، وهى تشير إلى أن بريطانيا وجهت الإقصاء الآن إلى المسلمين فى بريطانيا و"تحول توجيه هذا الفكر إلى الإسلاميين من الراديكاليين والمتطرفين".

ما يلزم أن ننتبه إليه أيضا، هو ما طرحته المؤلفة عن نظرية نقل وتطور الثقافة "Meme Theory"، وكأنه نوع من غسيل الأدمغة بطريقة نشر الجديد من الظواهر الثقافية والأفكار ونماذج السلوك فى العقول، وبين الأجيال بمنهج التكرار والمعلومات المُوّجهة، وعن طريق الفنون وطراز الأزياء ووسائل الإعلام والتكنولوجيا.. والسر هنا فى ثلاث كلمات: التبليغ، التكرار والتأثير، ثم يأتى القبول.

غير أن هناك أمورًا إيجابية في هذه الثقافة، أفكارًا علينا أن نعيها ونتدبرها:

١- إن الاستعداد الذهني للنقاش والتقييم هو الذي يُحد من القلق والخطر الناشئ عن صراع الفكر المخالف للعقيدة الذاتية.

٢- إن القوة الظاهرية لأي عقيدة؛ يمكن حصارها بالمناقشات والحوار والمناظرات، مما يعمق ويؤصل الثقافة داخل المجتمع.

٣- إن السادية والجرائم تنتشر بفعل العقائد الخاطئة واتجاه الإعلام ووسائل التسلية وبعض الأفلام التي تشيع وتنشر القسوة، والكاتبة تؤكد: "نحن نشاهدها على الشاشات ثم تنتشر في حياتنا اليومية"، ومن ثم تقترح: "يجب أن يُطهِّر الإعلام الناس كما نريد لهم أن يكونوا".

٤- إن الوحدة وحياة الجماعة، منذ الحياة البدائية في العصر الحجري، هي ضمان القوة والسلامة للمجتمعات والشعوب.

٥- إن عدم تنفيذ الأحكام في المجتمع وانفلات السلوك له سببان: إما أن أصحاب السلطة يريدون ذلك، وإما أن البيئة كلها شديدة الفوضى لدرجة أن القوانين لا تفرض عقوبات رادعة ولا تدعمها.

٦- إن تعليم الأطفال التاريخ الصحيح هو دعامة الوعي السليم، ولا يجب تكرار سرد الأخطاء التاريخية وجلد من ارتكبوها، ولا بد أن توضع هذه الأخطاء في مضامينها لمعرفة أسباب حدوثها وكيف نتحاشاها.

إنها أفكار تستحق التأمل، حتى إن شابها أحيانًا منطق متناقض. فالعبارة الأخيرة (التي تدعو إلى عدم جلد من ارتكبوا أخطاء تاريخية)؛ تتناقض مع ما دأب عليه من "يجلدون" المسئولين في الغرب ويذكّرون بما

حدث على يد هتلر والجيش الألماني بإصرار لا ينقطع، كما أن المؤلفة تدعى أن "تذكر ظلم المستعمرين بعد التحرر من الاستعمار نوع من الإقصاء للآخر"، فيجب ألا نقول لهم: "إننا لن ننسى جرائمكم أيها المستعمرون"، فهى ترى أن فى ذلك "بثًا للكراهية وتأهيلاً للإقصاء"، كما تحبذ التسامح مع الجواسيس، وتؤكد: "لن يفيد القول لقد تجسستم علينا أثناء الحرب ولن ننسى ذلك". وحجتها فى هذا أن "الساسة الذين ظلموا الشعوب المُستعمرة والجواسيس المقصودين قد ماتوا من زمن طويل، ومن ولدوا بعد ذلك لا يمكن أن يكونوا مسئولين عن هذه الأمور". ولا يَخفى أن وراء مثل هذه الحجة أو التبرير أغراضًا أخرى.. وهذا هو ما يجب إدراكه والانتباه إليه، فما علينا إلا أن نفهم ونحلل ونقيم مضامين ثقافة الآخر.

أ.د./ فردوس عبد الحميد البهنساوى

يونيو ٢٠١١

إلى جدتى

التى كانت تتساءل، مثل كثير ممن عاصروها ومن سبقوها،

"كيف يستطيع الناس أن يفعلوا تلك الأشياء الفظيعة؟"..

تصدير وشكر

هذا الكتاب عن موضوع صعب، فهناك زخم من الخرافات والأنماط الفكرية المغلوطة والآراء التي يتشبث بها معتنقوها بشدة.. ومجموع ما كتب عن هذا الموضوع ضخم ومتداخل بشكل مربك. وأي مؤلف يُقدم على كتابة مثل هذا العمل يكون مدينا بالفضل لآخرين غيره لا حصر لهم. والذاكرة معرضة للسهو والخطأ، والأفكار تنساب في الذهن أحيانا بعد ضياع أسماء مبدعيها الأصليين، ولو شعر أي قارئ بأنني لم أعترف بفضل من سبقوني في الكتابة عن هذا الموضوع اعترافا كاملاً؛ فله كل الحق في ذلك، غير أنني عرضت في الملاحظات والحواشي مراجع وافية حتى يتسنى للقراء أن يتتبعوا ويراجعوا المصادر إذا رغبوا في ذلك.

علاوة على هذا، لم يكن في الإمكان الإشارة إلى كل عمل بارز من أعمال القسوة، حتى إن كان مما اقترف في السنوات الأخيرة. وعلى الرغم من أن الأعمال الوحشية الجماعية قد تكون نادرة؛ فإن مظاهرها وسجلاتها كثيرة جدًا بحيث يتعذر ذكرها جميعا هنا. ومثال على ذلك إنني أغفلت ذكر واقعة "المختفين" نحو ثلاثين ألفًا من البشر - في الأرجنتين(*). ولا يعني هذا أنني أقلل من شأن هذه المأساة تحديدًا بل إني - بوصفي مؤلفة - أحرص على عدم محاولة تصنيف تلك الأعمال الوحشية.

(*) تشير الكاتبة هنا إلى حكم أربعة رؤساء من العسكريين الأرجنتينيين بعد عزل "إيزابيل بيرون" واعتقالها في ١٩٧٦/٣/٢٤؛ حيث حلت الأحزاب السياسية وفرضت رقابة صارمة على الصحافة، وقضى على عصابات اليسار المعارضة، وقامت جماعات إرهابية من اليمين المتطرف مع العسكريين والشرطة بإلقاء القبض على المنتمين للأحزاب الديمقراطية، حينئذ كان هناك الآلاف من "المختفين"، وقد عُرف مصيرهم فيما بعد عند اكتشاف مقابر جماعية كثيرة بعد انتهاء الحكم العسكري.

وأنوه إلى أننى لم أتعمد إغفال أو إهمال ضحايا عديد من الأحداث المروعة التى لم يرد ذكرها على صفحات هذا الكتاب، سواء هلكوا أم كانوا من الناجين. وجمهور القراء المقصود بهذا الكتاب ليس من المحتم أو المفترض أن يكونوا من الأكاديميين أو ممن تدربوا على دراسة العلوم ومارسوها، أو من لديهم اهتمام بهذا الموضوع؛ فقد حاولت أن أجعل الكتاب ميسرًا للقراءة، ولجأت إلى اللغة الاصطلاحية المتخصصة فى أضيق الحدود مقتصرة على الشروح والملاحظات الممكنة وقمت بتفسيرها كلما دعت الضرورة لذلك. وليس معنى هذا، على كل حال. أن محتوى هذا الكتاب سهل، فهو ليس كذلك؛ فوحشية الإنسان وقسوته لها حدود وتداخلات مشتركة مع العلم والمبادئ الأخلاقية ونظرية الأخلاق، والأفكار التى نتناولها هنا لها أبعاد ومسارات عميقة. وآمل أن يجد القارئ فى رحلته مع هذا الكتاب رحلة مثيرة أكثر من أن تكون مفزعة أو مروعة.

وبالطبع هناك أيضا ما يجب أن يؤخذ فى الاعتبار وهو طبيعة مادة الكتاب ومحتواه المزعج بشدة؛ إذ يلزم إعطاء أمثلة تذكر القارئ لماذا نهتم بنماذج القسوة، ولكننى فكرت تفكيرا طويلاً وعميقا فيما سوف يضمه الكتاب من أمثلة كل على حدة، فإنها هنا ليس على سبيل التظاهر نظريا بالشجاعة أو على سبيل التبجح الذى يفاخر ويقول "انظروا مقدار الرعب الذى أتعامل معه". ولكن نحن نرسى ونطرح مناقشة علمية على الرغم من واقعها الموجع والمقيت. والكتاب ليس كئيبا على طول الخط؛ فالقارئ اليقظ دقيق الملاحظة قد يكتشف أحيانا شيئا ما يؤدى إلى الضحك أو يبدو كأنه نوع من الهزل أو المزاح، لكن مفتاح السر لهذا كله يكمن فى العنوان.

وأريد أن أخص بالشكر، من بين العديد الذين ساعدونى، جورج كاسيميرس **(George Kassimeris)** من جامعة فولفهامبتون **(Wolverhampton)**؛ وريتشارد أوفرى **(Richard Overy)** من جامعة إكستر، ودانيال ستاتمان **(Danial statman)** من جامعة حيفا، كما أشكر القراء المجهولين الذين اطلعوا على الكتاب فى مراحله الأولى لدعمهم الكبير لى ومعاونتهم فى إيضاح أفكارى، وكذلك مندوبى دار النشر

فى جامعة أكسفورد الذين وافقوا على نشر الكتاب وأمدونى أيضا بمقترحات مفيدة. ومن جامعة أكسفورد هناك من قضى الوقت فى عقد مناقشات رائعة عن الكتاب مثل: جون شتاين (John stein) وبيتر هانسن (Peter Hansen)، كما فعل ذلك أيضا كل من هارفى وايتهاوس (Harvey Whitehouse) وميجل فارياس (Miguel Farias) وربيكا روش (Rebecca Roache) وجاى كاها (Guy Kahane) ونك شاكل (Nick Shackel) وكاتجا ويش (Katja Wiech).

وأقدم امتنانى أيضا للعاملين بمكتبات أكسفورد- خاصة مكتبتى Taylorian, Bodleian – الذين ساعدونى فى الاستدلال على المراجع. ولقد ساعدت "كارولين كورسمير (Carolyn Korsmeryer) جامعة "بافلو" (Buffalo) كثيرا؛ فيما يتعلق بالفيلسوف الفرنسى لاكان (Lacan). أما سيث ميسلين (Seth Maislin) فقدم النصيحة فيما يخص قسم الفهارس. وممن قدموا دعما معنويا وتشجيعا سوزان جرينفيلد (Susan Greenfield) وبرنارد جيش (Bernard Gesch) وإيفا سيلهاروفا (Eva Cylharova) من جامعة أكسفورد، كما فعل ذلك اليسون (Alison) و ديفيد تايلور (David Taylor). وقامت بتصحيح بروفات الكتاب بدقة جيليان رايت (Gillian right)؛ فبذلت جهدا ممتدا لا يقدر بثمن. وختاما فإننى أدين بالكثير للفريق الممتاز من العاملين بدار نشر جامعة أكسفورد (جيمس تومبسون " James Thompson" وكيت فاركوهار "Kate Farquhar" وفيل هندرسن "Phil Henderson" وجيف نيو "Jeff New" وآخرين). وأخص بشكر متميز للمحررة التى أعدت الكتاب للنشر لاتا مينون(*) (Latha Menon)؛ لأن توجيهاتها وتشجيعها وحماسها للعلم مثلت دعما كبيرا من خلال هذا المشروع المثير للتحدى.

(*) اسم هندى مؤنث ينطق بحرف التاء فى الأبجدية العربية.

مقدمة

عن سياقات القسوة ومضامينها

رأيت فى العاصفة ليلة البارحة شخصًا جديرًا بالازدراء... كأنه
من الديدان، ومثلما قد يقتل اللاهون من صبياننا الذباب تقتلنا
فى لهوها الأرباب.

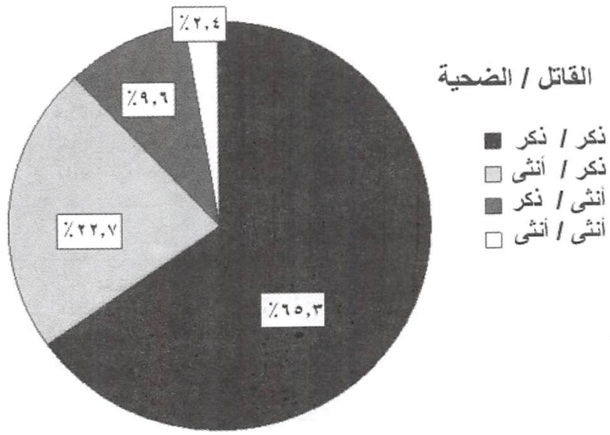
(ويليام شكسبير – الملك لير
– ترجمة د/ محمد عنانى)

عدم الاتساق المخيف فى دورة الميلاد والموت:

البشر مخلوقات تكوينها معجز، وفى وقت سبق ظهور التقنيات الطبية للإنجاب والتناسل التى ظهرت كى تعذب الناس، وأحيانًا كى تحقق الأمل لمن حرموا من إنجاب الأطفال. كان بنو آدم أعضاء فى نادى البشر بوصفهم نوعًا بيولوجيا يتكاثر فقط من خلال آلية واحدة هى ممارسة الجنس. وهناك مذهب يرى أن العمليات الحيوية الطبيعية (كدورة الحياة)؛ تفسرها نواميس الكيمياء والفيزياء، بينما عضوية الإنسان فى نادى البشر الأحياء غير مضمونة وأبعد ما تكون عن الاستقرار. فنحو ثلاثة أرباع النساء اللائى يتحقق لهن الحبل يفقدن الحمل قبل إدراكهن أنهن قد حملن. ونحو سدس حالات الحمل التى يدركها النساء تُجهض ولا تتم(١). وكما يعتقد المؤمنون؛ فإن الله قد حرم الإجهاض، لكن الطبيعة كثيرًا ما تفعل ذلك. وحتى فى داخل الرحم – رمز الأمان– نكون مخلوقات أو كيانات هشة ضعيفة تهددها وكزة أو ركلة، فهى دائمًا على حدود الموت والحياة.

وعندما يصل الأمر إلى الخروج من نادى البشر الأحياء؛ تكون الفروق والتباينات أوضح: يدخل واحد ويخرج عدد ضخم لا يعد ولا يحصى(٢)؛ فهذه الكيانات البشرية المعقدة لديها فرص أكبر للقصور والخلل وسوء الداء. وما قد يحدث لحاسبك الآلى من عطل قد يحدث لأى إنسان حتى لمن يتعدى مرحلة الطفولة أو من يصل إلى سن البلوغ؛ لذا كان من الصعب تعريف أو تحديد حالة الأسوياء صحيا، فالكمال هنا صعب المنال. وكل منا لديه ما يعيبه: بعضها عيوب عضوية جسدية أو نفسية، وبعضها واضح جلى والآخر خفى غير ظاهر، ففى نسيجنا وتكويننا "أخطاء" مهلكة ومميتة. وما تذكره الديانة المسيحية عن خطيئة آدم الأولى وما نشأ عنها من فساد امتد وزحف من جيل إلى جيل هو تمامًا ما يحدث لبنى آدم عند الكبر والشيخوخة ومعاناة الألم ثم الموت. ولقد تعرف العلم الحديث على جينات الإنسان وجعلها المقابل العلمانى لذلك؛ فالذين يحملون صفات فريدة معقدة تسبب خللاً فى أداء الجسم وتهلك الإنسان عاجلاً أو آجلاً، ويعزى ذلك إلى الإجهاد أو التوتر، وإذا ما كان الفرد من المدخنين أو شاربى الكحوليات، وإلى مقدار ما يمارسه من الرياضة. أما المشكلات البدنية والجسمانية الواضحة فى الأعضاء الداخلية بالجسم – مثل: فشل الكبد أو القلب أو السرطان، أو أى خلل فى الجهاز المناعى وأمور أخرى وراثية مثل النوبات المرضية المفاجئة أو السكتة الدماغية والاضطرابات العصبية أو الجلطات– فهى التى تسبب وتقرر النهاية للعديد منا.. وتقضى الأمراض المعدية على كثير آخرين، كما أن هناك أمورا لم يتم فهمها تمامًا، وهى التى نضعها فى خانة الأمراض العقلية مثل: الاكتئاب والشيزوفرنيا وفقد الشهوة للطعام (أنوركسيا) وما شابه ذلك. وتنمو أجسامنا وفق منظومة معيارية قياسية سوية ومتعارف عليها، لكنها قد تعطل عند مواجهة عوامل قهرية ثقيلة الوطأة لا قبل لنا بها؛ فإن ما يشكل ويتحكم فى الوجود الإنسانى هو هذا الإطار المفزع والمخيف من اللا تماثل واللا تناسق غير المحكوم فى دورة الخلق والفناء. وقد يسخر الإنسان الملحد من فكرة الإله المحب الرحيم إذا فكر فى

كل هذه الأسباب الفظيعة التى تسبب موت وفناء البشر، لكن على من يسخر أو يهزأ أن يتريث؛ لأن ما يبتكره الإنسان من مصائب يفوق ما تسببه له الطبيعة من أمراض[٣] .. وأنا أريد أن أستخدم هنا مصطلحًا شاملا واضح المعانى: أن الرجال – أكثر من النساء – هم الذين يُنزلون الأذى بالآخرين بوسائل الموت العنيف. وليس معنى هذا أن النساء لا يستطعن القتال فى الحرب أو ارتكاب الجرائم أو أن يتفنَّن فى التعذيب البشع، فهن يستطعن ذلك، لكن العنف المهلك والمميت لا يأتى إلا من الرجال[٤].



شكل (١): نسبة جرائم القتل حسب الجنس، جرائم العنف النمطية، كما سجلتها الحكومة الأمريكية عن عام ٢٠٠٥. وهذا الشكل المستدير يعرض النسب المئوية لجرائم القتل التى ارتكبها الرجال ضد الرجال (القطاع الأسود ٦٥,٣%)، والرجال ضد النساء (قطاع رمادى فاتح ٢٢,٧%)، نساء ضد رجال (قطاع رمادى متوسط ٩,٦%)، ونساء ضد نساء (القطاع الأبيض ٢,٤%). بمعنى آخر كان الرجال هم المعتدون فى نحو تسعة أعشار الجرائم المسجلة (٨٨%)، وكان نحو ثلاثة أرباع من ضحاياهم (٧٤,٢%) من الرجال. وكان ١٢% فقط من القتلة من

النساء، وأربعة أخماس من ضحاياهم (٨٠%) من الرجال.. وبمقارنة هذه النسب عن عام ٢٠٠٥ مع إحصاءات الحكومة الأمريكية عن العقود الثلاثة الماضية (من ١٩٧٦ إلى ٢٠٠٥)، وجد أن الرجال ارتكبوا ٨٨,٨% من كل جرائم القتل وأن ٧٦,٥% من كل الضحايا كانوا من الرجال. وتوجد معلومات أكثر من ذلك عن جمع البيانات وأساليب تحليلها على هذا الموقع بالشبكة الدولية للمعلومات:

http://www.ojp.usdoj.gov/bjs/homicide/homtrnd.htm#contents

ويتسم العنف بأحوال لا حصر لها من الغرابة؛ فالناس مبدعون ومبتكرون بشكل مذهل عندما يلجأون إلى إيذاء أو قتل غيرهم من بنى الإنسان. وأنت لست فى حاجة إلى القراءة عن "الماركيز دى ساد(*)" لتدرك ذلك، عليك فقط بالاستماع إلى نشرة الأخبار أو قراءة الروايات ومشاهدة التلفاز والأفلام السينمائية، أو التعرف على أحداث التاريخ، فهناك تقرير إخبارى ورد من لبنان يصف جسدًا بشريًا استخرج من تحت أنقاض مبنى دمرته القنابل بأنه "تحيل فى رقة الورق" وحتى لو افترضنا أن الطيارين الذين ألقوا تلك القنابل الماحقة لم يقصدوا بها هذه الضحية تحديدًا، فإن النتيجة واحدة: أن هذا الجسد انتهك انتهاكًا مروعًا [٥]. وهناك رواية أخرى عُرضت سينمائيًا تصفُ قاتلاً متعدد الجرائم بأنه يسلخ جمجمة ضحيته وهو حى ليغرف ملعقة من مخه ويطهيها[٦]. أما عن صفحات كتب التاريخ وسجلاته التى من المفترض أن تكون أقل إثارة؛ فهى تمثل مستنقعات من الدماء تموج بنماذج من المعاناة المريرة: أطفال تبتر أطرافها وتُقطع أوصالها وبالغون تُسلخ جلودهم أو تنزع أحشاؤهم ونساء يغتصبن حتى الموت، ورءوس مقطوعة لمن قاموا بتفجير انتحارى وجدت بين أشلاء ضحاياهم، وأجنة انتزعت من أرحام أمهاتهم بعد القتل، وتشريح أجساد المسجونين الأحياء أو حقنهم بميكروب معد.

(*) هو كاتب فرنسى (١٧٤٠-١٨١٤). اشتهر بهذا اللقب وسُجن لسنوات طويلة بسبب تعذيبه لعدد من النساء؛ لذلك نسبت إليه أمراض شهوة التعذيب المسماة "السادية".

وبعض الناس يُحرق أو يوضع فى غلايات أو يقطع إربا أو يدفن حيا أو يمزق بالحيوانات المفترسة أو الآلات. وبعض آخر يتم شنقه أو إغراقه أو خنقه، وقد تنزع الأظافر أو تُقيد الضحية أو تعلق وتترك لتموت. أو تفسخ وتنسف بقنبلة ذرية أو لغم أو أى نوع من المفرقعات التقليدية والمألوفة.

مشكلة شرور الإنسان :

إن الذين يؤمنون بوجود إله رحيم يفترضون أن الصلاح والطيبة فى الناس – مثل المحبة والرحمة والكرم – تكفى بتدبير وتقييم القدرة الإلهية؛ كى تغطى على ما يقترفه الناس من شرور تجاه بعضهم بعضا، فسوف يعتدل الميزان ويُسوى الحساب فى مكان ما.. وقد يستعصى فهم ذلك إذا ما نظرنا إلى قدر الشرور والقسوة التى تلحق بنا أو نمارسها، إلا إذا تخيلنا وجود مخلوقات غريبة من عالم آخر تفعل ذلك، فعلينا ألا نواجههم وعلينا أن ندعوا بألا يلتقونا.. ونحن بالطبع قد نثق فى عدالة السماء بعد الموت وفى عقاب جهنم للأشرار؛ وفى هذا مواساة وراحة إلى حين، وربما تُطرح بعدها تساؤلات كثيرة لا نستطيع الإجابة عنها.. ومن هذه التساؤلات: " لماذا لم يمنع الله العلى القدير والودود عباده من أن يكونوا قساة فى المقام الأول؟".

لقد أدركنا الآن أرضًا مشتركة صالحة للنقاش، فهذه مشكلة الشر التى تناهض وتبدد الدين– خاصة عند أهل الكتاب والموحدين الراسخين عقائديًا ومن يصرون على الإيمان بالله العليم الحميد على مدى قرون مديدة، ولقد شوشت هذه المشكلة فكر بعض المؤمنين، وأدت بهم إلى استنتاج أن الجنس البشرى نوع فاسد جدير بالازدراء والاشمئزاز، خسيس بطبعه، ولا يناسبه سوى السياط والسلاسل والأغلال. ورأى بعض آخر اللجوء إلى لغة الغامض والملغز من أسرار الدين موقنين بأن المعاناة من الشرور؛ ضرورية للتطور والسمو الروحانى: فبعض

تناسبهم البيئة الأكاديمية السائدة، وبعض آخر يميل إلى أن الاكتواء بنار الأفعال الشريرة[٧]؛ باعتباره ضرورة للتطور.

وهناك تعبير عن مشكلة الشر صاغته بطلة شريرة في إحدى روايات "الماركيز دى ساد".. (رواية جوستين وبطلتها القاتلة "الملحدة" مدام "دى بوا") إذ تقول:

"وأجابت هذه المرأة الخطيرة: أعتقد أنه لو كان هناك إله لما وجد الشر على الأرض. وأعتقد أن ذلك قد يكون ترتيبا بإرادة من الإله ... وقد كان يستطيع أن يمنعه... وأنا لدى هذا التحدى وأفضل أن أكون من الملحدين"[*] [٨].

القسوة إذن هى خلاصة شرور الإنسان وأصله[٩]، ونحن ندين ونستنكر الإهمال والسرقة ونعبر عن غضبنا على الكذابين والنصابين وتفزعنا بعض الممارسات الجنسية المارقة من الآخرين، ولكننا ندرك أن ما نسميه انحرافًا أو سوء تصرف؛ قد لا يصفه آخرون بهذا الوصف.. أما القسوة فتحمل بين طياتها شأنا يرتبط بالمبادئ والتعاليم الأخلاقية لا يمكن تجاوزه أو مناهضته، فالناس فى جميع أنحاء العالم تتفاعل مع القسوة بشيء من الرعب والغضب والحزن والرثاء والاشمئزاز تجاه وقائع الأفعال الوحشية. وكما سوف نرى؛ فإن الفزع قد يتشتت أو يكون محظورًا فى بعض الأحوال غير أنه من الواضح أن الأحكام الأخلاقية التى تثيرها هذه الأفعال؛ تعتمد على معايير واحدة تحكمها فى كل الثقافات المختلفة. ومبررات ذلك، والتى تبعث على أشد إدانة لأعمال القسوة، هى وضع معاناة الضحايا الأبرياء الذين لا حول لهم ولا قوة، والتعذيب بلا مبرر، والتلذذ والاستمتاع بذلك من جانب مرتكبى هذه الجرائم.

(*) ترجمت عبارتها "أن أكون من الملحدين بشيء من التصرف.

وعندما نفكر فى القسوة؛ تحضرنا الأفعال الأشد خبثا وشرا: السادية العجيبة الغريبة لدى مرتكبى سلسلة من الجرائم، أو الجرائم التى تتمثل فورا كنموذج من جرائم القتل الجماعى فى الحروب. وأحد الأمثلة على ذلك هو إحدى مآسى ضياع حقوق الإنسان فى القرن العشرين (وإن لم تلق ذيوعا)؛ إنها الصراع الداخلى فى جواتيمالا الذى استمر ثلاثة عقود ونصف العقد. والذى يعتقد أن اثنين وأربعين ألفا من البشر قتلوا فيه. وقد ترى أن الناس يموتون باستمرار، خاصة فى الحروب الأهلية وفى أحوال العصيان والتمرد السياسى (ربما فى الدول الأقل تحضرا من بلادنا(*) على وجه الخصوص).. هذا صحيح لكن ليست العبرة بالأعداد ولكن بالطريقة والكيفية التى فقدوا حياتهم بها.

إن اعتقاد الجيش أن جماعات "المايا"(**) حلفاء طبيعيون لعصابات المقاومة؛ أدى إلى فظاعة انتهاك حقوق الإنسان فيما ارتكبوه من جرائم ضدهم. وكان فى ذلك مظهرا للقسوة البالغة والعنصرية التى أدت إلى القضاء على مجتمعات كاملة من شعب "المايا"- ومنهم الأطفال والنساء والشيوخ- بطرق وحشية أثارت الضمير الإنسانى المراعى لمبادئ الأخلاق.... وهناك شواهد فى معظم المذابح على أعمال بشعة

(*) تشير الكاتبة إلى إنجلترا والدول الغربية عموما.

(**) هى جماعات من هنود أمريكا الجنوبية يسكنون مرتفعات فى "جواتيمالا" فى أراض تمتد حتى المكسيك، وكانوا - فيما سبق - يملكون أراضى فى المكسيك وجواتيمالا وهندوراس البريطانية والسلفادور وأماكن أخرى فى الجنوب، وحضارة جدودهم بلغت ذروتها فيما بين عامى ٢٥٠ و٩٥٠م، وتعد من أكثر الحضارات تقدما فى أمريكا الجنوبية.

وشائنة سبقت أن صاحبت أو أعقبت موت الضحايا: أعمال مثل قتل الأطفال بالضرب المبرح ضد الحوائط أو الإلقاء بهم أحياء فى حفر تحوى جثث القتلى، أو بتر الأطراف وإشعال النار بهم وهم أحياء، أو حبس الناس بعد التعذيب عدة أيام حتى الموت، وفتح أرحام الحوامل من النساء... وأفعال وحشية أخرى كثيرة، مما أدان أخلاقيًا وشوه سمعة مرتكبى تلك الجرائم ومن دبروها أو أمروا بها أو من احتملوا رؤية هذه الأفعال(١٠).

ويجد معظمنا أنه من الصعب أو المستحيل تخيل شعور الإنسان وهو يرتكب مثل هذه الجرائم ضد بشر من الأحياء، مثلما يصعب علينا فهم سادية القتلة متعددى الجرائم مثل: بيتر كيرتن "Peter Kurten" الذى أُطلق عليه اسم "مصاص دماء مدينة دوسلدورف "Dusseldorf"، وإيان برادى "Ian Brady" الذى قتل عددًا من المغاربة(١١) البربر، لكن القسوة تشمل أمورًا أخرى كثيرة غير هذه الفظائع المقززة؛ فالمشاحنات بالمدارس وأماكن العمل والنقد الحاد الذى يُوجه للمشاهير والساسة فى وسائل الإعلام، والانتهاكات الأسرية أيضًا من الممكن أن تكون بالغة القسوة أو حتى مهلكة. وهذه الأمثلة مألوفة وتشكل جانبًا مؤلمًا من الحياة اليومية. ومن النادر ألا يكون أحدنا عرضة لتلقى بعض هذه الأشكال من القسوة المجتمعية: من يقطع استرسالك فى الحديث بتعليق حاد أو ضحكة ساخرة مكبوتة، أو يرميك بنظرات جانبية متمرسة تدمر كبرياءك. وفى الواقع، قليل منا من يتجنب أن يكون هو نفسه قاسيًا بهذا الشكل.

عندما نتدبر ذلك، قد لا نرضى عن هذه النفوس المؤذية البذيئة، لكننا على الأقل نأمل فى أن نفهم لماذا نحن قساة. قد يكون فى حدود الإمكان فهم ممارسات

الشرور والأضرار المجتمعية مثل: الإهانات اللفظية أو المشاحنات أو حتى إساءة التعامل داخل الأسرة، لكن جرائم القتل فى جواتيمالا لن تدخل فى هذا النطاق وتحت هذا التصنيف؛ ذلك لأنها بالتأكيد شرور شاذة ومذهلة، فهى شىء بغيض مقيت لا يرتكبه إلا إنسان مجنون أو وحش آدمى منحرف السلوك، ولهذا نلقى بهذه النفوس الشريرة والأمور المروعة بعيدًا حتى لا تلوثنا وتدنسنا.

اثنان من الادعاءات عن القسوة:

سوف أناقش فى هذا الكتاب اثنين من الادعاءات الشائعة التى يتبناها الباحثون فى مجال الأفعال المهلكة التى يرتكبها البشر؛ والتى يبدو أن المجتمع يغض الطرف عنها. أول ادعاء هو أن القسوة ليست شأنًا يخص المجانين أو من يولد شريرًا بالفطرة؛ بل من الأرجح أن كثيرا من السلوك الذى يتسم بالقسوة سلوك منطقى نابع من العقل، أى أنه يُرتكب لأسباب تبدو وجيهة وسليمة فى رأى مرتكبها وقت الفعل. فمن يرتكبها أناس مثلى ومثلك. وحتى فى الحالات بالغة القسوة يدرك مرتكبوها ماذا يفعلون تماما. وبعض منهم، بعدما تسنح لهم الفرصة بإعادة التفكير، يتمسكون بشدة بالأسباب التى دفعتهم لهذا الفعل. وفى كتاب لورانس ريس "Laurence Rees" عن مدينة أوشفيتز(*)، يحكى على لسان طبيب بيطرى شارك فى الحرب العالمية الثانية أنه ساعد النازى فى إطلاق النار على اليهود عام ١٩٤١، وما زال يعتقد أن ما فعله منذ ستين عامًا هو الشىء الصواب والصحيح[١٢]. أما عندما يقع الإيذاء العنيف واللا منطقى فى جرائم القتل مثلا التى يرتكبها مختلون عقليًا، ونفكر نحن فيما فعلوه، نستبعد وصف هؤلاء بأنهم قساة؛ لأن منطقهم مشوش ومضطرب، فالقسوة تنطوى على التعمد والاختيار الحر والمسئولية الأخلاقية لدى الفاعل.

(*) مدينة صناعية فى جنوب بولندا اتخذها الألمان موقعا لأحد معسكراتهم فى أثناء الحرب العالمية الثانية.

والادعاء الثاني الذي يناقشه هذا الكتاب هو أن الفرق والاختلاف بين من يطلق الإهانات اللفظية في وجه أحد المهاجرين ومن يضرب المهاجر حتى الموت؛ هو اختلاف في درجة الإيذاء وليس اختلافا في نوع القسوة. وليس معنى هذا بالطبع أن يستوى الاثنان.. فمن الواضح في حالات الوفاة أن هناك اختلافا كبيرا بين المظلوم الذي يذرف الدمع بلا حدود ومن يقاوم الانخراط في البكاء أثناء الجنازة، إلا أن كليهما واقع تحت الانفعال أو الإحساس نفسه. ويمكننا أن نتخيل في مثل هذه الحالة سلسلة متصلة من درجات الحزن: لا حزن، حزن طفيف، أو حزن مهلك للروح.. وعلى هذا المقياس والتدرج نضع هذين المكلومين.

وبالمثل يمكننا تخيل مقياسًا للقسوة، من أكثر الأفكار والأفعال اعتدالاً إلى أكثرها تهورًا[١٣]؛ أي أنه على نهاية أحد الأطراف تقع نقطة الفصل بين الذات و"الآخرين" - والآخر هو الفئة الأدنى ممن لا ينتمون لنا والتي تختلف عن "نحن"، الفئة الأعلى التي ننتمي إليها- وأقل ما يطلق على ذلك هو قولبة الآخر والتحيز ضده وفق نوع من النمطية يتبعها السخرية الظالمة والإيذاء اللفظي المُوّجه لأفراد الفئة الأدنى من "الأغراب" المختلفين. ولو استرسلنا في هذا التسلسل نصل إلى الإهانات اللفظية الشائنة الفظيعة والدعاية الفاضحة، والتنميط العدواني، وكل أنواع وأشكال النبذ من المجتمع، ثم نجد شائعات عن جرائم وأفعال وحشية ارتكبها هؤلاء "الغير"، ثم عنف بدني متزايد ضدهم، وضد ممتلكاتهم وكل ما يرمز إليهم. ومن وقت لآخر نصل إلى الحالات النادرة التي يُدمر فيها أناس نطلق عليهم "هم" ويُقضى عليهم تمامًا ببساطة؛ لأنهم "الغير" وليس بسبب أي فعل فعلوه أو لم يفعلوه.

وهذا المسلسل الخاص بتصعيد الكراهية والعدوانية يشار إليه بعبارات كثيرة منها: تملكه الشيطان، مات لديه الإحساس بالمجتمع وتبلد أو تجرد من الصفات الإنسانية.. وبهذا يتجمل الفعل الشائن[١٤]، لكنني سوف أستعمل بدلاً من تلك العبارات مصطلح "عزل الآخر" الذي يعبر عن حقيقة خلق هُوّة وفجوة اجتماعية

من تبلد الحس لا يمكن تخطيها بين من هم "نحن" وبين "الآخرين". وبينما أترك الآن عبارة "تملكه الشيطان" التي لها صدى ديني، أو إيحاءات "مات إحساسه بالمجتمع" وأي مفاهيم أخرى يثيرها وصف "تجرد من الصفات الإنسانية" وكل محاولات تجميل الفعل المؤذي، تبرز حقيقة أن هذه عمليات عدوانية يرى الفاعل فيها ضحيته كحيوان أو مادة غير عضوية لا تحس ولا تشعر، فهي نوع من الجماد. و"الإقصاء" مثل: البلية أو إنزال الأذى، يتألف من عمليات بيولوجية وذهنية متعددة تحدثها الجينات الموروثة، والخلفية الشخصية، والظروف الاجتماعية. ويختلف الأفراد في تقبلهم وتأثرهم بهذه العوامل والظروف. واختلاف درجات التأثر هو ما يجعلنا بشرًا متنوعين(١٥).

ومعنى هذا، فيما يتعلق بالقسوة، أننا عندما ننأى بأنفسنا عن حدود الوحشية – مهما كان هذا شيئًا مريحًا– فهذا خداع للنفس، فالهوة والفارق بين "المواطن الصلب" الذي يقاوم الشر ومرتكب الفعل الشرير؛ قد تكون مطمئنة لكثير منا في معظم الأحوال، لكنها هوة لا يمكن تجاوزها، وصدع لا يمكن رأبه في كثير من الحالات.

"عزل الآخر ومسلسل الاستطراد في فخ التطرف":

> **قال من يبشرون بالمسيحية: "ليس لكم الحق في أن تعيشوا بيننا كيهود. وجاء بعدهم الحكام العلمانيون الذين تبعوهم فقالوا: "ليس لكم الحق في العيش بيننا". ثم قرر النازيون أخيرًا: "ليس لكم الحق في الحياة".**
>
> (من كتاب راءول هلبرج "**Raul Hilberg**" إهلاك اليهود الأوروبيين)

وأساس "الإقصاء" (التطرف) عند البشر عمومًا هو الانحياز إلى المتعة والرغبة فى البعد عن الألم النفسى. فنحن نسعى إلى، ونفضل دائمًا، الأفعال أو الأحداث التى تبعث فينا السرور ونتجنب الأشياء التى لا تبعث على المتعة(١٦). ومما يؤسف له، فقد يؤدى ذلك بنا إلى ما أشار إليه تشارلز ماكيه " Charles Mackay"، الذى يبحث فى ويكتب عن "حماقة الإنسان"، على أنه "اعتقادنا المضلل فى أهميتنا فى نظام الكون وميزان الخلق"، فنحن نبالغ فى مقدار عظمتنا ونقلل من شأن الآخرين ونتجاهل الحقائق المؤلمة والموجعة التى تخصنا ونبالغ فى الحقائق المزعجة عنهم(١٧). ويقرر علماء النفس أن إحدى الوسائل التى نفعل بها ذلك هى "نسب الصفة والفعل لفاعله خاصة"، وبهذا تختلف أحكامنا عما إذا كان الحكم على سلوك معين، غير خاص بشخص ما، أو يكون حكمنا "بأن شخصا ما لا يصح أن يكون فى هذا الموقف" متوقفا على إذا ما كنا نحب أو لا نحب هذا الشخص، وإذا ما كنا معجبين بهذا السلوك أم لا(١٨). ونحن دائمًا (فيما يهمنا ومن يعنينا أمرهم) نرى أن النتائج التى ترضينا- كالحصول على وظيفة مثلاً- قد تُعزى إلى شخصيتنا الرائعة والمدهشة وإلى مؤهلاتنا وكفاءتنا الباهرة وقدرتنا على العمل الشاق.... إلخ. أما النتائج السلبية التى لا ترضينا مثل عدم الحصول على الوظيفة؛ فسببها، كما نتوهم، هو سوء الحظ أو حقد الآخرين، أو الشعور بوعكة مفاجئة أو أن يكون هناك تحيز، أو يكون من بيده القرار مزاجه متقلب، أو يكون السبب هو غباء الممتحنين الذين أجروا المقابلة....إلخ. وهذا الخداع "الوردى" للنفس يحمينا من الفكر غير المريح والمزعج بأننا مسؤلون عن النتائج غير المرضية لسعينا وأعمالنا، ويعطى هذا السلوك الجماعة، كما يعطى الأفراد أيضًا، غطاء معنويًا يحميهم من لوم وتقريع الذات الذى يسبب الألم النفسى(١٩).

أما بالنسبة إلى من لا نحبهم من الناس؛ فالصورة تختلف، فنحن نرى أن حظنا السيئ هو سبب حصولهم على فرص الارتقاء، أما أخطاؤنا غير المقصودة إذا ما ارتكبوها هم؛ فهى دليل وبرهان على سوء نواياهم وحقدهم. وعندما ننسب

البذاءة وسوء التصرف للأشخاص بذواتهم أو للحقد المتعمد بدلا مما يمليه الموقف نفسه، فنحن نكون بذلك قد انزلقنا إلى ما أُسميه "فخ التطرف" أو الاعتقاد بأن هناك "ماهية أو جوهرا" مختلفا لكل إنسان، وبذلك نتصور أن كل فرد له شخصية جوهرية هي لب كيانه وهي التي تحكم معظم سلوكياته إن لم يكن جميعها، وهي التي لا يمكن تغييرها أو تحويرها كأنماط سلوكية[٢٠]. فعندما يُسيء الإنسان التصرف يرجع هذا إلى الخطأ أو سوء التقدير؛ فالتصرف يمكن إصلاحه، أو هذا هو ما نفترضه، لكن السلوكيات، في الواقع، من الصعب جدا تغييرها؛ لذا عندما يأتي الناس الذين نكرههم بسلوك بعينه نرى أن ذلك بدافع من شخصيتهم السيئة، ونحكم عليهم بأنهم أقل قدرة على التغيير (أي أنهم غير قادرين على تقويم أنفسهم وإصلاح أخلاقهم)، وبذلك يكونون أكثر مسئولية عن سلوكهم "القذر". وهكذا نؤكد اختلافهم عنا وندفع بالبذاءة التي تخصهم بعيدا عنا لمسافة تتيح لنا الراحة النفسية، كما ندفع معها بهؤلاء الأشخاص "الآخرين" [٢١]. والإنسان الذي نصنفه على أنه "الآخر" هو شخص جدير بالإهمال ولا نلاحظ تعقيداته وعقده بعد ذلك؛ وكأنه كائن كارتوني شرير، تجب مضايقته واضطهاده وربما إعدامه.

ومن السمات المؤذية في طبائع البشر ميلهم إلى تصنيف "الآخر" ليس فقط في أوقات ومجريات المحن الكبيرة؛ ولكن كرد فعل على تحديات ضئيلة وأمور بسيطة في محيطنا الاجتماعي قد نعتبرها - نحن- تمس مقامنا أو كرامتنا وإحساسنا بالاعتزاز والفخر؛ لذلك فإن معظم حالات الاتجاه إلى عزل "الآخر"، كما يرى بعض البالغين الأسوياء، هي حالات هينة ضئيلة لا توجب ما ينشأ عنها من خلفية تسبب الخلل في التفاعل الاجتماعي؛ وقد نكون نشأنا وتربينا على أن نتعامل مع الآخرين كما نريد منهم أن يعاملونا، لكن من منا يطبق هذا المبدأ دائما؟ إننا ما زلنا نميل إلى، بل نريد، إنزال الضرر بالغير - وأحيانا يبلغ الضرر درجة الإبادة الجماعية - بينما الصراع صغير ومباشر، ذلك فقط لأننا تحكمنا معتقدات تجاه غيرنا من الناس تدعونا إلى اعتبارهم طائفة أخرى تستحق الكره.. نحن لسنا

بحاجة إلى لقائهم، ونحن لا نعرف عنهم سوى القليل ومن مصادر كان يجب علينا أن نشك فى نزاهتها؛ وعلى الرغم من هذا فقد نكون متأهبين لقتلهم بطرق مفزعة بسبب ما نعتقده نحن عنهم والدوافع التى تدفعنا كى نؤذيهم.

ومشكلة القسوة هى أنها قد تصبح تجسيدا عمليا للتطرف و"الإقصاء" فى أى ظرف. وهناك رأى - غاية فى التطرف- يرى أن القسوة لو كانت تشكل سلوكًا ينشأ عن أحوال وظروف معينة، فإن الصدفة وحدها هى التى تمنعنا من أن نصبح من مرتكبى الجرائم والأعمال الوحشية. ويعضد كريستوفر براونج "Christopher Browning" هذا الرأى فى كتابه "رجال عاديون" الذى يصف فيه الفظائع التى ارتكبها رجال الشرطة الألمان فى أوروبا الشرقية فى أثناء الحرب العالمية الثانية (وبشكل ما يعتمد ذلك على مقدار سعادة الإنسان وهو يطلق على نفسه صفة "رجل عادى" بعد أن ينجز هذه الفظائع بنجاح)[٢٢]. وقياسًا على هذا فأنت أيضا يمكن أن تكون قاتلاً مثل واحد من هؤلاء الناس "العاديين" الذين عاشوا فى أوروبا النازية. (أو فى البوسنة، أو رواندا أو أى من هذه الأماكن المألوفة التى تقع فيها المذابح الجماعية)، وقد تكون ممن يقدمون يومًا ما، أو أحيانًا يومًا بعد يوم، على قتل جيرانهم "العاديين"[٢٣]. فأنت أيضا يمكنك أن تكون قاسيًا، وفى بعض الأحوال قد تبلغ قسوتك درجة فائقة تماثل فظاعة جرائم "تيمورلنك" أو "دراكولا" أو صدام حسين.

وبدلاً من أن يصدمنا هذا الاحتمال وما يثيره عن ضحالة وهشاشة سياج الأخلاقيات لدينا وضعف صلابتنا أمام الشر، سوف نذهب إلى النقيض ... على أقصى درجة فى الطرف الآخر. فبدلا من أن نعتبر القسوة البشرية سلوكًا يمكن للناس الطيبين ذوى النفوس السوية مثلنا أن يتورطوا فيه أحيانًا، علينا أن ننظر إلى القسوة وكأنها شىء متأصل فى طبيعة الأشرار لا يمكنهم تحاشيها أو الهروب منها. مثلها فى ذلك مثل احتياجهم للتنفس، وبهذا الاعتقاد نبعد عن أنفسنا احتمال السقوط فى الشر باعتباره شيئًا لا يفعله إلا "الآخرون".

والإنسان الذى يتصرف بقسوة قد يفعل ذلك لأسباب نستطيع التعاطف معها، دون إدانة لهذا الفعل. ومثل هذا الشخص قد يظل، فى اعتبارنا، "واحدًا منا". ولو كانت ميديا "Medea" فى مسرحية يوروبيديس "Euripides"، أو أوريستيس "Orestes" فى مسرحية أسخيلوس "Aeschylus" (وهم من قاموا بقتل أفراد فى عائلاتهم) أشخاصًا لا يتم التعاطف معهم بالمرة، إذن فلن تكون المسرحيتان محل إعجاب جمهور المسرح الذى ما زال يُفتن ويُسحر بهما حتى الآن. ونحن نشاهد هذه الشخصيات ونراهم كبشر على الرغم من سلوكهم الوحشى وشناعة فعلهم(٢٤). وعلى الرغم من ذلك؛ فإننا فى الواقع نرى الشخص القاسى "ليس مثلنا"؛ لأنه لن يمكن إصلاحه، وهو لن يستطيع التحول عن خطيئته، فقسوته لها فعل انعكاسى يرتد على فاعله مثل: لدغة الأفعى التى تسرى فى جسد الضحية، والبحث عن أسباب تُبرر حكمًا فى مثل هذه الحالات جهد بلا عائد ولا جدوى منه، فأنت تلجأ رأسًا إلى اعتقادك بأن مرتكبى أى فعل شائن أو وحشى هم نوع خاص من البشر وسلالة مختلفة عنا، لهم حامض وراثى خاص بهم، ولا يناسبهم سوى الكره والازدراء وأن يُشجبوا بقوة، ونحن نقاوم ونمتعض ونستاء حتى من محاولة فهمهم.

وتشهد الحكايات عن الأعمال الوحشية الفظيعة فى أثناء الحروب على أن مذهب " إقصاء الآخر" شىء سهل ومغر، لأن هذه الحكايات تصور قسوة بالغة ومقززة وعارية من أى مشاعر أو أحاسيس، ولا توجد محاولة شرح أو تفسير: لماذا يلجأ مرتكبو هذه الأفعال لمثل تلك الجرائم وبهذه الكيفية. وهناك مثال على ذلك وهو حكاية عن ضابط اقتحم مسكنًا وقيد رجلاً واغتصب زوجته أمام عينيه وبعد ذلك قام بذبح الزوجة وأخرج قلبها ثم قلاه فى مقلاة وأوشك على أكله(٢٥).. فماذا كان دافع هذا الضابط لهذه الجريمة الشاذة؟ لم يفسر لنا أحد ذلك، ولأن الناس مستعدون دائمًا لتقديم شروح وتفسيرات؛ فإن غياب أى محاولة هنا لاستخدام لغة "الدوافع" تصبح شيئًا مزعجًا، كى ترى بنفسك الهدف المقصود والتأثير المنشود من

هذه الحكاية[٢٦] المرعبة: فطعم لحم بنى آدم ليس شيئا محببا أو مألوفا، وهذا الضابط المجهول الذى رسم لنا هذه الصورة المفزعة من الجائز أن يكون أى إنسان، فهو يمثل شريحة كبيرة من الناس، فهل من المستحب حقيقة أن تكون كل تلك الشريحة من أكلة لحوم البشر؟ بالطبع لا! إن هذه المشاعر المزعجة، ومن ثم بشاعتها التى لا تفسير ولا علاج لها، هى الرسالة المقصود توصيلها من حكايات الحروب هذه.

والتعميم والتضليل والتركيز على الأفعال الحمقاء والطائشة هى أدوات مفيدة ونافعة عندما ننظر للعدو على أنه "الآخر" (الشرير). والعدو الذى يشرح ويفسر أفعاله يخاطر بأن تكون له وجهة نظر مقبولة منا على أن شروره شيء منطقى، أما العدو الذى لا نجد تفسيرا لأفعاله؛ فإنه يعفينا من أى هموم أو أعباء تتعلق بمبادئ الأخلاق.. وقصة أكل لحوم البشر هذه حكاها شخص من ليتوانيا إلى أحد الألمان عام ١٩٤١، وتم تحديد هوية هذا الضابط (الذى فعلها) وعرف أنه يهودى. وتنتشر مثل هذه الحكايات عن الأفعال الوحشية فى جميع الأرجاء وعلى كل الأوجه[٢٧].

ويقدم فخ "ماهية وجوهر" الشر لدى الآخر؛ مبررا يبعث فينا الرضى النفسى، فهو يحصر الشر والقذى عنده ويحجبه فيحفظ لنا صورتنا السارة والمبهجة عن الذات كأناس عندنا ما يبرر أفعالنا ويبرهن على أننا نتصرف وفق دوافع منطقية. والجانب السيئ فى ذلك هو أننا نتصور أن الشر أو القذارة" عنصر ثابت لدى "الآخر" ولا يتغير؛ وفاعله شيطان غرضه الأوحد هو التدمير. وهذا بالفعل يمنع أى محاولة للفهم؛ لأنه يقدم القسوة على أنها شيء غير إنسانى، بل هى فى الأساس قوة شريرة لا قيمة ولا لزوم لتفسيراتنا لها، وإذا اعتبرنا القسوة جزءا من طبيعة بعض البشر التى لا تتغير؛ فإن ذلك يضعنا أمام اختيارين: التخلص من الناس القساة (الأشرار) أو إزاحتهم تماما.

منافع الشر:

ماذا سيكون مصيرنا الآن دون الهمجيين

فهؤلاء كانوا يمثلون نوعًا من الحلول لمشكلاتنا.

(من قصيدة "كفافى[*]" فى انتظار الهمجيين")

يشير دافيد فرانكفورتر "David Frankfurter" فى كتابه عن "خرافات المؤامرة الشريرة"؛ إلى أن كلمة "شرير" مثل "قاس" تستخدم كى تنأى بمن تصفه عن جماعة الأسوياء، وكى ندفع بعيدًا بكيانات ليست مثلنا ولا نريد أن نكون مثلها[٢٨]، حتى لا توجد مع من يماثلنا من الأسوياء. وعندما نطلق كلمة شرير على شخص أو كيان ما، فإن ذلك لا يعادل وصف هذا الشيء أو الشخص بأن لونه أحمر أو أنه "بطيء" أو "نعسان" مثلاً، ذلك لأن كلمة "شرير" تحمل بين طياتها إيحاءات أخلاقية سيئة ومحرجة وهى عمليًا وبالفعل تدعى وتزعم الآتى:

١- إن هذا الكيان معاد ويهدد وجودنا وشخوصنا.

٢- إننا لا نقوى على هذا الكيان فهو يتفوق على سلطتنا وقوتنا وقدرتنا على التفاوض، فلا نستطيع أن نفعل شيئًا يجعله يغير من سلوكياته.

٣- إن هذا الكيان ليس مثلنا بالمرة، وعلينا عدم الاقتراب منه بوازع من الرأفة أو التعاطف، مثلما نتحاشى طاعونًا أو زلزالاً؛ ففى أحسن الأحوال

(*) الشاعر قسطنطين كفافى "Constantine Kavafy"، (١٨٦٣-١٩٣٣) شاعر يونانى سكندرى المولد والإقامة، عاش فى مصر (بالإسكندرية) حتى وفاته ولم يشتهر دوليًا ولم تُعرف أشعاره إلا متأخرًا عندما تُرجمت من اليونانية إلى الإنجليزية عام ١٩٥٢.

لا جدوى من ذلك. وفى أسوأ الظروف فإن خطره مهلك ومميت، ونحن لا يمكننا تفسير سلوكه مثلما نفسر أعمالنا.

٤- إن هذا الكيان ليس قوة غير عاقلة من قوى الطبيعة، كما هى الحال مع الطاعون أو الزلزال، (بل إنه ربما يكون قوة خارقة للطبيعة)، فهو يختار التصرف كما يريد لأن هدفه هو الإيذاء والضرر والتدمير، إذن فهو مسئول أخلاقيا عن أفعاله.

٥- ولأن التهديد الذى يمثله هذا الكيان تهديد قاس وشديد؛ فلدينا ما يبرر اللجوء إلى أن نُبطل أو نقضى على هذا التهديد بأى وسيلة ممكنة.

ويؤكد "دافيد فرانكفورتر" أيضا أن تصنيف أى فرد على أنه شرير؛ يخلق "حاجزًا واضحًا تكون بعده أفعاله لا تستحق الاحتواء ولا تستدعى التعامل معه بشيء من الشفقة[٢٩]، كما تمنع أى محاولة للتفسير؛ لأن أفعاله موضع اتهام ومدانة وفق مبادئ الأخلاق.. فاجتياز الحاجز الذى بيننا "نحن" وبين "هؤلاء" يمثل تهديدا لنا حتى إن كان مجرد "فكرة" ترد على الخاطر.

لذا يجب علينا الحذر وأن نُفرق بين "التعاطف" و"التعامل" مع هؤلاء، فنحن لا نرغب فى الاقتراب من الشخص الذى نسميه "شريرًا"، وحتى عملية التعاطف مع هؤلاء قد تجعل أفكارنا ومشاعرنا مماثلة لأفكارهم وأحاسيسهم، وحتى إن امتنعنا عن تقمص أدوارهم؛ فلن نفلت من تأثير الأفكار الشائعة فى علم النفس وبالذات تلك التى تقول إن الأشرار هم بالفعل أدوات وعوامل إيذاء مسئولون عن أفعالهم، ومن ثم فهم (حسب قانوننا الأخلاقى) لا بد أن يعاد تسكينهم فى منطقة غير مرغوب فيها[٣٠]، وبالفعل تكون وسائلهم ومسئولياتهم أكبر من مسئوليتنا... لماذا ؟ لأننا نستطيع دائما أن نجد الأسباب التى تبرر أعمالنا نحن وأن نجد الأعذار

التى تمنحنا حق التهاون أو التساهل الأخلاقى فيما يخص سلوكنا السيئ (وهذا ما نأمله دائمًا). لكن الشر لا يمكن فهمه، ولا توجد هناك - ولا يمكن أن توجد - أسباب للفهم، ولا مجال لأى تساهل أخلاقى بالنسبة إلى الأشرار. وفى الوقت ذاته، فالشر قوة حاقدة نشطة يتحتم أن تُدان لأنها تنتشى وتسعد بتدمير الغير دون أى خوف أو تأنيب من الضمير أو وازع من التلطف، وهذا يبرر الثأر منها. ومرتكبو الشرور أدوات حاقدة وحرة فى تصرفها؛ ما يجعلنا نحن البشر الذين نميل إلى تبرير كل شىء لا نملك هذه الحرية. وقد يتعرض الأشرار للوم أو البغض أو الإبادة حتى دون ذنب، ذلك لأنهم بحق ليسوا من البشر، ولم يعودوا منتمين لبنى الإنسان.

ويمنحنا هذا الفكر وسيلتين يمكننا بهما "عزل" أعدائنا "الأغيار". يلجأ الأسلوب الأول إلى استخدام ألفاظ خاصة بهم مثل: "حاقد"، "خائن"، "خبيث"، عندما نتكلم عن السحرة والجواسيس والعملاء السريين والعفاريت والشياطين والأعداء، باعتبار هؤلاء جميعًا يقصدون تمامًا الإيذاء الذى يمارسونه. أما الأسلوب الثانى فيشير إلى تشبيههم بالقوى "المهلكة" و"الماكرة" و"المفسدة" التى ترمينا بالضعف والمرض والموت.. هم حيوانات خطيرة، أورام خبيثة كالجراثيم وما تنقله لنا - وكلها تدمر بلا تفكير أو تعقل لأن هذا من صميم طبيعتها[٣١]. ولعل من التناقض أن نتخيل أن عدونا قد يكون عامل تدمير أو لا يكون، أو أنه قد يكون خبيثًا وماكرًا لكنه ليس هو وسيلة التدمير، واللغة التى نفهمها هنا هى ضرورة أن نستخدم كلا الأسلوبين لعزل الغير وتحقير "الآخرين".

وعلى الرغم من هذا التناقض؛ فقد تنجح هذه الأساليب والوسائل فى تحقيق الغرض منها، ويبدو أن كثيرًا من مرتكبى جرائم القسوة لا يفهمون هذه المسألة وأساليبها، ومن يفهمون قد يرفضونها باعتبارها "مجرد كلام"، ويتقبل مرتكبو الجرائم عددًا من العبارات والأساليب التى تكرس "عزل الآخر" دون تحليل فكرى

متحذلق (إلا إذا كانوا شخصيات خيالية فى رواية من روايات "دى ساد"، وفى مثل هذه الحالة نرحب بالجدال (بالمناقشات الفكرية). وعلى المستوى العملى، فما دمنا نتقبل الرأى القائل بأن العدو لا يلتزم بالعقلانية ولا يغير من نفسه، فلا يهمنا حقيقة إذا ما كان هذا الشرير يهاجمنا بدافع من الحقد الخالص، أو كان يتصرف وفق ما جُبل عليه بالسليقة من طبيعة شريرة، وسواء كان دافعه هذا أو ذاك؛ فإن القوة مطلوبة للقضاء على شرور.

ولمن يريد أن يستخدم الدعاية التى ترتكز إلى فكرة الكراهية لأغراض "سياسية"، فإن امتلاك الوسيلتين اللتين تتيحان ترسيخ "الإقصاء"؛ تجعل دعايته أكثر تأثيرًا.. فإشاعة فكرة أن العدو يقصد إيذاءك يجعل هذا العدو فى مواجهة مع قانون المبادئ الأخلاقية، ويتيح ذلك لك أن تبرر تصرفك ضده على أنه دفاع عن النفس أو عقاب قويم له مبررات أخلاقية.. (أى أنه ليس قسوة من جانبك)- وفى الوقت نفسه، عندما تُشيع أن عدوك مُدمر وهدام بطبيعته مثل السرطان؛ فهذا يولد ردود أفعال غاية فى الشدة والتطرف. وربما تكون الخلايا السرطانية جزءًا من جسم الإنسان الذى تصيبه، لكن هذا لا يحول دون محاولات استئصالها، أما "الأمراض الأخلاقية" (خلايا المبادئ الفاسدة) فيمكن تلطيفها وتسكينها بالحديث عن الأعداء الأشرار، كى نشجع على رد فعل ضدهم، مع التأكيد أنهم - كما نراهم نحن ومن وجهة نظرنا- كائنات من الجماد أو فاقدى الحس.

الرحلة المرتقبة:

إذا فكرنا فى القسوة باعتبارها سلوكًا منطقيا ينفذه أناس من البشر مثلى ومثلك، فإن ذلك يمكن أن يبعث شعورًا غير مريح بالمرة.. غير أن ذلك يجعلنا نسأل ونتقصى عن الأسباب التى تجعل الناس يتصرفون بقسوة، وعندما نفهم هذه

الأسباب؛ فإن الخطوة الأولى تجاه تغيير هذا السلوك هي - بلا شك - الأصعب على المدى القصير، وهي أيضا أصعب من التسامح مع هؤلاء القساة؛ ومع ذلك فإن محاولة الفهم قد تمنحنا حلولا لها تأثير أكبر - على المدى الطويل- لمشكلات شرور الإنسان، وإذا اعتبرنا القسوة المتناهية مرتبطة وناشئة عن أنواع أقل خطورة من الإيذاء؛ فإن ذلك يمكننا من فحص العوامل التي تدفعنا إلى مسلسل "الإقصاء" والتحري عنها، وبذلك يمكننا أن نبدأ تحديد أسلوب علمي للتعامل مع القسوة.

ودراسة القسوة مشروع متشعب، واتباع الأسلوب العلمي فيه محفوف بمخاطر كثيرة ويكتنفه كثير من دواعي عدم الفهم. فقبل أي شيء يتحتم على أن أوضح أنني لا أقترح أن العلم لديه الإجابات المطلوبة. أو أن العلماء يستطيعون - من أجل ذلك - إغفال البحث في فروع أخرى من العلم؛ ذلك لأن موضوع القسوة غير مترابط منطقيا وعلميا مثل: موضوع دراسة بعض جزيئات المادة "البروتون" مثلا؛ فموضوع القسوة يعتمد على متغيرات اجتماعية وأخلاقية وثقافية وعلى نواحٍ أخرى تخص البنية الجسدية للإنسان. وما يستطيع أن يسهم به العلم هنا هو تقسيم مفهوم القسوة إلى عدة مكونات، بعضها قد يوضع في سياق الأطر العلمية الموجودة بالفعل، فيمدنا بشروح وتفسيرات مستجدة ومتطورة تفسر دوافع الإيذاء والجدال حول سبب استمتاع مرتكبي الجرائم بإنزال الإيذاء وقتل الغير، وقد لا تقدم تفسيرا لماذا يلجأ القاتل إلى إغراق ضحيته بالبنزين ليحرقه، أو أن يدفن الضحية حتى وسطه ثم يطلق الكلاب عليه أو يطلق عليه النار.. وحتى نفهم هذه الفظاعة والوحشية يلزمنا فهم كل المضامين التي زامنت وقوع الفعل فهما كاملا.. وبعبارة أخرى يمكن القول بأن العلم مقترنا بالفلسفة ومع علوم الإنسان (الأنثروبولوجيا) وعلوم أخرى - قد يحقق الكثير بدلا من فرع واحد من العلوم. لذلك يدعو هذا

الكتاب، مع أمور أخرى كثيرة، إلى مزيد من البحث والدراسة تحت مظلة فروع كثيرة ومتنوعة من العلوم[٣٢].

هناك خط ثان يشير إلى علم محدد ستكون نتائجه مهمة لهذا الكتاب؛ وهو علم دراسة الجهاز العصبى أو دراسة آلية وكيفية عمل مخ الإنسان. فهل يستطيع هذا العلم أن يقدم لنا شيئا أعمق من وصف تفصيلى ورسم "جغرافى" يماثل التصوير بالرنين المغناطيسى كنموذج لصورة ملونة ترتكز إلى أرقام وإحصاءات صعبة ومركبة[٣٣]. إننى أعتقد أن ذلك فى الإمكان، فعلم دراسة الجهاز العصبى أقوى من الرسم بأشعة الرنين المغناطيسى؛ لأن هذا الرسم بالرنين المغناطيسى ليس سوى مجرد صور أو تصوير سطحى، وقد يكون من الممكن أن تعطينا البحوث التى أجريت على مخ الإنسان معلومات أعمق عن أسباب تصرفه، أو آلية حركته، وأن تجيب عن تساؤلات عن كيف يحدث الفعل القاسى والوحشى، وعندما يقترن هذا مع مفهوم "التطور" الذى قال به تشارلز داروين "**Charles Darwin**"، فقد يمكننا حتى الإجابة عن السؤال الصعب: لماذا نكون قساة؟"، ويمثل علم دراسة الجهاز العصبى محاولة حديثة فى البحث، وما زلنا لا نعلم عنه الكثير[٣٤]. ومع ذلك فحداثة العهد لا تعنى عدم الكفاءة.

وهناك أيضا انتقادات وآراء كثيرة غالبا ما تصدر عن علماء الاجتماع بخصوص الدراسة العلمية لظاهرة العنف، وقد تجتمع على اتجاه واحد كما لو كنا نقدم كل أنواع "الكيك" بوصفة واحدة- زبد، سكر، بيض، دقيق (طحين) تخلط معا - وهذا بالطبع لا يعطى شرحا كيف تكون هذه كعكة بالزنجبيل وتلك بالشيكولاتة أو بالفانيليا... إلخ. وعلى هذا فإن تفسير كل أنواع العنف بارتباطها بالمخ أو الجينات شىء مستحيل، لأن العنف من الناحية الاجتماعية متنوع تماما، وقد تظهر فى جماعتين متماثلتين تماما اجتماعيا أنماط مختلفة من العنف، وقد تقل وتنحصر

أو حتى "تتفجر" على فترات متقاربة جدا [٣٥]. ما الـذى يُحـدث هـذه الاختلافـات والفروق إذن؟ لا يمكن أن تكون هناك أسباب أو سمات بيولوجية أو "جينية" وراثيـة، حيث إنها لا تتغير بسرعة ولا تختلف كثيرا بين الناس.. فهل هذا صحيح؟

إن هذا غير صحيح، فلنأخذ مثلاً أحوال علم الوراثة، فالجينات قـد تُـورث سمات موروثة، لكن بمجرد وجود كائن حى جديد تعمل الجينات بصورة خاصـة؛ لأن الجينات فى المخ والجسم – مجازًا – تنفتح وتنغلق بصفة دائمة وبذلك تـسهم ليس فقط فى إيجاد الفروق والاختلاف بين الناس؛ ولكـن الاخـتلاف فـى نفـس الشخص ذاته من يوم لآخر. وتختلف العقول أيـضا بدرجـة كبيـرة مـن حيـث "التركيب" وكيفية العمل، فبعض العقول (المخ / الدماغ) فى الأشـخاص البـالغين تنقصها معالم تشريحية رئيسية- وكثيرًا مما يفعله هؤلاء لا ينتبه إليـه الـشخص أو غيره من الناس.. فالعدوان، مهما كان مفاجئا وسريعا، لا ينبعـث دون إعـداد مسبق فى عقول من يمارسونه- فإننا لا ندرى قبل أن يقع العدوان فعلاً كيف استعد الشخص لهذا الفعل، ولهذا فإن التغييرات الكبيرة فى المخ تحـدث دون أن يُـستدل عليها، وقد نرى – فيما يبدو- أن أسبابا تافهة أو قليلة الأهمية انطلق عنها عنـف فظيع، فإذا كنا سوف نفسر العنف والقسوة بمعايير بيولوجية صرفة، فإن ذلك مثـل إغفال الخصائص التى تجعل "الكعكة " فى وصفتنا مميزة ومختلفة عن غيرها. أما إذا كان التفسير بمعايير اجتماعية فقط؛ فهذا مثل إعطاء "وصفة" ينقصها الـدقيق.. إذن فكلا التفسيرين مطلوب[٣٦].

ويلزم هنا أن نناقش المصطلح، لأن عنوان هـذا الكتـاب لـيس "العنـف" أو "العدوان" ولكن "القسوة". والمصطلحات الثلاثة بينها تنازع وتنافس شديد؛ لأنهـا تغطى أرضية متداخلة توحى بالعدوانية والإيذاء والعـداء، لكـن هنـاك بعـض الاختلافات لأن كلمة "عنيف" تصف سلوكا وتذكرنا بتأثيرات الفعل السريع، القـوة

البدنية، والقدرة على التدمير. أما كلمة "عدوان" فتعبر عن القصد والنية للاعتداء. فالإنسان من الممكن أن يكون عدوانيا بشدة دون أن يؤذى الناس بالفعل، لكن "القسوة" غالبا ما تتضمن العنف المتناهى دون حتى أن يلمس الفاعل ضحاياه. ويمكن لأى فرد أن يمد ويتوسع فى مفهوم القسوة ليشمل القسوة اللفظية أو من خلال الإهمال ومنع المنفعة، وهذا التوسع يمثل امتدادا فى استخدام القسوة فيما يحدث لنا كل يوم.

وقد قسم الباحثون العدوان إلى نوعين: نوع "انفعالى" وآخر "آن" أو "آلى". ويُلاحظ أن النوع الأول يأتى كرد فعل سريع وغير مُتحكم فيه، وهو فعل مندفع بسبب الإحباط مع الغيظ والإثارة الشديدة ونلاحظه عند الرضع والأطفال الصغار. أما النوع الثانى فهو مُتعمد وقد لا يكون هناك سبب يثيره. ويختلف النوعان فى تفسيرات علم النفس وعلم دراسة الجهاز العصبى. وأصحاب العدوانية الانفعالية (النوع الأول) غالبا ما يتغلبون عليها ويُشفون منها ولا يكونون بالضرورة مزعجين أو قساة ممن يرتكبون الجرائم. ومن جهة أخرى، فالنوع الثانى من متعمدى العدوان هم الذين يخططون لعدوانهم ويُظهرون السمات النمطية للغلظة وهم غير عاطفيين منذ الطفولة، ويتم تشخيص حالاتهم الآن على أنهم مرضى نفسيون منذ الطفولة تكون لديهم اضطرابات سلوكية عندما يصلون مرحلة المراهقة، ثم يصبحون مرضى نفسيين بدرجة كبيرة عند البلوغ [٣٧]، وهم من المحتمل أن يكونوا قساة مع الحيوانات فى طفولتهم، ثم يرتكبون جرائم عنف عند البلوغ- وفى بعض الأحيان قبل إدراكهم مرحلة البلوغ[٣٨]. والقسوة، بتربصها بالآخرين بالعداء المتعمد والمدبر؛ تكون هى الأقرب إلى العدوان "الآلى" أكثر من العدوان "الانفعالى".

وما لم يدركه من قسموا النوعين من العدوان، هو المضمون الاجتماعى فى سياق القسوة: الانحراف الأخلاقى والاجتماعى الذى يؤدى بالناس إلى أفعالهم التى

يطلق عليها "قاسية". ولو فكرنا فى غزارة المادة المتاحة عن العنف والعدوان، فإن هدف هذا الكتاب سوف ينجرف إلى أمور أخرى فى ساحة الأفكار المتعددة والمفاهيم الاجتماعية والعلمية عن القسوة[٣٩].

بقيت إشارة أخيرة عن مجال ومساحة الأفكار التى ستطرح فى هذا الكتاب: فالقسوة تعنى أشياء كثيرة مختلفة.. فهل يمكن لمدخل واحد فقط أن يحتوى بالفعل كل سلوكيات القسوة لدى البشر: من أولاد يقطعون أوصال الحيوانات اللا فقارية، إلى رجال يقطعون أوصال الأولاد، أو حتى الأطفال الرضع؟ من حيث المبدأ، فإنه يجب أن تكون هناك "نظرية شاملة كاملة عن القسوة" تفعل هذا بالضبط. ومع ذلك، فإن المتاح والممكن هو غير كامل بالضرورة؛ هو فقط تمهيد مبدئى عن نظرية السلوك القاسى. وأنا قد ركزت على "القسوة المتناهية"، والأفكار التى سوف أطرحها قد تنطبق على أنواع وأشكال أقل مأساوية من شرور البشر، لكن نظراً إلى ضيق المجال فسوف لا تناقش هنا.

ويتمحور مفهوم القسوة حول تسعة أسئلة.. فى الفصول الثلاثة الأولى سيكون السؤال "ماذا ؟"، "من"، "ولماذا" : ما القسوة، من الذى يقرر ما يمكن أن نعتبره قسوة، ولماذا يتمكن الناس من هذا الشىء البغيض؟ وسوف نفكر فى السياق الاجتماعى للقسوة والأدوار التى يؤديها المشاركون الرئيسيون فيها (من يرتكب الفعل، الضحية، من يشاهدها). والقسوة مفهوم يرتبط بمبادئ الأخلاق، ولهذا فسوف نفكر فى موضوع القيم الأخلاقية بشىء من التعمق قبل أن ننتقل إلى مناقشة الآراء الأحدث التى نعتقد أن بإمكانها أن تمدنا بـ "الأسباب الدفينة" التى تعلل مبررات ودوافع قسوتنا.

وسوف نتعمق أكثر في الفصل الرابع في مناقشة الأسئلة من الرابع إلى السادس، متسائلين عن الآلية البيولوجية التي تدفع الإنسان إلى اتخاذ قراره بأن يتصرف بقسوة، ويعني هذا تأمل عقول البشر بشيء من الاستطراد والإسهاب، ذلك لأن مخ الإنسان هو الوسط العام الذي من خلاله يؤثر ويتحكم كل عامل من العوامل المسببة للقسوة من الجينات إلى المخدرات إلى التوقعات الاجتماعية. وسوف نفحص في الفصل الرابع كذلك كيفية اتخاذ القرار بممارسة القسوة، وفي الفصل الخامس سنرى كيف نصل إلى حد أن نتأثر بالعواطف التي تدفعنا إلى الفعل. ثم يقدم الفصل السادس المعتقدات التي تقود إلى هذه المشاعر والأفعال.

وفي النهاية.. سنتحرى في الفصول من السابع إلى التاسع أنواع القسوة، وسيكون عنوان الفصل السابع "تبلد المشاعر التي لا تراعي ضحاياها". ويناقش الفصل الثامن السادية التي تقتات وتتغذى على عذاب ومعاناة هذه الضحايا. وفي الحالتين سوف نهتم بالدوافع والآليات. ويلخص الفصل التاسع الموضوعات التي تناولها الكتاب، كما يخاطب مسألة ما إذا كان بإمكاننا أن نتعلم الامتناع عن القسوة أو نكف عن أن نكون قساة.

ملخص وخاتمة :

فى بعض الأحوال، مثلما كانت الحال فى أوروبا الشرقية أيام النازية، يبدو أن القسوة تصبح شيئا عاديا، أو خطأ من الأخطاء، أو رد الفعل الذى لا يميز والصادر من أناس منحرفين فى مجتمع غير سوى.. لكن هذا فهم وانطباع خاطئ. فالقسوة تنشأ فى مواقف معينة لكنها لا تكون أبدا عشوائية أو دون تمييز إلا ربما فى حالات الاضطرابات العقلية الشديدة، عندما يكون أحد الأشخاص قد "تشتت فكره" أو أصابته لوثة أو جنون. وحتى عندما تسود الغوغاء أو يكتسح جيش مدينة بأكملها وهو ينوى ارتكاب مذبحة، فإن القتلة "يميزون"؛ فقد يتركون بعض سكان القرية، وفى غمار شهوة الدم ومعترك ارتكاب الجرائم، من هؤلاء المخبولين مرتكبى العنف الجماعى، نادرًا ما يقتل بعضهم بعضًا.

قد يغرينا ذلك بأن نسمى هذه الجموع المارقة "شياطين"، ولكن هذا ذاته شكل من أشكال "الغيرية والإقصاء"، وهو ليس فقط سذاجة وتبسيطًا للأمور ولكنه شيء خطير ومضلل؛ فالسقوط فى فخ "الماهية الشريرة" لا ينطبق على حالة الجموع ولا حتى على المجرم المنفرد، مهما كان شريرًا.

ولو كانت القسوة نتاجا خالصا للشخصية الإنسانية؛ فإن النتيجة التى تحدثها تفاحات قليلة عطبة ولها جينات "سيئة" أو رديئة يمكن تفاديها مبدئيًا والتخلص منها إما بالتعقيم وإما بـ "القتل". وهناك رؤى طوباوية تشيع هذه الحملات الفكرية كى تتخلص من "العناصر السيئة". ومع ذلك فالقسوة تحكمها الظروف مثلما تحكمها الشخصية، والناس سوف يستمرون فى اقتراف القسوة فى مواقف معينة.

وقتل "التفاحات العطبة" لن يوقف القسوة (ويعرف الطوباويون أننا لو بدأنا فعلينا أن نستمر فى القتل، لأن القسوة يتولد عنها قسوة أكبر كرد فعل). إن تغيير الظروف هو فقط الذى يمكن أن يحقق ذلك.

وهذا التناقض – الطبيعة ضد الطبيعة، والشخصية ضد الظروف- هو بالفعل تبسيط شديد للأمور، فكلاهما، كما سوف نرى، يلعب دورًا شريرًا فى تحديد السلوك.. علينا أولاً أن نبدأ بالأساسيات، ثم نسأل ماذا نعنى بكلمة "قسوة".

الفصل الأول

ما القسوة؟

في صيف عام ١٩٤١، أُرسل مُصور فوتوغرافي ألماني إلى مدينة "كوفنو" الليتوانية (واسمها الآن كوناس").

وكتب يقول:

واجهت المشهد الآتي: في ركن على اليسار في إحدى الساحات كانت هناك مجموعة من الرجال تتراوح أعمارهم بين ثلاثين وخمسين عامًا. وكان عددهم من أربعين إلى خمسين رجلاً. كانوا قد جُمعوا معا وكان يحرسهم بعض المدنيين. كان المدنيون مسلحين بالبنادق المطوقة بأحزمتهم كما يبدو في الصور التي التقطتها لهم. وكان هناك شاب- لا بد أنه ليتواني - قد شمر عن ساعده وأمسك بقضيب (عتلة) من الحديد، كسلاح في يده. كان في كل مرة يسحب رجلا من المجموعة ويضربه بالعتلة مرة أو أكثر على

مؤخرة رأسه. وبعد ثلاثة أرباع ساعة كان قد ضرب كل المجموعة (من خمسة وأربعين إلى خمسين فردًا) حتى الموت بهذه الطريقة. والتقطت سلسلة من الصور لهؤلاء الضحايا.

وبعد أن مات الجميع وضع هذا الشاب قضيب الحديد في جانب من الساحة وأحضر "أكورديون" ووقف على هذا "الجبل" من الجثث وأخذ يعزف السلام الوطني الخاص ببلده "ليتوانيا"... أما سلوك المدنيين الذين شهدوا الواقعة (نساء وأطفالاً) فكان لا يصدق. كانوا يصفقون بعد أن يُقتل كل رجل، وعندما بدأ عزف السلام الوطني أخذوا ينشدون ويصفقون. وكان في الصف الأول نساء يحملن أطفالهن وبقين هناك حتى النهاية[١].

ما القسوة ؟

كلمة القسوة لها أصول قديمة. والكلمة مسجلة في قاموس أكسفورد للإنجليزية منذ عام ١٢٢٥ قبل الميلاد. ويعتقد أنها مشتقة من كلمة لاتينية هي "crudelitas" [٢]. وهذا يبدو مناسبا؛ لأن أكثر نماذج القسوة تأثيرا نشأ في روما في زمن الإمبراطورية. علينا أن نفكر في المعاناة الفظيعة والآلام البشعة التي لاقاها المسيح عندما صلب، وفي الناس الذين استخدمهم الإمبراطور نيرون كمشاعل

بشرية تضيء حدائقه، وفي مباريات "المجالدين" الذين يتقاتلون حتى الموت لإمتاع الجمهور[٣]، لكن القسوة كانت موجودة قبل العصر الروماني. ففي ملحمة "الإلياذة" التي كتبها هوميروس عن الحرب، نجد الملك "أجاممنون" في وطيس المعركة وهو ثائر على أخيه "مينيليوس"، لأنه رأى إنقاذ حياة رجل من طروادة مقابل الفدية. وهذه كلماته التي يعتقد أنه قالها منذ سبعة وعشرين قرنا على الأقل:

> **لماذا أنت رقيق شفوق هكذا يا أخي العزيز؟ لماذا تهتم هذا الاهتمام بالأعداء؟ أظن أنك اكتسبت رهافة الحس من الطرواديين آه... أطلب من الآلهة ألا يفلت أحد منهم من مصيره المفاجئ المحتوم... من تحت أيدينا. فلم يعد هناك أي ولد في رحم أمه، حتى هذا لم نتركه ... فقد محونا كل أهل طروادة ولن تذرف عليهم الدموع ولن تُوضع شواهد على قبورهم[٤].**

ماذا نقصد عندما نطلق على شخص ما أو فعل ما كلمة "قاس"[٥]؟ إن الأعمال الوحشية في الحروب، مثل واقعة مدينة "كوفنو" التي ذكرناها، هي مثال من أمثلة القسوة، ولكن ما الذي يجعلنا نقشعر من مجرد التفكير في تلك المذبحة ونسمي مرتكبيها فورا "قساة"؟ أحد العوامل - بكل تأكيد- هو معاناة الضحايا، وقد تكون هذه المعاناة غير جسدية بالتحديد- فهناك طرق للقتل أسوأ كثيرا من الضرب على الرأس- إذا أخذنا في الاعتبار المعاناة النفسية الشديدة، والألم النفسي المبرح الذي لا بد أنهم كابدوه والذي وقع عندما كان عليهم انتظار الموت ومراقبة من يحبونهم وهم يقتلون أمام أعينهم.. إنهم كانوا يعرفون أن الموت مُحتم ولا مفر منه، وكانوا يرون جيرانهم فيشعرون بحالتهم النفسية ساعة مقتلهم، وهذا ما نعتبره

تعذيبا نفسيا مضنيا، ولو تقمصنا عاطفيا مشاعرهم هذه. فلن يزيد ذلك على مسحة ضئيلة أو طيف واه من عذاباتهم وآلامهم، إلا أن هذه المسحة تكفى لإصابتنا بالكآبة والحزن وتلقى على أكتافنا عبئا عاطفيا موجعا مؤلما مبعثه أحكامنا الأخلاقية على ما حدث.

ويمكن أيضا أن نفكر فى هذه الأحداث ليس من وجهة نظر الضحايا المكروبين: لكن من وجهة نظر المشاهد أو حتى مرتكب هذا الفعل، وذلك ما يثير الفزع والاشمئزاز الشديد.. فنحن قد نتخيل الدم المتناثر، والعظام المكسورة ومناظر القتلى وأصواتهم والروائح الكريهة فى مواقع القتل الجماعى؛ وسوف يخلق هذا مسافة بيننا وبين مرتكب الجريمة. ونحن مفزوعون من فكرة تنفيذ مثل هذه المجازر، لكن الاشمئزاز من الفعل ربما يكون له أثر آخر؛ فقد يدفع بنا بعيدا عن التعاطف مع المبتورة أطرافهم من الضحايا إذا أوذينا من مشاهدتهم.

وهناك عامل مزعج آخر هو ابتهاج وسرور مرتكب الفعل والمشاهدين الذين سايروه وشاركوه بالنظر، فهم - كما نفهم- لم يكونوا مرغمين على المشاهدة ولم يذعنوا مغلوبين على أمرهم من أسيادهم الألمان المتوحشين، لكنهم كانوا "متطوعين" مسرورين يستمتعون برؤية هذا التدمير، فلو كان هناك إرغام فى هذا الموقف كنا علمنا به، لكننا لم نره، وبدلاً من ذلك كان المشاهدون قد اختاروا المشاركة بمحض إراداتهم وكان غرضهم "الإجرامى" واضحا.

وهناك أيضا عاملان آخران يؤثران فى حكمنا هنا. أحدهما هو موضوع "التبرير". أو بتعبير أكثر دقة "غياب التبرير"، فكما نرى يبدو أن هذه الجرائم غير مبررة وبلا أى مسوغ(٧)، وحتى لو كان الضحايا جواسيس شيوعيين أو من مؤيدى العدو الروسى، ألم يكن من الأنسب تقديمهم للمحاكمة مثل أى مدنيين مجرمين؟ بالطبع هذا كان زمن الحرب، لكن حتى فى الحروب هناك قواعد ومبادئ للسلوك

أقرت رسميا فى معاهدة هيج "Hague" ومؤتمر جنيف منذ عدة عقود قبل الحرب العالمية الثانية[٨]. وأسرى الحرب قد يُعتقلون طوال فترة القتال، والجواسيس والإرهابيون قد يُسجنون لحين تقديمهم للعدالة. أما القتل الجماعى فيبدو وحشية لا ضرورة ولا لزوم لها. هذا بالنظر إلى الخيارات الأخرى المتاحة. وفى حالة مذبحة "كوفنو"، فنحن لسنا مضطرين إلى البحث عن مبررات، أجل.. إننا نتقبل ما صادفنا وحدث بالفعل، بسبب تحيزنا المسبق ضد مرتكبى المذبحة.. النازيون أشرار وكلنا نعرف هذا. أما لو كنا نفكر فى الحكم على حماقة ارتكبتها قواتنا المسلحة؛ فسوف نبحث عن دوافع ومبررات أكثر وأشمل كى نبرئ ساحتهم.

وما يُعتبر مكملاً لمسألة البحث عن تبرير لمرتكب الفعل: هو مسألة براءة الضحية[٩]. فالدافع المعلن عن هذه المذبحة كان الانتقام.. قيل إن هؤلاء أناس مضطهدون ومظلومون يردون الظلم عنهم ضد ظالميهم من اليهود البلاشفة. والضباط الألمان الذين حضروا المذبحة رفضوا التدخل لمنعها، وكانت حجتهم هى أنها رد للظلم والإساءة، وقالوا إنه نزاع داخلى صرف وليس من مسئوليتهم منعه. ومع ذلك فنحن نرى أن الضحايا باعتبارهم يهود أبرياء قتلوا بسبب جنسهم وهويتهم فقط دون أى اعتبار لأفعالهم أو انتماءاتهم السياسية. وربما أن بعضا ممن قتلوا كانوا، من قبل، قد ساعدوا الروسيين وخدموهم. ونحن، حتى إن قبلنا ووافقنا على هذا التبرير للجريمة كانتقام؛ فإن حكمنا عليها هو أنها عقوبة غاية فى القسوة ولا تتناسب إطلاقا مع الذنب الذى قيل إنهم ارتكبوه.

وكى نوجز، فإن العوامل الرئيسية التى تدفعنا إلى أن نصف فعلاً معينا بأنه "قاس" تتمركز حول محورين. الأول يخص المشاركين فى الفعل: دوافع مرتكب الجريمة وسلوكه (سلوك غير مبرر، يراعى مصلحة طرف واحد فقط، فعل ذاتى إرادى، فعل مُدبر عن قصد- مقصود). والثانى يخص تقدير حالة الضحية (برىء،

لا يستحق الأذى، تحمل تجربة المعاناة). ويوجد عامل ثالث بالطبع وهو من شاهد الجريمة ويتصدى لإصدار الحكم الأخلاقى عليها. وإذا تم تجميع كل هذه العوامل يمكننا القول بصفة عامة: "إن القسوة هى سلوك ذاتى غير مبرر ومتعمد كى يسبب معاناة وألما لضحية أو ضحايا لا يستحقون ذلك". وعلاوة على هذا فإن السلوك القاسى غالبا لا يؤثر فى المشاهدين وربما لا يثير الاشمئزاز والاحتقار تجاه مرتكبى الفعل، ومع التوحد والتقمص النفسى لمشاعر الضحايا قد يشعر المشاهد بالغثيان والقرف من أحوالهم. هذا تعريف عملى، إن أردت، للقسوة: هى محاولة لفهم كيف يدرك جمهور العامة هذا المفهوم، وقد يلزم إدخال تعديلات على هذا التعريف، لكن فلنقبله الآن، هذا باعتباره يعطينا نقطة للبداية والانطلاق.

وإذا لم تناسبنا هذه المفاهيم والتعريفات فسوف ننحو نحو تعريفات أخرى لبعض حالات من القسوة.. يعنى أنه لو كانت الضحية تستحق ما يجرى لها؛ فقد نعتبر الفاعل ينفذ "عقابا". وفى حالة لو لم ينشأ عن القسوة ألم ومعاناة (أى لو وجد الألم وكانت الضحية تستمتع به كما هى الحال فى الماسوشية- وهى الحالة المرضيه للتلذذ بالتعذيب). وفى حالة لو كان الفاعل منحرفا ولديه دوافع ونوايا للقسوة لكن أعماله لا تتسم بالجرم وليس هدفه ضحية بالمعنى المألوف. وفى أحوال أخرى يحدث الألم والمعاناة عرضا ودون قصد، أو يكون من باب الإهمال واللا مبالاة وليس بدافع القسوة. وهناك أنواع من الإيذاء القهرى المقصود تنتقل فيه تهمة القسوة من الشخص الذى يقوم بالفعل إلى الشخص الذى يُجبره على هذا الفعل. وختاما نقول إنه فى حالات من السلوك القاسى قد يوجد الفعل أو "عدم الفعل" المتعمد. فالشخص الذى يسبب الألم لغيره قد يفعل ذلك بإيذائه فعلا، وقد يمنع عنه وسائل التخفيف من المعاناة ولا يرفعها عنه وهذا هو عدم الفعل المقصود.

ومن الواضح أن القسوة مفهوم يرتبط بمبادئ الأخلاق، كما يرتبط بشدة بمفاهيم أخلاقية أخرى مثل: العقاب، مبررات الفعل، المسئولية تجاه الآخرين. وفى الفصل التالى سوف نتعامل بإمعان وتدقيق مع هذه المبادئ الأخلاقية التى تدعم الخلق القويم (الفضيلة). أما الآن فعلينا أولا أن نفحص مكونات تعريفنا السابق للقسوة بشيء من الاستفاضة والإسهاب، بدءا بفكرة المعاناة.

القسوة سلوك يسبب المعاناة والألم:

القسوة، عموما وقبل أى شيء، هى إنزال الأذى والضرر بشخص ما. وتعريفات القاموس توضح أن فعل القسوة يسبب الألم، وأن الفاعل لا يبالى ولا يهمه ذلك، وعلى أسوأ الفروض فإنه يرضيه المعاناة التى يُحدثها هو / أو هى للغير. ويُعرف قاموس أكسفورد للغة الإنجليزية القسوة بأنها "نية إنزال الأذى والألم بإنسان، والابتهاج بذلك مع اللا مبالاة بآلام أو تعاسة الآخرين، مع عدم الرحمة وجمود القلب خصوصا عند ارتكاب الفعل". ويعطى القاموس مثالا على هذا الفعل[١٠]. ويلاحظ أن هذا التعريف يتراوح بين النية والفعل، حيث تنم "القسوة" عن صفات شخصية مثلما تنم عن سلوك.. أى أن طبيعة الأشخاص، مثلها مثل أفعالهم، يُطلق عليها كلمة "قسوة". ويأتى السلوك فى المرتبة الأولى، فتمتد كلمة "قاس" من الفعل إلى الفاعل ثم تُطرح لنا نماذج نمطية عن الأشخاص القساة (مثل مظهرهم المتوحش، تعبيراتهم القاسية، أو سمعتهم الذميمة). ويمكننا أن نتوسع بمفهوم القسوة إلى ما يدور داخل "الدماغ" – إلى الأفكار، الرغبات، والنوايا – ولكن حتى هذه يجب أن تكون واضحة ويُفصح عنها سواء من داخل الأفراد (باعترافهم) أو من "الخارج"، كما يُعبّر عنها بالأفعال أو بالكلام.. عندئذ فقط يمكننا وصفهم والحكم عليهم بأنهم قساة.

ولن نحكم على فرد بأنه قاسٍ إلا إذا كان سلوكه بالضرورة يسبب الألم، وهذا يتطلب ضحية رقيقة الحس واعية تستطيع التعبير عن هذه التجربة. فالإنسان الآلى (الروبوت) بطبيعته صُمم بحيث لا يستطيع معاناة الألم أو وصفه، وبذلك لن يكون ضحية للقسوة.. وهكذا الحال مع الحاسب الآلى مثلاً، أما الحيوان فيمكنه معاناة الألم بدرجات متفاوتة، لكننا لسنا متأكدين فيما يخص الحشرات أو المفصليات (اللا فقاريات) أو العناكب أو البكتيريا ولا يهمنا ذلك ! وعلى حد علمنا؛ فإن الخبير رقم واحد فى هذا العالم كله – إذا ارتبط الأمر بالمعاناة– هو الإنسان سواء مارس القسوة وتسبب فيها أم تلقاها... فى كلتا الحالتين.

والمعاناة – كما ترى الماسوشية– ليست الشعور بالألم فقط، فهى تتضمن نوعين من الأذى (الألم الجسدى والمعاناة النفسية)، وكره هذه التجربة القاسية هو الذى يجعلنا نتجنب أسبابها فى المستقبل؛ فالضحية عندما يُفرض عليها تحمل الأذى باعتباره شيئًا مؤلمًا وغير سار سوف تحاول إنهاءه وعندما تُعطى الضحية ملطفًا للألم تستطيع أن تفرق بين الألم والمعاناة، فيقال إن الألم مازال موجودًا لكنه لا يؤذى (نفسيًا) بقدر كبير(١١)، فالعقاقير الملطفة تقلل من كراهية الألم والضيق به، ثم، تبعًا لذلك، يقل الإحساس بالمعاناة فيصبح الألم وكأنه إرهاق بسبب مرغوب فيه مثل: تعب العضلات بعد الجلسة الأولى من نظام للتمارين الرياضية، وهذا نوع من الألم يمكن احتماله أو حتى الاحتفاء به كدليل على الإنجاز وتحقيق الغرض الرياضى المنشود.

وبعض الناس غير مؤهلين للشعور بالألم إطلاقًا، وهذا يسبب تشوهًا أو خللاً فى الجينات لكنهم مع ذلك مؤهلون للمعاناة(١٢) تحت ضغط نفسى إذا ما هُددوا بالموت أو القتل مثلاً، والمعاناة تحدث لعدة أسباب: الخوف من الموت، والتفكير فى الألم الذى يسببه موتهم لبعض من يحبونهم، أو الحزن على ضياع آمال ومشاريع

مستقبلية. والناس، وربما أنواع أخرى من المخلوقات أيضا، يتعذبون ويقاسون المعاناة دون تجربة الآلام الجسدية، فكما يدرك أى إنسان ممن عرفوا الحرمان– أو جربوه بأنفسهم – فهناك شخص يستسلم للاكتئاب إذا قطع علاقته مع شريك، أو حُرِم فجأة ممن يحبهم. إن الآلام الجسدية ليست ضرورة حتمية للمعاناة. وشرور المجتمع، التى لا تترك كدمات أو سحجات أبدا على جلد الضحية، يمكن أن تسبب بؤسا عاطفيا غامرًا وشديدًا، أما الفعل القاسى فهو ما يسبب معاناة شاملة غير مرغوب فيها، تصاحبها آلام مرتدة، تحمل أذى، ويصحبها اكتئاب وحزن.

القسوة شيء إرادى ومتعمد:

الحكم على فعل ما بأنه قاس؛ غالبًا ما يكون للإدانة الأخلاقية وكمقدمة لعقاب الفاعل، سواء كان العقاب الذى ينزل به هدفه رغبة الانتقام أم دفعه لأن يُغير من سلوكه. ويُطبق العقاب على من يمارسون القسوة فقط لتعزيز المسئولية الأخلاقية لديهم لأنهم: اختاروا إيذاء الغير، هم فاعلون تصرفوا بإرادتهم، وسببوا النتائج المؤلمة التى بسببها يحاكمون(١٣)، ونحن نعتبر الشخص المريض عقليًا غير قادر على فهم ما فعله، وهو يحتاج إلى علاج بدلاً من العقاب، بينما الشخص الذى يُجبر على فعل قاس (ربما بعد تهديده بالقتل)؛ يعتبر أقل مسئولية عن فعله خلافًا لمن يختار بمحض إرادته أن يكون قاسيًا. ويختلف المعنى الدقيق لكلمة "مسئول" و" غير مسئول" باختلاف الثقافات المتعددة وباختلاف الأزمنة والعصور؛ فإن أحد علماء النفس وأحد أعضاء جماعة المُحلفين فى قاعة المحكمة نفسها قد يُصدران أحكامًا مختلفة جدًا فيما يتعلق بمسئولية المتهم عن أفعاله. ويبدو أن تصنيف أنواع البشر فى ثقافات الدول المختلفة يطلق لتقييمات غير محددة: هذا "نقى" أو "جيد" أو "شرير"

أو "مدنس". كما يبدو أيضا أن الناس في جميع أنحاء العالم يتوهمون أنهم، وأناس آخرون غيرهم، يملكون القدرة على اختيار ما سوف يقومون به من أفعال.

والفعل هو قوة الاختيار الإرادى.. إنه مستوى من امتلاك السلوك والتحكم فيه كما هو متعارف عليه لدى البشر البالغين الأصحاء، فالفعل هو أيضا امتلاك القدرة، بشرط ألا يعوقها شيء مثل المخدرات أو المرض، على أن نجتهد كي نغير العالم حتى نرضى رغباتنا واحتياجاتنا. وهذا يعطينا استقلالا مؤكدا لأننا بأفعالنا نسبب حدوث الأشياء التي لم تكن لتحدث بدوننا، فهي قد حدثت بفعلنا ولأننا نقصد ذلك ونرغب فيه. إننا نحن، وليس الصدفة أو أي أسباب خارجية، الذين نخلق الأحداث ونتعمد الفعل.

والبشر عادة يستخدمون لغة "الفعل"، وما نفكر فيه هو معتقداتنا ورغباتنا ونوايانا والأسباب التي تدفعنا للفعل. وعندما نشرح ونفسر كل ما يفعله الناس، وربما الحيوانات؛ فإننا نقدم التفسير على أساس الهدف من الفعل: هو أراد أن يساعدها " أو " هم تصوروا أن "الأرنب" كان يعاني من الوحدة"؛ فقد تعودنا أن نصور الأحداث في حدود ما نرى أنه يخدم ويحقق غرضا أو قصدا ما، بينما الحال ليست كذلك؛ ففي تاريخ البشرية يرجع الناس الكوارث الطبيعية لخطأ قوة خارقة مثلاً. فنحن غالبا ما نتخيل الأشياء، إذ نرى وجوها مرسومة في السحب، ونتصور الأنوار الأمامية للسيارة كعيون، ونظن أن هناك أهدافا ومقاصد لدى أي أشياء صغيرة غير عاقلة تتحرك أمامنا[١٤]. وما يطرحه علم النفس الاجتماعي هو أننا منحازون بشدة تجاه تفسير الفعل في حدود الهدف من ورائه، وأول ما يقودنا لذلك هو ما تختص به عقولنا وما تنتهجه وتعودت عليه من تأمل وتحرى تعبيرات الوجه وحركات الجسم وأنماط الحركة التي تؤديها الكائنات الحية[١٥].

ويبدو أن التفكير بمنطق الرغبات والأهداف كعوامل تسبب الفعل لا يقتصر على النوع الإنسانى فقط؛ فهذا بالطبع قد يلائم ويتماشى مع كل الأحياء؛ فهدف الذئاب من قتل الإيل - نوع من الغزال- أنها تريد أن تأكلها، والسلمون تدفع بأجسامها فوق سطح البحر لأنها تريد التكاثر، حتى الأشجار يقال إنها مسئولة عن طرح البذور لأنها تريد البقاء. ومع ذلك فلا يعتقد أن الأشجار تملك الفهم الكبير للعلاقات السببية. وعلى النقيض من ذلك، فالكائنات الأكثر تعقيدًا كالإنسان، قدراتها تتعدى مجرد خلق الأحداث فهى تمتلك شيئا من المعرفة عن العلاقات السببية الأرقى (المتحذلقة) والمتعلقة بالنتائج - أى أنها تملك القدرة على أن تقرن أسباب الفعل أو عدم الفعل بالنتائج [١٦]. والبشر، بصفة خاصة، بارعون فى هذه القدرة على تسجيل الأسباب وربطها بالنتائج. فنحن نتنبأ بالأحداث ونغير سلوكنا تبعًا للنتائج.. وقد نتنبأ بسلوكنا وسلوك الآخرين أيضًا، وذلك بتفكيرنا المؤسس على الهدف من الفعل.. أى أننا نخمن بناء على طريقة تفكيرهم ونستدل على سلوكهم من تخمين دوافعهم وأهدافهم.

السلوك القاسى يُحكم عليه بالدوافع والنوايا:

إن النظر إلى القسوة على أنها "سلوك غير مبرر يسبب المعاناة لمن لا يستحقها"؛ يؤكد أن الدوافع على الفعل يفسرها من يرتكب الفعل ومن يشاهده والضحية التى يقع عليها. والنظر إلى الدوافع مسألة مهمة عند الحكم على القسوة، ذلك لأن الضرر الذى يقع بالصدفة أو بفعل قوة من قوى الطبيعة قد يُحدث ألمًا وضيقًا، لكنه ينقصه الدافع الضرورى، ونحن غالبًا ما نبرره بسوء حظ الضحية أو بأنه قدر عاثر أو أن هذا الشخص "منحوس"، وعندما نريد الحكم على أذى يقع من بعض على آخرين؛ فإن سؤالنا الأول غالبًا ما يكون "لماذا يفعلون ذلك؟"، نحن

نبحث دائما عن أسباب وتفسيرات، مستخدمين إطار نسبة الفعل للفاعل.. أى لغة الاعتقاد بأن الأفعال لها غرض ودوافع فى عقل ونفس من يفعلها.

وتقييم دوافع الآخرين يمكن أن يكون سهلاً، فنحن نعرف فورًا أن الرجل الذى يقترب منا غاضبا يريدنا أن نغادر حقله، لكن فى حالة أفعال القسوة قد يكون هذا صعبا أو مستحيلاً؛ فإن مرتكبى الجرائم قد يرفضون، أو يكونون عاجزين عن شرح ما بداخل أنفسهم، وقد يزعمون أنهم ليس لديهم فكرة لماذا فعلوا ما فعلوه[١٧]. وكما سوف نرى فهذا مبعثه عدم تعاون الأشرار بطبيعتهم أو بسبب تعاطى المخدرات أو الخمور. وقد يكون أحد الأسباب أن الحركة التى يبدأها الشخص بوعى منه تُطلق بعدها سلوكًا تلقائيا أكبر وأعنف وغالبًا ما يتم بسرعة؛ حيث يبدو أنه فعل عدوانى، والشباب الذين يتعقبون ضحية قاصدين أن يخيفوه قد تفسر عقولهم هذه المطاردة كنوع من "الصيد"، وبناء على ذلك يعاملون الضحية كما لو كانت "فريسة"[١٨]، ويصبح الدافع ضبابيا وغير مفهوم.

ومن الممكن أيضا أن تتغير وتتبدل الدوافع بسرعة مربكة، فالرجل الذى يطعن خصمه فى معركة أو شجار ربما يكون قد بدأ القتال قاصدًا الدفاع عن شرفه وكرامته، أو ردًا على إهانة، وعندما لا يرد غريمه يصبح غرضه هو "أن يعلمه درسًا".. أما إذا أمسك غريمه بآلة (سكين مثلاً) فسيصبح غرضه هو النجاة ببدنه.. فما هو الدافع إذن الذى أدى إلى طعنه بسكين؟ يُفترض أنها كل هذه الدوافع المتغيرة، والأفعال التى لها دافع واحد أسهل فى تفسيرها، لكن الأفعال التى تُسهم فيها دوافع كثيرة تكون معقدة ويلزمها تفسيرات أكثر.

تخيل أنك تعمل ضمن هيئة محلفين فى محاكمة جريمة قتل، والمذنب امرأة تعترف بأنها قتلت الضحية، لكنها ترى أنها فعلت ذلك لأنه هَم باغتصابها. فهل كان

سيفعل هذا حقا؟ وما الدليل على ذلك؟ هل توجد فى جسدها كدمات، وهل كان هناك جيران سمعوا صراخها؟ وهل اشتكت من تهديدات مسبقة منه؟ هذه هى مهمتك: أن تمحص حقائق هذه القضية وتحاول "تخلها"، بما فى ذلك الحقائق النفسية المتعلقة بدوافع المتهم، وإذا ما كان غريبًا أم أن له سابق معرفة بها. ويمكنك استخدام تجاربك المتراكمة عن كيف يتصرف الناس حتى تستدل على دوافعها لهذه الجريمة؛ ربما يكون الدفاع عن النفس كما ذكرت، وربما تكون هى واقعة تحت تأثير "غسيل مخ" من تراث ثقافى يمثل رغبة عنيفة فى القتل، ولذا اختارت رجلاً اختيارًا عشوائيًا واخترعت هذه القصة وألفتها عن مهاجمته لها. وربما تكون إنسانة غريبة تحكمها دوافع بدائية للعدوان، وقد لا تكون أى من هذه الاحتمالات شائعة فى العالم والمحيط الذى تكونت فيه أفكارك، فالرجال فى أغلب الأحيان هم الذين يهاجمون النساء، وحتى لو كان هناك دليل مخالف لذلك؛ فإن فكرة الدفاع عن النفس ستكون هى القاعدة التى سينطلق منها تخمينك عن دافع هذه الجريمة.

وفى الممارسات الفعلية تختلط الدوافع، كما أنه من الصعب تحديدها فهى أحيانًا غامضة وغير واضحة لدى أصحابها، فلو كانت هذه المتهمة تعرف الرجل قبل قتله فسيكون عملك باعتبارك واحدًا من هيئة المحلفين معقدًا جدًا وستفكر كثيرًا: ما حقيقة التاريخ السابق بينهما؟ ما مشاعرها تجاهه؟ هل لديها أسباب تجعلها ترغب فى موته أو إيذائه؟ ربما كانا مرتبطين وتركته هى بسبب عنفه، أو أنه تركها بسبب كذبها المستمر. وقد يكون هناك دليل إثبات لادعاء كل منهما أو لا يوجد دليل كاف لأحدهما حتى يثبت ادعاءه، وقضايا الاغتصاب - بصفة خاصة - تبرهن على قصور قدرتنا على اكتشاف حقيقة الدوافع، وهذا هو السبب الأساسى لأن تكون معدلات الإدانة قليلة جدًا على الرغم من أن الدعاوى المرفوعة تتزايد.. وجريمة الاغتصاب، دون شك، فعل قاس؛ فإن لم يكن هناك دليل على أن الضحية تألمت

وعانت بدنيا علينا أن نحاول طرح دوافع الجانبين، وذلك بأن نسأل أنفسنا كيف كنا سنتصرف نحن ولماذا؟ وقد نسأل من نعرفهم، وما سوف نعرفه قد يُتاح من خلال تجربة مباشرة أو من دراية بأنماط ونماذج ثقافية مألوفة، أو حتى من وقائع الاغتصاب التى تسردها القصص الروائية مثلاً.

ونعود إلى تعريفنا المبدئى للقسوة على أنها فعل يتضمن سلوكاً مقصوداً ومتعمداً. ومن يتصرف بقسوة من الناس لا بد أنه قصد ذلك الفعل ورغب فيه، وكلنا لديه رغبات مماثلة ونوايا لم نرغب أبداً فى تنفيذها. وفلسفيا سوف تأخذنا مسائل الدوافع والنية هذه إلى مياه عميقة جداً، ونحن نبحث عن تعريف مدقق للقسوة نستطيع به أن نميز ونفرق بدقة بين ما هو قاس وما هو غير قاس، لكن هذا التجريد الفلسفى ليس هو ما نريد أن يتناوله هذا الكتاب؛ بل سيكون تركيزنا على كيف يُستخدم مفهوم القسوة فى حياتنا اليومية، لذا علينا أن نتنازل عن، وأن ننحى جانبًا، الحاجة إلى الدقة المتناهية[١٩] وبدلاً من ذلك علينا أن نفكر فى القسوة على أنها تراكمات من مكونات متعددة يمكننا أن نبلورها حول محورين هما الضحية ومرتكب الفعل. وسوف يسهم هذان العنصران فى حكمنا على أى فعل (هل هو نوع من القسوة أم لا)، فهما حاضران فى أى قضية أو حالة من حالات القسوة بأشكالها ودرجاتها المتنوعة. كما يمكننا المزج بينها وفق أى نظام شعورى أو هاجس فكرى فى تراكيب قد تصبح واضحة؛ فتتيح لنا وصف السلوك الذى يعنينا بأنه فعل قاس أو غير ذلك.

وتشمل العناصر المتعلقة بالضحية مسألة ما إذا كانت المعاناة حقيقية والألم مضن، وقد يكون الضحايا أبرياء (مثل الأطفال)، وقد يكونون أبرياء بصفة خاصة لعدم ارتكابهم أى فعل خاطئ يبرر إيذاءهم (مثل التبرير المضحك الشائع: "جدودك تسببوا فى أذى لجدودى وأنا الآن أوذيك" وقد يكون الضحايا حتى مذنبين؛ ومع ذلك

فإن جرمهم لا يتناسب مع العقاب الذى وقع بهم إذا ما كان عقابهم "قاسيا وغير مألوف" كما ورد فى نص الدستور الأمريكى. فلنفكر فى ثلاثة اقترفوا جرائم التعذيب الآتية: رجل "يلسع" طفلاً، ابن زوجته، بسيجارة. والثانى، ممن يؤمنون بمبادئ التوراة عن عقاب المذنبين، يحرق الرجل الأول الذى لسع الطفل بالسيجارة؛ والثالث يعّدل مبدأ "العين بالعين" ويستخدم "قاذفات اللهب" بدلاً من السيجارة، وهذه قسوة بالغة من النوع الذى يمارسه الخمير الحمر "Khmer Rouge"، والذى يسميه عالم الأنثروبولوجى الكسندر لابان هينتون "Alexander Laban Hinton" - "الرأس بالعين"(٢٠). والموقف الأول حالة قياسية معيارية من القسوة؛ لأن الطفل برىء تماما، وقد يتفق معظم الناس على هذا، أما الاتفاق على الحالتين التاليتين فسيكون أقل كثيرا؛ لأن عنصر براءة الضحية غير مؤكد؛ فإننى أرى أن المجرم الثالث سيحكم عليه أنه أشد قسوة من الفاعل الثانى لأن وسيلته أكثر إيذاء.

وتتداخل وتندمج العوامل المرتبطة بالفاعل أيضا والتى نحكم بها على درجة وشدة العمل كفعل قاس، سواء بالنقص أو بالزيادة، وتشمل هذه العوامل مكونات ثلاثة: وجود المبرر أو غيابه، ووضوح التبرير، واعتبار العمل فعلاً إراديا، ويتصل المكون الثالث بقصد الفاعل ورغبته. والدافع للفعل مهم غير أنه يختلف تقييمه بقدر كبير؛ فعندما يقول القاتل مثلاً: "أنا فقط قصدت أن أخيفه لا أن أقتله"؛ فقد يحكم عليه بأنه أقل قسوة من شخص آخر يقول: "أردت أن أراه وهو يحتضر وأسمع صراخه وهو ينادى على أمه". وعلى سبيل النقاش يمكننا أن نفترض، أو حتى أن نعتبر، عبارات هذين القاتلين كعرض أصيل لدافعيهما، وأنهما، لا هذا ولا ذاك، ليسا مختلين عقليا أو نفسيا، وأن ضحاياهما لم يكونوا أقوياء بالدرجة التى تمكنهم من المقاومة. وأنهما لم يُدفعا قهرا لقتل ضحاياهم. وأنهما أثناء ارتكاب الجرم كانا بمفردهما مع الضحايا ولم يكونا تحت أى تهديد من أى نوع..ومع كل هذه الافتراضات يتوجب

السؤال: هل قصد القاتلان فعل فعلتيهما هذه؟ وإذا كان دافعيما هو الإيذاء فهل كانا يقصدان القتل فعلاً؟

وباعتبارى أكاديمية نمطية يجب علىَّ أن أجيب: هذا يعتمد .... ! لأن كلمات مثل: "يقصد"، "طوعى"، "إرادى"؛ هى كلمات زلقة ومراوغة؛ وأحد أسباب ذلك أن معناها يعتمد على كيف ومتى نستخدمها، فالقاتل الأول ربما لم يقصد ارتكاب جريمة عندما بدأ العراك مع ضحيته، وفى أثناء القتال الذى بدأه بإرادته تطورت الأمور إلى طريقة ما ارتكب بها جريمة قتل، أى ربما تكون الجريمة قد حدثت عرضا وبالصدفة، وفى هذه الحالة لنا أن نتساءل: هل كان الفاعل، وهو فى كامل عقله، بإمكانه التنبوء يتنبأ بإمكانية وقوع الجريمة وأن يتخذ الخطوات التى تمنع حدوثها حتى يتحاشاها؟ وبمعنى آخر... هل يتحتم عند الحكم والتقييم ألا تقَيم دوافع المجرمين فقط ولكن وعيهم بالنتائج المترتبة على الفعل أيضا؟ والمجرمون القساة يتنبأون، ويجب عليهم بالفعل التنبوء، بأن سلوكهم سوف يؤذى ضحاياهم؛ لكنهم على الرغم من ذلك ارتكبوا جرائمهم، لذلك يجب علينا أن نعدل تعريفنا المبدئى الذى طرحناه؛ فالقسوة هى سلوك إرادى طوعى لا مبرر له يسبب معاناة وألما (يمكن التنبؤ بهما) لضحية أو ضحايا لا يستحقون ذلك.

ويمكننا الإيضاح وتبسيط كل هذا التعقيد بطريقة أخرى؛ هى استخدامنا مفهوم " أهداف الفعل": أى الأشياء، الأحداث، أو الحالات التى يرغب فيها الفاعل أن يتصرف بأسلوب يعتقد أنه سوف يساعده فى تحويل هدفه من تخيل أو أحلام إلى حقائق، فالفعل الذى قام به القاتل الأول كان هدفه الأوحد والأهم هو تخويف الضحية، وليس تحقيق موته. أما القاتل الثانى فيبدو أنه كان عنده هدفان على الأقل: قتل ضحيته جعله يصرخ ويتألم وهو يموت.. وقد يكون للأفعال أكثر من هدف،

والأهداف قد تتطلب عدة أفعال كي تتحقق. وتختلف الأهداف مـن حيـث أهميتهـا بالنسبة إلى الفاعل مقارنة بأهدافه الأخرى وبمرور الوقت، كما هى فى الحالة الأولى مع الرجل الذى بدأ بالقتال وكان هدفه سهلاً وبسيطًا لكنه تغير وتعقد- وقـد يـستمر الهدف فى بعض الأحوال لوقت طويل قبل التغير وفى بعضها الآخـر يتغيـر فـى لحظة- ويعتمد هذا على انتباه الفاعل وعلى قدرته على الـتحكم فـى سـلوكه[٢١]. (وسوف نرى فى الفصل الرابع كيف أن هذه التغييرات السريعة سببها وأساسها فـى تركيبة ومهام المخ).

ونتأثر أهمية الهدف بقدر ومدى رغبة الفاعل فيه، وهذا بدوره، كمـا سـوف نرى فيما بعد، يتأثر بخبرة الفاعل وبمقدار الفائدة والرضى الذى يحصل عليـه مـن إنجاز هذا الهدف أو أى أهداف مماثلة، فالطفل الذى يلعب بمكعبات البناء (وهل مـا زال الأطفال يلعبون بها فى وقتنا المعقد هذا !)؛ قد يبدأ اللعب وهدفه بناء قلعة عالية، إلا أنه قد يكتشف فورًا أن هدم القلاع شيء أسهل وأكثر إمتاعا من بنائهـا؛ فيـصبح الهدف الهدام والتدميرى الذى لم يخطر بباله قبل ذلك، هو الذى يحكم سـلوكه الآن. وبالمثل، فإن القاتلين اللذين نتحدث عنهما قد يكونان فى البداية لهما هدف منفرد هـو إيلام أو تخويف الضحايا فقط، ثم أصبحت فكرة القتل هدفًا مرغوبًا فيه باطراد حتـى صار هدفًا مهمًا بالقدر الذى يكفى للعمل على تحقيقه، وقد يكون القاتل الثانى قد فكر أو لم يفكر من البداية فى أن قتل ضحيته هو هدفه المرغوب فيه، وإن كان هذا حاله فإنه لن يأسى بقدر كبير لما حدث مثل القاتل الأول. ويؤخذ القياس نفسه بالنسبة إلـى معاناة الضحية، فالأول يُحدث المعاناة لفترة وجيزة وهدفه هو إخافة الـضحية. أمـا الثانى فيبدو أن إحداث الألم والمعاناة هو وسيلة وغاية (هدفًا) فى حد ذاتـه. وعلـى خلاف الحالة الأولى، فإنه ارتكب جريمته لأنه يستمتع بما فعل.

وجهان للقسوة:

وكى نفرق بين الرغبة فى تحقيق هدف لأنه مرغوب فى حد ذاته أو لأنه خطوة تجاه تحقيق هدف آخر، فعلينا العودة إلى تعريف القسوة فى قاموس أكسفورد الذى أشرنا إليه سابقا: وهو يصف القسوة بأنها "الابتهاج أو اللا مبالاة بآلام أو بؤس الآخرين". ويأخذنا هذا إلى الحيرة حول ما يُعتبر ضربا من القسوة؛ ذلك لأن اللا مبالاة والابتهاج يبدو أنهما مختلفان جدا فالكلمة الأولى تشير إلى الحيادية التامة الناتجة عن ذهن عقلانى يزن الأمور، أما الثانية فهى كلمة تدل بوضوح على العاطفة. وتقودنا اللا مبالاة إلى فكرة المكسب والخسارة، أى إلى تقييم دوافع الفاعل ومستوى معاناة الضحية. أما الابتهاج فيأخذنا إلى مجال المبادئ الأخلاقية لأن الاستمتاع بفعل القسوة هو زلة أخلاقية وخطأ أخلاقى صرف.

وإذا هاجم شاب سيدة مسنة ليحصل على نقود يشترى بها جرعة مخدرات، فهو لا يبالى بمعاناتها، أو على الأقل فإنه مهتم بحاجته لهذه "الكيمياء" أكثر من اهتمامه بآلام المرأة، لكن هل ما دفعه لذلك هو الحصول على البهجة من إيذائها؟ ربما الحال غير ذلك، ولو أنه وجد طريقًا آخر لا يؤذيها، للحصول على المال أو المخدر، لسلكه وعمل به، قائلاً إن هدفه الأول هو المال وليس تعذيب هذه السيدة. فالضرر الذى ألحقه بها هو وسيلة لغاية تهمه كثيرا. وإذا فكرنا كيف نعاقبه على سلوكه الخاطئ فعلينا اللجوء إلى المنطق كى نُقيم دوافعه والهدف من فعله والظروف التى دفعته لذلك ثم نضعها فى مقابل الضرر الذى وقع على السيدة المسنة، وعندما نصف سلوكه بأنه خاطئ؛ فنحن نؤكد أنه كان من الواجب عليه أن يلتزم بوازع أخلاقى قوى يمنعه من ارتكاب فعله. وبمعنى آخر فإننا نظن أنه يُقيم الأهداف

والرغبات والمكسب والخسارة بالآليات النفسية نفسها التى نستخدمها نحن. فإننا من موقعنا كقضاة لا نفكر فى قصده وغايته (كسب المال وإرضاء نزوعه للمخدر) التى تبرر الوسيلة التى اتبعها (إنزال الفزع بسيدة عجوز). وعلى كل حال، فإننا نقبل أن هذا المهاجم على الرغم من أنه سبب المعاناة بإرادته لسيدة مسنة لا حول لها ولا قوة؛ فإن هذا لم يكن السبب الأساسى الذى دفعه للهجوم عليها، بل إن الهجوم كان وسيلة لتحقيق هدفه المباشر (الحصول على المال)؛ كى يصل إلى غرضه الجامح وهدفه فى الحصول على المخدرات.

وإصدار الأحكام بهذا الأسلوب يعتبر القسوة نوعًا من جمود القلب والمشاعر يلزم التعامل معه بالمنطق: البحث عن الدوافع والحافز والعوائق المانعة، إننا سنشعر بالحنق والغضب تجاه المهاجم، ولكن عموما هذا الغضب لن يطغى على اهتماماتنا الأخرى. إن رغبتنا الفطرية هى العقاب لكننا أيضًا نريد الإصلاح ونشعر بأن هناك أملاً فى صلاح المجرم حديث السن، إذا جعلناه قادرًا على الندم. وأسباب فعله هى جزء من نفسيته لكنها أسباب قابلة للتغيير.. فالجهل والكسل والاندفاع وحاسة غير ناضجة تأبى التعاطف مع آلام الغير، علاوة على رغبته "الكيميائية" فى الحصول على المخدر جعلته يُعلى سلوكه ضد المجتمع فوق القيم الواجبة تجاهه. وإذا ما جعلناه يراجع قائمة رغباته ويعتبر إيذاء سيدة مسنة فعل لا تبرير له، لأمكنه أن يصبح مواطنًا نموذجيًا؛ إلا أننا لا نلتزم العقلانية والهدوء دائما ونطالب بالسجن ونأتى بالشهود على ذلك، لكننا لا نملك دفاعا ضد هذه العاطفة العنيفة فى منظومتنا القانونية على الرغم من عوراتها وجوانب النقص فيها، علينا أن نجعلها مُصممة لتتبنى الفكر العقلانى حتى فى حالات القسوة الشديدة.

وهناك حالات بالغة القسوة، مثلما ذُكر فى دراسة عن القسوة ضد الحيوان، عن رجل قام بدفن قطة فى حديقته حتى رأسها ثم جزّ الرأس بآلة قص النجيل(٢٢).

لقد بذل الجهد لينفذ هدفه الجامح هذا ولا يمكن إطلاقا تفسير عمله بأى، غرض غير معلوم ولا ندركه. إن كان الغرض "تسميد" حديقته؛ فهناك طرق أسهل وأفضل، ليس لدينا تفسير بديل؛ لكن المؤكد أن دافعه كان القسوة كهدف قائم بذاته.. أى الابتهاج بسبب إيلام الغير والإيذاء والتدمير فقط من أجل الإيذاء، لذا فنحن نرى قسوته كفعل سادى ومنفر أخلاقيا ورد فعلنا تجاهه عاطفى لأقصى درجة: الفزع، الشفقة والأسف، الغضب الشديد.. وأكثر من ذلك كله القرف والاشمئزاز، وسيكون من الصعب حينئذ الالتزام بالهدوء والمنطق وأن نزن الضرر والفائدة عندما نقرر كيف نعاقب هذا المجرم أقسى عقاب.. والأسهل هو محو هذا التفكير المفزع فيه وفى جريمته من ذاكرتنا تماما، كما لو كان مجرد التفكير فى مثل هذه الأمور وباء ينشر العدوى وهذا هو أعلى درجات الحكم الأخلاقى.

كلمة "قسوة " تستدعى حكمًا أخلاقيًا:

القسوة سلوك غير مبرر يقع على ضحية لا تستحق الإيذاء، أم أنها عقاب ملائم أحيانا؟ هذا التبرير يأخذنا إلي عالم الأخلاقيات، لنحدد ما هو السلوك الخاطئ أو القويم.. والضرر الواقع على الضحية يلزم أن يقيم بحيدة عاطفية إلى حد ما، أما عدوان المجرم فيقيم بمعايير علمية.. والقسوة التى تتضمن ضررًا وعدوانًا بينًا بها مكون إضافى يرتبط بالأخلاقيات؛ لأن أسباب الفعل القاسى ليست صالحة أو مقنعة بالقدر الكافى.

ولو رجعنا إلى المثال الذى ذكرناه عن جلسة المحاكمة فى جريمة ينظرها محلفون، فسوف نفترض أن هناك دليل إثبات على العنف الذى وقع على المرأة، ودليلاً على ما ترتب عليه من رغبتها فى الدفاع عن نفسها. وستكون مهمتك كأحد

المحلفين أن تُقيم إذا ما كان هذا الدافع له ما يبرره؛ حيث يجعلها تتصرف كما فعلت. وأنت كمحلف لديك مجموعة هائلة من القوانين والأعراف ترشدك وتوجهك للحكم لكن اختياراتك محددة، خصوصاً إذا كانت المتهمة قد اعترفت بارتكاب جريمة القتل. مبدئيًا كل ما عليك فعله هو تمحيص الأسباب والتفاصيل الواردة في خلفية القضية: العوامل المحفزة على الفعل، ما عليها وما لها، ومن هذه الحسابات يأتى الحكم، أما فى الممارسات الفعلية فقد أظهرت بعض البحوث أن هيئة المحلفين مثلنا ينحازون بسبب عوامل مثل حالة المتهمة ومظهرها، وسلوكها وتصرفها. كما أن المجرم الوسيم حسن المظهر والشخصية من المحتمل أن يُخفف عليه الحكم أكثر من المتهم القبيح الفظ وغير الودود.. وهذه الأنماط والمظاهر تؤثر فى نتائج الأحكام(٢٣).

وعندما يطلب القضاة من هيئة المحلفين التحكم فى ردود أفعالهم الأخلاقية لصالح التفكير العقلانى المنطقى، فإنهم يرتقون بشكل الأحكام التى نريدها متزنة ومنزهة؛ مع تحليل الأسباب والمبررات والضرر والفائدة؛ حتى يمكن التوصل إلى قرار ملائم. وهذا هو الإطار الذى نتبناه كمشاهدين محايدين بعيدين عن الأحداث التى نحاول تفسيرها وتقييمها(٢٤). وهذا هو المنطق المثالى المتعقل، تفكير فى تؤده وتجرد، وحكم دون الالتزام بأى انتماء. وربما يقدم ذلك تحليلاً للسلوك الإنسانى دون مرجعيات أخلاقية (كما فى العلوم الإنسانية مثلاً)، أو قد يشمل ادعاءات ومرجعيات أخلاقية كما يحدث فى قاعة المحكمة.

التفسير الأخلاقى المعتدل :

يرتبط اتخاذ القرار الهادئ عن تدبر فيما يرتبط بمجال مبادئ الأخلاق غالبًا بالتفكير فى المنفعة ولا يلزم أن يكون القرار ذاتيا أو رسميًا. إنه فقط غير أنانى حتى يحقق فى فلسفة جيرمى بنثام "Jeremy Bentham" أكبر خير لأكبر عدد من

الناس[٢٥]. ومذهب المنفعة الذى يرى أن تحقيق أعظم الخير لأكبر عدد من الناس يجب أن يكون هدف السلوك البشرى بالفعل، فيحقق حيدة واضع القانون الذى يمنح المنافع للناس ولا ينال نفعا خاصا به. لكن، فى الواقع، حتى أكثر القوى العقلانية قابلة للانحياز. الحواسب تعمل بكامل الحيدة وبالمنطق البارد؛ لكن عقل الإنسان مهما عمل بفكر متجرد، يراعى النفع الشخصى، كذلك فإن تقييم الدوافع والنوايا والأسباب والمبررات – ونحن خبراء فى التبرير – يتم وفق المنفعة والضرر للناس المعنيين، جموع المجتمع الأكبر، ومن يقوم بالتقييم. والتحيزات التى تؤثر فى الأحكام، سواء أدركنا ذلك أم لم ندرك، هى: المعرفة، التعقيدات، والميل الشخصى؛ ولأننا لم نمارس ذلك بالطريقة نفسها التى نخضع بها للعواطف (أى اللجوء للاعتدال والمعرفة أكثر من الانفعال والعاطفة؛ فإننا نميل إلى عدم ملاحظة وجود العاطفة)، ولأننا باعتبارنا بشرًا نفضل ما نعرفه والأمور الواضحة البسيطة، والناس الذين يشبهون من يحكم، فإن ذلك قد يجعل حتى القاضى أو الفيلسوف ينحاز، وليس فقط الأفراد العاديون غير المدربين على التفكير العقلانى.

وعندما أصف الفكر بتشبيه يستخدم مفردات قياس الحرارة (بارد وساخن)؛ فإننى أستخدمها كناية عن العقلانية والعاطفة[٢٦]. ومثلها كثير من الاستعارات التى تشير إلى أعضاء الجسم (الرأس أو القلب مثلا)... وفى هذه الحالة، فإن الانفعال الذى تتيحه هذه الأعضاء يصاحبه رد فعل يُجّهز الجسم لحركة سريعة مندفعة وعنيفة. وليس كل إنسان غضبان وجهه أحمر ويتصبب عرقًا لكن هذه هى الصورة المجازية و"الكاريكاتورية" للانفعال، واستعارة ألفاظ الحرارة (بارد وساخن) تنطبق أيضًا على أنواع مختلفة من الانفعالات والعواطف؛ فالقرف والاشمئزاز مثلاً "أبرد" من الغضب، والحب عاطفة أدفأ من الإعجاب أو "الميل"، وهكذا.

وعلى هذا؛ فإن الأحكام الأخلاقية "الباردة" ليس معناها أو مردها السير على درب سقراط ومن تبعه من الفلاسفة، وهو التطبيق الدقيق للقواعد المنطقية؛ بل إنها تأخذ فى الاعتبار أيضا الدوافع والموانع وحسابات المكسب والخسارة، والعمل على ما يسميه الاقتصاديون "المنفعة المتوقعة".. وبطبيعة الحال؛ فإن الأفراد لهم معتقدات مختلفة ومعارف وميول وتحيزات تؤدى بهم إلى الاختلاف فى الاختيار والحكم (فقد يكون الملهى الليلى متعة عطلة نهاية الأسبوع بالنسبة إليك ويكون "جهنم" فى نظرى).. وهكذا تكون عملية الحكم والتقييم، وما يفضله رجال الاقتصاد هو الاختيار المنطقى، أما ما يعكسه الواقع فهو الاختيار "شبه المنطقى"، باعتبار كل هذه التحيزات خافية ولا نعلن عنها.. أى أن الحكم على قرارات الآخرين يصبح عبارة عن تقييم لحصافة رأيهم وصواب تفكيرهم ومعقوليته قياسا على فهمنا نحن للعقلانية والمعقولية، ولو حكمنا فى موضوع عدوان " فلان" على "علان" لأن الأخير أساء إلى زوجة الأول؛ فسوف تختلف آراء الأزواج والزوجات بخصوص موضوع كهذا، فالأحكام المختلفة تركن إلى مضامين ما تدعو إليه الأخلاق بدءا من الأفكار الحديثة شديدة المثالية عن التجرد وحقوق الإنسان إلى الآراء شديدة القدم عن العلاقات والروابط الإنسانية. وإذا كان حكمنا فى هذا الموضوع بالاستنكار والرفض فما العقوبة المناسبة التى يستحقها "فلان"، وإذا كانت الإجابة بالموافقة فما الادعاءات التى تساند وتبرر ذلك العنف والعدوان، وما الإشارات التى ترسلها هذه المسألة فى الحالتين للمجتمع، وما العواقب المحتملة لنا جميعا؟ وفى الأساس ما تأثير هذا الحكم فى كل فرد بصفة شخصية؟

وتستخدم العقلانية إطار الارتباط بالسبب الذى يفسر سلوك الآخرين، وهى تقلل من وزن الانفعال وتحُد من تأثير العواطف القوية عند الحكم، وقد تتدخل العاطفة لكنها لا تؤدى إلى أحكام الحسابات، وعندما نلجأ إلى الاستعارة ثانيا نقول إن

الحسابات لا يصح أن تكون "دافئة" بالقدر الذى يذيب بلورات المنطق، ولـو ارتكـز التفسير والتأويل الأخلاقى على القرارات النفعية المعقولة التى هى بالأسـاس تجعـل القانون "أعمى" عن شخصية من يحكم عليهم، فسوف يكـون ذلـك أساسًـا لـسلطة القانون.. أما "سخونة" العاطفة فسوف تغير قراراتنا، والقياس الشهير الذى اسـتعاره أفلاطون من فيدراس "Phaedrus" (*) عن حوذى (قائـد عربـة حنطـور) يحـاول السيطرة على جياده ربما تكون هنا استعارة مجازية مناسبة للتحكم العقلانـى. وفـى ثقافتنا الخاضعة للتراث الإغريقى "والحرارة" اللازمة للفكر، فإن هذا التـشبيه يـتكلم عن عواطف جامحة أو محاولة "الحوزى" للتحكم فى رغباتنا، ولقد عدل علم دراسـة الأعصاب الحديث هذه الصورة القديمة بأن أعطى دور الحوذى الـذى يـتحكم فـى الجياد إلى قشرة الفص الجبهى فى المخ ودور الجياد إلى المناطق الطرفية من المخ: وهى الأجزاء المدفونة بعمق والتى تنظم فيها الانفعالات والعواطف(٢٧).

مبادئ الأخلاق "الساخنة":

فى الممارسات العملية تظهر العواطف بأشكال عديدة، وليس فقـط كعاطفـة قوية أو كامنة – والتفكير العقلانى لن يكون حوذيًا قويًا فقط لكنه قد يكـون مراهقًـا مبتدئًا. والمشاعر المتزنة والتفكير العقلانى يتأثران بكل شىء بدءًا من الجينات إلـى التوقعات الثقافية، ومن التجربة الفردية الشخصية إلى نوع الطعام الذى تناولناه فـى الإفطار. وما يتبقى لنا من قياس أفلاطون هو أن العقلانية والتفكير يتطلبـان جهـدًا ووقتًا(٢٨) وعندما نكون مراهقين، أو جوعانين، أو نريد التصرف بسرعة؛ فإننا نلجـأ إلى نوع من التفكير النمطى المستهلك، مع ردود أفعال سـريعة فنكـون معرضـين للخطأ. وسوف نصبح أيضا أكثر عرضة للتصرف وفق عواطفنا.

(*) فيدراس كاتب وقصاص رومانى عاش فى القرن الأول الميلادى.

ولو فكرنا فى حالة تلميذة تواجه الاختيار بين أن تتحدث أو لا تتحدث مع صديق نبذته جماعتها من الأصدقاء؛ فإن بإمكانها أن تحسب ما هو مع أو ضد الانضمام للصديق والمجازفة بانتمائها لمجموعة الأصدقاء.. ولو أعطت لكل سبب درجة وتقديرا حسب العواطف التى يثيرها: الخوف من اضطهاد وتنمر الأصدقاء، أو الشعور بالشفقة والعطف تجاه صديقها ... وهكذا. فإذا كان الأكثر أهمية لها أن تبقى مرتبطة بمجموعة الأصدقاء، فليذهب الصديق، وإذا كان اهتمامها بالصديق أكبر فعليها أن تبدى الشجاعة وتناصره، ولو كانت هذه التلميذة تهتم بالصديق، فإن رد فعلها على اختيارات أصدقائها لن يكون، غالبا، تقييما هادئا؛ فالشفقة والعطف على الضحية والغضب والاحتقار تجاه مضايقات الجماعة والخوف على مكانتها معهم، والاعتقاد الجاد بأنهم يخطئون فى حقها، كل هذه المشاعر ستزيد من رد فعلها العاطفى وهى لا تزال تتخذ حكمها على سلوك الناس الآخرين، لكن بدلا من أن تُقّيم ما لهم وما عليهم، سواء بالأخذ فى الاعتبار المبادئ السامية للاخلاق أو إغفالها، فإنها تلجأ إلى إطار غريزى مبدئى فى الحكم فيه تقييم أفعال الناس على أنها جيدة أو رديئة، أو عدائية، أو تدعو إلى الفساد أو النقاء، قاسية أو رحيمة.

وبالفعل، فإن كلمة "تقييم" تعكس طبيعة قوة وسرعة العمليات التفسيرية المصاحبة لها.. وهذا هو الفكر "الساخن"؛ ونعنى به أن التقييم الأخلاقى سريع وآلى ومناهض لأى نقاش أو مداولة(٢٩). وبمجرد أن يوصف الفعل بأنه مقيت أو بغيض فإن أهداف الفاعل، حتى المعتدلة منها، سيكون من المستحيل أن تكسب تعاطف وتجاوب القضاة.. وأى وصمة أخلاقية تبقى وتدوم حتى إن أغفلت مبرراتها نهائيا، وأوصاف الفضيلة تعتد بالعواطف التى تتسم بالقوة. أما أقوال الجرائد والصحف الصغيرة فتعتمد على النزعة العاطفية لدى البشر، وتستخدم اللغة والصور التى تثير

العواطف والمشاعر بشدة فى قرائها، والعواطف السلبية بصفة خاصة لها تأثير كبير[٣٠]؛ فالغضب والخوف والاشمئزاز يجذب المشترين والقراء لهذه الجرائد.

وكما أشرنا سابقا، فإن العواطف فى نهج الفكر الغربى يُنظر لها عادة كشئ مضاد ومعاكس للفكر العقلانى.. وكما سوف نرى فى الفصل الخامس؛ فإن الكشف العلمى عن أهمية العواطف فى اتخاذ القرار يُشير إلى ظهور فروق ضئيلة فقط فى الأحكام؛ ومن حيث دور العاطفة فى التقييم، ينظر علم طب الأعصاب إلى العواطف كنوع من الذكريات المحفورة فى العقل عن نتائج قراراتنا فى تجارب سابقة؛ فهى مذكرات لمن يجئ بعدنا كما وفر لنا أسلافنا فرصة فى إعادة التدبر والتفكير فى مواقف سابقة مشابهة ومألوفة؛ فإن الإنسان لو كان يشعر بالمرض أو بوعكة فى كل مرة يأكل فيها نوعا معينا من الطعام، فسوف يشعر بالغثيان كلما رأى هذا الطعام- حتى إن لم يتذكر أنه مرض عندما أكله فيما سبق.. وهذا الشعور المزعج الذى أصابه هو رسالة من الذات ومن التجربة السابقة معناها "اجتنب هذا الطعام" ! وكانت العاطفة تخدم الإنسان وتقوم بهذه المهمة عندما بدأ الجنس الأول من بنى البشر فى استخدام اللغة والتفكير بالرموز، والآن يمكننا استخدام هذه الآلية فى كتابة مذكراتنا لمن يخلفنا ولأنفسنا للإفادة منها فى المستقبل.. إننا سوف نختزن فيها تقييماتنا وأحكامنا السابقة حتى نحّدد ردود أفعالنا المستقبلية، ولن نحتاج فى تقييماتنا إلى استخدام المنطق والعقلانية إلا فى المواقف الجديدة والمعقدة (التى لم نخبرها سابقا).

فإن أحكامنا الأخلاقية السريعة ليست ببساطة تقييمات تتمحور حول الذات (هل هذا يفيدنى أو يضرنى، أم أنه غير ذلك تماما)، والحيدة لازمة فى القضاء؛ لأن الأحكام تُطبق على أناس ومواقف بعيدة عن القاضى ولا تمسه من قريب أو بعيد، وهو أيضا يعارض ويترفع عن التقييمات التى تجلب الكسب الشخصى حتى لو لجأ

إلى التفكير البراجماتى النفعى، وقد يشعر بالذنب والندم والخزى عندئـــذ.. فكيـــف يكون ذلك؟

التعاليم الأخلاقية ومنظومات الأخلاق:

من بين الأفكار العديدة غير المألوفة التى سادت فى الثقافة العلمية الرأســمالية الحديثة فى الغرب؛ كانت فكرة أن المثل الأخلاقية العليا شىء إضـــافى واختيـــارى، ونظر إليها بعض المفكرين باعتبارها أداة سياسية ابتكروها للسيطرة على الجماهير، أو باعتبارها وسيلة للقهر سوف تنقشع بظهور نظم سياســية أفــضل (كالاشـــتراكية والشيوعية). ورآها بعض آخر إرثًا قديما نشأ عن عدم الفهم البدائى للأمور وأصـــبح تكراره مملاً فى زمن العلم. بينما استخف بها آخرون باعتبارها عقبـــة فـــى ســـبيل المتعة الذاتية وإشباع الرغبات[٣١]. ويبدو أن هؤلاء المفكرين (سواء دعاة الفردانيـــة أو الماركسية أو الاشتراكية الاجتماعية أو التعبير الذاتى) كانوا يفترضون أن التعاليم الأخلاقية يمكن أن تزال أو تستأصل من الثقافة بإعادة النظر فى التعليم الملائم.

لكن التعاليم الأخلاقية أكبر من أن تكون ميلاً أو نزوعًا ثقافيا، وقد كـــشفت الأبحاث فى علم النفس النشوئى وعلم النفس المقارن وعلم الأجناس وعلم دراســـة الجهاز العصبى؛ أن تعاليم الأخلاق عامل له ثقل ووزن كبير فى عالم الرموز ولها جذور ضاربة فى الطبيعة الإنسانية. ومما توصل له علمـــاء الأنثروبولـــوجى أن هناك شكلا ما من القوانين الأخلاقية والشاملة لدى جميع الأجناس، فكل المجتمعات الإنسانية التى تمت دراستها حتى الآن تخضع لسلطان القيم وتتشارك فـــى أنمـــاط أساسية منها، مثل الأفعال الجبرية والمسموح بها والممنوعة، كما يـــتعلم الأطفـــال تيارات الأحكام الأخلاقية بالسهولة واليسر نفسهما الذين يتعلمون بهمـــا اللغـــة[٣٢].

وكما هى الحال فى اللغات؛ فالمضمون المعين يختلف، لكـــن البنيـــة- القواعـــد – الخاصة بالمنظومات الأخلاقية تبدو أنها متماسكة جيدًا عبر كل الثقافـــات، مثلمـــا توجد الأسماء وصيغ الاستفهام والأسئلة فى كل اللغات، وبالمثـــل فكـــل التعـــاليم الأخلاقية والسمات مصنفة كفئات مثل: "نقى "، "مدنس"، " يستحق الثناء"، "يـــستحق اللوم" و"مسئول " أو "غير مسئول". وقد وجدت الأبحاث فى علم النفس المقارن أن هناك مفاهيم وسلوكيات أخلاقية أساسية – مثل: العـــدل، الإيثـــار وحـــب الغيـــر، العقاب، والتبادلية (فى العواطف والخير)- فى أجناس وأنواع من البشر غيرنا[٣٣]. وقد أشار ناعوم تشومسكى "Noam Chomsky" إلى أن سهولة تعلـــم اللغـــة عنـــد الأطفال مبعثها وتفسيرها وجود استعداد فطرى لذلك عند الأطفال وينطبق الوضـــع نفسه على القدرة على معرفة مبادئ الأخلاق، وجاء ذلك بوضوح فى كتاب مـــارك هوسير "Marc Hauser" وعنوانه "العقل الأخلاقى : ملخص واف للأبحـــاث عـــن إدراك الحيوان للأخلاق"[٣٤]. ولو كنت مستعدًا لتقبل رأى تشومسكى بالكامل؛ فإنـــه سيكون من الواضح أن تعليم مبادئ الأخلاق ليس فقـــط "شـــطحات بورجوازيـــة" أو منظومة للتحكم السياسى، مثلما أسعد المفكرين الراديكاليين اقتراحهم هذا، لكـــن الأرجح أن ميلنا إلى الحكم على الآخرين يبدو أنه موهبة – نعمة أم نقمة- نتيجـــة للانتخاب الطبيعى (فى نظرية النشوء والارتقاء)، إنه مثـــل أى نـــزوع، كتفـــضيل الحلوى مثلاً، أو قد يكون نتاج عقول كبيرة.

وهكذا يوصف بنو الإنسان غالبًا بأنهم مخلوقات تعيش فى عالم من المبـــادئ الأخلاقية ولديهم استعداد منذ الميلاد بقدرة فطرية أن " يلتقطوا" القـــوانين الأخلاقيـــة لمجتمعهم، تمامًا كما يتعلمون لغة مجتمعاتهم بصورة طبيعية. وفى الواقـــع نحـــن لا نعيش فى عالم أخلاقى واحد بل فى عالمين، فعندما نتحدث عن "الفضيلة"؛ فإننا غالبًا نعنى التقييم العاطفى السريع للصديق والعدو، للخير والشر، ويبدو هـــذا لنـــا شـــيئًا

طبيعيا مثل التنفس؛ ولكننا في أحيانٍ أخرى قد نشير إلى منظومة أخلاق وإلى أفكار مجردة عن الفضيلة، أو إلى تصنيف للتعاليم والمشاعر الأخلاقية المستمدة من مصادر علمية، وكلها تختلف كثيرا عن الفهم الفطري الغريزي للخير والشر والصواب والخطأ[٣٥]. وعلينا أن نميز ونفرق بين هذه المشاعر، فهي إما مبادئ أخلاقية أساسية وإما مبادئ وضعية مركبة.

والمبادئ الأخلاقية الأساسية قديمة أزلية، وهي نسبيا بسيطة ومتشابهة في الثقافات المختلفة. وكما سوف نرى في الفصل التالي، فإنها محكومة بقواعد تؤدي إلى الرعاية وإلى الحفاظ على أنفسنا وأهالينا، وإلى التعاون بين أفراد الجماعة، وأن نفضل صحبة من يماثلوننا من الناس، وأن نحذر الغرباء، وألا نستفيد من الفرص التي تُتيح الغش والخداع والاحتيال بينما نحن نُعاقب الغشاشين الآخرين، وأن يكون رد فعلنا على تهديدات الغير برد عدواني أو حتى بالقسوة[٣٦]. ولقد نشأت الأخلاقيات الأساسية من حاجة الإنسان إلى النجاة والحفاظ على حياته كحيوان اجتماعي في بيئة خطرة، وكان هذا - مما يدعو إلى السخرية - شيئا فعالا باعتباره وسيلة للضبط الاجتماعي. وقد كان الماركيسيون على صواب إلى هذا الحد عندما سمحوا بتكوين جماعات شديدة التماسك، وبالعمل على تقليص الضرر الوارد من جماعات أخرى دخيلة وغريبة؛ وبالاستفادة من تطوير وفرض قوانين اجتماعية للسلوك. ومما زاد القدرة على تعليم مبادئ الأخلاق وجود الملاءمة الجينية والتواؤم النوعي لدى أفراد الجماعة.

وكما يوحي به اصطلاح "المبادئ الأخلاقية الوضعية"؛ فإنها مبادئ أكثر إتقانا من المبادئ الأساسية للأخلاق وتوجد بأشكال تتأثر بالثقافات المتعددة وتعتمد عليها، إنها تحتفظ بالملامح الرئيسية لمبادئ الأخلاق الأساسية: الحساسية المجتمعية، الحس العاطفي، والاهتمام بما يجب عمله وما يتحتم أن يؤدى، وليس ما

هو واقع، كما أن محيطها وانتشارها أوسع؛ فهى تشمل المبادئ المؤسسة فى هياكل القوانين وفى النظرية السياسية- بما فى ذلك، على سبيل المثال، متطلبات سلامة الحيوان وحقوقه، نظرية الحرب العادلة، مبادئ حقوق الإنسان العالمية. ولقد نشأت وتطورت الأخلاق الوضعية من مبادئ الأخلاق الأساسية بفعل ضغوط التحديث الثقافى، عندما أصبحت النظم الاجتماعية الإنسانية أكثر تعقيدًا وخاضعة للمؤسسات وأكثر تجردًا. ويمكن أن تختلف هذه المبادئ الوضعية اختلافًا كبيرًا حتى فى مجتمع واحد وفى وقت واحد (وبين جماعات عرقية مختلفة مثلاً)، أو على مدى فترات زمنية متباعدة (أو إذا اندلعت الحروب).

والمبادئ الأخلاقية الوضعية، مثلها فى ذلك مثل ملكة التفكير، هى نتاج لفترات التمهل والتروى، فقد وضعت بعدما تمكن البشر من إتمام التحكم فى عالمهم وامتلاك بعض الوقت للتفكير والتدبر؛ وبهذا اجتازت البشرية حالة الفكر "البارد" الهادئ إلى الفكر المجرد بعد تطور الجنس البشرى كله أو حتى بعد أن جاوزه. لكن الإنسان إن لم يستطع تدعيم المبادئ المجردة بنظم قوية تحركها العواطف الأخلاقية؛ فإنه لن يستطع التأثير والتحكم الفاعل فى الاستجابات والرغبات الإنسانية الحقيقية[٣٧].. وهذا هو ما تفعله المنظومات الأخلاقية.

وقد يتم التناسق والتناغم بين المبادئ الوضعية للأخلاق والمبادئ الأساسية فى المجتمع نفسه، وتنشأ حيرتنا فيما يتعلق بالهفوات والزلات الأخلاقية أو الانحراف بسبب التوترات بين الاثنين.. ذلك، مثلاً، لأن عالم المبادئ الأساسية للأخلاق قد يتقبل بعض أنواع من القسوة- عندما توجه لمن يمثلون تهديدًا خارجيًا، فالحماية الأخلاقية تغطى المجتمع فى الداخل. وقد تمتد لحمايته (تحت ظروف وشروط معينة) إلى جماعات خارجية يتعامل معها المجتمع، ولكن هذا لا يمتد إلى الأعداء فقط؛ فقد يتحول شريك التجارة والتعاملات فجأة إلى عدو[٣٨].. وبدافع

الحماية تفيد القسوة المجتمع في الداخل ليس على الأقل بإشاعة الترهيب، بل وحتى للحد من المنافسة. ويمكن أيضا أن تتنوع القوانين الأخلاقية داخل مجتمع ما. أما المبادئ الأخلاقية الوضعية لجماعة من المحاربين مثلاً؛ فإنها تتشابه إلى حد كبير مع مبادئ الأخلاق الأساسية أكثر مما تتفق مع المبادئ الوضعية للمدنيين الذين يحمونهم. وتتشابه أخلاقيات كثير من الإرهابيين – نعم، فهم أيضا لديهم مبادئ أخلاقية– مع التعاليم الأخلاقية الأساسية. إلا أنها ترتدى مسوح الأيديولوجية المترفعة والمتعالية.

وعلى العكس من ذلك؛ فإن أحكام المبادئ الأخلاقية الوضعية تنص مباشرة على أن القسوة غير مقبولة تحت أى ظروف، وتعتمد نظرية "الحرب العادلة" على فكرة أن العدوان مُبرر ونسبى، وقد أعلنت مبادئ حقوق الإنسان العالمية بالفعل أن عموم وجميع الجنس البشرى مجتمع واحد. كما أصرت حركة حقوق الحيوان على أن القسوة غير مقبولة حتى على أنواع أخرى من المخلوقات [٣٩]. ولا تقتصر محاولات منع وتحريم القسوة على مجتمعنا بل وتوجد عند جماعات أبعد من المجتمع الغربي الحديث ومثالان على ذلك الديانة اليانية "Jainisn" والبوذية "Buddhism" اللتان تلتزمان بشدة بهذا الفكر – منع القسوة. ومما يجب الإشارة إليه أيضا؛ أنه حتى فى الثقافات التى تناصر وتعلن قيما متحضرة – مثل أثينا فى القرن الخامس قبل الميلاد والولايات المتحدة فى العصر الحديث – فإن الأخلاقيات الأساسية تتفوق على مبادئ الأخلاق الوضعية؛ لأن النخبة القوية تتحيز لمنتسبيها ومن ينتمون إليها – وكلهم أو معظمهم من الأغنياء الذكور البيض– وتستغل الآخرين. وعلى كل حال فقد نشأ المجتمعان – فى أثينا والولايات المتحدة– على نظام العبودية، والتفرقة العنصرية ضد المرأة والأقليات العرقية. واتخذت الديمقراطية كى تستبعد أغلبية السكان (معظم الجماهير)[٤٠].

وعلى خلاف الحال فى أثينا؛ فقد عدلت الولايات المتحدة من مبدأ المساواة والقيم الديمقراطية بدرجة غير مألوفة فى التاريخ؛ نظرًا لضغوط قوية مختلفة؛ فالنساء فى أثينا مثلاً لم يحصلن على وظائف ومراكز سياسية؛ فإنه فى الغالب الأعم – فى السياسة الدولية مثلا– ما زالت القواعد تطبق بصورة انتقائية على الأمريكان أنفسهم وليس على أعدائهم المزعومين، مثلما هى الحال فى الكوارث الأخلاقية التى تحيط "بالحرب على الإرهاب" والتى أصبحت ظاهرة وبادية للعيان[٤١]. ويتماشى هذا التحيز وهذه المحاباة تمامًا مع مبادئ الأخلاق الأساسية لكنه لا ينسجم ولا يتواءم مع المبادئ الوضعية التى تدعى أنها لا بد أن تطبق عالميًا، كما هو فى النموذج الأمريكى، فالمعتقدات والأفكار فى المبادئ الوضعية نتمسك بها عاطفيا إذا كان لها صدى مع العواطف الأخلاقية الأساسية، لكن إذا حدث تصارع بينهما؛ فإنه من المحتمل أن تكون الغلبة للمنظومة الأقدم.

التحول إلى التقمص العاطفى (التعاطف):

كى ندلل على الاختلاف بين مبادئ الأخلاق الأساسية والوضعية، علينا أن نتدبر المشهد التالى: هناك فتاة (سوف نسميها "جين") تشاهد نشرة الأخبار، فتسمع تقريرًا عن موت امرأة صغيرة، ويقال اسم الضحية فتعرف أنها ابنة إحدى الشخصيات العامة، والذى تكرهه "جين" بسبب إساءته المتعجرفة للآخرين على الرغم من أنها لم تلتق به أبدًا. وتشعر "جين" بمشاعر مختلطة: تقمص عاطفى "دافئ"، إدراك ضعيف للضرر الذى حدث، وربما شعور بالارتياح؛ لأن فاجعة الموت لم تصب أحدًا من معارفها، أو من المحتمل أنها أحست لمسة من الحزن أو التشفى، وأيضًا شعرت بشىء حتمى ومفروض من الإثارة بسبب علاقتها

بالحادث من خلال معرفتها ومعلوماتها عن الأب المشهور.. هـذا هـو رد فعلها الفكرى العقلانى "البارد والهادئ" الذى يُقيم الحادث حسب اهتمامها هـى وقيمها الأخلاقية المجردة التى تزن ما يخصها من المكسب والخسارة، والتى "تفكر" بها وتصل إلى النتائج فى جو من العاطفة المعتدلة.

وعلى الرغم من أنها تكره الأب المفجوع والمُبتلى، فإنها لا ترتبط شخصيًا بهذه المأساة، والنفعية (البراجماتية) المحايدة تكفى هنا؛ لكن "جين" فتاة صغيرة ذات مبادئ أخلاقية. وهى تشعر بالذنب لأنها اكتفت بالبرود واللا مبالاة. هذا هو تـأثير مبادئ الأخلاق الأساسية، فالناس فى ثقافة "جين"، خاصة النساء، من المتوقـع أن يكونوا متعاطفين ومهتمين بالغير وهى تعرف ذلك.. وبناء على هذا فإنها قد تـدعم وتساند حاسة التعاطف لديها وتسحق وتخمد الميل إلى التشفى، وربما تؤنب نفسها وتستنكر الإثارة وتُبدى شيئًا من التعاطف، ثم تعبر عن رأيها بكامل وعيها: حتـى المتعجرفين والمتغطرسين لا يستحقون فقد بناتهم.

وبعد ذلك؛ يقدم قارئ النشرة مزيدًا من التفاصيل.. فالفتاة فـى يـوم عيـد ميلادها الحادى والعشرين تعرضت للاغتصاب وطُعنت عـدة طعنـات وتُركـت لتموت – وهنا ارتعدت جين لا إراديًا، وما أحسته الآن من فزع وشـفقة هـو رد الفعل المرتبط بمبادئ الأخلاق الأساسية؛ وقد قادها ذلك إلى تعاطف أقوى وأعمـق مع هذه الأسرة، مع رغبة جارفة فى رؤية الفاعـل يعاقـب. لقـد شـعرت الآن بارتباطها بالفتاة بطريقة لم تُحسها من قبل.

إن كل ردود الفعل من جين مبعثها العواطف وإن اختلفـت حـدتها. وهنـاك معنى واحد لم يتغير إنه الحادث؛ فالفتاة قد لقيت حتفها، ولا يهم كيف قتلت. لكن مـا تغير حقًا هو رد فعل جين تجاه هذا الخبر. لقد بدأت تتقمص المـشاعر، ويبـدو أن

تقمص المشاعر قد يفيد كتحول عقلى يستدعى مفاهيمنا عن مبادئ الأخلاق الأساسية ويشعرنا بالارتباط بها والوعى بها فى حالات لها تأثيرها علينا. وكما سوف نرى فتقمص المشاعر ليس هو التحول الأوحد الذى يرتبط بالآخرين، فالمعتقدات أيضا من الممكن أن تطلق ردود الأفعال الأخلاقية – أو أن تكتمها وتخمدها.

ملخص وخاتمة:

القسوة شيء قديم قدم الإنسانية، إن لم تكن أقدم، وهى فى الأساس سلوك إرادى غير مبرر بسبب معاناة متوقعة لضحية أو ضحايا لا يستحقونها.. وقد تتضمن القسوة عدوانا جسديا أو إهانة أشد حدة وإيلاما. لكن الهدف منها هو أن تجعل المستهدفين منها يعانون حسيا أو نفسيا ومعنويا.

والسلوك القاسى طوعى وإرادى أيضا، غير أن الإيذاء يصبح رغبة قوية وطاغية جدا فى بعض الأحيان؛ حيث يسمى نزعة "قهرية"، إلا أنه بالإمكان التحكم فيها إلى حد ما؛ ومن ثم فإننا قد لا نحتاج كثيرا إلى عبارات مثل "اندفع إلى الشارع ليقتل كل من يصادفه". " فقد السيطرة على نفسه". أو "أصابه سعار القتل". وتختلف هذه "الأنماط" تماما عمن يطلق عليهم "مجرمون ملزمون" مثل مرتكبى جرائم الاغتصاب، أو قتل الأطفال أو معتادى القتل المتكرر. فهؤلاء يخططون لجرائمهم بعناية ودقة، وقد يمتنعون عن ارتكاب الجريمة فى آخر لحظة، أو يكتمون الرغبة فى القتل لعدة شهور أو سنوات.. ونحن نحكم على هذين النوعين من الضرر والإيذاء بأنهما يصدران من فاعل مسئول عن فعله؛ لكننا نأخذ فى الحسبان العوامل المحفزة على ذلك مع شيء من المرونة الأخلاقية والقانونية، والفعل الحر مسألة درجات ورتب!

وعلاوة على ذلك؛ فإن القسوة مفهوم أخلاقى.. ومن يقدم على إيذاء الغير لا بد أن يبرر أفعاله. فإن السلوك القاسى معرض للعقاب ممن لا يجدون مبررا للفعل. وتبعا للظروف، فإننا نشكل أحكامنا الأخلاقية بطرق مختلفة: بسرعة. أو بالرجوع إلى الحس والعاطفة الأخلاقية التى ورثناها عبر الانتقاء الطبيعى مع

النشوء والارتقاء، أو ببطء أكثر من ذلك، أو بالرجوع إلى منطق المنفعة الشخصية، وأيضا بتأثير المبادئ الأخلاقية السائدة في ثقافتنا.

وإذا كانت المبادئ الأخلاقية الوضعية لا تتوافق مع التبرير الذي يقدمه من يرتكب الفعل المؤذي، فيلزم أن نسميه فعلاً قاسيا: على الرغم من أن غريزتنا الأخلاقية الأساسية قد ترشدنا إلى شيء آخر، وسوف نتعلم التحكم في هذه الغريزة إذا ألزمتنا الحكمة والسياسة بذلك. أي أنه عندما تقتضي المصلحة الشخصية أن نمتنع عن الكلام بصفة مؤقتة وأن نرجئ الرأي والتعبير. وإذا أخذنا هذه المصلحة أو نماذج اجتماعية أو نزعات قديمة، في الاعتبار؛ فإن الحكم الأخلاقي يمكن أن يصبح قوة منفرة ومقززة يمكنها سحق الجماهير "الغوغائية" أو تعدمهم دون محاكمة. والقسوة نعتبرها سلوكا مخزيا، لكنها ليست مفهومًا متفردًا لا سابقة له. واللا مبالاة وجمود القلب الذي تميز به قابيل شيء بغيض مرفوض وجدير بالازدراء، لكنه من حيث المبدأ يمكن إصلاحه حتى نتخلص من الخطيئة والسادية التي هي أكبر من ذنب قابيل، فهي اندفاع عميق في مملكة الشر. وكما سوف نرى: فإن العاطفة الأخلاقية غالبا تفسر غلظة القلب على أنها سادية- وإذا وصفنا أحدا بأنه "سادي" يكون الوصف بناء على مبلغ الضرر الذي يحدثه. ومما يشهد بالتناقض أن الأحكام الأخلاقية قد تستخدم أحيانًا كي تبرر القسوة المتناهية وغير المألوفة.

والغرائز الأخلاقية الأساسية قد تكون جزءًا من "الوصفة" الإنسانية، لكن الأحكام الأخلاقية عن القسوة تتشكل بأمور وتقييم أكبر كثيرًا من فكرة النشوء والتطور. وفي الفصل التالي سوف نتحرى عمّا هو أكبر من ذلك، بأن نسأل "من الذي يقرر ما يمكن اعتباره قسوة"؟

الفصل الثانى

من الــذى يقــرر؟

لو أتيحت لى الفرصة لشنقت الجميع

(Benjamin Britten and Myfanwy Piper, Owen Wingrave)

يتخذ الأصحاء من البشر أسلوبين لتقييم سلوك الآخــرين. أســلوبا عقلانيــا وآخر عاطفيا. وأحكامنا تتلون بمزيج من الاثنين. ويسود أحيانا المنطــق "البــارد" الهادئ والبراجماتى- مع أو دون الرجوع إلى المبادئ الأخلاقيــة. وفــى أحيــان أخرى تؤثر مبادئ الأخلاق الأساسية فى حساباتنا. وكما أشرنا سابقا؛ فإن التقمص العاطفى قد يكون إشارة تدفع إلى أذهاننا بالمبادئ الأساسية للأخلاق، وليس معنــى ذلك أن العامل المؤثر ذاته دائما ما يثير رد الفعل نفسه. فالتاريخ الشخصى (لمــن يقيم) مهم، وربما لا يتوافق وصفى لردود الأفعال المحتملة فــى المثــالين الــذين طرحتهما فى الفصل السابق، عن القطة والسيدة المسنة، مع رد فعلك أنــت. فــإن كنت تكره القطط، أو كنت تظن مثل كثير من الناس أنها "آلات" فاقدة الحس، فربما تحكم على هذا٦ المثال بالمنطق والعقلانية. وإذا كنت قد عرفت فى زمن متقارب أن امرأة مسنة ممن تهتم بهن قد هوجمت بقصد السرقة، فربما يكون رد فعلك بغضب وحنق شديد.. وأنا أرى أن هذا هو المنطق السائد.. وإن كانت القطــط والــسيدات

المسنات لا يثرن نزعتك الأخلاقية، فربما تثيرها أشياء أخرى، إذا سمعت مثلاً بحكاية رجل اغتصب طفلا صغيرا، وحتى عتاة المجرمين يرتعدون من الغضب عند سماعها؛ ويتصرفون بدافع من مقتهم لذلك، وفى السجن يتعرض مرتكبو الجرائم الجنسية للهجوم بدرجة كبيرة من قرنائهم من المسجونين[١]. وتعتمد حدة ردود أفعالنا على ثقافتنا، ومعتقداتنا الشخصية، والأدوار الاجتماعية التى نلعبها... إلخ، فالمصور الذى له خبرة بالفن الإباحى المرتبط بالأطفال سيكون بالفعل أقل انفعالاً من الأميات، وهذا قد يحدث لأن ما يؤذى مشاعر بعض قد لا يكون له الوقع نفسه عند بعض آخر.

ومضمون الواقعة مهم أيضًا، فعندما يوضع الناس فى مواقف معينة أو يلعبون أدوارا معينة، فإن هذا يشكل لديهم أحكاما أخلاقية مختلفة جدا عمّا يعتبرونه رد فعلهم "الطبيعى" . وهناك مثال مشهور على الحكم الذى يعتمد على الموقف؛ وهو التجربة الشهيرة فى سجن "ستانفورد" التى وضع فيها فيليب زيمباردو "Philip Zimbardo" وزملاؤه بعض الطلبة الأمريكيين ليلعبوا أدوار الحراس أو النزلاء بالسجن، فكانت النتيجة انحطاطًا سريعا وشديدا فى سلوك الطلبة حتى إنهم تسببوا فى الإيذاء الجسمانى والحسى الشديد للبعض، مما أوجب وقف التجربة قبل الموعد المحدد لها[٢]. ولم يكن هؤلاء الطلبة الذين لعبوا دور الحراس "ساديين"، ولكن فهمهم لدور حراس السجن أدخل فى ذهنهم لزوم استخدام القوة بدون مسئولية، فالمسئولية تخص -بالخطأ- من أجروا التجربة، وعندما منحوا الحق فى استخدام القوة استخدموها ضد السجناء لما رأوا أنهم ثائرون ومن المحتمل أن يكونوا خطرين. وتتكرر قصة القوة والإيذاء المتصاعد نفسها فى سجون إدارتها سيئة، قبل وبعد تجربة بحث "زيمباردو" وزملائه.

والاختلاف الكبير فى الأدوار، فيما يخص القسوة، هو اختلاف ما بين الفاعل والضحية، فكلمة "قاس" لا يستخدمها الفاعل نفسه ولكن من يستخدمها هو الضحية أو طرف ثالث، حتى يدين هذا السلوك وينتقد الفاعل المذنب أخلاقيا. وغالبا ما يرى الطرف الثالث الأمور بصورة مختلفة تماما، ويفسر الضحايا أفعال المجرمين بأنها قاسية وتستحق الإدانة وفق مبادئ الأخلاق. بينما يرى المجرمون أثر أفعالهم فى الضحية كضرورة أوجدها حظهم العاثر، أو شيء له تأثير جانبى، أو به منفعة، أو ليست له علاقة بالموضوع[٣].

مَن الذى يقرر؟

مَنْ الذى يقرر ويحكم ؟ مَنْ غير هذه السلطة القوية الضخمة الكارهة لدورها؟ إنها المجتمع، فالمجرم لم يرتكب جرمه والضحية لم تعان فى عزلة تامة وبمفرديهما، حتى إن قتلا أو توفيا، وكلاهما موجود ضمن خلفية ثقافية، وعادة ضمن شبكة اجتماعية أو أكثر، وفى جماعات تعج بمن لديهم استعداد فورى للحكم عليهما وتعليميهما مبادئ الأخلاق. وهذه الجماعات، بالنسبة إلى المجرمين، قد تمثل تهديدًا قانونيا أو عقوبة أو انتقاما من أقرباء ذوى الضحايا أو من يناصرونهم، وقد تكون هناك عواقب أخرى للسلوك القاسى؛ فأعضاء بعض الجماعات من الممكن أن يُظهروا رفضهم للفعل بأسلوب "العزل والإقصاء" مثل التصوير السلبى للفاعل كنمط مرفوض أو منبوذ (إنه نوع فاسد وشرير ومن الأفضل أن تتجنبوه). وفى المجموعات الصغيرة التى عاش فيها أسلافنا، كان نبذ الفاعل وحرمانه من المساندة والدعم الاجتماعى: شيئًا مهلكًا مميتًا ويمثل وسيلة قوية للتراجع عن مزيد من القسوة، وقد يكون دافعا لسلوك صالح فى المستقبل.

ولكن الآن، فى العالم المتقدم على الأقل، أصبح العزل والنبذ الاجتماعى أقل تأثيرًا، إذ إن المصادر الحياتية الأساسية؛ مثل: الطعام والسكن والتدفئة، متوافرة للأفراد بصرف النظر عن وضعهم وصفتهم الاجتماعية. وأكثر الناس وحدة وعزلة فى بريطانيا يمكنهم القيام بالتسوق الأسبوعى فى المتاجر؛ وأشد الناس شرورًا وخطرًا من الأمريكان نزلاء السجن الانفرادى، يحصلون على طعامهم وحاجاتهم. إلا أن الأبحاث أظهرت أن العزل الاجتماعى أثره النفسي سيئ للغاية على الإنسان، ويحتمل أن يُسبب المرض والوفاة المبكرة(٤). والإنسان أيضًا شديد الحساسية لأى إشارات تفيد رفض المجتمع له؛ وهذا ما يعطى النزعة الاستهلاكية الحديثة قدرتها الفائقة والماهرة على أن تحول الحزن والغم إلى مكسب لها أو لنا دون أن تشفينا، بعد أن تحصل على الثمن وهو نقودنا(٥). غير أن هذه النزعة الطبيعية نفسها هى التى تساعد فى الحد من تجاوزات أسوأ أنواع القسوة، والذى بالفعل يجعل هذا الفساد الأخلاقي والشر منفرًا وغير مرغوب فيه هو كل هذه الأفكار عن الإدانة من الآخرين سواء من تأنيب ضمير الإنسان ذاته أو من لوم الآخرين له.

ويبدو أن كلاً من المجرمين والضحايا (أو من يعتمدون عليهم أو يحيطون بهم)، ينظرون إلى أفعالهم ويُقيمونها بناء على ارتباطها بطرف ثالث هو الجمهور أو المشاهدون، وهم من قد يجد الدليل الذى يحاول الفاعل إخفاءه، أو من يمنح الضحية العدالة التى تسعى إليها. وفى الحالات التى تكون فيها الجريمة نفسها غير ملحوظة قد يختلف إدراك وفهم المشاهدين لها، وقد يكون هؤلاء هم "المجتمع" بمعنى أقارب أو "معارف" الشخص، وفى بعض حالات القتل المُدبر من دولة ما، أو من دول أخرى، يكون المقيم قوى دولية أعلى مثل منظمة الأمم المتحدة. وقد تكون جماعة صغيرة مثل الزملاء المقربين لأحد الجنود فى حالة الحرب، أو أى فرد باعتباره شاهدًا يمثل الجنس البشرى بصفة عامة. أو المؤرخين الذين

يرصدون الأحداث ويُقيمونها، أو الله سبحانه وتعالى.. ومهما كان الفهم والتصور؛ فإن المجرم والضحية يعتبران هذا "الآخر" الذى شاهدهما مثل: قاض وربما يحاولان استمالته. والضحية أقرب إلى أن تنصف وأن تعوض أو ينتقم لها، إذا كان من يحكم على الفاعل مقتنعًا بأن الضحية عانت دون عدل أو ذنب وأن الجانى تصرف بحرية تامة. أما المجرمون فمهمتهم مختلفة؛ إذ إنهم يدركون وجود مشاهدين خاصة عندما كانوا يقنعون أنفسهم والآخرين بأن يغفروا ويصفحوا ويتساهلوا فى الحكم عليهم أو حتى يشاركوهم فهم أسباب قسوتهم. وقد لجأ "أدولف هتلر" فى إحدى خُطبه لقادة جيشه قبل نشوب الحرب العالمية الثانية مباشرة إلى أمثلة من مجازر جماعية سابقة (السلب والنهب الذى مارسه "جنكيز خان" فى العصور الوسطى وإلى مجازر الأتراك للأرمن فى عام ١٩١٥)؛ كى يثبت أن قوات الجيش الألمانى يمكنها أن تمارس أفعالها تحت غطاء من الحصانة وقال: "إن قوتنا تتمثل فى سرعتنا ووحشيتنا... ولقد قاد جنكيز خان ملايين من النساء والأطفال إلى المجازر، بقلب مبتهج وبعد تفكير وتصميم مسبق. والتاريخ يعتبره هو فقط مؤسس دولة ... ومن، بعد ذلك الذى حدث، يتكلم اليوم عن إبادة الأرمن؟"(٦).

والتعريف العملى للقسوة الذى ذكرناه قبل ذلك، يرى أنها "سلوك إرادى غير مُبرر يسبب معاناة متوقعة لضحية أو ضحايا لا يستحقون ذلك".. وهنا يمكننا التفكير فى التبريرات تحت شروط مجردة شديدة التجرد، لكنها أيضا لن تخلو من نواحٍ عاطفية وسوف تلمس حاستنا القوية بما هو "عادل" أو غير ذلك (٧). وباعتبارها مفهومًا له مردود أخلاقى، فإن القسوة يحيط بها إطار يوفر للإنسان قدرات حادة تؤهل للاستدلال على المعاملة الظالمة وعلى تقييم مبررات هذا

السلوك. فإذا كانت الضحية أو الضحايا تستحق العقاب. فإن الفعل المؤذى الذى سبب لها الضرر يمثل شيئًا من العدل وليس نوعًا من القسوة، وإن كان الفعل ضروريًا (كان الفاعل لا يملك خيارًا آخر) وغير إرادى (لأن الفاعل أُرغم على هذا الفعل)، أو مبررًا (كان الفاعل لديه أسباب مقبولة ليتصرف كما فعل) إذن فإن الفعل بذلك ينقصه وصمة العار الأخلاقية المرتبطة بكلمة "قسوة" التى أوقعت الظلم بالضحية مهما كانت، وفى كثير من المواقف لن توجد حلول لبعض المشكلات ببساطة دون تتسببها فى الأذى لشخص ما(٨).

ومما يدعو إلى الدهشة، أن الضحايا – أو من يدافعون عنهم، وهم بالطبع مستعدون لذلك – يؤكدون باستمرار براءاتهم ومعاناتهم ويهاجمون الدوافع غير المبررة للمجرمين، مؤكدين أنهم تصرفوا بحرية وعن قصد. أما تفسيرات المواقف التى يقدمها المتخصصون فى علم النفس الاجتماعى والمؤرخون. فإنها لا تؤكد قسوة ومسئولية الإنسان وتميل إلى التأكيد على أسباب فى بيئة الفاعل، مثل: ضغوط من النظراء حوله، أو طاعته وإذعانه للسلطة، وهى أمور لا يتقبلها من يؤمنون بالشجاعة الأدبية والمسئولية الأخلاقية(٩)، ذلك لأن تحميل البيئة أو المجتمع عبء السلوك المخزى غير مرض من الناحية النفسية، خاصة إذا عبرنا عنه بلغة علمية عقلانية. وبدلاً من ذلك، فقد يلجأ الضحايا ومن يساندونهم إلى إذكاء المشاعر والعواطف الأخلاقية بأن يصفوا الأذى الواقع على الضحية بلغة عاطفية، مثلما فعل دانيال جولداجن "Daniel Goldhagen"، فى كتابه "جلادو هتلر المستعدون" الذى يؤكد فيه البربرية والانحطاط الخلقى فى محاولة لإثارة التقمص الوجدانى والعاطفى للمشاهدين(١٠). وقد يكون كتاب "جولداجن" هذا، من بين كل ما كتب عن ألمانيا النازية، هو الكتاب الذى يحتمل أن يكون قد جعل المؤرخين الأكاديميين

– فى هذا الوقت – يشعرون باليأس والأسى، وكان هذا أيضا إحساس الأوساط الدعائية. إن الغضب من أجل المبادئ والأخلاق يحتوينا ويؤثر فينا بطريقة لا تستطيع البراجماتية الأكاديمية أن تنافسها أو تتغلب عليها.

براجماتية المجرم:

عندما ترتكب الشرور فسوف تحجبها كل فنون الخطابة.

(Thucydidas, History of the Peloponnesian War)

يسعى المجرمون أيضا، مثلهم فى ذلك مثل الضحايا، إلى إثارة التعاطف الوجدانى بأن يقدموا أنفسهم باعتبارهم بشرًا عقلانيين ومحبوبين وجديرين بالعطف، ولكن التعاطف وحده لن يكفى ليجعلهم يفلتون من فخ المبادئ الأخلاقية، وعليهم أن يلجأوا إلى استراتيجية أخرى كى يتحاشوا اتهامهم بالقسوة. وإحدى هذه الوسائل والاستراتيجيات تتمثل فيما فعله الأتراك بخصوص معاملتهم للأرمن، إنه ببساطة "الإنكار"، إنكار حدوث أى مجازر، أو أنهم لهم علاقة بالواقعة أكثر من بدء "عجلة" فظائع الحرب (إنها تستدعى الندم لكنها ليست إبادة جماعية لشعب)[١١]. وكما سنكتشف فسوف تجد تركيا دائمًا أنه من العسير الاستمرار فى الإنكار فى مقابل تحديات وغضب الحزب الثالث الغاضب، المشاهد، (والأرمن أنفسهم بالطبع)، وهذا هو الوضع دائما فى المواقف القليلة التى تصدر فيها الأحكام بعد الجريمة، بسرعة، ثم تكون الإدانة واضحة إذا مر الوقت وانقضى؛ فإن المجرمين يستطيعون التشويش والتعتيم والكذب، وأن يضببوا الذاكرة ويمحوا الذكريات وربما يقنعون أنفسهم بأنهم أبرياء وفى الوقت نفسه؛ فإن من قد يحكمون عليهم سوف

ينسون جرائمهم؛ فالإدانة السريعة تجعل الإنكار أصعب، وتضع ضغوطا زائدة على من يعرفون تماما أن سلوكهم قد تسبب فى وجود قتلى.

والمشكلة الآن هى الإقلال من معاناة الضحية وإنصافها. وتحت العين الفاحصة للتكنولوجيا الحديثة يمكن أن تظهر آثار التعذيب على جسد الضحية حتى بعد دفنها فى مقابر جماعية، وكشافات الإعلام تستطيع تركيز الضوء على عذاب ومعاناة الضحية وتترك المجرم وعينه تطرف أمام وهج كشافاتهم، ولا تستطيع أيديولوجية "الإقصاء" - بكل نبذها العنيف للمجرم- أن توفر الحماية الكاملة بالقدر الكافى، فقتل الطفل يمكن أن يقبض قلب أعتى المجرمين.. وعلاوة على ذلك؛ فإنه فى هذا العصر الذى ينادى بعولمة حقوق الإنسان والإخوة فى الإنسانية بين الرجال والنساء والأطفال، فإن التبريرات التى تغفل قيمة الإنسان ليست مقبولة وينظر لها باستنكار ويشار إليها بكلمات مثل "لا إنسانية"، خاصة إذا كان التبرير بأن تقارن الضحية بالوباء أو المرض الذى يجب التخلص منه، أين يذهب المجرم إذن فى البحث عن تبرير لفعله؟!

وهناك استراتيجية مفضلة مؤداها: إن كثيرا من المجرمين شخصيات شديدة الفردانية والأنانية، وخطتهم هى ألا يكون التركيز على الضحية ولكن عليهم هم(١٢). فمثلاً بدلاً من التهوين من معاناة ضحاياهم؛ فإنهم لا يشيرون إلى نياتهم وفعلهم الطوعى المتعمد ويدّعون أن أفعالهم كانت حتمية وجاءت بالضرورة. وهذا الدفاع بحتمية الفعل يأتى بأشكال متنوعة وأشهرها هو "سبب الفعل هو اتباع الأوامر وإطاعتها"، وهذا شىء قابل للجدال- وقد يُرفض تماما - حسب ما جاء عندما حوكم النظام النازى فى محاكمات "نورمبرج". وبالأسلوب نفسه لم يتوان المجرمون ومحامى دفاعهم عن استخدام العلم فى التبرير لأفعالهم (وهى علميا نماذج شائهة وغير شرعية لكنها إعلامية)، تمسكوا فيه بالعوامل التى يأملون بها أن يفسروا نياتهم وينفوا مسئوليتهم. وتتراوح هذه العوامل بين تأثير الجينات

العدوانية.. وتأثيرات قشرة الفص الجبهى (الأمامى) فى المخ، أو تـأثير الملوثـات البيئية إلى أشهرها وأقربها للخرافة؛ وهى فكرة الدفاع التلقائى السريع عن الـنفس. وإنه لمن المذهل كيف يكون الناس (حسب هذه التبريرات) ضعفاء وسلبيين هكـذا إذا تطلب الأمر إيقاع الضرر والإيذاء بالغير[١٣]، فإنهم بذلك يصبحون مثل أوراق الشجر التى تذروها رياح الظروف، أو أنهم يتفاعلون مع الموقف الذى هم فيه مثل آلات تتفاعل مع مدخلاتها فقط. ومن العجيب أنه عندما تكون الحياة والحرية بعيدة عن التقييم ومراجعة القضاة فإن نفس هؤلاء الناس يتصرفون كما لو كـانوا هـم الواسطة والقوة الفاعلة، وهم مستمتعون بوهم أنهم يملكون الإرادة الحرة ويتصفون كما لو كان بيدهم فصل الخطاب فى حياتهم. ولا يلقون بالمسئولية على قوى أخرى كما سبق، أو كما جاء فى تعليق إدموند "Edmund" فى مسرحية شكسبير الملك لير

إدموند: مثال ممتاز علـى غبـاء العـالم!
فعندما تعتل حظوظنا – وغالبا مـا يكـون ذلـك
بسبب أفعالنا– فإننا نلقى تبعـة كوارثنـا علـى
الشمس والقمر والنجوم. فكأنما الوغد منا مُجبـر
على أن يكون وغـدًا، وكأنمـا الأحمـق أحمـق
بمشيئة السماء. وكأنمـا الأشـرار واللـصوص
والخونة تُسيرهم إرادة الأبراج، وكأنمـا يـسكر
الفرد أو يكذب أو يزنى مُجبرًا انـصياعًا لتـأثير
الكواكب، وكأنما كانت كل شرورنا مفروضة علينا
من الأرباب. ما أعجبه من اختيار ومراوغـة! أن
ينسب الفاسد الغليّم شهوته إلى أحد النجوم.

(الفصل الأول، المشهد الثانى – ١١٨-١٢٨) ترجمة د/ محمد عنانى[١٤]

وهذا هو ما يسميه الفلاسفة مذهب الحتمية أو الجبرية- أي أن كل فعل مرتبط ومقيد بشدة إلى سلسلة قدرية؛ حيث لا يترك لنا مساحة كي نمارس اختيارنا الحر. لكن الفلاسفة دائما يبحثون عن العمومية في كل ظرف أو فرصة، ولو كانت الحتمية الصارمة تنطبق بصفة عامة على كل فعل، فإنه من المفترض أنها تنطبق بالقدر نفسه على فعل بسيط مثل "التسوق"، كما تنطبق على فعل خطير مثل قتل زوجتك، أو ضرب زميلك في العمل. وإذا عملنا بهذه القاعدة في حالات انتقائية: فإنه غير مسموح أن نطبقها في كل حالة، غير أن هذا هو ما يفعله المجرمون. وبالنسبة إلى هؤلاء المجرمين فلن يمكنهم إقناعنا بتأثير "الكيمياء" أو خلل في العقل عندما يتعلق الأمر بمجتمع كله من الناس الطبيعيين الأسوياء. وهناك طريقة أخرى للإقناع بدعوى الضرورة؛ وهو أن تدعي الدفاع عن النفس، والجدال حول هذا الادعاء شائع وعام خصوصا في حالات الحروب الأهلية والعصيان المدني والتمرد، والثورات السياسية مثلما يحدث كثيرا[١٥]. وقد يكون ذلك مقنعا في مجتمع مشحون بالنزاعات مثل "رواندا" حيث الشعار هو "اقتل أو تُقتل" مع التهديد بالغزو أو بالمذابح (وقد حدث كلاهما بالفعل على مدى سنوات قبل وقائع الإبادة الجماعية عام ١٩٩٤، والتي قتل فيها آلاف من الضحايا)، ويكون الجدال حول الدفاع عن النفس مستعصيا على التصديق إذا كان هدف "هيستريا القتل" أقلية لا خطر منها، أو جماعة ضعيفة قليلة العدد ومطيعة للقانون. كما كانت حال اليهود في ألمانيا قبل الهولوكوست.. عندئذ يحتاج المجرمون التوسع في منطق تبريرهم بالدفاع عن النفس حتى يشمل تهديدات خفية لا يلحظها معظمنا أبدًا، حيث تصبح الأقليات البسيطة هدفًا للمصير البيولوجي أو الثقافي المحتوم، أو تُعرف بأنها الطابور الخامس لعدو خارجي، أو كليهما[١٦]. ويحتاج المجرمون غالبا إلى تبريرات من هذا النوع بعد ارتكاب عمليات القتل الجماعي (هذا إذا سُئلوا عن مبررات لأفعالهم،

ومعظمهم لا يسألون)، ذلك لأن القتل الجماعى يميل إلى اكتساح الذين لا خطـورة ولا ضرر منهم – كبار السن، المعاقون، النساء الحوامـل، والأطفـال– وقـد لا يفعلون هذا مع من كانوا خطرين بالفعل.. كيف يكون ذلك!

والإجابة، ولا تتعجب أو تندهش، هى إعادة تصنيف كل فرد على أنه خطر، حتى من لا يشكلون تهديدًا بينًا واضحًا بالعدوان. ويقـول أوسـكار جـرونـنج "Oskar Groening" – أحد رجال SS وحدة البوليس النازى الخاصة– الذى أرسل فى مهمة إلى مدينة أوشفيتز "Auschwitz" (*) عام ١٩٤٢، عندما كان عمره واحدًا وعشرين عامًا، إنه عندما سُئل بعد هذه المهمة بكثير، لماذا قُتل الأطفال فى غرف الغاز، أجاب: "الأطفال ليسوا هم الأعداء حاليًا. العدو هو الدم الذى يجـرى فـيهم، العدو هم عندما يكبرون ويصبحون يهودًا خطرين، ولهذا فقد تـأثر الأطفـال بمـا حدث" (لاحظ تخفيف الفعل ومعاناة الأطفال بتلطيف التعبير عنه بكلمة "تـأثر")(١٧). ومع ذلك فليس النازى وحدهم هم الذين يقدمون لنا مثل هذا المنطق.

وفى أثناء الحرب العالمية الأولى، عندما هاجمت الحكومة التركية الأقليات من الأرمن، قيل إن وزير داخليتها صرح لأحد المراسلين الألمان قائلاً: "لقد تلقينـا اللوم لأننا فرقنا بين الأرمن الأبرياء والمذنبين، لكن ذلك لم يكن بالإمكـان أبـدا، وكان غير ممكن إطلاقًا، نظرًا لأن من كانوا أبرياء اليوم ربما سيكونون مـذنبين غدًا". قارن هذا أيضًا مع ما قاله أحد القادة فى جيش السلفادور لجنوده وهو يأمرهم بأن يقتلوا الأطفال فى المذبحة التى وقعت فى قرية إلموزوت "El-Mozote" عـام

(*) هذا هو اسم القرية باللغة الألمانية. لكن اسمها فى دوائر المعارف وشبكة المعلومات يكتب بهجاء آخر (Oswiecim). وهى مدينة صغيرة فى جنوب بولندا اتخذها الألمان بعدما احتلوا بولندا مقرًا لمعسكرات التعذيب، وهى تقع فى منطقة حيوية تشكل مركزًا لوصلات السكك الحديدية ومركزًا لبعض الصناعات الكيميائية والمصنوعات الجلدية. وتحولت إلى متحف للعدوان النازى منذ عام ١٩٤٦.

١٩٨١ "إن لم نقتلهم الآن، فسوف يكبرون ويصبحون ضمن جيش العصابات". هذه أقوال من ثلاث ثقافات مختلفة، لكن عرضها للأسباب والتبريرات المفتعلة والمبادئ المهلكة هو التبرير نفسه، إنه عرض واحد متطابق[١٨].

إن هذا هو ما يجعل "فخ الماهية أو الجوهر" - الذى وصفناه فى مقدمة الكتاب- مقززًا ويدعو للاحتقار، لأننا لو غيرنا أسباب ودواعى خطورة الفرد من سلوكه إلى جنسه وكينونته؛ فإن ذلك سوف يتعارض مع إمكان تغييره للأفضل! وسواء طبقنا ذلك على المجرم أو على الضحية؛ فإن فكرة "نبذ الآخر" تمزج الناس وتخلطهم ليصيروا جموعا وجماهيرًا مطموسة الملامح بلا أى اختلافات أو فروق. والمصطلحات والاستعارات التى تُستخدم فى رؤية "الآخر"، مثل "الجماعة / الحشد"، أو "الطاعون / الوباء": تلتصق بسهولة بمجاميع كثيرة لا ملامح لها بدلاً من أن تحدد ما يميزهم كأفراد[١٩]. ويُعتبر هذا شيئًا مضللاً بالنسبة إلى المجرم والضحية على حد سواء، حيث إن كليهما زمر وجماعات فرعية مختلفة ومتنوعة من البشر. فمن الممكن أن يكون بعض الضحايا قساة، متغطرسين، مخادعين. أو حتى يكونوا مجرمين؛ وبالمثل فقد تكون هناك مجموعات منفردة بين الذين يرتكبون جرائم حرب من المدفوعين بهوس الأيديولوجيات، ومن الانتهازيين الطماعين، ومن المرضى النفسيين الذين يتعمدون الثأر بسبب خطأ بسيط، وجميعهم إما أعضاء "يتفننون " ويفاخرون بمهارتهم فى إنهاء عمليات القتل. وإما أعضاء صغار يسعون إلى إرضاء وإبهار رؤسائهم، أو مبتدئون يحاولون ألا يصرخوا أو يتقيئوا أو يغمى عليهم، ولو أطلقنا على كل هؤلاء المجرمين وصف "أشرار"، فإن ذلك تعميم مضلل ولا يحدد شيئا. تماما مثلما نطلق على ضحاياهم كلمة "خونة" أو "قذرين". فهذا أيضا تعميم بلا مصداقية ولا معنى له.

وفي حالة وضع الضحايا فى حكم "الآخر"؛ فإن اللغة الفعالة والمؤثرة هـــى ألفاظ مثل "الوباء"، "الضياع"، أو " انهلاك" على وجه التحديد. فقد حولت "كيميـــاء" أو "خيمياء" النازية مسألة اليهودية من حالة اضطهاد أناني لهذا الجنس إلى مـــسألة حرب (حياة أو موت وعدو يخشونه كموت من "وباء"). مستخدمين فيهـــا تبريـــر حتمية توفير السلامة لأنفسهم، حتى يقننوا ويبرروا القسوة على نطاق جماعى كأمر مشروع. وعلى العكس من كل المحاولات "الخيميائية" (التى كانت تسعى إلى تحول المعادن الخسيسة إلى ذهب) فقد حولت دولة هتلر، مثل كل اتجاه وحشى على مدى الأزل، حولت شيئًا نفيسًا لا يعوض- حياة آدميين - إلى شيء لا قيمة له بـــالمرة، جثامين بلا أسماء أو هوية. لقد كان حلم علماء "الخيمياء" فى العصور الوسطى هو تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب، وكانت تلك خرافة لم تتحقق أبدًا- لكـــن هـــذه المحاولة بالمعنى الإنسانى تُمثل حلم الخلاص من الخطيئة إلى الصلاح، وقد عُرف أنه بالإمكان أن يتحقق، فالناس بالفعل يغيرون مـــن مجـــرى حيـــاتهم، ويغيـــرون مسلكهم ويمتنعون عن الشرور والآثام، ويمكن أن يتعلموا تدريجيا كيـــف يحبـــون الغير؛ غير أن الخلاص من الإثم مثل أى عملية ديناميكية مـــضادة يـــستلزم قـــوة وطاقة وجهدًا كبيرا. أما التحول العكسى، من شخص حى إلى نفاية بشرية فيستلزم جهدًا أقل بكثير وهذا ما حدث فى مدينـــة "أوشـــفيتز" وفـــى ســـجن تـــول ســـلنج "Tuol Sling"، وكل ما يشبههما من أمور بشعة شائنة[٢٠]. إن ما يجعل القسوة بالغة الفظاعة، وما هو أكبر من الإيذاء الحسى والمعاناة، والتجريد من الرتب العسكرية، هو تجريد الإنسان من آدميته والتجرد من المعانى الإنسانية.

الميل والتحيز:

لقد كنا نظن أن معسكرات الموت والإبادة الجماعية لا لبس فيها ولا جدال حولها، إلا أن هناك من يُنكر الهولوكوست. وليسوا جميعهم يفعلون ذلك من منطلق الجهل، إنهم يفعلون ذلك لأن معتقداتهم تجعل قبولهم به مستحيلاً (وسوف نفحص فيما بعد كيف تهيئ لهم مثل تلك التحيزات التأثير المضلل الذى يُعميهم). وفى حالات كثيرة من القسوة أقل مأساوية من هذه الحالة، كان المشاهدون الذين دورهم هو الحكم المجرد ميالين إلى الخضوع إلى عديد من التحيزات[٢١]، وعلى سبيل المثال، فإن المجرم ذا المكانة الرفيعة، أو الذى يميلون إليه ويحبونه، ليس من المحتمل أن يُحكم عليه باقتراف فعل القسوة، أما إذا كان الحكم على عضو من جماعة بعيدة عنهم وغير ميالين لها فسوف يختلف الأمر.. وبالمثل فإن المشاهدين من المحتمل أن يتعاموا عن أفعال القسوة ضد ضحية من طبقة متدنية أو ذات مكانة وضيعة (خصوصا إذا كان عضوًا فى جماعة من يسميهم جون كونروى "John Conroy" طبقة من يستحقون التعذيب" من المهمشين فى المجتمع، إنهم يعانون أكثر من أى فرد ممن يماثلهم فى المكانة، والمظهر والسلوك[٢٢].

والعامل الرئيسى المُحدد للتعامل الإنسانى، كما ذكرنا من قبل، هو الرابطة العاطفية بين الناس، فكلما اهتم الفرد بإنسان آخر وأحبه، كان من السهل أن يتعاطف معه ويتجاوب مع مشاعره، لكن كلمة "تعاطف" ليست هى الكلمة الأخيرة أو العامل الوحيد. فهناك عواطف أخرى مثل السعادة أو الحزن؛ يمكنها أن تلطف أو تغير من حدة المشاعر. أما "الاحتقار" أو "القرف" فغالبًا ما يكتم المشاعر ويقضى عليها تماما. وعامل مهم أيضا هو "العلم" والمعرفة؛ فما نعرفه أو نعلمه عن شخص ما يؤثر

تأثيرًا كبيرًا فى تعاطفنا معه من عدمه، كما أن التعاطف مع الآخرين، خصوصا إذا كان يتعلق بموضوع القسوة، له شقان ويعمل فى اتجاهين (الفاعل والضحية)، ولو طبقنا هذا على الضحية فسوف يجعلنا – التعاطف– نراعى المبادئ الأخلاقية بحق وأن ندافع عن حقوقها الإنسانية المهدرة، لكننا لو طبقنا مبدأ التعاطف على المجرم؛ فإن ذلك قد يجعلنا نتغاضى عن الإهانة ونلجأ إلى العقلانية المعتدلة. وهذا الإطار الأخلاقى والمنطقى قد يقوى العواطف؛ لكنه ربما يُفقدها التماسك والحيدة فى الوقت نفسه.. إننا لا نستطيع الاهتمام عاطفيا بكل الناس وبالدرجة نفسها.

إن المبادئ الأخلاقية الأساسية هى المبادئ المحلية القريبة منا والشائعة، وينقصها التعميم الذى تفرضه منظومة الأخلاق الوضعية، والقائل بأن كل "الرجال" (الناس) متساوون؛ لذا فإن المشكلة هى معاملة بعض "الرجال" على أنهم يستحقون المساواة أكثر من الآخرين.. وسوف يعتمد حكمنا على فعل ما بأنه "قاس" على ما إذا كنا نعتبر هذا الفعل أمرًا مسلمًا به– ولا يوجد هدف للفاعل يبرر ما فعله – وهذا بدوره يعتمد على من هو الفاعل وما علاقته بنا(٢٣). وسوف يختلف حكمنا على هدفه ومقدار صحته وأهميته باختلاف أولوياتنا وأيضًا حسب فكرتنا ورأينا عن الفاعل.

ويولد الإنسان البالغ العادى بقدرة ذاتية فطرية على التعاطف مع الناس، وإذا تربّت وتغذت هذه القدرة بطريقة صحيحة؛ فإنها تُروّع الإنسان وتجعله حزينًا فزعًا إذا ما صادف مشهدًا من مشاهد القسوة. وتستجيب منظومتنا الأخلاقية سريعًا لأمارات وعلامات الخوف، والجزع، والألم عند الآخرين(٢٤). وقد يأتى التحيز بعد رد الفعل الابتدائى الأولى، وذلك فى مواقف يكون فيها المجرمون غير بعيدين عنا، وليسوا "الآخرين"، أو ممن نحبهم ونحترمهم، أو من الأصدقاء أو حتى من أعضاء جماعة بارزة ننتمى إليها.

وكون الجماعات معروفة أو بارزة يعتمد على الموقف. ولو رأى موشى "Moshe" - وهو شخص إسرائيلى أو مساند لإسرائيل - جماعة من الجنود الإسرائيليين يضربون طفلاً فلسطينيا، ومن المفترض أن انتماءه للجماعة البارزة وهى إسرائيل، لكن حكمه سيعتمد على أمور أخرى هى، مثلا، التزامه بالأيديولوجية الإسرائيلية، وإلى أى مدى تمثل معتقداتها - كدولة- شيئا مهما لمشاعره وإحساسه بالذات.. وهكذا، كلما كانت جماعة الانتماء مهمة وبارزة له كان الصراع الداخلى عند هذا الشخص أشد إذا رأى أفرادًا من جماعته (مثله) يتصرفون بهذه القسوة، وكيف له أن يتحلل من هذا الصراع؟ أحد الاختيارات هو ببساطة ألا يصدق القسوة التى رآها بعينيه (وهى حقيقة واقعة)، لكن هذا هو الطريق إلى "الهوس" والاختلال العقلى أو تحديدًا هو فقد الصلة بالواقع. وهناك اختيار آخر، أن يلجأ - هو- إلى إعادة تفسير الواقعة بأن يقرر، مثلاً، أن هؤلاء المجرمين ليسوا فعلا "إسرائيليين حقا"، لكن هذا شىء بسيط لأن الجنود يظهرون بوضوح باعتبارهم ممثلين رسميين لإسرائيل، أو بإمكانه رفض تعريف نفسه باعتباره إسرائيليا، ومجرد التفكير فى ذلك سيكون مؤلما بالنسبة إليه. لذلك فإن "موشى"، مثل آخرين كثير قبله ممن لا حصر لهم، سوف ينزلق إلى طريق آخر زلج هو أن يجد العذر لما بدا له منذ الوهلة الأولى فعلاً لا يغتفر ولا تبرير له. عليه الآن أن ينكر أن ما بدا له أنه قسوة كان حقيقة شيئًا قاسيًا وذلك بأن يجد تبريرًا لسلوك الجنود، وعندما تُبرر الأفعال فإن ذلك يعنى انتفاء وضياع الدافع للإيذاء ومن ثم وجوب العقاب. والبحث عن أسباب ومبررات هو بالفعل أسهل الاختيارات المتاحة لـ "موشى". أما المشاهدون لهذا الموقف - من غير المرتبطين بانتماء مثله - فإنهم سوف يدينونه؛ لأنه تغاضى عن فعل وحشى وصفح عن مرتكبيه. قد لا يفهمون قدر خسارته لو أنه كان له اختيار آخر. لقد كان مقيدًا بين الشك فى حقيقة الواقعة وبين بتر هويته وانتمائه وميوله الإسرائيلية.

ومشكلة التصنيف التى تضطرنا إليها الانحيازات الأيديولوجية المتصارعة والميل إلى إيجاد مبررات مُدعمة بالأسباب التى نرددها: (لقد عذب نفسنا، أنت فى غاية الشدة، لقد اضطر، وفعلها لضرورة ملحة)، هى أن القسوة هى فقط ما يراه المشاهد، وحتى المشاهد المتحيز جدًا قد يفزع ويرتعد بسبب بعض الفظائع الوحشية؛ فالأمريكان الذين أيدوا بشدة حربًا فى العراق. وهم يدركون تمامًا أن الحرب تعنى قتل الناس، كانوا مذعورين من صور التعذيب فى سجن "أبو غريب" التى ظهر فيها المسجونون العراقيون وهم يعانون من الإذلال والإهانة. وما ميز أبو غريب هو أن تعذيب هؤلاء الضحايا كان بلا سبب ولا أساس، وقد ظهر أنه بلا هدف سوى تسلية ومتعة من قاموا بهذا التعذيب. وبمعنى آخر فإن بعض الأفعال تُحدث معاناة لا يمكن تبريرها ببساطة بأى أهداف يعلنها الفاعل. حتى إن رآها مرضية له. وكثير من الأعمال الوحشية فى زمن الحروب من هذا النوع، كما فى حالة يؤمر فيها الجندى بأن يقتل خصومه؛ فيرى أن يعذبهم أولاً قبل القتل، وهذا هو الألم الإضافى بلا سبب أو ضرورة، لأنه لم يُطلب منه ولأنه غير ضرورى كجزء من عملية القتل. فهناك طرق أخرى للقتل أسهل وأسرع، والوقت الذى يستغرقه التعذيب يُعطل الجندى وبذلك يقل.. معدل القتل. وهكذا فإن القسوة تكون فى بعض الأحيان معطلة للإنتاجية على عكس المقصود. أما القسوة المتناهية هنا بمتعة التعذيب؛ فإنها تشير إلى رغبات مفزعة أخلاقيًا، فهى استمتاع وابتهاج بالألم الذى نزل بهم وهذا فقط من أجل إحداث متعة للفاعل أكثر من كونه وسيلة لغاية أخرى. إن هذه المتعة هى التى تجسد أسوأ التجاوزات فى القسوة. فهى سلوك يسبب المعاناة لضحية أو ضحايا لا تستحق ذلك ودون أى سبب آخر غير إدخال السرور على نفس المجرم.

وفى القرن التاسع عشر، وجدت اللغة الإنجليزية اسمًا جديدًا لهذا "الجـوع" والاشتهاء البغيض والكريه للإيذاء: السادية.

اشتهاء الإيذاء:

من الناس الذين اشتركوا فـى الحـروب أنواع حفزت فيهم المشاركة فـى الحـرب أكثـر الدوافع السادية شرًا . وعلى سبيل المثال طلـب رئيس إحدى جماعات إطلاق النار من عدة مئات من اليهود من جميع الأعمار، ذكورًا وإناثـًـا، أن يخلعوا ملابسهم وينطلقوا جريًا فى حقل بإحـدى الغابات، ثم حصدهم بمدفع رشاش. ولقد قام حتى بتصوير هذه العملية بكاملها.

(من حديث أدلى به فى عام ١٩٥٧ ألبرت هارت "**Albert Hartl**" قائد فرقة القمصان السوداء فى الجيش النازى "**SS- Obersturnfuhrer**")

عرفنا مصطلح "السادية" من كتابات فترة التنوير الأوروبية، وبالتحديد مـن كتابات "دوناتن الفونس فرانسوا "**Donatien Alphonse francois**" أو الماركيز "دى ساد" (١٧٤٠- ١٨١٤)، الذى ربط بين الشهوانية والقسوة فى أعماله مثل روايـة "جوستين"، ومئة وعشرون يوما فى سدوم" وأعطى السادية بذلك مـسحة جنـسية. وأوضح" دى ساد" أيضا العلاقة بين القسوة والإشباع الجنسى: إنها الأنانية المطلقة. وفى "جوستين" مثلاً يقول الراهب الفاسق كليمنت "**Clement**": إن مشاركة المـرأة

الرغبة الجنسية تجعله ينشغل بها ولا يحظى بالمتعة الكاملة لنفسه، لذا فإنـــه يلجـــأ للتحايل على المرأة حتى تزهد فيها:

> **إنى أسأل، وما الضرورة فى أن تــشاركه المرأة هذه المتعة؟ إن فى حرمانها من ذلك فخرًا للرجل. وعليه أن يمنعها بشدة من هذا الإحساس ويجعلها تترك سعيها لهذه المتعة حتى يستأثر بها وحده. ليس مشاركًا فى هذه العمليـــة، إنـــه هـــو السيد الذى يفرض ما يريده[٢٥].**

إن إيذاء الناس الأضعف منهم هو مبعث سرور دعاة السادية، وهم يعتنقـــون هذا الفكر مع احتقار وازدراء كامل لكل القيود الإنسانية والقانونيـــة والأخلاقيـــة، فالقسوة هى التى تُرضى غرورهم "وتشبع كبرياءهم" وتعطـــيهم الإحـــساس بـــأنهم "المتحكمون"، فالقوة هى الصواب فى هذا العالم المفترس الجارح.. إنهـــم ينعمـــون وينتشون عندما يحلمون بأنواع أخرى متنوعـــة مـــن الألـــم والحـــزن للآخـــرين: الاغتصاب العنيف والزنا بالمحارم، والتعذيب، وحتى تشريح الناس وهـــم أحيـــاء (الأطفال وليس الحيوانات). ولا يكتفى "دى ساد" فقط بأن يصف القسوة بأنها تُشبع رغبة شخصية دفينة (السادية)، لكنه يؤكد أنها رؤية عدمية تنكر القـــيم والمبـــادئ الأخلاقية وترى أن عدم المبالاة بمعاناة الآخرين هو الحقيقة الثابتة فى الطبيعة وأن الرحمة والتعاطف عُرف وشيء مكتسب يتعلمه الإنسان فيوهنه ويـــضعفه، وبهـــذا فهو يدعو إلى جمود الإحساس ويرى أنه هو العماد الملزم والضرورى لمناصـــرى السادية، وعليهم أن يهملوا ويغفلوا الضحية ولا يعتبروها شخصا أو "بنى آدم":

إن الضرورة المتبادلة كى يُسعد كل فـرد الآخرين لا يمكن قانونًا أن توجد إلا بين شخصين لديهما قدر متساو من القدرة على إيذاء بعضيهما، وبناء عليه فهى قوة بين شخصين قوتيهما وقدراتيهما متكافئة: ومثل هذا الارتباط لن يوجد أبدًا إلا إذا تم التعاقد بينهما حتى لا يضطر كل منهما أن يستخدم ضد الآخر أى نوع من القوة أو ما قد يؤذى الآخر. إلى هنا كل شىء جيد ... لكن هذا الاتفاق والتعاقد المضحك لن يصلح أبدًا، بالتأكيد، بين خصمين أحدهما قوى والآخر ضعيف. وما الذى يعطى الحق للضعيف؟ أن يطلب من القوى أن يعامله بالحسنى؟ وأى نوع من الأغبياء يملك القوة ثم يخضع لمثل هذا الاتفاق؟ إنى أوافق على ألا أستخدم القوة ضد من تجعله قوته مهابًا يخشاه ويخافه الناس، لكن ما الذى يدفعنى أو يضطرنى إلى أن أتهاون وأنزل بمستوى تأثير قوتى على المخلوق الذى جعلته الطبيعة فى مرتبة أدنى منى؟ فهو خاضع لى وأقل قوة وشأنا منى.

هذه شخصية تعانى مرضا نفسيا: سأكون متحضرا مع القوى.. وسأفعل ما أريد مع أى إنسان آخر، واللعنة على الجميع. والمجرمون المتوحشون من أتباع "دى ساد" - معظمهم وليسوا جميعا- من الذكور يمثلون ويثبتون بوضوح وجهى

القسوة / اللا مبالاة المطلوبة؛ كى تكون قاسيا، والابتهاج والإيذاء الذى يؤدى إلى أسوأ التجاوزات – ويتشابك ويتحد كلاهما ليؤججا العنف المتزايد. واللا مبالاة ضرورية؛ وإلا أصبح التعاطف سببا فى الأسى لحال الضحية فيتوقف الفعل السادى. لكن اللا مبالاة بمعاناة الضحية تؤدى إلى جمود القلب والحس؛ فيكون الضرر والإيذاء متواصلاً لتحقيق أهداف أخرى، وعندما تصبح هذه الأهداف ذاتها هى خلق مزيد من الألم تتحقق أقصى درجات القسوة من أجل القسوة.. وهذا هو الشر الذى نسميه السادية. وهذا اللفظ، على الرغم من تاريخه الذى يشير إلى أنه لا ينطبق كلية على الإيذاء الجنسى، سوف أستعمله بمعنى أوسع كى أشير إلى القسوة التى تقع على الضحية عندما يُصبح إحداث المعاناة مرتبطا بأى نوع من الكسب: كيميائى، جنسى، مالى، اجتماعى... وهكذا. وأتباع السادية لا ينقصهم ما يسميه علماء النفس "القدرة الذهنية والفكرية على التفكير والتعقل"[٢٧]. إنهم بارعون فى النفاذ إلى عقول ضحاياهم– وعديد منهم تمهلوا واستغرقوا بعض الوقت كى يُجروا حوارا ونقاشا ممتدًا ومهمًا مع بطلة رواية "جوستين" فيما بين نوبات تعذيبها– والنص الروائى لا يقدم دليلاً على أى قصور أو نقص فى قدرتهم على التفكير، والتقليد، أو الاستمتاع أو الشعور بالألم أو إدراك معاناة وعذاب ضحاياهم، ولكن يبدو أن ما ينقصهم هو أى دافع، مهما كان، تجاه رفع وإنهاء هذا العذاب عن ضحاياهم (وخلافًا لذلك فإن "جوستين" نفسها تشعر بالأسف والحنان والتعاطف مع الضحايا الآخرين وتكاد تشاركهم الألم وتتمثل معاناتهم). إن هؤلاء المجرمين ليسوا كائنات من عالم آخر وليسو نوعا من الإنسان الآلى؛ إنهم يدركون الألم ويعرفون التعاطف أيضا (وقد يتلذذ بعضهم بتلك المشاعر و"الإعراض").

وغلظة الفؤاد شىء قائم بذاته. نحن قد نتعاطف أو ندين، لكننا لا نستطيع أن نُرغم أنفسنا على الفهم. إننا حتى قد نخاف فعل الشر ونفكر: " لولا نعمة من الله "

لكنت فعلتها. وقليل منا يقصد الاقتراب عمدًا من قتل شخص لمجرد رغبته في ذلك، لكن السادية غير مقبولة وغير إنسانية؛ وتعد خارج نطاق ما هو ضروري وحتمي. إنها لذلك تسقط فى هوة الرفض الأخلاقي، وهذا على الأقل ما يراه معظمنا، وقد يراها بعض شيئا مثيرًا؛ فإن هذا الاحتمال لا يمكن قبوله بسهولة (وسوف نعود لمناقشة المتع الحسية فى "السادية" بالفصل الثامن).

ربما لا يدرك المجرم بليد الحس قدر المعاناة التى يسببها لغيره، أو ربما لا يعنيه هذا الأمر. وعدم الاهتمام بمعاناة الضحية لا يقابله متعة الفاعل، أما عندما تصبح المعاناة نفسها هدف الفاعل ومتعته فقط، فسوف يتخطى حالة اللا مبالاة وبلادة الحس إلى السادية؛ ذلك لأن القسوة السادية تقصد لذاتها وليس باعتبارها وسيلة لغاية أخرى، وهى أكثر أنواع القسوة مدعاة للإدانة والخوف، وأقل أنواع السلوك القاسى فهما، وهى تولد السلوك الإنسانى الذى يدفعنا إلى اعتبار الساديين كشياطين أشرار شديدى البشاعة. وقد يقودنا الضعف الإنساني إلى غلظة الفؤاد لكن القائد الذى يجرنا إلى ظلمة القسوة السادية، هتلر "**Hitler**" أو بول بوت "**Pol Pot**" أو ستالين "**Stalin**" أو "جنكيز خان"، هو الشرير العبقرى الذى يحمل أكبر عبء ووزر أخلاقى. ويلزم دائمًا أن يكون هناك "واحد" أو قائد نلقى عليه هذا الوزر؛ لأن السادية شر والشر هو "الآخر"، وليس نحن. ويعكس التمييز بين السادية وجمود القلب الفروق نفسها التى طُرحت سابقا بين مبادئ الأخلاق الأساسية والمبادئ الوضعية للأخلاق عند حكمنا على الناس. وكلاهما يتناقض مع المنطق العملى "البارد" – الذى لا يهتم كثيرا بالعواطف– أو مع ردود الفعل "الساخنة" التى يبدو أحيانا أنها تصاحبهما وتعتمد عليهما. إننا سواء فى حالة التعاطف أو إذا دفعتنا عواطفنا شديدة السلبية إلى الإدانة، يبدو أننا قليلاً ما نهتم بأهداف المكسب والخسارة التى قد يتم حسابها منطقيا، فنحن نبغض ونحتقر

المجرمين جامدى الحس من قساة القلب ولكننا مع ذلك ننظر لهم على أنهم بشر يستجيبون للدوافع والعقوبات، وبذلك نعتبرهم قادرين على التفكير العقلانى مثلنا. أما الساديون، من جهة أخرى، فإنهم مفزعون مخيفون يبعثون الخوف فى نفوسنا بما يشبه شعورنا بالخوف من نمر أو حيوان كاسر، هذا لأنهم يمثلون رغبات تسعى إلى التهديد والإيذاء ولا يحكمها منطق الأسباب والدوافع التى قد تجعلهم يغيرون من سلوكهم. وفى واقع الأمر فإن هذا التناقض، عمليا، ليس واضحا. إذ يمكن أن تتأرجح نظرتنا بين أن نرى مجرمًا كشخص شرير لا يمكن إصلاحه وسادى لا يمكن النفاذ اليه أو التقرب منه، أو أن نراه فى ظروف أكثر إنسانية، باعتباره بشرا تصرف وأخطأ لأسباب يمكن إدراكها.

ممارسة السادية وجمود القلب- مثال:

السلوك القاسى يهدف عمدًا إلى إيذاء الضحية أو الضحايا، وقد يلجأ إلى الإقلال من صورة المعاناة، إما باستخدام فكرة نبذ الآخر حتى يقلل من شأن أو منزلة الضحية وقدرتها على الإحساس بالمعاناة، وإما أن يختار ببساطة ألا يفكر فى عذاب ضحاياه؛ لكن بعض المآسى تمثل معاناة واضحة جدًا لدرجة أن الإنكار لا يقره كل من شاهد الفعل، ويصبح نبرة مبالغا فيها. وهذه المعاناة الواضحة قد لا تعنى السادية من جانب الفاعل، فإنه هو / أو هى قد يرى إصابة الضحية على أنها هدف كريه لكنه ضرورى ولازم، إنه خطة تجاه تحقيق هدف أعلى ويستحق الجهد. وإن كان الإيمان بهذا الهدف قويا بدرجة كبيرة؛ فإنه يدفع إلى تحقيق أفعال وحشية مذهلة. على الأقل فى عقل من يرتكب هذه الأفعال. وحتى النازى الذى شغل يوما بعد يوم فى "إدارة" الهولوكوست احتفظ بقدرته

على التمييز بين قسوة القلب والسادية، إن المجرم لا يحتاج بالضرورة إلى أن يطرح حمولته من المبادئ الأخلاقية جملة ومرة واحدة، فى السوق؛ لكنه قد يفعل وما يساعده فى ذلك الفعل هو غلظة القلب. و بالنسبة إلى النازى كان الإهمال والتجاهل وعدم الاكتراث بضحاياه جزءا لا يتجزأ من القانون والقواعد التى يتبعها المحاربون لديهم.

وفى أكتوبر ١٩٤٣، ألقى هينرك هملر "Heinrich himmler" كلمة فى أعضاء فرقة القمصان السوداء بمدينة بوسن "Posen"- (اسمها الآن بوزنان Poznan) فى بولندا، وصارت كلمته مشهورة بسوء السمعة بسبب غلظة القلب[٢٨]. أكد هذا الضابط فى كلمته إلى الرايخ الثالث أن الواجب يعلو على العدول عن الفعل، عندما تكون المهمة هى "أن يقف الرفاق الذين فشلوا فى أعمالهم ووجههم للحائط لتطلق عليهم النار". (وفى هذا إشارة إلى قيام النازى فى "التطهير الثورى" بالتخلص من إرنست رووم "Ernst rohm" ومعاونيه فى عام ١٩٣٤). والمتحدث هنا يعترف بالضغوط العاطفية التى أحاطت بهذه الواقعة - "وقد ارتجف الجميع"- لكنه أضاف إنه بالإمكان التماسك والتغلب على هذه الضغوط، "فقد اتضح لكل فرد أنه، فى أى فترة مقبلة، سوف يفعل الشيء نفسه مرة أخرى إذا أمر بذلك وكان هذا ضروريا. واستمر هملر فى كلمته:

> **إن أحد الأشياء التى يمكن قولها بسهولة "لقد تم القضاء على اليهود" وكل عضو فى أى جماعة سيقول لك "هذا واضح تماما، إنه جزء من خططنا، أن نقضى على اليهود وهو أمر بسيط هين". وعندئذ سوف يأتى الجميع، كل**

الثمانين مليونًا من الألمان ذوى الخلق المستقيم،
وكل واحد معه يهودى "لطيف" مهذب، ثم
يقولون: كل الآخرين "خنازير"، لكن ها هنا
يهودى "من الدرجة الأولى".

ولم ير أحد منهم ذلك ولم يتحمله أحد.
ومعظمكم سوف يعرف ما معنى أن يرتمى معا
مئة جسد، أو خمسمئة. أو عندما يكونون ألفًا.
وعندما تشاهد هذا – وتقاوم الضعف الإنسانى
وتبقى هادئًا لطيفًا– فإن هذا يجعلنا أكثر صلابة،
وهو صفحة من الفخر لم تُذكر ولن تُذكر.

ما هذا اللطف والتهذيب ! الذى لا يسمح للضعف الإنسانى بأن يتسيد فى أثناء عملية "إنتاج" عدد وافر من الجثث ويسمح تمامًا بالإبادة، بجمود القلب للعدو. كان هذا واضحًا فى حديث هملر وكانت حجته :"نحن نملك الحق الأخلاقى، وكان علينا واجبًا نؤديه لشعبنا، أن نقتل هؤلاء الناس الذين يريدون قتلنا... ولقد نفذنا هذه المهمة بالغة الصعوبة ودافعنا عن حبنا لشعبنا، وعن سمعتنا وأخلاقنا، وليس هناك ما يعيبنا من داخلنا ... فى نفوسنا وشخصياتنا...".

لقد وصلت رسالة هملر إلى أصغر رتبة فى الجنود. وقد كتب القائد العام لفرقة القمصان البنية كارل كريشمر "Karl kretschmer" خطابًا لزوجته وأطفاله عام ١٩٤٢، يقول فيه: "نحن نخوض هذه الحرب إما للفناء وإما البقاء لشعبنا... إن علينا هنا أن نظهر بمظهر الصلابة والقوة، وإلا سوف نخسر الحرب.. ولا مكان للشفقة من أى نوع... ولن يستطيع أن يسيطر ويحكم ويسود الآخرين

إلا من يتحكم بقوة فى نفسه وأدائه .. إن الضعف هو ألا تقدر على مشاهدة القتلى، وأفضل وسيلة للتغلب على هذا الضعف هو أن تكرر القتل، حينئذ سيصبح هذا عادة وشيئا تألفه"(٢٩).

وعدم الكياسة واللطف شيء آخر تمامًا أدركناه، فقد كان الشيء المثالى فى كلمة "هملر" ما قيل عن الجنود الذين سلبوا وسرقوا الممتلكات من الجثث فقال: "لقد أُعدِموا بلا رحمة أو شفقة". وفى مناسبات أخرى فقد اقترنت مع السرقة دوافع أنانية أخرى مثل الجنس والسادية وأعتبرها سلوكًا إجراميًا (ورأى الصفات الثلاث كلها من سمات اليهودى كما رآه ونمّطه القادة النازيون). مرة أخرى فإن تبرير "هملر"، ضابط الرايخ، كان أيديولوجيًا فالسرقة تلوث السارق: "لكننا لا نملك الحق فى أن نكسب قطعة فراء أو عملة "مارك"، أو سجائر أو ساعة أو أى شيء تسرقه. هناك حق لا نملكه، لأننا فى نهاية الأمر لا نريد ذلك الدنس، ولأننا إذا قضينا على هذه "البكتيريا" وأبدناها فإننا نضمن ألا نمرض أو نموت بسبب البكتيريا نفسها".

والسادية، مثل السلب والنهب، سبة تدين السلوك البطولى، وهى توصف بأنها شيء يصدر من نفس مريضة ومتوحشة، وقد اعتبرها بعض القادة الكبار فى الجيش النازى شيئا خطيرا ومهمًا. وفى عام ١٩٤٠، اشتكى قائد المنطقة الشرقية جوهان بلاسكوفيتش "**Johannes Blaskowitz**" قائلاً: "إذا كان الضباط من الرتب الرفيعة بالجيش ومن البوليس يأمرون بالقيام بأعمال العنف والوحشية ويمتدحونها علنًا، فلن يمضى وقت طويل حتى يسود ويرقى فقط من يرتكبون أعمال العنف. إنه من المثير للدهشة كيف يرتقى مثل هؤلاء الناس بسرعة بقوات الجيش، مع قادة ضعاف الشخصية، كما يحدث الآن فى بولندا، وسوف تنطلق وتسيطر غرائزهم الحيوانية المريضة". ولقد علق ضابط آخر على عملية إبادة لبلدة يهودية قائلا: "بالنسبة للطريقة التى نفذت بها هذه العملية، فإننى أقول آسفا بشدة ومع عظيم

الأسف، إن ذلك قارب على السادية". وبعد عام صدر قرار من القائد العام للـرايخ بشأن معاقبة من أطلق النار على اليهود إذا ما لم يكن هذا الفعل قد تم على أساس "الدافع"، فالقتل بدافع سياسى لم يكن لينال شيئا من العقوبة "إلا إذا كان العقاب ضرورة حتمية بغرض حفظ النظام". وعلى النقيض من ذلك الفكر الذى يرى حجته فى الدافع، فإن النازية كانت مذنبة وتستحق اللوم؛ فالسادى يتصرف ولديه الدافع، أى بدافع الأنانية والمصلحة الذاتية. والدوافع الجنسية أو السادية يجب أن تعاقب فى المحكمة، إذا كان الأذى واقعا، بتهمة القتل أو بارتكاب جريمة القتل غير العمد(٣٠).

وقد رأى النازيون، واقنعوا أنفسهم، بأنهم مشاركون فى حرب من أجل البقاء، حرب شاملة ضد المؤامرة الدولية من اليهود البلاشفة الأقوياء (ووحدوا اليهود مع الروس فى نظام اجتماعى واحد، كما لو كان اليهود فى روسيا لم يخضعوا للاضطهاد). وفى هذه الحرب الشاملة، كما قال هتلر لجنرالاته: "لا يكمن الهدف فى الوصول إلى خطوط معينة، لكن فى التدمير والإهلاك المادى التام للعدو" (٣١). وهناك دليل على أن النازيين راعوا دوافع من كانوا يحاربونهم بشروط شاملة مشابهة. وقد كتب أحدهم فى خطاب لأهله يقول: "لقد أثبت الهجوم بالقنابل ما يخبئه وما يُبطنه لنا العدو إذا كانت لديه القوة الكافية. لقد أدركنا ذلك فى كل مكان ذهبنا إليه على طول جبهة القتال. إن زملائى كانوا فعلاً يحاربون من أجل وجود وبقاء شعبنا. وعدونا كان سيفعل نفس ما فعلناه". وهناك مقاتل آخر، شاهد ما بعد الحرب. ويتذكر تعليقه بعد مشاهدة مذبحة فى ليتوانيا: " أدعو الله أن يمنحنا النصر لأنهم لو انتقموا منا، فسوف نمر بوقت عصيب". بمثل هذه المعتقدات عن الدوافع، يكون إهلاك وإبادة كل فرد من أفراد العدو بقسوة ولا مبالاة، من وجهة نظر النازى، مبررًا تماما. والسادية، من حيث المبدأ على الأقل، ليست كذلك، إلا

أن حقيقة أن "هملر" وقادة آخرين اعترفوا بوجود سادية فى أفعالهم وأسفوا لــذلك، وهذا يشير إلى أنهم أدركوا أهميتها! هؤلاء لم يكونوا رجالاً بلا مبادئ أخلاقية على الإطلاق. وإذا حكمنا بغير ذلك؛ فإننا سوف نسقط فى فخ "الجــوهر" و"الماهيــة".. إننى أقدم المواساة، ربما، لكننى كنت مخطئًا.(٣٢)

ملخص وخاتمة:

القتل دفاعا عن النفس، في قتال من أجل البقاء، يُعتبر – على نطاق واسع– مُبررا أخلاقيًا.. وهكذا فإنه، على نحو كامل، ليس نوعًا من القسوة؛ لأن الضحية أيضا شخص مهاجم مستفز، وكان من الممكن أن يكون مجرما قاتلاً، ومن ثم فهو لا يستحق الشفقة. لكن القتل من أجل أسباب نفعية يستحق مزيدًا من اللوم والزجر ويُحتمل أن نعتبره فعلاً قاسيا، وهذا مفهوم. أما إذا تلذذ المجرم بفعل القتل أو الإيذاء؛ فذلك بصفة عامة يُعتبر شيئًا بغيضا وكريهًا.. وفي مرتبة الشرور تتفوق السادية وتعلو على غلظة القلب، وكلما زدنا من تعرفنا على الدوافع السادية التي تظهر في فعل إيذاء إنسان، كان الاحتمال ليس فقط أن ندينها على أساس أخلاقي؛ ولكننا نفعل ذلك أيضا بمشاعر من الغضب والحنق الشديد المؤسس على عرف أخلاقي يدعم الاشمئزاز من المجرمين(٣٣).

وعندما يصادفنا فعل وحشي يكون رد فعلنا الأولي هو الفزع. وتستند حدة مشاعرنا بعد ذلك إلى ما نعانيه من ضغوط نفسية أو اضطراب عقلي، أو إذا كنا رافضين للعنف أو كنا قد "تشبعنا" بكثير من الوحشية(٣٤). ولو افترضنا أننا لا نعاني الحساسية من قسوة القلب؛ فإن فزعنا المبدئي سيكون سببه الأكبر هو كيف صادفنا هذا الفعل الوحشي.. إن رؤية جثة في نشرة الأخبار تختلف تماما عما إذا كانت أقدامنا قد عثرت بها، والحالتان تأثيرهما أكبر من أن نسمع عن جثة أو نقرأ تقريرًا عن أعداد كبيرة من القتلى. إن الصدمة الطبيعية والنفور الذي يسببه القتل والتدمير يعكس وجود "المفاتيح" التي نشأنا على اعتبارها نوعا من التحذيرات: الدم، الأحشاء، الأجساد المتحللة أو الممزقة أو التي في حالة غير طبيعية. إننا

كائنات تخيلية وعاطفية، ومثل هذه الصور والأفكار عن تلك الأحوال غير الطبيعية تجعلنا نقشعر ونجفل. ويستفزنا هذا الألم النفسى أحيانا لنغضب ونثور وقد يحركنا لفعل ما؛ لكننا نرتد فى حزن شديد ونحتمى فى مشاعر أخرى رقيقة حتى تدفع بنا بعيدا عن المشكلة برمتها.

ومصدر شعورنا بالفزع هو أحكامنا الأخلاقية على المجرمين، وقد لا نقرر شيئا بخصوص ما أفزعنا. ربما تلعب العلاقات الاجتماعية دورًا فى ذلك (هل الفاعل "من أتباعنا" أم من أعدائنا- وما مقدار وطنيتنا نحن؟)، والمعلومات التى سوف نجمعها عن دوافع المجرمين، إن استطعنا. وسوف يزداد شعورنا بالازدراء والقرف تجاه هؤلاء المجرمين بسبب قوتهم وعدوانهم البدنى وجمود قلوبهم خصوصًا إذا كان هناك ما يثبت أن أفعالهم لم يكن لها ضرورة أو لزوم. وغلظة القلب قد تكون فظيعة، وإجرامية وشريرة؛ وهى مدانة أخلاقيا. لكن إدانتنا أحيانا تميل إلى أن تكون أقل حدة ربما لأننا ندرك أن غلظة القلب قد أنقذت أجدادنا من السلف، وإننا وحلفاءنا كنا، أو من المحتمل أن نكون، قساة فى مواقف معينة.

أما السادية فهى مختلفة، فالرجل الذى يقضى على طفل برىء لا حول له ولا قوة، أو من يغتصب امراة قبل أن يقتلها- خصوصا إذا حكى عن ذلك ضاحكا أو ممازحا أو تندر به وتفاخر به فيما بعد- يجلب لنا شعورًا بالعار والخزى الأخلاقى. إن المجرم قد لا يظن أن فعله سادى لكننا نحن ندرك ذلك. ومعركة التبرير التى يخوضها كثير جدًا من المجرمين وأتباعهم، تتمحور حول "الدافع" و"الضرورة" وحول استحضار التفسيرات التى تجعل قسوتهم تبدو شيئا حتميًا، وكلها وسائل غير موفقة. فالدوافع " آثار جانبية"، والفعل ليس من الأخطاء بل إنه تجربة استمتعوا بها ونفذوها من أجل اللذة الكامنة فيها.

ومن المعتقد الآن أن النازية نموذج للقسوة السادية. أما من وجهة نظر قادتهم، فإن أفعالهم لم تكن بلا سبب- إنهم أسوياء ما عدا قليلاً من المنحرفين، "التفاح الفاسد" الذين تلذذوا بتعذيب وقتل الناس العزل. وبالمعنى الذى حددناه فيما سبق، فإنهم لا يعتبرون أنفسهم من الساديين، بل علاوة على ذلك يرون أن إبادة اليهود وأعدائهم الآخرين كانت ضرورة ملحة، ومسألة حياة أو موت، لكننا نحن نرى النازى قساة جدا وبدرجة مقيتة، ويجب أن نسمى معظم أفعالهم أعمالاً وحشية، وعلى الرغم من ذلك فإننا - تجاوزًا - يمكن أن نراها نوعًا من القسوة وليست سادية.. وقسوتهم هذه تخدم أغراضا وغايات أخرى، أسوأها الابتهاج بآلام الغير، وهذا ليس من شيم الرجال وليس عملا بطوليا، ولا يصح ارتكابه من الذين تم اختيارهم لبناء الرايخ الذى سيحكم ألف عام. إن أفعالهم أثارت اشمئزاز كثير ممن شاهدوها؛ حتى من بعض المقاتلين من وحدات الجيش المختارة فى قواتهم[٣٥].

ولا تختلف غلظة القلب عن السادية من حيث تأثيرهما الحسى والبدنى فى الضحايا. والضرر قد يكون مفزعًا بالقدر نفسه فى الحالين، ومع ذلك فنحن نحكم أخلاقيًا على الفعل السادى، وليس على الفعل القاسى، بأنه تجسيد للدرك الأسفل والأفظع من وحشية الإنسان. وكى نعرف لماذا، علينا أن نفحص الاتجاهين اللذين جعلانا نتخذ هذا الحكم: الاتجاه النفعى، والاتجاه الاخلاقى الذى تدعمه العاطفة . ما الهدف منهما وما دوريهما؟ وكيف نستحوذ عليهما ونتمسك بهما؟ وسيكون هذان السؤالان هما موضوع الفصل الثالث.

الفصل الثالث

لماذا توجد القسوة؟

إذا كانت نظرتنا على جذور وتطور الحروب قد علمتنا شيئاً، فقد علمتنا كيف أن المواجهات الأبدية منذ الأزل وفيما بعد العولمة فرضتها علينا الغرائز الدفينة التى اكتسبناها نحن البشر العدوانيين من "الاصطفاء الطبيعى" (من النشوء والارتقاء والبقاء للأقوى).

(من كتاب بارى كانليف "Barry Cunliffe"، جذور الحروب)

ولأن البدايات لم يداخلها الشر

(ملك الخواتم، "ج. ر. تولكين" J.P. Tolkien)

تبدأ المناقشات عن الإيذاء البشرى غالبا بمقابلة بين رأيين لاثنين من الفلاسفة العظام. يقول توماس هوبز "Thomas Hobbes" - (١٥٨٨-١٦٧٩)، فى وصفه الشهير للحياة فى مقال "حالة من الطبيعة": "إنها جديرة بالازدراء، بها عزلة، رديئة، بها وحشية، وقصيرة"، وقد اختار هذا الوصف ليدعم الرأى القائل بأن البشر بطبيعتهم يتصفون بالعنف وتقيدهم البنية الاجتماعية. أما جان جاك روسو

"Jean – Jacques Russeau" (١٧١٢-١٧٧٨)، فنشير إلى مفهومه عن "النبيل المتوحش" الذى سحقت آثار الحضارة المدمرة طبيعته الراضية المطمئنة (الرومانتيكية) عند النشأة الأولى[١]. وهكذا؛ فإن التناقض بين "الطبيعة " و"الحضارة" يحدد التعارض بين من يرون البشر طيبين بالفطرة لكن المجتمع أفسدهم، ومن يرون البشر كأشرار تحكمهم وتكبح جماحهم قيود الجماعة، على الأقل فى معظم الأحوال.

والتقسيم الحاد بين ما هو اجتماعى وحضارى وما هو طبيعى؛ قد يبدو واضحا فى البداية، لكن إذا دققنا النظر سوف تنشأ المشكلات.. أولاً، لأن "طبيعى" لا تعادل "طيب" على الرغم من جهود محدودى الرؤية لإقناعنا بغير ذلك، فمرض الملاريا والزلازل شيئان طبيعيان. لكن "الناموسية" وأنظمة التنبؤ بالزلازل والتحذير منها ليست كذلك. إن الإنسان طوّر الحضارة لأسباب جيدة ووجيهة، غير أن كثيرين منا قد لا يوافقون على النتيجة. ثانيا، إن "اجتماعى" لا تعادل "إنسانى / بشرى".

قسوة الحيوان:

قد تظن الصقر طائرًا متفردًا لا مثيل له
يتحكم فى السماوات العُلى
يملك راحته وحريته فى الحرور والرياح
حتى تأتى ضربة سريعة من الشباك
يدخلها بينما يعلو الصراخ
وحاله الآن دليل على القسوة المطلقة

(من قصيدة "الذكرى السنوية" للشاعر " أوجست كلينزال "

August kleinzahler - من ترجمتى)

هناك مخلوقات تحيا فى ظروف اجتماعية معقدة؛ تتضمن مشاهد من العدوان فى ظروف معينة، مثل الدفاع عن الأرض. وهناك بعض الحيوانات، مثل: القطط، المنك، ابن عرس التى اشتهرت بأنها تفترس ضحاياها بقسوة. أما الشمبانزى والأسود والذئاب فيبدو أنها تمارس القسوة ضد فصائلها وأنواعها نفسها، فهى تتجمع ضد الفرد الوحيد منها لتذيقه الموت دون أى خطر على المهاجمين. وبمعنى آخر فإن الضحايا لا يمثلون أى تهديد لقاتليهم، بينما القتلة يثبتون أنهم يتعمدون الفعل قبل الهجوم ويستمتعون بالفعل أثناء الهجوم. أليست هذه قسوة بالفعل؟

والحكم على هذا الوضع سهل بكل تأكيد. ومثلما نرى شواهد من ذلك فى كل مكان؛ فإننا تلقائيًا نستخدم المعيار نفسه فى الحكم على قسوة الحيوان؛ كما نحكم على القسوة المتنوعة لدى الانسان: إنها سلوك طوعى متعمد يسبب معاناة يُتنبأ بها لضحية بريئة لا تستحق ذلك. وهناك حالة مؤلمة وممتدة عرضت فى سلسلة "الكوكب الأزرق" فى التليفزيون البريطانى (BBC)، يظهر فيها حوت قاتل يمسك برضيع صغير لأسد البحر، ثم يظهر لنا أنه يلعب بهذا الكائن وهو يحتضر ويقذف به مرارًا إلى أعلى فى الهواء[٢]. وسواء كان رد فعلنا نوعًا من الرعب "المتجمد" أو الإعجاب مع بعض التعليقات الساخرة أو مع تحليل عقلانى مترفع لهذا الفعل، فإننا سوف يجرنا ذلك إلى اعتبار هذا السلوك نوعًا من القسوة؛ على الرغم من إدراكنا أن الحيتان هى عدو طبيعى لسباع البحر.

وبهذا نقع فى الفخ نفسه الذى ندخله فى حالات قسوة البشر، فنحن نتحيز بمشاعرنا تجاه الضحية ونُدين الفاعل. وما يقيدنا هو عدم قدرتنا على فهم دوافعه. إن رضيع سبع البحر هذا يبدو أكثر براءة من فأر صغير (مع أن كليهما ضحية). كما أن مقدار حبنا للدرفيل أكثر من الحيتان القاتلة (مع أن النوعين يقتلان ضحاياهما). وكم هو من السهل أن نعتقد أن "دافع" القتل هنا هو التلذذ بالتعذيب،

لأننا لا نعلم ولا نفهم لماذا يتصرف الحوت بهذه الطريقة، وهو "الدافع" نفسه الذى نعزل به "الآخر" ونصفه بأنه "حيوانى" أو "وحشى". وقد يكون الدولفين الذى يلعب بأسد البحر مختبرًا له ويريد إثارة ردود فعله، أو إنه يتدرب على أدوار وحركات قديمة، أو يجرب حركات أخرى جديدة، أو إنه يُعلم الجيل التالى مهارات حياتية ضرورية. وكلما كان سبع البحر قادرًا على المعاناة؛ فإنه بلا شك سوف يتحملها، لكن الذى لا نعلمه هو هل هذا الحوت يفهم فكرة المعاناة، بصرف النظر عن أنه يقصدها أو يستمتع بها.

وللحق، فإن الحيتان القاتلة قريب بعيد لبنى آدم. وماذا عن أولاد عمومتنا الأقرب، الشمبانزى، الذى يذكرنا أسلوبه العنيف والمتعمد فى القتل بأنفسنا؟ وإذا فكرنا فى القسوة بشروط الإنسان على أنها "سلوك طوعى وغير مبرر يسبب معاناة متوقعة لضحية لا تستحق ذلك"، فإن هذه الهجمات من الحوت تبدو مماثلة جدًا لقسوة الإنسان. ولذا فهى تلفت الانتباه بشدة[٣]. وكلما ازدادت معرفتنا بالشمبانزى راودنا الشك أن طاقته على استيعاب المفاهيم العالية، مثل فهم أغراض ونيات الغير، قد تكون أكبر مما نظن[٤]. إنه يشعر بالألم والأسى بكل وضوح، ويبدو أنه يفهم أن المخلوقات الأخرى لديها هذه المشاعر أيضًا وتمارس درجة من التعاطف والفهم للمعاناة. وربما يثبت ذلك أن الشمبانزى مثل الإنسان يمكن أن يبتهج ويسعد عندما يضرب الضحية حتى الموت.

وتشمل القسوة سلوكًا ظاهرًا ويمكن أن يوصف هذا السلوك بصفات غير أخلاقية. ودرجة العنف الواردة معه يمكن أيضًا تقديرها. وفى حالة الهجوم المتبادل للشمبانزى يمكننا أن نسأل: ماذا حدث؟ ما مقدار المعاناة الناجمة عنه وما عدد من هوجموا وما مدة الهجوم؟ هل كان هذا الفعل قسرًا وهو مجبر عليه؟ هل كان

باستطاعته تحقيق هدفه بأسلوب أقل ضررا؟ كما أن القسوة توحى بأسئلة أخلاقية أيضا: هل الضحايا لا يستحقون ذلك؟ هل كان هدف الفاعل مبررًا للوسيلة التى أتبعت؟ وهل كان مسئولاً أخلاقيا عن هذا الفعل؟ ومن المهم أن ما وراء هذه الأسئلة هو الاعتقاد بأنه من الصواب أن يخضع الفاعل للمحاكمة الأخلاقية ومعنى ذلك أننا نفترض أن المجرمين ليسوا مجرد "مرضى خلقيًا"؛ مثل الأطفال الذين يُمنحون حقوقًا أخلاقية معينة ولكنهم لا يُعتبرون مسئولين أخلاقيا عن أفعالهم، فهم عناصر مدركة أخلاقيا، ومسئولون عن سلوكهم وقادرون على الفهم الكامل؛ حيث يدركون أنهم ارتكبوا فعلاً خاطئًا.

وفيما يخص مسألة قدرة الشمبانزى على المعرفة الأخلاقية؛ فإن الجواب عند علماء النفس ودارسى علم الحيوان. ومن العدل أن نقول الآن إن معظم المتخصصين لا يرون أن مثل هذا المستوى العالى من الفهم والإدراك الأخلاقى موجود لدى حيوانات الرتبة الأولى (كالقرود والشمبانزى). وعندما نصف هجوم الشمبانزى بالقسوة، ونتفاعل معه بفزع شديد، فإننا نقع تحت تأثير أخلاقى أساسى ينبعث من تقييمنا لأفعال النوع البشرى الذى ننتمى إليه والذى يمتد بعد ذلك لأنواع أخرى، كما يفعل علماء "الأنثربوجرافيا" عندما يخلعون الصفات البشرية على غير الإنسان؛ لأن الناس لو تصرفوا أو سلكوا مثل هذا السلوك فسوف نظن أنهم قساة القلب. وبمعنى آخر، إننا مستعدون، بسرعة، أن نجعل أحكامنا الأخلاقية تمتد لتشمل أنواعا أخرى من المخلوقات، سواء كان هناك ما يبرر ذلك أو كان لنا الحق فى ذلك أم لا. وأكثر ما يعنينا هنا هو أننا ندين رفاقنا فى الإنسانية بالسرعة نفسها وأحيانا بهذه التبريرات الواهية نفسها.

مبادئ الأخلاق والإرادة الحرة :

توجد هنا بالفعل مسألة أكثر أهمية.. إنها تدور مثل الثقوب السوداء الدائرة فى الفضاء عند كل مناقشة لأفعال الإنسان ووحشيته، وهو التساؤل عن حرية الإرادة، والمسئولية . وهناك رأيان – أولاً: لو نظرنا للمسألة بشروط لا صلة لها بالأخلاق، فإن أفعالنا، مهما شعرنا بأنها فعل حر، هى فى الواقع بسبب قهرى. وهكذا فهى بمعنى ما "حتمية"، فالمسئولية الأخلاقية لا مكان لها فى مثل هذا العالم "البارد" الرمادى، حيث إنها تتطلب محاسبة الناس الذين لم يكن أمامهم مفر من أن يفعلوا ما فعلوه (وهذا ما يقال به حسب مذهب الجبرية). ثانيا: يتمسك المذهب الأخلاقى برأى أكثر قوة بفكرة الالتزام؛ لأنه يرى فى الفرد الفاعل وحدة وكياناً مستقلاً حقيقيًا أكثر من أن يراه تابعًا أو "وهمًا"، فالإرادة الأخلاقية الحرة تعنى أن الناس مسئولون عن أفعالهم على الرغم من خلفياتهم الفاسدة أو تأثرهم بالدعاية وخضوعهم لها، أو رفاق السوء الذين يدفعونهم لهذه الأفعال.

ويمثل هذان الرأيان عن الإرادة الحرة رؤيتين نظريتين تمامًا، أما من حيث الواقع العملى، كما أشرنا سابقًا، فإن الناس أحيانًا يتقبلون فكرة الجبرية وأحيانًا أخرى يصرون على فكرة الالتزام الأخلاقى. وتنتهى المعركة عند "أى العوامل المؤثرة يمكن أن يُعتد بها باعتبارها أسبابًا"؛ ومن ثم لا يُؤاخذ الفاعل بالمسئولية الأخلاقية عما يفعله – وهذا ما يجب ألا يحدث. وعلى سبيل المثال، فإن من يعانون من مرض نفسى شديد فى هذه الأيام يميلون الى أن يُعتبروا غير مسئولين عن أفعالهم، ومثلهم من هم مصابون بأمراض عضوية كأورام فى المخ مثلاً. وعلى الجانب الآخر من مقياس السببية هناك عوامل أخرى كثيرة، مثل: علامات

النجوم. وهى غالبًا لا قيمة سببية لها (المجرمون الذين يزعمون أنهم ارتكبوا جريمة قتل لأنهم ولدوا فى برج الحمل ربما ينالون شيئًا من الرأفة على أساس نفسى وليس لأى سبب فلكى)، وبين هذين الرأيين يوجد مأزق أخلاقى وقانونى معا، لذلك فإن من الأفضل أن يكون الحكم على أساس ظروف كل حالة منفردة [٥].

وكى نتبين عمق هذه المشكلة؛ علينا التفكير فى بعض الأمثلة عن العوامل المؤثرة وراء الفعل، وأحدها هو إطاعة السلطة والذى كشفت عنه أبحاث عالم النفس ستانلى ملجرام "Stanley Milgram" [٦]، فقد تبين من محاكمات نورمبرج "Nuremberg" لجرائم الحرب أنه بإمكان السلطات العليا أن تقدم تنازلات أو "مجاملات أخلاقية"- بطاقة "أخرج من السجن بلا حساب" - وذلك عندما أفرجت عن النازيين بحجة دفاعهم أنهم كانوا يطيعون الأوامر، و"الطاعة" ما زالت تقدم تبريرات لكثير من الناس (ليس المجرمون فقط)، سواء كانوا فى إطار إطاعة السلطة، أو فى الإطار الأعم وهو إطاعة دور اجتماعى فرض عليهم أو دور وضعوه هم واتبعوه بأنفسهم. وفى النهاية فإن ذلك خضوعًا لإرادة وتوقعات الآخرين، وهذا هو نوع الطاعة نفسها الذى شهدناه بانزعاج فى تجربة سجن "ستانفورد" التى أشرنا إليها فيما سبق[٧].

ويوجد عامل آخر مؤثر باعتباره سببًا لأفعال القسوة وهو الإهانة السابقة. وإذا كنت تعتقد أن الإهانة الشديدة فى الطفولة ربما تكون حافزًا على القتل المتوالى والمتكرر، فإن هذا يعتمد على ثقافتك، وعلى وضعك السياسى، أو على تجاربك الشخصية. وقد جاء فى بعض الأبحاث العلمية أن القتلة متعددى الجرائم كانوا قد عانوا من إهانات بالغة فى حداثة سنهم وهم صغار[٨]، وهل يعنى هذا أن مثل هؤلاء القتلة يجب أن يعالجوا بدلا من أن يعاقبوا (أو أن يعدموا كما يحدث فى بعض المجتمعات). وكلما عرفنا أكثر عن حساسية المخ البشرى لسوء المعاملة،

خاصة في سنوات التكوين الأولى، فإن قائمة المؤثرات الفاعلة من المحتمل أن تتزايد.... وماذا عن الأمراض النفسية واضطربات الشخصية، والخلط في الأيديولوجيات، والنبذ الاجتماعي، وإصابات المخ، والمفاسد البيئية؟ وماذا أيضا عن الوالدين غير المسئولين والحرمان في الطفولة؟ ولو عرفنا أكثر عن قيمة وخطورة العوامل السببية؛ فإن كل حالة من هذه العوامل التي ذكرناها سوف تتاح لها "التخفيضات" والتنازلات الأخلاقية حسب ملابساتها. ولو أن كل من تعاطى الكوكايين أو شُخصت حالته باعتبارها مرضًا نفسيًا تحول حتمًا إلى مجرم، فإن مسألة التساهل ستكون أكثر وضوحًا وشيوعًا، لكن الحياة ليست بهذه البساطة. ولأسباب كثيرة قوية فإن معيار التساهل الأخلاقي الصحيح والمناسب سوف يبقى غير مؤكد. فنحن ما زلنا لا نعرف بالقدر الكافي كيف نُقيم أو نصنع "التعريفة" أو المعيار السليم للتجاوزات والتساهل.

تجاوزات وتفسيرات:

إن إحدى مشكلات محاولة فهم كيف يكون التجاوز والتغاضي عن الجانب الأخلاقي في السلوك السيئ؛ هي أن مثل هذه الحسابات تُجرى في ظروف مختلفة. والممارسات والعمليات القانونية الي تتحدد بها عقوبات المجتمع؛ هي ما يظهر من قمة جبل الثلج الكبير فقط. والإعلام والأصدقاء والزملاء، ونحن أيضا، نصدر الأحكام الأخلاقية بسهولة وبصورة آلية، وأحيانا دون التحري عن المجرم الحقيقي، فأحكامنا لا تؤثر بالفعل في المجرمين الحقيقيين. وفي الغالب ينتابنا الظن والشك بهم أو نستبعدهم بفعل العاطفة، أو نقدمهم للمجتمع بحيث يكون المتحدث في أفضل صورة ومظهر في نظر معارفه ومعاونيه، ولا عجب أنهم يصورون العدالة على أنها عمياء.

وهناك مشكلة ثانية تتعلق بالتجاوز فيما يخص الجانب الأخلاقى؛ وهـى أن كل عوامل التأثير القوية لا تثمن كلها بالعملة نفسها ولا تـوزن بـالميزان نفسه. وترتكز بعض تفسيراتنا على فكرة القوة أو الهدف والقصد؛ وهذا هو ما أطلق عليه الفيلسوف دانيال دينيت "Daniel Dennett" تعبير "الموقف الفعلى والرؤية المتعمدة" الذى يرى السلوك فى ضوء الدوافع، أهداف الفعل، والمعتقدات والرغبات، فالحوت هاجم سبع البحر الوليد لأنه أراد أن يأكل. وبسبب ميـل الإنـسان إلـى إطـلاق تفسيرات مبنية على القوة فى حالة أفعال الإنسان وآخرين، فقد يشكل هـذا عالمـا رمزيا بجانب العالم الواقعى المادى، ومن خلاله يـستطيع الـذين بإمكـانهم بنـاء نظريات عن العقل البشرى الانطلاق. وسوف تمنحهم قدراتهم على تصور ممالـك من الآلهة والأرواح والقوى الخفية التى تريد بنا خيرا وشـرا، لـو امتـدت هـذه التفسيرات إلى الحيوان والنبات، وحتى الجبال والكائنات الدقيقة.

أما التفسيرات العلمية للسلوك؛ فيبدو أنها تختلف كثيرا عن ذلك. وفى نظرية النشوء والارتقاء تتمحور التفسيرات إما حول "النوع " وإما "الجين" ولـيس حـول الفرد، حيث تشير إلى الأسباب الكامنة وراء فكرة "الانتقاء الطبيعى" وقانون البقـاء للأنسب أو الأقوى؛ لذا فالحوت هاجم سبع البحر لأن أجيالاً قبله نشأت وتحـورت على أن تأكل سباع البحر(لأن الحيتان التى قتلتها وأكلتها فيما مضى حصلت على تغذية أفضل من الحيتان التى لم تفعل ذلك). وقد مثّل هـذا الاخـتلاف ضـغوطاً خاصة بالانتقاء والتحور جعلت الحيتان، جيلاً بعد جيل، يتزايد إقبالها علـى أكـل سباع البحر. لكن التفسيرات البيولوجية السائدة الآن تعطينا تقارير عـن الـسلوك تستند كثيرا إلى آلية عمل المخ. فالشخص العنيف يلجأ لهذا الـسلوك؛ لأن هنـاك خللاً ما فى قشرة الفص الجبهى للمخ.. وبهذا يبدو أن مسئولية الفرد عن أفعاله، إن

وجدت. هى وهم. وأعدت عنه بعض التحليلات والتفسيرات التى تقطـــع أوصــال المسئولية وتمزقيا[١٠].

وتستطيع نظريات علم طب الأعصاب الحيوى الخاصة بــبعض ســلوكيات الإنسان، مثل رد الفعل الانعكاسى الذى يدفع الإنسان إلى التقيؤ، أن تفسر ذلك دون الرجوع إلى أي مسئولية أو علاقة له بهذا الفعل. (كما سيتضح لنا فيما بعــد، لأن هناك قسمًا عن رد الفعل الانعكاسى سنتناوله فى الفصل الخامس). أما النظريـــات الخاصة بالظواهر الأكثر تعقيدًا، مثل الشيزوفرنيا والقسوة، فهى متداخلة ولها حدود مشتركة بين علم دراسة الجهاز العصبى وعلم الــنفس. ويلزمنـــا أن تأخـــذ فـــى الاعتبار مفهوم العلاقات والارتباطات لأن هذا المفهــوم مهــم بالنــسبة إلـــى أداء وسلوك الانسان. ولقد تعلمنا أن نقسّم العالم إلى علاقات ولا علاقات- تمامـــا كمـــا تعلمنا قواعد اللغة والتحيزات والتجاوزات- تلقائيا وبسهولة مذهلـــة.. وأى تفــسير للقسوة يتجاهل أو يغفل العلاقات، أو يراها كنتيجة فقط وليست سببا، سيكون تفسيرًا غير كامل[١١].

وينطبق هذا أيضا على التفسيرات فى علوم الاجتماع والإنسانيات التى ترى أسباب السلوك وفقًا للأدوار الاجتماعية للفرد ووضــعه فـــى الــسلم الاجتمـــاعى، والمجموعات، والمؤسسات. وتتشابه مع هذا النمط من التفسير نظريات كـــل مـــن "توماس هوبز "Thomas hobbes" عن الصراعات بين الأفراد، وفكرة "الحــضارة الــضبابية" عنـــد "جـــان جـــاك روســـو"، ونظـــم القـــوة عنـــد ميـــشيل فوكـــو "Michel Faucalt"، ومع القوى الاقتــصادية التاريخيـــة. عنـــد كـــارل مـــاركس "Karl Marx"، ومع ضغوط الجماعة التى اكتشفها متخصــصو علـــم الاجتمـــاع النفسى، إلا أن هذه الأسباب، مهما كانت، لا يبدو أنها من نوع العوامل نفسها التى فى الجينات أو فى العلاقات والروابط الإنسانية، وسوف نظــل نفكـــر ونتعجـــب:

"أى نوع مشترك من "العملة" يمكن أن يحتوى ويشمل كل هذه العوامل المتفاوتة والمتباينة !".

وكما ذكرت، فإن وجهة النظر التى يقدمها هذا الكتاب عن القسوة غير كاملة بالضرورة، وأى فرد يبغى الحصول على تعليمات سلطوية عن أى من العوامل التى تحتم التجاوزات والتساهلات الأخلاقية فلن يجدها هنا، والتفاصيل المستفيضة والوافية عن هذا الموضوع سابقة لأوانها. وبدلاً من ذلك، فإننى سوف أقترح فى القسم التالى مخطط "نموذج عملى" يتناول القسوة من منظور علمى. وقبل أن نصل إلى هذه المرحلة، علينا معرفة ثلاث خصائص أو سمات على الأقل لهذا النموذج.

الخصيصة الأولى هى التعددية، فهذا النموذج سوف يتطلب عدة أنواع من التفسيرات عن سبب القسوة. وهى ظاهرة معقدة تشمل كل شىء بدءًا من المجرم متعدد الجرائم، إلى الأطفال الذين يلقون بالكتاكيت فى النار. وهما بالطبع ليسا من التركيبة نفسها ولا يتبعان معادلة واحدة فى الإجرام، وسوف تتداخل عوامل متعددة مرتبطة بأماكن وأوقات معينة لينتج عنها نوع من النفعية "الباردة" مع جمود القلب واللا مبالاة، وفى مواقف أخرى قد تصل إلى النزوع المتوحش إلى السادية. وسوف تحوى هذه العوامل قوى وضغوطًا اجتماعية وثقافية: ضغوط الرفاق، وطلب الإذعان بالطاعة، والأيديولوجيات، والخرافات، والأنماط والتغييرات الاقتصادية المفاجئة، وأمورًا كثيرة غيرها. وهذه تشمل الدوافع البيولوجية، المخدرات والهرمونات، والبرامج الذاتية الدفينة للاستجابة للتهديد... وهكذا. كما تشمل أيضا "عوامل التحور"- أو ما يسميه جيمس والتر "James Walter" - "ظلال الأسلاف" التى تمثل حاجتنا ونزوعنا للتنافس ولعزل الغير/ "الآخر"[١٢]، وسوف تتفاعل كل هذه الأمور معا ومع التاريخ الذاتى الخاص والمتفرد لكل شخص.

وترتبط الخصيصة الثانية لهذا النموذج بالتساؤل عن " كيف نعَرف القسوة". وسوف أستخدم التركيبة التى توصلنا إليها قبل ذلك: "القسوة هى سلوك طوعى غير مبرر بسبب معاناة مع سبق الإصرار لضحية أو ضحايا لا يستحقون ذلك". وبالإمكان أن نتوسع فى هذا التعريف ليشمل التمييز وإظهار الفرق بين جمود الحس واللا مبالاة – الذى يُقصد بها إحداث المعاناة كوسيلة لغاية مستهدفة– وبين قسوة السادية –التى تكون فيها معاناة الضحية هدفا وغاية الفعل– ولما كانت المبادئ الأخلاقية جزءا لا يتجزأ، ولا مفر منه، فى تعريف مفهوم القسوة، فإن أى نظرية عن القسوة لا بد أن تراعى وتتعامل مع النواحى الأخلاقية كما تتعامل مع الأسباب المادية والاجتماعية للقسوة. ويعنى ذلك، أولا: مراعاة المنطق الأخلاقى الذى يتضمنه هذا التعريف، وثانيا: شرح وتفسير لماذا يتمسك الإنسان بمثل هذه المبادئ الأخلاقية فى المقام الأول .

والخصيصة الثالثة التى يجب أن يحويها أى نموذج – وأنا واضحة جدا فى ذلك – هى أن أساس معرفتنا بهذا الموضوع؛ هو المعرفة عن ذهن وعقل الإنسان.. لماذا ؟ لأننا لن نجد "العملة" و"المفاتيح" التى تلزمنا إلا فى مخ الإنسان: "الشفرة العصبية" التى تفسر وتترجم كل شيء يتعلق بهذا الموضوع. نحن نعرف بالفعل أن "الجينات والعناصر الكيميائية تؤثر فى كيفية عمل خلايا المخ"، غير أنه لا يزال أمامنا الكثير حتى نفهم التعقيدات التى تختفى وراء هذه العبارة التى قد تخدعنا ببساطتها، ونحن نعرف أيضا أن نشاط المخ يتغير عند الاستجابة لأمور أكثر تعقيدا من هذه المؤثرات، مثل: المعتقدات، الذكريات، الرغبات والنيات والأفكار. وعندما نفكر فى دور الفرد فى الجماعة، ووضعه الاقتصادى. وميوله السياسية أو قضاياه المقدسة؛ سنجد أن كل هذه الأمور تؤثر فى التغييرات التى تحكم عمل المخ.

ومن المألوف أن نرى قوى اجتماعية مؤثرة - على نطاق واسع- مثل الاقتصاد الذى يؤثر فى مستوى المجتمع بأسره، لكن المجتمع - حتى نعرض الأمر بوضوح- يتكون من "تركيبة" متباينة، هناك نموذج كاره النساء، والخوف من الكساد، أو الاعتقاد فى "الجهاد" العنيف، وكلها تمارس تأثيرها القوى؛ لأن عقول الناس تتأثر وتتغير بالتعرض لها. وهذه هى الآلية الكامنة. وأى نظرية شاملة تتجاهل هذه المؤثرات؛ فإنها تنكر وتتجاهل مصدرا مفيدًا للمعلومات، لأن العقول لا يمكنها أن تعمل إلا وفق أساليب ومؤثرات محددة. وإذا تجاوزنا هذه المحددات، بأن نفترض مثلاً أن الناس تتصرف على أساس قرارات منطقية، فإن نظريتنا سيكون مصيرها الإخفاق والفشل.

ولا يستطيع أى كتاب أن يُصوّر التعقيدات التى ألمحنا إليها هنا. لذا علينا أن نُبسط الأمر، بأن نلجأ إلى نموذج عملى للقسوة يمكنه تقديم المعتقدات الأساسية ويجسد معطيات من نظم متعددة دون الغوص (مبدئيا على الأقل) فى مستنقع التفاصيل المحيرة. وسوف يفسر هذا النموذج المظهر القائم للقسوة ويطرح الاستنتاجات التى يمكن اختبار مدى صحتها، كما أنه سوف ينطبق على كل من القسوة فى أسوأ تجاوزاتها وعلى أشكال أقل خطورة من الإيذاء، مع الإشارة إلى تعريفنا للقسوة الذى يضع السلوك القاسى فى مضمون أخلاقى أرحب، ومع ذلك فإن هذا النموذج سيكون بالضرورة غير كامل وربما يكون غير ناجح. وكل النماذج العلمية إما أن تكون هذا وإما ذاك، إن لم تكن كليهما. والآن نقدم نموذجا للقسوة بعد هذا التحذير والإيضاح.

نموذج للقسوة:

إننى مقتنع الآن أكثر من أى وقت مضى
أن القدرة على إبادة جنس ما لا تقتصر على
ثقافة واحدة أو شعب واحد لكنها قدرة متأصلة
فى أحوال البشر

(من كتاب الثورة وجرائم الإبادة- روبرت ميلسون "Robert Melson")

تنطلق من الناس ردود أفعال تلقائية وآلية عند أى تهديدات أو خطر، وقد تحولت الحياة على وجه الأرض إلى عالم ملىء بالأخطار. هناك الحيوانات المفترسة والنباتات السامة والأمراض المفزعة والفيضانات والصواعق والزلازل والبراكين، وحتى العداء من جنس الإنسان.. وكلها مميت ومهلك. ومن بداية وجوده شعر الإنسان بهذه التهديدات. وكثير من هذه التهديدات، مثل الأسلحة النارية أو البطالة، حديث العهد نسبيًا لكن بعض آخر مثل أسماك "القرش" المفترس أو عدوى البكتيريا القاتلة تصيب الجنس البشرى منذ الأزل. وقد تزوّد الإنسان مقابل هذا بأدوات تضمن نجاة الأفراد فى مواجهة هذه التهديدات المتنوعة والمرعبة، وهى استجابته بسرعة وفاعلية لهذه المخاطر.

وبتطور البشر تطورت بمرور الوقت ردود أفعالهم. وبينما تغيرت الكائنات المسببة للأمراض، والسموم، والحيوانات المفترسة ببطء؛ استمر التهديد بالمرض وبالافتراس ولم يتوقف. وأتاحت هذه الاستمرارية للمخلوقات امتلاك ردود أفعال محددة و"مبرمجة" ضد المخاطر- تغييرات فسيولوجية. مشاعر، وتصرفات تُوَجه تلقائيا ضد مثيرات معينة. واحتفظ الإنسان بهذا الاستعداد لرد الفعل السريع مثلما

احتفظ بغرائزه العدوانية والوحشية، كما يرى أى ملاحظ لسلوكنا فى المتاجر[١٣] إننا نقفز عند سماع ضوضاء مفاجئة ونحن نعرف أنه لا ضرر منها، ونشعر بعدم الارتياح فى الأماكن المظلمة، ورد فعلنا تجاه حيوانات معينة هو الخوف والرعب. سواء استطاعوا إيذاءنا أم لا. وتفزع الحركات المفاجئة الرُضع حديثى الميلاد كما تفزع الأطفال والبالغين. وتبقى معنا هذه الغرائز حتى إن لم نواجه أخطارًا ومهالك، وحتى لو امتلكنا الاستعدادات الحديثة للحماية من مسببات الأمراض. وما يهم هنا هو التاريخ المشترك وليس درجة الخطر، وفى انجلترا فإن عدد من يموتون من عقار "الباراسيتامول" يفوق بكثير ضحايا العنكبوت، إلا أن الخوف من العناكب أكثر شيوعًا من الخوف من مسكنات الألم.

التهديدات التى تثير الخوف:

إن أنواع التهديدات التى لازمت الإنسان زمنًا طويلاً، سمحت بتكوين ردود أفعالهم، يمكن اعتبارها ثلاثة أنواع حسب المشاعر الأولية السلبية التى تُحدثها[١٤]. وتنشأ التهديدات التى تثير الخوف من مصادر قوية تهدد وجود الإنسان ذاته، وهى مصادر من القوة حيث يصعب مقاومتها. والحقيقة القاهرة هى أن ضحاياها يتحتم عليهم إما أن يهربوا وإما يستسلموا أملاً فى النجاة. وتلك هى مجموعة الكوارث الطبيعية مثل البراكين والسيول، وقد كانت هناك تهديدات فظيعة سابقة أصبحت الآن أقل خطورة بفضل الحماية التكنولوجية. ولو جردنا الإنسان من هذه "الدرع الواقية" الحديثة؛ فإن صاحب أقوى بنية جسدية سيكون بلا حول ولا قوة أمام الحيوانات الضخمة أو مخلوقات أخرى أصغر قد تهاجمه بأعداد كبيرة وبحركة

سريعة، أو حشرات لادغة خطيرة، أو أى مخاطر طبيعية لا يمكن التحكم فيها (البحار الجامحة، الأرض الزلجة المتغيرة... وهكذا).

وليست هذه الأخطار الطبيعية هى كل ذخيرة المؤثرات المفزعة. فأجدادنا كانوا خائفين أيضا- ولديهم أسباب وجيهة – من أفراد من جنسهم(١٦). وبنى الإنسان لا يمكن التنبؤ بأفعالهم المهلكة، وعلاوة على هذا فبعضهم أكثر قوة من غيرهم إما بسبب القوة البدنية، وإما المهارة فى استخدام الأسلحة، وإما بسبب المستوى الاجتماعى الرفيع الذى يحيطهم بالمناصرين والأعوان، والجماعات التى تستطيع تقييم قوة الآخرين بدقة والتى تستسلم بدافع الخوف من الأقوى لا يبدءون بالعدوان ضد الأقوى طلبا للسلامة ولإحداث التناغم فى العلاقات بين فئات المجتمع، لذا فالاستدلال الصحيح على التهديدات التى تُثير الخوف وردود الأفعال المناسبة، هما اللذان يتيحان مواجهة المخاطر الاجتماعية والطبيعية على حد سواء.

وفى التجارب العلمية، عندما يواجه الفأر خطرًا داهمًا فإن رد فعله الغريزى هو أن يتجمد خوفًا وينزوى جبنًا. وتُفرز فى داخله هرمونات الضغط العصبى والتوتر مثل "الأدرينالين" فى مجرى الدماء؛ ويتغير نشاط المخ فتزيد اليقظة ويتركز الانتباه إلى مصدر التهديد وتتحول إمدادات الدم (أى الطاقة) من الأعضاء الأدنى نشاطًا، مثل الأمعاء، إلى الأعضاء الأعلى فى الأداء مثل القلب وعضلات الساق حتى يستعد الجسم للجرى أو القتال. وتُولد هذه الاستجابة نفسها عند الإنسان خفقان القلب واتساع العينين من الفزع دون الحاجة إلى اتخاذ قرار بوعى تام. أما التصرفات التى تأتى بعد ذلك بفعل الاصطفاء الطبيعى، مثل القدرة على التحكم فى رد الفعل التلقائى، فيمكنها أن تتغلب على التهديد الذى أثار هذه المخاوف، إلى حد ما، إن لم يكن بشكل كامل. وضبط النفس هزيل ويحتاج تركيزًا للطاقة ومُعرض

للفشل. خاصة مع الضغوط النفسية المصاحبة للتهديد[١٧]. وكلما كان التهديد قويا، اشتدت ردود الفعل المتعارف عليها.

ويؤدى الخوف إلى تغييرات آنية سريعة وأخرى طويلة الأمد. والسلوك الذى يقود إلى حادث مخيف ربما يمكن إنهاؤه أو منعه، أما الملامح البيئية المصاحبة للحادث فتصبح بغيضة وكريهة، مثل: مشاعر الخوف أو اضطرابات ما بعد الإجهاد من الإصابات. والآليات الفسيولوجية التى تتداخل مع هذه الاستجابات تتحور كى تحدث تأثيرًا قويًا فى السلوك والذاكرة، لأن التهديد بالمخاوف يتزامن مع تحذيرات ضئيلة تتطلب انتباهًا سريعًا، لكن إذا استمر التنبؤ بالتهديد لفترات طويلة دون أن يتجسد الخطر فعلاً، فإن الضغط النفسى المزمن والقلق الشديد من الممكن أن يسببا الإجهاد البدنى والتمزق النفسى مع مشاعر سلبية مثل الاكتئاب. وكثير من تهديدات الخوف الحديثة مثل الإرهاب وعدم الاستقرار فى العمل أو الاحتفاظ به تعتبر من هذا النوع المزمن.

التهديدات التى تثير الغضب:

والمجموعة الثانية هى التهديدات التى تثير الغضب (سوف أسميها فيما بعد تهديدات الغضب)، وهى تحدث عادة عندما يسىء الفاعل التصرف. (أى يهدد موارد العيش للفرد أو يتصرف بصورة غير متوقعة مثلاً[١٨]). ومصادر هذا التهديد قوية ولكنها ليست ساحقة، فإنه يمكننا ببعض الجهد مقاومتها أو التحكم فيها أحيانًا، وسواء كانت مصادر التهديد عوائق طبيعية أو سفاحين عتادًا أو منافسين مسيطرين أو ذرية متمردة غير مطيعة؛ فإنهم يمثلون التحدى لكل ما هو حقيقى ويثيرون فينا نزعة عدوانية حتى يوجد حل للمشكلة وتتم استعادة السيطرة من

خلال محاولات قوية ونشطة ترغم هذه العناصر على العودة إلى الخط السوى والالتزام. ويستهدف الغضب فى الأساس أناسا آخرين، وهؤلاء يمكن أن يتأثروا لدرجة أن يغيروا أسلوبهم فى أثناء الغضب، وهناك استعداد لدى الإنسان أن يمتد بإدراكه العقلى عن قصد إلى الوسائل المختلفة التى يستعملها، حيث يعامل الأشياء كأشخاص وهم ليسوا كذلك. فأنا أعلم جيدا أن الصراخ أمام آلة تعطلت لا يفيد بشيء محدد يجعلها تعمل، غير أن زملائى فى العمل يعلمون أننى أشتم وأسب الحاسب الآلى الذى لا يعمل، ولا أكون بمفردى وأنا أفعل ذلك، وربما لست أنا فقط من يفعل هذا أثناء الغضب[١٩]. وردود الفعل فى أثناء الغضب، مثل ردود الفعل من الخوف: أميل الى أن تكون نمطية ومتشابهة عند كل الأجناس، وهى تشير بذلك إلى تاريخ طويل من التحور والتطور، فالقطط عندما تواجه عدوًا تتسع عيونها، وتزمجر وتشد عضلاتها وترفع شعر فروة ظهرها حتى تبدو أكبر حجمًا وأكثر خطرا، وأحيانًا يُعيد عدوها التفكير وقد يتراجع عن منازلتها. والجندى وهو على وشك الحرب يحملق، ويُظهر أسنانه، ويحكم قبضة يده، ويرفع أكتافه للسبب نفسه (التخويف).. وكلا النوعين الحيوان والإنسان تحكمهما عمليات هرمونية طبيعية متشابهة. وعندما تُهزم القطة تتكور وتتخلى عن مظهرها السابق كعلامة على الاستسلام، بينما الرجل الذى يخسر فى جدال أو حوار قد يفرد ذراعيه- المعادل عند البشر بأن يترك جسده معرضًا للهجوم- كى يُظهر أنه أذعن وتنازل عن الجدال. ولقد تعلمنا الإشارات ولغة الجسد سواء فى حالة الاستسلام أو الهيمنة من الحياة منذ زمن طويل، ويمكن غالبًا أن تفهمها أنواع ومخلوقات أخرى غير الإنسان (وهكذا يتم تدريب الكلاب).

ويمدنا الغضب بالقوة المحفزة للدفاع ضد التهديد من الآخرين؛ حتى يمكننا السيطرة عليهم. ومع افتراض أن البشر مخلوقات اجتماعية جدًا يصرفون معظم

وقتهم وطاقاتهم فى التعامل مع غيرهم من بنى الإنسان. فإن معظم التهديد بالغضب يأتى، ولا نندهش، من أمور اجتماعية : نزاعات حول أوضاع أو مكانة اجتماعية، أو على مصادر الرزق، أو إرادة الوصول إلى هدف، أو مع الرفاق؛ فإنهم يهددون نفوذك ووضعك الاجتماعى، وليس النجاة أو السلامة البدنية والحسية مباشرة. وهنا يقترن الخوف بالغضب فى إدارة العلاقات بين الجماعات، وهذا هو ما يدعو إلى تطوير مسلسل مستقر للرتب والطبقات الاجتماعية حتى نقلل، إلى أدنى درجة، العدوان بين أفراد الجماعة[٢٠].

والغضب، مثل الخوف، يمكن أن يُمثل ضررًا حسيًا أو نفسيًا إذا كان مزمنًا أو زائدًا عن الحد. وكثير من التغييرات الجسدية التى تميز رد الفعل عند الخوف، مثل: إفراز الأدرينالين، تحدث أيضًا فى أثناء الغضب، وبالفعل يكون من الصعب الاستدلال على أى اختلاف، أو التفريق بينهما. وفى حالة الخوف يمكن للإنسان أن يكبح أى سلوك يؤدى إلى عدوان أو تهديد، إلا أنه فى حالة الغضب يزيد ويتضح هذا السلوك، أما إذا كانت محاولة السيطرة على النفس ناجحة، فإن كبت الغضب يبعث فى النفس شعورًا مَرضيًا جدًا[٢١]. وعلى النقيض من ذلك؛ فإن الفشل فى ضبط النفس قد يؤدى إلى ذات الشعور بالتهديد، مما يثير رد فعل أشد من الخوف فى المستقبل.

التهديدات التى تثير الاشمئزاز:

ليست كل مخاطر الطبيعة واضحة مثل: الزلازل، نمر يزمجر، وحيد القرن الذى يهاجم، أى عدو ثائر. إن الضرر يكون واضحًا ظاهرًا إذا تعرف المرء على مصدره، لكن هناك أنواعًا من الضرر أكبر كثيرًا بصورة لا تتناسب مع مصدرها،

وأكبر أنواع العنكبوت الضخم السام يُعتبر صغيرًا إذا قورن ببنى الإنسان، فهو غير خطير بالمرة ويسهُل سحقه وتحطيمه، ولا يضرك إلا إذا سمحت له بالاقتراب وأراد لدغك. لكن اللحم المتحلل، واللبن الفاسد، أو أى مادة أخرى خطرة لا يمكنها لدغك. وكذلك الجثامين، القىء، البراز أو الجرح المفتوح. والخطر فى هذه الحالات يأتى من الملامسة المباشرة- إنها تهدد بالاشمئزاز والقرف فقط. لكن الأسوأ من ذلك هو عدم التمييز بين الطعام الفاسد والطازج، إن ابتلاعه على سبيل الخطأ وهضمه يهددك بسموم خبيثة تكون على أهبة الاستعداد كى تتكاثر وتهزم الإنسان أو تسبب موته، أو تصيبه بضرر طويل الأمد، أو بمرض ليس له علاج.

ورد فعل الجسم الذى تصيبه العدوى يتم بتحولات وتغييرات فسيولوجية، تحفز دفاعات الجهاز المناعى، وترفع درجة حرارة الجسم الطبيعية، وتطلق العرق والعطش حتى تطرد البكتيريا والسموم، ويأتى القىء كى يقذف بالكائنات التى غزت الجسم خارج الأمعاء. والبصاق يُخرج المادة الخطرة من الفم، والأنف إذا أغلقته التجاعيد تلقائيا والوجه إذا تبدل وانقلب فهذا للحماية من عدوى الكائنات التى يحملها الهواء والتى ربما تدخل الجسم، وتنظيف ما حول الجروح أو التقرحات يهدف إلى حماية الجلد. ولسنا بحاجة إلى تعمد القيام بمثل هذه الأمور، على الرغم من أن بعضها قد يحدث عمدًا، إنها تأتى بعد إشارات الخطر فى البيئة الاجتماعية. والأرجح إنها تمثل ردود الفعل المتطورة التى يلجأ لها الإنسان للتعامل مع هذه الأنواع من التهديدات، والعاطفة المصاحبة لهذا التهديد هى الاشمئزاز والقرف[٢٢].

وردود الفعل فى حالات الخوف والغضب؛ هى تصرف تجاه مواقف خطرة بالفعل، لكن تهديدات القرف هى ردود فعل تجاه خطر محتمل. والقرف بالضرورة يمكن منعه، إنه إشارة وتحذير بأن نبتعد. وإذا احتفظنا بمسافة بيننا وبين العامل المهدد أمكن تجنب الخطر، لأن الخطر الذى يهدد به لن يتحقق. وإذا تم اجتنابه كان

هذا اختيارًا عمليًا، كما أن إزالة أو تدمير هذا الشيء يحل المشكلة، على افتراض أن هذا الإجراء يحد من مخاطر التلوث أو العدوى، وهذه الإجراءات التي تؤدي إلى إبعاد وطرد التهديد تقلل من التأثير المقزز، وقد أصبحت هذه الإجراءات طقوسًا في كل ثقافات البشر، ذلك لأن كل ثقافة، مهما كانت آمنة أو متناغمة اجتماعيا، يتحتم عليها دائمًا أن تتعامل مع أشياء تُسبب العدوى[٢٣]. والإنسان في عصر ما بعد الحداثة قد يسيطر بهدوء على عالمه إلى حد قلما يشعر فيه بالخوف أو الغضب، إلا في حالات لا يمكن أن يُصرّفها لمصلحته، لأنه سوف يستمر في إنتاج مخلفات عضوية تستعصي على إزالتها. ومن المحتمل أيضًا أنه، لدرجة ما، يمرض حيث يصبح هو مقززًا لآخرين ممن يصادفونه من الناس. ومن الملاحظ أن المرضى غالبا يبدو عليهم كثير من الملامح التي نعلم أنها تشعرنا بالاشمئزاز والقرف (أنف تتساقط منها إفرازات، تقرحات مفتوحة، وما شابه ذلك). ومما هو مفترض أن أسلافنا عندما كانو يجتنبون رفقاءهم المرضى بمرض فتاك (مثل الطاعون)، لم يكونوا أقل تعرضًا للموت بسبب هذه الأمراض. ولسوء الحظ فإن هؤلاء الذين نصنفهم بأنهم مثيرو الاشمئزاز، الأجانب الذين يبدو أنهم مختلفون والناس الذين ابتلوا بوصمة ظاهرة أو تشوهات، يمكن أن يثيروا ردود الفعل نفسها[٢٤].

ومن ينشد تحسين هيئة جسمه، جراحات التجميل وغيرها، فإنه يتبع منطق داروين الصحيح، ذلك لأن تشوهات الجسم تنشأ إما عن مرضٍ معدٍ منتشر وإما عدوى سابقة (والمظهر الشائه يدل على احتمال انتقال العدوى) أو عيوب خلقية وراثية، وكلها من الممكن أن تحول دون أي تزاوج محتمل، غير أن الكثير من حالات الاختلاف عن المألوف لا تُفسرها مثل هذه الدلالات أو الأسباب، وقانون الاصطفاء الطبيعي ليس الحاكم الأفضل دائما. فيجب ألا يكون الناس عبيدًا يسودهم قانون الاصطفاء الطبيعي، أو أن يأتمروا بأمر جينات تحفزها مبررات عتيقة

(وهذا أحد الأسباب التى تجعلنا لا نقبل التعميمات "الفخمة" التى يقدمها علم النفس التكاملى). والغرائز والنزعات بالغة الأهمية وتتطلب جهدا فائقا.

إن الأشياء المقززة هى التى تهدد سلامة البدن بطريق غير مباشر؛ بسبب السموم أو الكائنات ناقلة المرض التى تطلقها. وهى أيضا التى ربما تهدد المكانة الاجتماعية لفرد ما؛ لأن التهديد بالاشمئزاز ينتقل من هذه الأشياء إلى الشخص الذى يلمسها. (هل ستصافح رجلاً أمسك بيده البراز منذ دقيقة واحدة؟ حتى إن كان قد قام بغسل يديه فى الوقت نفسه؟)(٢٥). والتهديد الأساسى من هذه الأشياء هو سلامة البدن، فهى تنتهك الجسد وتغيره بطريقة كريهة ومنفرة، فتضعف بنية الجسم وتنشر التلف من الداخل إلى الخارج. وحتى وقت قريب نسبيا لم نكن نعرف الآليات التى تحدث بها مهددات القرف تأثيرها المفسد والهدام؛ فهى تشويهات غير مرئية، جزيئات، أو سوائل. هى لعنات أو أرواح شريرة أو شىء ما غيرها. وحتى الآن فإن أسباب المرض من الصعب جدًا اكتشافها، فإنها "لئيمة" وخبيثة وخافية ومن العسير الاستدلال عليها؛ ولهذا يكون التصدى لها غير وارد. فالسموم وناقلات العدوى يمكن التعرف عليها من خلال آثارها المرئية فى المادة العضوية والجسم فقط. وعلامات التلف فى الخلايا والضرر هى الإشارة ومفتاح اللغز. والعوامل المسببة للمرض لا يمكن أن تكون مُجَسدة وحقيقية إلا إذا كان فى حوزتك مجهر (مايكروسكوب). والمرشد الوحيد الذى كان يملكه أسلافنا منذ الأزل كى يتجنبوا الهلاك؛ كان أن الكائنات السامة والمادة المتحللة يمكن ملاحظتها غالبا بوضوح (إذا تغير لونها مثلاً وتلونت بألوان زاهية أو كانت رائحتها كريهة ومستهجنة). وسوف تزداد قدرتنا على التعلم.

تعلم ردود الفعل على التهديدات:

ليست كل التهديدات "مُبرمجة"، بمعنى أنها تطلق ردود فعل آلية ونمطية (وتلك قد يمنعها أولا يمنعها الفرد)، فربما تفر منزعجًا بسبب ضوضاء مفاجئة أو تجفل من شخص عندما يعطس بجانبك، لكن ماذا ستفعل عندما تواجه شيئًا آخر جديدًا للمرة الأولى؟ في هذه الحالة يكون الربط بين ردود الفعل تجاه التهديدات وما يصاحبها من عواطف سلبية أمرًا مفيدًا. فإذا أكلت شيئًا جديدًا وشعرت بوعكة، فإنك فيما بعد سوف تنظر إليه بشيء من الاشمئزاز والقرف الشديد، وسوف يرتبط هذا الشعور بمجموعة من ردود الفعل البدنية التي تنشأ فقط كي تنأى بك عن الأشياء التي أصابتك بالوعكة. وإذا صنفنا هذا الشيء الجديد على أنه تهديد بالقرف فإننا نحشره في زمرة الأشياء التي تُطلق شعورك بالاشمئزاز، وعليك تجنبه أو رفضه (أمّا إبعاد هذا الشيء ورفضه وإما تدميره تمامًا). وهذا يعتمد على أي السلوكين أسهل. ومع طقوس التنظيف لهذه الأشياء يكون رفضها سطحيًا فقط، فإنك بذلك تكون قد خففت من التصرفات القوية لتكون ضمن مجموعة ردود الأفعال المألوفة، ما يجعل أمور الحياة أبسط كثيرا في مرّات مقبلة تواجه فيها هذا التهديد. ومثلما هي الحال مع كل التهديدات؛ فإن الهدف من رد الفعل هو محاولة الاحتفاظ بالتحكم في بيئتك بأن ترفض هذا التهديد.

ويتعلم البشر من التجربة والخطأ. فإذا سبب لهم أكل الجبن القيء فلا لزوم لها. وإذا سبب لهم التوت التسمم الغذائي فإنهم ربما يشعرون بالإعياء بمجرد التفكير فيه، دون وجود التوت نفسه؛ لذا فالشيء الذي يصيبنا بالقرف لا نقترب منه، وبالطبع لا نأكله.. وعلاوة على ذلك فإننا نتعلم من الآخرين بالتقليد

والملاحظة ومن مناقشة ما نشعر به، وكأفراد فى مجتمع فنحن متاح لنا ثروة من المعلومات المتراكمة عن كل ما يهددنا بالاشمئزاز والقرف، وهى تختزن باعتبارها معايير ثقافية (عن الأغذية المحيطة بنا مثلاً) ننقلها بأمانة باعتبارها واجبا تجاه الأقربين والأعزاء. ويتشابه الرجل الغاضب والقطة الغاضبة فى كثير من الأمور، كما أسلفنا، لكن اشمئزاز الإنسان شيء متفرد ومترفع. ونحن نرجع هذا الترفع إلى أننا نألف الحياة فى جماعة ولدينا القدرة على بناء ثقافة توقرها وتثريها اللغة.

البشر نشأوا وارتقوا إلى العيش فى فئات اجتماعية:

لقد تطور البشر كحيوانات اجتماعية تشعر بالأمان فى مجموعات بينها صلات وقرابة[٢٦]. وفى الجماعة يتنافس الأفراد على المكانة الاجتماعية التى تتيح امتلاك موارد أكبر (بما فى ذلك شريك الحياة)، وبها تكون فرص تربية الأبناء أفضل. وإلى أن تطورت الأسلحة فإن الفرد وحده، مهما كان قويا جسمانيا، لم يكن بإمكانه مقاومة هجمات مهاجم أقوى أو أى عدوان جماعى منظم من قوم آخرين، ولذلك؛ فإن الأفراد الذين تمكنوا من تكوين أحلاف كانوا أوفر نصيبا فى النجاة من المواجهة المحفوفة بالمخاطر أكثر من غيرهم الذين لم يألفوا التحالف والمشاركة الاجتماعية. والعدوان على الجماعات المتحالفة يُعرِّضك للخطر؛ ولأن يبتعد عنك حلفاء أقوياء يمكن بمساعدتهم حتما النجاة من معتد وحشى إذا أتى فى مرة مقبلة. فالتصرف الذى يضر فردا من تحالف ما سوف يُسبب غضب أعضاء آخرين، وهذا المفهوم عن توزيع القوة أوجد قوانين للسلوك تشكل أساسا لكل المنظومات الأخلاقية التى نعرفها اليوم.

والتعاون، على خلاف العنف الجماعى، ثبت نفعه بدرجة كبيرة. وإطاعة القواعد الأخلاقية- المواثيق الاجتماعية التى اقترحها توماس هوبز "Thomas Hobbs"، تحملنا عبء وتكلفة رعاية أعضاء الجماعة الآخرين: مساعدة الضعيف وحماية الطاعن فى السن والعاجز عن الدفاع عن نفسه. لكن القائمين بالرعاية سوف يتوقعون أنهم، إذا أصيبوا أو مرضوا، فإنهم أيضًا سوف يُعتنى بهم (الإيثار المتبادل). والمجتمعات الناجحة تستخدم العقاب الإيثارى - سُمى هكذا لأن من يقوم به يتحمل تكاليف إنزال العقاب ولا يكسب عائدا مباشرا- والعقاب ليس ضد العدوانيين المعروفين فقط، ولكنه أيضا ضد "المنفلتين" الذين يأخذون دون المشاركة بالجهد، وحتى الآن، فإن المنفلتين هم مصدر رئيسى لعدم رضاء جهات العمل[٢٧]. والجماعات البشرية إذا ما تركوا لأساليبهم الخاصة؛ فقد يصل الحد الأقصى لعدد الجماعة الطبيعى من نحو مئة إلى مئة وخمسين عضوا- أو أكثر، لدرجة أن بعض الأعضاء لا يعرف بعض آخر- وهذا كما هو معتقد- يعكس أهمية حسن السيرة والسمعة الاجتماعية كما قال أسلافنا[٢٨]، فالغش يكون أصعب كثيرا عندما يعرف كل من يُحتمل أن تتعامل معه أنك غشاش.

وفى الجماعة التى تتكون على أساس القرابة؛ يكون "الإيثار المتبادل" وفق استراتيجية "اكسب وأنا أكسب"، بصرف النظر عن التكاليف[٢٩]. إنك لن تستفيد مباشرة فقط لكنك أيضًا سوف تزيد من فرص الاحتفاظ بنسخ من جيناتك الواقعة فى الغدد التناسلية لقريبك (وخصوصًا إذا استطعت أن تُقدر درجة القرابة وتحدد ما تفضله تبعًا لذلك). حتى إن كان بعض أعضاء هذه الجماعة من غير أقاربك، فإن الفائدة المباشرة "للتبادلية" سوف تظل قائمة، كما أنه من المفيد، على المدى الطويل، أن تكون لطيفًا مع الناس الذين تحيا معهم. وأحيانًا، كما أشرت فى المقدمة،

فإن المفكرين المحدثين قد يسخرون من مبادئ الأخلاق بسبب أعرافها البرجوازية، وتمسكها بالقديم، وعدم تسامحها أو تقبلها للاختلاف.... إلخ، ولكن حسب مفاهيم "داروين"؛ فإنه يبدو أن قوانين الأخلاق كانت خدعة جيدة وذات فعالية بدرجة مذهلة(٣٠). أما تبادلية المنافع والعقاب الإيثارى؛ فمن الممكن أن تولد جماعات شديدة التماسك تفوق قوتها - بقدر كبير - قوة أى إنسان يعمل منفردًا، عندما يعمل كل أفرادها متضامنين(٣١).

وهناك، اجتماعيًا، مطلبان هما تفادى الأخطار والتعامل بدبلوماسية، وهما قد يمثلان عبئًا ثقيلاً على مصادر وحصيلة الفرد المعرفية ويتطلب ذلك فردًا شديد الحذر والتحفظ حتى يضطلع بهما. غير أن ما نشاهده أحيانًا هو هذه "الخنقة الجينية" التى يُسببها تصادم الناس فتجعل تفادى الأخطار نجاة أقرب إلى الهلاك(٣٢)، إلا أن بعض المخلوقات ممن لديهم الجَلَد والمثابرة يستطيعون النفاذ والنجاة، ولكن ما النتيجة؟ اليوم يوجد بلايين من البشر. (هؤلاء السادة الذين يتكاثرون بفعل نظرية التحور كأنواع من الفطر الموقر الذى سوف يخنق كوكبنا سريعا.. واختر أنت ما تريد). ولم يحقق أسلافنا نجاحاتهم وفقًا لنظرية "داروين" ببناء العضلات حتى يتغلبوا على الوحوش الضارية والمتزايدة فى الضخامة، أو بالتخصص فى إحدى النواحى البيئية، لكن نجاحهم كان بأن طوروا القدرات اللازمة للعمل كجزء من جماعة، وأهم هذه القدرات وأعلاها هو تخمين وتصور ما سوف يحدث مستقبلاً.. فى كل من العالم الطبيعى والعالم الاجتماعى المعقد والمسيطر باطراده. ولقد هزمنا الطبيعة لأننا عرفنا أن نتنبأ بيا.

البشر يطورون قدرات ماهرة على التنبؤ:

إن إحدى القدرات التى تمتلكها حيوانات عديدة؛ هى القدرة على استخدام ما يعلمونه عن أجسادهم وبيئاتهم فى التنبؤ بما يمكن أن يحدث فى المستقبل ونتائجه المحتملة. ولقد استمرت أنواع المخلوقات فى الحياة بسبب تطوير قدرتين على التنبؤ: خبرة الحكم على مدى الخطورة المحتملة لأى تهديد، وخبرة تصور ردود الفعل الصحيحة والملائمة تجاه الأنواع المختلفة من التهديدات. ومن لا يستطيع التنبؤ بدقة عن بيئته لن يستطيع السيطرة عليها، بينما من كانت تنبؤاته صحيحة يمكنه تعديل سلوكه حتى يتعامل بفاعلية أكبر وبسلامة مع الأشياء والكائنات[٢٣]. والتنبؤات تحذير ضرورى يُمكن الفرد من التحكم فى بيئته، وأفضل الأفراد فى القدرة على التنبؤ هم الأكثر احتمالاً للنجاة والتكاثر.

وفى الأماكن المستقرة بيئيا، يكون الطلب على قدرة التنبؤ والطاقة الذهنية اللازمة لها، متدنيا أو لا لزوم له. وإذا كان العالم حولنا دائمًا هو نفسه لا يتغير، فإن التنبؤ به يعتبر إهدارًا مكلفًا للقوة والجهد. وهناك أنواع من حيوان الأخطبوط تأخذ هذا المنطق إلى أقصى الحدود الظاهرة؛ فتظل محتفظة بفكرها البدائى لمدة تمتد فقط بقدر الوقت اللازم للعثور على صخرة، فإن وجدوها تعلقوا بها فى أمان. وبعد هذا الأمان يُفقد العضو الباحث عنه، فلا حاجة له بعد الآن، ومع ذلك فالناس ميالون إلى القيادة، ليستكشفوا مواضع وكفاءات متنوعة، لذا فقد امتلكوا مهارة التنبؤ حتى درجات مذهلة.

وعقولنا تتنبأ تلقائيا وباستمرار كجزء من رصد حركة أجسادنا والتحكم فيها. إنك، مثلاً، تتنبأ بلا وعى إلى أين سوف تستقر ذراعك بعد أن تحركها. وهذه

"حسية" معقدة جدا أكثر مما يبدو. إنك تفعل ذلك بأن تلجأ إلى تخمينات عن فترة قصيرة، ثم يتم تحديث تخمينك باستمرار- عن الاعتقاد أين ستكون ذراعك- وتشمل الحسية معلومات عن وضع وحدود العالم (المكان) حولك وعن حجم واتجاه الحركة التى أنت على وشك أن تبدءها. وهذه التخمينات يتبعها عادة، وفى اللحظة نفسها تقريبا، معلومات جديدة عن أين انتهت ذراعك بالفعل، وهى معلومات قد تؤكد أو تخالف أو تعدل من توقعاتك(٣٥). إن ذهنك يقارن بين واقع ما بعد الحركة واعتقادك قبل الحركة عن هذا الواقع. وقد تعدل ما تنبأت به كى تجعل الواقع أكثر دقة. وفى المرة الثانية التى ستحاول فيها مد يدك لتتناول شيئا ستكون حركتك أكثر انسيابية ومهارة. وإذا كان عمر الفرد شهرين، فإن تعديل التنبؤ عن موضع الذراع سيكون ضروريا لأن هناك مجالا أكبر للتحسين(٣٦). ويمكن للأطفال الرضع التركيز بشدة ولمدة أطول كثيرا عن البالغين أو الأطفال الأكبر. على تكرار نشاط واحد مثل: محاولة الإمساك بلعبة أو لمس شيء ما. ويحتاج البالغون إلى إجراء تعديلات طفيفة، إذا لزم الأمر، على معظم تخميناتهم عن كيفية سلوك أجسادهم، ومن ثم فهم عادة لا يدركون تماما تنبؤاتهم بآلية هذه الحركة.

لكن بعض التنبؤات، مثل الافتراضات العلمية، تتعلق بأحداث ووقائع معقدة تمتد على فترات زمنية أطول وتتطلب جهدا كبيرا حتى تتحقق وعملاً أكبر لاختبارها. وما يتطلب هذا الجهد هو أمور فائقة الأهمية تخص البيئة (مثل تعرضها لهجوم معين، أو فيضان، أو ذوب حمم البراكين) وكلها تحتاج إلى طاقة وجهود شديدة التركيز.. هنا يمكن إجراء دراسات مطولة عن التنبؤات، فضلا عن اختبار النتائج ومضاهاتها مع الحقائق، وهذا يستنزف كثيرا من الموارد مقابل نتيجة غير مؤكدة (لأن التنبؤات المعقدة ربما لا تكون دقيقة). إن العائد الممكن على المدى الطويل ضخم، لكن اجتهاد أسلافنا القدامى غير المتريثين نسبيًا كان

قصير المدى، فلماذا يزعجون أنفسهم! وحتى إلى يومنا هذا: فإن العمل فى مجال التنبؤات المجيدة والبالغة التخصص والتى نسميها البحث العلمى؛ نشاط لا يجذب غالبية الناس بطبيعة الحال.

إثبات صحة التنبؤ هو بالطبع شيء مجد :

نحن نرى هنا صراعًا بين الأسس العقلية الشخصية التى تدعو الفرد إلى أن يحتفظ بجهده وطاقته طلبا للنجاة، والأسس العقلية فى نظرية التحور التى ترى أن اللياقة أكثر فائدة، (ويعنى هذا ذرية أكثر)؛ فهى تتأتى من هؤلاء الذين يستطيعون أن يقدموا تخمينًا أفضل عن أين سيكون الفيضان وأى مكان سوف يضربه ذوب حمم البركان. ومن الطرق التى استطاع الاصطفاء الطبيعى أن يحل بها صراعات مماثلة هو أن يدعم النشاط الذى يوجد عائدًا مجزيا بطبيعته ويكون طويل الأمد. والمثال الواضح على ذلك هو الجنس. والعملية البدنية للتكاثر بالجنس تتماثل كثيرًا مع التهديدات المثيرة للاشمئزاز و/أو العدوان الجسدى: القرب الشديد من الآخر، سوائل الجسم، ... وهكذا[٣٧]. وبالنسبة إلى الفرد، فالجنس له ثمن وكلفة.. إنه يستهلك موارده المادية ويتركه معرضا لتهديدات أخرى، بما فى ذلك – إذا نجح الجنس – ذرية مُلزمة باستنزاف موارد الوالدين. ومن وجهة النظر هذه؛ يعتبر الجنس إهدارا شديدًا للطاقة. ولذلك لا بد من وجود حوافز كى نشجع التناسل، ولا بد أن يقترن الجنس بشعور جيد حتى يستطيع الإنسان التغلب على مشاعر القرف والخوف والعصبية وخشيه الفقر فى المستقبل. والرغبة والإشباع يمثلان نوعا من الحوافز، فهما "عملة" من اللذة تجعل الجنس مجزيا غريزيا.

ويختلف حماس البشر – عموما – للجنس الذى يرغبونه. والرجال عادة هم من يحرص عليه أكثر، على الرغم من أن النوعين يغطون المساحة ما بين الرفض أو عدم الاهتمام إلى الرغبة الشديدة، كما أن هناك قلة صارت مدمنة لهـذه اللـذة، بينما الحرمان منها ربما لا يمثل مشكلة على الإطلاق، أو قد يكون المشكلة الأكبر التى يواجهها الإنسان. وهذا يعتمد على كل فرد. ومثل كل ما ينشده المرء من عائد مجز، فإن الإشباع الجنسى يمكن تحقيقه بعدة طرق وبتنوع مذهل ومـن مـؤثرات مختلفة. أما الأفراد الذين يُمنعون من إشباع هذا الاحتياج فربما يمكنهم البحث عـن طرق أخرى، لكن الرغبة الجنسية تتصارع مع رغبة الحفاظ على السلامة الجسدية والنفسية (بما فى ذلك "الكيان الذاتى")، وهذا يخلق توازنـًا متغيـرًا بـين الـشهوة والاشمئزاز.

والأساس العقلانى لنظرية التحور؛ يشير إلى أن التنبؤ يصبح شـيئًا مجزيـًا غريزيًا للإنسان لأن من لديهم قدرة أكبر على التنبؤ هم من ممارسى لعبة داروين. ومجرد القيام بالتنبؤ ليس كافيًا؛ فإن ذلك قد يكون بالفعل إهدارًا خطيرًا للوقت. وما يهمنا هو أن تثبت صحة التنبؤات عندما نختبرها. والجزاء الأفضل والأكثر فاعلية هو أن تكون هذه التنبؤات مُؤكدة مما يحدث إحساسًا بالقدرة على التحكم فى البيئـة والسيطرة عليها، وهذا يساوى "عملة من السرور" تماثـل الـدفء المنبعـث مـن ابتسامة، أو الإثارة التى تشيعها نظـرة إغـراء[٣٨]. وتتـصارع التنبـؤات غيـر الصحيحة مع ملاحظاتنا وأفكارنا عن العالم الحقيقى حولنا، وهذا الصراع متقلـب. وهذا يعنى أننا لدينا الحافز (بدرجات متفاوتة): لأن نتجنب أو نقلل مـن الـشعور الذى ينتابنا عندما تتعارض الأحلام مع الحقيقة.

والمهندس الذى يصمم منظومة يكافئ بها التنبؤات (أى يدعمها عندما تحدث حتى يصبح تحقيقها أكثر احتمالا)، عليه أن يدمج آليتين.. الآليـة الأولـى، التـى

ذكرناها الآن: هى علامة وإشارة – حاسة التحكم– التى تقول للكائن إما أن توقعاته تتماشى مع الواقع (وهذا إحساس مفرح)، وإما أن توقعاته تتعارض مع الحقيقة (وهذا شعور مُنفّر يُطلق الحاجة إلى تحكم أكبر). ومع ذلك فهذا المهندس لديه آلية ثانية صممت كى تحدد التنبؤات التى لم يتم إختبارها إطلاقا أو لم يُجر اختبارها لمدة طويلة، وهذا هو ما يحدد أولوية اختبار هذه التنبؤات عندما يتاح الوقت لذلك. غير أن الاصطفاء الطبيعى ليس مهندسا يعمل وفق آليات. والملل، وحب الاستطلاع أو مدرسو العلوم قد يدفعونا إلى أن نعيد فحص وتقييم افتراضاتنا من وقت لآخر، لكن الحياة التى لا تخضع لفحوصاتنا مريحة إلى حد ما. وبمعنى آخر، نحن فُطرنا ونشأنا على أن نفضل التنبؤات التى لا ينتج عنها صراعات، إما لأنها مؤكدة عند مقارنتها مع الحقيقة، وإما لأنها لم تُختبر على الإطلاق. وللسبب نفسه، فإن من يتحدى توقعاتنا لا يحظى منا دائمًا باستقبال دافئ أو ترحاب.

والمعالم المميزة للرغبة الجنسية – الفروق الفردية، الاختلاف فى النوع، الإدمان فى بعض الحالات، طبيعة النفور من الحرمان، اختلاف أنواع الإثارة، والجسارة التى تحد القيود من اندفاعها.. كلها أمور تستوجب الحاجة الى التحكم. وهذه، مثل الجنس، تنظمها الرغبة فى التوازن ما بين الرغبة الشديدة فى الاستكشاف والاستمتاع بما هو جديد، وأمارات الحرمان النافر والرافض وهى الملل. والبيئات الحديثة المستقرة التى يمكن التنبؤ بها– ماديًا واجتماعيًا– قد تستوفى الحاجة إلى السيطرة على البيئة لدرجة ينتج عنها هذا الملل، لكن البشر تطوروا وتخطوا عالمًا لم يكن التنبؤ فيه ممكنًا، وربما كان مهلكًا فى بعض الأحيان، أما التأقلم الذى جعل التنبؤ وتأكيده مجزيا غريزيا، فقد كان من الممكن أن يحفز أسلافنا إلى البحث عن الاستقرار وتحقيقه، وهذا بدوره كان من الممكن أن يقلل من قدر الجهد والوقت الذى استغرقوه وهم منهكون يترقبون التهديدات

الطبيعية الخافية، ومنتظرون لموارد إضافية من الطاقة والزمن. إن استخدام القدرة المدققة لتطوير تنبؤات إضافية وأكثر تعقيدا؛ كان سيحقق سلامتهم وأمنهم بدرجة أكبر (ولو علمت مثلا أن أشد المهاجمين شراسة ينام فى فترة ما بعد الظهيرة، سيكون بالإمكان ضبط توقيت جمع الطعام والمؤونة حسب هذه المعلومة. ربما كى تحصل على مؤونة وافية. وبكل تأكيد كى تقلل من مخاطر أن تُهاجم أو تؤكل) والنتيجة المؤكدة هى ازدياد الفائدة مع زيادة التحكم فى البيئة المادية. وعلاوة على ذلك؛ فإن المعرفة اللازمة للتنبؤ الأفضل لم تتوفر لهم فحدد ذلك من قدرة أسلافنا على استغلال المعلومات وعلى أن يقدموا نماذج عقلية عن العالم، متصورين الأحداث والأشياء التى لم يكن لها وجود فى ذلك الوقت (مثل الماضى والمستقبل، والأبعاد التخيلية للأماكن)؛ وبذلك يفصلون تدريجيا بين الأفكار المجردة واعتمادها على الأحاسيس. ومن هنا تبدأ أولى خطوات التفكير بالرموز، وتأتى معها كل فرص السيادة والسيطرة[٣٤].

تحديات التنبؤ مقلقة وغير سارة بطبيعتها:

لقد أوضحت فى القسم السابق العملية التى يتم بها اختبار التنبؤ والتأكد من صحته مقابل حقائق العالم، والنشاط الخاص للفرد، ونشاطات الآخرين، وكيف يتم تعديل التنبؤ وفقا لهذا الاختبار. وهذا، على الأقل، هو الجانب النظرى. أما فى الواقع العملى فلا يمكن إغفال التنبؤات وعدم الاعتداد بها بسهولة. إن إغفال تخمين غير صحيح عن موضع حركة ذراع الفرد شىء، وإغفال تخمين عن افتراض علمى قيم شىء آخر. وقد يعتقد الفرد أن الحاجة إلى التحكم والسيطرة على الواقع يدعمها ويغذيها التنبؤ الدقيق، ولذلك عليه أن يضمن الاحتفاظ بقاعدة معلومات

ومعارف تساند بفاعلية معطيات الواقع المادى، لكن الأمر ليس كذلك لسببين، السبب الأول: هو أن نزوعنا للسيطرة لا يتطلب أن تكون تنبؤاتنا مؤكدة تماما، يكفى فقط أنها تبقى بعيدة عن أى تهديد أو تحد، فالتحدى أو التهديد، أى الخطأ الذى يظهر بين التخمين والحقيقة، هو الذى يثير فينا الحاجة إلى التحكم. والسبب الثانى: عن مبررات الاختلاف بين العقل والعالم الواقعى، لأن بنى الإنسان الذين ينغمسون فى بيئة من الرموز والماديات يقدمون كثيرا من التنبؤات عن الظواهر الرمزية. وبعض هذه التنبؤات، مثل تخمين أن كلمة ما يجب أن تُزدرى وتُحتقر، لأنها معيبة، يمكن اختبارها بسهولة. غير أن بعضا آخر لا يمكن البت فى أمره بطريقة أو بأخرى، مثل: التنبؤ بأن جهنم هى مأوى "أدولف هتلر" أو أننا سنجده من أهلها.

وكما سوف نرى، فإننا عندما ندخل فى مجال علم دراسة الجهاز العصبى فإن إشارات الخطأ التى تحذرنا من الصراع الناشئ من الفجوة بين التنبؤ والحقيقة تُنظم فى مناطق داخل المخ مثل منطقة القشرة الحزامية التى تحدد أيضا الشعور بالألم(٤٠). ونحن نشعر بهذا الصراع على هيئة توتر وضغط نفسى مثلما نشعر بالألم، وغالبية الناس يفضلون تجنبه(٤١). لكن هذه المشاعر تحدث تطورًا ما، لأن التنبؤات الخطأ إن كانت مقلقة إلى هذا الحد؛ فإن هذا السخط يمكن أن يدفع بالإنسان إلى جهود أخرى يكون فيها أكثر دقة. وكلما كان التنبؤ مهما، كان الصراع شديدا عند التحدى.

عندما يستثمر الفرد موارد قيمة ومكلفة ليُحدث تنبؤا ويعتمد كثيرًا على أن يكون هذا التنبؤ صحيحًا. فإن مجرد التفكير فى العبء المعرفى والعاطفى إذا نبذه وتخلى عنه يكون مؤلمًا وخطيرًا بدرجة كبيرة، وبدلا من أن يُغير الفرد أفكاره لتتماشى مع العالم، فإنه قد يبحث عن طريقة بديلة يزيل بها مشاعر التوتر

والضغط النفسى الملازم للصراع الناجم عن الفشل، ولأن مشاعر الصراع غير مرتبطة بالتنبؤ؛ فإنه من الممكن أن يُعدل الفرد هذا التنبؤ الذى يعتز به ولا يرفضه تماما. وقد يتضمن ذلك طرح أفكار جديدة تفسر عدم كفاءة التنبؤ، أو أن يعيد تفسير تنبؤه بطريقة ما، أو أن يعيد تقييم مفاهيمه عن حقيقة العالم الخارجى، وليس من الضرورى أن يتم ذلك بهذا الترتيب نفسه. وفى حالة العلماء الذين ينشأ عن افتراضاتهم الأولية تنبؤات يثبت خطؤها بالتجارب؛ فإنهم سوف يتأكدون بمراجعة المعطيات والمعلومات ثم يفحصونها معمليًا، ثم يعيدون إجراء التجارب مرة أخرى إذا كان ذلك ممكنًا. وفى الوقت نفسه؛ فإنهم سوف يدعمون بشدة الافتراض الأصلى بينما يفكرون فى الأسباب التى أدت إلى فشل التجارب. وفى النهاية يكون الملاذ الأخير فقط الاستغناء عن الافتراض ذاته.

إن فاعلية العلم الفائقة ترجع بدرجة كبيرة إلى أن البحث العلمى ربما يكون نشاطًا متفردًا بين نشاطات الإنسان التنافسية، والعلم يشمل فكرة الفشل كأحد مبادئه. وبما أن النزوع الى التحكم والسيطرة شىء أساسى؛ فإن الناس تذهب لأبعد الحدود لتحمى معتقداتهم، وضلالاتهم وتنبؤات وتصورات أخرى عن كيف يكون العالم الخارجى. والعلماء، مثل كل الآخرين، يطمحون إلى أن يكونوا دقيقين، فاعلين، مسيطرين ويملكون التحكم، لكن أحد معتقداتهم عما يقومون به هو أن الافتراضات والنظريات قابلة دائما للانقلاب والتغير. إن الدقة المتناهية بالإمكان؛ لكن الحقيقة المؤكدة غير ممكنة. والكشف عن نظرية علمية شىء يستحق الثناء؛ حيث إن ذلك يعنى أن العلم مؤثر وله فاعليته، وعندما يُدعى زوار متحدثون إلى حلقات نقاش علمى (سيمنار)؛ فإننا نقدمهم غالبا بوصف شامل مسهب لإنجازاتهم – وهم فى معظم الأحيان متأنقون يتباهون – لكن أفضل ما سمعت من مديح فائق كان تقديما لعالم متميز، فهو قد عمل لعدة سنوات على نظرية، مؤثرة جدا فى

مجال تخصصه، إلا أن خطأها قد ثبت منذ فترة. إنه لم يقم فقط بالتخلى عن نظريته علنا أمام الجمهور، لكنه أخذ يبحث بجد واجتهاد عن بديل لها، فهل هذا مثال رائع لنا جميعا؟ نعم! لأن العلم، مثل كل ما هو نموذجى، جدير بالتمجيد لا التقليد(٤٢).

التحديات لبعض التنبؤات تُفسر كتهديدات:

إن الغالبية العظمى منا ليسوا علماء، وحتى العلماء قد يجدون من الصعب الاستغناء عن الأفكار القيمة. وعندما نواجه تحديات اختلاف التنبؤ عن الواقع؛ فإننا غالبا ما نكتشف طريقًا للهرب، متمثلاً فى أن عدم التطابق بين الواقع والتنبؤ ليس بالفعل سيئًا كما كنا نظن، وقد تكون الفكرة مقدسة أحيانًا والمواجهة مؤلمة جدًا لدرجة أننا نعتبر التحدى ليس مؤلمًا فقط ولكن لا يمكن احتماله، فيصبح مجرد وجود هذا التناقض تهديدًا يتطلب الانتباه الفورى والانشغال بردود الفعل نفسها تجاه التهديدات التى تعودنا التعامل معها فى مآزق ومخاطر سابقة.

والبشر ليسوا متفاعلين ببساطة، فعندما يكون العالم الخارجى على غير ما نرغب أو نتوقع؛ فإننا قد نُعدل من تصورنا وتنبؤاتنا وفقًا لذلك، أو قد ننسحب بأنفسنا تجاه رغبات أخرى، ولكن إذا كان ذلك من الصعوبة بمكان؛ فإننا قد نقرر أن نغير العالم بدلاً من ذلك. وإذا تعارضت الحقيقة مع معتقداتنا المهمة، أى المعتقدات التى تسبب صراعًا عنيفًا لو تخلينا عنها، فإن هذا التهديد بالصراع سوف نواجهه برد فعل يُماثل ما نواجه به التهديدات الأخرى.

وكما يحدث تمامًا فى الاصطفاء الطبيعى عند تحول الجينات، الذى يُبنى على الموجود فعلاً بدلاً من البدء من جديد فى كل مرة، كذلك يحدث التطور

والتحور الاجتماعى فتنشأ عنه تهديدات جديدة تكون ردود الفعل عليها اختيارا من بين ردود فعل ضد تهديد سابق. والتحديات الاجتماعية والثقافية والرمزية التى نواجهها حاليًا، مثل الاعتراض على أسلوب حياتنا الذى يَشنه من يختلف أسلوب حياتهم تماما عنا، ثم يصبحون هم فى بعض الأحيان مثالاً لتهديد يثير ردود أفعال دافعها الأساسى مختلف تمامًا. وقد ترسخت لدينا هذه الردود وكان منطلقها مخاطر الطبيعة التى خبرناها منذ زمن طويل سابق على "صراع الحضارات"- وحتى قبل أن تبدأ الحضارات- لكنها توسعت ببساطة لتشمل المخاطر الرمزية، وبهذا يصير لدينا مخزون ورصيد من التصادمات والروايات المزعجة والصور المقززة، وهى مجرد أفكار ومفاهيم مترهلة وبالية بالنسبة إلى كثير منا. ولكن بالنسبة إلى المتورطين مباشرة معها؛ فإن مشاعر الخوف والغضب أو الرفض من الممكن أن تكون شديدة ومرعبة - كما هو الأمر فى مواجهة كثير من تهديدات الطبيعة (كالبراكين والزلازل).

وتشكيل العالم بالمعنى البدائى يحدث دائما، بالطبع، وحتى البكتيريا تُغير الصخور التى تنمو عليها، لكن تشكيل العالم بناء على التنبؤات، والتصور بمعنى تغيير الواقع المادى تحديدًا حتى يتماشى مع مفهوم مجرد عن كيف ينبغى أن تكون الأشياء، فهو يتطلب قدرات أكثر تعقيدًا. وقد مكن ذلك البشر من التحكم فى بيئتهم بصورة لم يسبق لها مثيل، وسمح لهم بأن يجعلوا حياتهم أكثر أمانًا باطراد، وأكثر رفاهية، ومفهومة عن ذى قبل. إلا أن هذا جعلهم معرضين - بازدياد - للتهديدات الرمزية "والمعنوية" التى لا تسبب ضررًا ماديًا ولكن، على الرغم من ذلك، يمكن أن تُعتبر شديدة الخطورة. وهذا التناقض بين التهديد المعنوى والخطر الجسمانى المادى والحقيقى هو فى صلب ولب قسوة البشر.

القسوة تشمل رد فعل تجاه تهديد:

إن التفكير فى القسوة على أنها سلوك لا تبرير له، يؤكد أهميـــة وصـــعوبة المقارنة أو المواءمة بين ردود الفعل تجاه تهديد ما وبين التهديد الذى يُطلـــق ردود انفعل. فالإيذاء المُبرر يمكن أن يُقبل على أنه دفاع أوعقوبة. وتنشأ المشكلات، كما رأينا، عندما لا يتفق المعتدون والضحايا وأطراف ثالثـــة علـــى تبريـــرات الفعـــل العدوانى. وحتى إن كان هناك إجماع فى الرأى من حيث المبدأ فسوف تظل هناك بعض الصعوبات العملية لأن البشر على الرغم من أنهـــم يتعرضـــون للمواقـــف الاجتماعية ويتعاملون معها منذ آلاف السنين؛ فإنه ما زال هنـــاك مجـــال للخطـــأ والخلط بين الأمور.

وبعدما تقل وتتناقص الأحداث غير المتوقعة من البيئة وتتزايد سيطرة الناس عليها؛ سوف يصير عدم القدرة على التنبؤ بالأمور الاجتماعية عاملاً مهما وأكثـــر تأثيرًا فى الوجود الإنسانى وسوف تصبح التهديدات الاجتماعية أكثر أهمية باطراد. (والمثال الأقرب هو أن معظمنا نحن الغربيون المرفهون نذهب فى أيامنا هذه إلـــى "تجمع للصيد" وهو السوق التجارية المحلية، فنجد أكبر التهديدات المباشرة لسلامتنا وربما لحياتنا من أحد السائقين فى مرآب – جـــراج – الـــسوق التجاريـــة). أمـــا الآخرون، خصوصًا الغرباء، فلديهم عادات مزعجة حيث لا يتصرفون كما نتوقـــع منهم، فهم يزيدون من شدة حاجتنا إلى السيطرة ويستثيرون فينا نزعة العدوان(٤٣). وقد تتصارع المصالح، أحيانًا دون مؤشرات للتـــصالح، عنـــدما يهـــدد الآخـــرون وضعك فى المجتمع، أو مواردك المادية (مثل الأرض)، أو حتى سلامة وجـــودك فى الحياة؛ لذا فإن الحياة مع الآخرين سوف تمثل ضغوط انتقاء واصطفاء تفـــضل

الأفراد الذين يتحكمون فى مستوى التهديد الاجتماعى تمامًا ويستجيبون له بفاعلية. ولا بد أن يُحسم العدوان ضد الحلفاء المُتوقعين فى المستقبل - أو الرفاق- بمنتهى الدقة، لأنك إذا تهاونت أو أهملت فى ذلك فإنك تخاطر بفقدان وضعك ومكانتك فى المجتمع، وإذا تجاوزت فى عدوانك فسوف تخاطر بانتمائك للجماعة. وفى أى الطريقين ستكون معرضا للمهانة والإذلال، وربما للهلاك، إذا أسأت تقدير قوة غريمك وتصميمه.

والمخاطرة شيء حقيقى بالفعل، لأن آليات المهارة والقدرة لا تتسم بالكمال. والحيوانات كذلك ليست بمنأى عن الخطأ إذا كان الأمر يتعلق بالحكم على التهديدات وكيفية الاستجابة لها، فالكلاب لا تحقق شيئًا بالنباح على سيارة إطفاء الحريق التى تمر أمامها، إلا أن الضوضاء الصادرة منها قد تقل، أو أنهم يظنون ذلك. كما أن البشر ليسوا معصومين من الخطأ أيضا؛ فإنه من الصعب على الشخص البالغ صاحب الخبرة أن يعرف كيف يفرق بين أن يحذر شخصا من خطر ما أو أن يُرعبه. وبالحساب الدقيق، فإن تقييم تهديدات المجتمع والحكم عليها يمثل مشكلة صعبة؛ إذ إننا على الرغم من كل هذه السنوات من الممارسة ما زلنا نُصدر الأحكام الخاطئة أحيانا. فإذا أطلق أحد زملائك فى العمل، ممن لا تحبهم أو تفضلهم، تعليقا سخيفا فإنك على الرغم من علمك بأنه مجرد تعليق عابر فقد تتكون لديك ردود الفعل العدوانية نفسها - سرعة فى نبضات القلب، توتر فى العضلات، قبضة يد محكمة مع الرغبة فى صك وجهه- وهذا ما جعل أسلافنا يشتبكون فى هجوم جسدى وبدنى. فليست ردود أفعالنا على التهديد دائما متوازنة أو مساوية بمعقولية للمثير الخارجى- هذا من وجهة نظر الآخرين، وأحيانًا حتى من وجهة نظرنا نحن. ومما لا يدعو للدهشة أن عدم التكافؤ بين الفعل ورد الفعل يكون دائما بالتجاوز والزيادة فى رد الفعل. وفى التاريخ الماضى للجنس البشرى

كان تقدير التهديد بأكثر مما يجب؛ سببا فى الهلاك وإهدار الجهد والطاقة. لكن التقليل من شأن التهديد أو من تقديره قد يأتى بنتائج أسوأ؛ ذلك لأن الأحكام الخاطئة نتائجها مأساوية وكارثية. غير أن أغلبنا، فى معظم الأحيان، يملك المهارة الكافية "نظريا" على أن يهدئ من التوترات قبل أن تتصاعد. وفى كتاب مثل هذا عن "القسوة" علينا أن نُذكِّر بأن معظم ردود أفعال البشر تجلب قليلاً من المعاناة، وقد لا تجلب شيئا على الإطلاق.

وتختلف وتتنوع التهديدات المعنوية المجردة، فالفكرة قد تأخذ شكلاً ماديا وتتمثل فى صورة مرسومة أو مخطوط يدوى، وقد تتمثل فقط فى كلمات منطوقة، أو فى زفير فى الهواء، إلا أن هذه الفكرة إذا تناقضت مع المعتقدات الراسخة لشخص ما فربما يراها كشىء أكبر، أى كتهديد بدلاً من اعتبارها فقدانا للمكانة أو مجرد إهانة، أو قد تتساوى لديه مع الإيذاء البدنى أو القتل، ونحن ندرك ذلك لأن الناس أحيانا يفضلون الموت أو معاناة الألم، أو كليهما، بدلا من التخلى عن أفكارهم ومعتقداتهم. ونادرًا ما تكون عواطفنا محددة وواضحة، فإذا واجه الفرد فكرة تتحداه فقد يكابد من مشاعر الغضب والخوف، وحتى من الحزن والصدمة. لكن عليه أن يتدبر نوع التهديد الذى تفرضه مختلف التحديات، وتصبح الأفكار خطيرة فقط عند أفراد المجتمع الذين يخاطرون بأن يصيروا مقبولين ومندمجين فى هذا المجتمع بدلاً من أن يبقوا فى عالم خارجى من المحتمل أن يتجاهلهم ويغفلهم. وبمعنى آخر، فإن التهديد ليس بأن المجتمع سوف يندثر أو "يموت" (ورد الفعل المناسب هنا هو الخوف بالتأكيد) أو بأن وضع المجتمع سيكون بالضرورة فى خطر (ورد الفعل من الناس فى هذه الحالة هو الغضب). وتنشأ المشكلة بالفعل عندما تتناقض الأفكار المتحدية بشدة مع المعتقدات الأساسية للمجتمع؛ حيث يكون تقبل هذه المعتقدات معناه تغيير صلب وهوية المجتمع تماما. ويمثل هذا مصدرا

للعدوى – وهذه استعارة تنطبق غالبا على الأفكار – تكون فيه الأفكار المتحدية فاعلة ومؤثرة وقابلة للانتشار بسرعة مذهلة كى تفسد الجماعة، أو فرد من الأفراد، من الداخل. ومع هذه الخصائص والأحوال يكون رد الفعل الواضح هو الاشمئزاز (٤٤).

ويستدعى الاشمئزاز الرفض، سواء بالتجنب، أو الطرد، أو الحد من مصدر العدوى. ومن يجاهر من الناس بأفكار تتطلب الاعتراض هو مثل من تظهر عليه أعراض الجذام، يجب تجنبهم فهم يثيرون الرغبة الفطرية فى عزلهم. وإذا استطعنا فعلينا تجنبهم شريطة أن يكون التجنب فعلا ملائما. فقد يبدو ذلك مثلا كنوع من الانسحاب إلى حزب ثالث، مما يجعلنا نفقد وضعنا ومكانتنا. ويبقى اختيار آخر وهو طرد هؤلاء المتحدين غير المرغوبين من بيننا، وإن لم يكن هذا ممكنا فعلينا اللجوء إلى التدمير الجسدى. وما يعنينا هنا هو أن كل ذلك بدافع حماية الذات. وبالنسبة إلى غيرنا، فعند رؤية مريض الجذام سيكون الرأى أن العزل ضروري وأن الإصرار عليه مُبرر تماما، لكن الجذام مرض له علامات ظاهرة بينما لا تظهر أى علامات فى حالة الأفكار الخطيرة، وقد يفشل الطرف الثالث فى فهم رد فعلنا المشمئز تجاه هذه الحالة؛ لأنهم لا يرون التهديد لعقائدنا بالقدر نفسه الذى نراه، وربما تبدو لهم أفعالنا وردود فعلنا بلا مبرر أو قاسية.

ملخص وخاتمة:

يتسبب بنو الإنسان فى الإيذاء والضرر لأسباب عديدة: كى ينقذوا حياتهم، ويحتفظوا بمكانتهم الاجتماعية أو يرفعوها، أو لكى يعلموا الشباب والصغار، أو حتى كى يفرضوا النظام... إلخ. ومن حيث مبادئ الأخلاق، فإن كل هذه التبريرات تكفى حتى نتحاشى تهمة القسوة، خصوصا عندما يكون التهديد سريعا وفيه خطر واضح على الحياة، أو على جانب رئيسى فيها، أو يهدد المساواة بين الجماعة أو الأخلاقيات العامة، لكن بعض أشكال من الإيذاء تُستخدم لتفرض بعدا اجتماعيا عند الاستجابة لتهديدات غير واضحة وليست داهمة، وقد لا تبدو خطيرة بصفة خاصة. أما فى حالة التهديدات المعنوية؛ فإن الحاجة إلى الإبعاد والعزل قد تكون غير مقنعة لطرف ثالث، خصوصا إذا كان هذا الطرف لا يشاركنا معتقداتنا، فماذا يعنى لنا الدفاع ضد تهديد ماحق لهويتنا- إذا عرفناه وكان رمزيا وليس ماديًا- وهذا يمثل قسوة بالنسبة إلى المراقب البعيد أو الضحية.

وسوف تستكشف الفصول التالية بالتفصيل موضوع السادية وجمود القلب، منشأها وخصائصها. وكى نقوم بذلك فإننا نحتاج أولاً إلى أن ننظر إلى آليات السلوك القاسى. وتتشارك كل أنواع القسوة فى خصيصة عامة مشتركة: الوسيلة التى تُطرح من خلالها. وهناك شبكة من الأسباب تُنسج فى عقول البشر. وحتى نلقى نظرة أعمق على القسوة؛ فإن ذلك يعنى الغوص باهتمامنا فى بحر الخلايا العصبية فى مخ الإنسان، أى الكتلة الرخوة السمينة التى تولد منها القسوة. وبما أن

القسوة فعل، فنحن فى حاجة إلى أن نسأل عن السلوك ونتحـــراه: "والنـــاس تبـــدأ بالأفعال وليس بالأفكار"[٤٥]. وعلينا أن نرى كيف يأخذ مخ الإنـــسان حزمـــة مـــن المؤثرات- ملاحظات، ذكريات، معتقدات، رغبات، عواطف- وغالبا مـــا يتحـــول كل ذلك إلى رد فعل ذكى وحقيقى. وهذه المشكلة، مشكلة الفعل، هـــى موضـــوع الفصل التالى.

الفصل الرابع

كيف نصل إلى مرحلة الفعل؟

ما المصدر الخفى للشرور التى نـــشاهدها ونسمع عنها ببساطة فى كل مكان. غير ما لـــدينا من مدارات كهربية عصبية زائدة التعقيد؟ وأجيبك فأقول: لا يوجد مصدر آخر. لقد كان كوكبنا بريئا جدا، لولا هذه العقول الكبيرة العظيمة.

(من راوية جالدباجوس "Galdpagos 1985" للروائى الأمريكى كيرت فونجوت "Kurt Vonnegut"(*))

القسوة، فى الأساس، هى فعل، وحتى نفهم ما الذى يجعل الناس قساة فإنـــه يلزمنا أن نتحرى مصادر فعل القسوة (وكل سلوك إنسانى آخـــر)، إنهـــا أجهزتنـــا العصبية؛ فهذه الأجهزة هى الوسيلة التى تتحول بهـــا معلوماتنـــا عـــن أجـــسامنا وتاريخنا الشخصى وبيئاتنا، إلى تجارب نحسها دقيقة بدقيقة، وإلى أفكار ومعتقدات

(*) كيرت فونجوت (١٩٢٢-٢٠٠٧)، روائى أمريكى من ولاية "إنديانا" كتب روايات خيال علمى وسخرية اجتماعية واشتهر بكتاباته عن فظائع القرن العشرين. ورواية جالدباجوس (١٩٨٩) تصور البشرية بعد مليون عام فى سلالة نجت بعد غرق إحدى السفن ثم تحورت واستوطنت جزيرة "جالدباجوس".

وذكريات، وعواطف وأمزجة ومؤثرات غير واعية تحكمنا، وإلى المؤشرات الحركية التى تطلق كل حركاتنا. والإقصاء ونبذ الغير والتقمص العاطفى والغضب والشفقة والرغبات والازدراء والنزوع إلى المجازفة والحاجة إلى ضبط النفس.. كل هذه دوافع ونزعات متصارعة قد تتلاقى وتتعارض فى حلبة المخ، ويأخذ المخ هذه الدوافع وكثير غيرها وينسجها فى شبكة العواطف والأفكار التى يبنيها كل إنسان بمجرد وجوده فى الحياة وانفعالاتها. ومن هذه المادة العصبية تنشأ الرقة واللطف البالغ والقسوة غير العادية.

وتظهر هذه البوادر أحيانًا على نفس الشخص فى لحظات قليلة. وهذا الفصل، وهو أصعب فصول الكتاب تقنيا، سوف يفحص المتاح لنا عما يُفهم حاليًا عن مخ الإنسان وما يمكن أن يكشفه عن كيمياء نقل الحس إلى المراكز العصبية التى تستطيع تحويل فكرة شريرة إلى فعل شرير.

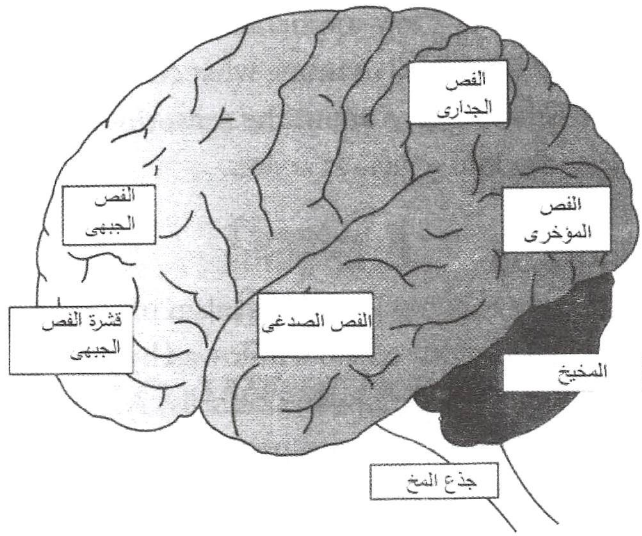
الإحساس والتشابه:

العقول شىء معقد بصفة استثنائية وغير عادية.. هذه بالطبع حقيقة بديهية وهى أول ما قيل لنا عن الأدمغة مقترنًا بكثير من الإحصاءات الرهيبة التى تشمل أرقاما كبيرة جدًا عن الخلايا، ونقاط التشابك العصبى، والذرات فى العالم المعروف وغيرها. وفهم الإحصاءات عن المخ يمثل تحديًا كبيرًا للعقول نفسها، فما مغزى ومعنى كل هذه التعقيدات، حقيقة؟

كبداية، هذا يعنى أن أى حدثين فى العالم- حتى حدث بسيط جدًا مثل ومضات الضوء- لن يكون لهما نفس التأثير تمامًا فيك وفى سلوكك، وكى ترى لماذا لا يحدث ذلك، نحتاج إلى البدء من بدايات الأحاسيس والإشارات الآتية من على بعد فى هذا العالم (الرؤية، السمع، اللمس،التذوق، الشم) أو من داخل الجسم (من الأحشاء والأمعاء، من الهرمونات، ومن جهاز المناعة)، وكلها تتواصل مع

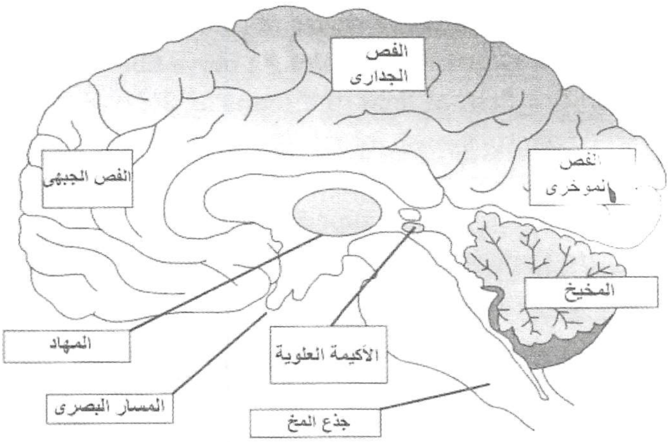
الجهاز العصبى بطرق متنوعة. ويُستدل على بعضها بالمستقبلات العصبية- وهى خلايا متخصصة يمكنها الاستجابة إلى "فوتونات" الضوء (وحدات الكم الضوئى)، وموجات ضغط الأصوات، وجزيئات الروائح،...إلخ، وذلك بأن ترسل موجات كهربية عبر الألياف العصبية.

وحتى تتحقق رؤية ومضة الضوء؛ فإن الشبكية التى فى خلفية العين لا بد أن تُستثار عندما تصطدم بها "فوتونات" الضوء، عندئذ تُستفز وتتنبه الأعصاب البصرية وترسل نبضات كهربية تنتشر على هيئة موجات صغيرة فى المخ تذهب أولاً إلى مناطق أعمق مثل "الأكيمة العلوية" (السقف الصغير) ونواة المهاد الجانبية (وهى على شكل الركبة)، ثم إلى المناطق الجدارية البصرية عند الصدغ والجبهة فى قشرة الفص الجبهى الممتد (انظر الشكل ٢، ٣) .



شكل (٢) مقطع جانبى يُظهر مخ الانسان بتقسيماته الأربعة الرئيسية من الخارج (الفص الجبهى، الفص الصدغى، الفص الجدارى، والفص المؤخرى).

وفى المشهد الجانبى؛ يُرى المخ مائلاً إلى الجنب ولا يرى منه إلا نصف كرة الدماغ فقط. وهنا تبدو مقدمة الجبهة (المنطقة الأمامية) على الجانب الأيسر، والمنطقة الخلفية إلى اليمين.. وهكذا يكون الفص المؤخرى فى الخلف والفص الجبهى فى الأمام، ويمكن أيضًا تجزئة هذه المناطق إلى تقسيمات فرعية مثل: القشرة الصدغية الخلفية، والأمامية- والمعْلمان الرئيسيان لتقسيم القشرة الخارجية هما المخيخ وجذع المخ، واسمهما مكتوب هنا أيضًا. (والأسماء مكتوبة على كل معلم ومنطقة كى نقارن هذه الأشكال والأجزاء).



شكل (٣) قطاع من وسط المخ البشرى وبه ثلاثة من التقسيمات الأربعة الرئيسية الخارجية (الفص الجبهى، الفص الجدارى، والفص المؤخرى) وأسماؤها مكتوبة. والمقطع الوسطى يظهر المخ كما لو كان قد شق من الوسط مع إزاحة نصفه حتى يظهر السطح الداخلى للنصف الباقى. والقشرة الخارجية عبارة عن طبقة مجعدة تغطى القشرة الواقعة تحتها. والأكيمة العلوية، والمهاد والمسار البصرى- وهو الذى يضم الأنسجة العصبية للعين- وأسماؤها كلها مكتوبة. كما

كتبت لافتات بأسماء معلمين رئيسيين يقعان تحت القشرة الخارجية وهما المخيخ وجذع المخ.

لكن هذا لا يعنى أن الشيء نفسه يحدث مع كل ومضة ضوء؛ لأن كلاً من هذه المناطق فى المخ تحتوى على عدة ملايين من الخلايا العصبية التى تتفاعل معها، وبعضها فقط هو الذى سوف يهتم بالومضة الأولى من الضوء، وبعض منها سوف ينصرف إلى أمور أخرى تجرى داخل المخ ولن يستجيب إلى ومضة الضوء الثانية. وحتى لو أخذنا إشارة واردة للمخ خارج هذا المضمون وربطنا بينها وبين خلية عصبية واحدة واقعة تحت تأثير حافز منفرد، فإن استجابتها لحافز آخر مماثل تمامًا قد تكون مختلفة(١). وتضيف الخلايا العصبية، فى أى لحظة، أعداداً من الإشارات التى تصلها وتتفاعل معها بإشارات خاصة بها إذا زاد معدل المدخلات عن مستوى معين عند العتبة الكهربية للخلية. وبما أن كل خلية عصبية متصلة بخلايا كثيرة غيرها، فإن المدخلات قد تتغير فيما بين الومضة الأولى والثانية إذا استجابت الخلية إلى عمليات أخرى غير مرتبطة بهذه العملية، كالتنفس مثلاً. وعلاوة على هذا؛ فإن الخلايا العصبية تستطيع أن تغير سلوكها بناء على تجربة سابقة، وهذا ما يجعل الناس أيضًا قادرين على ذلك، وعندما يستجيب المخ لحدث أو عملية ثانية يكون قد تغير بعد استجابته للحدث الأول، ولذلك فإن الاستجابتين لن تكونا مثل بعضيهما تمامًا. وما يناسبنا ويتفق مع أغراضنا باعتبارنا متخصصين فى علم دراسة الأعصاب وعلم النفس، أو ببساطة لأننا "ناس" نعمل فى عجلة وسرعة، هو أن نقول إن الاستجابتين غالبًا ما تكونان "متشابهتين" بقدر كاف- غير أن هذا مرجعه إلى أن اختيارنا هو ألا نفحص الأمر بدقة متناهية. والتشابه الظاهرى، الذى يُخفى اختلافًا أعمق، ينطبق على كل العمليات الذهنية كما ينطبق على الخلايا التى تنجز هذه العمليات. وعندما أذكر أو أستخدم كلمة "قطة"

مثلا؛ فإنك تعلم ما أعنيه بسبب خبرتك السابقة- سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة عن طريق الصور أو القصص- إنك تعلم أن القطة عادة يكسوها فراء، أنها تصدر مواء وخرخرة، وإنها غالبًا تطارد وتقتل المخلوقات الصغيرة، وأن صغارها تسمى "هريرة أو "هرة" صغيرة، ... وهكذا، وإلى هذا الحد فإننى أنا وأنت نتشارك مفهوم كلمة "قطة" نفسه؛ لكننا لسنا بحاجة إلى التعمق أكثر من ذلك لنتشعب ونختلف، لأن تاريخنا الخاص سوف يصبغ هذا المفهوم بتفاصيل خاصة جدا ومتفردة، ففى ذهنى سوف يختلط هذا النمط البدائى مع سنّور ماكر أو قط العائلة الذى مات من زمن طويل أو الهرة الصغيرة "المنقطة" فى المنزل المجاور، وقد يضيف الخيال لمسات متفرقة من قطط أخرى فى وسائل الإعلام أو من أعمال أدبية بدءا بأشعار "كبلنج" وانتهاء بقصائد "إليوت"، وقد تكون قطتك ودودة وأعقل لكنها أبدا لن تكون مطابقة تمامًا للقطة التى تخيلتها.

وعلى الرغم من ذلك فيمكننا التواصل، فنحن نستطيع التكلم عن القطط ونعرف أساليبها، فهى جزء من ثقافتنا على مدى قرون. إنها شيء حقيقى "هناك": ماثل ومتجسد لنا بمعنى أنها كيانات مستقلة (وهى نموذج سيئ، فى تجربتى). إن هذا التصور عنها موجود باستمرار، كما نفترض، ونحن لا نشعر بها، وهى تثير عقل الإنسان (كمدخلات يستقبلها) فى مناطق معينة بطرق ثابتة وفى أماكن وأوقات مختلفة؛ فهى "تخربش" وتنبش بأظافرها وتصدر أصواتًا وما شابه.. هاتان فكرتان عما تعنيه كلمة "قطة" فى ذهنين مختلفين- أو إنها الفكرة نفسها فى العقل نفسه فى أوقات مختلفة- وهكذا هما متشابهتان ومختلفتان كشجرتى بلوط تبدوان من البعد متطابقتين، ولو نظرت لهما بإمعان عن قرب سوف ترى اختلافًا فى الفروع والأوراق.

ولماذا يعنينا هذا عند دراسة ظاهرة القسوة؟ هناك عدة أسباب.. أولاً: القسوة، عكس القطة، مفهوم أخلاقى مجرد ومُعقد ولا يوجد إجمال فى الرأى بسهولة على عديد من أمثلتها ونماذجها. فقد يختلف، مثلاً، اثنان من الساسة تماما وتتعارض أفكارهما عما إذا كانت الأساليب المستخدمة ضد المساجين فى "الحرب على الإرهاب" قاسية. ثانيا: هذه المرونة فى إبداء الرأى تجعل القسوة مفهوماً ومسألة يصعب البت فيها، والناس فى عالم متحدثى الإنجليزية الذين يريدون التواصل مع الآخرين تعلموا أن يُطلقوا على نوع معين من الحيوان المكسو بالفراء كلمة "قطة". وقد كان بإمكانهم أن يُحدثوا جلبة وضجة لأى سبب مقترن بهذا التعريف، لكن التكلفة الاجتماعية لذلك هى أن يوصفوا بأنهم حمقى أو بلهاء، وهذا يتعدى مساندة وتشجيع الاستقلال الذاتى فى الرأى، لذا فالقرار هو: إن الكلمة المقابلة بالإنجليزية هى "قطة". وكى أعلمك معناها فأنا أشير مباشرة إلى قطة، أو أبحث عن صورة لها؛ وأنت تفهم معنى الإشارة وتعرف كيف تقرأ الصور، ولأن هناك شيئاً أشير إليه أمكننا التواصل، لكن فى حالة القسوة يمكننى أن أشير إلى أى شىء، بدءاً من أم تصفع طفلها الصغير صفعة قوية إلى رجل يُعذب بدنيا. والأسوأ هنا أن فى كل مثال منهما (من الذين اخترتهما) سيكون هناك من يعتقد أننى مخطئ فى تقديرى للقسوة (فالصفعة تهدف إلى تربية الطفل، والتعذيب عقوبة ضرورية وواجبة)، وعلى الرغم من ذلك فكلنا يتعامل مع مفهوم القسوة.

مفاهيم وشبكات متداخلة:

نحن لدينا استعداد على تخيل المفاهيم على أنها شبكة خيوط متداخلة.. أى أنها نوع من النسيج الذهنى به ملاحظات وإدراك حسى وتصورات ومعارف سابقة

تنسج معا بالتوافق والترابط والتداعي، وتلائم هذه الاستعارة الطبيعة المرنة وصعبة التحديد لكثير من أفكارنا. والدقة في التحديد مسألة درجات؛ وكلما كانت الفكرة محددة بدرجة كبيرة كان المؤثر الذي أثارها متشابهًا معها والتداعيات التي تُحدثها والحركات التي نميل إلى فعلها استجابة لها متوافقة. وتختلف الأفكار أيضًا في ثرائها؛ فإن فكرتي عن جزيء ثلاثي الفوسفات الأدينوسيني هي معرفة ضئيلة إذا ما قورنت بما يعرفه عالم أحياء دارس ومتخصص في هذه الجزيئات، والمكونات الخلوية لها، بالتفصيل وفي دراسة مستفيضة. ذلك لأنني على الرغم من أنني أحتاجها في عملي فإنني لا أستخدمها كل يوم، ولأن الخلية في علم الأحياء هي اختصاص محدود ويهتم به عدد قليل، فإن معظم الناس لا يحتاجون إلى مفاهيم مفصلة (ATP) عنه إطلاقا (على الرغم من أنهم لن يستغنوا عن الجزيئات نفسها).

وعادة ما تكون الأفكار أمورًا نفعية "براجماتية"، تتجاوب مع احتياجاتنا، ومهيئة بدرجة كبيرة لأن تكون في متناول أيدينا (إن صح هذا التعبير) عندما نريدها، ثم "تندس" أو "تنغرس" في المشهد العقلي طوال الوقت، ثم إننا نشكلها ونوفق ونصل بينها بسهولة، ويبذل البشر قدرًا غير عادي من الوقت والطاقة في "اللعب" بالأفكار، ونحن غالبًا لا نفحصها ونمّحصها بالتفصيل، لكننا قد نشحذها ونطّوعها إلى أمور وأدوات منتقاة ومهذبة ومجردة من التداعيات الدخيلة والغريبة، مثل العلامات المجردة × و × 6 المستخدمة في علم حساب التفاضل والتكامل، ثم يمكننا بعد ذلك استخدام الأفكار كرموز نبني بها قصورًا في الهواء؛ قصورًا وقلاعا غاية في الزخرفة والتعقيد في الرياضيات أو الفيزياء النظرية، أو قصورًا حقيقية.. وغيرها كثير، ويمكننا استخدام الكلمات والأفكار بالتبادل، كما يفعل الشعراء أو مثل أصابع عازف "الهارب" التي تنتزع شباك الأفكار وترشقها وتلقي بها على موجات غنية من التداعيات التي تتداخل. لكنها تكون متفردة عند كل

قارئ أو مستمع، وغالبا ما نفعل شيئا فيما بينها، عندما ننوع في الطريقة التي نستخدم بها أفكارنا اعتمادًا على الموقف "والمزاج" والدور الذى نلعبه وعوامل أخرى كثيرة.

وكى تتحقق مثل هذه الطواعية و"المرونة" وكى نتابع كيف تترابط وتنتظم الأفكار مع بعضها، تلزمنا آلية تستطيع تزويدنا بمعلومات تفوق أى كتاب وتكون ديناميكيا أقوى من أى حاسب آلى (حاسوب). ومثل هذه الآلية يجب أن تعطينا قدرات ووسائل سريعة، حيث يمكننا التذكر واسترجاع الأفكار عندما نحتاجها. ويجب أيضا أن توفر هذه الآلية لنا أسلوبا سهلاً لربط الأفكار معًا أو دفعها وفصلها وتقسيمها إذا اتضحت اختلافات بينها، ومما يلزم أيضا أن تتوافر لنا سهولة الربط بين مكونات الأفكار بهدف تصحيح الانطباعات الأولية الخاطئة، فنحن ندرك الأفكار ونعلمها وقد نحتاج إلى تعديلها أو تغييرها. والآلية التى تحقق ذلك عليها أن تربط بين الأفكار وبين الأشياء والأحداث بإحكام ثم تتعامل معها فى العالم الذى تمثله حيث تتغير الأفكار إذا تغيرت بعض مظاهر الحقيقة الخارجية.. إذن فالعلاقة مع الواقع الحقيقى ضرورية. وفى النهاية يجب أن تسمح لنا هذه الآلية (مثل عدسة التزويم)، بأن نقترب من الأفكار أو نبتعد عنها كما نرغب، وأن نستخدمها بسطحية أو بعمق عندما يكون التركيز على التشابه أو عند سرعة التعامل، ويتم استطلاع الشبكات "الثرية" للتداعيات عندما نريد التأكيد على تفردنا، أو أن نستكشف فكرة بشيء من التعمق، مع التروى فى ذلك.

وإن أردت ان تحصل على "تلميح" أو معرفة طفيفة عن مقدار غزارة وتنوع التداعيات والترابط بين الأفكار والخواطر، عليك أن تجرب كتابة قائمة بالأفكار المترابطة التى تخطر على ذهنك عندما تفكر فى كلمة "قسوة" على سبيل المثال. وهناك محاولتان لاثنين من الأشخاص (فى جدول رقم ١) سجلا على مدى دقيقتين التداعى الحر فى الفكر عن هذه الكلمة. وكما ترى فإنهما مختلفان تماما. على الرغم من وجود بعض التداخلات.

كلمات مشتركة بين المشاركين عدوان، قتل، سادية، معاناة، تعذيب، عنف		
المشارك "أ"	المشارك "ب"	الموضوع
هولوكوست، حروب	معسكر اعتقال، طائفة دينية، العصور الوسطى، روسيا، حرب.	مواقف تحدث فيها قسوة متناهية.
	أرض الملعب، طالبات مدرسة، مضايقات.	مواقف تحدث فيها قسوة (أقل فى الشدة).
مرتكب الجرم (مجرم)	هتلر، ذكر، سلوبودان ميلوسوفتش، ستالين.	مرتكب الجرم. (مجرم)
الرغبة فى الإيذاء، لا مبالاة، بلا شفقة.	الحقد.	دوافع المجرم.
وحشية، فظاعة شيطانى، قذارة، شر غير مفهومة، غير إنسانى، مريع، متوحش، الولع بالأذى، خسيس.	مظلم، حكايات ملفقة، غول رهيب، شرير، فساد أخلاقى وإثم، متوحش.	اتجاه "للإقصاء" لمن يرتكب القسوة، كما نريد إبعادها وعزلها عنا.
يأس، بؤس، رعب، غضب وحنق، ذعر	سلاسل، زنزانة، ظالم، العجز.	مشاعر تقترن بالقسوة وضحاياها.
حقوق الإنسان.	محكمة العدل الدولية. (هولندا)	معارضة القسوة.
يمكن المعاقبة.	عقوبة.	العقوبة.

جدول (١): تظهر بالجدول قائمة بالكلمات التى تتولد بالتداعى الحر استجابة لكلمة "قسوة". ويرمز للشخصين المشاركين (أ، ب). لقد سمعا الكلمة ثم كتبا كل كلمة أو عبارة خطرت على ذهنيهما فى فترة دقيقتين. وتسجل القائمة الثلاثين كلمة الأولى المنفردة (ووجد فى التطبيق العملى أن هذه المهمة صعبة جدا؛ لدرجة أن عددا آخر من الكلمات الإضافية توارد إلى ذهنهما)، وهناك ست كلمات فى الجزء العلوى من الجدول كانت مشتركة عند (أ، ب). وتعكس هذه الكلمات تداعيات واحدة عن القسوة تربط بين "الإيذاء" مع عنف على نطاق واسع للغاية يُحدث معاناة بلا مبرر.

وتظهر فى الجزء الأسفل من الجدول كلمات متفرده للشخص "أ" (فى العمود على اليمين) وللشخص "ب" (فى العمود الأوسط). وقد تم تجميع الإشارة للكلمات حسب الموضوع (فى العمود الأخير):المواقف التى تقترن بالقسوة، مرتكبى الفعل، دوافعهم، الاتجاه "للآخرية" (عزل الآخر) بوصف القسوة على أنها شر وغير إنسانية، كما حدثت تداعيات بين المواقف والعواطف المرتبطة بالقسوة، خصوصا بالنسبة إلى الضحايا، مع الرفض والمعارضة ولزوم عقاب السلوك القاسى.

عودة إلى المخ:

والآلية التى تستخدم فى التعامل مع الأفكار، هى الجهاز العصبى للإنسان (المخ والأطراف أو النهايات العصبية) وهذا الجهاز مؤهل تماما لهذه المهمة[٢]. فإنهما يوفران المرونة والقدرة السريعة على التعامل البارع مع الحقيقة وإدارة العملية بسلاسة فائقة؛ لدرجة أننا لا نلحظها ولا نشعر بها- إلا إذا لم تعمل كما يجب، بالطبع؛ ذلك لأن كل نشاط ذهنى نحّسه يكون هناك كثير جدا مما يحدث دون أن ندركه أو نتعرف عليه. وبينما أنت تقرأ هذا النص توجد هناك أجزاء من

ذهنك تُعدل وضعك أو تنظم ضربات قلبك وتنفسك أو تستقبل معلومات عن مستويات الهرمونات فى جسمك وتتعامل معها، وكذلك وظائف جهازك المناعى وحالة الأعضاء الداخلية فى جسدك، كما أن هناك أماكن أخرى فى المخ تُفسر وتعيد تفسير الرسائل التى تصلها عن طريق الأعصاب البصرية (وأنت تقرأ) وتخمن أى كلمة قد تأتى بعد ذلك، وتسمح لك بتحريك رأسك دون أن تفقد التركيز على النص. وما زالت هناك مناطق أخرى تجهز طبقة فوق طبقة من المعانى مع كل "نقلة" تنتقلها عيناك، وهى تغريك بأن تقطع خيط استرسالك مع النص وتتوقف كى تستكشف تداعيات بها تداخل وتماس... وأكثر وأكثر من ذلك بكثير.

الوقت والتعقيد:

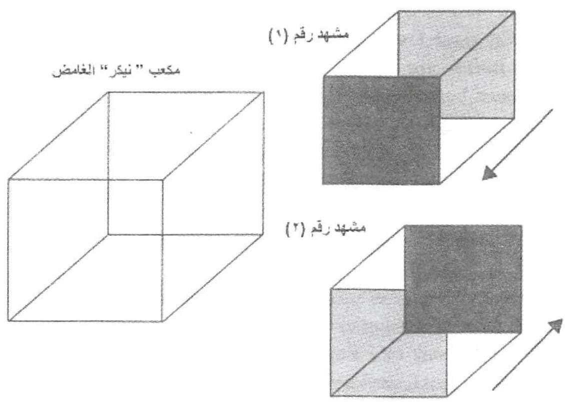
ما لا نعرفه أو نقدر عليه هنا هو تصور رسم "كاريكاتورى" لنوع الاستجابة السلوكية ورد الفعل على أى مصدر إثارة للإنسان.. مصدر مباشر، يمكن التنبؤ به، أو مصدر آلى. ومثلما يعرف كل من حاول دراسة فعل البشر، فإن السلوك البشرى يختلف حتى فى أكثر العمليات سهولة وبساطة. وعندما تكون هذه العمليات أكثر تعقيدًا، فإن الناس تستغرق وقتًا أطول للاستجابة ما يتيح للمخ مساحة أكبر ووقتًا أطول كى "يُرتب" ويساهم مع الإنسان فى نوع التعامل وكيف يجب أن يكون رد الفعل[٣]. وهذا هو ما يجعل التدريبات العسكرية ذات المستويات المتدنية تُبسط المهام لتناسب ما يلزم من رد فعل: تحرك، الهدف، أطلق النار، وأفعل ذلك بسرعة. والشىء المثالى هو حتمية أن تكون الأهداف واضحة- ويُفضل أن يكون المُجند فى ملابس عسكرية، وأن يكون هجومه حادًا- حتى تُؤدى مهمة انتقاء كل هدف منفرد بأقصى ما يستطيع من سرعة. أما عبء القرارات الأصعب- "هل

هؤلاء أعداء حقيقيون؟ وهل استجابتنا لها ما يبررها؟" فيقوم به أفراد في رتب أعلى لهم حق إعطاء الأوامر أو منح الحرية للجنود على أساس وبشروط أداء المهام الخطيرة دون التوقف ليتدبروا أو يفكروا في كل حركة أو فعل.

والمؤثرات المُعقدة هي التي تُبطئ من ردود الفعل بدرجة كبيرة. فهناك كثير جدًا من التجهيز والتنظيم قبل اتخاذ القرار عن كيف سيكون الفعل. ولنا أن نقارن هنا بين رد الفعل تجاه صورة مرئية بسيطة مثل دائرة بيضاء على خلفية سوداء، وبين صورة شارع مزدحم مثلاً. وبدلاً من "إجماع" سريع من الخلايا العصبية على هذا المشهد- مثل الجزء المهم يقع على اليسار، ولا شيء يحدث في مكان آخر- فإننا نجد بدلاً من ذلك عددًا هائلاً من "اللجان" الذهنية في أماكن مختلفة من المخ تتحادث وتتحاور فورًا في الوقت نفسه عن: جدال حول الأشكال، والألوان، والتحركات، وتخمينات عن ماهية الأشياء وموقعها، "وتقارير" عما نتوقع رؤيته، وإذا ما كان من اللازم إعطاء الأفضلية لجزئية ما. ويعتمد قرارنا إذا ما كنا سنتحرك أم لا على أن تكون فاعلية "لجان المخ" أفضل من لجان البشر. وهناك نتيجة واحدة لكل هذه التفاعلات وهي أنه كلما كانت المدخلات معقدة، عظم دور وإسهام "المستويات العليا" في تحديد المخرجات: توقعات، معرفة سابقة، معتقدات ...وهكذا. وما يحفظ هذه التعقيدات البالغة ويبقيها أن قوانين الطبيعة البشرية إحصائية ودقيقة؛ وبينما البشر يتصرفون غالبا بأساليب متشابهة، فإنه لا مفر من أن ردود فعلهم المحددة تجاه أي موقف في واقع الحياة تكون مختلفة ومتفردة. إننا إن كنا قد نصف بعض الناس بأنهم ساذجون أو "عقلهم بسيط". لكننا لا يمكن أن نصف إنسانًا بأن "مخه بسيط".

نحن لا نستطيع بالفعل أن نفهم ما نشاهده أحيانًا. كما هي الحال في الرسومات "المستحيلة" على الفهم التي رسمها م. س. اسكر "M.C. Escher" أو

رسوم الخداع البصرى الغامضة مثل مكعب "نيكر "**Necker Cube**" (شكل رقم٤).
وفى مثل هذه الحالة نستخدم خبرتنا السابقة عن المبانى أو المكعبات حتى نصل إلى توقعات عن كيف يجب أن يكون فهم شكلها. وفى حالة "مكعب نيكر" يعطينا هذا تصورًا عن مكعبين متصارعين، أحدهما فى مواجهتنا والآخر بعيد عنا، وهذا، بالتبادل، هو ما نراه بالفعل. وكما أظهرت التجارب؛ فإن الانتقال من مشهد إلى آخر ينعكس بفعل ونشاط مجموعات من الخلايا العصبية فى مناطق القشرة البصرية المثيرة للصور الذهنية. وبينما يتغير إدراكنا وملاحظتنا، يتغير كذلك سلوك خلايا المخ[٤].



شكل رقم (٤): مكعب نيكر "**Necker Cube**"

نحن جميعًا، بالطبع، أفراد وأشخاص متفردون. وهناك مساحة أكبر لأن تظهر بيننا اختلافات- بمعنى أننا أكثر تفردًا عندما نتعامل مع مؤثرات مُعّقدة وتكون لدينا فسحة من الوقت للاستجابة حينما وكيفما نريد ونرغب. وذلك يعطينا الوقت كى نسمع "آراء اللجان" العصبية فى مخنا- إنها الآراء التى نميل إلى أن نغفلها عندما نتسرع أو لا يتاح لنا الوقت- وقد يشمل ذلك إغفال معلومات عن

خبرة سابقة. وعلى سبيل المثال، إذا كان أحد الأشخاص يملأ استبيانا (استمارة) بخصوص الهجرة وحسب معدل فهمه قد يستغرق وقتا ليتذكر حوارا معينا كان قد سمعه، أو ما سمعه من مهاجرين قد قابلهم، أو لو فكر لماذا هذه الإجابة أو تلك قد تكون أفضل. وإذا كان هذا الشخص يجيب عن هذه الأسئلة تحت ضغط من ضيق الوقت؛ فإنه ربما يعطى إجابة نمطية، وهذا التأثير استغله الزعماء السياسيون عند التحقيقات منذ الأزل. وهو أيضا عنصر أساسى فى حالات القسوة المفرطة عندما تفرض مثل هذه الضغوط النفسية القاسية على المجرمين. وسواء حدث ذلك "الضغط" من خلال إجهاد جسدى من التدريب العسكرى، أو من القلق الناشئ عن محنة اقتصادية أو سياسية، أو حتى الضغوط البسيطة بسبب عنصر الوقت، أو الإحساس بضرورة الفعل الذى كلما كان أسرع كان أفضل؛ فإن ذلك يجعلنا جميعا أكثر استعدادا لأن نعزل "الآخر"- وإقصاء "الآخر" يزيد من احتمال أن نكون قساة[٥].

الذهن الفياض:

لماذا تحدث الاختلافات إذا لم يتح الوقت؟ وتكمن الإجابة عن هذا السؤال فى كيفية عمل المخ. إنك قد تعلم أن الخلايا العصبية هى التى تتعامل مع المعلومات وتنظمها، وهى التى "تفتح" أو تغلق استجابة للإشارات الكهربية. وقد تعلم أيضا استعارة جهاز التلغراف وتحويل الهواتف (التليفون) والحواسب الآلية والشبكة الدولية للمعلومات التى أنجزت، فى أفضل أحوالها، بناء على هذه الفكرة. وعلى مدى سنوات قامت هذه المفاهيم بعمل رائع؛ إذ أوهمت شباب الباحثين المندفعين والمتحمسين بأنهم يوما ما سوف يدركون سر الكرة الأرضية ويبنون واحدة أفضل منها. غير أن هذا القياس والتناظر ليس مطابقا للحقيقة. فالعقول ليست حواسب آلية،

ومهما تكلمنا عن "تنظيم المعلومات" بها؛ فلن يُغير ذلك من الأمر شيئا.. إننا مازلنا أبعد من أن نقترب من فهم تعقيدات المخ.. إذن أين نحن من ذلك الآن؟

إن أحد السبل إلى تحسين هذا القياس أو التناظر الوظيفى؛ هو أن نبنى حواسب يمكنها أن تُغير مُخرجاتها اعتماداً على إذا ما كنت تغمسها فى "الشاى" أو فى "الخمر"، إذ إن الخلايا العصبية تغتسل و"تستحم" باستمرار بالسوائل المخية الشوكية، "المُخشوكية"، كما أن المواد التى بالدم، مثل الكحول، يمكن أن تتسرب إلى هذه السوائل فتُغير تركيب جزيئاتها وبهذا تؤثر فى عمل المخ و"مخرجاته". وباختصار، فإن كل خلية عصبية تُستثار بإشارة من العصب يتوقف رد فعلها على المحتوى والتركيب الكيميائى داخل وحول الخلية نفسها. ويختلف هذا المحتوى حسب حالة الجسم وصحته وأيضا حسب نشاط وفاعلية خلايا المخ الأخرى. وهكذا، فإن الخلايا العصبية التى تنظم أكثر المدارك غموضا يمكن أن يتوقف عملها ويختل بسبب تغيير مفاجئ فى كيمياء الجسم، سواء جاء هذا التغيير من الطعام، الشراب، أو الأدوية والمخدرات، أو العدوى أو المرض، أو بدفقة من "الأدرينالين" تندفع وتتحكم فى المخ. وسوف نعود إلى هذه النقطة المهمة فى الفصل الخامس عندما ندرس تأثير العواطف. وما يكفينا الآن هو أن نُبسط الأمور كى نوضح كيف "يُولد" الفعل.

الاندفاع الداخلى:

عندما تندفع الإشارات وتسبح خلال الأعصاب الطرفية حتى تصل إلى الجهاز العصبى المركزى (وهو المخ والحبل الشوكى)؛ فإنها تسير فى حلقات بمناطق فى الطبقات السفلية لقشرة المخ حتى تصل إلى القشرة الخارجية، ثم تتجمع

هناك مثل جداول تصب فى نهر كى تضيف مدخلاتها إلى النشاط العصبى المسئول عن توليد السلوك. وعلى امتداد مسارات هذه المـدخلات. عنـدما تحـاول خليـة عصبية - ولنفترض أنها من العصب الوركى - أن تتصل بخلية أخرى فى الحبل الشوكى؛ فإن الإشارات التى تمر فى مسار المدخلات تتغير بطريقة تعتمد على ما يحدث غير ذلك فيما حولها. وببساطة، فإن الإشـارات الأقـوى (التـى ترسـلها المستقبلات الحسية كثيرًا وبتكرار وتتابع) تصبح أكثر قوة؛ بينما تتلاشى الإشارات الأضعف وتضيع فى ضجيج هذه الخلفية الصاخبة.

وبينما تصب كل إشارة، مع جميع "صاحباتها"، فى المخ يرتفع مستوى هـذه "الثرثرة" العصبية، وبما أن كل خلية عصبية منفردة يمكنها أن تتـشابك مـع آلاف غيرها، فإن أى إشارة واردة بها خلايا عصبية قليلة قد تجد نفـسها مثـل سـمكة صغيرة فى بحيرة مهولة. وعلاوة على ذلك؛ فإن كل نقطة اشـتباك عـصبى قـد تستطيع أو لا تستطيع أن تُنشّط الخلايا فى الجانب الآخر.

مرة أخرى، نقول إن ذلك يعتمد على أى نوع من الرسائل الأخرى تحـصل عليه الخلايا العصبية. وإن لم تتمكن من ذلك فإنها بالفعل سـوف تفـشل فـى أن تتكاثر، وحتى إذا أرسلت الإشارة عبر نقاط الاشتباك العصبى، فإن فرصتها فى أن تؤثر فى السلوك تكون ضئيلة إلا إذا حدث وانعزلت عن هذا الحشد أو "الزحام".

وقد يحدث هذا التميز لعدة أسباب. أولا: قد تكون الإشارة ببساطة متواصلة ومستمرة بإصرار، مثل عضو يصر على تكرار وجهة نظره مرة بعد أخرى حتى يلحظه وينتبه إليه أحد. أو قد تشمل الإشارة أيضا عددًا كبيرًا جـدًا مـن الخلايـا العصبية. وليس على سبيل المصادفة أنه فى التدريب العـسكرى، وفـى الإمـلاء والتلقين فى الجماعات والفئات الحزبية، وفى تنوع أشكال عديـدة مـن التعـذيب،

وحتى فى التعلم الحياتى اليومى، يستلزم اللجوء إلى التكرار الممتد والمستفيض. فالخلايا العصبية تحترم المدخلات الحسية المتواصلة و"اللحوحة"، وتغير سلوكها استجابة للإشارات الملحّة كى تدعها تمر بسهولة أكبر فى المرة المقبلة. ثانيًا: بعض الإشارات التى يتلقاها المخ تكون بارزة ومميزة بصفة خاصة، وقد لاحظ أسلافنا ذلك بدقة، فإشارات أى خلل وظيفى بالجسد مثلاً من المحتمل أن تمثل تهديدًا لمن يلاحظها بتركيز. لقد كنت ذات مرة على سفر فى أتوبيس وشاهدت جماعة من الناس وقد تجمعوا حول شابة سقطت من على دراجتها بجوار حاجز حجرى بالطريق، وكانت تنزف دمًا، وتعجبت كيف كان الدم شديد الحمرة، ولا أتذكر شيئًا آخر عن هذا الحادث أكثر من ذلك؛ فهذا المؤثر البارز استحوذ تمامًا على كل اهتمامى- حتى إن كان الموقف لا ينذر بتهديد حقيقى. ثالثًا: أن تكون الإشارة جديدة تمامًا، مثل عضو جديد فى "اللجنة"، ولأنه عضو جديد فقط يُعطى الكلمة الأولى أمام اللجنة[٦]، فالقاتل المستجد المبتدئ عندما يرى الجثة ممددة تحت قدميه قد يجد نفسه غير قادر على تحويل نظره عنها. فنحن منحازون إلى أن نتنبه أكثر للأحداث الجديدة، وحتى الأطفال الرضع يطيلون النظر إلى الأشياء الجديدة أكثر من الأشياء التى ألفوها، ولأن ملامح البيئة المعروفة يمكن غالبًا التنبؤ بها فإنها تكون أقل تشويقا وأكثر أمنًا، والبشر عندما يشعرون بالأمان يبحثون عن شيء جديد غير مألوف، بدرجات متفاوتة، ويجدونه شيئًا مجزيًا بالفعل.

وفى الختام، قد تكون الإشارة الورادة للمخ استثنائية وفريدة، مثل تطبيق مخطط يدعو للجدال ويثير مناظرات قوية، فالإشارات النادرة والفريدة تتضمن مكونات مألوفة، مع شيء من الانحراف والالتواء؛ إذ إن المكونات لا تتوافق معًا كما هو متوقع.. إنها قد تكون متطلبات مضنية وضاغطة كى تبرر مزاعم،

أو عبارات تتناقض مع معتقدات قديمة، أو مفاهيم جديدة عن مشكلات قديمة- وكلها تشير إلى أفكار قديمة اكتسبناها، لكننا نصر على فعل شيء فريد ومتميز بها.

الجماعات المنغلقة:

وتنحو مكونات الإشارات المُميّزة- مثل الإصرار، الحداثة، البروز والتفرد، أو عدم التكيف مع الوضع الراهن- إلى أن تنأى بنفسها لتنعزل عن "الحشد" والزحام؛ لأنها تخالف وتتصارع مع ما يتوقعه الشخص. وكما ذكرنا سابقًا، فإن المخ يُولّد توقعات- أو تنبؤات بالمدخلات الحسية التى ستأتى لاحقًا- استنادًا إلى خبرة سابقة لسير الأحداث وإلى معرفة بما كان قد وقع بالفعل. وأحيانًا تكون هذه التوقعات راسخة جدا وصحيحة، مثلما تسمع نغمة مشهورة وتجد نفسك تدندن بها، ثم تستمر فى ترديدها حتى إن توقف الصوت الذى سمعته، فالتوقعات تشبه "مرشحات" أو "مصفاة" أمام انسياب تيار المعلومات بالمخ. فإذا انسجمت الإشارات معها مرت بسرعة ودون ملاحظتها، أما التى لا تتطابق أو تنسجم فمن المحتمل أن تستأصل فى المراحل الأولى. ويُطلق علماء النفس على عملية التأكد و"الترشيح" هذه كلمة "تحيز": وهو الاستعداد الشديد لدى الناس لتقبل الأفكار التى تناسب ما يعتقدونه بالفعل(٧).

وكلما كانت التوقعات قوية، استلزم ذلك قوة أكبر فى الإشارات غير المطابقة لتستطيع المرور عبر "البوابات الحسية". إنك ربما تدندن مع اللحن دون وعى، لكن إذا خالفت النغمات توقعاتك عن اللحن، سواء كان عمدًا أو على سبيل الخطأ، فإن انتباهك سوف يتركز فجأة على المدخلات السمعية، وإذا كانت الإشارة مخالفة بدرجة كبيرة فيمكن أن يُستدل عليها. أما إذا لم تكن "موسيقارًا" ذا خبرة،

فإنه من المحتمل ألا تلحظ نغمة "نشاز" صادرة من الكمان الأوسط عند ختام "السيمفونية"، لكنك لن تركن إلى أذن غافلة أو "زائفة" فلا تجفل عندما تسمع مطربا يُشوه لحنا تألفه. وعلى المبدأ نفسه يقوم خداع البصر وكثير من الألعاب السحرية، إذا بنيت توقعا قويا، مع تأثير ضعيف للمدخلات التي تُعطى الإشارة أن التوقع غير صحيح (بأن تشتت انتباه الشخص مثلاً)؛ هنا يسجل المخ ما "خدعته" تنبؤاته وليس ما حدث بالفعل.

ومعظم الإشارات التي تنساب في أذهاننا لا تصل أبدًا إلى الشعور الواعي[٨]. ومثلها في ذلك مثل مياه النهر التي "تُصفى" عبر متوالية من السدود والتي قد تُحجز أكثر مدخلاتها في مراحل متقدمة من المسارات العصبية، ومع ذلك فإن بعضها قد يتدفق أو يتناثر متجاوزًا إلى المرحلة التالية. إذ يندمج مع كل ما يحدث في منطقة معينة من المخ ويؤثر فيها، ومع زخم عصبي تندمج معهما مدخلات حسية أخرى من خلال التعاملات والتنظيم الحركي إلى أن تنطلق الأفكار على هيئة فعل كما تندفع المياه في أنابيب تُسريب الفائض من الماء.. وهكذا تسير الإشارات الحسية أفكارًا ثم تندفع إلى حركة إلى أن تتحول إلى فعل، والمؤثرات الأكثر تعقيدًا هي التي تستغرق وقتًا أطول في هذه العمليات.

البيروقراطية الداخلية:

إن عقول البشر ليست كيانات سالبة، ومهمتها ليست فقط الربط بين المدخلات (المؤثرات) والمخرجات (ردود الأفعال) بأكثر الوسائل مباشرة، إنها بدلاً من ذلك تولد السلوك وهو لا ينشأ كلية عن مؤثر واحد فقط. ومعنى ذلك أنه على الرغم من أن المخ يتفاعل مع التغييرات في العالم الخارجي. فإنه يأخذ في الحسبان

أيضا عوامل أخرى لا دخل لها بالحواس كموثر مستمر. هنـــاك زاد آخـــر مـــن الذكريات والمعتقدات والعواطف والمزاج والحالة النفسية بشكل بيئة داخلية، متفردة خاصة لدى كل فرد، وتصدر منها إشارات تمثل استجابة لإشارات أخرى من العالم الخارجي (والعكس بالعكس).

وتستمر البيئة "الذهنية" للإنسان فى التطور حتى قبل مولده. وهـــى تعكـــس مجموعة من الترابطات المهولة وغير المعقولة من الأحداث التى تـشكل كينونـــة وماهية الإنسان.. هنا لقاء أو موعد أو هذا الحدث كان فى هذا اليوم بالذات، الكتاب الذى قرأه وهو طفل والذى غير فكره و"عقله" إلى الأبد عن شيء مهم، بعض مـــن سببوا له الأذى من الناس أو من كان ودودًا وشفوقًا معه أو مع غيره. كلها تنـــدمج معا ليس تماما بالأسلوب نفسه أو فى الوقت نفسه. إن هذا العالم مـــن الاختلافـــات والترابطات فى "جمجمة" الإنسان ليس "أرشيفًا" لحفظ السجلات بـــل إن محتوياتـــه مخبأة ومكنونة: إلا إذا تذكرها واستدعاها من الذاكرة عمدا وعن قـــصد. إن هـــذا يؤثر فى السلوك اليومى للإنسان ويجعل اختياراته وأفعاله خاصة به هو بالذات.

وأى شيء يعترضك أو تواجهه يجعل بعض الخلايا فى الجهـــاز العـــصبى، (وليس جميعها)، تنشط (تبدأ فى إرسال إشارات للخلايا الأخرى). وعنـــدما تـــصل الإشارات إلى المخ تتوزع المهام فى مناطق مختلفة من المخ تختص بأنواع مختلفة من الإشارات، خصوصًا فى القشرة المخية (الطبقة الخارجية)، فالضوء على شبكية العين يثير خلايا الفص المؤخرى فى المناطق الخلفية من المخ. والأصوات تثيـــر خلايا الفص الصدغى على جانبى المخ. وهكذا (انظر شكل ٢، ص ١٧١، ١٧٢). وفى داخل هذه المناطق العليا تقسيمات داخلية (القشرة البصرية تحتوى علـــى مـــا يزيد على ثلاثين منطقة مختلفة) تتناغم مع تنظيم فى أولويات التقـــدم: الحركـــات، الألوان، الأوجه... وهكذا، وفى الأقسام الفرعية حـــشود مـــن الخلايـــا العـــصبية

المتفردة[٩]. وفي مقابل كل شيء تكون النتيجة هي تحول في نمط نشاط الخلية العصبية خاص بهذا الشيء وفي هذه المناسبة بالذات. وكما ذكرنا سابقا، فلا يوجد تشابه أو تطابق تام بين أى حدثين أو "عمليتين" تجريان فى المخ.. والأشياء المتشابهة تُنشط عددا من الخلايا نفسها فتجعل نماذج متشابهة من الاستجابة تنتشر فى المخ.

والتشابه فى مناسبات مختلفة يمكن أن نعتبره - فى حد ذاته - نوعا من الإشارة. والنماذج التى تستمر لفترة، أو تتكرر فى تتابع، تشمل تجمعات من الخلايا العصبية تُثار وتنطلق، بمرور الوقت، فى ترابط وتلازم شديد (أو أن هذه الخلايا يحتمل أن تنطلق معا). وفى وسط جلبة و"ضوضاء" ما يحدث من أشياء أخرى، تبرز وتظهر نماذج من الأنشطة المترابطة والمتلازمة. وكما رأينا قبلاً فإنه مع دخول معلومات أخرى للذهن، توجد آليات للجهاز العصبى تقوم بتقوية إشارات مُمَيزة وتضعف الضوضاء المحيطة والمصاحبة للنماذج والأنشطة الأقل أهمية (وعبارة الأنجيل "على كل من يملك أن يُعَطى" يمكن أن تناسب تماما عمل الخلايا العصبية[١٠]).

وكيف يحدث شحذ وتقوية الإشارات وإضعاف وكتم الضوضاء؟ يحدث هذا من خلال مرونة وطواعية نقاط التشابك العصبى.. أى التوافق فى نقاط التشابك التى تتفاعل فيها الخلايا العصبية[١١]. وعلى سبيل المثال لو أرادت الخلية العصبية "B" أن تنطلق عندما تنشط الخلية "A"، فإن نقطة الاشتباك بينهما "تقوى" فى كل مرة يمر فيها نشاط عصبى من "A" إلى "B". ويعنى ذلك أن الخلية "B" تصبح أكثر استعدادا لاستقبال إشارات من الخلية "A"، وأكثر احتمالاً أن تنطلق عند انطلاق الخلية A . ومن ثم فإن نشاط الخليتين يصير أكثر ارتباطا وفق علاقة متبادلة أو متلازمة (والاحتمال الأكبر أن ينطلقا معا)، والنماذج التى ينتميان إليها تصبح أكثر تميزا. ومع تعاظم قوة الاشتباك العصبى يُمنح النموذج صوتًا أعلى تجاه "اللجان العصبية" التى تنتج عن قرارها وتصويتها انتخاب الفعل التالى.

خزانة حفظ المعلومات:

يمكننا الآن التحدث عن نقاط الاشتباك العصبي وتخزين المعلومات- والعلماء الذين يُجرون الأبحاث على المخ غالبا يفعلون ذلك - وهذا اختزال مجازى مفيد، والأدوات اللغوية لديهم تتشابه، لكن ما لا يُفصح عنه هو شيء يشبه نظم حفظ الأضابير فى المكتبات: صور، حاسبات، "خربشات" كتبت بغير عناية، أو سجلات[١٢].. وكلها، إلا إذا دمُرّت، تعطينا استرجاعا تاما للمعلومات: النص، الصورة، أو البرنامج الذى خزّن بها وبقى كما هو مثلما كان عندما دخل فى هذه المنظومة. ويلزم أيضا أن يفسره من يستخدم المعلومة، فخزانة حفظ المعلومات لا تفهم محتواها ومضامينها. ولو طبقنا هذه الفكرة على مخ الإنسان سيقودنا ذلك إلى تعقيدات فلسفية كريهة، وعلينا تجنبها.

وبدلاً من هذا، فإن معنى أن نقول: "المخ يُخزّن المعلومات عن العالم الخارجى"، هو القول بأن "إشارة مدخلات" نشأت ووجدت بسبب "ملمح" من ملامح العالم الخارجى فاستدل عليها "الجهاز العصبى"، وأدت إلى خلق نموذج متلازم النشاط فى الخلية العصبية، وهذا النشاط غير نقاط التشابك العصبى بين الخلايا العصبية المشاركة، حيث إنه لو تكررت هذه المدخلات مرة تالية، أو حدث شيء مثلها تماما؛ فإن احتمال استثارة نموذج مماثل سيكون أعلى مما كان يمكن أن يحدث غير ذلك.

ولهذا السبب يستخدم الناس الاختزال، ويتكلمون عن المخ كما لو كان خزانة للمعلومات. وعلينا أن نوضح ذلك؛ إننا كى نستطيع رؤية "قطة"، فنحن نعتمد على الآتى:

- قفزت القطة بخفة، فانبعث ووصل وميض ضوء إلى الشبكية ومستقبلات الضوء.
- أُثيرت ونشطت الأعصاب التى فى خلفية العين بفعل مستقبلات الضوء التى أثيرت.
- بعد رحلة مُعقدة نتج عن ذلك نموذج مركب ومتغير باستمرار فى المخ.
- يتشابه هذا النموذج كثيرًا مع نماذج أخرى حدثت فى لقاء سابق مع "القطة".
- هناك تشابه ومشاركة أقل (لكنها كثيرة نوعًا) مع نماذج أثيرت بسبب قطط أخرى غير هذه.
- هناك تبادل أقل (لكنه كثير نوعًا) مع نماذج أثيرت بسبب كلاب، نمور، صور قطط أو حتى كلمة "قطة" ... وهكذا.
- لا توجد مشاركة أو تشابه مع نماذج طيور أو فواتير الغاز مثلاً... إلخ.
- وهكذا بالنسبة إلى أى فكرة تختارها، مع أن المفاهيم المجردة مثل القسوة؛ لا يحتمل أن تتشابه معًا أكثر من حالة القطة هذه.

وبمعنى آخر، فإننا عندما يُصادفنا شيء؛ سينطلق نموذج متفرد من الخلية العصبية. وكلما فحصنا هذا الشيء طال زمن تعامله مع التشابكات العصبية المشاركة إلى أن تزيد قوته، فيزداد الترابط فى هذا النموذج. ولو صادفنا أو رأينا هذا الشيء مرة أخرى فسوف يتكون هذا النموذج مرة أخرى أيضًا. وحتى لو نشطت بعض الخلايا العصبية فقط (إذا كان جزء من هذا الشيء المرئى خافيًا أو غير ظاهر مثلاً) فإن الاحتمال هو أن باقى الخلايا العصبية كلها سوف ينشط؛ ذلك لأن نقاط الاشتباك العصبى القوى التى تربط بين الخلايا العصبية المشاركة فى النموذج سوف تسمح للإشارات بأن تنساب خلالها بسهولة أكبر مما كان فى نقاط التشابك التى لم تنشط فى التفاعل السابق. فالإشارات تنساب أسرع عبر

القنوات المستعدة والجاهزة بسبب تجارب وخبرات سابقة، وهذا هو السبب فـــى أن استجابتنا تكون أبطأ تجاه الأشياء الجديدة عنها فى حالة مشابهة كنا قد صـــادفناها قبل ذلك.

وتحوى المكتبات أعدادًا وكميات ضخمة من المعلومات بالكتـــب لكنهـــا لا تستطيع أن تصنف محتواها ومضامينها (هذا ما يفعلـــه المكتبيـــون)، أمـــا المـــخ فيستطيع ذلك ويفعله، فإذا التقى إنسان غير مسلم للمرة الأولى مع من تصف نفسها بأنها "مسلمة"، فإن نموذج النشاط فى مخ غير المسلم – استجابة إلى صـــوت هـــذه الكلمة وملامح المتكلمة– سوف ينطلق، كما وصفنا فيما سبق، ويَقْوى نقاط التشابك العصبى لدرجة أن صوت كلمة "مسلم" يصبح مرتبطا ومقترنا بالتداعى الذهنى مع الملامح المعينة للمسلم، وبعض هذه الملامح ربما يكون شيئا عاما لدى كل إنـــسان مسلم ولذا فإن هذا النموذج (أو نماذجهم) سوف ينشط كلما التقى غير المـــسلم مـــع أحدهم. وما سوف يكون أكثر تميزًا هو الملامح الجديدة وغير المألوفة فى المظهر أو السلوك، مثل: النقاب أو الحجاب أو اللهجة أو لون البشرة أو اللغة، وكـــل هـــذا سيصبح ملازمًا بقوة أكثر من غيره لكلمة "مسلم".

وفى المستقبل، سوف يصنف تصنيفًا مشروطًا، وسيكون كل مـــن يتـــصف بواحد أو أكثر من هذه الملامح، عند الالتقاء به للمرة الأولى كمسلم، ســـواء قـــدم نفسه وعرّفها (بأنه مسلم) أو لم يفعل. وكل فرد يطرح نموذجًا متفردًا على ذهـــن من يلاحظه، لكن النماذج تتداخل وتتشارك أو تتم المقارنة بينها فى نقاط الاشـــتباك العصبى، وهذا التداخل هو أساس التصنيف المسمى "مسلم". والعناصر العامة فـــى النموذج تدعمها وتقويها أكثر من العناصر التى تختلف من شخص لآخـــر. وكلمـــا التقى الملاحظ غير المسلم أعدادًا كبرى من المسلمين؛ فإنه سوف يستطيع تمييزهم عن غيرهم من الناس بصورة أفضل، وكذلك تمييز كل منهم عن الآخر بـــالتعرف

على الفروق الدقيقة التى لا تكاد تُدرك، كما أن الاستدلال على المسلم سوف يصبح أكثر دقة عندما يعرف الملاحظ حقائق أكثر عن المسلمين، مثلاً عن العقيدة أو الإيمان، وهذا له دخل وتأثير أكبر من لون البشرة أو اللهجة فى كل من يعتنق الدين الإسلامى.

الضغط النفسى بسبب آخر موعد لإنجاز الأعمال:

نظريًا، ما يُحدد صورة إنجاز العمل هو طبيعة هذا العمل. وحيثما توجد الإرادة يتوافر أيضا أسلوب الأداء، وإذا كانت الإرادة قوية سنجد الوسيلة. لكن كيف تكون الحال إن لم تكن هناك فسحة من الوقت للتجريب؟ وكيف تكون الحال إذا تحتم أداء العمل بسرعة وبفاعلية؟ وفى التجارب العلمية إذا وُضع الفأر فى "متاهة" بها ممر واحد يوصل إلى الهدف فإنه يتعلم اختيار هذا الممر بعد عدة محاولات وتجريب. وقد يُوضع الإداريون البيروقراطيون أيضًا فى متاهة لكنهم لا يستطيعون التجريب. ولن يكون هناك وقت للتردد أو التوقف. ولهذا فإن أداء الأعمال فى وقت سابق شىء مهم جدًا، ذلك لأن الخبرة السابقة أمر ضرورى جدًا.

(من كتاب راوول هلبرج "Raul Hilberg" إهلاك اليهود الأوروبيين)

هناك تنبيه وتحذير مهم بخصوص فكرة أن تصنيفاتنا صحيحة ودقيقة، فإن التوتر وعدم الشعور بالأمان أو أى شعور بالتهديد؛ قد يجعلنا نفضل الالتزام برؤية بسيطة وسطحية للعالم. ويأخذنا هذا إلى موضوع سابق فى هذا الفصل؛ وهو فكرة أن المخ إذا وُضع تحت ضغط أداء الفعل السريع قد لا يتاح له الوقت كى تنشط خلاياه العصبية قبل أن يتكون ويتشكل قرار الفعل، وكى نفهم ذلك علينا أن نفكر بلغة المخ وعملياته، فكلما زاد التمهل واتسع الوقت زادت "الضجة" أو "الشوشرة". وتحت ضغط السرعة أو إذا "تسرع" المخ؛ فإنه يحتاج قرارات من اللجان "المتنوعة" حالاً، مما يتطلب إجماعا، على الأقل، داخل كل "لجنة" ومن "اللجان" نفسها. وإذا انقسمت الأصوات كانت المخرجات "ضوضاء" عشوائية ويكون احتمال تأثيرها فى نشاطات باقى المناطق بالمخ أضعف؛ ومن ثم فإن الأذهان المتسرعة سوف تتفاعل على أساس المتاح من نماذج الخلايا العصبية الأقوى؛ حيث إن هذه النماذج تنشأ غالبًا بسبب الأحداث العادية والشائعة، فإنها تميل إلى أن تنتج سلوكا مدفوعًا بأى حافز آن. وعلى العكس من ذلك؛ فإن المخ الذى ينعم بوقت كاف يمكنه أن يتعامل مع معلومات أكثر قبل صدور أمر الفعل الذى يندفع فى صورة سلوك. وهذا يفسر لماذا تختلف اختياراتنا تحت الضغوط غالبًا، وبدرجة كبيرة، عن الاختيارات فى المواقف التى تقل فيها الضغوط[١٤]، وهذا يفسر أيضًا لماذا يلجأ الناس الذين يعيشون حياة عادية تكاد تخلو من القسوة إلى سلوك يتسم بالقسوة، تحت ظروف معينة، وبصورة لم تخطر ببالهم من قبل، ولا يستطيعون فهمها عند مواجهتها فيما بعد.

ولماذا يحدث ذلك على مستوى الخلية العصبية؟ وكما أشرنا قبل ذلك، فإن الإشارات التى تدخل الجهاز العصبى تمر خلال نقاط التشابك العصبى التى يمكن تخيلها على أنها مسارات أو مسالك تمر فيها إشارات المدخلات الحسية كى تتحول

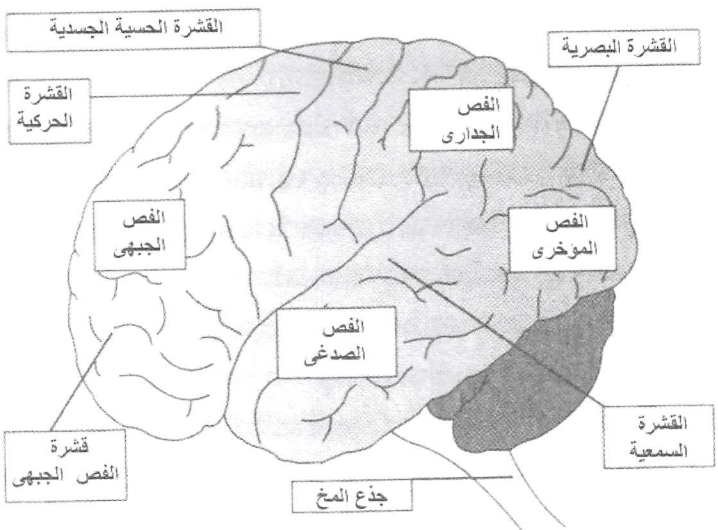
إلى مخرجات حركية. وتتم المقارنة بين الإشارات التى تدخل هذه المسالك فى كل مرحلة، ومثال على ذلك أن المخ، بالخبرة، يتدرب على إنتاجه نقاط اشتباك مانعة ومثبطة بين شبكات الأعصاب التى تحمل إشارات غير متوافقة- أى تلك التى لا تحدث معًا بصورة عادية ومتزامنة (ونقطة الاشتباك المثبطة هى التى تقلل فرص مرور الإشارة بها، فإذا تحفزت وانطلقت الخلية العصبية "A" فإن الخلية "B" سيقل احتمال اندفاعها أو انطلاقها)، وهذا سيجعل نماذج الخلايا العصبية المتصارعة منفصلة وبالإمكان التمييز بينها(١٥).

وفيما يتعلق بالأمور الحسية؛ فهى تعكس عدم التوافق فى الخواص والصفات المميزة والمعتادة للأشياء، فالمبانى الحقيقية لا يمكن أن تشبه بنايات إسكر "**Escher**" (*) ثلاثية الأبعاد، ونحن نعرف ذلك لأننا شاهدنا الآلاف من المبانى الحقيقية، والعالم ملىء بالمقابلة وبالشىء وعكسه: أعلى / أسفل، جاف /مبتل، أسود/ أبيض، قاس/ لطيف. ونحن نلاحظ ذلك فى هذا النمط الثنائى بسبب التنشيط والتحفيز أو المنع والتثبيط.. أى اختيار الخلايا العصبية أن تنطلق أو تبقى ساكنة. أما ما يتعلق بالأمور الحركية، فإن الإشارات غير المتوافقة والمتنافرة هى التى تحُث على الأفعال المتضاربة مثل تحريك اليد اليسرى إلى الأمام والخلف فى الوقت نفسه(١٦). ويعنى وجود نقاط الاشتباك المثبطة وورود إشارة من خلية عصبية نشطة ومهتمة قد أثارها ونشّطها وهج أو شعاع ضوء فى اتجاه الجزء الأيسر العلوى فى صورة مرئية أو مشهد ما. وهذا سوف يُخمد نشاط الخلايا العصبية الأخرى المهتمة بمنطقة أو بجزء آخر من المشهد(١٧). والخلايا العصبية التى تفضل وهج الضوء الذى فى اتجاه الجزء الأسفل من اليمين سوف تتأثر أكثر، والإشارات الأقل فى التنافر (فى منطقة شمال

(*) هو الفنان الهولندى الأشهر م.س. إسكر "M.C.Escher" - (١٨٩٨-١٩٧٢) صاحب أعمال عديدة متميزة فى الرسم والجرافيك والحفر على الخشب....إلخ .

الوسط) سيكون تأثرها أقل. ويعتمد قدر التثبيط أو التدمير الذى سيحدث على مقدار شدة وقوة إشارات الخلايا العصبية المسئولة.

وقد أظهرت النماذج الرياضية أنه عندما يوجد المنع أو التثبيط تقوم خلية أو عدة خلايا عصبية قوية بسرعة بإسكات وإبطال المنافسة(١٨). وتستغرق مستويات الأكثر نشاطًا، والموزعة بالتساوى والناتجة عن مؤثرات أكثر تعقيدًا، وقتًا أطول لتفند وتنتقى من الذى يكسب. إن من يملك مستوى أعلى من النشاط سوف يكسب، ومن لا يملك يخسر.



شكل (٥) مقطع جانبى للمخ تظهر به الأقسام الأربعة الرئيسية للحاء أو القشرة الخارجية للمخ (وهى الفص الجبهى، الفص الصدغى، الفص الجدارى، والفص المؤخرى)، وهى المناطق المهمة فى قشرة المخ التى تتحكم فى الرؤية والسمع والحركة وأحاسيس الجسد (فى القشرة الحسية الجسدية)، كما يظهر معلمان آخران هما المخيخ وجذع المخ.

وفى كل مرحلة على امتداد دورة تحول المشاعر والأفكار إلى فعل: يحدث منع وإعاقة لبعض الإشارات الحسية، وذلك حتى تقل "الضوضاء" (أى الإشـارات الأضعف) وتدعم وتحفز الإشارات الأقوى. ويتسع ويزداد مجـال المنافـسة بـين الإشارات بشدة، بينما تغيب مصادر عديدة فى هذه الضوضاء وهذا "الهرج"، كلمـا تصل إشارات إضافية إلى المخ. وحتى تتبارى وتتسق هذه الحالة هناك شواهد على أن الخلايا العصبية فى مناطق من المخ يمكنها أن تمنع وتعوق الخلايـا العـصبية التى لها اهتمامات مختلفة (بينما تشجع نشاط غيرها ممن بينها تشابه أو اتـساق). ويحدث ذلك ليس فى منطقتها فقط ولكن أيضًا فى مناطق أخرى بعيدة. ويساعد هذا الاشتباك المتبادل فى انتقاء الإشارات المسيطرة التى يمكنها أن تسود دون غيرهـا من "الزملاء" الأضعف (وهذه عملية يُطلْق عليها عالم دراسـة الجهـاز العـصبى جيرالد إيدلمان "Girald Edelman" عبارة "داروينية الخلايا العـصبية"- بمـا أن البقاء للأقوى)[١٩]. وتنطبق هذه القواعد نفسها فى التفاعل على مناطق أخرى مثـل منطقة القشرة الحركية التى تولد الإشارات التى تتحكم فى الحركة، مما يحدث شللاً أو توقفًا تامًا حتى تتمكن الخلايا العصبية المتحكمة فى الحركة من التنظـيم ومـن تحديد أيها الذى يكسب وينتصر. وتعقيبًا على كفاءة وفعالية هـذه العمليـة يمكننـا القول إننا، نسبيًا، نادرًا ما "نتجمد" أو نتوقف فى عدم اتخاذ القـرار[٢٠]؛ فالأفعـال عادة ما تكون انسيابية وسريعة، وهى كذلك لـسببين، أولاً: لأن نقـاط الاشـتباك والتواصل بها طاقة كامنة قد قويت بفعل تكرار التدرب والممارسـة. وثانيـا: لأن العقول (الأدمغة) تؤجل اتخاذ القرار، وفى فترة التأجيل تصل الإشارات إلى مناطق الحركة فى القشرة المخية فيحدث كثير من التـواؤم والتـصالح بـين الأصـوات المتصارعة والرغبات المتنافسة ويبدأ الفعل.

بهجة الانطلاق:

عملية التفكير تشبه ممارسة الرياضة؛ فهي من الممكن أن تكون ممتعة لكنها تتطلب الالتزام. إن بذل الجهد كي نمارس التدريب بانتظام عمل شاق، خصوصًا في البداية، ويستلزم الوعي، وبالمثل فإن التفكير الواعي المتأمل يتطلب وقتًا وطاقة. و"الإهمال" الشائع، على الأقل بالنسبة إلى الشباب من الأصحاء، هو تنفيذ السلوك أو الفعل بثقة اعتمادًا على الخبرة ودون تدخل من الوعي ولو بالحد الأدنى. ويبدو أن الفعل يُنهي الأنماط العصبية التي حفّزته حتى يمنعها من التدخل في أي تحركات مستقبلية، ويساعد ذلك في منع هذه الأنماط من أن تصبح قوية بدرجة تجعلها تصل إلى حالة الوعي(٢١). إن المخ بطبيعته كسول ومتمرس في أن يعرف طرقًا أسهل لفعل الأشياء(٢٢)؛ فالجهد الذي يؤديه يحتاج طاقة "قيمة" وثمينة، وهو عضو متعطش لمورد للطاقة، وعملية التفكير يمكن أن تتداخل مع (أو تعوق) هذه المهارة المكتسبة وهذا التَمرس. فأنت عندما تركز على ما تفعله قدماك وأنت تمشي سيكون هذا أسلوب قد يجعلك تسقط فوقها، لأن التركيز على التفاصيل يُفسد بهجة الاسترسال، مثلما يفسد التركيز على تفاصيل الحبكة أو الأداء التمثيلي متعة مشاهدة "الفيلم"، ففي الحالتين تأتي المتعة من عدم التفكير، فقط أسبح مع التيار، سواء كان التيار من إيقاع خطوتك وأنت تسير أو من انسياب و"دوران" المؤثرات في قشرة مخك. ويتحدث الناس عن "نسيان أنفسهم" أحيانًا في لحظة ما، وأنهم جرفهم تيار سريان الأحداث خصوصًا عندما تكون هذه الأحداث مهمة بدرجة كبيرة وضغوط الفعل فيها شديد وقوي. والأفراد في أي تجمع، كبير، مثلاً. لا يفكرون بوعي فيما يفعلون، وفي الوقت ذاته قد يلجأون إلى تبريرات واهية تجعل الأمر أكثر صعوبة. إن بعض أفعال

البشر يُخطط لها بوعى ويتم التفكير فى توابعها وتقييم مخاطرها، لكن معظم الأفعال لا تتضمن مثل هذا التفكير المتمعن والمتعمد.

و"الوعى" الذى نمارسه خلال انسياب الفكر لا يبدو أنه مثل الوعى الذاتى التام؛ لكنه أساسًا شيء ملموس أو محسوس، ويسميه بعض الفلاسفة شعورًا أو "دراية"[٢٣]. وعلى العكس من ذلك؛ فإننا غالبا نكون أكثر وعيًا بأنفسنا باعتبارنا أفرادًا عندما يستدعينا لذلك فجأة واعز أو مأزق ما. وفى هذه اللحظة، بين إدراك المشكلة والبحث عن حل لها، تتصارع توقعات المخ مع "الأخبار" عن حقائق الواقع الخارجى فيتوقف سريان التيار الناعم للفكر مع انتفاضة تحقق الوعى بالذات. وبينما يُقال: إن سريان أو تدفق الفكر شيء ممتع، فإن توقفه ينشأ عنه صراع ذهنى قد يكون مصدر إزعاج غير سار. وإحدى مناطق المخ التى تتعامل مع هذا الصراع وتستجيب له هى القشرة الحزامية الأمامية فى المخ، وهى، كما أشرت فى الفصل السابق، تستجيب أيضًا للإحساس بالألم على الرغم من أننا لا نعرف إذا ما كانت الخلايا العصبية المفردة نفسها هى التى تقوم بتسجيل كليهما - الألم والصراعات[٢٤].

وعندما يحدث تصارع؛ فإن تأثير ذلك فى مستوى الخلية العصبية هو أن هذا الصراع يعترض سبيلها ويقلب المدخلات المتجهة من أعلى إلى أسفل (أى التى تشير إلى تنبؤات المخ) لتتعارض مع المدخلات المتجهة من أسفل إلى أعلى (أى التى تشير إلى الأخبار الحاضرة فى العالم الخارجى). وكما رأينا، ففى مثل هذه الظروف تستغرق هذه العملية وقتًا أطول لتعطى المخرجات.. ومع ذلك، فإن الإشارات تستمر فى الانسياب فى باقى أجزاء المخ لتصل إلى مناطق القشرة الخارجية، غالبا فى مناطق الفص الجبهى وقشرة الفص الجبهى، وتقوم هذه المناطق بدورها بإعادة إرسال الإشارات إلى مراحل سابقة فى المسارات التى تنظم

عملية الفكر كى تُقوى وتُحفز الخلايا العصبية النشطة وتُعوق أو "تغرق" الأقل نشاطاً[٢٥]. ويسرع ذلك عملية انتقاء من يكسب، فيساعد هذا فى تسهيل إعاقة الخلايا "الخاسرة". إن هذا الاتصال والتواصل مع التغذية المرتدة من تلك المناطق هو الذى يسمح للتنبؤات من المستويات الأعلى بما سيحدث بأن تتفاعل مع المدخلات الحسية. ومع وجود إشارات أخرى تصل إلى الفص الجبهى فى الوقت ذاته (كالإشارات التى تُحفز الاستجابة السريعة لعرض من بائع لحوح مثلاً)، فسوف تصبح بعض الخلايا العصبية فى الجبهة والفص الجبهى أكثر نشاطاً، وسوف تزداد فاعليتها فى فحص النشاطات بمناطق اخرى من المخ، فيقلل ذلك من المرور من مرحلة المدخلات إلى المخرجات، وتكلفة ذلك أن الإشارات الناشئة عن بعض شبكات هذا التشابك العصبى، والتى نشطت فى هذا السبيل، سوف تلعب دوراً أقل فى تحديد رد الفعل النهائى. ومعظم تلك الإشارات لا لزوم لها، ولذلك فالخسارة ليست كبيرة. ومع ذلك فبعض هذه الإشارات قد يحمل رسائل مفيدة لكنها لم تجد لديها الوقت لتجمع نفسها؛ حيث تكون مُدْركة وملحوظة- مثل بعض الذكريات عن آخر عرض عمل تلقيته ورغبت فيه لأنه جيد بدرجة لا تعقل.

ملخص وخاتمة:

يمكن تلخيص رسالة هذا الفصل فيما يلى:

العقول (الأدمغة) معقدة حقًا

لا، أنا أعنى أنها بالفعل معقدة. إنها أكثر تعقيدًا مما نتخيل وبدرجة كبيرة. أنا ليس بإمكانى أن أنقل لكم كم هى معقدة فهذا شىء بالغ الصعوبة. إن مجرد محاولة التفكير فى ذلك يدير رأسى.

وحتى نكون أكثر جدية، نقول إننا بدأنا نفهم قدرة الخلية العصبية وقوتها. وأحد الأمور التى تعلمناها أن عقولنا تملك وسائل ينشأ عنها تراكيب ذهنية مفرطة تفوق ما نحتاجه ونرغبه منها. إن أفكارنا ومعتقداتنا وملاحظاتنا ورموزنا التى نوقرها- والتى يبدو أنه من المستحيل تحديدها فهى كقبضة من الضباب، أو هى صلبة كحجر الجرانيت- لا بد أن يُعبّر عنها من خلال واسطة تتسم بالمرونة. وهذا الوسيط هو، فى الأساس، له سمة حسابية إحصائية، ومواطن المخ الساكنة المتبلدة ليست أشياء ساكنة بل هى أنماط من أنشطة الخلايا العصبية التى تقفز إلى الوجود استجابة إلى مدخلات ترد إلى المخ[٢٦]. إن قوة أى فكرة تتمثل فى أنها تجلب معها الاستعداد والتتابع الذى تأتى به إلى العقل، وأهميتها تتمثل فى سيطرتها على حياة الفرد، وفى مدى التغييرات الجسمانية التى تحدثها عندما يتكون هذا النمط أو ذاك بالذات (أى التغييرات التى يمكننا أن نفسرها على أنها الانفعالات أو العواطف).

وفى حالة المدخلات المعتادة والمألوفة يكون الاتصال بين نقاط التشابك العصبى بين الخلايا قويًا، والاحتمالات التى تشملها يمكن أن تكون مؤكدة بدرجة لا تُحْدث تصارعا أو اختلافًا بينها. إن رؤية وجه إنسان تحبه سوف تُحدث بالفعل عواصف من الإثارة فى المناطق المرتفعة من تعاريج المخ الرخوة، واللوزة، كمواقع التحكم فى العواطف، أو فى مناطق أخرى (إلا إذا كان مقدرًا لك أن تكون مصابًا باضطراب عصبى أو ذهان أو هذا المرض المرعب، الزهايمر- أو خرف الشيخوخة - فلن تشعر بهذه الإثارة)(٢٧). أما فى حالة المدخلات الأقل ألفة أو اعتيادًا أو كثيرة التعقيد، فإن احتمالات تذكر الأنماط الصحيحة التى يثيرها هذا "المحفز" قد تكون أقل، وقد تكون هناك فرصة أكبر للخطأ وعدم التأكيد أو الثبات مع مرور الوقت.

وأقوى الأنماط (أو الاستنباطات)؛ هى التى تمثل أمورًا مستقرة يتكرر حدوثها كالأنماط التى تدعمها وتدفع بها أشياء يمكننا رؤيتها ولمسها. وتلك هى الأمور المؤكدة التى نشعر بأنها حقيقية بل أكثر واقعية من العالم الواقعى نفسه. ويبدو أن الأنماط الأضعف تكون فى حالة "سيولة" أو غير مجسدة وملموسة، ومع ذلك فكل نمط "يفز" وينطلق مع الحركة الدوارة للموصلات العصبية المتشابكة نفسها، وبعضها ملموس أو غير ذلك. وهذا "الأثاث الذهنى"، إذا صح تسميته كذلك، تكون المقارنة أو "القياس" المناسب له هو أن بعض الأنماط يُمَثّل الإضاءة أو الجو العام، وبعض آخر هو الكراسى أو الستائر.

والهيئة العامة أو الأسلوب الإجمالى الذى تعمل به الخلايا العصبية هو أحد الأفكار الأصعب والأكثر إثارة فى العلم الحديث - كما أنه أكثرها غرابة وأكثرها جمالا- ولعلى أجازف وأثير ضجركم وبعث فيكم الملل؛ فأكرر ما سبق وذكرته مرة ثانية - إن استعارة تشبيه المخ باعتباره وسيلة حسابية للتخزين مثل

"الكمبيوتر" أو الحاسبات الآلية شيء مضلل، وبدلاً من قولنا إنه "خازنة ذهنية". فإن ما لدينا هو أن هناك ارتباطاً سببياً بين ذهننا والعالم الخارجي ينتج عنه- عموماً- أنماط عصبية متشابهة عندما نستقبل في ذهننا أحداثاً متشابهة. وهذه الأنماط (أو الاستنباطات) العصبية تميل بدورها إلى أن تولد استجابات سلوكية متشابهة. ونحن هنا لا نتكلم عن ثقة أو عن شيء مؤكد، مع أن معظم ما يدور في المخ يمكن اعتباره احتمالاً كبيراً بسبب ثلاثة ملامح مفيدة ومحددة في عالمنا:

١- لقد استقر على مدى الزمن في الطبيعة أن معظم الأشياء في العالم، من الأشجار إلى الموائد، تبقى موضوعة وثابتة معظم الوقت، لا تتغير أشكالها ولا أحجامها أو ألوانها فجأة، ولا تتحول إلى "كعكة" أو سوائل أو تتلاشى تماماً.

٢- إن أجسامنا وعقولنا، عموماً، تبدو متشابهة جداً. فعيون الكوريين، وأكباد أهل فيشي، وأعصاب أهل قبائل الزولو في جنوب إفريقيا، ومناطق التحكم في الذاكرة في عقول أهل لاتفيا، كلها تعمل بالطريقة نفسها مثل غيرها أو أمثالها في أمريكا أو هولندا أو غانا أو تايوان.

٣- كثير من المواقف التي تصادفنا ومعظم ما نفعله استجابة لها يشمل قدراً كبيراً من التكرار. كم مرة في هذا الأسبوع التقطت شيئاً من الأرض، أو تنفست، أو فرّشت أسنانك! وكذلك الروابط السببية التي تكمن أو تظهر باعتبارها ردود فعل على الملاحظات والسلوكيات.

ولقد تعلمنا أيضاً أن اتخاذ قرار الفعل، مهما كان نوع شعورنا أو إحساسنا به، ليس حدثاً فردياً تقوده وتسوقه خلية رئيسية منفردة، أو حتى لجنة تنفيذية مركزية من الخلايا العصبية. وخلافاً لما هو شائع، فإن كل شيء يتصل بالحس الإنساني لا تحدده بالضرورة قشرة الفص الجبهي، بما في ذلك عملية الاختيار.

إنك عندما تتنقل ببصرك على صورة أو لوحة فنية، تقوم مناطق عديدة في مخك بالتخمين مكررا ومرارا: "ما هذا الذى تنظر إليه"، وهى بهذا تتحرى ما شعورك تجاه هذه اللوحة، ثم تختار المكان، فى مجال رؤيتك، الأكثر استحقاقا لتركيز الانتباه عليه ولإمعان النظر فيه، ونقدر كيف أن حركة العين تجاه هذه النقطة ستؤثر فى الإشارات المقبلة من شبكية عينيك، ثم تُولّد الذكريات المرتبطة بما تراه، وستؤدى أيضا مجموعة من المهام التى لا علاقة لها بتقييمك للصورة أو تذوقك لها؛ كأن تساعدك فى أن تبقى منتصب القامة مركزا على ما تشاهده ولديك قدر من الحيوية. و"تترشح" وتُنقى الإشارات الواردة للمخ كى "تُنحّى" الضوضاء المصاحبة. بينما ينساب نشاط الخلايا من خلال المخ من منطقة إلى أخرى، ثم يعود مرة أخرى حيث يتحين الوقت الذى تقوى فيه لديك الرغبة و"النية" للحركة بالقدر الكافى الذى يدفع بها إلى الوعى، وفى ذلك الحين يكون اختيار نوع الحركة قد تم وتحدد.(٢٨)

والوقت عنصر فائق الأهمية فى عملية توليد السلوك، فالفرد المتنعم بوقت الفراغ ولا يرزح تحت ضغط ضيق الوقت ويتجه لاستكشاف بدائل للسلوك؛ غير الشخص الذى يقع فريسة للتوتر بسبب ضيق الوقت ويريد فقط إنهاء المهمة. فكل منهما ستكون لديه نماذج وأنماط من نشاط المخ متباينة ومختلفة بشدة. والأخير "المتوتر" سوف يستخدم الشبكات العصبية الأقوى المتاحة له أكثر من استخدامه لغيرها، ولن يلتفت إلى التشابكات الأضعف التى بينها تصارع. وسيكون من المحتمل أنه هو أو هى سوف ينجرف وراء النزعات الأولية. والاحتمال الأكبر هو أن يغفل أى معلومات عن النتائج والعواقب أو القوانين الأخلاقية، وأن يكون أقل ميلاً إلى الأخذ بمقترحات أو أوامر الآخرين. وسيقاومها، وأكثر ميلا لأن يبدى سلوكا نمطيا.. وهكذا، فإن من يشعر بأى تهديد قد يكون رد فعله عدوانيا حتى

عندما تتوافر له أسباب قوية وجيدة كى يقمع ويكبت رد الفعل العنيف لديه[٢٩].. وهنا إما أن يكون القمع ليس قويًا بالقدر الكافى لسحق الإشارات المحفزة على الفعل، وإما أن الكبت والقمع يأتى بعد فوات الأوان- أى أنه فى الوقت الذى تكون فيه الأنماط المثبطة والقامعة تتهيأ وتنشط يكون رد الفعل قد بدأ فعلاً. وليس مصادفة أن الضغوط والتوتر الشديد، سواء كان عاطفيا أو جسديًا وماديًا، يسبق بالضرورة أسوأ تطرف بالاتجاه إلى إقصاء الغير وإلى القوة .

كما أن العلم المتكرر بهذه الممارسة يُسَرع من الأفعال بأن يقوى الأنماط العصبية الكامنة ويجعلها أسرع وأصعب من أن تُكْبت. والأمثلة على ردود الفعل "المبرمجة" هذه تكون فى رد الفعل تجاه التهديدات وعند ممارسة الصيد أو الجنس، فهى أمور تملك مثل هذا التأثير فى السلوك لدرجة أنها تستطيع أن تثير ردود فعل تلقائية وآلية، حينئذ تصبح المسارات القصيرة والسريعة من خلال المخ مستخدمة بكثرة؛ بينما يقل استخدام المسارات الأطول بشكل عام، كما لو كانت الإشارات العصَبية قابسات كسولة متمرسة على اختيار الطريق التى تقل فيها المقاومة لأقصى درجة.

وعلاوة على ذلك؛ فإن قدّر سهولة "السفر" فى هذه المسارات يعتمد على من الذى سوف يسافر فيه وأيضا على المسار نفسه، فالحافز الذى يُنّشط نمطًا كان نشيطًا بالفعل يمكنه الحصول على رد فعل أسرع أكثر من الحافز الذى يتحتم عليه تحريك الخلايا العصبية "النائمة"، أو أن، وهذا هو الأسوأ، يقمع ويثبط المنافسين النشطاء. وقد أظهر البحث العلمى أن تنشيط الأنماط العصبية قبل وجود حافز أو "مثير" بأن "تلقن" وتربك من كان دوره غير مُدْرك بالحس والعقل، فإن ذلك يمكن أن يعطى تأثيرا أقوى يدفع السلوك ويجعل رد الفعل أسرع[٣٠]. أما بالنسبة إلى الوازع الأخلاقى، مثلاً، فإن ذلك يعنى أنه ما لم تكن الأنماط القامعة نشطة فى

أثناء كون الحافز فى مرحلة الاستعداد و"التحضير"، فإن هذا الوازع لن يكون لــه صوت فى "اللجان العصبية"؛ ولذلك سوف يفشل فى التأثير فى قرار الفعل.

وهناك اثنان من المعانى الكامنة يستحقان الأخــذ فــى الاعتبــار. أولاً: إن الرجل قد يملك كل ما يمكن أن يعطيه له المجتمع من تربية أخلاقية، وقــد يُبــدى تفهمًا واضحًا للمبادئ الأخلاقية الحاكمة لثقافته، وربما يتصرف بحنان وطيبة مــع من حوله، ومع ذلك يصبح ممن يعذبون الغير أو يكون قاتلاً. وقد يــتعلم بالفعــل كيف يقتل الأطفال الرُضّع دون التخلى عن أخلاقياته، مع أنه لو تعمق فى التفكيــر وتدبر الأمر قد يجد أنه من الصعب أن يُعّدل من نفــسه ويعــود للعــيش الــسوى المألوف فيما بعد، فالتعاليم الأخلاقية لا جدوى ولا فائدة منها إذا لم تُفّعل ويُعمل بها وتكون مشاركتها فعالة ونشطة عند اتخاذ قرار الفعل.

ثانيًا: إن تنشيط جزء من نمط (أو استنباط) عصبى؛ يزيد من إحتمال تنشيط جميع أجزاء هذا النمط، وذلك مهم لأن الحديث عن فعل شيء معين أو تخيل فعله، أو مراقبة شخص يفعله أو القيام بفعله بنفسك، كل ذلك يتــضمن أنماطــا متداخلــة تستخدم المناطق نفسها فى المخ(٣١). وتبعًا لذلك، فإن إقصاء الآخر، ولو بشىء من الاعتدال، يُجّهز الناس ويؤهلهم للعدوان، سواء شجعهم هذا بوضوح أو لم يشجعهم على أن يسلكوا سلوكًا عدوانيًا. وعند التفكير فى فعل شىء قاس؛ فإن ذلــك يعنــى اتخاذ خطوة فى سبيل إقصاء الآخر ما يؤدى إلى السلوك القاسى، وسواء اتخــذت الخطوة التالية أم لا فذلك يعتمد على الطريقة التى سيكون فيها رد فعــل الــشخص على فكرة كونه قاسيًا؛ فقد يتقبل الفكرة بلا جدال على أنهــا فكرتــه هــو، بذاتــه وطبيعته، كجزء من دوامة نشاطه الذهنى الدائم الذى يشعر بأنه سار، أو لــم يعــد غير سار، كأى عمليات ذهنية يومية. وإن كان الأمر كذلك، فستكون هناك "مناقشة" محدودة بين الخلايا العصبية تميل بالاستنباطات العصبية الكامنة تحت الفكر إلى أن

تقوى، وعندما تنشط وتثار بعد ذلك سيكون الشخص أكثر استعدادًا لأن يعبر "عتبة" هذا التفاعل إلى التعبير اللغوى.. ربما للأصدقاء المقربين أولاً، ثم بصراحة وتوسع أكبر. إلى أن ينشرها عبر الشبكة الدولية للمعلومات فيمتدحه الآخرون. ممن يماثلونه فى الفكر. على ما فعله.

ومن جهة أخرى، لو كان الفكر يثير مشاعر غير سارة و/أو يُحدث تنشيطًا مصاحبا لأنماط عصبية "غير ذاتية"، فإن تصارع الخلايا العصبية الناتج عن ذلك سوف يدفع بإشارات مثبطة وقامعة من مناطق أخرى فى المخ؛ كى تعترض سبيل انسياب الفكر حتى يُصَفى التصارع (والقياس الواقعى لعمل هذه الإشارات المخية يماثل من يمد قدمه كى يمنع مرور شخص ما). وعملية تصفية الصراع هذه إما أن تصف الفكر بأنه مقبول للنفس ويتوافق مع الذات وتُصدر حكمها بأنه داعم شرعى وقانونى لسلوك الفرد، وإما أن ترفضه باعتباره غير شرعى "وغير ذاتى".

وإذا تم التعبير عن إقصاء الآخر أو تم تنفيذه، فهذا ما يجلب جزاءً اجتماعيًا سريعًا (سواء كثواب أو عقاب)، وسوف يصبح ذلك مقترنًا بالتوتر والإحساس المقلق بالصراع العقلى، ما يؤدى إلى قمع الأفعال المستقبلية (لأن التفكير فى إنجازها غير سار). وكل خطوة نحو إقصاء الآخر، عندما نواجهه للمرة الأولى، غالبًا ما تتضمن اختبارًا مبدئيًا للحدود الاجتماعية: هل هذا الفعل سوف يجلب عقوبة أم مكافأة؟ كما أن كل خطوة سوف تُبْنى على ما تم مكافأتها بالفعل؛ حيث إن كل مكافأة جديدة أو عقاب سوف تقارن مع "وزن تراكمى" من عوامل الشعور بالارتياح- أى المكافآت التى تعوّد الفرد توقعها. ونتيجة لذلك ستكون المكافآت والعقوبات التالية أقل فاعلية كلما ازداد إقصاء الآخر، وكما هى الحال فى العادات السيئة، فإن فساد الأخلاق يكون إنهاؤه بأقصى سهولة إذا تم فى بداياته وبأسرع ما يمكن.

ولأن الأفعال المتقاربة تسببها أنماط ذهنية متداخلة، فإن التنشيط المتكرر لفكرة إقصاء الآخر، حتى ن تم باعتدال، يطلق السلوك المتهور بشدة مفرطة. ويفسر ذلك سبب الاستعداد السريع للمجرمين الذين تعرضوا لإقصاء الآخر لعدة سنوات دون ارتكابهم أى أعمال عنف، من أجل القتل، مثل "الرجال العاديين" الذين وصفهم كريستوفر براوننج "**Christopher Browning**"(٣٢). ويفسر ذلك أيضًا لماذا يلجأ الناس الذين اعتادوا على ثقافات العنف، مثل أعضاء العصابات أو جماعات الخمير الحمر، إلى القتل لأسباب بسيطة وتافهة، من وجهة نظرنا. إن تقبل المجتمع للعنف ولفكرة إقصاء الآخر هو الذى سهّل التعديات المهلكة للقتلة (٣٣).

ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن الأفعال الطوعية والإرادية يصاحبها اختيار حر واضح من جانب الفاعل، كما لو كان هو /هى قد جلس فى ركن هادئ وكتب قائمة بما يؤيد أو يعارض فعله قبل أن يقرر الإقدام عليه من عدمه. ويكون التأكيد على هذا الاختيار المنطقى العاقل قويًا بصفة خاصة عندما نفكر فى مرتكبى جرائم القسوة، وقد نقنع أنفسنا بأن أسباب عدم الإقدام على تلك الجرائم كانت أسبابًا جبرية وقوية بدرجة تجعل العقلاء من الناس يمقتونها ويحجمون عنها، فماذا يمكن أن يكون أقوى من التفكير فى الدم، الصراخ، التقمص العاطفى (أو الشعور بالآم الغير) والرفض الأخلاقى؟

والإجابة عن هذا، لسوء حظ الضحايا، هى أن كل أنواع الدوافع، من الخوف إلى الطمع أو الاضطرار إلى بدء الفعل، يمكنها أن تتغلب على موانع الفعل عند شخص ما بصفة مؤقتة أو إلى حين، إلا أن الاختيارات التى تقود إلى أفعال القسوة، مع أنها حرة، قد لا تكون دائمًا واضحة، سواء للفاعل أو للآخرين. ويعنى ذلك أن الإشارات اللازمة للتحفيز على الفعل ربما لا تكون واضحة بالقدر الكافى، فيما يختص بالخلايا العصبية، حيث يمكن تذكرها- وربما يكون قد تم تبريره بشدة

سلفا وقبل الفعل. وعندما يكون هذا الشخص واقعا تحت ضغوط قوية، مثلما هى الحال غالبا مع المجرمين، ومع المتطلبات السريعة للموقف التى تمنحه حافزا على الفعل، والتى تسيطر على "التحاور بين الخلايا العصبية"، فإنه لن يكون لديه الوقت أو الميل للانتباه إلى هذه النوازع المتصارعة خصوصا إذا كان التردد، أو الارتياب أو وخز الضمير سوف يجلب السخرية منه أو الغضب الجماعى عليه. وفى هذا المناخ من المواقف الضاغطة (الخوف من عصيان الجماعة مثلاً) يمكن أن يكون التأثير أكبر مما هو معتاد، وأن تكون الدوافع المألوف اعتبارها فى الحياة اليومية "أفكارا سيئة"؛ مؤهلة لأن تتعاظم بطريقة تذهل كلاً من المجرم والمشاهد.

إن مخاوف من يطالبون بـ "التخفيف" وعدم الإسهاب فى تفاصيل علم دراسة الجهاز العصبى؛ أساسها فقط عدم القدرة على فهم تعقيدات وظائف المخ. فالانتقاص من قدر الإنسان واعتباره دمية تحركها خيوط المحفزات والدوافع لا بد أن يُشجب أخلاقيا، ولكن هذا ما لا يفعله علماء دراسة الجهاز العصبى – وإن كان كثير من الحكومات يودّ فعله.. وكلما زاد علمنا عن "العقول"؛ أذهلتنا تعقيداتها واضطررنا إلى مواجهة تغيراتها وتقلباتها، وكلما أبهجتنا هيئتها وتركيبها ومهامها، وروعتنا قدرتها على أن تبرر تفرد الإنسان عن كل المخلوقات. ولكنها كل ذلك؛ فهى "المادة الخام" التى تتيح لطفل رضيع أن يُحَول نفسه ليصير "غاندى" أو "ستالين"، أو أنت ذاتك. إنك إذا أردت توجيه "رسالة" تحتاج صوتا، وإذا فكرت فيها يلزمك ذهن متقد وفعال، لكن هذا لا يعنى أن الرسالة هى مجرد "موجات صوتية" أو جهد تطلقه الخلايا العصبية. فهى لها معان: شكر، لعنة، أو وداع. ويعتمد أى معنى من هذه المعانى عليك وعلى ظروفك – أى على عوامل داخل أو خارج نطاق المخ.

ومن ثم فإنه يجب علينا فى الفصل التالى أن نبحث فيما وراء "الجمجمة" لنتفكر فى "شبكات المعانى" التى تمثل نسيج كل المخلوقات البشرية، وهى شبكات اجتماعية ورمزية تستمد قوتها على "تقييدنا" من حقيقة أنها جزء منا، هى ما نقول وما نفعل، والرموز التى نوقرها، والأدوار التى نلعبها، وكلها تحدد هويتنا باعتبارنا بشرًا. فكما تحدد أجسادنا وجودنا المادى باعتبارنا كائنات حية مستقلة – قد تتوحد أحيانًا بالتعاطف أو المحاكاة أو العناق الحانى أو الجنس– كذلك فإن معتقداتنا التى تحتل مشهدنا الإدراكى والمعرفى، وطريقة إحساسنا بها، تحددنا بصفتنا نظراء من الرأى والتفكير نفسهما أو مختلفين، فتوحدنا معًا أو تجعل كل منا منفردًا وبمعزل عن الآخرين. وكلنا متحفز للدفاع عن نفسه فى مجابهة التهديدات، سواء كان معنى "النفس" ماديًا أو عمليا. لكن بينما يكون التهديد المادى واضحا للجميع، فإن التهديد بمعناه الرمزى موجها لنا ولكل من يعنينا أمرهم ونهتم بهم.

وكى نحل لغز أسباب القسوة، علينا أن نتحرى كلا من المعتقدات والعواطف، فالمعتقدات تبنى العلاقات المحيطة بالقسوة وتتحكم فى رغبات الفعل لدى مرتكب الجرم.. أما العواطف فإنها تدعم الحافز للفعل، فهى القوة الخلقية وراء كل فعل يتسم بالقسوة، لذلك علينا أن نبدأ بهما.

الفصل الخامس

كيف تتكون لدينا المشاعر والأحاسيس؟

نحن نسمع تكرارًا الذين يتكلمون ضد المشاعر ممن يجيدون الخطابة ولا يحسنون التفكير ويغفلون أن هذه المشاعر هى التى تزودنا بالشرارة التى تضىء مشكاة الفلسفة

من رواية جولييت للكاتب الفرنسى "الماركيزدى ساد" (١٧٤٠-١٨١٤)

"الحكاية" حتى الآن:

لقد بحثنا فى الفصل الرابع كيف يُحدث المخ السلوك، وصورنا وظيفة المخ على أنها مد وجزر فى نشاط الخلايا العصبية فى مواصلة لأداء سلس وفعال. ويتيح لنا ذلك أن نشهد "الاختيارات" كأمور لا تحدث فى موضع فاصل وحاسم (حيث تتدخل "الروح" لتجعل الخلية العصبية الأهم والأقوى تتوهج وتنطلق)، ولكنها أمر ينشأ عن التفاعل بين العديد من "اللجان العصبية" بالمخ. ويتم حل النزاع بين الإشارات العصبية المتصارعة بواسطة الترشيح (التصفية) والكبت (القمع)، حيث تنتصر الإشارات الأقوى وتقمع الإشارات الأضعف فى كل مرحلة من مراحل العمليات بالمخ. ويمكن للتعلم والمعرفة والضغوط والتوقعات المسبقة

(بسبب "شحن" الشخص مقدما، مثلاً) أن تُسهّل ردود الفعل والاستجابة أو أن تجعل استدعاءها أمرا صعبا.

وفى أى لحظة من خلال من عملية اتخاذ قرار الفعل (أو عدم اتخاذه)، توجد أنماط عديدة من النشاط فى الخلايا العصبية وتكون هى مشغولة فى تصفية الاختلافات بينها، فبعضها يكون مرتبطا بإشارات مُيسّرة (مؤيدة للفعل) وبعض آخر مرتبط بإشارات قامعة وكابتة (ضد الفعل)، مع أنماط أخرى لا صلة لها بما يجرى فهى محايدة وتمثل فقط خلفية من "الضوضاء". وبصورة تقريبية نقول: إن الأدمغة تُقدر مدى القوة الخاصة بالإشارات المُيسّرة والقامعة فى نوع من الانتخاب الذى يحدد النتائج والمخرجات؛ وكى نفهم قرار فعل القسوة نحتاج إلى التفكير فى التفاعل بين الإشارات المؤيدة والمعارضة له. وفى توقيت مرور هذه الإشارات خلال المخ. فهذا التوقيت يعتمد على التأثير الخاص بهذه الإشارات وقوتها. وهناك عوامل عديدة يمكنها تغيير قوة الأنماط العصبية. لكننا سوف نركز على واحد فقط من أهم هذه العوامل فى هذا الفصل؛ وهو العاطفة.

مصادر القوة:

سوف نعود إلى مفهوم "القوة" عندما نبحث فى "المعتقدات" (فى الفصل السادس). أما الآن، فيكفينا القول إن قوة وسطوة أى نمط من نشاط الخلية العصبية تُكسبه سمة بروزه وتميزه وأهميته بالنسبة إلى الشخص الذى "تتموج" هذه الإشارات فى رأسه، وهذا بدوره يعكس إصرار ووضوح مدخلات الإشارات التى تولد هذا النمط، ومن ثم كل ما يدور فى المخ فى هذا الوقت. ويُظهر البروز والتميز أيضا مدى ثراء أو ضعف الترابط بين نمط ما والأنماط الأخرى؛ فالأنماط

مثل الناس بعضها له صلات جيدة بالآخرين وبعضها مُهَمش اجتماعيـــا. وعـــلاوة على ذلك؛ فإن "البروز" يعتمد على نوع الصلة- أى على مصدر النشاط العصبى، فهناك ثلاثة أنواع من المصادر: العالم الواقعى، المخ، الجسد.

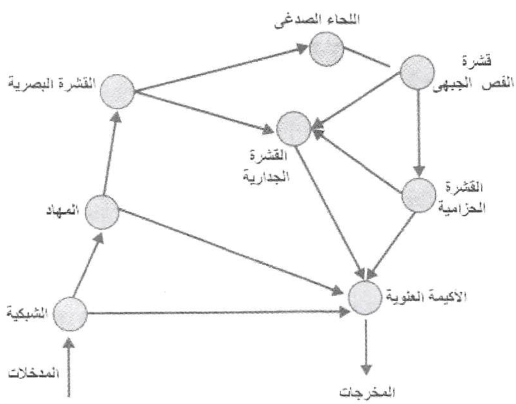
العالم الواقعى:

تستجيب أعضاء الحس المحيطى لدى الفرد إلى وجود أشياء خارج جـــسده. فتلتقط خلفية أعيننا الضوء، وتنثنى خلايا شعرنا اللولبية فـــى تيـــارات الموجـــات الصوتية. ويمتلئ جلدنا بـــ "آلات" من الخلايا الدقيقة لتصدر الإنذار عندما نحتـــرق أو نُثار من ضرب أو خدش أو كشط يُدْرك بهذه الحواس. وتكمل الصورة التقليدية للحواس الخمس حاستى الشم والتذوق بكل ما تملكانه من مُسْتقبلات كيميائية حاذقة فى تحليلات الأنسجة والتراكيب.. وكل هذه الحواس تزود الخلايا العصبية داخـــل المخ بإشارات خارجية. وتتعقب الاستنباطات الناتجة عن نشاط المخ، والتى تعتمـــد بصفة أولية على هذه الإشارات، تلك الحقائق عن العالم الواقعى بأحكـــام وتتغيـــر بسرعة كلما تغيرت الإشارات. حيث تبقى نماذجنا الواردة مـــن العـــالم الـــواقعى مواكبة لأحدث لحظة.

المـــخ:

المصدر الثانى للنشاط والإثارة الواقعة على الخلايا العصبية؛ هو المدخلات من الخلايا العصبية الأخرى داخل المخ. فعلى سبيل المثال، قد تستقبل خلية ما فى القشرة البصرية الأولية إشارات من الخلايا العصبية فى النواة الحزاميـــة الجانبيـــة بالمهاد، فتأخذ بدورها هذه الإشارات "المقبلة" من ســـطح شـــبكة العـــين بواســـطة

العصب البصرى (انظر الشكلين ٣،٦). وبالعامل العددى، تُكّون الإشارات من الخلايا العصبية الأخرى نسبة أكبر وعددًا أكثر من الجميع، وحتى فى بداية هذه المنظومة المنبثقة من الحزام الجانبى بالمهاد تقول التقديرات إنه مقابل كل نقطة من نقاط الاشتباك العصبى التى تُرسل المعلومات من العين إلى المخ تكون هناك عشرة من الروابط والموصلات التى ترسل تغذية مرتدة من مناطق بالقشرة الخارجية للمخ تحمل معلومات من المخ إلى المهاد[١]. وما يحدث هنا هو شىء مُتحكم فيه، وتجرى فيه تعديلات، ويتم تفسيره قبل أن نبصره (أو ندركه) بكثير.



شكل رقم (٦): رسم تخطيطى يبين المناطق الرئيسية للمخ والمرتبطة بتكوين الحركة (والنموذج المرسوم هنا عن الحركات السريعة للعين التى تعرف باسم اختلاج/رف العين) وتنشأ الحركة المفاجئة للعين عن طريق مسارات لمدخلات ومخرجات متداخلة، وكل منها أطول وأعقد من سابقتها (والشكل المرسوم هنا مبسط جدًا)، والمناطق التى تبدأ بها المراحل الأولى (مثل القشرة البصرية) تتأثر بشدة بالمدخلات الحسية، أما المناطق الخاصة بعمليات أعقد (مثل القشرة الحزامية)؛ فإنها تتأثر بصفة أكبر بالمعلومات الواردة من المناطق الأخرى بقشرة الدماغ.

وتحدث أسرع الحركات بالعين، عندما يُثار سطح الشبكية بالضوء فترسل العيون إشارات إلى المهاد، فيتصل بالأكيمة العلوية مباشرة. ومن الممكن أن يطلق هذا حركة فى العين إذا كانت الإشارات قوية بالقدر الكافى (مثلا إذا كانت الإثارة مباشرة أو كان الشخص متوقعا لها ويعرف مسبقا أين ينظر)، ويكون اختلاج العين أبطأ وآليا أيضا عندما لا تستفز الإشارات الواردة من الشبكية الأكيمة العلوية فورًا. وستكون المعلومات المُرَحلة من المهاد إلى القشرة الدماغية لديها الوقت لتصل إلى مناطق القشرة البصرية، وسوف ترسل القشرة الجدارية أيضا إشارات إلى الأكيمة العلوية إما لتدعم وتقوى (ربما لتحدث حركة) وإما لتُعدل اختيار هذه المنطقة بخصوص مكان حركة العين التالية. وفى الوقت نفسه؛ فإن المناطق الجدارية أيضا ترسل إشارات إلى مناطق فى الفص الجبهى والفص الصدغى، بما فى ذلك القشرة الصدغية التى تتعرف على الأشياء مثل القشرة الحزامية وقشرة الفص الجبهى.. وكلها تضيف "صوتها" بدورها للاستثارات العصبية بالأكيمة العلوية، وسوف يتيح ذلك وقتا كافيا لاتخاذ القرار، والاختلاجات التى تستغرق كل هذا الوقت كى تحدث تكون طوعية واختيارية، ويمكن أن تُعاق أو توجه وبينما نتتبع المسار قوسى الشكل المنظم لسلسلة العمليات المتعاقبة من التحفيز حتى ردود الفعل، عبر القشرة البصرية والجدارية والجبهية، سوف نكتشف أن تأثير المدخلات الحسية يضمحل باضطراد. وتصير الخلايا العصبية التى فى المناطق "الأعلى"، مثل قشرة الفص الجبهى والتعرجات الحزامية المرتفعة فى المخ، تحت قيادة متمهلة طليقة وأكثر تحررًا، وتتأثر أنماطها المنطلقة كثيرًا بالإشارات المقبلة من مناطق أخرى (داخلية) بالقشرة الدماغية.

والاستنباطات أو الأنماط التى تعتمد على إشارات من خلايا عصبية أخرى (بالداخل)؛ لا تتعامل مع أحوال العالم الخارجى، وإلا كانت بدلا من ذلك تتعقب

أو تسير على هدى أمور نظامية قياسية فى المحيط الاجتماعى خاصة بسلوكيات غيرنا من الناس، مثل معانى الكلمات المستخدمة أو حالة التسلسل الهرمى للطبقات بالمجتمع، وهذا ليس شيئا واضحًا ومكشوفًا بالمعنى المادى الذى تبدو فيه النار أو الأحجار واضحة، لكن النار والأحجار توجد مستقلة بذاتها حتى إن كانت تتمثل كحقيقة لنا فقط عندما تثير أنماطًا للنشاط والسلوك فى عقولنا. وكلما كانت بيئتنا ثابتة وراسخة ويمكن التنبؤ بها، كانت الأنماط التى تطلقها "ملامحها" أقوى، وكلما اعتبرنا هذه الأنماط حقيقة مؤكدة. (بالطبع حتى نبلغ الرشد ونتعرف على الفلسفة والعلم؛ وحتى حينئذ، فإن الشك الذى يهمس به هذان المعلمان المزعجان فى آذاننا من النادر أن يُحدث شيئًا أعمق من الشك فى أن المعرفة الحقيقية غير مؤكدة). وسواء كانت الأمور القياسية التى تتعقبها الأنماط راسخة أو ملموسة أو واضحة فى الأفكار فقط، وفى الكلمات، والأفعال، فإننا ننحو نحو اعتبار الأنماط القوية دليلاً وشاهدًا على حقائق راسخة يمكن التنبؤ بها.

وغالبًا ما تكون هى كذلك، لكن ليس دائمًا؛ فإن الافتراض بأن القوة تعكس الحقيقة من الممكن أن يكون مضللاً، لأن القوة يمكن أن تأتى من مصادر أخرى غير المراقبة الحساسة لعالم هادئ مستقر بالذهن. والعواطف القوية قد لا يكون لها أى علاقة بالأساليب والأحوال القائمة بالعالم الخارجى، كما سوف نرى، غير أن هذه العواطف يمكنها أن تجعل أى اعتقاد يبدو حقيقة أبدية، حتى إن كان حماقة لها خطرها. وبطبيعة الحال؛ فإن نظرية النشوء والارتقاء (التطور) لا علاقة لها باهتمامات علم الوجود إلا فيما يؤثر فى "التكيف" والملاءمة، فلو أن التأثيرات السلبية لقدرة العواطف على أن تدفع بفعل وقائى كانت أكيدة؛ فسوف تقوم الأفكار مقام الحقائق، وما أهمية ذلك مادامت الجينات متوارثة؟ ولم يكن هذا مهمًا فى

معظم أحوال تاريخ الإنسانية، لأن العواطف أيضًا كانت مرتبطة بشدة بالمواقف التى أثارتها؛ إلى أن تعلمنا أن نحب الأفكار ونحميها وندافع عنها.

ولكن هذا ما سوف نتناوله فى الفصل السادس. أولاً، يجب أن نبحث فى المصدر الثالث لمحفزات الخلايا العصبية، وهو هذا النبع الفياض من المشاعر والأحاسيس، الجسد.

الجسد:

نحن نميل إلى الاعتقاد بأن حواسنا تستخلص المعلومات من "هناك"، لكن "الأخبار" التى من "هنا" لها الأهمية نفسها، فأبداننا مليئة بأجهزة الإحساس التى تزودنا بهذه المعلومات و"الأخبار". وتسكن بعض هذه الأجهزة داخل عضلاتنا لتخبرنا أين يوجد جسدنا وكيف يتحرك، أو تسكن فى الأعضاء التى بداخل "دهاليز" الأذن الوسطى، والتى تحفظ توازننا الجسمانى، إن لم يكن توازننا النفسى. كما أن بعض الأجهزة تندس فى الأعضاء الداخلية للجسم، لتدير مهامها حيث يستطيع المخ أن يُغيِّر وسائله وقدراته من منطقة إلى أخرى إذا لزم الأمر.. من الأحشاء (الجهاز الهضمى) إلى الأعضاء مثلاً (ففى حالة الطوارئ تكون الأولوية للحركة الفاعلة بدلاً من الهضم الفعال). ويقوم المخ بتجهيز وطرح المعلومات عن كل هذه الأمور.. مكونات الدم ومحتواه، تصرّف جهاز المناعة، مستويات المواد الكيميائية فى أنسجة الجسم، ومحتويات الأمعاء.

ونحن نميل أيضًا إلى أن ندرك هذه الأمور فى حالات وجود إفراط أو خلل ما، عندما تدخل السموم فى مجرى دمائنا بسبب طعام سيئ ويستدل المخ عليها، مثلاً، وهذا ليس بالأمر البسيط كما يبدو، لأن المخ حينئذ يملك حدودا محنكة

ومعقدة للمراقبة؛ وهى "حواجز" تتعامل مع الدم كى تحمى ثروتنا الثمينة المعرضة للهجوم من تأثير المواد الكيميائية الضارة. ومثل أى نظام أمن، فإن "حواجز" المخ تجاه الدم يتحتم عليها أن تُحدث توازنا بين حفظ الأمن والحاجة إلـــى المعلومـــات. فيجب عليها درء الخطر عن خلايا المخ الدقيقة والضعيفة، إلا أن المــخ يجــب أن يتزود بالمعلومات عن وجود تهديد كى يُطلق وســائل الــدفاع بالجــسم. فــالقىء والإسهال، مثلاً، يساعدان على التخلص من الطعام الذى بالأمعـــاء والـــذى كـــان مسئولاً عن التسمم؛ ويُطلق الجهاز المناعى إنذارًا بالخطر ويدير غالبية "المعركة"، لكن عمل المخ الأساسى يدل على أن حواجز الدم بالمخ لا يمكن أن تحقق فاعليـــة كاملة فى دفع هذه الأشياء الضارة خارجه.

ويتولى "الاصطفاء الطبيعى" حل مشكلة التخلص من هذه الأشياء؛ بأن يُطوِّر مناطق متخصصة مثل "الباحة المنخفضة" بالمخ، وهى قطاع من النسيج العــصبى يمتد خارج حاجز الدم فى المخ، ليسمح لها بالتعامل مــع محتويــات تيــار الــدم، وبالتعرف على التغييرات الضارة الكامنة فيه، وبالاستجابة بناء على ذلك بالنتــائج الملائمة التى تتعلق بالمعدة والأمعاء معا- ودون أن تتعرض ســلامة المــخ لأى خطر مهلك. وبمجرد أن تنشط الباحة المنخفضة بالمخ فإنها ترسل إشــارات إلـــى مناطق فى قاع المخ (النخاع) لها اتصال مباشر بالمعدة، ولهــذه الــدورة فعاليـــة رائعة، فهى تزيل مصدر التلوث بسرعة ودون الحاجة إلى "استشارات" مُطوَّلة مع "الإدارة العليا" (على الرغم من أن تقارير قد ترسل إلى مناطق بقشرة المخ، مثــل الجزء الجزيرى الذى يُنظم الإشارات الــواردة مــن الأحــشاء). وتُقــدم الباحــة المنخفضة بالمخ مثالاً مذهلاً على حل المشكلات الخاصة بالتطور، إلا أن كل مـــا نعرفه أننا "تنقيأ" وأن هذا هو الحل.(٢)

وبالإضافة إلى الإشارات الواردة من الأحشاء، يستطيع المخ إرسال إنذارات داخلية خاصة به استجابة إلى الإشارات الخارجية، فهناك "تجمعات من الخلايا المتخصصة فى قاع المخ تقوم بإرسال "شعيرات" خلال القشرة الخارجية للمخ والقشرة الواقعة تحتها، وعندما يُنشط هذا "النظام الاحتراسى" ينشر جهاز الإرسال العصبى بالمخ مادة "نورادرينالين" - (وهى مادة قريبة جدا لأشهر هرمون بالعالم - هرمون التوتر - الأدرينالين)، ويجعل ذلك الخلايا العصبية تنطلق فى سعادة- فتكون أكثر من المعتاد حساسية للإشارات المقبلة من داخل المخ، وبذلك تكون قدرتها أفضل على الاستدلال على الحفيف الرقيق لأوراق شجيرة صغيرة أو أى حركة ظل قد تشير إلى هجوم وشيك الحدوث[٣]. ولسوء الحظ، فإن التهديدات فى عالم اليوم المزدحم كلها جديدة وعديدة، والمعتدون والنهّابون متنوعون وأكثر خبثا ومكرا، وكثير منا يشعر بأنه يحيا بـ "بنظام احتراسى" مزمن ويعمل بنشاط على نحو مفرط.

وأنشطة الإنذار الاحتراسى هذه تشبه كثيرًا الإشارات من داخل الأحشاء بالجسم، وكلاهما ينبع من الداخل، وله تأثيرات واسعة المجال وغير محدودة وتميل إلى التريث (فهى تنبه المخ كله وليس مناطق قليلة منه فقط). وهى لا تتطلب مؤثرًا أو محفزًا خارجيا كى تُطلق إشاراتها، (فالبشر بإمكانهم أن يزجوا بأنفسهم فى دوائر القلق عن أحداث لا وجود لها لكنها محتملة فقط). وهذه الإشارات العصبية الداخلية هى التى نفسّرها على أنها "عواطف"، أو مزاج، أو مشاعر (لكننى سوف أجمعها معا باعتبارها "عواطف"، مع الاعتذار للصفائيين المدققين - أى أصحاب المذهب الصفائى). وعندما نواجه لحظة الاختيار بين أن نؤذى أحدا أم لا، فإن العواطف هى التى تزن مبرراتنا وأسبابنا للقيام بالفعل (الإيذاء) بشىء من الترجيح "ذى الثقل"، حيث لا يمثل الذوق العام والفطرة السليمة، أو حتى احترام الذات، مانعا قويا إزاء ارتكابه. وإذا سئلنا عن ذلك فيما بعد نقول إن السبب هو عاطفة

قوية: "ضربته أنا أولا لأننى كنت خائفا مذعورا". إلا أن العواطف ليست بمثل هذه البساطة، إنها يمكن أن تكون واضحة وضوح البرق وقوية بدرجة مذهلة؛ لكنها من الممكن أيضا أن تكون مراوغة ومخادعة جدًا وتعريفها خاطئ لدرجة أن الشخص يمكنه أن يقول: "ليس لدى أى فكرة لماذا فعلت ذلك"، ولن يكون كاذبًا.

ومن السمات المحيرة للعواطف أنها متنوعة وأسبابها متباينة، فهى إما تتبع إشارات من الجسم أو العالم الخارجى، وقد تكون الأحداث الحقيقية والزائفة هى التى تحركها من خلال حواس وتخيلات متعددة؛ فقد يشمئز الفرد من إحساسه بابتلاع محارة رخوة، أو من رؤيتها، أو من سماع شخص يأكلها بصوت مقزز أو من مجرد التفكير فى أن هذه الكتلة الزلقة قد تسبب له غصة أو "شرافة"، وعندما يواجه الشخص نفسه تحديًا ما فإنه قد يشعر بغضب غامر، أو ينتابه الخوف، أو التوتر، أو كل هذه المشاعر الثلاثة وأكثر منها. وكم هو عدد المرات التى نصادف فيها مشاعر غير محددة أو مختلطة، سواء فى الحياة الواقعية أو فى قصة أو رواية، فنحس اضطرابا واهتياجا فى المشاعر، أو بدوافع قوية، أو ما يشبه ذلك؟ وكيف يمكن أن تكون العواطف متحكمة فى أجسامنا بقوة وتكون أيضا غامضة ولا يمكن الإفصاح عنها؟ وحتى نجيب عن هذه الأسئلة، فنحن نحتاج أن نعرف أكثر عن كينونة العواطف وماهيتها.

ما العواطف؟

- وما العواطف؟ ما كُنْه العواطف العاطفة؟

توجد العواطف فى كل ما نعرفه من ثقافات إنسانية. ويمكن "لفروعها" وتشعيباتها إما أن تُثْرى وإما تدمر حياتنا، فنحن دونها قد نصبح مخلوقات معوقة عن النمو والتطور الطبيعى بصورة مخيفة، إلا أن كثيرا من ذوى الفطنة والذكاء

المتقد يعتبرون العواطف فى مستوى من التقدير قد يمنحه العامة منا للنبلاء والطبقات المميزة أو لمن هم دون ذلك. والبشر جميعا، على الرغم من ذلك، يُطلق عليهم اسم "أنواع بيولوجية" باعتبارنا نوعًا أو "حالة" من الحيوانات العاقلة، لها منطق له تعريف محدد بشروط إدراكه ومعرفته، أو كما أعلن أو ينادى به رينيه ديكارت "Rene Descartes": "أنا أفكر إذن أنا موجود"[٤]. وقد انتهى بنا هذا التمجيد للمنطق "الجاف"، فى أوائل القرن العشرين، بنظرة إلى الحقيقة تبجل وتمجد كل إدراك مجرد (أى المنطق والرياضيات) وترى أن دارسى الرياضيات، العلماء، الفلاسفة، لاعبى الشطرنج هم أرقى وأرفع صورة من صور الحياة (ربما، ودون داعٍ للدهشة، لأنهم هم الذين أشاعوا ونشروا ذلك)[٥]، لذا فإن العاطفة شىء بغيض و"حقير"، غير عقلانى وأنثوى (وهذا ارتباط أزلى قديم) إنها شىء غائر فى الجسد ولا يفيد إطلاقًا عندما نحتاج أن نثبت نظرية علمية.

ولعله من اللطف والتأنق؛ الإشارة إلى أن رؤية العالم بهذه النظرة "المتمنطقة" قد اضمحلت ولم تعد مطابقة للرؤية السائدة حديثًا، لأن مفكريها البارزين أدركوا الخطأ فى أساليبها. وكى نلتزم العدل، بعضهم هو الذى أدرك ذلك[٦]. فى الواقع، ربما يكون نموذج هذا التحول سببه أن "المنطقية" كانت ضحية شهرتها ونجاحها بشدة، حتى إن هذا المنطق جفل وفزع من نتائجها وعواقبها. وقد أنشأ أيضا حاسبات آلية بارعة فى الرياضيات ولعبة الشطرنج لدرجة أن تفوق الإنسان فى هذه المجالات بدأ يتزعزع من غير شك. وعندما انتهى الأمر بأن تهزم الآلة بطل العالم فى لعبة الشطرنج، جارى كاسباروف "Garry Kasparov"، وفق شروط المباريات الدورية عام ١٩٩٧، اتضحت مزايا تضمين العاطفة فى "تعريف" الإنسان. فالآلات قد تطيح بالعظماء، لكن أوهن طفل رضيع يفوقها فى الحس والمشاعر. إن اتجاه دعاة المنطق إلى تمجيد العقلانية، واعتبار الرجل الأبيض

ممثلاً للنوع البشرى وإغفال حقيقة أن "العقول" موجودة بكل الأجسام، جعلنا نــدرك أن هناك إشكالية ما. وما زال لهذا الاتجاه حضور قوى فى علم دراســة الجهــاز العصبى وعلم النفس، كما فى غيرها من العلوم، لكنه ارتــبط بطــرق واتجاهــات جديدة فى السنوات الأخيرة، فالدراسة والبحــث فــى طبيعــة الحــدس والبديهــة والنزعات المعرفية، علم النفس الاجتماعى والتلاقح الثقافى، النــواحى الوجدانيــة والتأثرية فى الجهاز العصبى، كلها مجالات بحثية تتزايد بسرعة.

ودراسة النواحى التأثرية فى الجهاز العصبى اتجاه حــديث جــدًا، ويحتــدم الجدال والخلاف حول كيفية تعريف العواطف، وحتى حول أمور أساسية وواضحة مثل: كم عددها وهل بالإمكان التمييز والتفريق بينها(٧). وقد يكون ذلك بسبب ولــع الأكاديميين بالمناظرات والجدال، لكن ذلــك يعكــس أيــضا الطبيعــة المراوغــة للموضوع. لكنه من الواضح أن العواطف ترتبط كثيرًا بأحوال الجسم. فــالتغييرات الفسيولوجية تعطينا رجفة أو رعشة الخوف، وحمرة الوجه عند الغضب، والشعور بالغثيان عند الاشمئزاز. كما أن هناك اتفاقًا كبيرا، وإن لم يكن عامًــا، أن بعــض العواطف - كالخوف والغضب، القرف، الحزن، الفرح - تبدو بسيطة وجوهريــة أكثر من غيرها مثل: الخزى أو الخجل، والحــرج أو الارتبــاك، والغــرور مــع "الغطرسة" عند الإغريق، أو الحقد المدمر كما يسميه الألمان- والعواطف الأساسية لها سمات وعلامات تظهر على تعبيرات الوجه ولها استجابات نفسية مميزة جــدًا لدرجة أن كل ثقافة تعرفها وتختص بها؛ فإذا غضب شخص أزتكــى(*) يمكنــه أن ينقل مشاعره لى أو لك بسهولة(٨). إلا أن العواطف والمشاعر الأساسية قد تخــتلط وتتداخل.. الغضب مع الخوف أو القلق مثلاً. وعلاوة على ذلك، فإن كثيــرًا مــن العواطف التى نحسها هى صور باهتة من التجربة الكاملة، فنحن غالبا ما نــستخدم

(*) من "الأزتك"، وهم شعب متمدن حكم المكسيك قبل الفتح الإسبانى عام ١٥١٩.

لغة عاطفية دون أن نشعر بشيء قوى وحاد، مثلما نقول مازحين: "أنا أكره ذلك" ونعنى بها مجرد ضيق طارئ. وقد لا نستطيع أحيانا الإفصاح عما نشعر به.

وتكمن بعض أسباب هذا القصور عن الإفصاح فى طبيعة الإشارات الداخلية عن حالة الجسد، والتى تنشأ منها العواطف، وعلى الرغم من أن هذه الإشارات تصل إلى المخ وتُؤَثر فى النشاط العصبى، تمامًا كما تفعل الإشارات من خارج الجسد. فإن هناك اختلافات؛ فالإشارات من الأحشاء أو الأمعاء مثلاً يبدو أنها أبطأ وأقل تحديدًا من مثيلاتها الواردة من حواس الجسد[٩]. وتمتد الإشارات الواردة من الداخل إلى فترات أطول من تلك التى ترسلها أصوات أو صور تتغير بسرعة، كما ينطبق ذلك بصفة خاصة على الإشارات التى تحملها الهرمونات وجهاز المناعة وأى عناصر كيميائية أخرى إلى المخ، ولا ينطبق على الإشارات التى ترسلها إليه الأعصاب. وبما أن الإشارات من الداخل تستغرق وقتًا طويلاً، فإن تحديد حيزها ومداها يكون أقل وضوحًا أيضًا من غيرها من الإشارات المرئية أو المسموعة، ولذا فإن تأثيرها يصعب تقييمه[١٠]. وعندما تنظم الخلايا العصبية الأصوات، مثلاً، فإنها تتيح للمخ أن يُمَيّز بين الفروق الدقيقة فى التواتر (التكرار) وطبقة الصوت اللذين يُشكلان قدرتنا العقلية بالنسبة إلى اللغة.. إنها عملية حاسمة وعصيبة، ويبدو أن القول: "استخدمها بدلاً من أن تخسرها"؛ ينطبق على أنسجة المخ، حتى أصغرها على مستوى كل نقطة منفردة من نقاط الاشتباك العصبى. والعضلات التى تستخدم مكررًا، مثل التى بالأحبال الصوتية، والفم، واليدين، هى التى "تجند" لخدمتها مصادر عصبية كثيرة فى كلتا المناطق الحسية والحركية فى المخ، وتسمح بالفروق الضئيلة فى الحركات وبالاختلاف والتمايز الكبير اللازم للتواصل بالكلمة، أو بتعبيرات قسمات الوجه، أو بالإيماءة، أما الخلايا العصبية التى فى المناطق قليلة الموارد والطاقة، مثل تلك التى تتعهد الإحساس بتمدد الشرج، فلا يلزمها أن

تقوم بمثل هذا التمييز الدقيق، إذ إن قدرة الإنسان (بوصفه نوعا بيولوجيًا) على أن يتكلم من خلال "المستقيم" أمر مجازى(١١).

وتنتج العواطف من إشارات مخية تُسببها تغييرات فى حالة الجسد (أو ما يسميه عالم دراسات الجهاز العصبى أنطونيو داماسيو "Antonio Damasio" "مرصد الجسد"(١٢). ومن الممكن أن تكون هذه الإشارات قوية أحيانًا؛ فتطلب الانتباه إلى ما يحدث بالجسد، لكنها ليست بالضرورة دقيقة أو مُحكمة تمامًا، بحيث تكون المعلومات عن أين تحركت يدك اليسرى توًا؛ معلومات محددة وصحيحة. غير أننا، أو على الأقل أفضل كتابنا وفنانينا مرهفى الحس، يمكننا أن نفرق بين "ظلال" المزاج والحالات النفسية والمعانى التى لا حصر لها.. فالابتسامة، على سبيل المثال، يمكن أن تكون عذبة أو حادة، غير متحفظة أو مكتومة، ثاقبة أو ودودة، أو مختلسة وماكرة، وغير ذلك كثير.

العواطف واللغة:

وكى تحقق هذه البراعة فلا بد أن تكون رسائل الجسد غير اللغوية مُتضمنة فى إطار رمزى، فهى، مثل تأوهات الممثل على المسرح وهمهماته الساخرة، تحتاج إلى "مضمون" مصاحب حتى تكون مفهومة، إلا أننا لا نستطيع أن نقول ببساطة: "لكى تعبر عن عاطفة، اختر إشارة جسدية، وأضف اللغة، وأبشر بالنجاح"؛ لأن الأمر حتمًا أكثر تعقيدًا من ذلك، ولنأخذ هذا القياس على حالة التمثيل أبعد من هذا ونتخيل أننا نشاهد مشهدا فى فيلم نرى فيه رجل يُضرب ويئن ويتوجع.. كيف نفسر سلوكه هذا؟ وبالرجوع إلى خبرتنا الذاتية ومعرفتنا بهذا السياق، قد لا نكون نحن قد ضربنا أبدا من قبل، لكننا عندما نشاهد رجلاً يُضرب

نفزع ونجفل متعاطفين معه، ونفسر تأوهه باعتباره سلوكا ناجما عن الألم، ونحن نتابع في الوقت نفسه تطور حبكة الفيلم والعلاقات بين الشخصيات، علاوة على الحوار المنمق والمحكم، والتغيير السريع للمناظر، والدلالات الثقافية البارعة. وربما لن يكون لدينا الوقت كي نقول لأنفسنا: "إن هذا الرجل يتأوه بهذه الصورة لأنه يتألم"، ولن نحتاج أيضا إلى أن نعبر عما فهمناه في إطار اللغة.. إننا في ذلك نشبه الشمبانزي أو الكلاب، إننا نفهم كثيرا عن عواطف الآخرين دون الاحتياج إلى الكلمات.

ومع ذلك؛ فإننا نحتاج أحيانا إلى "توصيل" مشاعرنا للغير. إنه أمر بسيط.. علينا فقط أن "نقلد" السلوك المناسب. لكن ماذا إذا كنا في موقف لا يُنصح فيه بالتأوه أو البكاء أو بمهاجمة أحد مشاهديك- كأن تكون في حفل بحديقة مثلاً؟ أو ماذا لو كنا نحاول كتابة رواية لن يستطيع قراؤها رؤيتها كتمثيلية؟ إننا في هذا الوضع لا بد أن نلجأ إلى اللغة وأن نفصح عن مشاعرنا بالكلمات ونسميها بأسمائها.

وتتيح لنا اللغة أن نربط ذهنيا بين رموز معينة (كلمات) وبين أشياء وأحداث نلاحظها حولنا، وعلاقاتها والطريقة التي نتفاعل بها معها. إننا نتعلم اللغة بالأسلوب نفسه الذي نتعلم به أي شيء آخر، بالاستدلال على العلاقات المتبادلة بينها وبين: التغييرات في البيئة، في أجسادنا وعقولنا؛ ويبدو أنها تتواكب معًا. وتتضح أحيانا الصلات بين شيء أو حادث ما وبين الصوت والمنظر والتفكير الخاص بالكلمة التي لها صلة وثيقة به، ويمكن للطفل الرضيع أن يقارن بين صوت أمه عندما تظهر "كرة" أمامها فجأة فتقول "كرة"، وبين صوتها عندما يلتقط الكرة قائلة: "كرة... أنت ولد ماهر"؛ وبين الطريقة التي تُحَيِّي بها كلبه عندما يظهر فجأة وتناديه باسمه.. ومع التكرار، وكل مفاتيح الدلالات غير اللغوية التي تقدمها الأم، يرتبط صوت كلمة "كرة" غالبا بالأشياء المستديرة التي تصلح للرمي أكثر من

ارتباطها بـ "شيء" ينبح" وله أرجل[١٣]. ويعزز هذه الترابطات المصاحبة للغة، ومعها كل هذه الأشياء التي تستقر بسهولة في عقولنا، الجزيئات الصغيرة التي تربط في إدراكنا بين الملاحظة والفعل، فتختلط هنا الاستنباطات العصبية التي يولدها إدراكنا الحسي بتلك الأنماط التي تعكس تجاربنا السابقة، وتوقعاتنا الحالية، واهتماماتنا الباطنية، فتشكل كلها موجات من أنهار وروافد عديدة تصب في البحر المضطرب نفسه بشدة، وحتى في هذا الاضطراب العظيم، سيكون هناك نوع من النظام؛ إذ إن بعض الأنماط المُميزة والمتكررة سوف تتلازم مع تراكيب حسية وحركية وترتبط بعلاقات متبادلة معها، مثل العلاقات بين علب السجائر والموت الذي تدل عليه العبارة المكتوبة عليها: "التدخين يقتل"؛ ولو أن تلك الأنماط المتداخلة واضحة وراسخة بالقدر الكافي، لأمكن أن ترتبط هي أيضا بالكلمات. وكي نصفها، لنا أو لغيرنا، فإننا نستخدم لغة الإدراك المعرفي: المعتقدات، المعارف، الأفكار، الافتراضات.. وهكذا[١٤].

وفيما يبدو؛ فإن الأنماط الأخرى التي "في الوسط" أو موجودة "بين غيرها" تعكس حالة وجودنا نحن أكثر مما تعكس العالم المحيط بنا.. إنها لا ترتبط بصفة خاصة مع الأشياء؛ ولكنها تتماشى مع أحاسيس الجسد، من نبضات القلب الجامحة بسبب الخوف إلى الاسترخاء العضلي الناشئ من الإحساس بالسعادة. ونحن غالبا ما نقرن ذلك بصفة الإلزام، ووجود الدافع، فنختار الأفعال التي تقلل منها أو تزيدها، وربما لا تكون هذه الأنماط واضحة بدرجة وضوح الإدراك أو الملاحظة نفسها، لكن أساليبها تتنوع حيث تكون ثابتة بالقدر الذي يجعلنا نرصدها ونعطيها مسمياتها، ويعتمد ذلك على كيفية تفاعل أجسادنا وعقولنا مع ما نلاحظه. والمسميات أو الأسماء ستكون مما تختاره وتحدده ثقافتنا- الغضب،

القرف أو الاشمئزاز، الرضا، الشعور بالإثم، أو غيرها- ويمكن تعميمها على مواقف أخرى تكون فيها مشاعرنا أقل حدة، ولكنها متشابهة فى السمات.

وتختلف لغة العاطفة عن معرفتنا وبراعتنا فى كيف نتكلم عن الأشياء، ذلك لأن الفرد لا يمكنه ببساطة تحديد ما تعنيه وتشير إليه الكلمات، وقد يأتى اليوم الذى يتعلم فيه الأطفال "كلمات العاطفة" بمساعدة أجهزة الأشعة المقطعية والرنين المغنطيسى، لكن الآباء والمربين يعتمدون الآن على الاستراتيجيات التى تجعل الكلمات وعلاقاتها المتبادلة أكثر تحديدًا ووضوحًا وأكثر تميزًا عن غيرها بالنسبة إلى من يتعلمها من الأطفال. ولو تعاملت مع الأطفال الرضع، فسوف تجد نفسك بكل تأكيد تفعل الشىء ذاته؛ ستستخدم أساليب مثل " التأكيد بنغمة الصوت" (الطفل يحب ذلك) أو بتحديد الاختلاف (إنها ليست سعيدة! إنها حزينة)، أو بالمبالغة فى إظهار مفاتيح غير لغوية للمعانى (اوع! هذا شىء مقزز- أو باستخدام تعبيرات "مهرجة" أخرى عن الاشمئزاز).. وهكذا[١٥].

ومادامت رسخت وأُقرت الرموز الأساسية؛ فسوف يمكننا أن نُدخلها فى شبكة نسيجنا اللغوى ونربط بينها وبين الملاحظات والمدركات والسلوكيات التى سوف تظل معظم الوقت ملازمة لها، ويمكننا أن نُعَرف هذه الرموز بالتفصيل أو أن نتركها بدون تمحيص على نطاق واسع، اعتمادًا على الشخصية والذكاء ومستلزمات الخبرة. إن الاختلافات الفردية والثقافية لها اعتبارها هنا، فبعض المجتمعات قد تؤكد فروقًا دقيقة ولا تكاد تذكر، بينما لا تفعل ذلك مجتمعات أخرى (أو أنها تستعير مفردات من جيرانها، كما فعل من يتحدثون الإنجليزية مع بعض الألفاظ الألمانية).

إن عملية تفسير الاستنباطات التى تفرض شيئا من النظام على "فوضى" التشابكات العصبية. تغير هذه الأنماط عندما تدرك معانيها[٦٦]. والنشاط الذى يقوم به المخ كى يوجد صلة بين ما رُصد على أنه "إهانة" وما نجم عنه من "قبضة تستعد لتوجيه لكمة": لن يمكن شرحه أو تسميته إطلاقا، أو قد يمكن تفسيره على أنه غضب، جرح للكرامة، فزع، أو رغبة شديدة فى القتال.. وبالإضافة لذلك، يمكن القول: إن تسمية هذه العواطف وتحديدها لم يوجد كى يُرتّب أو "يزين" ساحة النشاط الذهنى.. إن هذا مهم، إذ إن قرارات الشخص بخصوص ما سيفعله بعد ذلك قد تتأثر بطبيعة إحساسه بهذا النشاط.

وكى نوجز، يمكن القول: إن العواطف قد تبدأ بإشارات تطلقها تغييرات فى أحوال الجسد. وبينما تصل هذه الإشارات إلى المخ، تنساب فى شبكة قشرة المخ التى تكون جاهزة بخبرتها لتؤثر فى نشاط المخ بطرق وأساليب قد يشعر بها الفرد أو لا يعيها بالمرة.. وهذا النشاط الذى غالبا ما يتضمن مكونات حسية وحركية (مثل تعبيرات الوجه) وأيضا مدخلات عضوية- من الأحشاء- وإدراكية، قد يندمج ويتحد مع عالم الرموز واللغة بالعقل لينشأ "تحليل الذات" الصامت أو التعبير المعلن؛ لذلك فإنه يمكن أن نأخذ معنى العاطفة على أنه كل أو أى من تلك الجزئيات الضنيلة المتداخلة والمؤلفة من نواحى حسية – حركية- عضوية – معرفية- وتجريبية (من الخبرة).

ما فائدة العواطف؟

إن حالة الجسم أمر مهم، إذ إن التعامل مع كلب ينبح أسهل من أن تتغاضى عن صداع نصفى.. ويبدو أن الإشارات الواردة من الأحشاء (الداخلية) تسيطر

على نشاط المخ وتتحكم فيه أكثر من الإشارات الحسية (الخارجيـــة)[١٧]. فـــالأولى تمثل أعضاء خاصة من "اللجان العصبية" ذات "صوت مرتفع"، وهى تأمر بـــضرورة فعل شيء ما، وإن أغفلناها فإن صوتها يتصاعد وتعلو نغمته أكثر وأكثر حيث لا يمكن تجاهله، فيُغير سلوكنا حتى لا يحدث ذلك كثيراً؛ وهذا، على الأقل، هو وضع العواطف البغيضة التى تعلمنا أن نُوليها اهتمامًا؛ لأنها تنذر بمتاعب. أما المشاعر الإيجابية فإنهـــا تدعم وتقوى السلوك الذى أحدثها بدلاً من أن تكبته أو تقمعه[١٨].

إننا نتعلم بالتجربة ما الذى يلزم عمله، ويمكن للعواطف أن تدفعنا لأن نفعل ما يلزم بصورة أسرع. وكما سبق أن أشرنا، فإنـــه يمكننـــا أن نعتبـــر العواطـــف ذكريات عن قرارات اتخذتها جينات أسلافنا (بخـــصوص ردود فعـــل تطـــورت- كالخوف) أو ذواتنا فيما سبق (بخصوص العواطف الأكثر تعقيدًا)- فهـــى تـــاريخ شخصى مختزن من العلاقات مع عامل محفز.. أو بصورة أكثـــر تحديـــدًا، هـــى سجلات تختص بنتائج وعواقب قراراتنا. إنها مثل توجيـــه وإرشـــاد مـــن "أرواح" الأسلاف والأجداد، فالعواطف تُشير إلى ما سوف يفيدنا وينفعنا أو يضرنا، وذلـــك على أساس من الخبرة والتجربة: "عانقها... الحنو سوف يُلَطـــف مـــشاعرك"، "لا تأكل هذا، سوف تندم"، "هل تريد أن تفتحه؟ افعل ما فعلته توًا لكن بقوة أكبر". وإذا اقترن التوجيه باللغة، يمكننا إضافة عنصرى الزمن والرسائل اللتـــين تختـــصران الجهد: "تجنب رئيسك صباح يوم الاثنين"، "هذا هو ما أفضله"، "أصـــحاب العيـــون المخادعة والمراوغة من الناس لا يجب الوثوق بهم".

وهكذا، فإن العواطف مهمتها أن تنبئنا وتخبرنا عن أحوال جسدنا، فهى كما قد يدل عليه هذا المصطلح: "مرصد الجسد"[١٩]. وهى تخبرنا أيضا بما هـــو أكثـــر من ذلك؛ عن مشاعر غيرنا من الناس، وعن تقييمنا لأشياء نواجهها وعن تفاعلاتنا الاجتماعية، والأحداث التى تنشأ عما نفعله، وتلك التى تحفزنا للفعل، فهناك أشـــياء

تتطلب "خلفية" خاصة قبل أن نتفهم معانيها- الخوف التام، الفرح الخالص، أو الغضب المحض. والإشارات الصادرة من الجسد، مثل الاندفاع الذى يسببه "الأدرينالين"، تؤثر فى وظائف الأعضاء بالطريقة نفسها سواء كان السبب تهديدًا حقيقيا، أو خطرا متخيلاً، أو حقنا بهذا الهرمون فى دمائنا. غير أن اندفاع الأدرينالين قد يشعرنا بالفزع، أو التوتر أو الإثارة الشديدة، حسب كل شخص وظروفه[٢٠]. والشىء المشترك فى هذه التفسيرات الثلاثة هو أن بعض الأحداث تبرز بشىء ظاهر وتتميز عن غيرها فى حشود وزحام الاشتباك العصبى، وتُعطى الاستجابة لها وردود الفعل عليها الأولوية؛ ومن ثم تعطيها العواطف مغزى، بمعنى أنها تضيف أنماطًا عصبية معينة على أنها مهمة بالنسبة إلى الشخص، فتكون الإشارة: هذه الأشياء تهمنى، إنها تؤثر فى سلوكى، وسوف أبذل جهدًا أكبر لأتحاشاها أو لأسعى كى أتبعها وأنجزها.

والعواطف السلبية، على وجه الخصوص، تمثل تحذيرات أيضا، فهى تُعطى الأولوية لرد الفعل السريع تجاه التهديدات. وقد وصفت فيما سبق ثلاثة برامج سلوكية عامة لردود الأفعال حيث تتيح للبشر (ولأنواع أخرى من المخلوقات) الاستجابة بسرعة وفاعلية للأنماط المألوفة من التهديدات، فهناك السلوك الذى يتأقلم مع الهروب، ويتضمن الاستسلام والخضوع، وإبداء الشعور بالحزن والكرب، و"التجمد" - أى الانقطاع عن الحركة أو الكلام- وقد تطور هذا السلوك لمنع تصاعد العدوان ولتحاشى ملاحظة المعتدين أو الوقوع فى أيديهم، وفى هذا الموقف تسود عاطفة الخوف والفزع، وهناك أيضًا السلوك الذى يتأقلم مع التحدى، ويتضمن إشارات بالتهديد مثل نظرة غاضبة أو أسنان ظاهرة، أو العدوان البدنى أحيانًا، وهى تعتبر استعراضًا للقوة ومُوجهة ضد أفراد أو عناصر أخرى تُفسر على أنها "العدو" (مثلما يقال: " لقد تحطم حاسبى الآلى مرة أخرى")، وفى هذا الموقف تسود عاطفة الغضب والكبرياء، أما سلوك الاجتناب الذى يشمل

"الانسحاب" أو التفادى، النظرة المحدقة، والبغض الشديد، وتطهير الذات، البصاق، الغثيان، القيء، فقد تطور كى يحمى البشر من السموم ومصادر العدوى.. وهى أشياء لم تكن عوامل عدائية وليست بالقدر الكافى من القوة أو السرعة حتى تُحدث سلوكًا هروبيا، إلا أنها إذا اقتربت منا كثيرا تشكل خطرًا حقيقيا[٢١]، وفى هذا الموقف تسود عاطفة الاشمئزاز والفزع وما شابهها.

وكى نفهم كيف تنشأ العواطف بواسطة المخ سوف أعطى مثالاً محددًا هو عاطفة الشعور بالقرف أو الاشمئزاز لأنها إحدى العواطف التى لها دور بارز فى الإقصاء والقسوة[٢٢] ولقد أشرت توًا إلى التقيؤ باعتباره رد فعل تحدثه الباحة المنخفضة بالمخ نتيجة للاشمئزاز.

نشأة الاشمئزاز:

"لأن الحياة إفساد"

(الفيلسوف الفرنسى جاك لاكان "Jacques lacan")

مثيرات "القرف" تُحدث مجموعة من ردود الأفعال لدى من يلاحظها، بما فى ذلك تغييرات فى معدل ضربات القلب، التنفس، نشاط المخ، تعبيرات مميزة على الوجه (تجاعيد بالأنف، زم الشفاة، وتضييق العينين) وغثيان أو قيء[٢٣]. ورد الفعل الأساسى هو شعور مقيت بالاشمئزاز ينتهى بفعل انعكاسى لا إرادى يقذف بكل محتويات المعدة، وتضاف إلى هذه المهمة الرئيسية طبقات متزايدة من السلوكيات الأكثر تعقيدًا؛ حيث تسمح بالتعرف على ما يُهدد بالقرف وتفاديه، فيكون الامتناع عن أكل اللحوم الفاسدة، فى الاعتبار الأول، أسلم وأكثر أمانا واقتصادًا فى طاقة الإنسان بدلاً من إقدامه على تناولها ثم تقيؤها ثانيا. ومع ذلك فإن الاشمئزاز بالنسبة إلى البشر شيء معقد جدا وأكبر من أى "اجتناب مبرمج". فهذا، على الأقل يخضع جزئيا فقط للتحكم الواعى لدى الإنسان.

ومن الواضح أن الاشمئزاز يشمل التحكم الطوعى. فعند التفكير فيما يثير القرف، تظهر ملامحه عمدًا على الوجه. أو حتى قراءة كلمة "يتقيأ" من الممكن أن تثير ردود أفعال فسيولوجية علاوة على التجربة العاطفية الذاتية الخاصة بالاشمئزاز[٢٤]. والتحكم الإرادى والمتعمد يُشكّل الحس التطورى عند الكائنات الاجتماعية، وتنظيم العاطفة مهارة اجتماعية ناقدة؛ إذ إنه ليس من دواعى السياسة والكياسة إظهار الاشمئزاز، كما أنه ليس دائما بالإمكان استخدام النظم (أو التكتيكات) الثلاثة المألوفة لتجنب الشىء الباعث على القرف، أو لطرده من أمامنا أو الحد منه ببعض الوسائل الأخرى.. ونضيف إلى ذلك أن الاشمئزاز مثل العواطف الأساسية الأخرى توجد بدرجات وفروق ضئيلة - كره الطعام والشراب، الازدراء، المقت، والبغض الشديد... وهكذا، ويشير ذلك إلى أهمية التفسير المبنى على أساس لغوى وعلى الوعى عند تعريف هذه العاطفة ودورها الاجتماعى الحرج.. وعلى هذا فإن الآليات العصبية التى تولّد وتعبر عن الاشمئزاز يجب أن توضع فى درجات وطبقات تتيح كلاً من ردود الفعل الوقائية التلقائية (مثل القىء) وأيضًا التحكم الواعى الرفيع كما فى الاستجابة العاطفية التى يحكمها إدراك الموقف وتقييم السلوكيات البديلة.

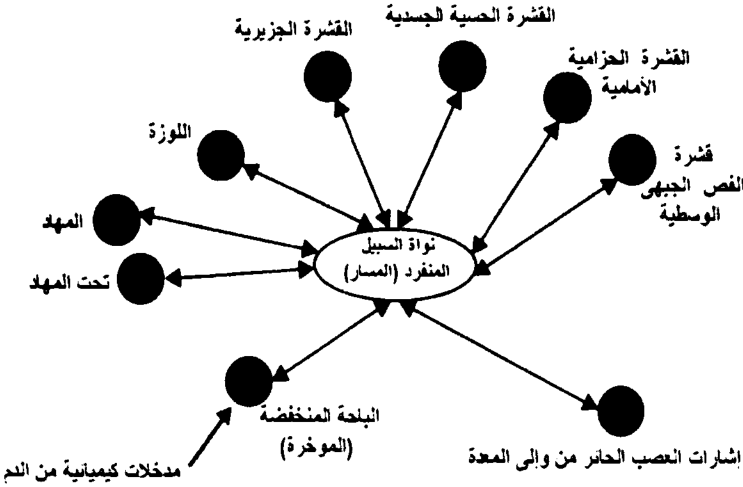
التشريح العصبى المرتبط بعاطفة الاشمئزاز:

فى هذا البحر من اللا معلوم، أى علم دراسة الجهاز العصبى، تُشكّل منطقة جذع المخ التى تختص بالقىء جزيرة صغيرة مما يمكن فهمه. والنسق الخاص بأدائها كما يلى: عندما تكتشف أعصاب المعدة وجود شىء "قذر" - أو فاسد- فإنها ترسل إشارات عبر المسار الحسى الضخم للعصب العاشر بالجمجمة، وإلى العصب الحائر (والذى اتخذ اسمه من الكلمة اللاتينية "المتجول أو الهائم")[٢٥].

ويوصل هذا العصب "التائه" إنذار المعدة إلى هذا الجزء الحاذق في جذع المخ. وهو الباحة المنخفضة، فتقوم بدورها بالاتصال بمناطق أخرى في الألياف العصبية بالدماغ وبالنخاع في قاع المخ[٢٦]، وتقوم هذه بإعطاء الأمر لعضلات المعدة كي تطلق الانقباضات الإيقاعية التي نشعر بها في بادئ الأمر كحركة مضطربة مهتاجة تثير القلق، ثم يأتي الغثيان، ثم دافع القيء والاستسلام له.[٢٧]

وتتصل أعصاب من المعدة أيضا بمنطقة أخرى في جذع المخ وهي نواة السبيل المنفرد، وهي لها صلة وثيقة بالباحة المنخفضة (وبأجزاء ضئيلة أخرى في بطانة القشرة الخارجية للمخ التي تتحكم في المناطق الداخلية بالدماغ، مثل منطقتي تحت المهاد واللوزة)[٢٨]. وتحتوي نواة السبيل المنفرد على تجمعات متنوعة من الخلايا لها أولويات مختلفة، يتعامل بعضها مع عملية "البلع" والأحاسيس الصادرة من الحنجرة، والبلعوم والمعدة، ويتعامل بعض آخر مع عملية التنفس، وبعض مع ضغط الدم. وتحتاج كل هذه الخلايا إلى "ضبط" وتوافق عندما يحدث القيء، حيث تُغلق مسارات الهواء لفترة كافية، وليست فترة طويلة جدا، وحتى تنقبض جدران المعدة بكفاءة وفي الوقت المناسب.. وهكذا[٢٩]. ولو فكرنا في هذا التنظيم اللازم لإحداث ذلك الترتيب التزامني لكل هذه الأمور، فإننا سوف نشعر بالامتنان والعرفان بالجميل؛ لأن بعض المهام التي يؤديها المخ تأتي بهذا الترتيب مقدمًا وبإحكام تام؛ فالتقيؤ شيء مزعج بالقدر الكافي، دون أن نفكر كيف يحدث.. ولو كان حافز التقيؤ شديدًا، فسوف تشعر بالإعياء والمرض. أما المؤثرات الأضعف، فمن الممكن أن تقوم إشارات من أجزاء أخرى في المخ بتسهيل أو منع الفعل الانعكاسي اللا إرادي المتوقع منها. وتتم اتصالات أخرى متبادلة من مناطق مثل القشرة الحسية الجسدية، (انظر الشكل رقم ٥)، والقشرة الجزيرية، والقشرة الحزامية الأمامية، وقشرة الفص الجبهي الوسطى (وكلها أيضا "تتحدث" مع بعضها بعض)، حتى تصل إلى ما تحت القشرة الخارجية للمخ فتهيئها لأن تمارس ضغطا يُزيد من قوة تجربة الاشمئزاز (انظر الأشكال من ٧-٩)[٣٠]. وتتسلم أيضا مناطق

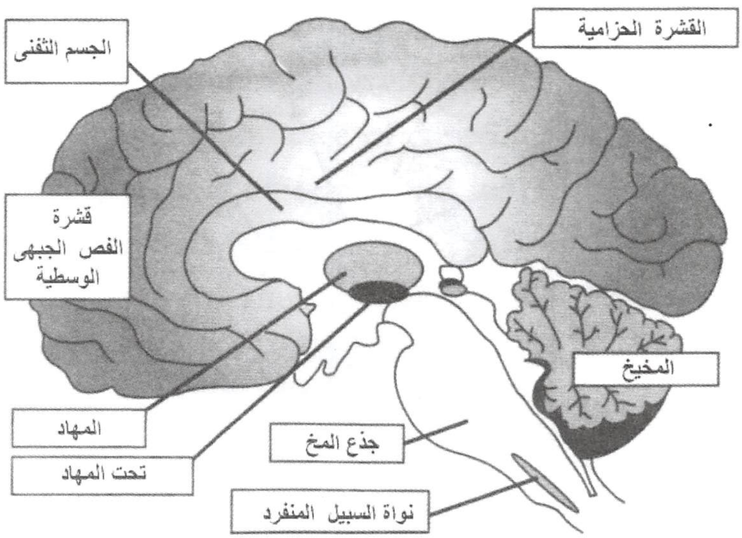
القشرة الخارجية للمخ، خاصة المنطقة الجزيرية، مدخلات من مراكز التحكم في جذع المخ، كى تتيح لها التعرف على التغييرات التى تحدث فى الأحشاء. وكلما زاد عدد المناطق المشاركة فى هذه الاتصالات، تعمقت هذه التجربة وازدادت "ثراءً".



شكل رقم (٧) : بعض التوصيلات الخاصة بتعامل المخ مع عاطفة الاشمئزاز، ويُستَدل على التغييرات الكيميائية فى الدم بالباحة المنخفضة التى ترسل الإشارات إلى نواة السبيل المنفرد (NTS). وهى تستقبل أيضًا الإشارات من المعدة، بواسطة العصب الحائر وترسل الإشارات التى تُحفز على القىء. وعلاوة على ذلك تتصل نواة السبيل المنفرد بمناطق أسفل القشرة الخارجية للمخ، مثل المهاد وتحت المهاد واللوزة، ومنها إلى القشرة الجزيرية وإلى مناطق أخرى مثل القشرة الحزامية والقشرة الحسية "الجسدية" وقشرة الفص الجبهى الوسطية (وكل هذه بينها تواصل أيضا).

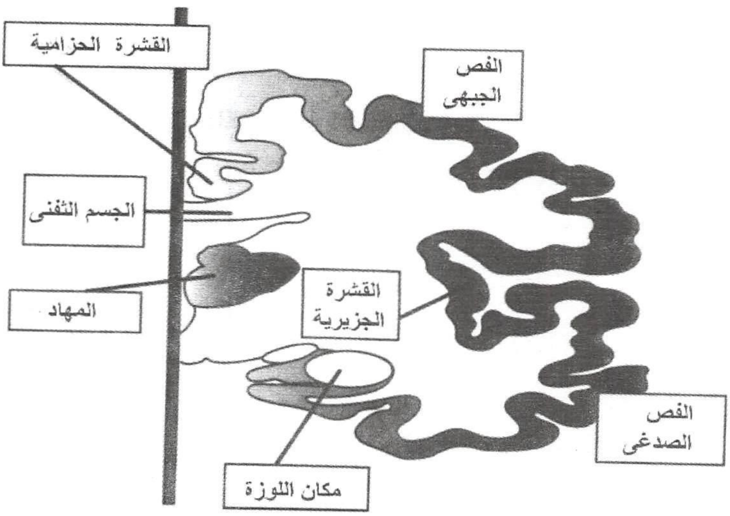
وبالإضافة إلى ذلك، فإنه بمجرد وجود هذه الشبكة من الاتصالات العصبية بالتجربة، سيؤدى نشاط أى جزء من تلك الشبكة إلى الانتشار السريع للنشاط فى

باقى الأجزاء المرتبطة بها (فنقاط اشتباك الأعصاب مترابطة بشدة)، حيث تكمل "وتملأ" الأنماط العصبية (كما عرضنا فى الفصل الرابع). وهذا يفسر لماذا لا يحتاج البشر إلى وجود مادة سُمّية فى أجسادهم لإحداث تجربة الإعياء هذه، فهناك أشياء كثيرة قد تُحْدثها: منظر تصادم سيارات، صوت شخص ما يتقيأ، ملمس لحم متحلل، مذاق أو رائحة عفنة، أو حتى مجرد تهديدات رمزية بالقرف- كل هذه الأشياء تُحْدث التأثير نفسه بأن تُنشّط مناطق مشابهة فى القشرة الخارجية للمخ والقشرة التى أسفلها. (وعلى سبيل المثال، فإن شبكة الخلايا العصبية بالقشرة البصرية، والتى توجد نقاط اشتباك بينها وبين القشرة الجزيرية واللوزة، تشارك أيضًا فيما نسميه الاستجابة لمثيرات عاطفة الاشمئزاز).



شكل رقم (٨): مشهد متوسطى لمخ الإنسان، مُوّضح عليه ثلاثة معالم رئيسية: المخيخ، وجذع المخ، والجسم الثفنى (الحزمة الكبيرة من الأنسجة التى تربط نصفى كرة الدماغ). ويوضح الشكل أيضًا القشرة الحزامية، وقشرة الفص الجبهى الوسطية، والمهاد، وتحت المهاد.

وعندما نرتفع من جذع المخ إلى القشرة الخارجية للمخ، نكون قد تركنا "الجزيرة" مرة أخرى إلى "المحيط" المتسع. ولقد بدأ العلماء فى السنوات الأخيرة فقط فى حل لغز وطلاسم العملية المنظمة لعاطفة الاشمئزاز فى قشرة المخ [٣١]. وعلى سبيل المثال، فقد عُرف أن هناك صلة وارتباطًا بين المنطقة الجزيرية بالمخ والسلوك الذى يتسم بالعنف، مثل رد الفعل العدوانى أو الخلل فى التصرفات، وتوجد الصلة نفسها حتى فى عملية رفض المعتقدات[٣٢]. ومن الواضح أن كثيرًا غير ذلك من الأدوار والعلاقات فى هذه المنطقة ومناطق أخرى بالقشرة المخية سوف يتم الكشف عنها.



شكل رقم (٩): مشهد تاجى لنصف المخ (كما لو كان يمثل شريحة رأسية خلال النصف الأمامى). وقد ظُلِّلت المادة الرمادية بالقشرة الخارجية، كما كُتبت أسماء معْلَمين هما المهاد والجسم الثفنى، مع الفص الجبهى والفص الصدغى والقشرة الحزامية. أما موقع اللوزة، التى تسكن فى العمق داخل الفص الصدغى، فقد تمت الإشارة إليه بوضوح. ويظهر فى هذا المشهد للمخ أيضًا موقع القشرة الجزيرية فهى تختبئ تحت طيات الفص الجبهى والفص الصدغى.

العواطف وأطياف العواطف:

إن العواطف هى التى تضع أُطر العلاقات بين المؤثرات الحسية والسلوك وفقًا لتأثيرهما فى الجسد، وهى أيضًا التى تدعم وتقوى هذه العلاقات، فتسمح للأحداث والوقائع التى حكمتها العاطفة بأن يكون تذكَرها بصورة أفضل وتكون ذات تأثير أكبر عند اتخاذ قرار بالفعل فى المستقبل. والعلاقات القوية، كما ذُكر فى الفصل السابق، تُحدث استجابات أسرع، إلاّ أن الذخيرة الكبيرة من التعبير العاطفى تستغرق بعض الوقت لتظهر - فعضلات الوجه لا بد من إعادة تنظيمها، والهرمونات يلزم إفرازها، وأنماط التنفس سيتم تغييرها، والأحشاء سوف يتم استثارتها. وبناء على ذلك، عندما تكون الاستجابات أسرع، سيكون انطلاقها سريعًا قبل الإحساس الكامل بالعاطفة، وبينما تقوم شبكات التجهيز العاطفى بمهامها، قد تتجاوزها سهام أخرى، فى طرق مساراتها جانبية (للمدخلات والمخرجات) أقوى وأسرع، فتفقد قوتها وشدتها وتصبح خيالات أو أطيافًا لحالتها السابقة.

إن إضعاف الأحاسيس الذى يُجمّد مشاعر القتلة متعددى الجرائم ويصل بهم إلى جمود الفؤاد وتحجره يرتكز على هذا التعود العاطفى(٣٣). ويكون هذا التعود فعالاً خصوصًا عند الحاجة الشديدة إلى الفعل السريع، وعندما لا يكون لدى الشخص الوقت فعلا ليُحَس بأى مشاعر، وحتى فى الظروف "الهينة" والمعتدلة، يكون مجرد التكرار عاملاً كبيرًا فى إضعاف قوة العاطفة. وكمثال على ذلك، سنفكر فى مشكلة "عربة الترولى"، (أو القطار) وهى نموذج مفَصل وجاهز دائمًا فى مجال فلسفة الأخلاق(
وكما عرفت المشكلة للمرة الأولى، فهى سؤال يطلُب منك أن تتخيل "خط سكة حديد" وعليه خمسة أفراد يتجولون فى سعادة، وليست لديهم مساحة كافية على الجانبين حتى

يلجأوا إليها عند الخطر، إنهم لا يعلمون ذلك لكنهم سوف يكتشفون أن عربة الترولللي بدأت تتحرك بسرعة مُهلكة تجاههم. وأنت تقف على مكان عالٍ بجانب المسار.. إنك إما أن تبقى ساكنا ولا تفعل أى شيء، وتترك هؤلاء الخمسة ليموتوا، وإما أن تحَرك رافعة تُحوّل بها مسار العربة إلى خط فرعى عليه شخص واحد فقط تصادف سيره على هذا الخط.. إن الاختيار لك. ولا حاجة للقول إن معظم الناس يختارون تحريك الرافعة. إنه من الخطأ أن تتسبب فى الموت لأى إنسان، لكن عندما يتطلّب الأمر المفاضلة بين حياة شخص واحد غريب مقابل خمسة، فإن التحليل النفعى للتكلفة (أو الخسائر) هو الذى سيحكم المسألة (أو الحسبة).

والآن سوف تكتشف أن هناك شيئًا آخر، وجهًا ثانيًا للمشكلة مطابقًا تماما للأول فيما عدا تغيير حرج. إنك الآن تقف على كوبرى أعلى خط السكة الحديد، ويقف بجانبك رجل ضخم جدًا، وإن كان جسمك لا يسد خط مسار العربة فإن جسمه يصلح لذلك. وبمجرد دفْعه وحده له سوف تُنْقذ حياة خمسة أفراد. هل ستفعل ذلك؟ بالنظر إلى مسألة الموت والإنقاذ ستكون المهمة مماثلة لما سبق، لكن من الناحية الأخلاقية هناك اختلافا كبيرا: إن معظم الناس سيكون رد فعلهم مفزعًا بخصوص الاختيار الثانى، وسيكون ذلك مدعاة سرور للفلاسفة والعلماء الذين سوف يقضون زمنًا طويلاً فى تفنيد أحكامنا غير المنطقية والأخلاقية.

لقد عرفت مشكلة "الترولى" هذه منذ زمن طويل؛ لدرجة أننى لا أتذكر ماذا كان رد فعلى إزاءها (ربما كان رد فعلى مثل أغلبية الناس: "حوّل المسار ولا تدفع بالرجل "السمين" للموت". إن التكرار قد أدى إلى إضعاف الأحاسيس، وسيكون القرار الأخير المتسم بـ"الضيق" أن الحل الأفضل قد يكون عدم فعل أى شيء فى الحالتين. إن الدفع برجل "سمين" ليلقى حتفه يبدو نوعًا من الجنون (أنه أكبر وأقوى منى، لماذا لا يقوم هو بدفعى إلى الهلاك؟). وإلى جانب ذلك. فإن وضع خمسة

رجال فى قبضة الموت سوف يُسبّب شوشرة إعلامية كبيرة، أكثر من موت رجل واحد، وبذلك سيؤسس لتحذير فعال لكل ساذج يفكر فى المشى على خط السكة الحديد، حيث لا يستطيع الخروج عن مسار المركبات[٣٥]. ولحسن حظ المتجولين المهملين، فإن مشكلة "الترولى" هذه حالة افتراضية، كما أن الرأى النفعى الخالى من المشاعر الذى اتخذته غير مهم. وفى مواجهتى لمحنة أخلاقية حقيقية كهذه، فإننى من المحتمل أن أختار رد الفعل والاستجابة المعتادة. ومع ذلك فإن المحن الأخلاقية كلها، وبالتساوى، يحكمها التعوّد، وحتى قتل الأطفال، بصرف النظر عن الدفع بالناس من أعلى الكوبرى، من الممكن أن تصبح مسألة "روتينية" إذا مارستها كثيرًا وبالقدر الكافى من التكرار.

وتشمل "أطياف العواطف" مجموعة مدارات كهربية فى طبقات القشرة الخارجية للمخ، إلا أنها لم تصل إلى جذع المخ كى تُثير استجابة جسدية أو (فسيولوجية).. إنها من الممكن أن تنطلق بمؤثر قوى ومجرد - كلمات أو أفكار، سواء منطوقة، مكتوبة، أو طافت بالذاكرة وتم تذكّرها أو حتى تم تخيلها كأحلام اليقظة- وتكون أحيانًا موجزة جدًا لدرجة أن الفرد لا يدرك صبغة خلفيتها الذهنية[٣٦]. وقد اقترحت كثير من الأبحاث أن العواطف العابرة، مثل التى تثيرها الكلمات "الثرية"، يمكنها أن تحيد بردود الفعل والاستجابات، وما يقوى السلوكيات هو الأفكار المطابقة للعواطف (أى تلك التى صارت مرتبطة بالعاطفة المعنية)، بينما تكبت ردود الفعل التى لا تلائم العاطفة أو تتطابق معها[٣٧]. وهذه القدرة على الربط بين العواطف خالصة الرمزية جزء لا يتجزأ من الميل إلى إقصاء الغير. وسوف نرى فى الفصلين السابع والثامن أن العواطف لها دخل كبير بالقسوة السادية وجمود الفؤاد؛ لكن أطياف العواطف يمكنها أيضًا أن تلعب دورًا ما.

العواطف والقسوة.. دراسة حالة:

وكى نعطى مثالاً لإيضاح ما طرحناه حتى الآن، علينا أن نفكر فى هذه القصة المختصرة عن "مناوشة" بين طفلة صغيرة وحيوان أليف للعائلة. دعونا نطرح هذه الحقائق أولاً:

> **اقتربت الطفلة ذات يوم من القطة وفى يدها خيط مربوط به حلقة. ثم أنزلت الخيط فوق رأس القطة إلى أن وضعته حول عنقها. وعندما شعرت القطة بأن الخيط يضيق حول رقبتها قاومت. رأت أم الطفلة ما يحدث فجاءت تجرى وصاحت، تنهر الطفلة. وحررت رقبة القطة. ثم تحدثت الأم والطفلة عما حدث.**

ما رد فعلك على هذه القصة؟ هل كنت ستشعر بالصدمة إذا رأيت طفلة تعامل حيوانا بهذه الطريقة؟ إن كان الأمر كذلك، هل ستكون صدمتك أقوى لأن الفاعل هنا بنت عما ستكون الحال لو كان الفاعل ولدًا؟ أم هل كنت ستضحك ويكون المنظر مصدر تسلية لك (ربما كان المشهد يذكرك بـ "كارتون" شاهدته وأنت طفل؟ هل أثارت تجربة القطة لديك شيئا من الشفقة أو العطف، لدرجة أنك شعرت بالألم، غصة فى الحلق، أو انقباض بالمعدة؟ ربما تكون ممن يكرهون القطط جدا فتمنيت أن تنجح الطفلة فى قتلها. وربما تعتقد أنه يجب ألا يفلت أحد من العقوبة الشديدة، حتى إن كان طفلاً، إذا عذّب حيوانًا. أو ربما أنك لم تشعر بأى شيء أكثر من ذلك، أو بدرجة مؤثرة.

وأيا ما كان رد فعلك، فلعله تضمن استخدام الفكر الخالص فى تحليل سلوك الطفلة فيما يتعلق بمعتقداتها ودوافعها(٣٨). إن القصة لم تطرح، عن عمد، أى معلومات عن ذلك، غير أننا نقرأ القصة ونتحير: لماذا تصرفت الطفلة على هذا النحو؟ كيف فكرت فيما قد يحدث؟ ماذا أرادت أن تحقق أو تنجز؟ إن تفكيرنا وحيرتنا هذه جعلتنا نخمن بخصوص دوافعها، وسيكون هذا حاسمًا فى تقديرنا وحكمنا على سلوكها. إن الأذى الذى وقع على القطة المسكينة التى أوشكت على الخنق شىء مؤكد، لكن هذا السلوك الجهول من طفلة، والقسوة الصادمة، كان لهما وقعهما وأثرهما فى حكمنا الأخلاقى على من قامت بهذا الفعل.

والأحكام الأخلاقية، خصوصا على الأطفال، يمكن أن يكون لها تأثير كبير وخطير فى حياة من يُقَيِّم أفعالهم؛ إذ إننا نتعامل مع أحكامنا الأخلاقية على شخص ما على أنها تنبؤات عن سلوكه/ أو سلوكها فى المستقبل، فنشكل سلوكنا نحن تجاهه وفقًا لها. ولو قارنا بين من يوصف بأنه "جاهل"، ومن يوصف بأنه "قاس بدرجة مفزعة وصادمة"، فإن الأخير غالبا سوف يواجه مستقبلا كئيبا؛ ففى التصور العام ترتبط قسوة الأطفال باستخدام السم عند البالغين(٣٩). إننا نقع بسهولة فى فخ "الجوهر والماهية"، ونفترض أن الجهل يمكن إصلاحه. بينما القسوة وصمة دفينة فى طبيعة و"جوهر" الإنسان ولن يمكن التخلص منها أو إصلاحها. فطبيعة البشر تشبه كثيرا نفوسهم (والنفس من الصعب أو من المستحيل أن تتغير، ويعتمد هذا على "الذوق" والفهم الذى تفضله عن علم الأحياء والكائنات، و/أو على رؤيتك الدينية). وقد ينشأ الإغراء باختصار الأمر بإزاحة هذا السلوك، وذلك بإقصاء الشخص ذاته. فمن نسميهم "قساة"، نرى أنه من الأسهل كثيرا أن ننفيهم دون محاكمة، أو ننبذهم، ويحبسوا، أو يقتلوا.

وليس من الضرورى أن تظل الأحكام الأخلاقية ثابتة من أول لحظة تُطلق فيها، فكلما نحصل على معلومات جديدة، غالبا ما نراجع تخميناتنا الأولى؛ فإن كنت (فى هذه القصة) اخترت تفسير السلوك على أنه "قسوة"، ثم أخبرتك فى حينه أن الطفلة ظهر عليها الحزن الشديد مما حدث، حينئذ سيتحول تقييمك إلى أنها "طفلة جاهلة" بدلاً من "قاسية". وقد تكون هذه الطفلة على أعتاب مرض نفسى وماكرة نوعا ما فتبكى بشدة مما حدث وفى الوقت المناسب، وكثير من الأمهات يخدعهن مثل هذه الذرية. وماذا لو علمت أن هذه الطفلة عندما بلغت الرشد أصبحت تراعى القانون وتلتزم به نسبيا، وتراعى الامتناع حتى عن قتل "العناكب"، أو حتى أى حيوان من الثدييات؟ إذن فليس هناك ارتباط مباشر بين مشاعر الطفلة وتعليقك على سلوكها المستقبلى. وقد تقتنع بأنها تصرفت بجهالة؛ لأن سلوكها فيما بعد كان رفيقا بالحيوان. ففى تجربتنا أن قساة البشر لا يحرصون على سلامة العناكب، فلماذا يفعلون ذلك؟ إن "حقوق العناكب" ليست أولويات حتى بالنسبة إلى منظمات حقوق الحيوان، لذا فإن "السادى" الذى يسحق عنكبوتًا لن ينتابه أى خوف من العقاب.

إن التحليل العقلانى لأفعال غيرنا من الناس يتطلب تفسيرات واضحة، بما يُتاح لنا من معلومات. وتشمل هذه المعلومات المعرفة بالناس أنفسهم، مع قدر كبير من المعارف الاجتماعية المشتركة، والتى تتراكم لدى كل منا بمرور الوقت وكنتاج للتجربة. فنحن نعلم، على سبيل المثال، أن الناس عمومًا يبذلون جهدًا كبيرًا لعمل شىء إذا توافرت لهم الأسباب لذلك الفعل. إننا لا نرى أى سبب واضح لماذا كان على هذه الطفلة (بعد مشاحنتها للقطة) أن تقضى سنوات عديدة من عمرها فى إظهار الشفقة على الحيوان- خاصة اللا فقاريات الضعيفة التى لا تجد من يدافع عنها- إذا كانت سرًا وفى سريرتها ترغب فى إيذائها. وعلى الرغم من ذلك، فإننا

نستطيع أن نرى علاقة سببية واضحة بين حزنها الصادق، في بادئ الأمر، واهتمامها بعد ذلك بأن تتحاشى إيذاء الحيوانات.

وعلينا أن نبحث الأمر بصورة أعمق من ذلك قليلاً.. قالت الأم للطفلة إنها قد آذت وأفزعت القطة، وكان من الممكن أن تضرها ضرراً خطيراً. وسألت الطفلة لماذا فعلت ذلك؟ فأخذت الطفلة تشرح وهى تبكى أنها أرادت أن تصحب القطة فى نزهة، وأنها رأت الكلاب يأخذها أصحابها "للتمشية" وهم يسحبونها بمقود (حزام)، إذن لماذا لا نفعل ذلك مع القطط؟ إن القطة لم يكن لها "مقود" أو حزام، فصنعته لها.

وبذلك فقد حولت المعلومات الجديدة حكمنا إلى "الجهالة" من جانبنا بعيداً عن الحقد والأذى المتعمد من الطفلة. إننا مرة أخرى نستطيع، وبالفعل نفعل ذلك، أن نطرح استقراء واستنتاجا يفوق ويتعدى المعلومات التى أتيحت لنا. إنه من السهل أن نتخيل، وربما نتعاطف، مع طفلة تعيش فى منزل به قطط، وأبواها يعاملان حيواناتهم الأليفة بلطف. وبإمكاننا أن نفهم أن الطفلة كان لديها علم كاف جعلها ترى أن الكلاب والقطط متشابهة فى أمور كثيرة، ولذا ظنت أن الخيط (أو الحبل) قد يؤدى عمل "المقود" إلى حد ما، وقد أدركت فورا علامات الحزن التى بدت على القطة.. نحن بإمكاننا تقبل ذلك، وأيضا أن الطفلة لم تكن تعرف أن القطط (وحتى الكلاب) تحتاج إلى التدريب على تحمل سير "المقود". ولم تكن تفهم أنه دون عمل "عقدة" فى السير لتحمى رقبة الحيوان سوف يشتد التفاف الخيط حول الرقبة وسوف

يضيق عند مقاومة القطة، ويلزم لذلك الغوص فى بحر من المعلومات عن هذه الخلفية، إننا قد نفعل ذلك بلا أى جهد، لكن الطفلة قد لا تعلم شيئا عن كل ما نعتبره نحن أمرا مسلمًا به.

ماذا يعلمنا هذا المثال؟

هذه القصة تثير عدة نقاط. أولاً: إن المضمون مهم جدًا. هل تقبلنا كون الطفة صادقة؟ إن كان الأمر كذلك، فإن هناك عنصرًا فى القصة قد يساعدنا فى قناعتنا هذه، وهو رد فعل الأم بعد هذه الواقعة. إن غضبها المبدئى والأولى يناسب معيارًا مألوفًا لنا جميعًا عرفناه من القصص الخرافية فى طفولتنا، ومن الحكايات عن الجن، وحكايات المسلسلات التليفزيونية، والعناوين الرئيسية فى الصحف الصغيرة التى تسعى للإثارة: شخص ما "طيب" اعترضه شخص سيئ وقام بفعل شرير فكان رد فعل الشخص الأول هو الإدانة الأخلاقية. هذا ما سوف تحكيه الأم لها عن إدانة الشر، لكن الخطوة التالية هى أن نناقش مع الطفلة ما حدث، لتشرح لها ما تسببت فيه من أذى – دون إغفال ذكر العقوبة. وهذا أيضا لا يتطابق مع النموذج الذى نرجوه: الأشرار عادة يُدانون ويُشجبون ويُنظر إليهم على أنهم "شياطين"، ويعاقبون، أو تكون نهايتهم سيئة لتتناسب مع فعلهم. ومن المتوقع أن الأم ستُفهِم طفلتها، وسنرى أنها سلطة موثوق بها عندما نقيم دوافع الطفلة؛ فلو أن الأم صدقت الطفلة، فربما يكون لدينا ما يبرر تصديقنا لهما.

ثانيا: إن تفسيرنا هذا به نوع من الاختصار فى عدد الشروح الممكنة، فالقصة بداية لم تقدم أى أسباب لما فعلته الطفلة. لكننا عمليًا ركزنا على وقائع قليلة من بين احتمالات كثيرة. وكان من الممكن أن يشمل هذا الجدال حول الأسباب

أمورا كثيرة مثل: مرض عقلى، قسوة، جهل، اشتهاء القتل، حب الاستطلاع، أو الاعتقاد بأن القطط كائنات مؤذية يجب أن تُقتل، أو ربما أن أحدا ما أمر الطفلة أن تقتل القطة. وهذه هى الشروح التى عادة ما تصادفنا فى المواقف التى يُؤذَى أو يُقتَل فيها كائن ذو أحاسيس. ولقد عرفنا بالخبرة أن بعض الأسباب أكثر احتمالاً من غيرها (فمعظم الأطفال الذين عرفناهم ليس من المحتمل أن يكونوا ممن يشتهون القتل). ونحن نحكم على هذه الاحتمالات على أساس "المعارف والمعلومات العامة" وهى عمليا تشمل انحيازات نمطية، وتحاملاً غير مبرر. إن قرار الأم بالتحدث إلى ابنتها، مثلاً، بدلاً من معاقبتها، قد يجعل مسألة المرض العقلى والقسوة أقل احتمالا. فمن الأفكار النمطية ذات الصلة بالموضوع أننا لا نتكلم مع المختلين عقليا (إلا إذا كنا متخصصين ومهنتنا هى أن نعالجهم). أما القساة فنحن نعاقبهم (وإلا كان هذا تغاضيا عن سلوكهم وصفحا عنهم).

وكل معلومة إضافية تساعدنا فى تضييق مجال التحرى، حتى نصبح قادرين على الوصول إلى استنتاج بخصوص دوافع ومعتقدات الطفلة فى زمن وجيز. وربما يلزم التكرار فى هذا الصدد. وعلى الرغم من أن عقل الإنسان، من حيث المبدأ، يواجه استجابات وردود أفعال لا تعد ولا تحصى فى أى موقف، فإنه فى الواقع العملى تضيق هذه "المتاهة" من الاحتمالات وتنحصر فى قلة قليلة من الاستجابات القوية فى الوقت الذى تكون فيه الاستجابات ذاتها جاهزة للانطلاق. والمعاناة فى حالة عدم القدرة على الوصول إلى قرار تكون عموما متعلقة باثنين أو ثلاثة فقط من الاختيارات، وليس المئات أو الآلاف.

ثالثا: إن العواطف ترتبط ارتباطا كبيرا بالأخلاق. فمشاعرنا تجاه الطفلة تؤثر فى حكمنا عليها. والبحث الحديث فى مجال علم النفس، مثلاً، قد أظهر أن التأثير فى شعور الناس بالاشمئزاز أو الاحتقار دون معرفتهم يؤثر فى أحكامهم

الأخلاقية، وعلى استعدادهم لمساعدة الآخرين...إلخ(٤٠). وعندما لم يعرف من خضعوا للبحث والتجارب أسباب اشمئزازهم، وذلك بسبب حيلة بارعة فى تصميم التجربة، ظنوا أن سبب عاطفة الاشمئزاز لديهم هو المهمة التى طُلبت منهم (أى إصدار حكم أخلاقى). وكلما زاد اشمئزازنا من شخص أو سلوك معين، أظهرنا الإدانة الشديدة لهم(٤١).

وأخيرًا، فإن ما حدث للطفلة يثبت الطبيعة المراوغة للعواطف. وكى نفهم ذلك، فإننا نحتاج لمعرفة ما الذى كانت تشعر به وتحسه فى هذه اللحظة. ومن الواضح أن ذلك ليس بالإمكان، إننا لسنا فى مثل ظروفها، أو جذورها الاجتماعية، أو جيناتها...إلخ. وحتى اللغة لا تزودنا بالوصف الدقيق للعواطف، على الرغم من الفروق الطفيفة المتاحة فى الألفاظ.. ومع ذلك، فإننا نستطيع بناء "رواية مقبولة" عن تجربتها الدفينة كما يلى:

إن رد الفعل الأول للطفلة كان "صدمة".. لقد توقعت قطة أليفة تسير خلفها، فهى لم تر هذا الحيوان العائلى المدلل يتصرف بهذه الطريقة ويتألم. وكانت صدمتها هذه بها درجة كبيرة مما يسميه علماء النفس "إثارة" وفرط انتباه، بسبب دفقة من "الأدرينالين" وزيادة فى ضربات القلب، وشد أو توتر عضلى، أو ما شابه، لكن دون أن تصاحب ذلك عاطفة سلبية أو ايجابية. إنها كانت مثل من يحفظ توازنه على قمة حادة للجبل، وهو يعلم أنه سوف يسقط بطريقة أو بأخرى، لكنه لا يعلم أى طريقة حتى الآن. ولما كانت الطفلة لم تعتد أو تألف هذا الشعور قبلاً، فقد تجمدت وهى تحملق فى القطة، دون أن تستطيع تفسير تجربتها هذه.

ثم وصلت والدة الطفلة، فأعطى سلوك الأم "المفتاح" الذى كانت تحتاجه الطفلة لتختار تفسيرها العاطفى لما حدث- وكان فى حالتيا تفسيرًا سلبيا للغاية- لما كانت

تشعر به. لقد كانت تجربتها مؤلمة إزاء غضب الأم، وليست تجربة مُحفزة أو مُشّجعة، ففهمت تأثير "الأدرينالين" على أنه خوف أو فزع ورعب، بدلاً من كونه إثارة أو نشاطًا زائدًا، ولقد دعم هذا الفهم والتفسير الحوار الذى دار بينهما بعد ذلك.

ولو كانت الأم أنْبتّها أو ضربتها، أو تجاهلت سلوكها، أو ابتسمت فى تسامح، فهل سيكون تفسير الطفلة لمشاعرها وسلوكها التالى مختلفا؟

ويجب ألا نبالغ.. فهذه الطفلة حظها وافر؛ إذ إنها وُلدت فى بيئة من الطبقة المتوسطة التى تسودها المحبة، فكانت هذه الواقعة لا تتجاوز شيئًا من القلق، والالتزام بما يقره المجتمع، ومراعاة الاهتمام بالحيوان. إن أبويها يستهجنان القسوة، وأصدقاءهما والأقارب يستحسنون الشفقة والسلوك السوى، وثقافتها تعرض لها صور الحيوانات على أنها "صديقة" وبها لمسة "إنسانية" (مثل أفلام ديزنى "Disney"). وليس هناك مأخذ واحد يستدعى "لفت نظر" هذه الطفلة سوى تكرار الرسالة التى تؤكد "أن تعذيب الحيوان يؤذيه وسوف يؤذيك"، بينما معاملته بلطف تشعرك براحة وستكون لها مكافأة طيبة (أو ثواب).

وقد يحصل أطفال آخرون على "لمحات" توجههم لشيء ما. وتقودهم الرسائل فى عالمهم الخاص كى يفسروا ما يشعرون به بشكل إيجابى- الإشارات الداخلية التى تنشأ من عقولهم وأجسادهم- ويقترن سلوكهم بالإثابة (أى مكافأة) بدلاً من القلق والحزن (أى عقاب)، ومن ثم تكون أهمية ورود رسائل سريعة وسلبية بصفة مستمرة عن السلوك (وليس هذا عن الطفلة، التى تقع فريسة لفكرة "جوهر النفس". وتغيير السلوك أسهل فهما للطفلة عن تغيير النفس). لقد ظهر من البحث والدراسات أن معظم أفعال القسوة من الأطفال تجاه الحيوان (وبالفعل تجاه أطفال آخرين) تحدث فى وسط جماعى، حيث يشجع المشاركون بعضهم بعضا على

الإيذاء. ولا تصح المبالغة فى ذلك أيضا، فالقسوة فى الصغر ليست دليلاً أو ضماناً على فظاعة السلوك فى المستقبل (عند الكبر). فكثير من البالغين المحترمين اليوم كانوا قد ارتكبوا أفعالاً مفزعة ضد أى كائن حى فى وقت ما، ليس مصادفة ولكن عن قصد (مثل أحد الأساقفة الذى رأيته فى إحدى الرحلات يستخدم شوكة الطعام "ليهرس" بها دبوراً بريئاً). ومعظم هذه "الجرائم" إما إنها لا تؤخذ فى الحسبان، فى عرف ثقافتنا، ولا تُعتبر "قسوة" (هل الدبابير تتألم؟) وإما إنها أمور نادرة وغير سارة، أو ذكريات مخجلة تدعو من يرتكبونها ليكونوا أنماطاً من البشر أكثر تلطفاً، وترفقاً، ونبلاً فيما بعد- فى المستقبل.

ملخص وخاتمة:

إن الإشارات الواردة من أجسادنا تمدنا بالمعلومات التى تلزمنا؛ حتى نفهم تأثير الأحداث علينا وأهميتها بالنسبة إلينا، وتخبرنا منظومة أحاسيسنا الخارجية بما يحدث، أما المنظومة الحركية فتخبرنا بما نفعله تجاهها، وكى تكتمل الحلقة، يجب أن نتفهم عواقب أفعالنا والتغييرات فى العالم المحيط بنا. ولا يكفى أن نعرف أننا نأكل. أو حتى إن الطعام مذاقه حلو، لكننا يلزمنا أن نعرف ما سوف يُحْدثه فينا كى نقرر إذا ما كنا سنأكله مرة ثانية أو أن علينا أن نتحاشاه فى المرة المقبلة. هل هذا الطعام يصلح "مزاجنا" وحالتنا النفسية، أو يسلمنا إلى النعاس، أو يجعلنا نشعر بالغثيان أو بالانتفاخ، أو بطنين ودوار بالرأس؟ هل نفضله أم لا، وكيف سيكون شعورنا بعده؟ هنا هو مجال التقييم، حيث تسيطر العواطف وتتحكم.

ويعتمد تقييم أى حدث أو تفاعل باعتباره شيئًا جيدا أو سيئًا، فى أبسط أحواله على الأقل، على التأثير المادى والجسدى لهذا الحدث فينا، لقد احترق "فلان" من الفرن! فينا سيكون أكثر حرصا فى المستقبل. لقد خدع شخص ما "مريم" ! فأقسمت ألا تتعامل مع هذا "الوغد" مرة أخرى. فالأحداث تبدو حقيقة أكثر بالنسبة إلينا إذا ما كانت تؤثر فينا تأثيرا مباشرًا؛ تسبب لنا الألم أو تمنحنا السعادة. إنها تعنينا أكثر ويكون لها مغزى أكبر، فى المجال العصبى، عندما تنتج أنماطا للنشاط أكثر وضوحا وتمييزا ويكون الاحتمال الأكبر أنها سوف تغير سلوكنا فى المستقبل. إن أكل الطعام الذى يسبب لك القيء بالفعل. سوف يجعلك ترفضه مستقبلا بدلا من طعام عرفت أنه سبب الإعياء لشخص آخر، أو أن تكون قد قرأت عن وجبة طعام جعلت شخصا ما يمرض، إلا أن أبسط التلميحات عن شيء يثير الاشمئزاز، مثل

الحديث عن الجرائيم. الفئران، الأورام (كأمر عابر عندما يتكلمون عن اليهود) من الممكن أن تستحضر أنماطًا من القرف والاشمئزاز إلى حد ما.

وهناك أسلوب تُخلق به هذه الروابط العاطفية السلبية لإقصاء الآخـر دون أن نُضمنها في إطار من الرقة واللطف، وذلك بأن نكرر الترابط اللفظي بتكرار مـألوف وبصورة عابرة (أي "تقذف" بالتعليقات التي تبدو صادقة) ودون تأكيد ضخم وزائـد. إن هذا يسمح لهذه الروابط بأن تقوى دون أن تثير معتقدات متصارعة ما يؤدي إلـى أن يتحداها شخص ما ويُضعف تأثيرها. ومثل كل أساليب إقصاء الآخر، فـإن هـذا الأسلوب بسيط وإيحائي، ويستغل الميل الطبيعي للعقول بإيجـاد الـروابط بعلاقـات سببية أو منطقية. وكل زعيم أو قائد من مرتكبي جرائم الإبادة الجماعية في التـاريخ قد أتقن هذا الأسلوب ولم يحدث أي عمل وحشي دونه.

وتقدم العواطف بعض الأسباب التي تقود الناس إلى السلوك القاسي. ومع أن الدافع للفعل غير محدد وغامض وغير كاف؛ فإنه حتى يكون مؤثرا يتحتم أن يسير في مسارات تُطلق سلوكيات معينة؛ وهذه المسارات (القنوات) التي يستعملها البشر ليست سوى المعتقدات.. وبناء على ذلك، فإننا نلجأ إلى هذه "العناصر" الغريبة التي تسكن بالمخ أو تقيم به: ما هي، كيف تتغير، وكيف يمكنها أن تجعلنا قساة؟

الفصل السادس

كيف تترسخ لدينا المعتقدات؟

إن ارتكاب الدولة أو إجازتها للعنف الجسمانى تجاه جماعة محددة الهوية لا يمكن أن يحدث إلا إذا كان يسبقه عنف رمزى

(كارول ناجنجاست **Carol Nagengast**

فى كتاب **A.L. Hinton, Annihilating Difference**)

ما المعتقدات ؟

منذ الوهلة الأولى التى نترك فيها الحديث عن العواطف. يبدو أن موضوع المعتقدات ثابت ويدعو للثقة والطمأنة، حيث يأخذنا إلى عالم المعرفة والإدراك. إن المعتقدات هى كيانات تحمل معلومات بها كل الإيحاءات العلمية والمنطقية التى يدل عليها هذا اللفظ. والمعتقدات، بما يربطها من صلات بالمنطق تكَون شبكات متسعة من المعارف التى نجَمع منها هوياتنا، والتى من خلالها نتفاعل مع العالم. ومثلها فى ذلك مثل العبارات التى يمكن أن تكون صحيحة نحويا أو غير صحيحة. لها معنى أو دون معانٍ، ونحن نملك قدرات رفيعة تجعلنا نستطيع التمييز والتفرقة

بينيا. إن المعتقدات يمكن أيضًا أن تكون حقيقية أو زائفة، وإذا اكتشفنا أنها زائفة نستطيع أن نُصححها أو أن نتخلى عنها وننبذها.

ويتيح لنا ذلك أن "ننخل ونغربل" معتقداتنا- إما باستخدام المنطق لاختبارها في مواجهة بعضها بعض وإما بتجميع الأدلة والشواهد حتى نختبرها في مقابل الحقيقة والواقع؛ وبالتمسك فقط بالصحيح منها نستحوذ على الفهم السليم للأمور. وعندما يتغير العالم حولنا، فإن معتقداتنا تتغير لتتسق وتتناسب معه. ومادامت قدراتنا على التعقل والملاحظة غير مُعاقة أو مُعَطلة، فإننا نفترض أن معظم معتقداتنا حقيقية وصادقة. وكلما كان يقيننا بهذه المعتقدات قويا، تأكدنا أنها حقيقية. وبعبارة أخرى، إننا نرى أنه مهما تدفقت الهرمونات، وتحولت "الأمزجة"، وتزايدت أو قلت المشاعر، فنحن نستطيع أن نثق في معتقداتنا بأنها مُتجذرة ومتأصلة بثبات في العالم الحقيقي.

الشواهد والأسباب:

هذه صورة حكيمة وقريبة إلى النفس، وهي ليست خطأ بالمرة أو كلية. إن بعض معتقداتنا تستمد حقيقتها من المنطق: أي من علاقاتها الرمزية بمعتقدات أخرى. تدبر الأمثلة الثلاثة التالية:

- ١٢٠+ ٤ = ١٢٤
- الأفكار "المائعة" لا يمكن أن تكون خضراء في الوقت نفسه.
- إذا أراد كل الأعداء قتلك وكان "فريد" عدوا، إذن فهو يريد أن يقتلك.

إنك لن تستطيع أن تهرب من هذه القناعات إذا فهمت كيف تستخدم الرموز المُتضمنة فيها (حسب قواعد منظومة الرموز). وحقيقتها أو صدقها ليست له علاقة

بأسلوب وواقع العالم (إننا لا نعتقد أن الأفكار لها ألوان إلا إذا كان هنـــاك انـــسجام متزامن معها) فقد يكون ذلك حقيقيا في أى عالم، مادامت هـــذه الرمـــوز تـــستخدم بأسلوب استخدامنا نفسه لها.

وبالمثل، فإن بعض معتقداتنا تُستمد من ملاحظاتنا وهى مُعرضة للاختبـــار بالدليل. ولعله قول "بلا قيمة" لو قلنا "بينما أكتب فإننى أعتقد أننى أنظر إلى جهـــاز مراقبة الصورة بالحاسب، لكن هذا شيء حقيقى، فأنا عندما أديـــر رأســـى ســـوف يتغير اعتقادى تبعًا لذلك. إن كثيرا من معتقداتنا لا ترتبط مباشرة وبصورة كبيـــرة بمدخلاتنا الحسية، لكنها على الرغم من ذلك تتأثر بها. وإن كنت تعتقد أن اليوم هو يوم الجمعة، وجاءت نشرة أخبار الصباح لتوهن عزمـــك وتؤكـــد أن اليـــوم هـــو الخميس فإنك سوف تصحح اعتقادك فورًا. وعلى الرغم من أنك سوف يـــسرك أن تظل متأثرًا بوهم أن عطلة "نهاية الأسبوع ليست ببعيد، كمـــا أن معرفتـــك بـــاليوم الصحيح فائدة ومكسب. فالمعتقدات الصحيحة تتيح لنا تنبـــؤات صـــحيحة وهـــذه بدورها تُمكننا من سيطرة أكبر على العالم إضافة إلى أنها تحمينا من خيبة الأمل أو التوقعات. وقد أدى اختبار الأدلة والشواهد إلى تقدم كبير فى العلم وفـــى الطـــب. فالحقائق التى يكشف عنها عارضة ومحتملة لأنها تعتمد على حالة الواقع والحقيقة وعلى قدرتنا على تسييرها وتوجيهها فى الوجهة الصحيحة.

ولو أننا اختبرنا كل اعتقاد نصادفه بشدة وبصرامة قبل تقبله والموافقة عليه لكنا جميعا من أتباع الفلسفة الوضعية اليقينية، ولأصبحت العلاقة بين ما نفكر فيه وبين مـــا هو قائم بالفعل أقوى وأعظم. وسوف نكون أيضا غير آمنين بلا نهاية وغيـــر فـــاهمين بصورة لا تصدق. وكثير جدا مما نعتقده نأخذه عن ثقة لدرجة أننا لو أخـــذنا بمعيـــار الدليل فسوف تنكمش وتتقلص آفاق إدراكنا إلى مجال ضئيل وغير قادر على التخيـــل، حتى تجاه المعيار الرحب الذى يتقبل أى اعتقاد يؤكده العلم. فهناك الكثير جدا الذى لـــم

يستطع العلماء اختباره حتى الآن. وكل المعتقدات شديدة الإثارة فى تاريخ الإنسانية سوف تترك وتنبذ باعتبارها صعبة (أو مستحيلة الاختبار).

وبالطبع؛ فإن الإثارة يمكن أن تكون إما سلبية وإما إيجابية. وبعض المعتقدات المثيرة أيضًا خطيرة، لكن أسلوب التعامل مع هذه المشكلة ليس الإصرار على أن كل المعتقدات ترتكز على العقل والدليل، كما يبدو من بعض أتباع المذهب العقلى. وهذا أخلاقيا شيء مثير للشك، حيث إن كثيرًا من المعتقدات غير العقلانية ليست شديدة الضرر، أو غير ضارة بالفعل، وقد تبعث على الارتياح. إنها أيضا غير واقعية ليس لأنها تحاول أن تغرينا بأن نرفع العلم والعلماء على قاعدة السلطة؛ فهذا موقع غير قابل لشيء يعتمد على عدم اليقين، وليس عقيدة. وقد يساعد التعليم والتدريب العلمى على "فتح" بعض العقول، لكنها محاولة ليست كافية، فهناك كثير وعديد حولنا من ذوى التعليم العالى و/ أو من المتدربين علميا وهم متعصبون ولديهم استعداد لمصادرة ورفض أى رأى بديل دون إعادة النظر، ولا داعى لديهم لأى فحص لدليل أو برهان، لأنهم يشعرون بشدة أنهم دائمًا على صواب. وإلى أن نبلغ القدرة على إعادة تشكيل الكائن البشرى، سوف تبقى معنا "هنا" الأفكار المغلوطة والتى بلا أساس.

إن إحدى الوسائل التى يدعم بها الناس أفكارهم المفضلة والمغلوطة والتى بلا أساس هو أن يَخفضوا مستويات برهانهم (وعلى العكس من ذلك فالأفكار غير المرغوبة تخضع للفحص والتدقيق الذى يليق بأكبر الفلاسفة المتشككين). ولو أن "جيم"، الذى يعتقد فى وجود الأشباح، أقسم أنه سمع ضوضاء غريبة ليلاً فى منزل قديم مهجور؛ فإنه يؤسس للاعتقاد بأن الأشباح هى التى أصدرت هذه الأصوات على دليل واهٍ وضعيف ويتجاهل التفسيرات الأخرى. إن "جيم" قد لا يتعامل مع هذا الدليل دائما باعتباره دليلا حيويا– ففى مسكنه الحديث قد يُغفل الأصوات و

"الصرير" الطارئ كشيء صادر عن "السخان" أو "السباكة" أو من عند الجيران. لكنه لو كان اختار رؤية عالمية تشمل الأشباح؛ فإنه يحتاج لما يدعم هذا الاعتقاد؛ ولذلك فإن تفسيره عن اعتقاده بوجود الأشباح يتغير بتغير الأماكن التي يظن أن الأشباح توجد بها.

العلم واليقين :

إن العلماء، عمومًا، لم يتبعوا رؤية "جيم" عن العالم، لكن العلماء لا يستطيعون إثبات أن الأشباح لا وجود لها. وعمل المخ لا يختص بتوليد اليقين ولكن عمله عن كيف تنظّم وتكيف الاحتمالات. والعلم، وهو أحد المنتجات الأكثر فاعلية لهذا المحيط أو "البحر" من الخلايا العصبية، لا "يثبت" شيئًا لأن الإثبات يعني اليقين، وهو ينتمي إلى مملكة المنطق والرياضيات. والعلم هو مسعى ومحاولة إنسانية فقط، هدفها هو نظريات أفضل وليس نظريات مثالية تصل إلى حد الكمال؛ إنها تفسيرات تقترب من الحقيقة ولذا فهي تقدم تنبؤات أكثر دقة. وبعض التفسيرات تزودنا بشيء ملائم جدًا، مثل نظرية "النشوء والارتقاء"، وبعض آخر مثل علم الفلك يقدم شيئًا لا يلائم أحوال العالم(١)، إلا أن ما يناسبني قد لا يلائمك أنت تمامًا، وعلى الرغم من أن الجدال حول صحة المعتقد والكفاءة والبساطة والمعقولية محاولة يجب أن يكون لها وزنها، فهي غالبا تُختصر بمجرد قوة الاعتقاد الإنساني. وحتى الإشارات من الحقيقة لا تستطيع دائمًا تغيير أو تحويل توقعات العقل، فربما يجب علينا ألا نندهش أن مجرد المناقشة للحقائق قد تفشل.

إن الدليل والبرهان والعقلانية تعطينا الكثير، لكنها لا تعطينا بنفسها أسبابًا لأن نهتم كثيرا بالمعتقدات التي تؤيدها وتدعمها (وحب الحقيقة أحد الدوافع التي يشار لها غالبا- ويُبالغ فيه غالبا. مثل معظم أنواع الحب. فإنه من النادر أن يكون

نقيا وبلا شروط فيما يبدو). أنا مثلاً أعتقد أن نظرية نقاط الاشتباك العصبى عن كيف "تتحدث" الخلايا العصبية معًا هى شيء مثير للاهتمام والانتباه للغاية، وهم وله تأثير. غير أنه لو كان لشخص ما أن يقنعنى أن هذه النظرية كانت خطأ فإن قلبى لن ينفطر، وعندما أتعامل مع مقالات علمية تقترح أن النظرية قد تحتاج إلى تعديلات، فإننى لا أبكى بحرقة (ولا أقذف بالجريدة بعيدًا باحتقار وأذهب لألقى بقنبلة فى معمل العالم كاتب المقال)[٢]. وقد أكون من المهتمين بالثقافة؛ فقد قضيت سنوات من عمرى فى دراسة علم الأعصاب؛ لكننى بعد كل هذا لم أستثمر أو أستغل المصادر العاطفية الضخمة فى نظرية نقاط الاشتباك بين الخلايا العصبية، أو أتمسك بها.

وهذا هو الوضع والموقف العلمى والعملى، فهو محاولة للحد من الالتزام العاطفى بالنظريات والافتراضات التى قد "تنقلب" ويعاد النظر فيها. والمعتقدات المحملة بالعواطف تتنامى وتمتد، بالطبع، خصوصا عندما تتضمنها وتحكمها مسألة المنزلة والمكانة، لكن العلماء الذين يصبحون مرتبطين جدا بنظرياتهم ويتمسكون بها يخاطرون بأن يسخر منهم نظراؤهم. وكما ذكرنا سابقا، فإن الفشل والمراجعة شيء مقبول فى "الحكايات" المتداولة فى محيط العلماء الذين يتحدثون عن أنفسهم وعملهم.

وسنرى إذا ما كان اهتمامنا بالمعتقد حاسم بشأن ما إذا كنا سوف نعمل وفقه ونلتزم به! إن اهتمامنا يعتمد على منشأ الاعتقاد أى من أين جاء هذا المعتقد، وما مقدار قوته، وما شعورنا تجاهه. وعلينا أن نفكر فى كل من هذه الأمور الثلاثة تباعا:

مصادر المعتقد (من أين جاء؟):

إن نماذج النشاط العصبى، كما رأينا، تنطلق من، وترتبط بعلاقة متبادلة مع، الإشارات الصادرة من ثلاثة مصادر: أنماط عصبية أخرى، مدخلات حسية من الخارج، ومدخلات من الجسم. ومن حيث المبدأ، وبالنسبة إلى أى خلية عصبية فى المخ يمكننا قياس نسب مدخلاتها التى تأتى مباشرة من العالم الخارجى، ومن إشارات داخل الجسم، ومن الخلايا العصبية الأخرى. وقد نعتقد أن هذه الجهات الثلاث تتنافس كى تؤثر فى الخلايا العصبية التى ترسل لها الإشارات، فعندما تكون الإشارات من العالم الخارجى قوية وواضحة (مثل الصوت المفاجئ الذى يأتى من خلفك وينتزعك من أحلام اليقظة التى كنت تستمتع بها)؛ فإن مسار نشاطها سيكون من "القاع إلى أعلى". وعندما تكون الإشارات ضعيفة أو غامضة، فإن دور التفسير والاستنباط "من القمة إلى أسفل" يتزايد. أما عندما تصحب الإشارات تغييرات فى حالة الجسم، فإنها تستطيع، كما رأينا فى الفصل السابق، أن تصبح أقوى بدرجة كبيرة.

والمعتقدات القوية تعنى الكثير بالنسبة إلينا عن غيرها الأضعف منها، وهذا "المعنى" يشمل أربعة أوجه متداخلة للمعتقد ويتوقف بعضها على بعض: أهميته (مقدار فكرنا وفعلنا الذى يرتكز على افتراض أن المعتقد حقيقى)، علاقته بالأفكار الأخرى (ثراء دلالة المعانى المصاحبة للفكرة)، قربها من المدخلات الحسية (هل المعتقد ملموس وواقعى أم مجرد، أى اعتماده على، وقابليته للاختبار، مقابل الحقيقة) وصلته بالإشارات الداخلية (معناه العاطفى، وقيمته بالنسبه إلينا). إن المعتقدات التى تستند إلى ملاحظة حسية تكون أضعف؛ لأن العالم الذى تنشأ عنه

يمكن أن يتغير، أو يتغير بالفعل. أما المعتقدات التى تعتمد علـــى المنطـــق فهـــى معرضة لمخاطر أخطاء التفكير أو الاستنتاج من الوقائع؛ فالتغيير الثقافى مثلاً من الممكن أن يُحَول الافتراضات الواضحة لجيل ما إلى موضوع للسخرية عند الجيل التالى. والمعتقدات التى ترتبط بعواطف قوية لا تحتاج أن تتبع حقيقة متغيـــرة، ولا أن تُزْعجها أخطاء التفكير؛ ذلك لأن قوتها تستمد طاقتهـــا مـــن المـــصدر الثالـــث للإشارات العصبية، الأعضاء الداخلية للجسم (الأحشاء)، وهى لا تتغير إلا عنـــدما تتغير المشاعر فقط- وقد لا يحدث هذا على الإطلاق، وبناء على ذلك فإنها يمكـــن أن تصبح قوية وصلبة بدرجة كبيرة.

قـــوة المعتقـــد:

تعتمد قوة أنماط النشاط العصبى، كما رأينا فى الفصل الخامس، على القـــوة الدافعة لنقاط الاشتباك العصبى (أى الاحتمال الذى تنتقل به الإشارات بين الخلايـــا العصبية)، والعمليات الكيميائية الحيوية التى تسمح لنقاط الاشتباك العـــصبى بـــأن تتغير عمليات معقدة للغاية، ولن تتاح لى مساحة كافية لوصفها[٣]. ويكفى القول إن نقاط الاشتباك العصبى يمكنها أن تغير اتزانها الكيماوى وقوتها، حيث تجعل إرسال الإشارات أكثر احتمالاً، وأن هذه التقوية تحدث عندما تكون الخلايا العصبية التـــى تربطها (أو تُهيئ الاشتباك بينها) يُجّدد تنشيطها معًا بـــصفة متكـــررة (والخلايـــا العصبية التى تنطلق معًا تشتبك أو ترتبط معًا، كما يقال). وقد يحدث هـــذا عنـــدما تُنَبه خلية عصبية خلية ثانية، أو عندما تُطْلق الخليتان إشارات أخرى فجـــأة وفـــى وقت واحد، وسوف تتدخل الأنماط المتصارعة، أو أى شكل من أشـــكال التثبـــيط

والمنع للتنشيط المتبادل ولتقوية نقاط الاشتباك العصبى التى سوف تقويها الأنماط الثابتة والمتكررة بصفة متوالية.

والمعتقدات التى نميل إليها أكثر من كل ما عداها هى التى تُسبب أنماطًا واضحة وقوية من النشاط العصبى وتتواءم بسهولة مع الأنماط التى نملكها بالفعل. إنها "مثلنا"، ونحن عمومًا نفضل ما يماثلنا، خصوصا أن المعتقدات التى نتقبلها تصبح مكَونات من هويتنا ككل. إنها يجب أن تضيف لنا شيئًا جديدًا (ولماذا نزعج أنفسنا ؟)، ويجب عليها - إن أمكن - فك "أى "عقدة" فى "شبكات" الأعصاب أو تمريرها فى مسارات جانبية، إذ إن ذلك سيقلل الإحساس غير المريح بالصراع، وسوف يتيح لنا مشاعر أفضل. وإذا كانت المعتقدات ستُشكل أنماطًا ثابتة، فلا بد أن تكون هذه الأنماط واضحة ومستمرة وبسيطة نسبيًا. ولا بد أيضا أن يعززها داعم عاطفى يساعدها فى "نقش" أو "حفر" تأثيرها فى القشرة الخارجية للمخ.

ويعتمد إقصاء الآخر على المعتقدات التى تنطبق عليها كل هذه السمات والمتطلبات. والرسائل الأساسية بهذا الخصوص تُملى بطرق كثيرة، بأحكام أو بعدم تعمد ظاهر، لكن فى باطن الأمر تكون لها "حكاية" واضحة وبسيطة وذات معتقدات ثلاثة رئيسية. أولها هو: هؤلاء الناس مختلفون عنا، ومثيرون للاشمئزاز، وليسوا مثلك (وليسوا بشرًا بصورة كاملة). وثانيها هو: هؤلاء الناس يريدون إيذاءك، أو قد آذوك بالفعل أو آذوا ناسا مثلك. وثالثها هو: إزاحة هؤلاء الناس وإقصاؤهم سوف يُحل مشكلاتك، وإقصاء الآخر بشىء من البراعة يقدم المبدأ والتعاليم ويجهز المؤيدين ويستهدف جمهورًا مقصودًا بعينه، وذلك حتى يمكن "للقائد" أن يظهر على أنه "واحد منا"، "رجل الشعب". وبذلك تكتسب أفكارهم هذا البريق النبيل للمنطق الذى نرغب أن يقترن بـ "ناس مثلنا". والروايات عن إقصاء الآخر تمد السامعين أيضا بشرح للمشكلات التى لا يستطيعون تفسيرها أو تحليلها

بأنفسهم- والأيديولوجيات هي العلاج- وهذا الاختزال والتخفيض للصراع الذهني هو ما يجذبنا إليهم "ويعجبنا فيهم". ومن المهم أن تكون "حكاياتهم" لها إطار من اللغة المألوفة التي تناسب الثقافة المحلية لمن يستمعون إليهم، فهذا يسهل مرور الأفكار الرئيسية بلطف أكثر في العقول التي قد تتعثر في فهم تأثيراتها الخطيرة[٤]. ومن الوقاحة المتزايدة ونشاط الجماهير في "نورمبرج" -إلى اللغة الشديدة والمؤذية في راديو "رواندا"- يتخذ إقصاء الآخر وسيلة فعالة تستخدم فيها العواطف القوية.

شعورنا تجاه المعتقدات:

يعتمد المعنى العاطفي للمعتقد على المدخل العاطفي الذي يوجد أثناء تنشيط النمط العصبي للمعتقد بواسطة الإشارات التي تنساب خلاله. وقد تكون لهذا المدخل علاقة بمحتوى المعتقد.. وعلى سبيل المثال. فإن الادعاء بأن الفئران تثير الاشمئزاز قد ينشط أنماطًا تشمل الشعور بالاشمئزاز (ومن الممكن أن يصل هذا الشعور إلى جذع المخ والمعدة، فهما المعنيان بهذا الشعور)، ولكن العاطفة قد لا يكون لها مثل هذه الصلة بالمعتقد وعلى الرغم من ذلك تؤثر فيه. ولو عرفت، وأفزعك ذلك، أن الفئران شوهدت في شارع يقطنه المهاجرون، فقد تربط بين مشاعرك السلبية تجاه الفئران وبين المهاجرين (سواء كان ذلك بوعي أو دون وعي) خصوصا إن كنت بالفعل تكره المهاجرين. وقد تكون هناك فئران في الحي الراقي المجاور لك أيضا، ولم يجذبها المهاجرون للمنطقة؛ لكن جذبها الطعام الذي يلقيه جيرانك للطيور، غير أن "وصمة الاشمئزاز" التي اتخذتها لن تتبدد أو تزول (إنه من الأسهل لوم المهاجرين بدلاً من إفساد علاقاتك بجيرانك).

إننا غالبا ما نفكر فى المعتقدات باعتبارها كيانات محايدة، أو من قاطنى المملكة العقلانية الهادئة، لكن المعتقدات من الممكن أن تكون مُحمَّلة بأحمال عاطفية ثقيلة. وبصرف النظر عن تأثيرات المضمون التى ذكرناها سابقًا، هناك مصدران لهذه القيمة المضافة. الأول هو أن كثيرًا من معتقداتنا تنشأ من "ناس" آخرين ممن نُكِن لهم مشاعر قوية. والثانى هو أن المعتقدات ذاتها لها مضامين تقييمية لأنها عبارة عن تنبؤات بخصوص ما يجب أن يكون عليه حالة العالم الواقعى. والتنبؤات التى تتأكد أو تتعارض ليست محايدة لأن البشر، ببساطة، ليسو آلات "كمبيوتر". وما يتأكد منها يقوى إحساسنا بالسيطرة وله تأثير مطمئن، أما ما يتعارض فيضعف إحساسنا ويثبط مشاعرنا(٥). إننا لا نأبه كثيرًا بالمعتقدات، وتأثيراتها هى الأهم، لأن المعتقدات التى نُوليها أشد الاعتزاز يمكن أن تتبدل وتتحول.

المعتقدات هى توقعات:

إن المعتقدات مثل كل "الأثاث الذهنى"، تعتمد على أنماط النشاط العصبى. وكى تتضح المعتقدات أو تتجسّد على هيئة فكر أو كلمة أو كمقترحات معينة، فعليها أن تُنشّط الأنماط التى تساند الرموز المرتبطة بها، إلا أن المعتقدات لا يلزم أن تكون واضحة بهذا الشكل حتى تؤثر فى السلوك. وكما رأينا، فى حالة أطياف العواطف فى الفصل السابق، فإن تنشيط نمط عصبى ما لا يحتاج أن ينشط كل عنصر مشارك فى هذا النمط. ومن المفيد هنا أن نفكر فى المعتقدات على أنها توقعات.. أى تنبؤات عما يحتمل أن يكون العالم عليه. إنك قبل أن تمد يدك إلى شىء ما؛ فمن الممكن أن يقال إنك لديك كثير من المعتقدات عما سوف تُحسه يدك وأنت تحركها، وبأى شكل

سوف تمسك يدك بهذا الشيء، ويُصدّر بذهنك باستمرار هذه التنبؤات عن التفاعل مع الأشياء. وعادة نحن لا نلاحظ هذه الأمور أو الأحاسيس إلا إذا اتضح أن توقعاتنا خطأ. وإذا ما استحثك دافع ما، قد تفصح عن بعضها باللغة، ولن تكون هناك حاجة لتفعل ذلك دائمًا. ومنظومة الرموز هي التي تزودنا بـ "العملة" التي تسمح لنا بالتعبير عن أنفسنا، إما لأنفسنا وإما لغيرنا، وإذ لم يوجد هذا الدافع للتواصل: فإن معظم تنبؤاتنا تؤدي عملها دون أن يتعرف عليها أحد.

وإذا نظرنا إلى المعتقدات على أنها توقعات؛ فإن ذلك يتيح لنا التوسع في فئات وأصناف المعتقدات لأبعد من النماذج الفلسفية التقليدية ذات السياقات التي نُعَبر عنها بوعي كامل. وهناك أبحاث كثيرة ترى أن المعتقدات لا يلزم أن تكون مُدْركة بالوعي حتى يُمكنها أن تؤثر في السلوك(٦)، وباعتبارها نوعًا من التوقعات، فإن المعتقدات تكشف عن نفسها كمعابر تصل بين الحقيقي والمحتمل، فتصل عالمين من الماضي والمستقبل. إن اعتقادك بأن الشمس سوف تُشرق غدًا يعتمد على قيمة ثابتة من الحياة، وهي أن الأيام التي مضت تشهد أنها لم تُخلف موعد شروقها، وبما أن المعتقدات تخلقها التجربة والخبرة؛ فهي تشمل افتراضات عما قد كان من ذكريات أو ما كان قد حدث(٧).

أما المعتقدات الأكثر تجردًا وتعقيدًا؛ فمن الممكن أن ننظر إليها وكأنها مجموعة من التنبؤات المترابطة. وعلى سبيل المثال، فإن الاعتقاد بأن قدماء المصريين عبدوا الشمس يقودنا إلى التوقع بأننا لو قرأنا مادة تاريخية عن هذا العصر قد نجد الدليل على ذلك. (وقد يكون هذا الادعاء بسبب التنبؤات عن وجود رسوم لقرص الشمس أو صور الدفن التي تشير إلى الشمس ضمن طقوس دينية). ومن حيث المبدأ، يمكن أن تكون هذه التنبؤات مفيدة في اختبار هذا الافتراض، ربما بإجراء بحث علمي عن الطقوس المصرية، أو بالذهاب لمشاهدة المعابد

والأهرامات. وعلى أرض الواقع؛ فإننا عمليًا لن يكون لدينا الوقت كى نفحص كل شيء بأنفسنا. ولذا فإن عديدا من المعتقدات تُنقل وتُرحل، أحيانـــا بالجملـــة ودون تعديلات، إلى غيرنا من الناس.

المعتقدات الاجتماعية :

نحن جميعا نعتمد على الآخرين فى الحصول على المعلومات عـــن العـــالم؛ لأننا ليس لدينا الوقت أو الطاقة أو الخبرة لنتحقق بأنفسنا. إننا أساسا نحتاج لغيرنـــا من الناس كى يعلمونا كيف نستخدم اللغة، وكيف نُسَمى ونفهم مشاعرنا وسلوكياتنا، وكيف نُدير تفاعلاتنا الاجتماعية، وكيف نُفَرق بين المقبول وغيـــر المقبـــول مـــن المعتقدات والأفكار والعادات والأعراف والتقاليد. ولو وقعنا فى براثن الـــشك فـــى عالم مضطرب ومتقلب، فإننا نلجأ إلى آراء أناس نثق بهم ونتخذ حكمهم كى نُـــدّعم ونقوى آراءنا الخاصة.

ولو اعتبرنا المعتقدات تنبؤات، فإن ذلك له نتيجة أخرى. وقد أكـــد البحـــث الفلسفى عن المعتقدات مسألة صدقها كعبارات (مقترحات أو افتراضـــات)، لكـــن المعتقدات قد لا يُعبّر عنها دائمًا فى صورة افتراضات وقـــد يتـــضح أن التنبـــؤات حقيقية أو زائفة، لذا يلزم التحقق منها أولاً. إن المعتقدات افتراضات لها من القـــوة ما يمكن أن تُحدث فعلاً ما، ونحن نميل إلى أن نتوافق معها إلى أن يتضح شـــيء آخر. والمعتقدات التى لا يتم التحقق منها، أو بالفعل لا يمكن التحقق منها إطلاقًا قد تُقبل على نطاق واسع على الرغم من ذلك. ويصبح السؤال الأساسى فى مثل هـــذه الحالة ليس هو: "هل هى صادقة وحقيقية؟"، بل هو: "هل تم تحديها بشيء آخـــر؟". ولو وثقنا فى معتقد ما، أو فى شخص ما، فقد لا يكون لذلك دخل كبير بعلاقة هـــذا المعتقد أو الشخص بالحقيقة، ما دامت ثقتنا بهما ليست موضع شك أو تساؤل.

أما بخصوص المدركات الحسية، فإننا نميل إلى أن نثق بها أكثر إذا ما استمرت لوقت ومدى طويل، وإذا تطابقت مع ملاحظات عبر حواس مختلفة. فالشخص "الملموس" والمجسم الذى يعْبر "المجال الواقعى" باستمرار والذى صورته المرئية ثابتة ولا تهتز هو شخص حقيقى، وليس من ضرب التهيؤات. والبيئة المادية، والكون الذى نحن فيه مكان هادئ ومستقر نسبيا، ولا يُقدّم بشرًا لهم مدخلات متناقضة منطقيًا (على الأقل إلى أن تتطور المدخلات بدرجة تطور ميكانيكا الكم المتحورة التى ستواجهها موجات هى أيضًا جُسيمات ضئيلة، وكل العجائب والغرائب المضادة للحدس والفهم تكون تابعة للمشهد دون الذرى المتعرق بباطن الجسيمات الأصغر من الذرة)، لذا فإنه من الأسلم أن نفترض أن أى صراعات بين أنماط النشاط العصبى هى، تقريبًا، خطؤنا نحن وليست خطأ الكون، والتوتر الناشىء من هذه الصراعات والحاجة للتحكم التى تدفعنا إلى أن نزيلها؛ تحثنا على امتلاك نظريات أكثر ثقة وانضباطًا عن كيفية عمل العالم الواقعى. والمؤثرات المستمرة موثوق بها، أما المؤثرات غير المستمرة فهى تشير إلى خطأ ما. وعلاوة على ذلك، فإننا نميل إلى أن نقْرن المؤثرات غير السارة بالصراع؛ لأن الصراع غير سار، أما المؤثرات السارة فإننا نقرنها بكل ما هو جدير بالثقة من جانبنا.

والمدركات الاجتماعية لا تحمل مثل هذه الضمانات؛ لأن الأفراد يستطيعون إحداث الصراع ويحدثونه بالفعل. لكننا نعتمد على القاعدة نفسها التى نشأت عن تفاعلنا مع الواقع المادى: "ثق فى المدخلات السارة والمستمرة، واحذر المدخلات غير السارة والمتغيرة"، ولذلك فإننا نميل إلى أن نثق فى الأخبار الواردة من مصادر عديدة أكثر من تلك التى ترد من شخص واحد، والمعلومات التى تتطابق مع توقعاتنا أكثر من التى تتعارض معها، والادعاءات التى تأتى من أناس نحبهم أو

نحترمهم أكثر من التى تأتى ممن لا نحترمهم أو نحبهم. ويعتمد مقدار ثقتنا بآراء شخص معين عن موضوع ما على عدد من العوامل؛ وهى تشمل مقدار إعجابنا بهذه الآراء، وما تعنيه بالنسبة إلينا، وهل ثبت فيما مضى أنه يمكن الاعتماد عليها، وما رأى الناس الذين نثق بهم فى هذه الآراء. ويعتمد ذلك أيضا على قيمتها وصمودها اجتماعيا، كما أن الشخص الذى يُثْبت معرفته وقيمته (بأن يحصل على لقب أستاذ" مثلاً) يفْترض أنه أفضل منا فى التنبؤ بمظاهر الواقع والتحكم فيها.

ولسوء الحظ، فإن المعتقدات غالبًا ما تعتمد كثيرًا على نفس أفراد الجماعة الذين نلجأ إليهم عندما تتم معارضة هذه المعتقدات، ذلك لأنهم هم ذاتهم الناس الذين تعلمنا منهم معتقداتنا فى المقام الأول. وهم، باعتبارهم شهودًا مستقلين، قد يتجاوزون عن كثير مما نرغبه، وإضافة إلى ذلك؛ فإن قوة وديناميكية الجماعة يمكن أن تُحْدث ضغطًا على الأعضاء المخالفين، فيكون التضخيم لشىء من التناغم والاتساق المصطنع والمتكلف(٨)، وقد يجر ذلك الأعضاء إلى حكم إيجابى مُضلِّل على "الوزن" الاجتماعى، أو القيمة وراء أى فكرة. ولو أن أى فرد (على الأقل كل من يقال إنه مهم أو ذو حيثية) يبدو أنه يوافق على رأى معين عن المرأة أو الجنس الأسود، مثلاً، سيكون مقبولاً (لأنه لا توجد معارضة صريحة لهذا الرأى)، إذن فأين هى إشارات الصراع التى من الممكن أن تُحفِّز أى شخص على أن يُعيد النظر فى هذه المعتقدات ويعتنق معتقدات جديدة؟

وتكون المساندة والدعم الاجتماعى لازمًا وضروريًا بصفة خاصة، عندما يتساءل الناس عما إذا كانت المعتقدات والأفعال التى تنشأ عنها لها ما يبررها. ويعنى ذلك ما هو أكثر من أن لها أسبابًا جيدة (مهما حدد الفرد "جودة " الأسباب) لأن الاعتقاد أو الفعل دون وجود هذه الأسباب ليس نشاطًا محايدًا، ويسبب لنا عدم الارتياح. ومن يتصرف بناء على معتقدات يعرف أنها غير مبررة سيكون معرضًا

للوقوع فريسة للصراع. خصوصا إذا أدرك الأسباب التى تمنع هذا التصرف أو الفعل (مثل الموانع الأخلاقية)، وعلى الرغم من ذلك فقد تكون لديه رغبة قوية فى هذا الفعل، وسيدفعه ذلك إلى أن يبحث عن المبررات.

وكيف تبّرر الأفعال والمعتقدات المرتبطة بها؟ بالبحث عن الأسباب. وبالنسبة إلى المخ، فإن هذه تُعتبر أنماطًا من النشاط يمكنها أن تعيد مسارات الإشارات العصبية، وتصرّفها "بعيدًا عن نقطة الصراع، وبذلك تحد من مشاعر عدم الارتياح التى يثيرها الصراع. وعلى سبيل المثال، فإن الحديث عن فعل قاس تجاه أشخاص لهم ردود فعل ممتدحة ومقبولة سوف يجعل فعلك فى مقام القسوة شرعًا وقانونًا، خصوصا إذا كان هؤلاء الأشخاص محترمين ومحبوبين. وإن صادف هذا الفعل الاستحسان فستكون التجربة نوعًا من المكافأة، مما سيعادل الإشارات السلبية بإشارات إيجابية، ويُحدث إقصاء الآخر التأثير نفسه. "إيذاء الناس خطأ، إلا أننى أريد إيذاء هؤلاء الناس"، وفى هذا تحديد وإشارة إلى حل سهل- إنهم حقيقة ليسوا "ناس" أصلًا.

المعتقدات والهوية:

إن أكثر معتقداتنا قوة تهمنا بدرجة كبيرة، وأى تحديات أو مخالفة لها يمكن أن تشكّل ضررًا خطيرًا على صحتنا. فالمعتقدات تهيمن على ساحتنا المعرفية وتسْهم إسهاما كبيرًا فى إحساسنا بذواتنا. وكلنا لنا معتقداتنا التى نعتبرها مهمة جدًا بالنسبة إلينا؛ بحيث إنه لو أصابها ارتداد أو انقلبت إلى النقيض؛ فإننا لن نفكر فى النتيجة على هذا النحو: "أنا معتقد ومختلف"، ولكن "أنا كشخص مختلف". فمن الصعب تصور هتلر بدون معاداته للسامية. ولأن المعتقدات الراسخة جزء كبير

جدًا منا. فنحن ندافع عنها ضد أى تحديات، تمامًا كما نـدافع عـن أنفـسنا: بـأن نتحاشى أو نتجاهل الإثارة والاستفزاز، ونغفل الأسباب التـي تقلـل مـن قيمتهـا وتأثيرها، وأحيانًا بأن نتعدى على من يهاجمها(٩).

وفى بعض الأحيان نُعرِّف البشر بمعتقداتهم ونطابق بينها وبينهم باعتبار أن المعتقدات المُميزة تُعيّن هُوية أو شخصية الناس كما تحددها سـلوكياتهم الخاصـة. وتعتمد ماهية هذه المعتقدات على كونها، جزئيًا، جديدة ومختلفة. فإذا كـان رجـل واحد فى شارع ما يعتنق ديانة "المورمون"(*)، فإنه من المحتمل أن يلّقبه جيرانـه بكلمة "المورمونى"، ويختلف الأمر إذا كان الشارع به كثير ممـن يعتنقـون هـذه الديانة. والتغييرات الثقافية أيضًا ترتبط بالسمة التى نريد أن نؤكـدها فـى هُويـة الناس.. ففى السنوات الأخيرة، كانت العوامل التى تشمل الأهمية السياسية مثل بدء انتشار "الإسلام المسلح"، انهيار الشيوعية، العولمة، الـضغوط الاجتماعيـة ضـد الاضطهاد والتمييز العنصرى الصارخ، قد لفتت الانتباه إلى معتقدات الناس الدينية والثقافية المختلفة. ونتيجة لذلك أصبحنا نتكلم الآن عن بروز "الهوية السياسية" التى نُعرِّف بها الجماعات بدلاً من أن نعرفهم بمهنتهم، أو طبقاتهم الاجتماعية، إنها فقط المعتقدات والمضامين الثقافية.

إن الاستغناء عن التصنيفات القديمة مثل الأجناس أو الأعـراق أو الطبقـة الاجتماعية؛ قد يبدو نوعًا من التحرر، أو خطوة بعيدة عن الأيديولوجيات الأساسية التى تُدين أفرادًا من أنماط عرقية و"إثنية" معينة، أو منشأ اجتماعى بعينه، كى تقلل من فرصهم فى الحياة، إلا أن المنشأ الاجتماعى والإثنية سمات وأحوال فـى حـد ذاتها لا يستطيع النـاس فعـل أى شـىء لتغييرهـا، ولـو بـالغش أو التخفـى

(*) طائفة دينية بالولايات المتحدة أنشأها "جوزيف سميث" Joseph Smith عام ١٨٣٠، وبها تعاليم مخالفة للمسيحية.

(أو حتى بالثورة والعصيان الاجتماعى) عندما يصبح المنشأ أو الجنس معيارًا لحرمانهم من ميزات وفرص فى الحياة. إن التاريخ يمكن أن يُعاد تأليفه وابتكاره، واللهجات، وطريقة الكلام أو السلوك الذى يُميّز الفرد، والمظهر المادى، كلها يمكن أن تتغير استجابة لأى ضغوط اجتماعية؛ لكن ذلك سيكلف الإنسان كثيرًا. ومن حيث المبدأ، فإن المجتمعات الأكثر عدلاً هى التى تُحكم بمعايير يستطيع الناس التحكم فيها، على الأقل إلى حد ما: كالتعليم والخبرة، والوضع الاقتصادى، والمعتقدات الثقافية. والهوية السياسية، إذا كانت بالفعل تجمع الناس على أساس الثقافة، بدلاً من الأصول العرقية، يجب أن ترفع النظم الاجتماعية إلى درجة يقل فيها الظلم، وقد كان هذا بالفعل هو المطلب لكثير ممن يناصرون ويؤيدون مذهب تحديد الهوية على أساس المعتقدات(١٠).

لكن، هل المعتقدات مَرنة إلى هذه الدرجة؟ نعم، ولا. فالمعتقدات التى لا تُهمنا كثيرًا نُغيرها بتكلفة قليلة، لكن تكلفة تغيير القناعات الراسخة ستكون مُروعة؛ إنها شىء يمثل إصابة بالغة مثل: بتر عضو من الجسد، أو حتى أكثر من ذلك، لأن تغيير مثل هذا المعتقد يشعر به الإنسان وكأنه "كسر" جزء من النفس أو الذات. وينطبق ذلك علينا جميعًا، وليس على الدنيويين أو المتدينين المتطرفين فقط الذين يتجاوزون "الخطوط" والحدود؛ لأن معتقداتهم تتطلب العنف. ولو حاولنا أن نفهم لماذا يتصرف المتعصبون لعقائدهم مثلما يفعلون، فعلينا أن نتذكر أننا عندما نخالفهم ونتحدى أفكارهم؛ فإننا بالفعل نطلب منهم أن يُغيّروا كثيرًا من ماهيتهم وذواتهم، وهذا من منظورهم يشبه "الانتحار النفسى"، ولا يعنى هذا أن أفكارهم ليست سخيفة أو مضحكة أو غير معقولة أو خطيرة بكل ما فى الكلمة من معنى، فهذا شىء قائم بذاته. إن المسألة هى كون المعتقدات الراسخة والقوية أقرب إلى اعتبارها جزءًا جوهريًا وصميمًا من النفس، وليس كونها سمات و"ملامح" قابلة للتعديل. وهذا ما يجعل تكلفة التغيير باهظة جدًا.

ويُستبعد من هذه التكلفة "ثمن" خروج الفرد عن الجماعة أصحاب المعتقدات نفسها، وهو ثمن مفزع أيضا، خصوصا عندما يكون الارتداد عن عقيدة أو دين عقابه الموت[١١]. إن ما يبدو لنا "تعديلاً ذهنيا" وعقليا بسيطًا قد يصدم أصحاب المعتقد باعتباره تهديدا مميتًا ومهلكا لهوياتهم.

وتظهر هنا أهمية "الجماعات"، فعندما يُعرّف معتنقو المعتقد أنفسهم أولاً وقبل كل شيء بعضويتهم في جماعة رمزية (جماعة تُعرف بالمعتقدات التي يتشارك فيها الأعضاء ويعتزون بها ويوقرونها)، فإن الهوية الشخصية والفردية تُبنى على افتراض استمرارية وجود الجماعة، ومع ذلك فإن الجماعات ليست بشرًا وليس لها وجود مادي "كجسد" خاص بها. إنها جماعات رمزية قد تكسب نوعًا من "التجسيد" إذا تطورت مؤسساتها المادية (مثل البيت الأبيض في واشنطن أو كاتدرائية "سان بيتر" في روما). وعندئذ تكمن شخصيتها جزئيا في وجود هذه المباني أو المنشآت والجماعات التي تستخدمها. ودون هذا التجسيد تظل الهوية الرمزية للجماعة ووجودها المادي شيئًا واحدًا. وسوف يبقى كلاهما مادام تمسك بها أتباع مخلصون فقط، فإن ما يُهم هو أن تبقى المعتقدات وتصمد، وليس البنايات أو "الأجساد" التي تَحويها وتضمها.

وهذا الاعتماد المتبادل، لكل من الجماعات والأفراد، هو نوع من الحرية أيضا. فالجماعات دون مؤسسات مادية ليس لديها الكثير لتخسره، وتستطيع أن تلجأ إلى حلول وسط قليلة عندما تواجه تهديدات. إن ضغوط الجماعات المهاجمة، وحرب العصابات، والمسلحين، والإرهابيين فيما يبدو أقل من أعدائهم في القوة. غير أن تزايد خطورة وتدمير الأسلحة الخفيفة "المحمولة"، وقدرة وسائل الإعلام على تحويل وتشكيل الرأي العام؛ قد أتاح للجماعات الصغيرة أن تُشيع الدمار والخراب؛ حتى إن كان أعداؤها منظمات قوية أو بلدانًا مسلحة تسليحًا جيدًا.

أما بخصوص أعضاء الجماعة، فإن من هم خـــارج الجماعـــة يعتبـــرونهم (بسبب اعتناق العقيدة) حمقى أو مغفلين: لأنهم يتنازلون عـــن اســـتقلالهم الـــذاتي العزيز، ويقللون من "فردانيتهم" بأن يجعلوا العقيدة المشتركة مـــع آخـــرين جـــزءًا كبيرا من هويتهم، ولكن في مقابل ذلك تتحمل الجماعة كثيرًا من الأعباء التي يتحتم على الأفراد مواجهتها منفردين. والتوتر الذي يرتبط بالموت والفناء، علـــى وجـــه الخصوص، يمكن أن تهوّنه عضوية الجماعة(١٢). ويدرك معتنقـــو المعتقـــدات أن القطاع الكبير من هويتهم الذي ينتمي للجماعة، والذي يهمهم ويمثـــل جـــزءًا مـــن ذواتهم، سوف يظل موجودًا حتى بعد مماتهم، مادامت بقيت الجماعـــة. فـــالخلود، حتى إن كان خلودًا جزئيا وغير مؤكد، يُعتبر حافزًا لـــه اعتبـــاره، وكثيـــر مـــن الجماعات تقدم بوضوح معتقدات عن الحياة بعد المـــوت ضـــمن "أيـــديولوجياتها". وتحدي أفكار مثل هذه الجماعات يهاجم هويتها ووجودها، كما يهدد الكيانـــات الفرديـــة لأفراد الجماعة وآمالهم في وجود بالمستقبل (وجود رمزي، إن لم يكن ماديًا). وعنـــدما يصير "البقاء" الرمزي أهم من الوجود المادي، إن أمكـــن، فلـــن يُدْهـــشنا أن معتنقـــي المعتقدات يُضحون بأنفسهم حتى يحتفظوا بالمعتقدات التي يعتزون بها، فهـــم يعلمـــون ويوقنون أن شخصًا ما غيرهم سوف يُبقي رؤيتهم حية وناشطة.

التهديد والدفاع:

إن كثيرًا من الأفكار التي تصادفنا كل يوم تبدو لنا غير ضـــارة، أو ســـارة أو أنها مجرد شيء لا يستحق الملاحظة. وبعضها بلا شكل مفيد، إذ يجلب أساليب جديدة لفهم العالم، أو بعض العواطف المبهجة، أو بعض ما يمكن تصديقه والوثوق به اجتماعيا. ويُطلق بعض هذه الأفكار فقط قليلاً من الإزعاج العـــصبي (إن لـــي صديقًا لديه قدرة أحسده عليها وهي أنه يقرأ الصحف والجرائد ويـــشاهد إعلانـــات

التليفزيون دون أن يتذكر شيئا منها). أما بعض آخر فيتصارع مع ما استقر وثبت في ساحتها المعرفية، وبذلك يمكن اعتبارها تهديدات لحالتنا الذهنية. إن هذه التهديدات تمثل عبئًا ولا تجلب منفعة؛ فهي بدلاً من أن تتواءم بسلاسة مع الأنماط الذهنية الكائنة لدينا بالفعل، فإنها تقتضي أن يتغير "بعض" من ذهننا كي يتناسب مع الحقائق الخاصة بها. وبذلك فهي تقدم بديلاً للأسلوب الذي نعمل به ونتبعه، وتعلن عمليا أن بعض الترابطات والعلاقات المتبادلة التي تعلمنا أن نركن إليها ونعتمد عليها ليست جديرة بالثقة، وكلما كانت معتقداتنا الأهم بالنسبة إلينا تواجه هذا التحدي، زادنا التحدي توترًا. إن تغيير الأنماط الفكرية المتأصلة فينا يتطلب جهدًا كبيرًا، وكلما كان النمط قويا وراسخا زاد الجُهْد المطلوب.

ولقد صور المؤيدون لنظرية "التحور والإنفاذ الثقافي"(*) بيئتنا الثقافية كصراع "مجنون" من أجل البقاء، مع كل فكرة أو تأثير يتنازع من أجل جذب انتباهنا. وهذه الأفكار "جاهزة" مثل "فيروسات" تهاجم وتهزم عقولنا خلسة، فهي تريد أن تعيد تشكيلها، إنها تدفعنا للضحك على دعابة هزلية وتكررها، وتستخدم أرفع الأفلام والكتاب، و"تغسل" عقول أطفالنا بالمعتقدات الزائفة [٢٣]، ومع ذلك، فلا داعي أن نطيل في القياس على فكر "الفيروسات" عندما نفكر في مسألة النشر الثقافي للأفكار، ذلك لأن هناك بعض الاختلاف بين الفيروسات والإنفاذ الثقافي لو

(*) أعلن ريتشارد دوكنز "Richard Dawkins" هذه النظرية عن "الإنفاذ أو النشر الثقافي" عام ١٩٩٠ "The Meme Theory" . وهي موازية لنظرية وفكر تشارلز داروين " في علم الأحياء عن النشوء والارتقاء" والتي طرحها عام ١٨٥٩. ولفظ "Meme" صياغة حديثة مختصرة من كلمة يونانية. وتروّج هذه النظرية لفكرة انتقال الأفكار والثقافات من خلال التعرّض لنماذج من السلوك والمعلومات وبواسطة (عبارات تحمل إثارة، ألحان، فن عمارة، عروض أزياء أو الموضة)، وقد هاجم هذه النظرية المثيرة للجدال معلقون كثيرون باعتبار تطبيقها يُماثل تأثير الجراثيم من مسببات الأمراض "pathogens" وبالفعل فإن هذا التأثير استغل في فنون الإعلام والدعاية، فهو ليس تحولاً ثقافيا جينيا كما يدعون.

تحرينا الدقة. وما زال الباحثون فى علم أصل الجنس البشرى (الأنثروبولوجيا) يدرسون كيف تنتشر الأفكار على مدى السنين دون الحاجة إلى "النشر" المباشر.

والاستعارة المجازية التى تُشَبه الأفكار بالكائنات المُمْرضة (مثل الجراثيم) قوية وشائعة. ومنذ تطور "النظرية الجرثومية"، ونحن نفهم كيف تنتشر الأمراض بالعدوى، وقد أوضحت الدعاية هذه العلاقة بأن قارنت الأفكار غير المرغوب فيها بالأمراض الخطيرة. عندما كتب الجاسوس الفرنسى "لوسيان دى لاهود "Lucien de La Hodde"، بعد ثورة بلاده مباشرة (عام ١٨٤٨) يقول : إن معارضى الحكومة "هم الجذام الذى أصاب بدن الأمة السياسى"، وأنهم "فيروس لُقحَت وطُعّمت به فرنسا"(١٥). وقد ادعى "ماوتسى تونج "Mao tse-Tung"، الذى أدى اختياره العقائدى إلى موت الملايين، أن "محاربة الأفكار الخاطئة مثل أخذ اللقاح ضد المرض".

أما أدولف هتلر "Adolf Hitler" الذى بشّر بسلامة المجتمع فقال: "إن ثقافة ألمانيا قبل الحرب أصابها الوهن من الهُراء والأعمال الفنية المنحطة.. إنه الطاعون، الطاعون الروحى، وهو أسوأ من "الموت الأسود"... الوباء الذى حدث فى الماضى... وهؤلاء المؤلفون التافهون الذين يسممون روح الرجال مثل ناقلى أسوأ أنواع الجراثيم"، وحتى لا تظن أن هذه الاستعارة توجد فقط فى مجال السياسة المتطرفة، فقد شاهدت منذ فترة وجيزة أستاذًا فى العلوم من "أكسفورد"، يلتزم بهذا التقليد "العظيم" ويصف الإيمان بالدين بأنه "بكتيريا عَضَوية" وشكل من أشكال المرض العقلى، يمكن مقارنته بفيروس الجدرى، لكن استئصاله أصعب(١٦).

وعليك أن تنتبه إلى أن هذه الاقتباسات ليست جميعها واضحة فى تطبيق فكرة القياس بين الأمراض المُعدية والأفكار، وبين من ينشرون هذه الأفكار، إلا أننا نستشف أن بعضًا ممن يقومون بنشرها والدعاية لها ليسوا على استعداد لأن يُفصحوا عما تتضمنه مناقشاتهم؛ وهو أن أصحاب "الأفكار الرديئة" هم كائنات ناقلة

للطاعون ويجب إبادتهم من أجل "الصحة العامة"، سواء كانت هذه أفكار سياسية، فنية أو دينية؛ فإن الأفكار الرديئة دائما معتقدات قوية، ولذلك فإن من الصعب للغاية إزاحتها بالتعليم أو، بالنسبة لمن أصابتهم العدوى، بإعادة التعليم(١٧). إنه من الأسهل ومن الأوفر (ماديا) أن "تزيح" الناس الذين يعتنقون هذه الأفكار. والإيمان بالأديان، مثلاً، استطاع أن يبقى حيًا بعد المعاناة المؤلمة فى "كمبوديا الديمقراطية" وبعد سنوات "الاختناق" فى النظام السوفيتى وفيما يُفترض أنه "الموت باللا مبالاة" فى "العلمانية الغربية"، فلا حاجة لكل من يحتج على الدين لأن يتبع وسائل عنيفة أكثر من التعديل فى المقررات الدراسية(١٨). ومن حسن حظ الذين أصابتهم "بكتيريا العقيدة" أن تهديدات المحتجين على الدين ليست شيئا خطيرًا؛ وقد تكون لغة بعض "اللامعين" أو المشهورين غير مسئولة، لكن من يمثلونهم من المفكرين البارزين يدافعون عن المبادئ "الليبرالية" والمتحررة، ومنها عدم العنف، ومثل ذلك يفعله كثير من القادة المتدينين، على الرغم من أن ذلك لم يمنع الدين من أن يكون له إسهام فى أنواع مختلفة من القتل الجماعى حول العالم (١٩).

الأفكار المُعْدية:

لو قارنا فكرة ما بنمر مفترس، أو سيل مثل "تسونامى" (أو حتى رئيس العمل المتربص بموظفيه)، قد تبدو شيئًا ضعيفًا وهزيلاً. كيف يمكن لاضطراب فى التنفس أو توتر عصبى أن يشكل خطرًا على حياتنا؟ إننا نشعر، سواء أخطأنا أم أصبنا، أن لدينا قدرة كبيرة على التحكم فى اعتناقنا أو رفضنا للأفكار الجديدة. وبالطبع فإن الأفكار التى تهددنا قد لا تبدو مُهَددة عندما نتعرض لها فى بادئ الأمر، إلا بعد ما نتدبر ونفكر، فقد ندرك حينئذ ما تتضمنه وإلى مدى تتصارع مع معتقداتنا؛ وحتى عندئذ فلن تستطيع فكرة واحدة بذاتها أن تغير عقولنا، أو حتى أن

تدمرنا كأى كارثة طبيعية. وبمجرد أن نلاحظ الخطر، فإننا بكل تأكيد سنفعل شيئًا واحدًا وهو أن نغلق عقولنا أمام أى تواصل معها.

وبمعنى آخر؛ فإن التهديدات فى العالم الرمزى للأفكار تشبه الكائنات المُمرضة والجراثيم أو التهديد بالسموم (ذكرناه فى التهديد بالاشمئزاز)، أى أكثر مما تشبه التهديد بالخوف أو الغضب؛ ذلك لأن الجراثيم والأفكار لا تملك قوة مادية يمكن أن يُستَدل عليها، وهى من الصعب تحديدها كأى كيان مادى ملموس، وهى تعمل وتتسلل ببطء إلى الذهن وقد تكون مهلكة فى بعض الأحيان. ولا عجب أن الوسائل التى طورناها للتعامل مع الأمراض الخطيرة هى نفسها التى نستخدمها فى مواجهة الأفكار الخطيرة، إنها تُعرف على دلالات الخطر، تجنب مصدر العدوى، اعزل مصدر العدوى فى محجر صحى، اطرد (تخلص من) أى مُلوث أو مفسد. وقد اختارت عواطفنا أيضًا أن نستخدم هذه الوسيلة، فالمعتقدات التى "نكرهها" نصفها دائمًا بأنها مثيرة للاشمئزاز. وعلى مدى التاريخ كان من يأتون بمعتقدات جديدة تطرح تحديات- مثل الناس والكتب- يُواجهون بالعداوة التى تتولد من عاطفة النفور والرفض. وغالبًا ما تكون العاقبة مهلكة[٢٠].

ولو تهددنا مصدر عدوى وأردنا التخلص منه دون أى احتكاك به بقدر الإمكان، يتم ذلك إما بدفنه، وإما إحراقه وإما غسله بالماء، لكن الأفكار بالطبع لا تُغسل بالماء ولا تُحرق (مع أن مصطلح "غسيل المخ" مألوف والكتب يمكن أن تحرق، وقد نحاول دفنها)[٢١]. غير أن الناس الذين يقدمون لنا الأفكار التى تمثل تهديدات، أو يُعبرون عن معتقدات خطيرة يمكن التخلص منهم بالتراب أو النار أو الماء. وقد اُعتبرت بلدة أوشفيتز "Auschwits" - حسب رؤية "النازى" للعالم - مكان تلوث اجتماعيا بوجود اليهود والغجر، فكان من الواجب إقصاؤهم من العالم، وهذا تعبير حديث عن غريزة أزلية[٢٢].

والصراع الذى تحركه الأفكار الجديدة يمكن أن يكون منفرا وبغيضا فقط؛ لأن معظم حياة البشر نحياها فى العالم الرمزى للأفكار والقيم. وما نشير إليه عند استخدام الحروف والكلمات هو شخص "إنسان" لا نعرفه بحدود جسده المادى فقط ولكن بسمات رمزية أيضا: التزامه بمعتقدات معينة، أساليب خاصة فى السلوك والأداء والتفكير واستعمال اللغة، تفضيل بعض الأفكار وكره أفكار أخرى. وباعتبارنا "ذوات ونفوس رمزية"، فكل فرد منا هو "عقدة" ضخمة مركبة من المعتقدات والرغبات وأنماط عصبية أخرى. وكثير من خيوط هذا النسيج المتداخل يمكن أن يوجد فى عديد من "ناس" آخرين"، ولكن كل منهم يصير متفردا فى الحيز الذى يشغله فى ساحتنا المعرفية والإدراكية. إنها شبكة الاتصالات التى تربط هذه النفوس و"الذوات" ببعضها بعض.

والمعتقدات التى تتحدانا لأنها تختلف عن توقعاتنا، تُشعرنا بالتوتر بصفة خاصة إذا كنا بالفعل نعانى من توتر لأسباب أخرى. وحتى الأكاديميين، هذه المخلوقات المحصنة ضد القلق، يشعرون باختلاف الانفعالات؛ فالتأمل الهادئ لنظرية جديدة شيء، والدفاع عن الأفكار فى مناظرة شيء آخر مختلف. والأفكار الطارئة والهواجس تختفى فى فورة الجدال والنقاش عندما تطغى العواطف وتعضد الأنماط العصبية فندافع عما يهمنا. وكلما كانت المعتقدات التى نحاول حمايتها مهمة، كلما ازداد كرهنا لمن يهاجمها. إلا إذا كنا نشعر بأننا آمنون من أى تهديد، أما إذا كنا معرضين لأى هجوم لأسباب أخرى فسوف يدفعنا ذلك للتمسك بمعتقداتنا ورفض الأفكار المتصارعة.

وعلاوة على هذا، فإن أنواع المعتقدات المجردة التى نعتز بها تحتاج إلى دفاع بأسلوب يختلف عما ندافع به عن الأفكار المرتبطة بالعالم الواقعى؛ ذلك لأنه فى الحالة الأخيرة تكون "الحقيقة" وسيطا مستقلا للدفاع عنها يستطيع أن يقرر،

مثلا، إذا كانت الأمطار تسقط حيث نقف. وتعتمد الأمور المجردة على ما هو مجرد مثلها وعلى مشاعر الشخص فى الماضى والحاضر، أما الواقع فلا صوت له. والمعتقدات التى نرتبط بها عاطفيا تهرب من أى روابط فى عالمها الماضى وتسمح لمن يعتقدها بأن يتجاهلها أو يُعيد تفسيرها حسب ما يرغب ويهوى. وعلى الرغم من أن هذا التعديل للمعطيات قد يكفى لطمأنة من يعتقدها؛ فإن الشخص المتشكك قد لا يقنع بذلك.

وهذه الصورة عن عقلين متعارضين، كُلّ لديه شبكة من الأنماط العصبية، وكل يحاول الانتصار فى الجدال مع الآخر بما لديه من مبررات، قد تكون صورة خادعة نوعًا ما. فالشخصان قد يكتشفان أنهما منعزلان فى مواجهة مناسبة معينة لكنهما يملكان ثروة من الخبرة المجتمعية والتأييد. ونحن لا نحبذ أن نُصدّق ادعاءً "جديدًا" إذا كان الشخص الذى يجلس بجوارنا يصدقه، كما لو كنا نميل أكثر إلى الناس لو كانوا يصدقون ما نصدقه نحن، ولو حدث شىء جديد؛ فإننا نفضل أن نعرف رأى غيرنا فيه وإذا ما كان رد فعلهم مثل ردود أفعالنا، فتتشكل ملاحظاتنا وأفكارنا ومعالجتنا لما حدث وفقًا لذلك.

تصور العالم الواقعى:

لقد أشرت مكررًا فى هذا الفصل إلى الناس الذين يغيرون معتقداتهم؛ استجابةً إلى الإشارات الواردة من العالم الواقعى، بما فى ذلك المحيط الاجتماعى الذى تُغلّفه الرموز ويزودنا به أناس آخرون. ولقد أكدت فى الفصول السابقة أهمية معرفة كيف يعمل مخ الإنسان بالنسبة إلى اختيار الأفعال، بدلاً من النظر إلى العقل وكأنه آلة رائعة للتفكير. ولقد أعطتنا العقول قدراتنا الزائدة على ردود الفعل

المؤثرة وبأساليب مُركبة تجاه المواقف المعقدة، وعلى أن نتنبأ ونتحكم فـــى هـــذه المواقف، والوقت الكافى للتخيل وأحلام اليقظة وأشكال أخرى كثيرة من الابتكـــار. لكن القوة المُلّحة التى شكلت تطور وتحور البشر كان لها فعل أكبر فـــى تـــسهيل الأحداث التى ساعدت النوع الإنسانى فى استمرار الحياة. وهذه النزعة الإلزاميـــة للمنافسة والتناسل ما زالت فينا. وبما أنها حُرّفت إلى صور ثقافية ملتويـــة لا تُعـــد ولا تحصى، وأشعلتها قوى مُسَممة من الضغوط الاجتماعية، فقد دفعتنا إلى اتبـــاع كثير من التصورات والتخيلات الفكرية والذهنية غير الممكنة كالجمـــال الكامـــل، والصحة التامة والعلاقات المثالية التى تنتج أطفالاً بالغى حد الكمال... وهكذا.

إن تصور العالم الخارجى هو ما تجنيه عندما تضع النزعة المعتادة للإنسان إلى الفعل الجماعى مع الالتزام بمعتقدات معينة، فكلما زاد هذا الالتزام، قَـــل ميـــل الإنسان إلى تغيير معتقداته، حتى إن عارضت الإشارات الواردة من داخله. وهناك استراتيجيات يمكن للمرء أن يتبناها كى يتجاهل، أو يُهمل، أو يعيـــد تفـــسير هـــذه الإشارات حتى يقلل من تهديدها ويُحَد من الصراع الذى تـــسببه، لكـــن ذلـــك قـــد يستنزف من الجهد القدر نفسه تقريبًا الذى يَلزم لتغيير المعتقدات، خصوصًا عنـــدما تكون إشارات التحدى صامدة وقوية. ولو فكرنا فى العقول كآلات للفعـــل ولـــيس للتفكير، فإن توفير الطاقة يتطلب منها أن تُقلّل من الجهد وذلك بألاّ تفكر إلا إذا كان الموقف يستدعى ذلك. وعندما تستلزم الأفكار التى لا نرحب بهـــا تفكيـــرًا ممتـــدًا ومجهدًا ليُقرها فى الذهن، فإنه من الأسهل ألاّ نشغل أنفسنا بتغيير ما فى عقولنـــا، ولكن بدلاً من ذلك نُشكل العالم ونتصوره ليناسبنا، وذلك بإزاحة مصدر إشـــارات التحدى المزعجة.

تصارع المعتقدات

كيف ينظم المخ الإشارات المتصارعة؟ إن الخلايا العصبية تُقَيم الإشارات الإيجابية (المشجعة والحافزة) والسالبة (المثبطة والكابتة) التى تصل إلى هذه الخلايا فى لحظة ثم تعطى ردود فعلها عليها (أى تطلق اشاراتها الخاصة)، وذلك إذا كان توازن المدخلات إيجابيا بدرجة تكفى للتفوق على المدخل أو "العتبة" الكهربية للخلية. وتتولى الإشارات غير المتناغمة، وهى التى تسجل أحداثًا أو عقائد ليست متوافقة عن العالم المادى، مثل: "التسبب فى الألم خطأ" أو "ضرب الأطفال شىء جيد"، استثارة أنماط من النشاط العصبى ترتبط بالاشتباكات العصبية المُثبطة. وتنشيط واحد من هذه الأنماط المثبطة (بتوصيله إلى درجة الوعى الواضح)؛ يعنى كبت أحد الأنماط المُحفزة، والعكس بالعكس. وبازدياد الكبت بين الشبكتين العصبيتين المتفاعلتين، تتزايد المعتقدات غير المتناغمة التى يشملها هذا الصراع[٢٣].

ويمكن تشبيه المعتقدات بالحيوانات الإقليمية. إذا تركت متباعدة فى الساحة الإدراكية للمخ لن تتفاعل، وإذا دُفعت للوجود معًا يبدأ الصراع. هنا يتغير الأضعف ليتكيف مع الأقوى، وتعكس درجة التغيير التباين والتفاوت بينهما. وكما يحدث عندما ينتقل فرد ما إلى مكان جديد، فإن المعتقد الجديد عليه أن يستعد لمحنة تقييم "الجيران" الجدد.. أى تناسُبه وتواؤمه مع الأفكار المستقرة فى ذهن هذا الشخص. فإذا قل الصراع، كانت أكثر تناغما مع هذه الأفكار، وكان اندماجها أسهل فى ساحته الإدراكية والمعرفية.

وعلى سبيل المثال، لو أعجب "جاك" بصديقته "جيل"، وكان يعتقد أن أى امرأة يتخيلها لا بد أن تُعجب به، وكانت الصديقة ترى أنها ليست معجبة به لكنها قد "تتزلق" لذلك فى موقف ما، فإنهما كلاهما ليسا على صواب بمقاييس العالم الواقعى. غير أن درجة عدم التناغم طفيفة، ومع بعض الإثارة أو الضغوط قد تتغير بسهولة معتقدات "جيل" الواهية، أما إذا كانت هى مصممة بثبات على رأيها؛ فإن ضغوط البيئة قد تقلل من محاولاته للتقرب، وإن لم تغير نفورها منه. إذن ما الاختيارات؟ ربما يكون العنف هو اختيار هذا الصديق! وإذا كان الاعتقادان المسيطران على "جاك" فى غاية القوة (وهما إعجابه بالصديقة، وأن كلاً من يميل إليها تُعجب به)، فإنه سوف يُصرّ على أن يغير رأى "جيل" فيه. (وكما أشرنا فى الفصل الرابع، فإن المدخلات التى لا تتواءم مع توقعاتنا قد تتحول فى بدء العمليات المُنظمة للذهن لتطرح قدرة فائقة على الضلال وخداع النفس)، وإن لم يحدث هذا فقد يتنازل هذا الصديق عن واحد من الاعتقادين أو عن كليهما. إنه، مثلاً، قد يُعدّل كلمة "كل" إلى " معظم" أو "بعض"، أو لو كان أكثر واقعية، "قليل". وقد يقرر أن "جيل" ليست المرأة المناسبة له، أو أنه أصبح لا يميل إليها، وربما يلجأ إلى مضايقتها بهذه الكلمات كى يفرض هذا الاعتقاد الجديد ويقويه. وقد يحتفظ بالاعتقادين السابقين الأصليين ويتجاهل الدليل على أنها لا تميل إليه، وربما يتحاشى رؤيتها بعد ذلك ليتفادى أو يقلل من التهديد الذى تفرضه على نفسه وعلى "الأنا" التى تُمثّل غروره. وأخيرا هناك مخاطرة "تصور العالم" الذى يراه ويريده عن طريق العنف سواء اللفظى أو البدنى. إن تغيير المعتقد الذى يمثل تحديا يتضمن دائمًا مبادلة بين ضغوط الصراع والجهد اللازم لكبت الأنماط العصبية القديمة، لإرساء أو لصالح الأنماط الجديد، وعندما يكون المعتقد قويا فإن الدافع يكون للاحتفاظ به كما هو، مع تغيير المعتقدات الأخرى- أو حتى العالم الواقعى- بدلاً من الاستسلام للصراع.

عادة التحكم :

إن تصور العالم الواقعى أو "تشكيله" - كما نهوى - شىء يفعله البشر بلا انقطاع. وإذا كان شىء نشاهده بـ "التليفزيون" يصيبنا بالتوتر، فنحن نستطيع أن، وبالفعل، نغلق الجهاز.. وإن كانت شجرة تعترض طريقنا فسوف نزيحها مهما كانت سليمة وجميلة، وإذا هاجمت بيتنا حشرة، أو هاجم حيوان خطير المنطقة المجاورة، فإننا ندمّره فورًا. لقد اخترق الإنسان الجبال ومهدها وخلق الحدائق فى الصحارى، وجفف البحيرات وأغرق مساحات كبيرة من الأراضى لتناسب أغراضه ومتطلباته. وأنت شخصيًا ربما لم تفعل أيًا من هذه الأشياء، لكنك أيضًا شاركت فى تشكيل العالم الواقعى على نطاق صغير.. فى كل مرة تنقل شيئًا من مكانه إلى مكان آخر تظن أنه يجب أن يكون فيه.

وهناك أشياء وأحداث بالطبع أكبر من أن تتحكم فيها، فمهما كانت درجة رجائك وانتظارك لسطوع الشمس فى يوم الأحد (العطلة الأسبوعية)؛ فإنك لا تملك النفوذ لتقرر إن كانت سوف تسطع. وينطبق الشىء نفسه على أحوال عالم المجتمع الذى فيه كثير من أهم الأفكار ومن يعتنقونها ولا يُمكنك التحكم فيها، على الرغم من كل النشاط المتبادل والديمقراطية التى يدعّوها فى محيط هذا العالم الجديد بشبكة معلوماته الدولية. والرموز الاجتماعية ومن يحملونها لا يقْدرون على مواجهة الاستقلال العنيد الذى لا يمكن إنكاره فى قطعة من الحجر، أو شجرة، أو زلزال. والسلطات الاجتماعية يمكن أن تُهْدر قيمتها لو كانت لها "أجندة" خافية من الفساد أو كانت تمثل سلطة متصارعة.

ومحاولة "تشكيل" العالم المجتمعى، مثل ما يقابله فى العالم المادى، هدفها هو القضاء على المعتقدات المتصارعة؛ ولأن ذلك يستنزف الجهد ويُعَرض الفرد للانتقام أو الثأر، فإن المحاولات تتجه إلى الأفراد والجماعات الأقل سطوة وقوة. وكلما زاد التفاوت بين القوة كان من الأسهل اتخاذ شكل من العمل العدائى. ويعتمد شكل هذا العمل على معتقدات من يريدون "تشكيل" العالم. وكما هى الحال فى كل عمل، فإنهم سوف يعتمدون على التنبؤات بما قد تكون عليه العواقب، بهدف أن تُحل المشكلات الناجمة بكفاءة وبأقل قدر من الطاقة والجهد. ومع ذلك فإن تقدير فاعلية العمل بصورة صحيحة أصعب من تقدير حجم الطاقة اللازمة للعمل، ولذا فإن نية من يريدون تشكيل العالم تتجه إلى إقصاء الآخر لإزاحة أصحاب المعتقدات التى تتحداهم، وهذا يتم غالبًا بأفعال أقل عنفًا مثل "الإبعاد الاجتماعى" والنفى أو النبذ، وذلك على أمل توفير الجهد وتحقيق الهدف بأقل مخاطرة ضدهم. أما إذا لم يُحققوا الهدف المرجو (إزاحة من يضايقهم اجتماعيًا)، فسوف تتخذ إجراءات أكثر تطرفًا: العداء السافر والنشط، التربص بهم، القهر.... وهكذا إلى نهاية الحد السلبى وهو القضاء عليهم أو تدميرهم بأى وسيلة متاحة.

وفى حالة البحث عن "شكل للعالم"، فإن توقعات الشخص عما يجب أن يكون عليه الواقع سوف تؤثر فى الأسلوب الذى سيحاول به تغيير الواقع. ولو استُخدمت أداة خطيرة جامحة ولم تنجح فى الغرض منها؛ فلن تُثير الخوف أو الحزن؛ إنها سوف تثير الوازع على أن يُقْذف بها عرض الحائط. وإذا استسلمنا لهذا الوازع، فإننا نطردها من عالمنا ووجودنا طردًا رمزيًا. وفى احتمال آخر؛ فإننا أيضًا قد نكسر هذه الأداة التى تعوقنا وتهددنا؛ لكننا قد نُحْسن التنبؤ بفشلها، فالأدوات والوسائل المعيبة نتوقع لها الفشل وعدم القدرة على الأداء. والشىء الذى

نتوقع له أن ينجح ولا يصيب، يثير الغضب باعتباره أداة لا تستطيع التكيف مع المجتمع، ويجدر بنا معاملتها بناء على ذلك.

وما ينطبق على الأدوات والوسائل يبدو أنه ينطبق على الناس. إن كثيرًا من توقعاتنا معتدلة ويمكن تغييرها بسهولة، لكن بعضها جزء من ذواتنا لدرجة أنها تستفزنا لنعمل بطريقة تهدف إلى أن نغير العالم حتى يتواءم مع هذه التوقعات. والناس الذين يجب أن يُعاونوا ثم لا يتصرفوا كما يجب نحاول أن نشعرهم بدونيتهم (ونحن نجيد هذا بدرجة كبيرة). أما الناس الذين نراهم جديرين بالاحترام ثم يُلطّخون سمعتهم نتربص بهم ونُسقطهم بلا رحمة. إننا نحافظ على مُثلنا العليا بأن ننزعها عن من يخطئ ونبحث عمن يستحقها بأسرع ما يمكن والنساء اللاتى "يجب أن يكون اهتمامهن بالزواج والأولاد"؛ يُقابلن بالاضطهاد إذا سعَين إلى شغل مهن ووظائف بدلا من ذلك. وكلما كانت نظرة المجتمع لأدوارهن تقليدية كان الطريق أمامهن شائكًا وصعبًا. وختامًا، وهو ما يناسب موضوع هذا الكتاب، فإن "الناس" الذين نصفهم بأنهم ضعفاء، خونة، أنانيون أو مقززون يصبحون "آخرين" ويشكلون تهديدًا إذا تحدوا هذه الأنماط؛ بأن يكونوا على عكس ذلك، أقوياء، جديرين بالثقة عطوفين، ولديهم دفء من المشاعر الغريزية واهتمام بالغير، مثلهم مثل أى شخص قد تغيّر حتى يتغلب على الشعور بالاشمئزاز.

شرح ما يستعصى على الشرح

وصف لورنس لانجر "Lawrence langer" فى كتابه عن "الهولوكوست"؛ شهادة شخص نجا من "الجيتو" اليهودى فى بلدة "كونفو" فى ليتوانيا، فى مناسبة الإعداد لإعدام بعض الشباب: "شهد هذا الشخص الذى نجا بأنه كان حاضرًا فى

الغرفة عندما دخل أحد رجال الجيش وأمر إحدى الأمهات أن تعطيه طفلها الرضيع وعمره عام واحد، وكانت تحمله على ذراعيها. ورفضت الأم تسليمه، لـذا فإنـه أمسك بالرضيع من رسغي القدم وقطع جسده إلى جزئين أمـام عينـي أمـه"[٢٥].
وكمثل من أمثلة القسوة المفرطة، فإن هذا أحد أقساها الذى يُصوّر قسوة إلى أقصى المدى من التى يمكن أن تُشْعرنا بمرض جسمانى أو تؤثر فينـا لدرجـة البكـاء، أو تُحْدث كلا الحالين.

وفكرة "تشكيل العالم" قد تساعدنا فى أن نُعطى معنى لأشياء تبـدو للوهلـة الأولى مستعصية على الفهم. لماذا قتل هذا الرجل (الضابط) الطفل بهذه الطريقـة الفظيعة والمروعة؟ كان بإمكانه أن يُطلق عليه النار، أو " يكسر رقبته"، أو يقـذف به إلى الحائط. فكثير من الأطفال قتلوا بهذه الأساليب التى تستغرق وقتًـا وجهـدًا أقل. أما بلغة "تشكيل العالم"، فإن ذلك أقل فاعلية، لأن هذه الأساليب أقل قدرة على أن تجعل هذا الضابط متوافقًا مع عالمه ومع توقعاته.

علينا أن نفكر فى الخلفية المحتملة لهذا الرجل الذى لا نعلم عنه إلا القليـل. يمكننا أن نفترض أنه يألف كثيرًا أيديولوجية النازى. وكما عرفنا من أمثلة كثيـرة؛ فإن فرقته تعلموا النظر إلى اليهودى على أنه كائن كريه منفر، أدنـى مـن رتبـة الإنسان، وقذر. والطفل فى اعتقادهم تهديد شديد لهذه العقيدة. فلأنه لا حول له ولا قوة يستدر تعاطفنا ويجرنا إلى مشاعر الحماية والحنان. وحتى صراخ الطفل الذى يثيرنا ويزعجنا لا يزال يذكرنا بأنه لا يزال إنسانًا "بكل وضوح"، وليس "الحيـوان" المُنَفر، كما يعتقد النازى عن أطفال اليهود. وإن مات الطفل بطلق نارى أو كـسْر رقبته أو قذْفه إلى الحائط فإنه ما زال "كيانًا معروفًا" لطفل وهذا ما يُهَـدد الفاعـل ويتطلب تغييرات صعبة ومخيفة فى معتقدات هذا الرجل وفرقته. لكـن إذا قُطـع الطفل إلى نصفين يصبح جثة مقززة ومشوهة بلا كيان واحد. مع كـل تـداعيات

المعانى السيئة المصاحبة لمثل هذه "الجيفة" المنفرة. ومن وجهة نظر هذا الرجـــل، فإن المشكلة قد تم حلّها؛ فهذا اليهودى أصبح الآن كما يُفترض أن يكـــون اليهـــود (منفرين)، وهو الآن يستطيع أن يشعر كما يجب أن يشعر النازيون تجاه ضحاياهم، أو أعدائهم.

تنظيف التلوث :

كثرت نماذج من هذا النوع من التفكير بالنسبة إلى القتل الجمـــاعى. وأحـــد هذه الأمثلة وأكثرها شهرة بسبب "سوء السمعة"، كما ذكرنا فى الفصل الثانى، هـــو الاستخدام الاستعارى لكلمات مثل: "الصحة" و"المرض"، "عدوى" أو "ملوثات". فى تبرير "الهولوكوست". أما فكرة القتل الجماعى وكأنه علاج أو شفاء لحالة مـــريض ميئوس منه، والتى قد تُقلص المعدة من الألم، فإنها لا تقتصر على النازى فقط. فإن اللغة نفسها قد استخدمها مرتكبو جرائم القتل الجماعى فى "رواندا"، وكذلك "الخمير الحمر" فى كمبوديا الديمقراطية، كما استخدمها النظام "الماوى" بالصين... وهكـــذا. وغالبًا ما تشير "الاستعارة" إلى "فساد الصحة" ووجوب "تنظيف" العناصر "المعدية" التى تثير المشكلات، كما فى إصرار محاكم التفتيش الإسبانية على "نقـــاء الـــدم"، أو كما وصفته المذابح فى السلفادور"التنظيف"[٢٦]. وقد كان من آثار المعرفة فـــى مجال الطب؛ بواسطة اكتشاف "ليستر" **Lister** (عن مواد تطهير الجروح)، و"سنو" **Snow** (عن أن مرض الكوليرا مبعثه الماء الملوث)، و"باســـتير" **Pasteur** (عـــن البسترة لحفظ الغذاء) وبازلجيت **Bazalgette** (مُنشئ منظومة الصرف الصحى فى لندن)، أن كشفت مهنة الطب عن أن التأكيد على الصحة العامة له تأثير عظيم فى الجماهير خاصة فى مفهوم "الصحة للمجتمع". والصلة بين "التنظيف" والشفاء صلة

واضحة ويمكن لمن يصوغون الأفكار "والأيديولوجيات" أن يعملوا بها، وأن يحصلوا على المزايا التى تسمح لهم بالوصول إلى أغراضهم بأن يطْرقوا على مخاوف متجذرة بعمق فى نفوس الناس عن "القذارة" والتلوث[٢٧].

والإشارة إلى "القرف" و"التلوث"؛ سمة مميزة للفكرة المتطرفة "إقصاء الآخر"، غير أن المثال الأشهر للتعاون المهلك بين "الطب" والقتل الجماعى ظهر فى السنوات السابقة على "الهولوكوست". وقد كان "هتلر" مُعلمًا وأستاذًا فى استخدام لغة "القذارة والنظافة"، خصوصا فى قدرته الفائقة على مزجها بالأفكار المتأصلة فى دولته كأعلى مستوى لفكر المؤسسة الحاكمة (أو فى الأمة بوصفها وحدة سياسية خاضعة للحكومة). وفى منتصف العشرينيات من القرن الماضى، وقبل أن يستطيع وضع نظرياته العنصرية موضع التنفيذ بفترة طويلة، وصف هتلر هذه الفترة بأنها "مريضة وعفنة من داخلها"، وأنها تعانى من "مرض" هو مثل نشر داء "الزهرى" بين شعبنا"، وبذلك قدّم نفسه كما لو كان "ملك الأطباء" الذى يملك الشجاعة لأن يُشّخص المشكلة ويصف العلاج معًا[٢٨].

وكان العلاج شوكة ذات شعبتين: يرى، من جهة، أن الشعب الآرى لا بد أن يُشفى من أى أمراض "عرقية"، وكى يتحقق هذا فإن دماءهم (ما يفترض أنه قناة الأعراق)، يجب أن تُنقى وتُطهر من أى مكونات غريبة. ولم يكن هتلر يزدرى أو يحتقر التعليم؛ وقرر أن "كل ولد أو بنت يجب ألا يترك المدرسة دون أن يُدرك إدراكا تامًا ضرورة ماهية "نقاء الدم"؛ لكنه عرف أيضًا الحاجة إلى استخدام أساليب صريحة وقاطعة، وأن يطبقها ليس على "الأجسام الغريبة" مثل اليهود والغجر فقط؛ ولكن على أعضاء الجنس الأعلى نفسه. والمثال على ذلك برنامج "قانون القتل الرحيم ت٤" الذى طبقه على الألمان المعاقين ذهنيًا وبدنيًا حتى عام ١٩٤١، عندما اضطرته صرخة جماهيره وشعبه إلى إلغائه[٢٩].

ومن جهة أخرى، فإن المرض نفسه لا بد أن يُهاجم ويُستأصل (فلا حياة لأى شيء لا يستحق الحياة)، وكما أوضح لنا روبرت لفتون "Robert lifton" في أبحاثه عن "بذور التطور في المستقبل" والمتعلقة بهذا الموضوع، فإن أطباء النازى تدربوا على تطبيق هذا الاستعارات في لغة الطب[٣٠]، ولذلك فإن فريتز كلاين "Fritz Klein" تحدانا كي يعقد مُصالحة بين مشاركته في "الهولوكوست" ودوره باعتباره طبيبًا، فلم يجد صعوبة في أن يُقرن تطبيب المريض لشفائه بالقتل الجماعى: "بالطبع أنا طبيب وأريد أن أحفظ حياة المريض. وبدافع احترام حياة الإنسان، يلزم أن أستأصل الزائدة الدودية إن كان بها "غنغرينا" من جسد أى إنسان مريض. واليهود هم هذه الزائدة التى بها "غنغرينا " في جسد البشرية[٣١] ".

وقد خضع من لا يشتغلون بمهنة الطب أيضا لهذا المفهوم المجتمعى، الذى يُعتبر فيه الأفراد، أو جميع الأقليات، خلايا غير سليمة أو غير فاعلة في جسم الأمة. إن هانز فرانك "Hans Frank" الذى قام بالتدريب في مجال القانون ثم أصبح حاكم النازى في بولندا، كان يرى أن اليهود "نوع أدنى من أنواع الحياة، نوع من الهوام أو الحشرات الطفيلية التى طالت الشعب الألمانى وأصابته بأمراض مهلكة ومميتة". وقال: "إن التخلص منهم سوف يضمن لنا أن أوروبا المريضة سوف تسترد صحتها مرة أخرى[٣٢]". وبالأسلوب بنفسه أيضا شرح هانس بوثمان " Hans Bothmann"، الضابط في جيش النازى والقائد البوليسى الحربى ٢١ قائلا: "لقد تولينا إبادة أشرس أنواع الطاعون البشرى- اليهود- في هذا المعسكر[٣٣]".

هناك وصية تُنسب إلى "جالينيوس" و"أبو قراط" تعبر عن مثل أعلى مُوَجه للأطباء، "أولا: لا تكن سببًا في أى أذى[٣٤]". إن الفجوة بين هذا الإحساس "الراقى" وما حدث للناس الذين حُكم عليهم بالموت في ألمانيا النازية يعطينا دليلاً قويا بصفة خاصة على القدرة المذهلة للبشر على "إقصاء الآخر".

ملخص وخاتمة:

إن الاستعارة البلاغية لكلمة "مرض تمثل حافزًا علـى "إقـصاء الآخـر"، فالمعنى يعطى تفسيرًا بسيطا وعاطفيا بدرجة كبيرة لأمراض الفرد أو الجماعـة أو الأمة، ويُتضمن التهديد بردود أفعال تُزيد من الدوافع على الفعل. وهذه الاسـتعارة تتناسب بسلاسة مع المعتقدات المقبولة عن المرض بما فى ذلـك الـشعور القـديم بالخوف من الغرباء ناقلى المرض. ويعتمد المعنى أيضا على فكرة الجماعة كجسد يحمل عواطف إيجابية بين أعضاء الجماعة وتفـرض عليهـا فـروض الوحـدة والطاعة، ويجعل ذلك الجماعة أكثر تماسكا، ومن ثم يعطى قوة أكبر لأعضائها فى مواجهة الدخلاء.

ولو أعطينا الفرد الاختيار بين أن يُغيّر معتقداته (أو الأنماط العصبية بذهنه) لتتناسب مع العالم الواقعى، وبين تغيير هذا العالم ليتواءم مع معتقداته، فإنه سـيتبع الاختيار السهل. وكلما كانت المعتقدات مهمة، فسيكون الدفاع عنها قويًـا، وكلمـا كانت العواطف التى سيؤجهها هذا التحدى شديدة ومتطرفة، يحتمـل أن يكـون رد الفعل أكثر عنفًا. وعندما يتضمن المعتقد شيئًا من التقزز، ويتعـرض هـذا الفكـر للتحدى، فإن بنى الإنسان أناس مثلنا من الممكن أن يكون رد فعلهم مميتًا ويتصف بالوحشية البشعة.

وتشمل بعض أنواع القسوة ردود فعل طائشة تجاه تهديدات اجتماعية تثيـر الغضب أو الخوف، وبعضها يتضمن إغفالاً متعمدًا للحالة الإنسانية للـضحية؛ لأن إقصاء الآخر جعل هذه الحالة لا اعتبار لها إطلاقا بالنسبة إلى مرتكب الجريمـة. وهؤلاء المجرمون قساة القلوب الذين تدفعهم معتقداتهم القوية؛ قد يرون أن سـلوكهم

نوع من "سوء الحظ"؛ لكنه دفاع ضرورى عن النفس يحميهم من الأفكار والناس الذين يشكلون تهديدا ضد مظهر حيوى من مظاهر هويتهم.

وليست كل القسوة من القلوب المتحجرة مثارها الدفاع عن المعتقدات، إلا أن المعتقدات يمكن أن تستخدم تلقائيا باعتباره مبررًا للسلوك العدوانى- أو أن تُدّعم وتشحذ خصيصا لمثل هذا العدوان. فالجشع والخوف والرغبة فى الانتقام وما يماثلها من غيظ واستياء، والمنافسة على الموارد، كل هذا وكثير من المثيرات الأخرى، يمكن أن تدعم القسوة التى تحفزها المعتقدات وتغذيها مبرراتها "الأيديولوجية". وقد تقدم المعتقدات بطاقة العواطف سبلاً و"قنوات" تربط بين الرغبات وأعمال العنف. غير أن الظروف يمكن أن تغير العواطف القوية إلى درجة أن ما كنا نعتز به من معتقدات يفقد قوته وتأثيره، وقد تبدو هذه المعتقدات بعد ذلك، لمن كانوا يعتنقونها، نوعا من الضلال أو الأحلام المزعجة. كما أن هناك السادية أيضا، والتى قد تشير بقدر كبير إلى اتباع اللذات أكثر من كونها نزوعًا إلى "تشكيل العالم" الواقعى كما نريده كى نحفظ أفكارنا المعرضة للضياع أو السقوط (ربما بيد الأعداء). وترتبط المعتقدات ارتباطًا كبيرًا بأسوأ أنواع القسوة المتطرفة، ولكنها يلزم أن تكون على درجة كبيرة من القوة والتعصب كى تجلب الضرر المقترن بها.

لقد حاولنا فى الفصول الثلاثة الأخيرة؛ الكشف عن كيفية قيام المخ بالتوسط كـ "حلقة وصل" بين الفعل والعاطفة والمعتقدات. وفى الفصلين السابع والثامن سوف نطبق هذا الفهم على مشكلات غلظة القلب وجمود الحس والقسوة السادية.

الفصل السابع

لماذا نحن قساة القلوب؟

> من كان قاسيا على نفسه لا بد أن يقسو على الآخرين أيضًا. ولا بد أن يكظم أو يكبت العواطف "اللينة" والرقيقة تجاه المقربين، كالصداقة والحب والعرفان بالجميل، وحتى الفخر والاحترام، وذلك بانفعال شديد وعاطفة "باردة" تستقطب طاقته كلها نحو هدف مُفْرد ومن أجل سبب أو فكرة ثورية أو متطرفة.

(من كتاب "سيرجى نيكاييف **Sergey Nechaev** خلاصة عقيدة الثائر، ١٨٦٩)

تشمل القسوة عديدًا من الخطايا. وليس هدفى من هذا الكتاب أن أُفَسر أو أشرح كل نوع من أنواع القسوة بإسهاب (فهذا لن يكون بالإمكان)، ولكن هدفى هو أن أقدم إطارًا نظريًا للتفكير فى القسوة بصفة عامة. ولقد استعرضنا كيف نُعَرف القسوة، وفرّقنا بين "غلظة القلب" والسادية على أساس الغرض الأهم للمعتدى من فعله. وقد فكرنا أيضا فى الآليات الكامنة وراء المكونات الثلاثة الخطيرة للسلوك القاسى: اتخاذ قرار الفعل، المعاناة مع العواطف، واعتناق المعتقدات. والآن حان الوقت كى نضع هذه المكونات معًا لنجمّع الإطار ونكمله ولنرى ماذا يمكن أن يكشفه لنا عن القسوة.

وموضوع هذا الفصل هو "غلظة القلب" أو "جمود الفؤاد". وإلى حد كبير، فإن أكثر شكل من أشكال سلوك القسوة شيوعا يتراوح بين القسوة التي لا تؤذى جسديا ولكنها موجعة نفسيا مثل: إنزال الضرر والألم باللفظ والكلام السيئ، والنبذ، والتربص، إلى القسوة المدمرة جسديا، والتحريض مع سبق الإصرار والترصد على "التنقية العرقية"، والقتل بالتجويع، والقتل الجماعى. وهذه الوحشية البالغة هى التى تسترعى الانتباه لأقصى درجة. ونحمد الله أنها نادرة، إلا أن القسوة الزائدة قد تحدث قدرًا كبيرا من الضرر الذى يصدم الفكر دون أن يُقتل أحدًا. إن البشر بإمكانهم أن يكونوا على قدر من دماثة الخلق واللطف والإيثار. لكننا بإمكاننا أيضًا أن نكون غلاظ القلوب جدا فى كثير من الأوقات.

ما القسوة مع غلظة القلب؟

دعنا نتذكر التعريف العملى للقسوة الذى حددناه فيما قبل. القسوة: هى سلوك طوعى غير مُبَرر يسبب معاناة "مقصودة (ضرر نفسى أو بدنى بغيض) لضحية أو ضحايا لا يستحقون ذلك. ويتضمن هذا قرارًا اختياريًا للفعل كى يحقق هدفًا أو أهدافًا معينة. فعلى سبيل المثال، الجندى الذى ينصاع لأمر رئيسه الضابط بأن يُعْدم سجينًا قد يكون هدفه الأول هو إظهار الطاعة الفعالة، وأيضًا الرغبة فى "سحق" هذا الوغد العنيد، أو أنه ينتقم ويثأر لزملائه الذين قتلهم أو أصابهم هذا السجين، أو أنه يريد إنهاء التحقيق المزعج، أو أن يخرج من هذه البيئة "الكاتمة والعفنة". وبينما يُصوّب الجندى سلاحه ويطلق النار. فإنه يخلق كثيرًا من الأهداف الإضافية اللحظية مثل: رغبة كيفية القيام بتحريك عضلاته بالنظام الصحيح لأداء المهمة، ومعظم هذه الأهداف اللحظية لا تصل إلى درجة الوعى إطلاقًا .

وليس من السهل دائما على مرتكبى الجرم، أو الضحايا، أو أى طرف ثالث أن يُرتب أو يُصنف أهداف المجرم، فيما يتعلق بالقسوة. وكما رأينا فإن الدوافع غالبا ما تكون غير واضحة، والتوقف للتفكير فيها هو استثناء وليس القاعدة. وحتى يكون الفعل قاسيا، فإن أحد اهدافه لا بد أن يتضمن السلوك العمد بالطريقة التى تُحْدث معاناة مُتعمدة ومدركة من قبل[١]، وكلما كان هدف المجرم إنزال أكبر قدر من الأذى، كانت القسوة أكثر سادية. وهناك مثلا الحارس الذى قصد أن يدفع بالمواطنين داخل عربة قطار شديد الازدحام متوجه إلى بلدة "أوشفيتز" (حيث معسكر الإعدام)، وهو من يمكننا أن نحكم عليه بأنه مُدان بدرجات مختلفة من السلوك القاسى، ويعتمد ذلك على حالته النفسية:

الحالة الأولى: الحارس لا يعلم شيئا عن البلدة، وقيل له إن هؤلاء الناس ذاهبون إلى الشرق. كان مهذبًا معهم ولكنه حاسم، لم يضايقهم أو يضربهم، لكنه لم يُظْهر أى تعاطف معهم. وعلى الرغم من ذلك فقد اختار أن يدفع بهم إلى القطار، وربما كان من المنطقى أنه تَوقع أو أنه يعرف أو يخمن أنهم بمجرد دخول القطار سوف يعانون كثيرًا.

الحالة الثانية: الحارس يدرك الجهة التى يقصدها المسافرون ويدرك كذلك مصيرهم المحتمل (أى القتل). ويطلب منهم إعطاءه أشياءهم القيمة لأنهم لن يحتاجوها. لكنه لا يُهدد

أو يؤذى من يرفضون ذلك. ويخبر من يتـأخرون أنهم سوف يُطلَق عليهم الرصاص إذا لم يسرعوا بالركوب.

الحالة الثالثة: الحارس يُعذب المـواطنين نفسيًا بأن يخبرهم بمصيرهم المحتمل (الإعـدام). ويضرب من يتباطأ منهم ومن يـرفض تـسليمه مقتنياته الثمينة.

وبمعنى آخر، يتراوح السلوك القاسى بين سلسلة متصلة تشمل كلا من جمود القلب والسادية. وتتبلور القسوة الطائشة بلا تعقل، وبلا مبالاة، والأنانيـة، حـول غلظة القلب فى بداية هذه السلسلة. وفى نهاية السلسلة تكون الأفعال الأكثر سـادية مثل القسوة التى تستخدم لإثارة الفزع والتى يكون فيهـا الرعـب هـو الرسـالة المستهدفة، وإن لم يكن هو الهدف النهائى. كما أن القسوة قد تلجأ إلـى عواطـف مركبة ومختلطة، كأن يدافع القاتل عن نفسه قائلا إنه نادم لكنه كان مـضطرا "أنـا أكره ما فعلته، لكن إما نحن وإما هم" – حتى إن كان "هم" الذين يقصدهم مجموعة من الأطفال غير المسلحين. وهؤلاء المجرمون يعرفون أنهم يسببون المعاناة لكنهم لأى سبب يقللون من أهمية جرمهم من أجل أهداف أخرى ويَدعَون أنهم فعلوا ذلك رغمًا عنهم.

لماذا تعتبر غلظة القلب جانبًا من جوانب التجربة الإنسانية؟ تفترض نظرية "داروين" عن "الانتخاب او الاصطفاء الطبيعى" أن البشر الذين تطوروا ليتـصرفوا بطرق تُسهل انتقال جيناتهم لأجيال أخرى، سوف يَجنون حصاد ذلك مـن فوائـد "توافق جينى" يجعلهم يعيشون فى جماعات متوائمة لو امتنع أفراد الجماعـة عـن

أفعال الإيذاء داخل الجماعة، وشجعوا أفرادها على التعاطف والعمل وفق أهداف مشتركة، مع معاقبة "الجامحين" الذين يمارسون حقوقهم دون القيام بواجباتهم ومسئولياتهم. وقد يُخاطر أفراد الجماعة بالتعرض للموت أو النفي والطرد إذا استمروا في تصرفاتهم المتضاربة مع الأهداف المشتركة، لكنهم قد يستفيدون من ذلك أيضا. وهنا تكون "إملاءات الاصطفاء والاختيار" الناتجة في صالح الأفراد الذين استطاعوا فهم معتقدات ورغبات الآخرين، والذين يتصرفون – ظاهريا – بصورة جيدة أمام الأقوياء من أفراد الجماعة، والذين يعرفون كيف يقتنصون الفرص لصالح أنانيتهم عندما يُقدمون أنفسهم للجماعة، والذين يستطيعون إخفاء معتقداتهم ورغباتهم المتعارضة والمخالفة عن باقي الجماعة.

ماذا يمكن أن نستشف من ذلك غير أن "التطور والتحور، لو كان شخصا مجسدا، لكان من المحتمل أن يفخر كثيرا بـ "ميكيافيللي"[٢]؟ إن أحد المضامين التي نستشفها هي أن اكتشاف الغش والخداع سوف يتم "اصطفاؤه" أيضا، فالغشاشون متطفلون على موارد غيرهم من الناس، لذا فإن القدرة على تحديد المخادع والغشاش – والتحذير ممن يساندونه ويتحزبون معه – يفيد كثيرا. والسهل من هذا أن نكتشف الاستغلال الأناني للجماعة من هؤلاء، وذلك إذا كانت هناك توقعات عن ما يجب أن يكون عليه السلوك في الجماعة.. أي القواعد والقوانين الأخلاقية. وسيكون الانحراف عن السلوك المقبول اجتماعيا له تكلفة بالخسارة على أفراد الجماعة (مثل تكلفة عقاب المتهم وإصلاح أي ضرر ناجم لو كان هذا بالإمكان). كما سيصبح تعليم الأفراد الجدد في الجماعة ما يتوقعونه عن عقاب الخارج على القانون، وعن المساواة في كل هذه التوقعات هو أهم الأولويات للتواؤم و"الانسجام" داخل الجماعة، وسوف يؤدي ذلك إلى تطور القواعد الأخلاقية

الخاصة بالجماعة، كما سيكون نوعا من "الضغط " في اتجاه امتلاك معتقدات "متشابهة" بصفة عامة.

ولقد تطورت القواعد الأخلاقية كي تحمى "الأقرباء" وليس "الغرباء"؛ فعندما اضطرت الموارد البيئية المحدودة الجماعات إلى المنافسة، أصبحت الجماعات المنافسة - التى من الخارج- تمثل تهديدًا لهم. ولما أصبح الخطر حاضرًا وواضحًا، انطلقت ردود الفعل تجاه التهديد لتؤدى إما إلى انسحاب واحدة من الجماعتين وإما إلى الصراع بينهما. وبصفة عامة، فإن الصراع يمكن أن يتمثل فى نوعين، حسب اعتماد إحداهما على الأخرى بطريقة ما، أو وجود أى تعاون بينهما (كأن يكونا شريكين فى تجارة أو بينهما قرابة بالزواج مثلاً). وإن كان الأمر كذلك فمن الخير للجماعتين أن يُسوى النزاع على السلطة بينهما لنقل الأضرار والخسائر التى سيتكبدانها إذا أدى النزاع إلى معارك لها طقوس خاصة (أى تحكمها قوانين معينة)[٣]. ومن الممكن أن تمتد بعض القوانين الأخلاقية للجماعة، بما فيها قرارات فض النزاع، إلى جماعات أخرى، بشرط اشتراك الطرفين فى الفهم المتبادل الذى يجعل سلوكيهما من الممكن فهمه وإدراكه.

ومن جهة أخرى، فإنه بالمواجهة مع الغرباء، قد تكسب أى جماعة مسالمة شركاء جُددًا فى تجارة ما أو تتجنب ضررًا ما. وتفترض نظرية "اللعبة" أنه، على الأقل فى نماذج ألعاب الكمبيوتر، من المعقول أن نكون مسالمين مؤقتًا ومبدئيًا لكن يمكننا القيام برد فعل عدائى لو أبدى الطرف الآخر عدوانًا بصورة ما (أى نقرة بنقرة)[٤]. وإذا كان الغرباء ضعفاء فمن الممكن أن تستفيد الجماعة من الهجوم عليهم والاستيلاء على مواردهم، سواء كانوا عدوانيين أم لم يكونوا. وفى تعريفنا، باعتبارنا مراقبين محايدين وغير منحازين. فإن هذا السلوك نوع من القسوة الناشئة عن جمود القلب وتحجر المشاعر.

أما إذا اتضح أن الغرباء أقوى، وعدوانيون، فقد توازن الجماعة هذا الوضع برد فعل معتدل فى مستوى العنف (أى بالقدر الذى نحتاجه كى نحافظ على سلامة جماعتنا ونردع الجماعة التى من الخارج)، لكن هناك مخاطرة فى ذلك؛ فقد تعــود هذه الجماعة لتعتدى علينا بقوة أكبر فى المستقبل. ومن الصعب أيضا تحديد قــدر العنف المطلوب، خصوصا فى أثناء القتال، فيكون الردع المعقول الــذى أرادتــه الجماعة فعلاً شريرًا ومثيرًا للغضب فى نظر جماعة الغربــاء المُعْتــدى علــيهم، وسيكون الرد بعدوان ثأرى شيئًا محتملاً جدًا.. وفى مثل هذه الحالة، يمكن للجماعة أن توفر نفقات الدفاع ضد العدوان المحتمل بأن تستخدم العنف الزائد عــن الحــد والمتناهى، إما كى تبدو خطيرة جدا لدرجة أن أحدًا لن يجرؤ على مهاجمتها، وإما أن "تزيح" من تحاربه نهائيًا وعلى نحو حاسم.

إن تطبيق مفاهيم "نظرية التطور" على قسوة البشر يمكن أن يُوَضح ســماتها ومظاهرها المُحَيِّرة، مثل: الاتجاه الشائع بأن القسوة تكون أسهل لو تمت من مسافة بعيدة. ومن تدرب على الاعتقاد فى الديمقراطية قد يجد أن قتــل الــضحية شــىء مزعج بالقدر نفسه سواء تم أمامه أم لا (بعيدًا عنه)، لكن فى الواقع نحن مخلوقات تتأثر بما نراه وجهًا لوجه، والمشاهدة المباشرة تُحْدث فرقًا كبيرًا جدًا. ولقد طــوّر أسلافنا الاتصال المباشر والملاحظة، مثل القدرة على قراءة إشارات الخطر عــن بعد والاستجابة لها، قبل أن يستطيعوا التفكير فيها كرموز بزمن طويل. والبعد فى المسافة سواء تم بالأيديولوجيات أو بالتكنولوجيا أو بكليهما؛ يقلل من مأساة أو حزن الضحية حتى تكبت السلوك العداونى. وتركيبة المجتمعات الحديثة بصفاتها الجمعية وغير الفردية وبتقسيماتها المتخصصة للمسئوليات قد قللت أيضا مــن الإحــساس بالتغذية المرتدة الاجتماعية والجوهرية وشديدة السلبية التى ساعدتنا فى التحكم فــى

أسوأ صفات أجدادنا. وعن الطرف الثالث، الضحايا "عن بعد" -خصوصا عندما نتخيلهم جماعات شديدة التناغم - يكونون أقل واقعية بكثير عن المخلوقات التى نراها تبكى أمامنا، إنهم يبدون كما لو كانوا كيانات مجردة مثل الأرقام، يثيرون فينا فقط "خيالات" من العواطف التى كان يجب أن نكابدها لو رأينا دماءهم بالفعل، كالحزن والخوف. أما بالنسبة إلى مرتكبى الجرم؛ فإن الضحايا "عن بعد" من السهل إقصاؤهم ومعاملتهم بجمود القلب؛ ما يسبب قليلاً من القلق وعدم الارتياح.

لماذا كان الجنس البشرى أقسى كثيرًا جدًا من المخلوقات الأخرى؟

لقد طور عديد من أصناف المخلوقات ردود أفعاله ليتعامل مع التهديدات الشائعة (ردود الفعل تجاه الخوف إذا كان التهديد لا يمكن مقاومته، واستجابة بالغضب للتهديد القوى الذى يمكن مقاومته، والاستجابة بالقرف والاشمئزاز للتعامل مع المواد التى تحمل ناقلات المرض كالجراثيم، والسموم) . ولقد طورت كائنات أخرى، ومنها الجنس البشرى، القدرة على التحكم فى ردود الأفعال وتوجيهها لدرجة ما. أما تنظيم العواطف فهو مفيد بصفة خاصة فى التفاعل الاجتماعى، ذلك لأنه يقلل من العدوان الجسمانى، ولأنه يسمح للأفراد بأن "يتصنعوا العواطف" التى قد لا يشعرون بها فعلاً (أو التى لا يحسونها بقوة كما يتظاهرون بها).

ولقد أعطى العيش فى جماعات للإنسان مكافأة للأفراد الذين لديهم القدرة على التنبؤ عن بيئتهم المادية والاجتماعية، بما فى ذلك سلوك الآخرين. ولقد أتاح تطور التفكير الرمزى لدى البشر القدرة على التنبؤ ليتفوق الإنسان على قدرة الأنواع الأخرى من الكائنات؛ فازدهرت لديهم الصور الذهنية عن مشاهد الثقافة، ما يعنى أن الأفكار أصبحت مهمة فى ذاتها، وكانت نتيجة هذه "النقلة" الاستثنائية

أن ازدياد عدد الأساليب التى يمكن أن يعانى منها الجنس البشرى، فنحن الآن نتنفس ونأكل لأننا نتغذى بالرموز وليس بالغذاء المادى فقط، وبإمكاننا أن نحب المثل العليا ونلتزم بالمعتقدات، ونوقر الأحلام ونعتز بها، وأن نشعر بالغضب من التهديدات التى يُقْصد بها النيل من الكيانات الرمزية لنا، مثل الأعلام أو الكتب. ويعنى هذا أننا نفقد كثيرًا جدًا، أكثر مما كان بالنسبة إلى أسلافنا الأدنى مرتبة، من القدرة على التخيل.. وعندما يُجردون السجين من ملابسه فإنه يعانى جسديًا - من البرد مثلاً - وماديًا - لو أتلفوا ملابسه أو أشياء ثمينة- لكن الضرر الأكبر هو الإيذاء النفسى؛ الإذلال وتجريده من صفته الإنسانية ونزع جزء كبير من هُويته المدنية والبشرية. إن الإبحار فى محيط من الأفكار يُعّرضنا لكثير من الضيق والتهديدات، وبعض الضرر أو السرور أكثر مما مر به أجدادنا الذين لم يفكروا بالرموز[٥]. وهناك أنواع أخرى من المخلوقات تستطيع "تشكيل" الواقع لكنها أقل قدرة على التنبؤ، ولديها أسباب أقل لممارسة القسوة، بينما نحن البشر نملك خيالاً أرحب يُمكننا به أن نحلم بأنواع معقدة من تعذيب الآخرين[٦].

وتنشأ التهديدات عندما تتعارض المعتقدات مع الواقع أو الحقيقة، فتتوالد الرغبة فى حل هذا الصراع (أى الحاجة إلى التحكم)؛ فإن كانت المعتقدات قوية جدًا، أو كان بالإمكان "تعديل" ومواءمة الواقع، فالجهد اللازم للتكيف مع الحقيقة سيكون أقل، ولأن معتقداتنا القوية جزء لا يتجزأ منا؛ فإن تهديدها يُطْلق ردود فعل "تشوئية" ومطورة بشدة - والتى لن تتناسب دائمًا مع الأخلاقيات الحديثة. وإن كان "تشكيل العالم" يسبب المعاناة فإن الفريق الثالث الذى لا يشاركنا معتقداتنا قد لا يتقبل ادعاء من يعتنق هذه المعتقدات بأن أفعاله لها ما يبررها، ومن ثم سوف يرى أنه قاس وسلوكه يتسم بالقسوة.

لماذا نكون غالبا قساة القلوب مع الأقارب المقربين ومن نهتم بهم؟

إن المناقشات الأساسية لحجة "النشوء والارتقاء"؛ تقترح أن قسوة الجنس البشرى يجب أن تُوجه فى الغالب إلى الغرباء، بينما تُوجه سلوكيات الإيثار إلى أفراد الجماعة أو الأقرباء، لكن الإيثار مع الغرباء - حتى عندما لا تكون هناك فرصة فى توزيع الفعل الجميل - فإنه يُعرف وينتشر، ويحدث الشىء نفسه مع القسوة الغيرية التى بها يستخدم الناس مواردهم ليجبروا غيرهم على أن يكسر القواعد الاجتماعية.. وهل يتحتم علينا لذلك رفض نظرية داروين، ليس بعد، وكما ذكرنا فى الفصل الثالث فإن البحث العلمى يقترح أن الإيثار للغرباء "العقاب الإيثارى" قد تكون له فوائد وفرص للشخص وهى أن "ينقل" جيناته.

والقسوة تجاه أفراد الجماعة شائعة أيضًا، وجمود الفؤاد مع الأصدقاء وأفراد العائلة يبدو أنه يكون، فى أفضل أحواله، مضادًا للتكاثر، وفى أسوأ أحواله نوع من "الانتحار الجينى".. كيف نفسر مثل هذه القسوة؟

إن أحد العوامل، كما أظهرت صناعة "اختبارات المنشأ"، هو أن طاقة البشر الطبيعية فى الاستدلال على الأقارب ليست آلية. فالاصطفاء الطبيعى لا يتكرم بالصدقات ولا يعطى لافتة بالأسماء (شىء غير محدد)؛ وبينما الدلالات أو التلميحات السلوكية (مثل الطرق المميزة فى السلوك والأسلوب، أو الفترة الزمنية التى قضوها معًا فى الطفولة) والدلالات والتلميحات البدنية والمادية (مثل العرقية والتشابه الجسدى)، تعتبر مهمة بلا شك، وهى ليست كافية دائمًا لتحديد من هو القريب أو المقرب المدلل[٧]). وقد تطورت لدى الجنس البشرى نظم حساسة لكشف الغش ولتقييم إخلاص الرفيق أو الزميل. لكن، كما أدرك "عطيل" فى مسرحية شكسبير، فإن هذه النظم ليست دائما دقيقة وصادقة [٨].

وكما هى الحال فى الدلالات السلوكية والبدنية، فالحكم على التشابه بين شخص وآخر يعتمد أيضا على "التلميحات" الرمزية- مثل التشابه في المعتقدات أو الاهتمامات المشتركة أو- ببساطة - مجرد التعرف على صلات القرابة. لأن كثيرا من الهوية الإنسانية توجد بشكل رمزى. وتقديرات التشابه توصينا باعتبار الموقف الأخلاقى: هل هذا الشخص قريب، يمكن تقييمه، أو ليس قريبًا فهو تهديد محتمل؟ والتشابه النفسى، مثل التشابه البدنى أو السلوكى والتاريخى، من الممكن أن يؤدى إلى اعتبار الشخص على أنه، (إن لم يكن أخوه الذى فقدناه من زمن طويل، فإنه على الأقل مثلنا: قريب رمزى[٩].. إننا قد نفترض أن مثل هؤلاء الناس قد مُنحوا الجينات المشتركة معنا، لكننا نعلم أنهم يشاركوننا فى قيمنا وأفكارنا، وفى حلبة "النشوء والارتقاء" الثقافى فإن مرتبتهم وتقييمهم باعتبارهم أشقاء- أى أنهم متعاونون إلى أن نكتشف أنهم منافسون لنا، كما يمكن أن يكون الأشقاء)، ويمكن أن يكون ذلك كافيا ليبعث التعاطف، وكل التلطف الإنسانى المصاحب له[١٠].

والتشابه يمكن أن يكون محددًا قويًا للسلوك، إذ يدفع بالناس من أعمار مختلفة وعرقيات مختلفة وطبقات اجتماعية مختلفة إلى التعاون معًا. إن العلوم والأديان التى لها ثقافات "ثقيلة" خاصة - أى أنها مجموعة من المواقف والسلوكيات والقيم المحددة والمركبة التى تجعل العلماء أو رجال الدين يعرفون الآخرين مثلهم بسهولة- وبهذا يشكلون أمثلة واضحة على قوة التشابه[١١]. فالعالم البريطانى (نمطى ورجل من الطبقة المتوسطة له خبرة بالعمل الجامعى وتدريب مهنى ممتد) قد يشعر براحة مع نسخة مطابقة له من عالم ألمانى، أو صينى أو باكستانى، سواء فى المعمل أو المقهى. وقد لا يشعر بالراحة مع آخر ليس عالما مثله ولكنه بريطانى، خصوصًا إذا كانوا من الطبقة العاملة أو الطبقات العليا، ذلك لأن الثقافة "البريطانية " المشتركة "ضعيفة" إذا ما قورنت بـ "قوة المجال" العازلة والمرتبطة بالطبقة الاجتماعية والمهنة.

وكثير من حالات جمود القلب مع الأقارب تناسب المنطق الذى عبر عنه ويليام هاملتون[١٢] "William Hamilton"؛ فقد استغل الوالدين الذين لا يمكنهما الإنجاب، أو قتل الأطفال ممن ليست لديهم فرصة للحياة، ليتيح موارد محدودة تتركز على العمل الحيوى للجينات. وكل من الجنس البشرى والأنواع الاجتماعية الأخرى غرف عنهم أنهم يتخلون عن الشيوخ الطاعنين فى السن أو يتخلصون منهم، أو حتى الأعضاء الصغار من جماعتهم [١٣]. وقد تنتج حالات أخرى من القسوة عن هذه المشكلة المذكورة سابقًا، وهى التدرج فى العنف المُتعمد الذى يقصد به العقوبة (خصوصًا إذا كان المجرم ثملاً أو مخدرًا وقت ارتكاب الجرم، كما يحدث غالبًا فى العنف الأسرى).

وقد تنشأ حالات غلظة القلب أيضًا من الأحكام السلبية الخاطئة بخصوص التشابه، فعندما يجد الناس أنفسهم فى صراع يتلاشى حتميًا إحساسهم المشترك، وهنا يتضح الاختلاف بينهم - والذى كانوا يتغافلون عنه فيما سبق- ويكون أكثر وضوحا ولافتا للنظر[١٤]. ويضيف إقصاء الآخر المتزايد طبقات من التهديد للخلاف والنزاع الأصلى؛ فيجعله أكثر بروزًا وتأثيرًا فى الطرفين المتنازعين، وبذلك يمهد لتصعيد الكره والحقد المتبادل. إن الصديق عندما يتضح أنه بدأ يشكل تهديدًا قد يظل على مسماه "كصديق"، لكن الخلفية العاطفية ستقدم لنا حكمًا مختلفًا.

وفى الختام، وكما أسلفنا، فإن "الاصطفاء الطبيعى" نادرًا ما يكون ديكتاتورًا قاهرًا وربما لن يكون أبدًا كذلك، على الأقل بالنسبة إلى الجنس البشرى. إننا نحن الذين طورنا تهديدات لنكون عدوانيين بشدة وطورنا ردود أفعال شديدة العدوانية تجاه التهديدات لنواجه بها التحديات العامة الشائعة بين البشر، لكننا طورنا أيضا مجموعة إضافية من الأسباب القوية للانشغال بتشكيل العالم الواقعى، بعنف أو بدون عنف. ويمكننا أيضا أن نرتكب أخطاء إذا كانت ردود أفعالنا أكثر عدوانية

عما تتطلب الظروف. وليس على سبيل المصادفة أن كثيرًا من مرتكبي جرائم القسوة ضد الأطفال يرون جرائمهم وكأنها مجرد عقاب (أي أنها مبررة لفرض النظام) . فالطفل بالنسبة إليهم ليس ضحية بريئة ولكن عنصر تحد، فهو يحطم التوقعات عن كيف يكون النظام، وقد يهدد أحد الأقرباء المقربين المعتقدات والصورة الذاتية لشخص ما، أو يشوه عالمه "المُنظم" بمطالب ورغبات تبدو غير معقولة، فيكون مثل الغرباء أو أكثر منهم. وحتى عندما يتطلب منطقنا الأخلاقي "التطوري" و"النشوئي" التحفظ أو الاعتدال، فإننا نحن البشر قد طورنا قدراتنا ودوافعنا على أن نتجاهل وننكر ونهدم كل المبادئ الأساسية والمنطقية.

ما العلاقة بين القسوة والتعاطف؟

أيها الوحش البشرى ماذا فعلت هنا
بإنسان برىء مطحون يعانى دون سواه روح
أثقلتها الأحزان والهموم؟ وهل تحتمل عيناك
النظر إلى الجرم والعار الذى لوث يديك إن كان
قلبك حينها رق ولان؟ لكننى لن أبارك ما فعلته
هنا ولن أجاهد النفس حتى أوحد افكارى معك.

(من قصيدة "الحرب الأهلية " للشاعر "صاموئيل دانيال"(*) Samuel Daniel)

ترجمتى

(*) شاعر ومؤرخ إنجليزى (١٥٦٢-١٦١٩)، وتؤرخ قصيدته الطويلة هذه (٩٠٠ بيت) لبعض الحروب الأهلية المحدودة فى عصره.

لقد تطورت استجابة الإنسان للتهديد والعواطف المصاحبة له في مواجهة الأخطار العامة، لكن ذلك يكلف الإنسان كثيرا، وعندما تتكرر هذه الإثارة باستمرار يمكن أن تُحدث أضرارًا جسمانية، فتهديدات الخطر غير الملائمة التي تطول فتراتها بلا ضرورة تبدد الطاقة وتُعرّض الفرد لأضرار نفسية، وقد تُثير العداء والكراهية من الآخرين من ذوى الحيثية خصوصًا من الطبقات الاجتماعية العليا، فمن المعقول إذن أن نقتصد فى رد الفعل حتى يمكننا كبته والتحكم فيه سريعًا؛ ما دام التهديد قد انحسر أو عرفنا أنه إنذار كاذب بخطر غير صحيح، وليس عجيبا أن كثيرًا من الحيوانات تستخدم، ولديها المهارة والخبرة على اكتشاف، "علامات توقف" وإشارات تدل على الاستسلام أو الخوف حتى تجعل الاستجابة للتهديد بالخوف محايدة أو غير عدوانية، وحتى تحد من الاستجابة لتهديدات الخوف. وفي الجنس البشرى تتضمن هذه القدرة كلاً من التواصل اللغوى (بالكلام) وغير اللغوى (بالإشارات) مثل: المعارضة أو النفور بمجرد النظرة المحدقة (والغاضبة).

أما ردود الفعل تجاه التهديد بالقرف، والتى تحمى السلامة النفسية والجسمانية وذلك بابتعاد الفرد عن الشيء المقزز، فيقل التقزز بمجرد زيادة المسافة بينهما، مثلما ينتهى أو يقل الخوف بمجرد انصراف المجرم (فاعل الجرم). لكن الاشمئزاز، مثل الخوف والغضب، له دور اجتماعى شهد تطورًا؛ فهو يُشكل الاستجابة لأى دليل على المرض لدى الآخرين (ضرر بالجلد، جروح عميقة، رشح بالأنف.. وهكذا). ولو كان أساس الدور الاجتماعى للتهديد بالقرف هو رد الفعل الناتج عنه؛ فإننا سنتوقع أن ردود الفعل النمطية تجاه المرضى من الناس سوف تعكس ردود الفعل التى تثيرها دوافع الاشمئزاز الأخرى؛ تجنب المصدر، طرده كلية أو إزالته والتخلص منه تماما. وغالبا ما يحدث ذلك بالفعل عندما يكون المرضى أفرادا من خارج الجماعة. وتكون دوافع "القرف" أقل إثارة لو صدرت

عن الأقرباء المقربين أو من الذات، غير تلك التي تأتي من بعيدى القرابة أو الغرباء، ذلك لأننا نظن أنه فى الحالة الأولى يكون التشابه الكبير فى ناقلات المرض والجراثيم سببا فى اعتيادك على جراثيمها، بينما الكائنات المُمرضة الآتية من الغرباء ستكون خطيرة جدًا[١٥].

وهناك مسألة أخرى، وهى عن أفراد المجتمع الذين يكلفونه الكثير، فالتخلص من الأفراد المرضى مدعاة لكثير من الإنفاق أو الإسراف، باعتبار أن كثيرا من الأمراض المعدية لها أعراض كريهة وبغيضة ولا ينتج عنها الموت أو العجز الدائم. والحفاظ على حياة هؤلاء المرضى تحمينا من العدوى لكنه أمر مكلف، وأحد الاختيارات هو "الحجر الصحى" وهو نظام رسمى لاجتنابهم، وتعمل به المجتمعات المستقرة (مثل "بيوت المجذومين" المخصصة لمرضى الجذام فى العصور الوسطى) لكن ذلك يمثل مشكلة فى مجتمعات أخرى يكون فيها ترك المريض بمفرده أمرًا مهلكا أو مميتا[١٦]. أما الجماعات التى يستطيع أفرادها التغلب على رد فعلهم الرافض لهم ويراعون المرضى من الأقارب؛ فسوف يكسبون ثلاثة أشياء على المدى الطويل: عدم فقد أفراد قد يُفيدون الجماعة بلا داع، تقوية المناعة داخل الجماعة، وزيادة التماسك بين أفرادها نتيجة لقوة الروابط بين من ينجون من المرض ومن قاموا على رعايتهم[١٧]. إن قبول الغير والميل لهم، بل وحبهم، هو الورقة الرابحة فى مواجهة تهديدات القرف.

إن حب الغير قد ينشأ عن الافتتان بسبب الجنس أو علاقات الاعتماد عليهم، أو من التشابه معهم[١٨]. والأسس المشتركة بين الناس قد يتم التعرف عليها من خلال التفكير الواعى على أساس الحوار الذى يكتشف منه كل حزب رؤية الآخر عن المعتقدات المهمة، أما التشابه فقد يتم اكتشافه أيضًا بسرعة أكبر كثيرًا وبتلقائية من خلال التعاطف أو التقمص العاطفى. إنه القدرة الإنسانية الرائعة على المشاركة فى التجربة.

ويأتى التقمص العاطفى او المشاركة الوجدانية بعدة أشكال وصفات[19].
أولها يحدث عن طريق "الخلايا العصبية العاكسة أو المحاكية" (وهى خلايا بالمخ لا تثار أو تنشط، مثلاً، عندما تحرك يدك، ولكن عندما تشاهد أنت أحدًا يحرك يده)، وهذا كنوع من "المشاركة الحركية". وقد كشف البحث العلمى عن أن المخ فيما يبدو يستخدم كثيرًا من الموارد نفسها فى مناطق متشابهة من القشرة الجدارية وقشرة الفص الجبهى، حينما نقوم بحركة حالما نفكر فيها فى اللحظة نفسها مثلاً. وكذلك تجربتنا عندما نرى شخصًا آخر يؤدى الحركة نفسها؛ فإن إحساسنا يشبه كثيرًا ما نحسه نحن لو أدينا هذه الحركة[20]. وهذه الظاهرة تنطبق على حركة العضلات. والأفراد الذين لديهم استعداد كبير للمشاركة الوجدانية، هم الذين ينفعلون أو ينتفضون فى ضيق أثناء مشاهدة فيلم سينمائى ويصيبهم ألم فى العضلات وصداع، وينشط لديهم عديد من الأنماط العصبية التى تحدث أثناء حركتهم الفعلية، فتكون حركتهم التخيلية (مما يشاهدونه) لها التفاصيل المعينة نفسها وكأنها حقيقية ويؤدونها بالفعل، لكن المشاركة الوجدانية بالحركة يمكن أن تحدث أيضًا على المستوى المجرد من الأحداث - أى أنها تحدث حتى فى الحركات غير المتشابهة نهائيًا مادام الفعل هو نفسه، وذلك فى حالة رسوم الكارتون (المجردة)، فعندما ينكمش ولد من الرعب، أو كلب، أو شبح أو حتى سمكة، فسوف نفعل مثلها على الرغم من أن أجسامنا نحن "تنكمش" بحركة وطريقة مختلفة تمامًا.

ويقترن التقمص العاطفى الحركى، كما يتضح فى المثال السابق، بالتقمص الإدراكى والمعرفى، أو بالنظرية الذهنية"، وبالتقمص العاطفى كذلك. وتتيح لنا النظرية الذهنية تخمين واستنتاج معتقدات وأغراض ونوايا غيرنا من الناس من سلوكهم، فالتقمص الوجدانى للعواطف والأحاسيس الجسمانية التى يعتمدون عليها

قد تسمح لنا بأن نشعر على الأقل بشيء مما يشعرون، ويبدو أن التعاطف والمشاركة الوجدانية فى الألم، مثلاً، تنشط المناطق نفسها فى المخ التى لها دخل معين فى تجربة الألم الخاصة بشخص ما وبعواطفه السلبية(٢١). وتعتمد الأنواع الثلاثة للتعاطف على الحقائق الإحصائية الأساسية التى تمثل الأولوية فى عمل المخ، هذا الترابط فى العلاقات المتبادلة هو الذى يضمن أن الأحداث المماثلة، عموما، تعطى استنباطا أو أنماطا عصبية متشابهة. وعندما تقلد، فعلاً، شخصا آخر (إيماءاته وتعبيرات وجهه مثلاً) فإنك تجعل أنماط فكرك مثله تماما، وعندما تستخدم ذكرياتك الخاصة عن مواقف مماثلة لتبنى توقعاتك عما سوف تفعله فى هذا الموقف. فإنك بذلك قد تثير الاستنباطات الذهنية التى تدعم أحاسيسك التى كنت ستشعر بها فى تلك المناسبة، وقد تثير أيضا ذكريات تصرّفك فى الماضى حتى تكَون "نموذجا" يمثّل رد الفعل العاطفى بصورة أكثر واقعية.

وكل الأنواع الثلاثة من المشاركة الوجدانية مهمة للتفاعل الاجتماعي خصوصا فى معرفة إشارة "التوقف" عن فعل شيء ما. والتعاطف الإدراكى والحركى يسمح بهذه الإشارات من قبل الضحايا ليستدل عليها المعتدون (ومرتكبو الجرم) أصحاب السلوك العدوانى، فتقارن مع القواعد الاجتماعية المستثيرة للسلوك (وهذا هو كيف تفسر إشارة الاستسلام من الناس المُعتدى عليهم)؛ حتى تُخمن نوايا الضحية ونستدل عليها. ويعطينا التقمص العاطفى الدافع على هيئة شعور غير سار مبعثه ألم الضحية وفزعها، حتى يتوقف عن العدوان، كما لو كان المعتدى يعانى الألم والفزع نفسيهما(٢٢).

ويكون التعاطف بذلك هو آخر خط للدفاع بالنسبة إلى الضحية ضد قسوة الفاعل، وعندما تفشل التقاليد والأعراف الاجتماعية والقانونية؛ يمكن للمجرمين أن يُقلعوا عن الإيذاء بالإدراك المفاجئ للمشاركة فى الإنسانية(٢٣). وحتى المُحنكين

من ذوى الخبرة سوف يتأثرون ويتعاطفون، وهناك مثال مشهور من الحرب العالمية الثانية حدث فى قرية بايلايا سيركوف "Byelaya Tserkov" الأوكرانية فى عام ١٩١٤؛ عندما علم الجيش الألمانى أن نحو تسعين طفلاً يهوديًا ممن أُعدم والداهم وضعتهم ميليشيات الجيش الأوكرانى تحت الحراسة فى منزل دون طعام. وكما حكى قائد الجيش "الكاثوليكى" الذى فحص المكان:

> **كان الأطفال ينامون أو يجلسون على الأرض المغطاة بالقاذورات. وكان الذباب يقف على أرجلهم وأجسادهم، وبعضهم لا يرتدون ملابس كاملة. وكان بعض الأطفال الأكبر سنًا (عامان أو ثلاثة أو أربعة) "ينبشون" الملاط من على الحائط ويأكلونه. وبدأ اثنان من الرجال تنظيف الغرفة، بينما كان الأطفال الصغار (وعمرهم شهور قليلة) يبكون ويئنون باستمرار. ولقد فزع وصُدم الضباط الذين زاروا المكان، مثلنا، من رؤية هذه الأحوال غير المعقولة التى لا تُصدق وعبروا عن غضبهم واستيائهم منها[٢٤].**

ولم تكن نهاية هذه القصة الفاجعة نهاية سعيدة؛ فقد أُطلقت النيران على هؤلاء الأطفال بعد يومين. وشهد الإعدام الضابط الألمانى أوجست هوفنر "August Hafner"، وقال فيما بعد: "كان النحيب لا يُوصف. إننى لن أنسى أبدًا هذا المنظر طوال حياتى.. إنه شىء يفوق الاحتمال.. وأتذكر على وجه الخصوص

طفلة شقراء صغيرة أمسكت بيدى، وأطلقت النار عليها أيضا فيما بعد.... وقد ضرب الأطفال كثيرًا قبل أن يموتوا"(٢٥).

ويميل الناس غالبا إلى أن يعتبروا القسوة السادية أسوأ أخلاقيا، وأكثر شرًا، من غلظة القلب، لأن الساديين يقصدون تمامًا التسبب فى المعاناة، وهذا هو السبب فى أن التعليق الشهير من حنا آرند "Hannah Arendt": "الشر شيء تافه ومبتذل" كان مثارًا لكثير من الجدال(٢٦). وباعتبار ما يصيب الضحايا من الشر، فإن قساوة القلب تعتبر قسوة بالغة. وفى القرية التى ذكرناها أعلاه كان هدف النازى هو القضاء على اليهود، حتى الأطفال منهم. وعلى العكس من ذلك، فقد كتب أحد القساوسة فى تقريره يقول: "لقد عبّر الجنود، فى فرقة كانت بالقرب من المنزل الذى به الأطفال، عن استيائهم الشديد من أحوال هؤلاء الأطفال، وقد قال أحد الجنود إنه لديه أطفال مثلهم". وتختلف المشاركة الوجدانية من شخص لآخر، فهناك على الأقل بعض الجنود الذين شعروا بأن هؤلاء الأطفال بشر، وليسوا، كما قال ضابط آخر لا يُبْدى تعاطفًا معهم: "إنهم نسل يهودى لا بد من القضاء عليهم". وعلى الرغم من المناداة بأن "القساوسة " فى الجيش يجب أن يلتزموا بالمسائل "الروحية" والدينية فقط، ومصلحة الجنود فى هذا المضمار، فإن الكاثوليك والبروتستانت منهم زوّدوا الأطفال بالخبز والماء(٢٧).

وقد يُقال: إن هذه الواقعة ليست سادية، لكنها إطاعة لأهداف مؤسسة بالغة القسوة، وهذا تعريف غير دقيق يعتبرها ممارسة وليس مبدأ، ولنترك مساحة لشيء من الشفقة... فقد كان هناك بعض الجنود عن الأقل ممن تقمصوا وجدانيًا آلام الضحايا واهتموا بهم، ولم يسعدوا بمأساتهم وبؤسهم. وقد سعى الضباط الألمان إلى تخفيف أثر معاناة الأطفال على العاملين بالجيش (وعلى سبيل المثال، فقد وضعوا

فرق الجيش بعيدًا عن المنزل الذى كان به الأطفال، وأصروا على أن يقوم بالإعدام الجنود الأوكرانيون وليس الألمان)، وحاولوا أيضا التخفيف من وقع تبريراتهم الأيديولوجية للقتل، فقيل فى أحد التقارير التى قدمها ملازم بالجيش إلى رئيسه المارشال ريتشنو "Reichenau" : "كان من المحتم إبادة الأطفال فورًا حتى نضع حدا لهذه المعاناة غير الإنسانية"، وبهذا فإنه يفسر الجرائم من قلب "جامد" وبلا إحساس على أنها قتل بدافع الرحمة والشفقة[٢٨]، إلا أن هذا التعاطف وعدم الارتياح لذلك لم يُوقف المذبحة. ويبدو أن القسوة الناشئة عن غلظة الفؤاد تبدو أقل فظاعة ومقتا من السادية، لكن هؤلاء الأطفال عانوا من الاثنين "القسوة والسادية".

لماذا ومتى يتشجع القساة على مزيد من القسوة ؟

إن أحد مقتضيات الطريقة التى يعمل بها المخ، كما ذُكر فى الفصل الرابع، هو أن تنشيط أحد المسارات العصبية يُنَشط المسارات الأخرى المرتبطة به أو المتداخلة معه فى الوقت التالى لهذا التنشيط.. والحديث عن الفعل القاسى يُستهل على المرء أن يكون قاسيًا؛ إلا إذا كان الحديث يُشير إلى العقوبة التى وقعت عقابا لذلك. وتنفيذ الفكر الذى ينادى بإقصاء الآخر، خصوصا فى الجماعات التى يتنافس أعضاؤها على المناصب ويهاجم بعضهم بعضا، يمكن أن يدفع الناس إلى إقصاء مبالغ فيه للآخر وبسرعة فائقة.

ونضيف إلى ذلك إن العقول تعتاد الآتى: حافز متكرر يثيرها بصفة متتابعة، سلوك ما، أو عاطفة تثير نشاطا فى الخلية العصبية أقل حدة مما سبقه من نشاط. لذلك فكلما امتد الوقت الذى نقضيه فى المراحل الأولى لإقصاء الآخر، خصوصا إذا تضمن المناقشة الواعية وتخيلاً لمراحل مبالغ فيها من الإقصاء، يَسر ذلك

الانتقال إلى قسوة أعنف وجعلها أكثر قيمة وقبولاً.. ومرتكبو أفعال القسوة الذين لم "يرتبوا" لذلك قد يشعرون بعواطف قوية عندما يواجهون بفظاعة الحقيقة. ومثال على ذلك ما قاله السائق الألماني الذى قاد السيارة النقل إلى المعتقل وواجه مشهد قتل ثلاثة وثلاثين ألف يهودى فى بابى يار "Babi yar" فى يومين فقط: " لقد صدمنى المنظر الفظيع الذى لم أحتمل أن أطيل النظر إليه ... فقد ذهلت وتحيرت من منظر الجثث الملطخة بالدماء وهى ترتعش، حتى إننى لم أستطع تسجيل التفاصيل بدقة(٢٩)".

ويملك المتمرسون وذوو الخبرة قدرة أكبر على ضبط وتعديل أفكارهم وأفعالهم كى يقللوا من التأثيرات العاطفية لسلوكهم. وما يُعتد به هو أن تطول فترة التدريب. ويعلم ذلك جيدًا القادة العسكريون. وقد يتعجب بعض هؤلاء القادة من انعدام الإحساس لديهم، مثلما كتب أحد ضباط القيادة الألمان فيلكس لاندو "Felix Landau" فى مذكراته بعدما أطلق النار على اليهود فى صباح أحد الأيام: "إنه شىء غريب! إننى لم أنفعل إطلاقًا ولم تتحرك مشاعرى. لا شفقة ولا شىء. هذا هو ما تم وما صار. ولقد انتهى الأمر". ولم يكن هذا الرجل غير قادر أو غير مؤهل للتأثر العاطفى أو المشاركة الوجدانية (فلقد كان قبل الحادث قلقًا على صديقته) وكان يعلم أن ما فعله يتعارض مع قيمه ومثله العليا. (" أليس عجيبًا أن تحب وتكون لك صديقة ثم تمارس القتال وتطلق النار على قوم عُـزّل!). إن هذا الضابط حتى طبّق "نظرية العقل" على ضحاياه وكتب: "ماذا يا ترى كان يدور بعقولهم فى هذه الدقائق"؟ (عند إطلاق النار عليهم). أظن أن كل واحد منهم كان لديه أمل ضئيل أنه، بطريقة ما، لن تُطلق عليه النار"؛ ثم إنه تذكر مشاعره الشخصية عندما واجه الموت منذ سنوات: "إننى مازلت صغيرًا لكن سينتهى كل

شيء... إن هذه كانت أفكارى، وعندئذ نحّيت هذه المشاعر بدلتيا بنوع من التحدى.. إن موتى لن يكون هباء ولن يضيع سدى.. وها أنا موجود الآن.. لقد نجوت وأنا الآن واقف أمام قوم آخرين لأطلق النار عليهم"(٣٠).

ولا يحتاج مرتكبو أفعال القسوة من أصحاب القلوب المتحجرة إلى أن ينكروا تأثيرها فى الضحايا، فلقد رأى هذا الضابط أن ضحاياه لديهم أفكار ومشاعر ولقد تنبأ بسلوكهم كما هى الحال مع أى إنسان آخر (وتحير لأنهم لم تكن ردود أفعالهم كما توقع). وعلى الرغم من أنه تعَرف على عواطفهم، فإنه لم يتطرق إلى ذهنه أن يشاركهم هذه العواطف. فاليهود ليسوا أهدافًا مناسبة للتعاطف والمشاركة الوجدانية؛ فذلك يقتضى الاعتراف بأنهم بشر مثلنا. لقد وافق على أن التبريرات النازية قانونية، وهى كما تصفهم تصريحات أحد القادة من الضباط بأنهم "تحت حراسة أقوى فرق الجيش لأنهم أسوأ أنواع الأعداء للدولة". إن هذا شيء أساسى، فهذه أخلاقيات التعصب العرقى فى أشد أحوالها صرامة، لأن ما يعنى جماعته هو ألا تُمس أو تتغير قيمهم وأن تنفذ هذه القيم والأفكار. لقد كتب هذا الضابط بلا تهكم يقول: "لقد عبّرنا عن توفيرنا، قبل ذلك، لمن قُتل من رجال الطيران الألمان والأوكرانيين. لقد قُتل ثمانمئة منهم هنا فى لمبرج "Lemberg". أما هؤلاء الحثالة فلم يؤثروا فينا، حتى الأطفال(٣١). إن حثالة القوم فى نظره والذين يمثلون خطرًا كبيرًا هم اليهود البلشفيون، وهم العدو "الآخر" الذى يجب إقصاؤه، ويجب عقابه جزاء أفعاله الفظيعة. ولا يفصح كل المعتدين بهذه الدرجة عما بداخلهم من أيديولوجيات تتحكم فيهم، إنهم يتقبلون هذه المعتقدات باعتبارها جزءًا لا يتجزأ من ذواتهم، وهم ممن يُحتمل أن يُصرّوا فيما بعد على أن سلوكهم كان له ما يبرره(٣٢).

لماذا يتصرف الناس بقسوة وهم يعلمون أن القسوة شيء خاطئ أخلاقيًا؟

إن الموضوع الرئيسى لهذا الكتاب. كما فى الكتابات الحديثة عن نفسية وسيكولوجية مرتكبى الجرائم، هو أن أسوأ الفظائع لا يرتكبها أفراد أشرار كالشياطين نذروا أنفسهم إلى تمجيد كل الشرور.. هذا بعيد عن الحقيقة.. إن نفس الشخص مرتكب الجرائم، قد يُدَلل أطفاله ويعانقهم فى الفترات الفاصلة بين جرائمه التى يقتل فيها آخرين؛ إنه قد يفهم ويحاول التعايش مع قوانينه الأخلاقية التى نشأ عليها؛ وقد يستمر فى اعتبار نفسه مشايعًا ونصيرًا لعقيدة إذا كان متدينًا، وربما قد يُصْدر أحكامنا الأخلاقية نفسها عندما يواجه أنواعًا من القسوة. والمشكلة بالنسبة إلى ضحاياه هى أن أخلاقياته يبدو أنها لا تنطبق عليهم.

فما الأسباب فى هذا الصدد التى لا تتيح للمصادرة الأخلاقية أن تفرض سلطتها على سلوك شخص ما؟ بل إنها قد ترخى قبضتها أحيانًا! تخيل أحد الجنود وقد صدر له الأمر بأن يقتل سجينًا فيطيع على الرغم من أنه يعرف أن هذا غير قانونى أو أخلاقى. إن المشكلة هنا، فيما يختص بعمل الخلايا العصبية، هى عدم التنشيط الكافى للخلية؛ فالأنماط العصبية التى تكمن فى إدراكه الأخلاقى ليست لديها "الأصوات" الكافية فى " اللجان العصبية" التى تتخذ القرار لهذا الفعل. وقد يحدث ذلك لسببين. الأول: إن الأنماط العصبية قد تنشط، ولكن ليس بالقوة التى تكبت بها طوافا أو دورانًا عصبيا راسخًا ومستقرًا بالتدريب العسكرى، فالأنماط العصبية قد تضعف بفكرة إقصاء الآخر، أو أنها لم تكن قوية بالمرة (لأن الشخص مثلاً لم يتعلم قط تقبل هذه القوانين الأخلاقية). إن هذه الأنماط قد تنشط ببطئ كى تمنع الفعل من الحدوث، خصوصًا إذا كان سهلاً وسبق التدريب عليه جيدًا (مثل شد الزناد فى مقابل الطعن بسكين أو الضرب حتى الموت). وفى المواقف شديدة

الإثارة وفى أحوال التوتر، مثل مجابهة أمر غير قانونى، من الممكن أن يُجبر الإنسان على الاعتماد على أنماط استقرت منذ فترة طويلة دون أن تسمح لهم بالوقت ليفكروا فى العوامل الأخلاقية؛ إلا إذا كانت الأنماط الكامنة فى هذه العوامل قد نشطت بالفعل، وهذه، عادة، ليست الحالة التى تُقرها فكرة إقصاء الغير.

وإذا كان عزل الآخر مؤثرًا وفعالاً، فإن الجندى سيوافق على أن القواعد الأخلاقية العادية لا تنطبق على هذا الموقف، فالسجين لا يُنظر إليه على أنه إنسان بالقدر الكافى (أى أنه لا يشبه الجندى بدرجة كافية)؛ حتى يستحق الضمان الاجتماعى الذى تُحَصنه به القوانين الأخلاقية. وفى هذه الحالة الثانية تكون الأنماط الكامنة فى الوعى الأخلاقى غير مؤهلة إطلاقًا لأن تنشط، فإنها لا تزال متاحة لديه. وفى أحيان أخرى قد يبرهن الجندى أنه يملك مستوى رفيعًا من السلوك الأخلاقى، ولكن فى هذا الموقف بالذات تكون بلا لزوم أو جدوى.

وكيف يحقق إقصاء الآخر هذا التضييق الواضح للآفاق الأخلاقية؟ على افتراض ليس فقط التعاطف ولكن أحيانًا معرفة الناس الشاملة والمعرفة الشخصية بضحاياهم؟ إن الجرائم الفظيعة التى تستهدف الغرباء تحدث بالتأكيد (ومذبحة "ماى لى" "وهيروشيما" مثال على ذلك)، لكن هناك من هذه الجرائم ما يستهدف "الولد" أو " البنت" أو العائلة أو الجيران (كما حدث فى "رواندا " وسيدوان وأماكن أخرى)(٣٣). ولعله من السخرية المريعة أن فكرة عزل الآخر تجعل المجرم يرسم الضحايا أنفسهم على أنهم المجرمون الأشرار؛ فهم وحوش فاسدة لا يفهمون الأخلاقيات المألوفة ولا يؤثر فيهم العقل والمنطق. ولن يفشل ضحايا الجرائم الوحشية فى جذب الأنظار إلى الجرائم الفظيعة ضدهم قبل أن يُهاجموا. والمثال واضح بدءًا من الطعن فى التشهير بجرم اليهود إلى ادعاء كذب فلاحى الصرب عندما ذكروا الاعتداء الشائن عليهم من الألبان فى كوسوفا (٣٤).



Der Stürmer

Jüdischer Mordplan

Die Juden sind unser Unglück!

شكل رقم (١٠): عنوان شهير فى صفحة الجريدة الألمانيــة ديــر شترمر "**Der Sturmer**" - (عام ١٩٣٤) التى يرأسها النازى والكاتــب المعادى للسامية جوليوس ستايكر "**Julius steicker**"، والتى تــدعى أن القتل الطقسى كامن فى الدم اليهودى. وهذه رسالة واضحة : "اليهود هــم مأساتنا"، ما يغرس فى النفوس حديثًا عن مؤامرة- عن خطة اليهود لقتــل غير اليهود- وهى دعوى تشيع الخوف والكره والقلق. ويدعم هذه الصورة خطاب "عزل الآخر"، فالصورة التى تثير الاشمئزاز والتقزز هــى رســم كاريكاتورى قبيح يُظْهر اليهود كوحوش، لأن صورة الدماء التى تقطر من وعاء يحمله يهودى تستدعى للذهن فكرة منفرة هــى "شــرب الــدماء"- وتتضمن الصورة أيضًا رسومًا مسيحية (الصليب) باعتباره موضع اعتداء.

إن هذه الدعاية تشن أو تؤجج حربًا عاطفية على عدة جبهات.

ومهما كانت أساطير الجرائم الوحشية مثيرة للسخرية لغرابتها، فإنها يتم تصديقها على نطاق واسع الآن؛ وفى بعض الأحيان لأجيال متعاقبة وبعد أن يتنبه من يصدقونها بوقت طويل. فلا يزال هناك "ناس" يعتقدون فى وجود بروتوكولات "حكماء صهيون"، وهناك من يُنكرون حدوث "الهولوكوست". ويمكننا أن نصف هؤلاء بأنهم حمقى ومن السهل إقناعهم، لكن هذا ليس غباءً فقط (حتى إن كان سائدًا فى بعض الأحيان) لكن هذا نوع من "تشكيل الواقع" : أى الدفاع المتعمد عن المعتقدات القوية بشىء ضد الواقع والحقيقة المرفوضة وغير المرغوب فيها. وقد تضحك من ضلال هؤلاء الناس (ولن تكون فكرة سيئة لو فعلنا)، إلا أن ذلك لا يجب ألا يُعْمينا عن خطورة "تشكيل الواقع". وكما علق دافيد فرانكفورتر "David Frankfurter" فى كتابه الشر مُجَسدًا قائلاً: "فى كل من القضايا التاريخية التى تعاملت معها، كانت هناك أسطورة المؤامرة الشريرة التى تُحَرك الناس بأعداد كبيرة لارتكاب أعمال من الوحشية المذهلة ضد المتهمين من المتآمرين. ويعنى هذا أن الجرائم الفظيعة على مر التاريخ يبدو أنها لا تُرتكب فى إطار طقوس وشعائر فاسدة وضالة وناشئة عن عقيدة شريرة ولكن، أكثر من ذلك، فهى ترتكب على سبيل "تطهير" وتصفية بعض العقائد من العالم الواقعى[٣٤].

كيف تؤثر "الأيديولوجيات" والقواعد الأخلاقية على انتشار القسوة؟

نحن نريد أن نُمَجد الحروب، فهى قاعدة سلامة وصحة العالم، والعسكرية والوطنية، وهى الفعل المدمر لمن يثور على السلطة من الفوضويين، هى الأفكار الرائعة التى من أجلها يموت الإنسان.

(من كتاب فيليبو مارينيتى "Flippo Marinetti"، بيان عن المستقبليات)

تتضمن القسوة الإيذاء غير المبرر. والمجرمون، مع ذلك، يزودون أنفسهم بالتبريرات.. إنهم يهدفون إلى إقصاء الأنماط ويدعون المعتقدات الزائفة عن قوة الضحية وعدوانيتها، والعواطف القوية التى تُبرر الدفاع العدوانى عن النفس. وسواء كانت هذه العواطف تؤججها المقاصد "الديماجوجية" من الدهماء الذين يقصدون الإثارة ويهدفون إلى إحراز السلطة، أو كانت استجابات وردود فعل لضغوط لا يمكن التحكم فيها- مثل الصعوبات الاقتصادية، أو العجز السياسى، أو الخسارة والضرر من الغير- فإنها تؤجج وتزيد من الصراع الداخلى وتدعم الحاجة إلى التحكم؛ فتجعل الإنسان يبحث عن أساليب تُخَفف من هذا الألم الذى لا يمكن إغفاله أو تجاهله. ومعنى ذلك أن تراكم التفاعل من التجارب السابقة مع النزوع والميل الجينى، سوف يُشكل البحث عن اختيارات متعددة وأيضًا الاختيار من بينها، لكن الشخص الذى يبحث عن اختيارات، خصوصا من يعانى توترًا شديدًا، سوف يُفَضل الحلول البسيطة والسهلة والرخيصة والمتاحة. والقادة السياسيون الملتزمون الذين يسعون للكسب الأكبر من إقصاء الغير تقع عليهم مسئولية كبيرة هنا ويتحملون الوزر، لأن الحلول التى تأتى من مصدر قوى وموثوق به غالبًا ما تكون فاعلة ويسهل قبولها (ذلك لأن الافتراض السائد هو أن من يخطئ لا يصلح

للاستحواذ على السلطة والاحتفاظ بها[٣٦]). ولسوء الحظ، فإن الحلول العملية والقانونية الفعالة لمشكلات العالم الواقعي ليست غالباً هي الحلول البسيطة والرخيصة أو قليلة التكلفة.

وتستطيع المعتقدات الخاصة بإقصاء الغير ملء الفراغ بين التزود بالحقيقة وطلب الأمان[٣٧]. وهذه المعتقدات التي توّجه اللوم إلى هدف إنساني معين تقدم مشكلة صعبة لا يمكن التحكم فيها على أنها يمكن السيطرة عليها، وبذلك يعيدون توجيه الانتباه من المجردات الصعبة مثل الاقتصاد، إلى أمور أسهل مثل المجال الشخصي، وهو شيء يُشعِر البشر بأنهم أكثر معرفة وخبرة به.. فهي أمور مألوفة، تتوافق بسهولة مع أنماط ثقافية عن المعتقدات الموجودة سابقاً بالفعل. ويرى هؤلاء الذين يريدون نشر الكراهية بين الجماعة وكبت التعاطف والوعي الأخلاقي الذي قد يمنع العداء من أن يتحول إلى قسوة. فالمعتقدات التي تحبذ نبذ وإقصاء الغير، والتي تُفّرق بين الناس، يمكنها أن تُثير العواطف القوية المرتبطة بالتهديدات الصادرة من قوى خارج الجماعة (الخوف، الغضب، الاشمئزاز ...إلخ). وكذلك العواطف المجزية من داخل الجماعة (مثل الحب، الكبرياء، الفخر، والسعادة ...إلخ)، وهم بإمكانهم أيضاً أن يُوجهوا المشاعر القوية إلى الأفعال المقترحة ممن يحبذون إقصاء الآخر. وتمدهم هذه الأفعال بالحلول للمشكلات التي تنشأ من الجماعات المستهدفة. وهناك مثال اشتهر بسوء السمعة من "رواندا"، إن قائد قبيلة الهوتو ليون موجيسيرا "Leon Mugesera" قال عن قبيلة "التوتسي" : " إنهم ينتمون إلى إثيوبيا وسوف نجد لهم طريقاً مختصراً إلى هناك إذ سنلقي بهم في نهر نيابارونجو "Nyabarongo" الذي يذهب إليها. وأنا مُصّر على ذلك. علينا أن ننجز. امحوهم جميعاً من الوجود"[٣٨]. وفي أثناء هذه الإبادة الجماعية أُلقيت آلاف الجثث بأنهار رواندا إلى بحيرة فيكتوريا.

ويمكن كبت المشاركة الوجدانية بإثارة العواطف غير المتناغمة، أو بطــرح معتقدات تتحدى الربط بين التعاطف والضحية. وهذه المعتقدات مثل: الرحمة نــوع من الضعف، يجب أن تكون قلوبنا قوية، وهذا قد يخالف المفهوم السائد الذى يُمجّد السلوك الرحيم. وقد يركز معتقد آخر على الطبيعة السيئة للضحية وشروره السابقة (سواء كانت حقيقية أم مخترعة وملفقة)، ما يجعل أى شاهد أو دليل حــزن علــى الضحية يُفسّر على أنه شيء زائف وخداع؛ فالــضحية تــستحق ذلــك- او كــلا المعتقدين. إن الربط بين الضحايا والعواطف السلبية (خاصة إنهم مقززون) وبــين السمات والأعمال المحتقرة فى ثقافة المجرم تجعل الضحايا يبدون مختلفين وأقــل تشابها مع مرتكب الجرم، مما يقلل من المشاركة الوجدانية. وتجاهــل أو إغفــال محاولات الضحية للتواصل مع مرتكب الجرم (بالطرد اجتماعيا مثلاً ومعاقبة أفراد الجماعة المتواضعين) يقلل إقصاء الآخر من حالة القلق الزائد إلى علامــات مــن المعاناة الإنسانية، وهذا أيضا يجعل الضحايا يبدون أقل تشابهًا مع المجــرم. ولــو جعلنا الضحايا متشابهين، ومن ثم قادرين على الفعل المترابط، فإن ذلك يــضاعف من قوتهم الظاهرة ويُضيف إلى طلباتهم التى تجعل الناس يخشونهم.

إن الأيديولوجيات والقواعد الأخلاقية قد تجعل القسوة شيئا معتادًا وشائعا فى المجتمع حتى تصير سلوكًا مقبولاً. ولو أن القــادة قنّنــوا مــشروعية الاضــطهاد بإعطاء القدوة بما يسمى "سجايا المقاتل وفضائله" مثل عــدم الرحمــة والوحــشية (وهى صفات لا يجد كثير من المحاربين أنها مناط إعجاب خاص)، بينما يُنزلــون العقاب بمن يُعبّر عن التعاطف والرحمة، فإنهم سوف يشكلون مجتمعا يُقرّ "الشرف" باعتباره نوعا نوع من العضلات الفائقة التى تجعل قواعد السلوك تُفــرض بــالقوة والصرامة. ومثل هذه المجتمعات ربما تشعر بتهديد نمطى من قوى خارجية يلاحظ أنها تسعى إلى الآتى: أن تنكر حقوقهم عليهم (وهى حالة من التهديد تثير الغــضب

فى المقام الأول) أو إلى أن تغير ثوابتهم الأخلاقية، (ويعتبر هذا تهديدًا للهوية يثير القرف والتقزز) أو إلى أن تدمرهم تماما (وهذا تهديد للوجود، يثير الخوف) وكى تدافع تلك المجتمعات عن نفسها ضد هذه التهديدات الثلاثة لا بد أن تكون الأسبقية لديها للوحدة، ومن ثم العقاب الصارم والشديد لمن ينحرف عن وحدة الجماعة.

وكجزء من عملية الإبعاد والإقصاء، هو أن تقلل الجماعة من قيمة المعتقدات التى تتشارك فيها مع الأعداء. وقد تؤكد أيضا الادعاءات التى تتناقض الأفكار والمثل العليا الأساسية لمن يعارضونهم. والقول هنا هو إن هذه الأفكار لم تكن مهمة بالنسبة إلى منظومة معتقدات الجماعة فيما سبق، لكنها قد تحاط بسياج من القداسة لو قررت الجماعة أن تتبنى القول بأن التحديات الموجهة إليها ليست خطأ فقط بل إنها غير مقبولة أخلاقيًا[٣٩]. وعلامة هذه الفترات الانتقالية، من بداية تغيير المعتقدات إلى أن تصبح مبادئ لا تشكيك فيها، هو البحث عن كلمات لقادة الجماعة فى الماضى والحاضر واتخاذها دليلاً يدعم هذه التفسيرات الجديدة. ومما يُعلى من إقصاء الآخر المتبادل إضفاء القداسة على المعتقدات المتبناة، وإقناع أفراد الجماعة أن "الآخر" هو بالفعل من "الغرباء" عنهم والمغاير لهم. والأمثلة على هذا "التأسيس للاختلاف" المتعمد تشمل الإرساء الحديث لـ "الإسلامية" التى تتخذ التفسيرات الانتقائية المتشددة للنصوص الدينية الإسلامية وتسلط هاجس وفكرة الشذوذ على عقائد المسيحيين من الإنجيليين أو البروتستانت[٤٠]، وهؤلاء لا يؤكدون، بنوع من تسلط الهاجس أو الفكرة، على الأدوار التقليدية للعائلة أو النوع (رجال أو نساء)، لأن "العهد الجديد" (الإنجيل) ملىء بالتحذير الشديد من الطلاق والشذوذ الجنسى ومن توظيف المرأة وخروجها للعمل، وهذا غير صحيح ولم يذكر بالإنجيل. ويبدو أن المسيحية توجه اهتمامها الأكبر الآن إلى قسوة الإنسان، ومؤسس المسيحية هو الرجل "الذى طلب من أتباعه أن يحب كل منهم الآخر وأن

يعتنوا بالمنبوذين فى المجتمع ويعاملوا الناس بما يحبون أن يُعاملوا به. وأينما يكون رأيك عن المسيحية، فهذه تعاليم رائعة أخلاقيا، ولا تزال مُعتنقة كمثل عليا فى الغرب العلمانى".

والنقطة الأساسية هنا: إن هذه الأقوال المأثورة لا تواجه التحديات التى تجابهها المعتقدات الإنجيلية والبروتستانتية الأقل ذيوعا (عن شرور الطلاق، واللواط، والنساء من ذوى المراكز الكبيرة)، وهذا فى عالم به بعض المطلقات والمثليين والنساء اللاتى يطالبن بحقهن فى الحياة التى يختارونها، بينما يُطلقون (جميعا) على أنفسهم صفة "مسيحيين". وكلمة "حق" هى المفتاح هنا. فالنشطاء من المثليين الذين يطالبون بالمساواة بين النساء والرجال والذين يرفضون المذهب "الأبوى" التقليدى لا يعتبرون اختياراتهم خطأ أخلاقيا.. إنهم يقولون: "إن قناعتى واعتقادى جزء من هويتى وكينونتى، إنك لا تستطيع ان تغيرها دون أن تُبدلنى، فلا أكون أنا ما أنا عليه". وبذلك فإنهم يجعلون مبادئهم شيئا شخصيا، لقد جعلوا الأسماء والوجوه فى مواجهة تهديد رمزى يتجاوز هذه المعتقدات إلى ما هو أعلى فى مواجهة الخطر. فما النتيجة؟ فالراصدون يرون الإنجيليين والبروتستانت أمام عدسات وسائل الإعلام غير المتعاطفة معهم كمن يعتنقون أفكارا عفا عليها الزمن تأمر بإقصاء الآخر بدلاً من إشاعة وإعلاء مبادئ عقيدتهم الأكثر قبولاً أخلاقيا.

ما الدوافع التى تجعل الناس قساة؟

يتمثل ينبوع السلوك الإنسانى فى الفجوة أو المساحة بين حالة العالم. وما يجب أن يكون عليه هذا العالم. ويتضمن "تشكيل العالم" المحاولات المتعمدة للإقلال من هذا الفارق أو الاختلاف. وذلك بتحويل العالم الواقعى إلى العالم المثالى

الأقرب، وقد تكون النتيجة رائعة أو مفزعة: "كاتدرائية" أو "إبادة جماعية"؛ لكن "تشكيل العالم" الناجح يتضمن دائمًا علاقة أو ارتباطًا بقوة ما؛ فبدلا من أن تتغير أنماط النشاط العصبى كى توّطن مظهرًا من الواقع الحقيقى الذى أثار هذه الأنماط، تصبح الحقيقة نفسها أقل قيمة وتابعة وتسعى كى تُعدّل نفسها حتى تتماشى مع أنماط النشاط العصبى.

إن ممارسة السلطة تعود دائمًا بالفائدة، فهى تُرْضى الحاجة إلى التحكم والحفاظ على الكينونة- إنها تمثل أسباب "النشوء والارتقاء" لأى فعل إنسانى. وتفسير هذا الاحتياج الشديد على المستوى النفسى سوف يعتمد على معتقدات الشخص وظروفه، فالخوف عند فرد ما قد يكون بهجة وسرورًا عند شخص آخر(٤١). إن الفرد عندما يشعر بالتهديد ويضرب ويندفع بجنون قد ينشغل كثيرًا بالدفاع عن نفسه، لدرجة أنه لن يجد الوقت لإيضاح عواطفه المصاحبة. وإذا لزم التفسير فيما بعد، فإنه قد يستعيد ذكرياته ويُسَمى أو يصف ما شعر به نوعًا من الخوف أو الغضب أو الذعر أو غيرها. ويعتمد الوصف الذى اختاره على السمات النفسية لهذه التجربة – أى إذا ما كان يشعر بالإعياء، أو برعشة فى يديه، أو ازدياد فى ضربات القلب، لكن اختياره يعتمد أيضًا على الظروف والأسباب التى دعته للإيضاح والوصف، إنه يعرف من تجربته وخبرته أن الخوف تبرير مقبول فى بعض المواقف، والغضب فى بعض آخر، وهو بالفعل قد يصف عاطفة ما "رعبا" أو "اهتياجا" مراعيًا فى ذلك من يستمعون إليه.

الفرصة المتاحة:

> **إن احترامنا لذواتنا كرجال يتميزون بالجسارة والحزم يُلْزمنا بأن نقمع ونبيد، بأسرع ما يكون وبالمنطق أو بالقوة، هذه الزمرة من المتوحشين الذين يدمرون ثرواتنا ويمنعوننا نهائيا من أن نملك الأرض بالقانون وأن نتقدم ونحقق أمننا، إنها أكثر الأراضى ثراء وخصوبة فى الجمهورية.**

(من كلمة لوزير الحرب الأرجنتينى "جوليو روكا" **Julio Roca** (١٨٤٣-١٩١٤)، فى إشارة إلى الهنود من السكان الأصليين للأرجنتين)

وقد اقترح دانييل شيرو "Daniel Chirot" وكلارك ماكولى "Clark McCauley" فى كتاب صدر حديثًا عن "سيكولوجية القتل الجماعى" أن مرتكبى الجرائم الفظيعة على نطاق واسع لديهم أربعة دوافع: الفائدة، الثأر، الخوف، وخشية التلوث، وقد توجد كلها بدرجات متفاوتة فى أى جريمة[٤٢]. وتشمل الفائدة الحسابات النفعية للقسوة الصادرة من قساوة القلب التى تُقَدِّر المكسب والخسارة من الفعل على الفاعل. أما الأثر على الضحية فإما أن يُغْفل وإما يُهَوِّن من شأنه وإما يُبَرَّر باستخدام حكايات عن فظاعتهم إذا ظهرت معاناة الضحية. وتتسم الفائدة بالتركيز على التفاصيل التقنية وحل المشكلات (أى باستخدام المنطق النفعى)، وبدعمها الاختيار الانتقائى للتبريرات الأيديولوجية إذا لزم الأمر.

الخـــوف:

لقد أصبحنا مثل اليتامى على مائدة اللئام

(من كتاب أيمن الظواهرى "فرسان تحت راية الرسول")

إن حساب المكسب والخسارة قد يشمل عوامل عاطفية وأيـضا اعتبـارات المجهود والمخاطرة والإثابة.. والسعى وراء الكسب المالى والحاجة إلى المظهـر الجيد أمام النظراء، أو الرغبة فى إيجاد نهاية للموقف، كلها تعتمـد علـى قـرار الفعل. وقد يُستغنى أحيانًا عن عوامل أخرى بسبب قـوة العواطـف المـصاحبة، خصوصا إذا كان الخوف ضمن هذه العواطف فتكون ردود الفعل أساسية وحـادة؛ لأن مبعثها الخوف.

وعندما تُصوَر جماعة مستهدفة على أنها شديدة الخطـورة، وأنهـا تهديـد حقيقى للحفاظ على الذات، فيمكن للخوف أن يطلق أفعالاً لا يمكن تخيلها(٤٣). وقـد امتلك الذعر كثيرا من "التوتسى" و"الهوتو" فى رواندا؛ بسبب تذكر نزاع العـشائر الذى نشأ فيما مضى قبل الإبادة الجماعية فى عام ١٩٩٤؛ عندما عاشـت القبائـل عقودا من إراقة الدماء بدافع نزاعات عرقية. وقد يدفع الخوف إلى الدفاع العدوانى عن النفس باعتباره رد فعل على تهديدات بوجود أعداء أو خصوم أقويـاء، وفـى مثل هذه الظروف القاسية يشعر معظم الناس أن العدوان بالعنف هو دفـاع مُبَـرر أخلاقيا، وليس ضربا من القسوة. (والخطأ الوحيد فى هذا التبرير فى حالة "رواندا" هو افتراض الهوتو المسلحين أن كل فرد من التوتسى أو الهوتو المعتـدلين الـذين يُقدَرون بثمانمئة ألف، والذين قتلوا، كان يمثل تهديدا مهلكا).

ومع ذلك فقد صُوِّر الخوف كدفاع قصير الأجل ضـد تهديـدات واضـحة ومباشرة، إنها أمور مرهقة نفـسيا وإن اسـتمرت تـصبح مـضنية للغايـة؛ لأن مستلزماتها. من الطاقة النشطة والاستعداد للفعل والضغوط على القلب والعضلات

كليا تتطلب نشاطا ذهنيا حادا كثيفا ومركزا، ويجب أن تكون التهديدات واقعية وواضحة ومستمرة إذا كان الخوف الذى تثيره سيبقى ولا "يتسرب". والشعوب التى تعانى من رعب دائم تخاطر بأن تنهار وتصل إلى الهزيمة. أما إقصاء الآخر الذى يستمر لفترات طويلة، وقد ينتهى بالإبادة الجماعية، فإنه يتطلب دوافع أخرى علاوة على تخطيط وتنظيم كبير.

الغضب:

"إن الغضب والحنق قسوة"

يعتبر الانتقام، أو ما سماه روميو داليـر "Romeo Dallaire"، "الانجذاب المسموم إلى إنزال العقوبة"، نوعا من الاستجابة للغضب(٤٤). ومن وجهة نظر المجرم؛ فإن تبرير ما يعتبره الناس نوعا من القسوة هو السلوك السيئ الذى صدر قبل ذلك من الضحية، وقد استحق العقاب. وعندما يتدخل إقصاء الآخر: فإن الضحية يمكن أن تكون أى عضو من جماعة مُستهدفة، سواء كان حيا أو ميتا. إن عبارات مثل "لقد تجسسوا لصالح الأعداء أثناء الحرب"؛ يمكن بالفعل أن تأتى فى سياق إقصاء الآخر، وقد تأتى عبارة أخرى مثل: "إننا لن ننسى أبدًا جرائمكم أيها الطغاة المستعمرون"، ولن يكون للعبارتين معنى إلا الإقصاء فى هذا السياق.

إن الطغاة والجواسيس المقصودين قد انتهوا من زمن طويل، ومن ولدوا بعد ذلك لا يمكن أن يكونوا مسئولين عن هذه الأمور. غير أن إقصاء الآخر لا يلتفت إلى العامل الفردى ولا يشير إلى الأفراد إلى إنه يضغط أفراد الجماعات من الماضى والحاضر فى كتلة واحدة متجانسة، فهى جموع كثيرة فى كيان واحد تصبح فيه المسئولية مُناطة بالجماعة وليس بفرد واحد. وأى مُكوّن بشرى يصبح قابلا للتغيير أو للتبادل مع أى فرد آخر فى الجماعة، وبذلك يمكن أن يحمّل

مسئولية أى جرائم ارتكبتها أفراد الجماعة كلها، وقد تمتد عضوية الجماعة بأسطورة مناسبة إلى مدى تاريخي لتدعم مفهوما عن تهديد وخطر قديم، وبذلك تشمل كل الجماعة المستهدفة- وقد يكون هذا الفكر مصدره حديث نسبيا - أو تكتنفه أفكار قديمة عن الشر، غالبا ما تكون دينية.(٤٥)

ويُنظر إلى الجماعة المستهدفة باعتبارها قوة شريرة مفردة تُهدد النظام الاجتماعي، ويتحدى سلوكها قوة مرتكبي الجرم لتُحفز الحاجة إلى التحكم وتثير الغضب والكره والرغبة في الانتقام. أما رد فعل المجرم فيعتبر مجرد رد فعل تبرره عدوانية الجماعة المستهدفة. وفي مجتمعات "الشمبانزي" عندما يتحدى أحدها الأكبر فيها من الذكور؛ فإنه يُحجم ويرد بضربة أو تكشيرة أو قتال إذا لزم ذلك، حتى يستسلم المعتدى ويقبل بتفوق غريمه.. وبالمثل فإن الجماعات المسيطرة في السياسة بالمجتمعات البشرية ترى ضرورة إخضاع الجماعات التي تُمثل تهديدا حتى تستسلم. وإن لم تكن إحدى الجماعات خطيرة بالفعل فعندئذ لا بد أن تُكتشف مؤامرة تربطها بعدو خارجي. وقد ادعى الأتراك في الحرب العالمية الأولى أن الأرمن كانوا يعملون مع الروس ضدهم. وفي الحرب الثانية حلم الألمان بحركة يهودية بلشفية دولية حتى تُجسد عدوا لهم. وإن لم يكن هناك تهديد خارجي واضح فهناك "القائد المُبتكر" الذي يستطيع أن "ينبش" عن اتهامات قديمة؛ ويمكن أن يجادل بأنها لم يؤخذ عنها التعويض المناسب فيما مضى أو في وقتها. ومثال على ذلك ما قام به سلوبودان ميلوسيفتش "slobodan Milosevic"؛ عندما قرع وهجا أتباعه بشدة ودفعهم إلى الجنون (في خطاب عام ١٩٨٧) بأن تبجج ولامهم بقسوة بخصوص معركة "كوسوفو" في عام ١٣٨٩.(٤٦)

الاشمئزاز والتقزز:

إن سنة الله فى هذه الحياة الدنيا أن تسعى جماعة من الناس إلى تقويم جماعة أخرى حتى تتطهر الأرض من الفساد.

(سيد قطب: فى كتاب الجهاد فى سبيل الله)

يرى "شيروت" و"ماكولى" أن الدافع الرابع للقتل الجماعى هو الخوف من التلوث. والتهديد هنا ليس تهديدًا للوجود والكيان (كما هو فى الخوف) أو تهديدًا للسلطة الاجتماعية أو الوضع الاجتماعى أو العرف والتقاليد (كما هو فى الغضب)، أو تهديدًا لإمكانية تحقيق الأغراض والأهداف (كما هو فى الفائدة والمنفعة). وتؤثر تهديدات التلوث فى الهُوية.. إنها قد تكون مهلكة، لكنها لا تقتل الشخص بل تُغَيِّره إلى شىء آخر. ويرتبط الخوف والرعب بالتلوث، بالتأكيد، إلا أن العاطفة المتحكمة فى هذه الحالة هى الاشمئزاز والتقزز؛ لأن التهديد هنا بالقرف ومن الصعب ملاحظته مباشرة ولا يُمنع إلا بالاحتياطات السليمة.

وتؤثر الأنواع المتعددة من تهديدات التلوث فى سمات وملامح الهوية. فسلامة البدن مثلاً قد تتأثر بالعدوى وتكون نتائجها مفزعة وتستطيع الغنغرينا أو الجذام أو التهاب الألياف العصبية، أن تحول العضلات الحية إلى حالة مرعبة من الموت الموضعى. أما فيروس "الأبيولا" فيُمزّق الأعضاء الداخلية ويُغرق الضحية فى دمائها[٤٧]. وحتى الكائنات الأقل شراسة والتى يسميها الأطباء "مجرد فيروس"، يمكنها أن تحولنا إلى أشخاص منبوذين يعانون من رشح بالأنف والعطس والشعور بالحاجة إلى التقيؤ. إن قذارة المظهر وتغير لون الجلد ولبس الأقنعة والتخفى كليها

أشياء تُحدث تغيرًا فى الشخصية والهوية بتغيير المظهر المادى للفرد، إنها حجب وإخفاء للذات من حالة مادية إلى حالة رمزية.

والخوف من التلوث الذى أشار إليه "شيروت" و"ماكولى" يهتم كثيرًا بالتهديدات الرمزية للهوية: "عندما يأتى التهديد بالتلوث من جماعة معينة لدرجة أن يُشكل وجودها خطرًا هدامًا. سيكون رد الفعل استجابة ضد هذا التقزز. وهى محاولة لتطهير الذات. إما بأن نتحاشى الجماعة التى تهدد بالتلوث وإما نطردها وإما نقضى على الأفكار الخاصة بهم وعلى عاداتهم أو مَن تلوث منهم(٤٨). إن تهديدات الخوف والغضب واضحة ومباشرة؛ لكن التهديد بالتقزز مختلف، وهو ما يجعله مرتبطًا بهذه الدراسة. فالقسوة تختص بالأذى الذى لا مبرر له: تدمير الناس، غالبًا الأقل منك قوة، والذين لا يستحقون ما تفعله بهم والذين لا يمثلون تهديدًا واضحًا لك. ولا تبدو التهديدات الرمزية واضحة للطرف الثالث الذى لا خطورة على هويته من التهديد، ومصادر هذه التهديدات لا تملك أى قوة تُذكر سوى قوة التعبير عن الأفكار.

لماذا يبدو التقزز من الضحية على مرتكبى الجرم؟

عندما يقصد قائد سياسى أن يثير الكره ضد جماعة من الأقليات، فإن الحالة الاجتماعية المتدنية قد تمثل مشكلة. إذ كيف سيقتنع أتباع هذا القائد بأن أقلية ضئيلة، ويبدو أنها غير مؤذية، هى بالفعل تمثل قوة خطيرة مصممة على تدميرهم (خصوصًا إذا كانت هذه الأقلية قد عاشت بينهم مسالمة على مدى سنوات وكانت سمعتها إيجابية بصفة عامة). إن أى طاغية أو زعيم للدهماء "الديماجوجيين"؛ يسعى عمدًا إلى شائعة إقصاء الآخر، سواء باعتقاد أصيل أو بدافع من الانتهازية السياسية. إنه سوف يبدأ غالبًا باختيار جماعة صورتها العامة رديئة وسلبية، وحتى

إن كان ذلك، فإن من يتولى هذا ويصر على العنف سوف يحققه بعد ذلك؛ لأن العنف فيه مخاطرة، وغير سار، ويتطلب جهدًا وسوف يستعد له.

ولقد كان اليهود من الأقليات التى لا تحظى بالحب فى بريطانيا فى الثلاثينيات من القرن العشرين، فإن ذلك يُعزى إلى فعل الدعاية المسيحية على مدى قرون، فقد كان اليهود موضوعًا للكراهية فى أجهزة الإعلام مثلما كانت الحال فى جريدة الديلى ميل التى كانت تُناصر "الفاشية" فى هذا الوقت. كما كان اليهود يُهاجمون جسمانيا من المشاغبين الذين ذاعت سمعتهم السيئة فى لندن (ليس حصريًا، وربما فى أماكن أخرى) (٤٩). أما اليوم فإن العداء الصريح للسامية مُهّدد بالإدانة السريعة. إلا أن المشاعر المكبوتة المعادية لليهود، مثل عديد من أشكال العنصرية، ما زالت موجودة بين الأكثرية(٥٠). أما الأكثر صخبًا الآن فى العالم الغربى القلق فهو تيسير ونشر أفكار عزل الآخر وهى التى تُوّجه حاليًا للمسلمين ممن يصفونهم بـ "الإسلاميين المتطرفين أو الراديكاليين" الذين يندسون فى مدننا دون الاستدلال عليهم ويخططون للقتل؛ وهدفهم جعل بريطانيا دولة تحكمها "الشريعة". وبدلاً من إحياء اليهود فى العالم (الجيتو) أصبحت لدينا "أمة" استحوذ عليها فكر "الجهاد"، بينما مؤامرة اليهود البلاشفة قد أفسحت الطريق لـ" القاعدة" ومن يساندونها ويؤازرونها فى الشرق الأوسط.

والتطابق واضح تمامًا هنا، فهم يُصوّرون الإسلاميين المتطرفين كقمة عنيفة لجبل الثلج الضخم الرهيب صاحب المشاعر المعادية للغرب، والذى تدفعه الأيديولوجيات البدائية البربرية التى تستغل خلاياها الشباب ليقتلوا أنفسهم والأبرياء من المارة، فيخدعون بذلك البلد الذى يجب الاعتراف بجميله والإدانة له بالعرفان والشكر، وهذه الصورة النمطية للعدو على أنه مستغل وخائن وخبيث وشرير وقوى ومميت ومهلك بشدة تشبه تماما هذه الصورة التقليدية التى ألصقوها دائما باليهود.

إننى بالطبع لا أقول إن أحدا من اليهود أو المسلمين لم يرتكب أبـدا جرمـا فظيعًا، وأى دولة، أو جنس، أو دين يمكنه أن يدعى ذلك على كل أفراده؟ لقد وُجد مجرمون وخونة وإرهابيون يهود مثلما يوجد، بلا شك، من الناس من هو مـستعد لأن يقتل "باسم الإسلام". وتستمد الاستنباطات والأنماط قوتها من ادعائها بأن لهـا صفة شاملة عامة فهى تمثل الجماعة ككل- وهذه هى المشكلة. إن معظم الـشعوب المسلمة، مثل معظم الشعب اليهودى، لا يرتكبون الجرائم، وهـم مثـل أعـضاء الديانات الأخرى الجديرين بالثقة، يفضلون العيش فى نظام اجتماعى راسخ ومسالم متمتع بالسلام الاجتماعى ولا يشكلون أى تهديد.

وإذا تعذر على فرد ما نشْر أوهامه عـن "عـزل الآخـر"، فـإن عاطفـة "الاشمئزاز والتقزز" هى العاطفة المثالية التى يسعى لإثارتها.. لماذا؟ لأن التقزز له سمات أو خصائص ثلاث تجعله ملائمًا لعزل الآخرين، إنه تشويه سـمعة الآخـر وإبعاده عن غيره من الناس، مما ينتزعه من عالمنا الأخلاقـى ويجعـل الجـرائم الفظيعة تبدو ضرورية وقانونية(٥١). أولاً: إن التهديد الذى تعمل على التصدى لـه بسبب التقزز ليس تهديدًا مباشرًا، فإنك لن تموت من مشاهدة جثة متحللة، أو حتـى من ملامستها لكن لو مضغت قطعة منها فقد تصيبك بمرض خطير؛ لذا فإن غياب التهديد الواضح والمباشر يمثل عائقًا واضحا وبسيطًا لكل من يرغـب فـى إثـارة التقزز بين أتباعه، بينما إزعاجهم بمخاطر واهية وفارغة يكشفه ويُعرضه للفضيحة والسخرية وعدم الثقة. وإذا كان شخص ما خائفًا من "الكاثوليك" مثلاً، فإنك تستطيع أن تطمئنه بحكايات عمن عرفتهم من الكاثوليك الطيبين. أما إذا كان يعتقـد أنهـم مقززون فإن حكاياتك قد تُؤخذ دليلا على أنك مرتبط بهم ومنتم إليهم، وبذلك تلصق بنفسك تهمة عدوى التقزز لأنك منهم.

هل شعرت بالاشمئزاز من ذكر إشارات ثلاث لأمثلة عن "الجثة" فى الفقرة السابقة؟ إذا كان الأمر كذلك، فإننى أخمن أن الإشارة الثالثة كانت أكثرها إثارة للاشمئزاز. ويمكننا اعتبار التقزز إشارة تحذير مهمتها أن تمنعك من الاقتراب من الشيء الذى يُثير الاشمئزاز.. إن ذلك مثل بوق السيارة الذى يُطلق صفارة عندما تشرع فى الرجوع للخلف وتقترب من حائط ما فيزداد الصفير ارتفاعًا كلما اقتربت من الحائط أو الخطر، ومثيرات الاشمئزاز كذلك وسيلة ممتازة لمراعاة "المسافات"- بما فى ذلك المسافة بينك وبين جماعات أخرى من الناس - وهذا هو سبب الإشارة إلى شخص ما على أنه مثل "صرصار" أو "فأر" أو إلى جماعات بوصفهم بأنهم قذرون، أو حتى اعتبارهم من ناقلى العدوى، وكل هذه أساليب مؤثرة لإقصاء الآخر.

ثانيًا: والسمة أو الخصيصة الثانية للاشمئزاز التى تجعله مناسبًا كسلاح اجتماعى؛ هو أن تهديدات التقزز هى نفسها غير مرئية، ذلك لأن البشر لا يستطيعون تبين ناقلات الأمراض من الجراثيم، أو الكائنات الدقيقة مثل البكتيريا، بطريقة مباشرة، بل يعتمدون على أمارات مثل وجود قذارة أو تحلل، وهذه هى المحفزات التى تثير فينا التقزز بسبب ارتباطها السابق بالمرض، لكن الارتباط الآن ليس حتميًا، فهناك أنواع من الفنون الحديثة تستخدم إفرازات بشرية قذرة فى أعمال فنية رمزية [٥٢]. واستخدام الاستعارات المقززة (كالفئران، والسرطان، والطاعون، والحشرات... إلخ) لنصف بها الجماعات المُستهدفة يمكن أن يُشكل صلات رمزية بينما لا توجد هذه الصلة فى الواقع[٥٣]. وكما رأينا فى الفصل السادس؛ فإن الاشمئزاز يتناسب بصفة خاصة مع اختيار زميل جديد (فى لجنة مثلاً) اعتمادًا على منظومة أفكار، فالأفكار مثل المرض غير ملموسة ولا تُدرك، لكنها سريعة الانتشار وأحيانًا تكون مهلكة.

ثالثا: السمة أو الخصيصة الثالثة للتقزز التى تجعله ملائما كسلاح اجتماعى، هى أن تهديدات الاشمئزاز لا تعتمد على القوة المادية لمصدر التهديد، وهى فى ذلك لا تماثل تهديدات الخوف أو الغضب إذ إن قوتيهما، أى قوة السم أو العدوى، متكتمة وخافية وخبيثة، وقوتيهما المميتة تأتى بالوقت ولكنها تفقد تأثيرها فينا عندما نسرع بالفعل المضاد. وبما أن استخدام الاستعارة المجازية التى تثير الاشمئزاز يقلل من العدوان والإساءة لدى الطرف الثالث، بدلاً من الهجوم الجسمانى، فإن هذه الاستعارة بذلك تقدم أسلوبا أدنى فى المخاطرة من تصعيد إقصاء الآخر، وفائدتها فى استهداف الأقليات واضحة أيضا. فالتقزز فى عبارة أيسر هو: ربما يبدو أنهم لا ضرر منهم أو أنهم موضع ثقة، لكن الشيء نفسه يمكن أن يكون فى وجبة طعام بها سم ناجع. وبمعنى آخر، لا توجد دلالة ظاهرة على عدم القدرة على الإيذاء. إن الاستعداد المسبق للفعل شيء ضرورى حتى تمنع عدوى قد يثبت عدم القدرة على شفائها.

وبالنسبة إلى الأفراد والأقليات الذين يعيشون بين ناس تعلموا أن يكرهوهم، فإنها مشكلة قاسية وخطيرة؛ ذلك لأن رد الفعل على التقزز النمطى منهم سوف يتضمن الانسحاب ممن يثيرون هذه المشاعر، وهذا يعنى ترك الساحة والانزواء بأسرع ما يمكن، وعندما يطبق هذا التقزز ليخدم فكرة إقصاء الآخر سيكون الاجتناب والانزواء غالبا نتيجته تكوين "الجيتو" ("الغيت" أو إحياء لانزواء الأقليات)، إذ إن الأفراد المنبوذين يتجمعون معا فيه- أو يرغمون على الاجتماع فيه. ومع التوسع فى الصد والإبعاد الاجتماعى لهؤلاء ليشمل التجارة والعمل والرعاية الصحية، فإن سكان "الجيتو" سوف يتعرضون للفقر وسوء الصحة والأمراض المعدية، ما يحفز من يظلمونهم على مضاعفة الانتقام بإشعال لغة إقصاء الآخر ضدهم.

وعندما يزيد الإقصاء ويبلغ الذروة، تصبح المشكلة التى بدأت بفكرة التقزز التى خلقها مضطهدوهم أكثر صعوبة ولا يمكن تجاهلها: وعندما يكون الإقصاء على نطاق واسع، كأن تبدأ الدولة فى الإعداد لإبادة جماعية، تكون وسائل الإعلام هى الوسيلة الممتازة لنشر الغلو والمبالغة اللازمة، وبذلك تجعل الأقلية المستهدفة تبدو خطيرة ومُهلكة ومستعدة للهروب من معزلها لإنزال الأذى- والاجتناب بعد ذلك لن يكون كافيا – وما يتبع هذا هو استراتيجية أقوى للطرد أو الترحيل.

وإذا كنت تسير بالطريق ورأيت عواقب التقزز والاشمئزاز كرد فعل ضد شخص ما بسبب تناول الخمر، فإنك من المحتمل أن تحَوّل نظرك لتُخفى أمارات القرف البادية على أنفك الذى تجعد كرها ولا إراديا وتُسْرع بعيدًا عنه. وإذا تقيأ شخص ما فى مطبخك، فإن اجتناب المشهد فى حد ذاته ليس كافيا. فلا بد أن يقوم شخص ما بالتخلص من هذه "الورطة" وإلقائها فى مكان معين (صفيحة النفايات مثلا) مع القيام بالطقوس المناسبة للنظافة – اجتماعيا- (بأن يُرّش المكان بمطهر ما). أما "الترحيل" فهو وضع الشيء المقزز فى لفافة أو فى "صرة" مغلقة لتكون حاجزا وصمام أمان قبل التخلص منها؛ وهذا هو ما يمنع الاحتكاك أو اللمس الفعلى. وكل هذه الاحتياطات قد تمنع أو لا تمنع القتل فى حالة ناقلات المرض من الجراثيم، لكنها ترمز إلى الحفاظ على المعايير الصحية، وهى معايير ومقاييس موجودة فى نظام اجتماعى مقبول متوافق عليه ولا تشمل مطابخ ملوثة ببقايا القيء.

وبمعنى آخر، يمكن القول إن التقزز، علاوة على أنه عامل للحماية ضد العدوى، يدفع إلى فعل يؤدى إلى الحفاظ على النظام الاجتماعى(٥٤). وإذا رؤى أن الأقلية تنتهك هذا النظام أو تُعرّضه للخلل، وكان منع ذلك غير فعال أو غير عملى، فإن الخطوة التالية الواضحة هى الطرد أو الترحيل، وتقوم بذلك مجموعة من الموظفين المتخصصين. (مثل الجنود بجانب بعض العسكريين من القوات

المسلحة) ليشكلوا حاجز أمان معادل للمجتمع، وقد كانت خطة النازى لإرسال اليهود إلى الشرق ثم إلى مدغشقر محاولة لاكتشاف واختيار الاستراتيجية الثانية(٥٥). لقد عزلوا اليهود عن شعب بأجمعه، وجعلوهم معزولين فى "الجيتو" ثم رُحّلوا بالقوة حتى يُنفوا من ألمانيا فى حراسة جند مدربين.

وبالطبع لو فشل الترحيل فما زالت هناك استراتيجية ثالثة: وهى القضاء النهائى عليهم. وسواء طُبِّق هذا على الناس أم على الأشياء، فهذه هى المناورة التى تمثل الملجأ الأخير، إنها تستلزم جهدًا أكبر وبها مخاطرة باحتكاك أو قتال أطول. إن تدمير الشيء أو الهدف لا يستهلك الطاقة فقط، لكنه قد يؤدى إلى مخاطرة ومجازفة لو تسربت سوائل خطيرة أو غازات مثلاً فى حالة تدمير بناء ما، غير أن الإحراق قد يُحوِّل المادة المقززة إلى مواد أقل فى التلويث، مثل الرماد. أما إذا زادت تكلفة الاجتناب أو الترحيل عن تكلفة الإبادة؛ فإن الحل الأخير هو الذى سوف يستخدم.

ويحدث القتل الجماعى عندما يكون الاجتناب شيئًا غير واقعى، فلم يكن المجتمع الألمانى، فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضى، يستطيع إطلاقًا أن يتحرك بأجمعه من الأراضى الألمانية حتى يتجنب اليهود الموجودين بها. فكانت الاستجابة للتقزز منهم هى البدء بعزلهم عن بقية المجتمع، وبالتطهير العرقى، ثم بالتهجير الجبرى، ثم إعادة التوطين- ثم الإبادة إذا ما فشل الترحيل. وعندما بدأت ضغوط الحرب واشتدت الفاقة والعوز واتضح أن اختيار العزل خارجيًا غير محتمل، ولما كان القادة الألمان فى الشرق يشتكون من "رعب" الوضع الاقتصادى "اللوجستى" الناشئ من كثرة عدد اليهود الذين جمعوهم، كان حل الإبادة هو الاختيار الذى رأته القيادة النازية.

وهكذا، فإن الشعور بالتقزز يثير ردود فعل نفعية وعملية تتمثل فى جمود القلب والقسوة، وإن لم يُكبت هذا النوع من الاستجابة، فإن الشخص الذى يتعرض لفكر إقصاء الآخر بسبب التقزز من الممكن أن ينظر للآخر على أنه نفاية ملوثة

ومُعْدية، ويلزم إزاحته وتدميره. وكما تقضى الاستعارات التى تزدرى هذا الملّوث وتحط من قدره والتى تتحكم فى الفكر أو الفعل، فقد تطلق أفكارًا واستجابات اعتيادية، مثل: الغسل والتعقيم والحرق، أو الدفن كنفايات. وفى الحالات المتطرفة لإقصاء الآخر تكون هذه الأفكار قادرة على الانتشار على هيئة أفعال لها نتائج مزعجة ومنفرة، مثل: جثث التوتسى التى أُلقيت بالأنهار فى رواندا، وجثث اليهود التى دفنت فى "بابى يار"، أو الأموات الذين أحرقوا فى "أوزفيتش"[٥٦].

ملخص وخاتمة:

تختلف غلظة الفؤاد تجاه الآخرين من الناس من شخص إلى آخر. ومن العوامل التى تجسد وجود هذه الاختلافات الفردية: التباين فى القدرة على المشاركة الوجدانية إدراكيا وحركيًا وعاطفيًا، ومستوى التأثر أو التوتر، ومدى تقبل الضغوط من القادة والنظراء، وتوفر الوقت والقدرة على تفتيت أو تشتيت المناقشات والجدال حول إقصاء الغير والبحث عن حلول بديلة للمشكلات، والخبرة الذاتية.. وهذه مجرد جزء قليل من العوامل التى تلتحم وتتوحد كى تجعل بعض الناس معرضين أكثر من غيرهم للتصرف بدافع غلظة الفؤاد، ومهما كانت الأسباب، فالقسوة بدافع من غلظة القلب تبدأ دائمًا بإقصاء الآخر وبعدد قليل أو كثير من التبريرات الواهية والمهلهلة للتدمير الذى يخطط له أو الذى يُنفذ. وقد يكون وجود الضحايا فى بعض الأحيان غير مُدْرك بالمرة، ومثال على هذا مدمن المخدرات الذى يتلمس حاجته للشفاء فى التخلص من العوامل الأخرى المعادلة. وتكون المبررات لذلك أحيانًا مبتكرة؛ فليست كل الصراعات والضرر منه شخصيًا، وليس كل الضحايا أنفسهم أبرياء ومنزهين عن القسوة. وبين التبريرين تتجسد مجموعة من الصور التى لا يمكن أن تُمْتدح، إنها صور تمثل نماذج من النوع الإنسانى والبشرى: المذعور،

الكسول، الغبى، الفاسد، المرتشى، المضلل، الحاقد، التواق للانتقام، أو مجرد من لا يبالى إطلاقا، وكلهم يبحثون عما يعنيهم هم وأتباعهم. أو عن شـــخص يلومونـــه، بسبب توقعاتهم التى لم تتحقق، أو أنهم يبحثون عن وسيلة تجعلهم انقياء مرة أخرى وآمنين ومحاطين بقدر مناسب من الاحترام.

ومعظم القسوة لا تقتل- وهذا شيء من العدل باعتبار أننا نستخدمها ونلجـــأ إليها كثيرا، وهى شائعة. ولا بد أن هناك شخصا ما يفعل كل التربص والمضايقات التى نسمع عنها، تعذيب الآلاف من الحيوانات التى تُنفذ سنويا، الإيذاء والظلم الذى يتعرض له الشركاء والأطفال والأقرباء من المسنين، أو حتى مجرد الصياح فـــى وجه الأطفال الرضع أو السخرية من البدناء، أو عبور الـــشارع ســـريعا لنتجنـــب شخصا من المشردين أو أحد المتسولين (نحن نسميهم أحيانا "ناس بلا مأوى". وأيما كانت التسمية فإنهم دوما يعانون من الاحتقار والإذلال والإيذاء لأنهم منبـــوذون). وهذه أمور ليست مُلزمة ولا ضرورة لأى من هذه السلوكيات القاسية. إلا أن هـــذا هو الأسلوب السهل الذى يشعر به من يفعلون ذلك بأنهم افضل من غيرهم، مؤقتا. ولكن منذ متى كان البشر يملكون الحق الآلى أو الطوعى والذاتى أن يشعروا بأنهم الأفضل؟ إن هذا الحق ليس لنا بالطبع، مهما جاء فى نصوص الدستور الأمريكى. لكن بما أننا قد طوّرنا الوسائل التى تُشعرنا بأننا افضل، فلا بـــد أن يلزمنـــا ذلـــك بالدوافع والعوامل التى تدفعنا إلى محاولة تحسين الذات.

إن القسوة المتناهية فى الأفعال الفظيعة، تعتبر أعمال القسوة البسيطة والأقل أهمية مادة خام وتستعمل إقصاء الآخر كى تـــضاعفها لتتخطـــى الفهـــم والإدراك. فالشرور الأقل عنفا، مثل الإيذاء اللفظى، شيء مقصود بمعنـــى أن هـــذا الـــسلوك طوعى، مهما كان غريزيا أو غير متدبر بإحكام، فى رأى الفاعل. والقسوة الفائقة، مثل تعذيب الأفراد أو المذابح الجماعية، هى أيضا متعمدة بمعنى أنها كان مخططا

ليا، ربما منذ سنوات فى بعض الاحيان. إن هذا يتطلب تنظيما كى يُجّهز الفاعل ويُدّرب، وكى يلفق ويختلق ويُضاعف التهديد للهوية والحياة الذى سوف يستخدم لتبرير الفعل القاسى والجريمة الفظيعة وأيضا كى تُنشر الدعاية التى سوف تحول الضحايا إلى أشرار وأوغاد. ولا بد أن تُجّهز التبريرات مع الإحساس بالإسراع الواجب، وبإسكات الناقدين. وبطرح رؤية بسيطة وواضحة لجذب الأتباع. أما القادة السياسيون الذين سيقودون هؤلاء الأتباع إلى مسار مزرٍ من إقصاء الآخر فإنهم يحاولون دائما غرس إحساس الخوف المَرضى المُحّتم والرهاب (من الاحتجاز) أو "الفوبيا"، هذا الفعل ضرورى وليس لدينا بديل آخر. ولو كان هذا صحيحا، فذلك لأنهم نجحوا فى إلغاء كل البدائل العملية، وبذلك يزداد الزخم والقوة الدافعة للحركة فلا يمكن منعها أو إيقافها. ولن نستطيع إنقاذ الضحايا إلا إذا تدخل الطرف الثالث.

ولأن "الجماعات" الغربية تشكل تهديدًا خطيرًا؛ فإنها تصير هدفًا لفكر إقصاء الآخر، ويكون من المفيد جعلها تهديدًا بـ "التفويض" احتياطيًا، فهى مشكلة قابلة للحل ويمكن أن تحل مكان كل التعقيدات والمشكلات التى لا حل لها والتى لا يستطيع إنسان منفرد التعامل معها. أما إذا كانت جماعات قوية أو كان حلفاؤهم من القوة حيث يمكنهم الاعتداء والهجوم، أو إن كانت القيود الاجتماعية تخلق مناخًا غير ملائم لفكر إقصاء الآخر، فإن العداء قد يُتحكم فيه ويتقلص، مثلما يُحّد من العداء لليهود الآن فى بريطانيا. وأحد الأساليب التى تُتّبع لذلك هو أن يكون هناك مجتمع غير مُوّحد وبه شقاق وخلاف وتكون فيه القوة موزعة بين جماعات كثيرة متنافسة أو متنازعة. لكن هذا من الممكن أن يكون شيئًا مثيرًا للأعصاب ومثبطًا للشجاعة والاستقرار. وقد لا يوافق القائمون بالسلطة على مثل هذه الترتيبات والأحوال، وهذا هو السبب أن الديمقراطية الحديثة، حتى فى الغرب، محدودة جدا.

وعندما يعتقد الأقوياء، لأى سبب من الأسباب، أن الحل الوحيد لمشكلة ما هو إزاحة جماعة معينة من الناس؛ فإن منطق إقصاء الآخر لن يصبح متعذرًا وصعبًا، وستكون الطريقة الوحيدة لأن تكون واثقا جدًا أن تلك الجماعة الغريبة لن تبقى كتهديد هى إبادتها. وسوف يساعد الخوف والغضب فى إطلاق عدوان ارتدادى كرد فعل من الجماعة، فإذا كان التهديد معقولاً وحقيقيًا ويمكن تصديقه (أو لو أمكن جعله يبدو كذلك)، فإن أولى الأمر سيخاطرون بأن يستعطفوا ويسترضوا ضحاياهم إذا ظهرت معاناتهم وأُعلن عنها. إن القسوة المستمرة بدافع جمود القلب مطلوبة لكن يجب ألا تكون مطاردة فطرية، ولذلك يلزمنا إيجاد شىء من التقزز؛ وعندئذ فإن القادة سوف يلجأون إلى الاستعارات التى تُحدث الاشمئزاز مثل: الصراصير، الطاعون، السرطان، النفاية، القذارة، العنف ...إلخ)، وسيكون محتملاً بعد ذلك أن يحدث القتل بأعداد كبيرة.

لقد ركزت فى هذا الفصل على العواطف السلبية التى تُصاحب القسوة؛ لكن القسوة تجلب عواطف إيجابية أيضًا، ومنها الفائدة المباشرة لجمود القلب عند تجاهل وإغفال مشاعر الآخرين من الناس، فالقسوة تجاه الغرباء من الخارج من الممكن أن تدعم الصلات بين أفراد الجماعات فى الداخل، وقد يجلب هذا أيضًا فوائد مهمة وهذا هو السبب فى أن القسوة قد تكون أحيانًا مُكونًا مهمًا من الأخلاقيات الأساسية والمتوارثة للبشر، مع أن القوانين الأخلاقية الوضعية قد تزجر أو تدين ذلك. ولو امتدحنا القسوة كنوع من الشجاعة أو التضحية بالذات، فإنها من الممكن أيضا أن تكون مصدرًا لمكافأة اجتماعية قوية: شعور بالاندماج فى كيان ما، أو بالانتماء، والذى يصبح فى أقوى حالاته نوعًا من المشاعر الغامرة للحب. إن الحب، مثله فى ذلك مثل الكره، قوة قاهرة دافعة للشر. إن بإمكانها أن تُحول الدافع إلى الانتقام إلى هاجس أو فكرة متسلطة، أو أن تحول الخوف على النفس

إلى خوف على الأسرة أو الأصدقاء أو حتى الوطن، وهو أقوى وأقدس، وبذلك تجعل الجماعة أقدر على أن تشحذ حد السكين التى تؤدى إلى ردود فعل قوية وقد تؤدى إلى جرائم فظيعة.

وعلاوة على ذلك، فإن الحب ليس هو العاطفة الإيجابية الوحيدة فيما يبدو، فالقسوة قد تمنحنا أحيانا مشاعر ممتعة ليس لها دخل كبير بالثناء والإطراء بسبب حماية أفراد الجماعة التى ننتمى إليها، وربما يكون لها دخل كبير بالمعاناة التى تتلقاها الضحية. إن هذه هى السادية، ومثل جمود الفؤاد فإن ردود فعلنا تجاهها يمكن أن تكون غامضة بشكل مقلق. أما القسوة السادية التى أدينت ولعنت على مدى التاريخ، فعلى الرغم من ذلك فقد كانت مادة للتسلية الطفيفة من حين لآخر، وستكون موضوعنا فى الفصل التالى.

الفصل الثامن

لماذا توجد السادية؟

كلما تزايدت رؤيتنا للناس وهم يموتون، وكلما قل تفكيرنا فى حياتهم وقل حديثنا عن موتهم، ازداد تعودنا على ذلك واستمتاعنا به.

("فولجنس بونانى" **Fulgence Bunani** مجرم شارك فى الإبادة الجماعية فى رواندا"؟)

يرتبط معظم جرائم القسوة بغلظة القلب. إنها قد تشمل عدم الإدراك، أو التجاهل، أو التقليل عمدًا من شأن الآثار الضارة للسلوك القاسى على الضحايا، وربما تشمل الاعتقاد بأن الضرر الواقع على الضحية له ما يبرره: أى أنه عقاب عادل أكثر من كونه انتقاما ظالما. وقد يعترف مرتكبو جرائم القسوة بأن أحد أهدافهم هو إنزال الألم والمعاناة، لكنهم يعتبرون المعاناة ذريعة أو سببا. فهى وسيلة لغاية أو هدف. ومع ذلك فأحيانًا تكون الوسيلة هدفا فى حد ذاتها. ويصبح عذاب الضحية مجزيًا ومرغوبا فيه، ويصير الابتداع والاستطراد فى التعذيب هو الهدف الأول لمرتكب هذا الجرم.

ويجب أن أنوه الآن إلى أن السادية - كما نناقشها هنا- ليست بالضرورة السادية نفسها الخاصة باضطراب الشخصية المرضى، أو السادية المرتبطة بالجنس كما يعرفها علم الطب النفسى(١)، فهذه الحالات النادرة هى التى يكثر الحديث عنها والتى يصعب تعريفها ولا يمكن فهمها، وأحد الأسباب لذلك جزئيا هو قلة وندرة الأبحاث فيها(٢). فالدراسات العملية السريرية التى تتابع المريض فى حالات السادية الجنسية قليلة، خصوصا فى غياب تخصص التحليل النفسى(٣). وعندما انتبه علماء النفس إلى ظاهرة السادية كانت البحوث معظمها عن الجنس أو القتل أو كليهما، بينما السادية - كما عرّفناها فى هذا الكتاب - لا تشمل أمورًا تتعلق بالشهوة أو القتل، ما دام المجرم يقصد إلى الاستمتاع بمعاناة الضحية كهدف فى حد ذاته بدلا من اعتبارها خطوة فى سبيل هدف آخر(٤). وعلاوة على ذلك فإنه يبدو أن بعض أنواع السادية (فى الحرب مثلا، أو فى معامل علم النفس) يرتكبها أشخاص ليس لهم تاريخ واضح لأمراض نفسية(٥). ولكل هذه الأسباب، سوف يركز هذا الفصل على السادية كسلوك أكثر من كونها اضطرابا نفسيًا.

وقد تُمثل السادية لغزًا محيرًا فى البحوث الطبية، إلا أنها شىء أساسى فى مفهوم القسوة. إن الاستمتاع بالتعذيب والايذاء هو ما يجعلها قسوة ليست شريرة فقط، لكنها تقدم تعريفًا مجسدًا لسمات الشر الانسانى. وسوف أنظر فى هذا الفصل إلى ذلك الارتباط بين هذه السمات وأطرح تساؤلا: لماذا تتخلل السادية وسائل التسلية ويكثر ذكرها بوسائل الإعلام الخاصة بالأخبار مع أنها مكروهة ومنفرة؟ فما الظروف التى تنشأ فيها السادية؟ وما دوافعها؟ وما حجم فظائع القسوة التى نشاهدها على الشاشات؟ وهل كل منّا ساد فى الخفاء؟ وسوف نبدأ بما هو مألوف وطبيعى فى هذا الموضوع الذى يتناول غير المألوف. فما قدر انتشار القسوة السادية فى حياتنا اليومية؟

السادية أكثر نُدْرة فى الحدوث مما يبدو:

إن السادية أكثر ندرة من قساوة القلب. وقد أشارت تقديرات من الولايات المتحدة وكندا، فيما يتعلق بالسادية المرتبطة بالجنس، إلى أن جرائم القتل بدافع الجنس نسبتها المئوية ضئيلة، ولا يُعْرف شىء محدد عن شيوع السادية كدافع لهذه الجرائم(٦). وبصفة عامة فقد كشفت دراسة استرشادية عن السلوك الجنسى أن ١٢% من النساء، و٢٢% من الرجال مرّوا بتجربة الإثارة الجنسية على بعض المستويات استجابة لقصص عن استمداد اللذة من إيلام الغير أو النفس. ويلوح هذا وكأنه شىء مثير، لكن هذه الأرقام لا بد أن تُعامل بحذر، إذ إنها تجمع بين السادية ومحبة إيقاع الألم بالغير بقصد التلذذ الجنسى(٧). وعلاوة على هذا، فبينما تبدو التصرفات التى يُرمز لها بالحروف BDSM (اختصارًا لكلمات: استعباد، سيطرة، الإيلام بقصد التلذذ، السادية) كجزء شائع فى الأدوار المتكررة لممارسة الجنس لدى البشر، فإن معظمها معتدل ولا يُنزل الألم إلا فى حالات ضئيلة. ويبدو أن الأولويات فيها هى السيطرة والإثارة وعدم التسبب فى المعاناة: والتفاعل بين الجادين ممن يمارسون تصرف BDSM (وهم مجتمع صغير جدًا) يتم بنظام رفيع وفق إشارات "توّقف" متفق عليها من قَبل، وبينهم عادة متبعة واتفاق على أى من السلوكيات يكون مقبولا... وهكذا. وقد يكون هذا شكلاً من "القسوة بالنيابة" أو "بدائل القسوة" (ومنها كثير فيما سيأتى): أعمال العنف والقهر التى تسمح للشريك المسيطر بأن يتخيل أنه/ أو أنها قاس . كما أن التعامل مع ضحية قابلة للعلاقة يُقلل من المخاطرة والضرر للطرفين. وبذلك لا يكون أسلوب BDSM قسوة حقيقية- إلا إذا كان المشارك المسيطر يُعانى من إثارة شديدة، بالطبع.

ولا تتطلب القسوة طقوس BDSM . وقد لا تشمل الإيذاء الجسدى إطلاقـا. إن الإيذاء الجسمانى والنفسى قد يدّمر الضحايا دون اللجوء إلى التطـرف الـدامى للتعذيب أو القتل فى أماكن العمل أو المدارس أو دور الرعاية أو العائلـة بـصفة خاصة. وإذا ما كان كل هذا الشر فى الأصل "سادية" هو أمرا مشكوكا فيه. وكمـا هو الحال فى القسوة البالغة، فإن الحالات الأقل ذيوعًا قد يكـون دافعهـا الكـسب المالى، أو الثأر أو الخوف. وقد يتدخل "تشكيل الواقع" هنا أيضا فى الحالات التـى لا تتصرف فيها عناصر مثل الأطفال، صغار الموظفين، الزبائن، أو أفراد الأسرة، كما يتوقع مرتكب الجريمة. وكما فى حالة الضابط الألمانى والطفل، التى وصفناها فى الفصل السادس، فقد كان التهديد ورد الفعل مرتبطين بـشدة. إن مـن يرعـى مريضا "بالزهايمر" ويظن أنه مثير للاشمئزاز قد يؤذيه بأن يتركه بـلا تنظيـف، ومن يظنه عدوانيًا قد يُعذبه أو يؤذيه جسمانيًا. وكل هذه الأفعال قسوة بلا شك، لكن إن لم يكن الهدف الأول منها هو التلذذ والابتهاج بإحداث الألم فهى ليست سادية.

إلا أن الخيال البشرى منغمس فى السادية. وما يوجد بكثرة فى عموميـات الأدب القصصى هو العدوان المرعب والجرائم الكريهة والمنفرة- سواء كانت هذه القصص فى أحد الكتب على رف مكتبتك أو تنساب من أقرب شاشة إليك. ويوزع التعذيب الوحشى على كل الأشرار والأبطال، وتغتصب النـساء وتقتـل، ويُقطّـع الغرباء المدنيون إربًا، ويُباد بعض الجيوش وتُدك المدن كما لو كانت تُمحـى مـن على الأرض . ويوجد الأسوأ من هذا فى شبكة المعلومات الدولية حيث يمكنك، إن أردت، أن تُحمّل أفلام "فيديو" عن أبرياء يُضربون أو يقذفون بالقنابـل، وأطفـال يُعذبون ورهائن تُضرب بوحشية وتقتل(٨).

من المؤلم أن ترى شخصا ما يعاني. ويمكن أن تكون رؤية شخص ما يبكي أو ينزف مثيرة للقرف أو الاشمئزاز. ورؤية شخص يموت شيئا مرعبا. وكما رأينا في الفصل الثاني، فإن التوتر الشديد التي أسسه "فيليب زيمباردو" Philip Zimbardo في الدور الذي لعبه في السجن، إضافة إلى الأوضاع الجبرية في الحرب كلها قد تنمي مشاعر القسوة – لكنها لا تبلغ أبدا ما يثيره خيال البشر عن القسوة– وهل هذا هو ما يجعلنا نؤكد السادية؟

السادية والشر:

> **إننا بالفعل نتوق كثيرًا للكلام المنمق عن الشر– ويلي هذا تأكيد واثق مُجهّز وكامل الإعداد بأن ما تعنيه كلمة مثل "الشر" شيء غير إنساني تماما، وخارج على حُرمة السلوك المفهوم، وتفوق طبيعته أي فظاعة فردية.**

("ديفيد فرانكفورتر" **David Frankfurter** من كتابه **Evil Incarnate**)

إن تسمية شخص ما "ساد" ليست حكمًا محايدًا حسب الاصطلاح اللغوي العام. إنها كلمة تدل على إدانة سلوك الفرد، وتضعنا في سياق القانون الأخلاقي المقبول، فيما يفترض، من كل من السامع والمتكلم. وكما ذكرنا في الفصل الأول؛ فإن "النشوء والارتقاء" قد زودنا بقيم أخلاقية جماعية وأساسية وبالقدرة على بناء نظم أخلاقية أكثر تعقيدًا. وقد تتداخل بقدر كبير القوانين الأخلاقية الوضعية في المجتمعات التي نشأت فيها وتحكمت نظم عقائدية عسيرة وظروف صعبة (مثل القتل من أجل البقاء). بينما تستطيع المجتمعات التي لم تُبتَل كثيرا بالحروب

والصراع من أجل الموارد أن تُنوع فى قوانينها الأخلاقية بما يتجاوز المصادر الأساسية لها. وأحد الأمثلة على القوانين الأخلاقية الوضعية الموجودة فى المجتمعات الغربية اليوم هو الرأى الطبى عن السادية الذى ينظر اليها على أنها حالة مرضية، أو علة واضطراب فى العقل. فالساديون مرضى يحتاجون العلاج وليس العقاب.

أما القوانين الأخلاقية الأساسية، على خلاف الوضعية، فهى واضحة وتنص على الإدانة: "السادية هى أسوأ جرم وأكثر الآثام شناعة". إنها تثير التقزز والغضب وتدعو للعقاب، وهى كالتهديد التقليدى بالاشمئزاز وردود الفعل تجاهها هى: الاجتناب، الطرد، أو تدمير المُذنب. ويُوصف الساديون مرارًا، مثل كل من يقترفون أسوأ الفظائع بسبب غلظة القلب، بأنهم "أشرار". وكما رأينا فى مقدمة الكتاب، فإن ذلك يَفْسح الطريق لفعل جماعى عنيف ضد أى شخص يُتَهم بالقسوة السادية.

وجمود الفؤاد، أى اللجوء إلى القسوة لأسباب أخرى، يمكن أن يكون دلالة على القوة عندما يوجه ضد الغرباء، ففيه فائدة للوطن. وبالمعايير "العمياء" للاصطفاء الطبيعى تكون قيمة السلوك عظيمة إذا كان يساعد على دعم بقاء "السلالة" (الجينات)، بصرف النظر عن سلامة القيم الأخلاقية. وتبارك القوانين الأخلاقية الأساسية أن يكون الرجال، وهم المدافعون الأوائل عنا فى نظر أسلافنا، فخورين بجمود الفؤاد ومتنافسين فى أن يتفوق كل منهم على الآخر فى السلوك الحربى والقتالى، وهم بذلك يُظْهرون اهتماما شديدًا بالعنف منذ حداثة سنهم، ما دام هذا العدوان محكوم اجتماعيًا وموجهًا ضد أفراد خارج الجماعة فقط. والانحراف عن "ميثاق الشرف" هذا يستوجب العقوبة. وإظهار الجبن أو الضعف أو لين الجانب تجاه العدو عندما يلجأ للقسوة يمكن أن يكون سببًا فى جزاء اجتماعى

صارم، ويتعلم الشاب الصغير فورا أن العنف غير المبرر ضد الأنثى والأطفال أو كبار السن غير مقبول كذلك (مع أن ما تعتبره ثقافة معينة "مُبررا" يختلف بصورة كبيرة عن غيرها).

وتختلف الحالة الاجتماعية لـ "ميثاق المحارب" الناشئ في المجتمعات المختلفة (وما زال أقوى في الولايات الجنوبية بالولايات المتحدة أكثر منه في الولايات الشمالية، مثلا)(١٠). ويبقى كذلك كمنظومة أخلاقية فاعلة ومؤثرة حتى إن تمت معارضته رسميا. فهو إطار قياسي للأفلام السينمائية والكتب والجرائد التي تُظهرنا (نحن الناس) كما نريد أن نكون. فإذا ظهر البطل بمظهر "غير رجولي" ووزع العدالة على أعدائه "بنذالة" وجبن فلن تكون هناك صناعة سينما تستحق الذكر والثناء ويرضى عنها عامة الناس. وتختلف السادية عن ذلك. فإنها حتى إن وُجّهت ضد الأشرار المحتقرين تثير لدينا الغثيان، ليس بالضرورة بسبب ما ارتكب من فعل لكن لأننا اعتدنا على الشعور بالإعياء لو شاهدنا قسوة سافرة وبلا مبرر على هذا النحو (حتى إن كانت السادية لا تريق الدماء أو تُظهر الأحشاء أو تُحدث ضررا جسمانيا). لماذا؟ ولأننا "داروينيون" جيدون، يجب علينا افتراض أن رد الفعل منحنا إثابة وكسبا "تطوريا". فلو أن القدامى من البشر الذين عاقبوا دلالات السادية في الآخرين من غيرهم كانوا ناجحين في "لعبة الجينات" عن معاصريهم الأكثر ليونة ولطفا، لكان رد فعلنا الغريزي للسادية والسهولة التي تستولي بها على انتباهنا، قد يكون منشأه هو تأثير "الاصطفاء الطبيعي" فقط.

إننا لن يمكننا العودة إلى سالف الأيام، لذا فإن أي تفكير لا بد أن يظل على هذا النحو: إن الفرد يمكنه أن يرى لماذا قد تُكبح السادية بشدة. حتى إن كان المستهدفون منها أساسا من الغرباء فإن الالتزام بالقسوة من أجل القسوة يمثل تهديدا

لأفراد الجماعة ذاتها. وماذا يحدث إذا لم يكن هناك أعداء؟ وما الذى يمنع السادى من أن يستهدف زوجه، ابنه، أو جاره بدلا من العدو؟ ومن المعتاد أن تكفى الموانع الأخلاقية-وما يدعمها من تهديد من محظورات يُحرّمها المجتمع، ولكن المجتمعات تدرك أن الرغبات الشديدة يمكن أن تسيطر على كل من القواعد الأخلاقية والمنفعة الذاتية المعقولة. وعندما تتحكم الرغبة فى الإيذاء فى الفرد فإن الدوافع الأخرى ترْخى قبضتها وتضعف. والسادى، شأنه شأن مدمن المخدرات أو المتعصب لن يكون مهتمًا بأى حال بالمصلحة العامة للجماعة أو بالنيات الطيبة أو بحسن السمعة، أو بصالح المجتمع، أو حتى بحافز أن ينشر صفاته البيولوجية الـ" دى إن إيه" (DNA) الخاصة به. إن "الجوع" أو الشهوة للإيذاء تتطلب الإشباع مهما كانت الكلفة أو النتيجة على الأصدقاء والأقارب الذين سيصيبهم الضرر. وبما أن هؤلاء الساديين لا يمكن الوثوق بهم أو فى أنهم لن يؤذوا حتى المقربين إليهم، إن لم يعثروا على ضحية بديلة، فيجب أن يخضعوا لأقسى عقوبات التحكم المادى (والبدنى)، وفى الحالات المتطرفة لا بد من النبذ أو النفى أو الطرد خارج الجماعة. ولأن البشر يميلون إلى الاعتقاد أن السلوك السيئ، باعتدال، يؤسس لسلوك أسوأ، فإن الجماعات التى تُعاقب علامات السادية مبكرًا تكون لديها فرصة أكبر لتمنعها من أن تبلغ درجة أكبر من الخطورة. ويمكننا أن نبدأ فى تحديد كيف ستتطور أحكامنا الأخلاقية حتى تصبح أقوى وحاسمة.

وتشتمل السادية، مثل كل أنواع القسوة، على علاقات قوة غير متكافئة (وهذا بالضرورة، إذ إن المعتدى لا بد أن يكون قادرًا على العدوان على الضحية)، وستكون الضحية التى لا حول لها ولا قوة مصدرًا مجزيًا لمرتكب الفعل.

والجماعات التى ترفض التسامح مع السلوك السادى تحمى بذلك أعضاءها من الضعفاء - بما فى ذلك الأطفال الذين تضمنهم كاستثمار فى المستقبل- وصغار السن الذين يتعرضون للقسوة قد يموتون أو ينشئون غير مؤهلين كوالدين[١١]. وعقاب السادية واستنكافها ومقتها يمثل حسًا تطوريًا ممتازًا.

لماذا توجد السادية؟

الإبادة شىء فى حد ذاته، لكن لا داعى لتعذيب ضحاياكم قبلها

(يوجين هوراك **Eugen Horak**، مترجم فى "أوشفيتز"، مقتبسة فى كتاب "ريتشارد أوفرى **Interrogations Richard Overy**)

وما لم تفصح عنه "حكاية داروين أو تفسره هو كيف نشأت السادية واستمرت فى مثل هذا الجو العدائى بين البشر. وهناك بالفعل سؤال أبعد من ذلك: هل تستطيع فكرة "النشوء والارتقاء" أن تمدنا بإجابة عن لغز السادية[١٢]؟ وقساوة القلب، مثلها مثل الحكم الأخلاقى الذى يعاقب القسوة السادية، هى نتيجة طبيعية لمنحة التطور: وهذا هو القانون الأخلاقى الأساسى. غير أن فرض المعاناة على إنسان من أجل المعاناة يبدو كما لو كان حالة من السلوك الذى يخالف أو يُوقف التطور أو يشبه، مثلا، أدوية "موانع الحمل". إن قتل أحد الغرباء كى تمنع "جيناته" من أن تنافسنا شىء عملى. لكن ما الغرض، حسب شروط "داروين"، من تعذيبه قبل قتله. لماذا لا يُهَشم رأسه ببساطة وينتهى الأمر؟

تكلفة القسوة:

بالنسبة للبشر الذين اعتادوا على أن يدفعوا مقابل الموارد كي يديروها قد يبدو "الاصطفاء الطبيعى" غير فعال. إن هذه هى المنظومة التى حافظت على طائر مثل "الدودو" الذى أوشك على الانقراض. إنها منظومة متهاونة لا ترتب الأمور بعد تجاربها وتترك نتفًا وأجزاء هزيلة ومبعثرة لا فائدة منها وقد تكون خطيرة فى بعض الأحيان (كما يعرف كل من عانى من التهاب الزائدة الدودية). إن هذا يخلق مخلوقات عجيبة وشاذة بلا حصر وقد تتوقف فورًا عن الوجود والحياة عند أول منحنى (أو تتعلق بخطاف مجازى بفضل مجهود عوامل الحفاظ على الحياة أو فكرة الطاقة التى لا تفنى). إنها تبعث بآلاف البليونات من "التقاوى" والحيوانات المنوية والأطفال الصغار إلى عالم لن يستطيع أن يُنْقِذ فيه إلا القليل.. لماذا؟ لأن هذه كانت فى الماضى استراتيجيات نجحت واستمرت بفاعلية.

وعلى المستوى الفردى فإن التكلف والإسراف الشديد فى الاصطفاء الطبيعى اعتبر أولوياته بالنسبة إلى أى كائن حى بقاء الطاقة والحفاظ عليها بذاتها دون فناء. وغالبا ما تكون الموارد نادرة وشحيحة وطالبوها "الجياع" كثيرين. وفى الأوقات العصيبة لن تحل المعجزات هذه المعضلة، بل الحل هو فى الاقتصاد وقبض اليد. إن التلطف الزائد مع ذئب مفترس أو سمكة تقفز أو صقر مُحلق كلها يبدو طاقة صغيرة، لكنه يعكس شيئا من التفاؤل، اذ إن أسلافنا المهرة تركوا خلفًا وسلالة أكثر اقتصادًا من منافسيهم الأوائل، وحتى البشر الذين ينظرون بعين الحسد والأسى على الحيوانات التى تستطيع أن تتواءم مع بيئاتها بسهولة ويسر لا يبارى، يرون أنهم بارعون فى جعل الحياة أقل مشقة وعسرًا بالبحث عن أسلوب أقل مقاومة.

وقد يكون الكسل خطيئة فى التراث، لكن الحفاظ على الطاقة جزء دفين فى النسيج الإنسانى (وإضافة موارد من الناس الآخرين شيء آخر مختلف). أليس هذا هو سبب استخدام البشر موانع الحمل- كى نحصل على متعتنا دون مضايقات أحمال ومسئولية أطفال مكلفة تستهلك كثيرا من المال وتمثل مضيعة للوقت؟

إن الإنسان السادى شخص انحرف وحاد عن الطريق الذى به مقاومة أقل فأضاع موارده على نشاط لن يجلب له منفعة ظاهرة. والقتلة معتادو القتل، هؤلاء الساديون النمطيون، يستطيعون أن ينفقوا قدرا مفرطا من الطاقة والوقت يتجاوز الحدود فى التخطيط لجرائمهم، ثم يمسكون بالضحية يقيدونها او يعتقلونها ويدمرونها بعناية ولو فرضنا أن النتيجة - فى أعلى درجاتها - مساوية للقتل، فلماذا لا نقتل ببساطة وبسرعة ونوفر الطاقة الزائدة لاستخدامها فى مكان آخر؟ إن منطق نظرية النشوء والارتقاء هو "أى نمط مثل هذا من الانفاق البارز والزائد يتطلب محاسبة[١٤]. فالسادية ليست مضيعة فقط إنها يمكن أن تكون خطيرة، تخاطر بالدمار من الضحية وانتقام من حلفائها، أو حتى النبذ والنفى المتقزز للشخص، حتى من أقربائه. نحن غالبا نعتقد أن الساديين أفراد "مستوحشون" يميلون للانفراد ولا يخاطبون الناس، إنهم مجرمون معتدون يدعمهم التفوق التكنولوجى بسبب براعتهم ومهارتهم فى استخدام السلاح أو التصويب عند استهداف ضحية لا حول لها ولا قوة.

ولو كانت السادية قديمة - وفق نظرية التطور- فإنه لا بد أنها كانت تترعرع فى عالم مختلف تماما عن عالمنا. ومن المعتقد أن أسلافنا قد عاشوا فى جماعات صغيرة تربطها قرابات وثيقة وتهددها مخاطر الطبيعة والمعتدون والسموم والأمراض وجماعات أخرى من البشر. ولم يكن هناك احتمال أن يُترك النساء والأطفال بلا حماية وهم يمثلون الثروة الغالية. وفى مثل هذا العالم كان من المخاطرة الكبيرة أن يمشى إنسان وحيدا فيلقى مصرعه، أما الرجال الذين يبقون

داخل الجماعة فيشاركون فى جلب الطعام وواجبات الحراسة أو يطلبون المساعدة والنجدة فى مواجهة المعتدين الأقوياء.

ويتضح من ذلك أن حياة الجماعة مفيدة وفاعلة، هذا من منظور "الجينات"، فصارت هذه فكرة مركزية تحكم الوجود الإنسانى اليوم وتحقق نجاح البشر فى التحكم بأنواع الكائنات الأخرى (ما عدا الحشرات والكائنات الدقيقة). غير أن السادية هى سلوك ضد الجماعة فى أعلى درجاته ولا تشبه السلوكيات الأخرى ضد الجماعة، مثل الغش أو الجنوح. فى أن عائدها بالنسبة "للتواؤم" وللتناسل والتوالد لا تظهر أو تتضح بسرعة. وبطبيعة الحال فإن تشخيص القسوة يتطلب وجود الدوافع- وهذا صعب وجوده فى أى معلومات فيما قبل التاريخ، مع أن هناك دليلاً قويًا على العنف داخل الجماعة- لذا لن يمكننا التأكد من أن أسلافنا قد عانوا من السادية وتعذبوا منها [١٥]. لكننا نعرف أنه فى العالم القديم كانت القسوة البالغة سببًا للشكوى، وكانت تثير الفزع والرعب مثل الذى نشعر به هذه الأيام[١٦]. إن السادية ليست، ببساطة، مرضًا جاء فى عصر التنوير واخترعه رجل أرستقراطى فرنسى يمتلك حاسة بارعة بالمخاطرة أو لديه حس فكاهى. لقد ظلت السادية جزءًا من المخزون البشرى لمدة طويلة تكفى لأن تجعلها معرضة لقوى "التحور والتطور الثقافى"؛ إن لم يكن التطور الجينى أيضًا. إن السادية جزء دفين فى أعماق مفهومنا عن الشر- وهو بالكاد موقع هامشى أو ضئيل فى الخيال الإنسانى- كما أنها تتسيد على اختياراتنا للتسلية والترفيه. ولماذا يجب أن تكون السادية المتخيلة والبديلة (فى التسلية) أكثر شهرة وشعبية من السادية الحقيقية؟ فكثير منا لديه، فى الواقع، أفكار تميل إلى العنف وحتى إلى قتل البشر، إلا أن قليلاً منا يعملون بها أو ينفذوها[١٧]. وإذا كانت السادية ضارة جدا ومؤلمة، فإن الفرد قد يتوقع أنها كان لا بد أن تمحى من المخزون الثقافى للبشر من زمن طويل.

ولماذا لم يحدث ذلك؟ هل هذا لأن هناك "تذوقا" للسادية تنشره وتذيعه وتدعمه قوى ثقافية مسيطرة، مثل الدين؟ هل حقا أن الأسوياء والعظماء "يطعموننا" القسوة بغرض التحكم الاجتماعى: بأن يقدموا للجماهير "منافذ" تستحوذ على انتباههم بدلا من عواطف قد تشعل ثورة غير مرغوبة؟ وبدلا عن ذلك هل "السوق" فى الأحلام السادية هى نتيجة لتدفق تيار شرير فى طبيعة البشر، يكبته ويكبحه عموما الجبن لكنه يفصح ويعلن عن نفسه فى أوهام وأحيانا فى أفعال؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل يؤثر هذا التيار المتدفق فينا جميعا؟ أم أنه يمكننا فى هذا العصر الذى تُداوى فيه السمات الشخصية للإنسان بالحبوب والأدوية أن ننظر إلى السادية على أنها مجرد عرض مرضى آخر، يُبتلى به قلة فقط من النفوس سيئة الحظ؟

السادية كحالة مرضية:

هل يمكن أن تكون السادية عَرضا مرضيا، نتيجة شىء من "الخلل الداخلى" مثل: التهاب الزائدة الدودية؟ لقد قدم الباحثون مقترحات متنوعة ومختلفة عن ماهية هذا الخلل تشمل مشكلات فى "تركيبة" الفرد، مثل نقص أو خلل فى المخ (كأن يُقال: إن القشرة الجزيرية فى مخه حجمها صغير، ولهذا، "سيدتى"، فقد شق بطن قطتك وأخرج أحشاءها) والمشكلات فى وظائف المخ مثل أى مشكلات فى وظائف الجسم. تُعَطل وسائل التواصل بين أجزائه المختلفة. وهذه المشكلات. وأهميا الإصابة فى الفص الجبهى، كان من تأثير نتائجها عدم الارتباط بينها (أجزائه) وضعف القدرة على إقامة علاقات إنسانية اجتماعية (١٨). ويمكن أن ينشأ الخلل فى وظائف المخ أيضا نتيجة لإصابة بناء او تركيب المخ؛ لأنه تعود على العمل بعيدا عن هذه المناطق المصابة. وقد يعكس الخلل بيئة شاذة غير عادية، لأن نمو المخ يتغير ويتأثر بوقع ضغوط المعاملة السيئة فى الطفولة، فمن الممكن مثلا أن يتسبب

الإيذاء الجنسى فى الصغر فى أن تقرن الضحية بين الألم الجسمانى والإثارة الجنسية، وقد يشمل رد فعل الطفل قبول هذا الاقتران، اعتمادا على الطفل وظروف الإيذاء التى صادفها، مما يقوده فى الكبر إلى السلوك السادى أو إلى التلذذ بإيذاء الغير، أو قد يرفض ذلك بسبب الشعور بالذنب، فيؤدى ذلك إلى الإنكار والاستهجان ثم الاكتئاب أو/و/ التوتر الذى يتبع الحادث أو الأذى الذى يُلْحقه بغيره(١٩).

والأفراد، سواء كانوا معتدين أو ضحايا للسادية (وبالفعل كلاهما) لا يتم تقييم حالتهم عادة إلا فى عيادة طبية. إننا هكذا سنحصل على معلومات قليلة عن كيف كانت عقولهم تعمل قبل تجربة القسوة، وأيضا ستكون المعرفة ضئيلة عن المسارات الذهنية المُسببة لها (والحصول على مثل هذه المعلومات تكتنفه تعقيدات ومشكلات من الناحية الأخلاقية). ومثال على ذلك، نفترض أن ساديين ممن يسيئون إلى الأطفال وكانوا أنفسهم ضحايا للإيذاء وهم صغار ظهر أنهم يعانون من خلل فى وظائف قشرتى الفصين الجبهى والصدغى بالمخ. وحتى لو كان البحث إحصائيا ونتيجته قوية وجيدة وتكرر إجراؤه؛ فإن ما يُفصِح عنه قليل جدا فى حد ذاته. إن ما نلاحظه من خلل فى عمل المخ من الممكن أن يكون أساسًا ناشئا عن عوامل جينية أو بسبب إصابة حدثت فى وقت سابق فى فترة النمو (أو حتى فى رحم الأم قبل الميلاد)، أو إلى تأثير معين للإيذاء، أو بسبب بعض العوامل الأخرى التى تَصادف وجودها قبل أو فى أثناء الاعتداء أو الإيذاء (سوء التغذية مثلا)، وهذه قد يكون أو لا يكون سببها الشخصى هو الذى أحدث الإيذاء فى الأصل(٢٠). ولن نتغلب على هذه المشكلات إلا بأن نحصل على المعلومات عن فترة الحياة الأولى للمجرم وعن أعداد كبيرة من الناس. (ولكن كم من الوقت علينا أن ننتظر حتى يكون المسح الذرى المنتظم للمخ جزءًا من الرعاية الصحية الشاملة

للإنسان مثل قياس ضغط الدم؟) إن ندرة السلوك السادى والصعوبات التى تتضمنها الدراسات عنه سوف تظل تمثل مشكلات هائلة لمن يُجْرون أبحاثًا عن نماذج مرضية من السادية(٢١).

وترجع بعض حالات من السادية - غالبًا - إلى إصابة خطيرة بالمخ أو خلل بوظائفه، إلا أن كثيرًا من حالات التعذيب الفظيع يُنفذها بعض الناس، فى مواقف معينة، من الذين لا تبدو عليهم أمارات أو دلالات القسوة فى ظروف مغايرة. إن المخ قد يعمل بصورة شاذة فى هذه المواقف فقط، لكن لو كانت هذه حالة مرضية فإنها تُشكّل نقصًا وخللاً يأتى ثم ينتهى استجابة لعامل اجتماعى كأحد العوالم التى قد يتعرض لها حتى الأصحاء من الناس. وهل كل من يرتكب جرمًا شديد القسوة يخضع لحالة غير مألوفة فى المخ وقت ارتكابه؟ إن هذا الشىء ممكن، فنحن لا نعرف. وهل يمكننا أن نصف هذه الحالة بأنها حالة شاذة؟ إن ذلك شىء يتعلق بعلم معانى الكلمات، وهل "الجوع" شىء أو وضع شاذ؟ إن القسوة شىء يفعله الناس فى حالة يكون فيها خلل العقول أو لا يكون. والناس الأصحاء عموما لا بد أن ينغمسوا فى مواقف "غير صحية"، مثل الحرب، قبل أن يُصّعدوا قسوة الحياة اليومية العادية إلى أقصى الصور المختلفة والمهلكة من القسوة. أما الناس من ذوى الحالات الصحية الأدنى فقد يُعبرون عن القسوة باستعداد أكبر وفى ظروف الحياة العادية.

إن القدرة على أن نكون قساة جزء منا، فنحن ليس لدينا ما يبرر أن نعزلها ونجنبها باعتبارها نوعًا من المرض، إلا فى حالات معينة ونادرة، ولكن ليس علينا استنتاج أن كل إنسان قاس بالفطرة والسليقة. فبالنسبة إلى معظمنا، وفى معظم الأوقات، تكون السادية شيئًا نادرًا والإيثار على النفس بالكاد غير معروف. ونحن لدينا الميل والاستعداد لأن نكون قساة أحيانًا، لكن هذا النزوع أو الاستعداد ليس مثل النزوع الغريزى لاستطابة آلام الغير والتلذذ بها. وقليل جدا منا قساة بالحال

نفسه والوضع الذى نشعر فيه بالجوع. إلا أنه مثلما يدفع نقص الطعام الشخص الذى يشرف على الموت إلى أكل لحوم البشر؛ فمن الممكن أن بعض الظروف قد تُشجع القسوة ويمكن أن تحوّل شخصا طيبا إلى قاتل سادى.

القسوة والتحكم والضبط الاجتماعى:

ماذا عن الدعاوى التى تقول بأن السادية تروج لها وتحض عليها قوى ثقافية مهيمنة ومسيطرة. لقد قيل الكثير عن أهمية القيادة السياسية والثقافية وعن تآمر الدولة فى الجرائم والفظائع التى تحدث على نطاق واسع حيث تظهر السادية(٢٢). وشى آخر يُشار إليه عامة على أنه "مذنب ثقافى" وهو الدين. والمثال الواضح هنا هو المسيحية بتأثيرها الذى لا يمكن حصره فى الفكر الغربى، بما يعكسه فعل القسوة المفزع الذى يمثل لب منظومتها العقائدية- صلب المسيح. وهى ظاهرة توجد فى كثير من الأديان. وحتى بصرف النظر عن صلب المسيح، فهناك سيناريوهات من القسوة المفزعة والموجودة والمتاحة لكل من يستطيع أن يقرأ منذ أن سُهل تطور الطباعة وطُبعت وصدرت النصوص الدينية على نطاق واسع (مثل كتاب "فوكس" J.Foxe سِجّل الشهداء)(٢٣). وقبل ذلك فقد جعل الفن الدينى القسوة البالغة المرئية فى الصور مألوفة للناس الذين ربما لم يشاهدوها مباشرة وواقعية على الإطلاق.

ومع ذلك، فالتعليقات التى تصدر من كاتب مثل فريدريك نيتشه "Friedrich Nietzsche" وهذا التأكيد منه على القسوة، لا يمكن أن يؤخذ دليلاً على أن المسيحيين بصفة خاصة يتملكهم ويستحوذ عليهم وسواس مرضى بالألم والمعاناة(٢٤). والتضحية المقدسة ربما تكون قد طالتها الديمقراطية بفعل الضغوط

الاجتماعية والعلمانية والتى أدت إلى الإقلال من التأمل فى عذابات القديسين وصلب المسيح والتغنى بها، وإلى الإكثار من ذكر معاناة الناس العاديين والأحداث المروعة التى تمسهم. إلا أن هذا يقول الكثير عن تغير وتبدل أنماط التحكم الاجتماعى أكثر مما يقوله عن القسوة، وافتراض انحسار أو انهيار الإيمان لم يوقف الشكوى من شرور وسائل التسلية في الغرب الحديث، ووسائل الإعلام والثقافة أحيانًا. إن قوة الدين قد تعلو وتهبط؛ لكن القسوة ظلت ملمحا وسمة من تخيلات وأوهام البشرية قبل المسيح وأفلام هوليوود بكثير. إنه من المصادفة أن تكون الحال أن معظم فترات تاريخنا، وكثيرًا من المحتوى الرمزى فيه خيالات للإنسان زوّده وأمده بها الدين. ولذا فإن القسوة هى بدائل تحدث معظمها نيابة عن مضمون دينى.

ويخاطب الدين حتما الألم والآلام، لأن ذلك يجسد ويمثل أوسع أدواره. وقد أضيف إلى ذلك أن القسوة الحقيقية والمتخيلة توجد بسهولة فى الثقافات التى تُنكر الأديان (كمبوديا تحت الخمير الحمر مثلاً حالة قصوى ومتناهية). وتظهر القسوة كذلك فى حالات مختلطة بأوهام الأوروبيين العلمانيين فى هذه الأيام وأبناء عمومتهم الأمريكيين الأشد حماسًا منهم. وشيوع العلمانية قد يختلف ويتنوع فى الجماعات تماما مثلما يختلف من شخص لآخر، لكنه لا يقتصر على دين أو ثقافة سواء فيما يخص عقيدة "إبراهيم" أو فى الثقافات "المستجلبة" والغربية مثل ثقافة "الأزتك" والمغول. وفى أساطير الإغريق القدامى- تلك الثقافة التى تُمتدح تقليديًا كأساس للحضارة الغربية والديمقراطية والمنطق- قد تكون هناك أمور قاسية بضراوة. فكروا معى فى أسطورة "بروميثيوس" الذى عوقب لأنه ساعد البشر بأن قُيد بسلاسل فى صخرة ومَزّقت كبده طيور جائعة من الجوارح[٢٥]. وكما يحدث فى أحكام الإعدام. فهذا فعل قاسٍ وغير مألوف، وغير إنسانى ومعيب، لكن الحكاية

فى هذه العبقرية السادية هى أن "بروميثيوس" لم يُعْدم. إنه يُنقذ وتنمو كبــده ثانيــا وتعود إليه الطيور الجارحة مرات ومرات.

ويمكن للدين، مثل المنظومات العقائدية الأخرى، أن يتفرع ويتحول ويــشجع القسوة الحقيقية والمتخيلة (كما يمدنا بالحافز لنقاوم فى بعض الحالات) وتستطيع ذلك أيضًا النزاعات حول الأراضى حتى تتركّكم أيها الناس بجهد لا يكفى للعمــل. إنـــه شيء مغرٍ أن نلوم الدين، ولو محونا العقيدة الدينية، إن استطعنا، فلن يؤثر هذا بقليــل أو كثير فى قسوة الإنسان، فهناك أسباب كثيرة جدًا يمكن أن تجعلنا قساة.

وكما فى معظم المناقشات المتكررة، فالحقيقة هى أن كليهما (الدين والثقافة) له تأثيره. إن الثقافة تتوسط المسالك التى يسافر فيــه خيالنـــا. وطبيعـــة الإنـــسان "المتطورة" تمدنا بأسباب قوية ومتجذرة وعميقة، لماذا نستمتع بمثل هذه الأســـاطير والأحلام. والاثنان معًا يعطوننا استجابة ثالثة لمشكلة الـــسادية.. إن الفكـــر غيـــر المريح والواضح هو أن الناس يكونون قساة عندما يكـــون للقـــسوة عائـــد مجـــز. وقدرتنا على أن نستمتع ونبتهج بالمسرات مخيفة لدرجة أنها تستطيع أن تهزم حتى الرعب الناشئ عن ارتكاب الأعمال الفظيعة. إن الساديين يظهرون ويوجـــدون لأن القسوة يمكن أن تكون ممتعة لهم.

بهجـــة الســـادية:

إذا كانت القسوة ممتعة فقد يكون مذاق القسوة "المنتصرة" له معنـــى آخـــر؛ إنها تمنحنا السرور والبهجة حتى إن كانت النتائج غير سارة ومُستنكرة. وفى العالم الواقعى؛ يكون الضحايا مزعجين وملّوثين ولا بد من التخلص منهم، وقد يمثلـــون خطرًا، ويهددون العلاقـــات الاجتماعيـــة. أمـــا فـــى الخيـــال، فـــإنهم يختفـــون

أو "يتبخرون" حالما نفقد الاهتمام بهم، لكن لماذا نريد أن نستمتع بأى نوع من أنواع القسوة؟ ولو كانت الرذيلة أو الفساد القبيح والمتخيل مجزية، فما فائدتها ومكافأتها أو إثابتها؟

إن أحد أسباب زهوة السادية له علاقة بالقوة العاطفية للقسوة، فالمثيرات التى تُنتج عواطف سلبية قوية؛ تكون عمومًا أكثر بروزًا وقوة ولها تأثير أكبر وتسترعى الانتباه أكثر من تلك التى تنتج عواطف أقل إيجابية أو أقل فى الشدة. فالقسوة عاطفية بدرجة كبيرة؛ لأن بها مثيرات مزعجة – الدم والصراخ مثلاً– لأننا دائما نتأثر بإشارات القوة الاجتماعية والمكانة. والناس الذين يحطمون القواعد والقوانين الأخلاقية، فى الواقع – كما فى القصص الخيالى– نظن أنهم أقوياء، خصوصا إذا كانت لهم "كاريزما" أو محبوبين ويبدو أنهم يستطيعون أن "يفلتوا" بتعدياتهم على القواعد ويتجاوزونها بحزق ومهارة، وهذا هو ما يجعلهم بطبيعتهم مُشوقين ومهمين. إننا بالفعل نندمج معهم، وإن كان ذلك جزئيا أو بصفة مؤقتة أو للحظة عابرة، وبذلك نستمتع بإحساس بالقوة نيابة عنهم؛ فيزيد ذلك من إحساسنا بالتحكم دون أن يُحتّم أن نواجه الآثار المخيفة للقسوة فى واقع الحياة. وبالمثل تضع التكنولوجيات فى الحروب مسافة بين عمليات الحرب ونتائجها وبذلك تساعد فى أن تجعل الحرب أكثر متعة لمن يمارسونها أو ينغمسون فيها، خصوصًا إذا كان لديهم وازع أخلاقى يخص السبب الذى من أجله يحاربون[٢٦]. وليس الأمر مصادفة أن تقلل أفلام العنف من تأثير الفعل فى الضحية وتركز على قوة مرتكب الجرم فتساعد خيالنا فى أن نفعل الشىء نفسه. وأفلام الحركة مثل مسلسل "أنديانا جونز" هى من النوع نفسه الذى تُباد فيه أعداد كبيرة من الأشرار البارزين ومن الممثلين الهامشيين. والرادع الأخلاقى الذى عادة ما يكون نشيطًا وفعالاً هو نفسه الذى

يُكبت، حيث إننا نعلم أن هذا العنف خيالى. إننا نحب المجرم ونعلم أن سلوكه ليس مسئوليتنا، (بما أن اندماجنا وتوحدنا معه جزئى فقط).

وتُصور الأفلام المجرمين الآخرين فى حالة ساديين "كارتونيين" ينالون العقاب الذى يستحقونه؛ ويسمح لنا ذلك بأن نُجَمع السادية فى طراز أخلاقى واضح ومحكوم لا يؤذينا أو يضايقنا (بمعنى أخلاقياتهم وأخلاقياتنا الأساسية، وحقوق الإنسان، وفكرة إدارة الخد الآخر المسيحية السارة والتى لا لزوم لها)، وعندما يبالغون فى سوء سلوك الشخص الشرير، غالبًا إلى حد يجعله مثل تصوير"الكاريكاتير"، فإن الرواية الخيالية تؤكد للجمهور أن الأشرار أشخاص من السهل التعرف عليهم وتحديدهم، وهم مختلفون تمامًا عنا وسوف يصير بهم الحال، بلا مهرب، إلى عقوبة يستحقونها.

أما فى أفلام "جيمس بوند" على سبيل المثال، يبرز الشرير نمطيًا كشخص سادى سيئ منذ البداية، وذلك بالاستغناء عن أى شخص طيب بطريقة لا مبرر لها، إنه يُلقى بضحيته من طائرة أو فى "مفرمة" عملاقة أو ما شابه. إن هذه الميتة المثيرة والمفزعة "يبتلعها" جمهور المشاهدين، مع احترامى، إلا أن نظريات أهمية أو حتمية التقليد فى ثقافة البشر؛ تجعل المشاهد يميل إلى أن يترك الفيلم مصرًا على أن يدفع بمن يضيق بهم فى حياته إلى آلة تُقطع وتطحن، ومن يفعل ذلك من الناس، كما يقول لهم الفيلم، سوف يُفعل بهم الشيء نفسه. إن أشرار "بوند" يلقون نهايتهم السيئة أو أكثر ممن "دللوهم" أو ارتبطوا بهم، وهى نهاية مناسبة جدًا. إن من يُلقى بالناس من طائرة سيسقط ليلقى حتفه، ومن استخدم "المفرمة" سيلقى المصير نفسه.

وهناك سمة أخرى من سمات القسوة فى القصص الخيالية تستحق الذكر، وهى أن تصوير القسوة الفائقة يمكن أحيانًا أن يشمل إقصاء الآخر، لأن الشخص

القاسي أقل من أن يكون إنسانا بأي شكل من أشكال تجسيد الشر الـذي لا يمكـن تفسيره، فهو قوي ومرعب كقوة من قوى الطبيعة. إن شخـصية هانيبـال لكتـر "Hannibal Lecter"، المريض نفسيا (إذ إنه ميال لتذوق لحم البشر) والذي قدمـه لنا توماس هاريس "Thomas Harris" وهوليوود هي مثال على ذلك[٢٧]. وفي مثل هذه الحالة المفزعة يتشجع المشاهد على ألا يتوحد مع الـشرير. إن هـذا يتحقـق جزئيا بأن نجعل أفلام "هاريس" مُعتمة وشخصيته غير محددة، ولا تصور سـلوكه المتجاوز للغاية. وقد يتصور كثير منا أن هناك من يمكنه أن يحفر في مخ إنـسان بملعقة كما يفعل "ليكتر". لكن الصدمة من هذا التـصور تـشبه زلـزالا يـضرب ضربات عشوائية، ويبدو أنه وحش من شأنه أن يُنزل الدمار بالبشر فـي سـادية بشعة، إنه قوة مدمرة مثل بعض قوى الطبيعة.

لكن هناك شخصًا واحدًا لا يهاجمه هذا الوحش، إنها البطلة المتعاطفة التـي يتوحد معها المشاهد. ومعظم الرواية تدور حول محاولاتها لتحديد دوافع الـشرير للفعل؛ حتى تطرح نمطًا، أو بمعنى آخر، لتنظم هذه الفوضى وتجعله أكثـر ألفـة ومفهومًا فيما نتنبأ به عن أفعاله. ويتضح أنه يهتم بها وأنها شيء خـاص بالنـسبة إليه. ويموت أشخاص آخرون، ثائرون نوعًا ما، على يد "لكتر" ما عـدا البطلـة، كلاريس ستارلنج "Clarice Starling" في فيلم هانيبـال "Hannibal"، حتـى إنـه يذهب إلى حد أنه هو الذي يُنقذ حياتها. إن الرسالة هنا، والتي نحـب جميعنـا أن نجدها في القصص الخيالية، هي بالتحديد هذا الشعور بأننا متميزون: فقـد تكـون القسوة سائدة في كل مكان حولنا، ولها صوت وهمس، لكنك أنت "مهم". إنك تعنـي الكثير لنا- حتى بالنسبة إلى الأشرار وللطبيعة العاصفة أو بالنسبة إلى قوى الـشر الخارقة ذاتيا. إن الآخرين قد يموتون لكنك سوف تنجو.

ويطرح كثير من القصص الخيالية التى تُشكل أفكارنا عن القسوة السادية أهمية البطل المقاوم كأمر مسلم به. إنه هو/ هى فقط الذى يستطيع أن يُحبط الخطط الشريرة للمجرم. إن هذا الشرير قد يبدو محكومًا بوسواس ضرورة قتل البطل، وقد يُعبر تلقائيا عن السخرية منه والاستهزاء به فقط كى نعرف الخطأ فى أسلوبه. وفى كلتا الحالتين تنتهى الخطة الشريرة حتمًا بالفشل. وإذا كان لا بد لنا أن نعانى؛ فإن هذا هو كيف نريد لمعاناتنا أن تكون. إننا نريدها محتملة ومختصرة، ويجب أن تكون أيضا جزءًا من "الحكاية" التى ننتصر فيها فى النهاية لأنها صارت ذات مغزى لعدونا، وإن كنا سنتعذب، فعلى الأقل فليكن من يعذبنا مهتمًا بنا [٢٨]. ومعظم الروايات الشهيرة تؤكد لنا، مثلما تفعل الأديان تمامًا، هذه الادعاءات الثلاثة: إن لنا معنى وأهمية خاصة مثل الآخرين (حتى إن كانوا يكرهوننا) وإن القسوة ستلقى العقاب (ربما ما عدا فى حالة أن نكون نحن المجرمين) وأن الأشرار غرباء عنا (وأيضا غرباء عن أى قوة تضمن وتؤكد أن العدالة سوف تتحقق، وبالضرورة، فى نهاية الأمر).

وسوف يُرضى كثيرًا منا أن نواجه القسوة السادية عن قرب فى الخيال فقط. إلا أن بعض الناس، مثل المجرمين معتادى الإجرام بدوافع جنسية، يختارون أن يُنفذوا خيالاتهم المتوحشة، وقد تكون السادية أكثر نُدرة من غلظة القلب، لكنها على الرغم من ذلك موجودة. والأسوأ من هذا أن بعض المواقف يبدو أنه يشجع القسوة السادية ويدعو لها. لقد رأينا أن القسوة البديلة (بالنيابة) يمكن أن تكون ممتعة، فهى تقوى غرائزنا الأخلاقية الأساسية وتؤكد لنا أننا متميزون. وهل هناك أسباب أخرى تبرر لماذا نحبها- ولماذا يتخيل بعض الناس وجودها حقيقة وفى الحياة الواقعية؟ وكى نجيب عن هذه التساؤلات؛ فإننا نحتاج أن نمر بالنقلة والتحول نفسهما، وأن ننحى جانبًا القسوة التظاهرية ونتمسك بالحقيقة، ثم نسأل: كيف يحدث السلوك السادى.

السادية تنشأ من غلظة القلب:

تختلف السادية عن رد الفعل العدواني، مثلاً، بأنها لا تبدو نوعًا من السلوك الذي يُعّبر عنه بني الإنسان غريزيا بأنه "تجديد" يخالف ما سبق في عصور أخرى. وبدلاً من ذلك أصبح السلوك السادي يرتكز على أشكال أخرى من الإيذاء عند البشر، وهو يشمل إقصاءً مبالغًا فيه للآخر وعنفًا صادرًا من غلظة القلب. فالحرب والإرهاب وعنف العصابات والقتل المتوالي والعبودية وسوء المعاملة داخل الأسرة.. كلها أمثلة تنشأ فيها القسوة السادية من غلظة القلب. ويتماشى ذلك مع نمط ثابت يوجد في السلوك السادي، وهو" تدريجي" ويكون غالبا تصعيدًا متزامنًا من أفعال تعذيب أقل عنفًا (مثل: الضرب أو فعل عابر يؤذي الحيوانات) إلى أفعال مرعبة متزايدة للتعذيب والقتل. ومثل الإقصاء لجماعة ما، تكون القسوة السادية لدى الأفراد قابلة للسيطرة في أكثر حالاتها فاعلية إذا مُنعت في مراحلها الأولى.

وتتوافق القسوة "الاستكشافية" في حالة إيذاء الحيوان عند الأطفال مع هذا النمط، فقد يدفع الفضول السلوك الأولي لدى الطفل، لكن تدخل من يحمونهم من المسيطرين الكبار ذوي النفوذ هو الذي يقرر المنع في المراحل الأولى. ويُدلل على ذلك بالقوانين الأخلاقية التي تربط بين الأفعال ونتائجها. وعندما يتآلف الطفل مع المجتمع يتقبل هذه القوانين باعتباره جزءًا من الذات؛ ويصبح هذا الشخص مواطنًا صالحًا ينصاع للقانون. إن هذه عملية بطيئة وطويلة وليست قائمة على مسار مباشر. ويتكون لدى الطفل الدافع لتقبل قوانين المجتمع تدريجيا، ومن ثم القبول بأن يصير مثل الآخرين وأن يتصارع مع النزوع إلى تحدي القوانين. ومع الرغبة في أن يصبح أكثرا اختلافًا واستقلالاً.

وبحكم هذا التعارض الذى نألفه نحن جميعا، حكى طبيب فى كتاب ألفه جون ويندام "John Wyndham" عن أم تطلب من طفلها أن يكون طبيعيًا تمامًا و"بصفة كاملة"، وفى الوقت نفسه أن يتفوق على كل الأطفال الآخرين(٢٩). وسواء بدأ الصراع بحب الأم أم لم يبدأ، فالحرب دائمة بين الشبه والاختلاف وبين تقبل معتقدات الآخرين وقوانين سلوكهم وتعريفها كأنها هى قوانينك أنت، وهل سوف تستمر بعد عشر سنوات مثلاً ؟ إن ثقافات المراهقين تؤكد أن هناك تناقضًا محيرًا هنا، فمن هم خارج الجماعة يرون الاستنساخ الذى جاء فجأة قد قصد أن يسحق الغرباء تحت الأقدام، وأن "الموضة" التى جاءت بدعوى الربح، وكل هؤلاء الشباب الغاضب الذين صمموا على أن يكونوا "مختلفين" قد لجأوا إلى طرق متشابهة وصعبة ومرهقة. فالمراهقون يرون أن الصراع "المتوحش" يجب أن يكون من أجل الحرية والهوية والاحترام؛ لكننا جميعنا ربما نتشارك فى هذا العالم الرمزى من المشاعر، وقد مررنا بالتجربة التى تمثل شكلاً من الضغوط الاجتماعية فجعلت وجود المراهقين نوعا من الجحيم، وكلنا قد أعدنا أقلمة أنفسنا وعدلناها تبعًا لذلك. فقد فحصنا الرموز والافتراضات والأيديولوجيات والتأكيدات الجديدة مع تأثيرات أخرى وقبلناها كجزء منا، أو غير ذلك. إننا أيضًا نلجأ إلى "تشكيل العالم" عندما نغير ما هو خارجنا ("هذا" أو "هم")، وذلك أسهل من أن نُغَير أنفسنا، وذلك ما نفعله. وأحيانا يحدث الضرر مما نفعله.

السادية يلزمها غلظة القلب حتى تعلن مشروعيتها:

تختلف درجة القسوة وتتنوع حتى فى فرد سادى واحد، فالقاتل الألمانى متعدد الجرائم بيتر كيرتن "Peter Kurten" كان يترك بعض ضحاياه يهربون، إلا أنه كان يذبح الآخرين وكان يفكر كثيرًا فى القسوة أكثر مما ينفذ أفكاره هذه،

واستطاع التحكم فى نزعاته إذا تطلب الموقف بعض الحكمة[٣٠]. وكما يتضح من هذا؛ فإن "الخروج اللطيف" من الخيالات إلى الواقع، كان من طبيعة بيئته فى شبابه. وفى الوقت الذى بدأ فيه هجماته كان من المهم الإفصاح والتعبير عن ساديته. وهناك مواقف معينة مثل الحرب والعبودية؛ تنتج عنها فظائع سادية، وغيرها مثل المباريات الرياضية أو المؤتمرات الأكاديمية لا ينتج ذلك عنها عمومًا. فماذا عن الحالة الأولى التى تُسْهِم فى تطور السادية؟

إن العامل الأوضح فيها هو خلفية القسوة النابعة من غلظة القلب مع عنف متكرر، وهى ثقافة لا تأخذ فى الاعتبار الاختيارات المنافية للعنف. والمهم أن هذا المستوى العالى من الإيذاء لا يعتبره من يمارسونه أنه قسوة بالمعنى الذى عرفناه فى هذا الكتاب. إنهم يعتبرونه شيئًا له مشروعيته وتوافق عليه نماذج من الأدوار الاجتماعية؛ ولذلك فهى قسوة مقبولة اجتماعيًا. وعلى سبيل المثال، كان والد "كيرتن" يسىء معاملته وبعنف شديد؛ كما ادعى أنه تعلم قسوة إضافية من صاحب أول عمل التحق به، وكان سائسًا للكلاب ويرى أنه يجب أن يُعَذب الحيوانات التى يرعاها[٣١]. ومن المحتمل أن تكون هذه القسوة لها مكافأة أو إثابة نفسية.. إنها بذلك تصير جزءًا باطنًا فى ذات المجرم ومن جسارته القتالية أو سلطته الراسخة. إن الساديين قد يكونون جنودًا يرون أنهم يقومون بالعمل "البذىء" فى مجتمعهم، وقد يكونون آباء يظنون أن سلوكهم يفْرض النظام داخل بيوتهم. ومهما كانت أدوارهم، فهم يعتبرون قسوتهم عملية ونفعية، بينما يراها الآخرون شرًا لا لزوم له.

قساوة القلب تصبح إرهابًا عندما تصير المعاناة مجزية:

إننى أكرر القول بأن القسوة الناشئة عن غلظة القلب تتضمن إنزال وإحداث المعاناة ابتغاء أهداف أخرى، وهى تتطلب درجة ما من إقصاء الآخر. أى عدم تقدير تجربة الضحية وقيمتها من الناحية الإنسانية. والانتقال من جمود الفؤاد إلى

القسوة السادية؛ يشمل خطوتين أبعد من هذا. الأولى: هى عندما يكون إنزال المعاناة نتيجة لغرض المجرم من الفعل فقط ويصبح فى ذاته وسيلة "مفيدة" لتحقيق أغراضه، وعندما تصبح المعاناة تنفذ آليًا وتلقائيًا بهذا الأسلوب يصل المجرمون إلى الأساس المنطقى للإرهاب ومبادئه؛ وهو إنزال المعاناة ببعض الناس كى يُعاقبوهم ويُهددوهم ويردعوا كل الضحايا، والأهم غالبًا من يشاهدونهم. إن هذا ليس هو السادية بعد، لكن الهدف من أحداث المعاناة أصبح أكثر أهمية بكثير، وهذا هو ما يجعل ظهور السادية أكثر احتمالاً.

وتمثل قسوة الإرهاب إشارة إلى القوة والقصد[٣٢]، فهى تدل على ثلاث رسائل قد تكون حقيقية أو لا تكون. تقول الرسالة الأولى: "إننا أكثر قوة مما تظنون"، بما أننا توافر لدينا الوقت والطاقة كى نملك هذه الوسيلة الغريبة والمشهودة فى الضرر والإيذاء، وتقول الثانية: "نحن نشعر بأننا لا نملك البدائل" ولو اخترنا بالمنطق والعقلانية فعل شيء شرير وخسيس كهذا، فلا بد أن تكون هناك أسباب قوية للغاية لفعله، أما الرسالة الثالثة فتقول: "لن تستطيعوا إقناعنا بأن نتغير" لذا فعليكم أن تتغيروا حتى تتوافقوا مع مطالبنا. إن الإرهابيين يعملون وفق الافتراض أنهم هم وأعداؤهم قادرون على السلوك العقلانى. وعمومًا، فهم ليسوا مرضى نفسيين على الرغم من أن قليلاً من الساديين قد يكونون مريضى نفسيا. وهم ليسوا أيضًا ممن يعانون خللاً عقليًا- وإن كانوا فهم لا يعانونه لفترة طويلة، إذ إن الترتيب والإعداد للجرائم الفظيعة لا يوجد بصورة سلسة مع الضلال و"الهلوسة" وسوء التخيل والوهم.

ويشمل هذا الادعاء بالعقلانية قيمًا ونواحى أخلاقية. ويدرك معظم الإرهابيين هذه القواعد الأخلاقية ويعتمدون بالفعل عليها حتى يتواصلوا مع أعدائهم

ويضمنوا الحصول على المساندة والدعم. إن لغة "القاعدة"، كــي نــضرب مــثلا معاصرا، ليست مثل لغة التقارير العلمية: محايدة القيمة، وبها مصطلحات أخلاقيــة فى أضيق الحدود. إن فعلاً مهمًا منهم قد يقع بشدة فى نطاق الــصواب والخطــأ، والخير والشر، والقوة والاستكانة. وقد ينقلب ويعكس المحور الأخلاقى مقارنة بما كان فى إعــلان الحــرب علــى الإرهــاب التــى نــادى بهــا جــورج بــوش "George W. Bush" وحلفاؤه. ولكن، وكما أشار المعلقون عليها، فالاثنان كصورة تعكسها مرآة بما لا نتوقعه لو كان "كلام" القاعدة غير أخلاقى، وقد يبدو للبعض أن معتقدات الإسلاميين " الراديكاليين" – أو المتطرفين– مضللة ولكن أى انتقاد علــى هذا الأساس لا بد أن يوزع بالعدل والتساوى، ونحن فى الغرب لسنا منزهين عــن أو معصومين من اعتناق الأوهام أو العمل وفق ضلالاتها.

ومن المحتمل أن تكون بعض مطالبات الإسلاميين معقولة تماما (مثل طلــبهم "امتنعوا عن إهانة المسلمين والحط من قدرهم")، إذ لم يطالب بها الإسلاميون فقــط، فهؤلاء جماعات ومؤسسات تقر صراحة، (مثلما ينص الكتاب الإرشادى للقاعدة) أن الحلول السلمية والمشاورات التعاونية لن تفيد ضد "النظم المارقة والمرتــدة" التــى لا تفهم "الحوار إلا بطلقات الرصاص" فقط، وما توصى به من قتل وقــصف بالقنابــل وتدمير، و"دبلوماسية المدفع والبندقية"[٣٤]، وهذه هى سخرية وقوة إقــصاء الآخــر، فرؤية القاعدة للغرب تماثل تماما رؤية الغرب للقاعدة. إننا هنا نــسلم بــصحة أمنيــة روبرت بيرنز "Robert Burns": "أريد أن أمنح القوة التى تجعلنا نرى أنفسنا كما يرانا الآخرون[٣٥]، ولو أمسكنا فى يدنا بمرآة فسوف نرى أعداءنا.. أى نرى أنفسنا كما لــو كنا هم. وسوف تتحطم الصورة فقط عندما يتنازل ويتوقف أحد الجانبين عــن إقــصاء الآخر ويرفض نمطيات الشر الشيطانى التى تبررها القسوة الفظيعة بأننا مختلفون".

الإرهاب يصبح سادية عندما يسعد المجرم بمعاناة غيره:

إن الخطوة التالية التى تتبع بشكل طبيعى استخدام القسوة كنوع من الإرهاب، هى أن تصبح معاناة الضحية نفسها جائزة ومكافأة تُسْعد المجرم وبشكل ما أو لسبب ما يجد المجرم لذة وسرورًا فى عذابات ضحيته التى كانت قبلاً مجرد فائدة له، والتى تعتبر بالنسبة إلى معظمنا شيئًا مؤلمًا ومحزنًا للغاية، ويصبح إحداث هذا العذاب والألم من الأولويات بصرف النظر عن أى أهداف أخرى. فإيذاء الضحايا انتقل لدى المجرم من التأثيرات الجانبية إلى كونه سندًا و"دعامة" مجزية وفى بؤرة اهتمامه.

ويمكن أن يكون الساديون نافعين لمن يفوقهم قوة وللأعلى منهم. إنهم مستعدون لأداء الأعمال التى قد تسبب لأشخاص آخرين توترًا واضطرابًا بعد إيقاع الأذى بالغير؛ مما يزيد من قدرة أى منظمة على إرهاب أعدائها بواسطة عناصر مؤهلة لذلك. وعلى الرغم من هذا فإن تركيز أى منظمة على القسوة يعوق فعاليتها ويُضْعف من التزامها بأهداف أخرى ويُشعر "زملاءها" بالاستياء؛ ولذا فإن إظهار السادية يُعتبر استراتيجية لها مخاطر كبيرة، وقد يتم استحسانها فى ظروف أو وقت ما، أو لو تمت فى السر والخصوصية، لكنها تجلب الغضب والسخط العام من الجماهير والإنكار السريع إذا ما تغيرت الظروف.

وتختلف الحاجة إلى السيطرة والتحكم من فرد إلى آخر، ومثلها مثل التعاطف الوجدانى الذى يقودها ويضبطها. وهذا الاختلاف شىء طبيعى، فلا المهوسون بالتحكم ولا الناس الذين يقل لديهم التعاطف مُقدر لهم آليا وتلقائيا أن يمارسوا حياة فيها العنف والجريمة. وحتى يصبحوا مجرمين ساديين فلا بد لهم أولا: أن يعتادوا على القسوة النابعة من جمود القلب – وليس الاعتياد فقط، ولكن قبول جمود الفؤاد كسلوك له مشروعيته. ثانيا: لا بد أن بيئتهم لا تقدم لهم ردعا

عمليا لسلوكهم السادى، إما لأن من حولهم يميلون لمثل ذلك وإما لأن البيئة شديدة الفوضى لدرجة أن القوانين الأخلاقية لا تفرض عقوبات ولا تدعمها (أو أنهم أنفسهم يعتبرون أن هناك ضعفا قابل للعقوبة، كما يحدث فى مواقف عديدة تؤدى إلى جرائم الحرب). وأخيرا، فإن البيئة يجب - بصفة خاصة - أن تُقرن الأفعال التى تسبب المعاناة بالجزاء- إما من خلال التجربة المباشرة للفرد وإما من خلال ملاحظة أن الآخرين الذين لا يتصرفون بهذا الأسلوب القاسى يكافئون جيدًا.

ومما يبدو أن هؤلاء بالتأكيد يُكافئون على ذلك، والساديون، مثلا، قد يخدعون أنفسهم ويبرزون سلوكهم ولكنهم يفعلون ذلك عن غير إدراك أو معرفة صادقة. والحفاظ على اتباع هذه المعتقدات وإدمانها يكلفهم جهدًا كبيرا ومشقة. إنهم يدركون أن الآخرين من الناس لن يشاركوهم أحكامهم الأخلاقية التى "تحتوها" وصنعوها بدقة وعناية ودهاء، وهم قد شكلوا العالم كما نفعل نحن جميعنا، كى يدافعوا عن تبريراتهم الغالية. وهذا الدفاع المتعمد عن القسوة من كثير من المجرمين الساديين، دعنا من المجهود الذى يشمله التخطيط لها، يوحى بأن المكافأة أو الجزاء " المفرح" لا بد أن يكون شديدًا.

ومع ذلك يجب علينا الحذر هنا، لأن هناك أنواعًا كثيرة من الثواب والعقاب وما يدعو للشك والريبة أنهما قد تختلفان ويقدمان بطرق مختلفة. والخطوة التالية إذن هى أن نفحص بدقة طبيعة البهجة التى تُحفز على القسوة.

مباهج السادية:

أيها الشر، فلتكن أنت الخير الذى أملكه

("جون ميلتون" John Milton، الفردوس المفقود)

تختلف طبيعة الإثابة فيما تجعلنا نشعر به، إن المتعة قصيرة الأجل التي تأتى من مذاق المشروب الذى تفضله تختلف عن دفعه الكوكايين، أو الإثارة عند "الغطس" فى الجو (قبل فتح مظلة النجاة)، أو السرور عند استلام وصول شيك (صك) غير متوقع فى البريد، أو الرضا المفرح فى أحضان الأم. وبعض المكافآت قد تكون غامرة وقوية ولكنها لا تدوم طويلاً، وهذه هى الأمور التى تؤدى إلى الإدمان. وربما يتباطأ غيرها ويمتد ولكنها ليست فرحة طاغية لهذه الدرجة. وبعض منها باطن (فى الأحشاء) والآخر فى المخيخ، وما يؤدى إلى الاختلاف الكبير بين البشر فيما يفضلونه من جزاء ومكافأة هو الاختلافات الجينية وتنوع الخبرات الذاتية والشخصية، فبعض الناس يجد البهجة فى قراءة كتاب أو القيام بعمل شيء خَلاّق، بينما يفضل آخرون أن يكونوا نشطاء، وبعض يُقَدر الطعام والشراب، ويرى بعض آخر قمة متعته فى الصداقة أو الجنس، وبعض قد يستمتع بممارسة القوة والسلطة.

وتختلف الإثابة أيضًا فى المدى الزمنى، فيكون بعضها عاجلاً وفوريًا أو آنيًا لحظيًا، وبعض يُرى بالقدر الذى تُصوب إليه، وبعض لا يُلاحظ تمامًا من الأفراد الذين يؤدون الفعل الذى سيكافئون عليه. والنوع الأخير من الفوائد هو الذى يتبع "النشوء والارتقاء" الذى يستحق المكافأة والذى يؤدى بمرور الوقت إلى "الاصطفاء الطبيعى" بسبب هذا الفعل بالذات. ذلك لأن الناس الذين يتصرفون بهذه الطريقة يميلون إلى ترك نسخ أكثر من جيناتهم، أكثر من الناس الذين لا يفعلون ذلك. إن منطق النشوء والارتقاء يُفَعل ويُمارس سواء استطاع من ينشرون جيناتهم أن "يحسبوها" ويتصوروها. فى ظروف معينة، أو لم يستطيعوا. وكما رأينا من قبل. فإن "الفجوة" المحفزة (لماذا تفعل شيئًا إذا كان لن يجلب لك سرورًا واضحًا) تملؤها جائزة أو مثابة حقيقية مثل الإحساس بالقدرة على التحكم أو الإثارة الجنسية؛

وهذه أحاسيس ممتعة يمكن للبشر الربط بينها وبين أفعال قد يفوتهم تسجيل فائدتها. إن السبب العميق الذى لا يسهل فيمه والذى جعلت به الطبيعة الجنس يوّلد أحاسيس جيدة هو أنه يساعد فى نشر الجينات، لكن من يمارسونه من الناس يفعلون ذلك بغرض ترويحى ولا يفكرون إلا فى أحاسيسهم فقط، وليس فى الجينات. ويقال دائما إن الجينات لا تبالى بنا ولا تعيرنا اهتمامًا وبإمكاننا نحن أيضًا ألا نعيرها أى اهتمام.

إن هذه الجوائز أو المكافأة الجوهرية هى ملذات "بيولوجية" أو حيوية؛ عملة طبيعية عصبية تُمنح عند الميلاد. ويمكن أن تُفعل وتُنشط مباشرة بالجنس أو المخدرات أو النشاط البدنى والرياضى، ولكن كل المثيرات ليست "طبيعية" ولا يلزم أن تكون، كما يبدو فى حالة المخدرات، ومع ذلك فقدرة المخ هى أن يُكوّن ترابطات تسمح لهذه المكافآت الجوهرية والطبيعية بأن تؤثر فى مجالات أبعد من مجالها الأصلى. والمؤثرات أو المنشطات الأخرى - التى قد لا تملك القدرة الذاتية على أن تنتج مكافأة قوية وحقيقية - يمكنها أن ترتبط بهذه الملذات وذلك ببساطة بأن يتزامن حدوثهما معًا.

وعملية "التكيف" هذه أعطى لها هنا مثلاً شهيرًا من إيفان بافلوف "**Ivan Pavlov**" وتجربته على الكلاب والذى عرف منها أن لعاب الكلب يسيل عندما يسمع صوت الجرس، لأن هذا الجرس كان يدق قبل ذلك عندما يكون طعامه متاحًا(٣٦). إن الجرس والضوضاء التى يُحدثها لا يمكن أكلها، لكن الكلاب ربطت بينها وبين "مكافأة " الأكل، وتصرفت فى النهاية كما لو كانت المكافأة ستظهر مع الجرس، حتى إن لم يحدث ذلك.. وبالمثل فإن البشر يمكن أن يتعلموا الربط بين الأفكار والأشياء أو حتى بين الرموز غير المجسمة وبين مشاعر قوية إيجابية أو سلبية. وأفكار المؤمن عن دينه، مثلاً، يحتمل أن يكون لها دخل كبير بالمضمون

والراعى والمربى الذى علّمه الإيمان (الأبوان العطوفان عوضًا عن الإله الرحيم)[٣٧]. والطفلة الصغيرة، بتكييفها ومواءمتها، خصوصًا إذا حدث هذا فى مقتبل العمر، تضمن أنها عندما تفكر فى الله ستعود لها المشاعر التى تعلمتها ممن ربوها فى الصغر، حتى بعد أن يذهب معلموها بزمن طويل؛ وفى هذه الحالة تكون المكافأة الحقيقية هى الإحساس بالانتماء الآمن، وسوف تصبح الإثابة الحقيقية هى التكيف والتأقلم مع مفهومها عن الله والدين.

وهكذا يكون عندنا ثلاثة أنواع من المثابة والمكافأة التى ترتبط بالسادية، أولها: المكافأة وفقًا "للتطور والارتقاء" وفائدتها؛ هى الملاءمة والسلامة الجينية (والتى تنطبق على الجينات وقد تؤثر أو لا تؤثر فى الأفراد). أما المكافأة القوية والحقيقية والجوهرية فهى منظومات للذة الذهنية التى يُنشّطها المخ مباشرة (مثل لذة الجماع). ثم المكافأة بالنيابة والتوكيل؛ وهى مكافأة حقيقية تتكيف حسب مُحفّز ومثير آخر، مثل الأفكار، السلوكيات (أو مثل ذروة اللذة أثناء القتل كما صرح بعض القتلة متكررى الجرائم)[٣٨]. فأى من الثلاثة يمكن أن يُسْهم فى القسوة السادية أو يُمثّلها؟

السادية والاصطفاء :

وكما أسلفنا، فالقسوة النابعة من جمود القلب ضد الأفراد من خارج الجماعة قد تجلب بالفعل الفوائد الأنسب للاصطفاء مباشرة.. وهل تضيف السادية قيمة أبعد من هذا؟ إنها إحدى الوسائل التى تُشتق من العمود الإثنى فى "إطار" داروين الهائل؛ عن نظرية الاصطفاء الجنسى. لقد أطلق دانيل دينيت "Daniel Dennett" مثل هذه النظرية أو" التخمين" عن " طيور العريشة"، وهو نوع من الطيور تبنى

ذكورها أعشاشا باذخة وفى إسراف شديد وتملؤها بأشياء عجيبة حتى تجذب الإناث[٣٩] لماذا؟ لأنه عندما يستثمر نوع من الكائنات كثيرًا فى واجباته للأسرة؛ فهذا يعنى للأفراد من هذا النوع أن يختاروا أزواجهم بعناية وأن يستغنوا عن "الخاسرين" منهم. وهذا بدوره يضع ضغوطًا على الجنس الآخر كى يُحَسن من سماته وسلوكياته التى يراها شركاؤهم المدققون جاذبة.

ومن ثم؛ فإن العروض المبهرة والفاخرة للزواج التى يُقدمها ذكور كثيرون من هذه الطيور ليؤكدوا سلامتهم وصحتهم الجسمانية أو الموارد و"الثروة" التى فى حوزتهم؛ تكون غالبًا فيها مخاطرة كبيرة على سلامتهم. وأى شخص فى رحلة ما لو صادف طائرًا ذكرًا أسود؛ فعند رؤية هذا المنافس سوف يدرك الخطر والمجازفة أو الهلاك الذى تجلبه بداية موسم التزاوج بين الطيور، إذ يبدو أن الإناث يبحثن عن دليل وبرهان على القوة وسلامة الصحة والتناسق الجسمانى الذى يدل على سلامة الجينات، علاوة على علامات "الموارد" الجيدة والسلوكيات المتوقعة من الطائر كأب. ومن يتوافر لديه كل هذه الشروط من الذكور قد لا يلاقى أى جائزة أو مكافأة. لقد رأيت منذ فترة وجيزة ذكر حمام يناضل كى يرفع غصن شجرة كبيرًا وثقيلاً إلى عش حبيبته ("انظرى! أنا صانع عش")، أما هى فطارت بعيدًا وتركته وهو منكسر الخاطر وحزين وتركت غصنه وكل ما عنده (بما أنها كانت تنتظر من لديه عريشة أفضل)؛ لكن الذكور ذوى اللمسات المميزة والمفضلة لا يحتاجون إلا أن يُكافئوا بقدر أكبر من منافسيهم حتى يستمر التطور والارتقاء (حسب البقاء للأنسب).

وما القدر الذى ترفع به قسوة السلوك فرص الرجال فى سباق الجنس أو الاقتراع عليه؟ إن "الاصطفاء الجنسى" يعطينا افتراضين، الأول: إن القسوة قد تؤثر فى، أو تبهر، الإناث وتجعلها تتزاوج تفضيليًا من ذكر من الواضح أنه

شرير، وهذا يعنى أنه فى حالة السلوك القاسى قد تزكيه الأنثى بدافع أنها تستفيد لو فضلت القوى الذى يحميها، "وماذا يعنينا من إرهاب المنافسين"[٤٠].

لكن تعذيب "الخُطّاب" المحتملين بلا مبرر من المتوقع أن يُخيف الأنثى. وهذا يعتمد أيضًا على مشاعرها، ويأخذنا ذلك إلى نقطة مُلحّة لأن الاختيار البسيط بناء على الجنس لا يفسر من الأنثى بالقسوة النشطة. وقد نتقبل أن الأنثى توافق على مظاهر السادية، لكن لماذا تشارك الإناث فيها؟ فقد وجد فى ثقافات عديدة أن هناك نساء يرتكبن جرائم قتل، فهناك أختان من المكسيك قتلتا ما يزيد على تسعين فردًا، وقد شاركت نساء فى تفجيرات انتحارية، وتوجد حارسات ساديات فى السجون، وهناك من يسيئون جنسيًا للأطفال. لكن المرأة كانت على مدى التاريخ أقل عددًا من الرجال فى أفعال القسوة السادية البدنية (فأكثرهن متخصصات فى الإيذاء باللفظ، اجتماعيًا أو عاطفيًا). وما لا نستطيع إيضاحه هو: ما نوع وعدد الجرائم التى تُعزى إلى أسباب اجتماعية أو إلى سبب الاختلاف فى النوع (ذكر وأنثى) أو إلى الاختلاف فى الثقافات، إذ إن بعض الثقافات يكره القسوة الجسمانية من النساء ويعاقبهن عليها بعقوبات أكبر من عقوبات الرجا[٤٢]. لكن ما يتضح لنا هو أن النساء من الممكن أن يستمتعن بأعمال القسوة.

والافتراض الثانى: هو أن القسوة من الذكور قد تُبهر وتؤثر فى الآخرين بوسائل أخرى غير المهارة فى "إعداد العش"، كما هى الحال عند الطيور. إن السادية هنا هى الشىء الذى له وزنه، لأنها أسلوب فى إظهار القوة المتناهية: "إننى لست قادرًا فقط على قتل منافسى وعدوى، لكننى قوى وفى مأمن وأستطيع أن أسلخ جلده أو أنتزع أظافره".. "هاجمنى إن كانت لديك الشجاعة وعرض نفسك لذات المصير". إن استعراض القوة السادية يبعث برسالة لمن يتحدى هذا الشخص بأنه لا يعلم مصيره ولا يمكن أن يتنبأ به، وحتى لو كان قويا؛ فإن أى هجوم منه

سيقابله عنف شديد لا يتناسب مع قوته: "إنك ستواجه خطرًا داهما للغاية"، لكن المهاجم لن تردعه موانع أخلاقية قد تضع حدًا للأذى أو الموت.

وإذا كان هذا الافتراض صحيحا، فعلينا أن نتوقع رؤية السادية تظهر في حالات معينة، تلك التى تسود وتشيع فيها القوة والتحكم الذكورى، ونتوقع فيها غلظة القلب(٤٣). وهى التى ينشأ عنها القتل المتكرر والمتوالى، والقتل الجماعى، أو القتل فى مواقف يحكمها المرح الصاخب، وكلها تتناسب مع هذا النمط من التنافس بين الذكور، وخصوصًا إذا كان الاعتداء يتم بوعى ويهدف إلى التفوق على المنافسين لتحقيق الشهرة(٤٤)، أما التصعيد فى التفجيرات الانتحارية عندما يتنافس الإرهابيون من أجل السلطة فى فلسطين! فهذا مثال آخر(٤٥). و"للاصطفاء الجنسى" معنى فى هذا المضمون، إنه ليس "اصطفاءً" أو اختيارًا للسادية بقدر ما هو عرض للقدرة على التقسيم إلى فئات: فئة تعذب بعض الناس فقط لحماية ونفع الآخرين. إنهم الذكور القادرون على رعاية جماعاتهم والإناث الضعاف منها فى رقة وحنان بينما يستطيعون تدمير من هم خارج الجماعة بوحشية.

هل يُحْدث الألم شعورًا طيبًا؟

وماذا عن الاختيار الثانى: "المكافأة" من داخل الجسم؟ هل ملاحظة أو تجربة الألم من الممكن أن تُنَشط أجهزة المخ المعنية بإحداث السرور والبهجة مباشرة؟ من هذا المنطلق يمكن لبعض الأفعال السادية أن يمارسها المجرمون الذين يستعذبون إيلام الآخرين "الماسوشيين". وأنا أظن أن هذا ليست هى الحال عمومًا، فالصفة المناقضة للألم عميقة ومن الصعب اكتشاف الآليات التى يُمكنها أن "تقلب"

الألم وتحوله إلى بهجة وسرور. إن الأكثر احتمالا أن هناك "مكافأة" من داخل الجسم ترتبط وتتوحد مع إنزال الألم أو تجربته (مثل الإثارة الجنسية أو الانفعال الاهتياجى)، لأن الألم والإثارة يحدثان فى الوقت نفسه؛ وهذا هو ما يجعل السادية و"الماسوشية" ممتعة، وليس الألم نفسه[٤٦]. إن المجرمين ومن يُعذبون غيرهم قد يستمتعون بألم ضحاياهم، ولكن لا يوجد دليل على أنهم يستعذبون الألم الخاص الذى يعانونه هم، وما يقرره المجرمون ويُفصحون عنه هو أنهم يميلون إلى أن يكتموا ويكبتوا ردود فعلهم المتعاطفة مع الضحية بدلاً من أن يزيدوها. وقد أثبت البحث العلمى أن كثيرًا من المجرمين الذين يتسمون بالعنف تنقصهم المشاركة العاطفية والوجدانية اللازمة للإحساس بحزن ومعاناة الضحية باعتبارها شيئًا مؤلمًا، مع أن بعض المرضى النفسيين يُدركون ويستخدمون "نظرية" العقل[٤٧].

القسوة والتحكم :

إن جوهر السادية، والشائع فى كل مظاهرها، هو التحكم غير المحدود والتام فى كائن حى..

(من كتاب "إريك فروم" Erich Fromm تركيبة هلاك البشر)

وهنا يأتى الاختيار الثالث: المكافأة بالتوكيل (المعدلة). ربما تكون القسوة الناشئة عن جمود القلب مثل: الرغبة فى تعاطى السكر، إنها استراتيجية ممتازة للنجاة واستمرار الحياة عرفها أسلافنا. ولكنها أصبحت إشكالية فى العصر الحديث. فإذا كان جمود القلب، مثل أكل الفواكه المسكرة، يمدنا بما يحفظ حياتنا وينجينا

(منافسون أقل وطاقة أكثر على التوالى) لكان البشر قادرين على "تطوير" ما يعادل حبهم للسكر - بأى إحساس يكافئهم على جمود القلب. وما يساوى هذا هو إحساس الإنسان الواضح بالقدرة على التحكم فى بيئته- بما فيها البيئة الاجتماعية. ومثل النزعة للسخرية من الأشياء "الحلوة"، يختلف الاحتياج للتحكم طبقا للشخصية، النوع، السن، الثقافة. ويتخذ ذلك أشكالا عديدة ومختلفة، والعائد والمكافأة من ورائه يمكن أن تكون حادة، وربما تدعو للإدمان[٤٨].

إن الحاجة للتحكم ليست المكافأة "الداخلية" الوحيدة التى تقترن بمعاناة الضحية. فالإثارة الجنسية قد تتغير وتصبح علامة أو إشارة إلى الأسى والضيق وتربط بين الجنس والعنف الجسمانى. والقسوة التى تشمل المجهود البدنى، مثل ضرب الضحية أو الجرى وراءها، يمكن أن تُحدث المتعة التى تقترن بحركة الجسد والإثارة التى تقترن بالفعل المُجْهد[٤٩]. ويزيد من الإحساس بالتحكم أيضا الشعور بأن الفعل منسجم مع آخرين ممن لهم العقلية والتفكير نفسيهما. والحركات المناظرة تنشط جهازنا الحركى وتقوى الإحساس بامتلاك قوة الفعل، ويزيد هذا من "التماسك" الجماعى بإعلاء المشاركة الحركية. وهرمون "الأندورفين" والأدرينالين" الذين نرى أنهما مسئولان عن هذه الأحاسيس لا يملكان الحكم الأخلاقى؛ فهما يشعراننا بالرضا مهما كان معنى الأفعال التى نقوم بها. وعلاوة على ذلك: فإن حزن ومعاناة الضحية قد يُفسران على أنه استسلام يبعث على السرور خصوصا فى حالة ضعف المشاركة الوجدانية أو غيابها، مما يُرضى احتياج المجرم ورغبته فى التحكم، مثلما تعطيه معاناة الضحية إحساسا بالتفوق.

وقد يجلب السلوك القاسى مكافأة اجتماعية أيضا، فالرغبة فى إرضاء أعضاء الجماعة، خصوصا من هم أقوى منا، من المفهوم أنها رغبة قوية تُسهم بشدة فى شرور البشر أكثر من السادية. والالتزام بما تريده الجماعة قد يتيح

الفرصة لظهور السادية. وعندما تحَرض مجموعة من الأطفال مع بعضهم على تعذيب كلب صغير؛ يكون دافع الجماعة قويا والعقاب مؤلم لمن لا يريد أن يشارك. ومما لا شك فيه أن صياح المواطنين فى "كوفنو"، الذين ضحكوا وصفقوا عندما قتل اليهود أمامهم، قد أعطى النتيجة والتأثير نفسيهما.

والعواطف الإيجابية القوية، خصوصًا فى المواقف التى تمثل ضغطًا نفسيًا وتوترًا شديدًا، يمكن أن تكون مجزية جدًا للمجرمين. أما المزاح والفكاهة التى نعدها من العناصر الإنسانية المُميزة جدًا؛ فهى أيضا إحدى المكافآت الشائعة للقسوة. فالضحك أحد الروابط الاجتماعية المؤثرة، والذى يوحد المجرمين مع من يضحكون معهم، بينما "يحجز" الضحية التى تعانى بالفعل.. وهو أيضا علامة أخرى على القوة. ففى الأفلام، مثلاً، نحن نُعجب، ويُقصد لنا أن نعجب، بالشرير الذى عنده طلاقة وبراعة على الرغم من معرفتنا بجرائمه وشره.

وما يتبادر إلى ذهننا عندما نفكر فى السادية هو الجنس والدوافع، إلا أن الحب والحاجة للانتماء يمكن أيضًا أن يؤججا قسوة فظيعة، إما من أفراد قد أوذوا وإما عانوا من عدم الحب، وإما من أفراد من الجماعة يريدون الحصول على حب مستمر. ومن حيث المبدأ، فإن أى مكافأة من داخل الفرد قد تصبح سببًا فى اتخاذ القسوة سبيلاً، حتى درجة الإدمان. وإذا ظلت القسوة غير مألوفة نسبيًا، فإن ذلك مرجعه إلى الآليات الشائعة والمتطورة فى كل ثقافة كى تحد من الضرر وتنظم الجزاء، ومع ذلك فالقسوة غالبا ما تخرج عن نطاق هذه الحدود؛ مثلما يتغلب قانون الأخلاق الأساسية على الوضعية منها. وفى حالة "المكافأة" التى تصدر من الداخل تكون المخاطرة دائمًا بأن المجرم يعتز بها أكثر من اعتزازه بالدوافع التى أوجدت القسوة أصلاً. وفى الواقع العملى تكون الحدود بين القسوة والسادية غير ثابتة أو قاطعة، حسب الدوافع التى يمكن أن تكون "مائعة" وغامضة. ومن يُصبح ساديا

عادة من يكون لديه استعداد مسبق لذلك، مثل خلل مُستدل عليه فى المخ، وهذا بالفعل يُعتبر من بدايات أو "أعتاب" احتمال الدخول فى السلوك القاسى[٥٠].

والمواقف التى تنشأ عنها السادية، مثل الحرب، توجد السادية بسبب الجزاء الذى يناله الجندى ولأنها تقلل من العوامل المثبطة والكابحة للسادية. وما يجعل القسوة مسموحا بها هو القدوة، وما يجعلها مشروعة هو إقصاء الآخر، وما يجعلها روتينية هو التكرار. وتوجد العوامل التى تبنيها وتسمح بها فى كل حرب كما توجد فى عنف العصابات، وفى الثورات، وفى "سيناريوهات" أخرى كثيرة. وأحد عواقب ذلك أننا من الممكن أن نتوقع فظائع سادية حتى فى الحروب التى يحارب فيها جنودنا على الرغم من أن هؤلاء الجنود قد تم تدريبهم جيدًا على حقوق الإنسان.

وبالطبع؛ فإن الفظائع التى تبدو سادية للغاية قد يدفعها بالفعل دوافع أخرى أيضا، خاصة عندما تشمل ذلك التهديدات الرمزية ويتم "تعديلها"؛ حيث يمكن لـ "الرموز" أن تملك القوة التى تكافئ أو تعاقب. إن الصراخ، ونزيف الدم، والسلوك الذى يعكس الخوف، هى مثيرات وبواعث للمعاناة والألم عند الضحية ويمكن أن تصبح مصدرًا للاستمتاع إذا اقترنت بمكافأة من داخل الإنسان، وقد يحدث ذلك من الأشياء أو الصور أو الأفكار أيضا. فالسكين فى المطبخ شيء مفيد عند "تقطيع" البصل إلى شرائح، ولكن لو نظرنا إليها وفسرناها على أنها سلاح فسوف نُحمّلها عبئًا عاطفيا أكبر بكثير (من كونها آلة). والآلة نفسها، أو الشيء نفسه، عندما ترفعها اليد نفسها، يمكنها أن تمنحنا مشاعر للتحكم مختلفة تمامًا.

إن الحاجة إلى السيطرة والتحكم لازمة كأحد الدوافع الشائعة للسلوك القاسى– أى النزعة إلى التجاوز والمخالفة. ويشمل التجاوز انتهاك وكسر القواعد الأخلاقية التى لم تستقر بعد داخليا لدى من يتجاوز ويخالف (وهم غالبًا ناضجون،

أو معزولون اجتماعيًا، أو كلاهما). إن القوة الرمزية للقوانين، مثلها في ذلك مثل القواعد المهمة أو حتى المقدسة، مُعترف بها ومدركة، لكن القواعد نفسها يُنظر إليها على أنها كان قد وضعها شخص آخر، فهي "مفروضة" وتثير الغيظ والاستياء؛ فهي تقلل من قدرهم وقيمتهم. وكسر القواعد التي وضعها "آخرون" والتي تقلل وتحط من قوة الفرد؛ تجعل المخالف ينظر إلى نفسه على أنه أكثر قوة، وهو يشعر بذلك فعلاً، وذلك ما يعطي المخالف ومن يكسر القواعد نوعًا من الإثارة، ويجعل المخالفة مثيرة(٥١).

ولنفكر في الوصف التالي لتأثير القسوة، كانت الضحية رجلاً مسنًا لا حول له ولا قوة ضد مجموعة من المهاجمين. إنه شخص مدني، مواطن، أب، ومحترم اجتماعيًا وعضو من أقلية مُعرضه للأذى. وربما نعتقد أنه يستحق الاحترام أو التسامح على الأقل. إن هذا تقرير ابنة عما حدث له:

> **لمحت شيئًا معلقًا بالباب يشبه حدوة حصان. مشيت إلى الباب وفتحته فرأيت حدوتي حصان مثبتتين بمسامير على قدمين مغطاتين بالدماء. ثم نظرت إلى ركبتي الشخص وكانتا منفصلتين. وعندما نظرت إلى أعضائه التناسلية رأيت كتلة من الدماء فوقها تمزقات تصل حتى الصدر. وكانت اليدان قد دُقتا بمسامير على لوح خشبي فيما يشبه الصليب. أما الكتفان فكانتا نظيفتين ولونهما أبيض واضح. وكان على حافة الحلق بقايا لحية هي آخر "بوصة" من الجسد.**

ولم يكن هناك شيء آخر على الصليب. وقد تركوا الرأس بجوار الدرج المؤدى للمنزل وعلى حافة الطريق. وأدركت أنه أبى.

وبعد ذلك بعقود لم يُستدل فيها على المجرمين، لم نعرف أبدًا ماذا كانت الدوافع وراء هذه الفظاعة والوحشية. إلا أننا ربما نستطيع أن نرى تفسيرًا قد يكون ممكنًا، إن هذه القسوة على الرغم من أنها شريرة وكريهة؛ فإنها لا تستعصى على الفهم. إن القتيل من الأرمن فى أحداث عام ١٩١٥، والمجرمين من الأتراك الوطنيين الذين رغبوا فى تطهير بلدهم من الأقليات؛ ومن ضمنهم الأرمن المسيحيون الذين كانوا "ملحوظين" بصفة خاصة. وكان الضحايا معرضين للإقصاء بشدة ويُشار إليهم فى مجالات الدعاية من الشباب بأنهم تهديد تقليدى بالتقزز ويشكلون خطرًا على دعائم الأمة وسلامتها. إننا نشهد هنا نمطًا من القسوة، كدليل وشاهد على "تشكيل الواقع"، قُصد به تحويل ضحية متحضرة ومحترمة إلى شيء مثير للاشمئزاز جسمانيًا. وقد تحولت ملامحه الواضحة إلى شيء مُحيت هويته.

أما بالنسبة إلى الجانب الرمزى، فقد تعرض هذا الأرمنى الضحية إلى محاكاة تهكمية للصلب. وكانت أعضاؤه التناسلية، مصدر قوته الذكورية والتناسلية، قد تحولت إلى ما لا يمكن تعريف هويته. إن هذا هو التعدى والتجاوز فى أقصى درجاته وحشية وفُحشًا[٥٣]. وما لا نستطيع معرفته، دون أن نعرف كيف كان يفكر المجرمون فى هذه اللحظة، هو هل كانت قسوتهم جمودًا فى القلب أم سادية.. هل كانت رغبتهم هى "تحويل" ضحية تتحداهم، أو مجرد نشوة وابتهاج بالقوة المفترسة وبالدم والألم؟ ربما كانت قسوتهم مزيجًا من الاثنين. وهل الأمر مهم؟ إن رد فعلنا يختلف حسب تفسيرنا لدوافع المجرمين. لكن هل يلزم معرفة هذا؟ إن غلظة القلب يمكن أن تكون مروعة ومرعبة للضحية.

ملخص وخاتمة:

لقد طور البشر القوانين والقيم الأخلاقية والتحكم فى النفس حتى يسيطروا على العدوان المتناهى الذى يؤدى إلى غلظة القلب، ولكن فى مواجهة من يعتبرونهم بشرًا فقط ومن يشبهونهم ومن ثم يُحتمل أن يكونوا أقرباء. إن جمود القلب الموجه ضد من هم خارج الجماعة (الغرباء) قد يجلب فوائد ممتدة لنجاة الجماعة أو مكافأة مباشرة وسريعة: أرض جديدة، موارد غذائية، أو رفقاء ومعاونون. ولقد دعّم ذلك السلوك القاسى وزاد من التمييز والتفرقة بين "نحن" و"هم"، مما طور آليات إقصاء الآخر فى كل مكان فى هذا الزمن. إن القسوة إهدار للطاقة. لكن عندما يكون الخصم المناوئ أقل فى القوة من المهاجمين فلن يهم، لكن تأثير العائق أو المانع من القتال؛ قد يفوق تكلفة القتال نفسه؛ لأن الفريق المعادى سوف يراجع حساباته وآراءه عن قدرة المهاجم الفائقة ويحاول الاعتداء من جانبه.

والجانب السلبى من هذا السلوك مألوف فى العالم الحديث. فمن نجوا من القسوة النابعة من جمود القلب غالبًا ما يلجأون إلى إجراءات متجاوزة على سبيل الانتقام، أو حماية النفس، أو لأنهم يعتبرون قسوة مهاجميهم دليلاً على وضعهم المتدنى إنسانيا. والدائرة المفرغة الناشئة عن ذلك هى التى يُولد الهجوم الوحشى فيها هجومًا من الجانب الآخر، وتثير الجرائم الفظيعة فظائع أخرى، بدلاً من الاستسلام، فيمكن لها أن تخلق بيئة مثالية لازدهار السادية.

إن السادية تتجذر وتستقر عندما تكون الإشارات التى يجب أن تُنهى وتمنع العدوان فى الأوضاع الطبيعية، مثل: الدموع والخضوع وعلامات الضعف والإذلال، قابلة لأن تتوحد مع شكل من "المكافأة"؛ تحفز الفرد على اتباع سلوكيات

تزيد من آلام الآخرين ومعاناتهم. إن الإحساس بالكسب والمكافأة يمكن أن يكـــون من القوة حيث يصبح إدمانا. ومثل حالات الإدمان الأخرى تنطلــق الـــسادية مـــن بيئات معينة. وكما يهجر مدمنو المخدرات الظروف والأماكن التي تُذكرهم بتعاطى المخدر، فالسلوك السادى فى الحرب قد لا يحدث خارج هذه المواقف، وقد عـــاش كثير من المجرمين حياة المواطنين الصالحين بعد الحرب التي ارتكبــوا الفظـــائع فيها.

ويذكرنا هذا التأكيد على تأثير "الموقف" بتجربة عالم النفس فيليب زيمباردو "**Philip Zimbardo**" في سجن "ستانفورد" التي حولت شبابًا من الأصحاء نفسيًا إلى حراس ساديين خلال أيام قليلة. وقد فسر "زيمباردو" هذا البحث الشهير بأنه أظهـــر أن فعل الشر إغراء نتعرض نحن جميعًا له فى الظروف المناسبة: "نحن يمكننا أن نتعلم أن نصبح طيبين أو أشرارًا بصرف النظـــر عـــن ميراثنـــا مـــن الجينـــات، أو شخصيتنا أو تراثنا العائلي"(٥٤). وعلى الرغم من ذلك فقد لاحظ الباحث الفروق الفردية فى سلوك هؤلاء الحراس، فلم يكونوا جميعهم ساديين؛ فالناس قد يقـــاومون الإغراء بأن يصيروا قساة. وقليل منهم يظهرون شجاعة فرديـــة مثـــل ديتـــريش بونهوفر "**Dietrich Bonhoffer**" رجل الدين "اللوثرى" الذى انتقد عـــداء النـــازى للسامية (وشنقه النازى عام ١٩٤٥). كما أن هناك ألمانا حاولوا تجنب التوافق مـــع النظام، سواء بأن يُجّهلوا هُوية الأطفال اليهود عن عمد، أو بتهريب تقـــارير عـــن الجرائم الفظيعة التى ارتكبت، أو بالهجرة أو بعدم المشاركة فى اضـــطهاد اليهـــود أو التبليغ عنهم.

وقد كانت هناك اختلافات وفروق فى رجال الجيش النازى من الصفوة، فمن كانوا يُرسلون إلى الجبهة الشرقية كانوا يواجهون أحيانا بمواقـــف فيهـــا ضـــغوط وتوترات شديدة، ودون إنذار (فقد أُمروا من رؤسائهم أن يقتلوا اليهود)، وكانت لهم

ردود فعل مختلفة. جاء بعضهم ليستمتعوا بالقتل، مع أن أكثرهم رأوها كطقوس بشعة وشائنة تحملوها بتعاطى الكحوليات / أو / وبسند من الأيديولوجيات. وبعض كرهوها وأنكروها لدرجة أنهم رفضوا المشاركة وتم نقلهم لأداء واجبات أخرى(٥٥).

ولا يمكن إطلاقا وصف جريمة فظيعة واحدة وصفا كاملا فى شكل علمى وبالنظريات المتاحة حاليا. إننا ببساطة لا نملك المعلومات، لكن ذلك لا يعنى أن هذه الوحشية كظاهرة تدرس مثل غيرها، فهى لا يمكن الهروب منها أو إغفالها. إننا يمكننا التعرف على السمات العامة والآليات القوية، مثل: "تشكيل العالم"، ورد الفعل على التهديد بالتقزز والاشمئزاز، وعمليات إقصاء الآخر، وكلها تؤدى إلى السلوك القاسى. ونستطيع أيضا أن نبدأ فى معرفة أن شرور البشر حتى فى أكثر مظاهرها بشاعة: ليست مستعصية على الفهم، إنها إنذار لأنها تجلب القدرة على القسوة إلى ديارنا وحياتنا.

وفهم القسوة هو الوسيلة الوحيدة القابلة للتطبيق على المدى الطويل للتعامل مع القسوة، ويكون نقص الفهم غالبًا عاملاً مساعدًا ومهمًا فى إقصاء الآخر، فإنه يُفرّق بين الجماعات ويشعل الدوافع التى تحفز على التصرف بوحشية، ولو تعرفنا على هذه الإشارات التحذيرية وعلى أنماط السلوك القاسى، ولو اعترفنا بقابليتنا واستعدادنا لارتكابها، فإن ذلك قد يساعدنا فى أن نحدد المعتقدات والدوافع الاجتماعية التى يمكن أن تجعل القسوة أقل احتمالاً فى الحدوث. غير أننا لن نستطيع أبدًا أن نحدّ منها إلا إذا استطعنا أن نرى القسوة على أنها ليست شرًا تم إقصاؤه عنا وتجاوزه، لكنها شيء كريه وبغيض أخلاقيا. وقد يكون الأمر أقل إيلامًا لو فهمنا أن كوننا قساة هو جزء من كوننا بشرا.

الفصل التاسع

هل بإمكاننا أن نتوقف عن القسوة؟

إننا لم نصبح مجرمين فقط، بل لقد صرنا نوعا من المخلوقات شديدة الخطورة فى عالم بربرى. وهذه الحقيقة لا يصدقها من لم يعشها "بعضلاته". لقد كانت حياتنا اليومية غير طبيعية ودموية، وهذا ما كان يناسبنا.

("بيو موتونجيريه **Pio.Mutungirehe** من مجرمى الإبادة الجماعية فى "رواندا")
وتم اقتباسها من كتاب "جين هاتزفيلد" **Jean Hatzfeld** عصر المدية والمنجل)

علم القسوة:

لقد قلت إن تطبيق اكتشافات الأبحاث والعلوم عن المخ على الدراسات عن القسوة شيء مفيد وممكن، ويتيح لنا علم دراسة الجهاز العصبى التفكير فى "مكونات" وعناصر القسوة، كالمعتقدات والعواطف والأفعال وآلياتها (مثل إقصاء الغير والاستجابة للتهديدات ورد الفعل تجاهها). وسوف يفسر ذلك ويحدد أفكارنا عن هذه العناصر والآليات فهمنا عن كيفية عمل المخ. إن بإمكاننا أن نربط بين السلوك القاسي وبين الأطر النظرية الراسخة والمؤكدة مثل نظرية "النشوء

والارتقاء" والنماذج التى يطرحها علم دراسة الجهاز العصبى عن معرفة تشابكات الأعصاب. كما يمكننا أيضا أن نقرن المعرفة المتاحة بمناهج من مجالات وتخصصات متباينة ومختلفة مثل: تشريح الأعصاب، وعلم النفس التطورى، والمعرفة والإدراك فى الجهاز العصبى، وعلم النفس الاجتماعى، وكلها يمكن الجمع بينها فى أمثلة حقيقية على المجالات والتخصصات العلمية المتداخلة. وسوف يزيد ذلك من فهمنا لواحدة من أكثر المشكلات الإنسانية صعوبة، إذا ما ساعدنا هذا فى تعريف أسباب القسوة.

ولقد كشفنا فى الفصول الرابع والخامس والسادس عن رؤية وبحوث عن مهام المخ وعمله، والتى ألقت ضوءا جديدًا عن كيفية وصول البشر إلى الفعل القاسى. إن هذه الرؤية ما زالت ترى أن الناس يتصرفون ويقومون بالفعل لأسباب تبدو جيدة من وجهة نظرهم، لكن النظرة التى تشبه "الحاسب الآلى" للعقلانية على أنها شىء منطقى، فاقد الحس والعاطفة، وتمتلك معلومات لازمة وواضحة تماما؛ قد حل محلها صورة أخرى مختلفة عن "العقلانية". إنها تتسم بالتحيز والحدس البديهى والجهل والعاطفة والتسرع. فاختياراتنا يتدخل فيها ويُنَحيها المزايا والمكاسب الوقتية قصيرة المدى والرغبات العاجلة والمباشرة، والضغوط الناشئة عن الموقف، والميل إلى نسيان أو تجاهل أن حياة الآخرين وتجاربهم قد تكون فى ثراء تجاربنا وحياتنا نفسها، وكذلك قدرتنا المحدودة على تدبر نتائج وعواقب أفعالنا.

وليس معنى ذلك أن التفكير المنطقى يدل حتما على أو يقتضى حالة من القواعد الأخلاقية الرفيعة. فالأمر مخالف لذلك تماما، إن من يتخذون القرار، الآمنين المرفهين والمنعمين بسعة من الوقت فى مكاتبهم، والذين تُوَدى اختياراتهم إلى قسوة الآخرين، قد يستطيعون التعامل المنطقى مع مشكلاتهم، لكن الاتصاف بالمنطقية تجاه الآخرين من البشر ينسجم ويتسق تماما مع القسوة وجمود القلب

تجاه أناس معينين غيرهم، خصوصًا الجموع الكبيرة من الناس. وإذا كـان تـاريخ القرن العشرين قد علمنا شيئًا، فهو أن العقلانية والرحمة لا يرتبطان دائمًا. مع أننا قد نرغب كثيرًا فى أن يرتبطا. إن الخطأ والخلل غير المنطقى فى مخ المجرم هو الذى يسمح له بأن يتوقف فجأة عن الفعل القاسى بسبب المـشاركة الوجدانيـة أو "التعاطف" المفاجئ.

إلا أن الخطأ أو الخلل نفسه يتركنا جميعًا عرضة لأن نكون قساة فى بعض الأحيان، كما أن الأسلوب الذى تعمل به عقولنا يعنى أن العامل المـؤثر – حتـى التأثير الفظيع لمعاناة البشر – يمكن أن يكون له تأثير متدن علينا فقط؛ لأنه يحـدث تكرارًا مرة بعد مرة.

وبالمثل، فالأفعال المتكررة خصوصًا تلك التى تهدف إلـى التخفيـف مـن العواطف السلبية الشديدة؛ تصبح أسهل فى الفعل وأصعب فى عدم الفعل. أما ردود الفعل العنيفة فيمكن أن تصير متأصلة و"مغروسة" فى النفس؛ ذلك لأن مجرد تخيل فعل أو سلوك قاس ينشط الأنماط العصبية التى تشمل الفعل القاسى، ومجرد التفكير فى / أو الحديث عن القسوة يمكن أن يجعلها محتملة الحدوث، لو كانت مجزية. أما إذا عوقبت فبالطبع لن تكون محتملة الحدوث، ولكن لو وافقت البيئـة (الماديـة أو الاجتماعية) على فعل إقصاء الآخر؛ فإن التعرض المتكرر لحـوافز الإقـصاء – حتى إن لم يؤد إلى سلوك قاس فى حينه – قد يدعم ويقوى الأنماط المرتبطـة بهـا (بالقسوة). وهذا يجعل المؤثر أكثر احتمالاً لأن يُطلق عنفًا مدمرًا مستقبلاً كرد فعل على عامل إثارة قد يبدو تافهًا وغير مؤثر.

وقد عرفنا أيضا فى الفصل السادس أن دور المعتقدات القوية بالنـسبة إلـى القسوة له دخل كبير بـ "تركيبة" وبنية العقول، فإن الأنماط الذهنية التـى تـسبب

وتُكّون بعض المعتقدات يمكن أن تصبح قوية بدرجة تجعلها تفلت وتهرب من تأثير وسيطرة الواقع غير الملائم لها؛ عندما تدُعمها وتساندها صلة أو ارتباط بأنماط عصبية أخرى و/ أو بمدخلات أخرى (حسية) من الجسم. فيبدو أى دليل وأى برهان أو حجة عقلانية لا لزوم لها وتكون هذه العقائد ذاتها مؤكدة بشدة ويكون ما يدعم وجودها من أشياء أكثر صدقًا وواقعية من الواقع نفسه. ولو تم نبذ أو رفض مثل هذه المعتقدات على أنها مُضلِلة أو زائفة، فإن التحدى المباشر لها، أو تزكية معتقدات أخرى مخالفة لها ومتصارعة معها قد يكون مُرْضيا لمن يتحداها، لكنه ربما يُقّوى المعتقدات ذاتها بدلاً من أن يُنْهيها، خصوصًا إذا كان من يتحداها ممن يعتبرهم صاحب المعتقدات عدوًا بالفعل؛ ولذلك فإن انتقاد المعتقدات القوية قد يُعْطى نتائج عكسية إذا تم تحفيزها وإثارتها بالبحث عن تبريرات، أو باللجوء إلى المسار اللولبى الشرير لعزل وإقصاء الآخر.

وكما هى الحال فى أى نمط عصبى آخر، فإن الأنماط التى تؤسس للمعتقدات القوية تقوم دائمًا بتعديل وتنظيم تشابكاتها العصبية لتعكس مستويات نشاطها. وتقتضى هذه العملية التوازن بين عاملين: الموقف الراهن والتاريخ المتراكم للنمط العصبى. وكلما كان هذا النمط قوياً كان "وزن" تاريخه كبيرًا فى "الميزان"، وفى عالم ما قبل الرموز، ربما كان وزن التاريخ يأتى من التكرار الطويل للنمط أو الصدمة المفاجئة من تهديد خطير. وفى كلا الحالتين؛ فإن الوثوق بالتجربة والخبرة السابقة تكون نتيجته البقاء، ومع ذلك فمن الممكن فى هذا العصر أن تتكون وتبقى المعتقدات القوية دون الحاجة إلى خبرة أو تجربة سابقة طويلة أو تهديد حقيقى.. إنها يمكن أن تصبح بالفعل من القوة، حيث تمتص التناقض دون التنازل عن العقيدة أو المبدأ. وعندما يُواجه صاحب العقيدة القوية بمدخلات قد تجعل غيره ممن هم أقل التزاما بعقائدهم "يُعَدِلون" من أفكارهم أو يتركونها، فإنه يرى من الأسهل أن يترك أو يُعَدِل العالم الذى أوجد هذه المدخلات المزعجة ودفع

بها إليه. إن "تشكيل" العالم الواقعى وفق ما نرى ونرغب قد يؤدى إلى قسوة بغيضة يحمى بها المجرمون أنفسهم وتكون غير مفهومة أو واضحة لمن لا يشاركونهم وجهة نظرهم أو يفهمونها.

والقسوة، مثل أى سلوك إنسانى، يتدخل فيها العقل وتحدث بواسطته، إلا أن الدراسات والبحوث عن المخ لا تكفى لفهم ذلك فهمًا كاملاً. فالقسوة مفهوم أخلاقى أيضا يعتمد على أفكار وتبريرات وضرورات، وتمثل معاناة غير مستحقة للغير، وهى فعل طوعى مقصود ومتعمد. كما أن قرار تسمية شخص ما بأنه قاس، مثل قرارات أخرى، قد يتلون ويتغير بأى محاباة أو انحيازات نفسية أو اجتماعية، ولذلك تختلف الأحكام باختلاف من يصدرها، فيكون هذا النوع من العدالة بعيدًا كل البعد عن "العدالة العمياء" التى لا تُحابى؛ ومن ثم فإن القسوة يجب أن تُوضع فى مضمون رمزى بمساعدة المؤرخين والمتخصصين فى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا أو أصل الجنس البشرى) والفلاسفة، وعلماء الاجتماع، والمنظرين للثقافات. إن علم دراسة الجهاز العصبى وعلم النفس، على الرغم من أهميتهما، فقد لا يمثلان إلا جزءًا مشاركًا فقط فى مشروع أضخم هدفه ليس الشرح أو التفسير البسيط للسلوك القاسى؛ ولكن المعرفة الكافية لهذا السلوك حتى نقلل من ضرره وأذاه.

ويمكن اعتبار القسوة ذات أبعاد تتراوح بين قساوة القلب والسادية الصرفة، حسب ما تتضمنه من دوافع. فالمجرم قاسى القلب لا يأبه بمعاناة ضحيته لأنه يعتبرها نوعا من العقاب أو هى "رسالة" تفصح عن قوته وقدرته على التصميم والتحكم، وتركيزها فقط على إحداث المعاناة، وهذا مجال القسوة والإرهاب. أما البعد الآخر النادر والمتطور فهو السادية التى يصبح فيها الألم المبرح للضحية هو سبب ودافع العدوان عليها؛ وهو المكافأة التى يسعى لها المجرم، وبذلك يصبح الهدف الأوحد للاعتداء أو الفعل هو المكافأة النفسية للمجرم.

وهذه المكافأة متنوعة، لأن نفسية الإنسان تحوى عديدًا من النظم التى تعطيه الإحساس الدفين بالفوز والعائد المجزى. والجزاء قد يكون الغذاء أو التحرر الجنسى، أو الكسب المادى، أو القوة أو حتى الحب، لكن ليست كل مباهج أو "جوائز" القسوة صالحة أو مبررة أخلاقيا. والمجرم قد يشعر بالانتماء للجماعة رغم ذلك. وقد يتأكد لديه الشعور باستعادة النظام الاجتماعى وبالراحة لانخفاض الصراع الذهنى، أو قد تنهكه طقوس ما يقوم به من الأفعال العدوانية، أو ربما لا يشعر بشىء على الإطلاق.

المعانى المُتضمنة :

لقد كانت هناك نتائج للدراسة العلمية للقسوة: أتاحت فهم الأفعال المؤذية والضارة التى يمارسها البشر فى الحياة اليومية. إننا لو فهمنا لماذا يرتكب الناس هذه الفظائع فقد نستطيع منعها- وهذا ما نأمله. وكى نفهم ذلك علينا التفكير فى بعض المعانى المُتضمنة فى التناول العلمى للقسوة، باعتباره وسيلة لفهم الموضوع.

القسوة تنشأ عن فشل الإنسان:

إننا نفكر فى القسوة على أنها تتمركز على الحقد والكراهية، لكنها أدعى لأن ترتبط بالفشل. ويتضح ذلك بصفة خاصة عندما ننظر إلى القسوة المُنظمة والتى تتم على نطاق واسع ويشعر فيها المجرمون بكره ضئيل لأعدائهم. إن الفشل يحوم حول هذه الجرائم.. إن القادة السياسيين يفشلون فى تحدى المعتقدات الزائفة التى تنبذ أعداءهم وتقصيهم، وهم يفشلون فى منع الاضطهاد غير القانونى للجماعات المستهدفة، وقد يفشلون أيضا فى إيضاح نواياهم ورغباتهم خوفًا من أن تؤخذ

كدوافع لأفعالهم، والقادة غالبا لا يعطون أوامر واضحة لأتباعهم بخصوص رغباتهم. كما أن المجرمين يفشلون أيضا.. إنهم يطلبون الاستحسان من أعدائهم وليس ممن يحبونهم ويثقون بهم، ويخضعون للتهديدات بالعقاب دون الاستفسار عن مدى شدة ونوع هذا العقاب. أما الفشل الأخير فهو فشل المشاهدين (الطرف الثالث)، إنهم لا يُعلمون أبناءهم كيف يكبتون الاتجاه للقسوة قبل التعبير عنها وفعلها، وهم الذين يحبذون إقصاء الغير لديهم ولدى غيرهم، إما بسبب عدم الارتياح اجتماعيا وإما لأن ذلك مزحة وفكاهة.. فما الضرر منها؟ وعندما يتصاعد إقصاء الآخر إلى عنف فلا يتدخلون وأحيانا حتى لا يُعلقوا؛ لأن الجريمة تكون قد دُبرت بالفعل(١).

إن الناس غالبا ما يكونون قساة؛ لأن القسوة تبدو أسهل الطرق للتصرف فى ظروفهم الخاصة. وقد تكون هناك أسباب قوية لعدم القسوة؛ لكن الأمر الذى يتطلب مجهودًا أقل هو تجاهل هذه الأسباب بدلا من مقاومة الضغوط من الآخرين، أما اللا مبالاة والكسل والجهل عن عمد والخوف من النتائج المجهولة فقد يُزيد من المناورة والتلاعب المتعمد لاختيار القسوة.. والمثال على ذلك ترك القادة محتوى ونتائج أحاديثهم مُبهمة وغير واضحة. والمجرمون الذين لا يُرضيهم دورهم قد يفضلون الصمت بدلاً من المجازفة بإغضاب الجماعة، لكن الصمت ذاته قد يُضخم من ملاحظة أخطائهم. ولا يختلف الأمر فى حالة الأفراد الذين يملكون السلطة فيما يختارونه من قيم. ولأن سلطتهم تعتمد على اختيار مجتمعهم لهم كقادة؛ لذا فإنهم يخشون أن يخسروا دعم جماعتهم لهم لو تكلموا. وعندما تشعر الجماعات بأنها واقعة تحت تهديد ما، فإنهم يؤكدون القيم التى تدعم إحساسهم بالتحكم والسيطرة، مثل: الوحدة والولاء والتضحية. بدلاً من القيم المضادة التى تقلل من قوة الجماعة.

وإذا كان من الواجب علينا أن نحد من شيوع السلوك القاسي، سواء على النطاق الواسع أو المحدود، فإننا سنحتاج إلى تغيير ما يحفز على القسوة، حيث ينتج عن ما سميناه بـ "الفشل" عواقب ونتائج سلبية أكثر من غيرها الإيجابية. إن ذلك سهل في القول لكنه صعب في التنفيذ(٢).. إلا أنه ليس مستحيلاً. لقد سبق أن أدانت المنظومة القانونية الإنجليزية الإعدام العلني للناس بسبب سرقة الطعام، وفي القرن العشرين رفضت الثقافة البريطانية مشهد الإعدام علناً حتى لو كانت بسبب تهم أكبر وأسوأ. وهناك الكثير في بريطانيا ممن يرغبون في إعادة العقوبة على مخالفات ضرائب رأس المال أو الدخل، لكن قليلاً جداً، كما أتصور، يحبذون العقوبة على السرقات الصغيرة. وهذا ما صارت الحال إليه.

وعلى الرغم من ذلك، فإن كلاً من الإعلام الواقعي والخيالي (في الأدب والأفلام)، ما زال يقدم القسوة باستمرار ممزوجة ومقترنة بالإثارة و"الأبهة" أكثر من أن يظهر تأثيراتها ونتائجها المهلكة في الضحايا. كما أن التكنولوجيا المتاحة بسهولة جعلت القسوة الخطيرة أسهل.. وعلاوة على هذا؛ فإن ضعف القدرة الاجتماعية التنفيذية، سواء من الوالدين، أو المنظومة القانونية، أو الجيران، أو من يشكلون الرأي العام، قد قلل من قيمة "قديمة"؛ هي الربط بين الإيذاء والعقوبة المستحقة بإيذاء مقابل. ونحن الآن نخشى كثيراً تطبيق العقوبة، تحديداً لأننا نعلم أنها من الممكن أن تصعد فتصبح قسوة، ولذا فإننا نقلص العقاب إلى حدود الغرامة أو "الضرر" المالي، أو خدمة المجتمع، أو تقييد الحرية. وفيما يتعلق بتقوية كبح النشاط النفسي في داخل المخ؛ فإن هذه الاختيارات تمثل مشكلة على نحو ما، فقد يتوقف النشاط عن نقل "الوزن العاطفي" المطلوب خصوصاً عند من لديهم تجربة سابقة في الجريمة، وربما يكون الربط بين الجريمة والعقاب لديهم قد أصبح ضعيفاً

(فيما يخص الجهاز العصبى) بسبب طول الفاصل الزمنى بين ارتكاب الجريمة وتلقى العقاب، هذا إذا عثر على المجرم أساسا وتم إلقاء القبض عليه(٣).

ومهما كافأنا "الناس الطيبين" على حسن سلوكهم؛ فلن يمنع ذلك بالضرورة ارتكاب الآثام واقتراف السلوك السيئ. ولكى يتحقق ذلك فالمطلوب هو "الإدراك الكابح" من الفاعل أن السلوك السيئ يُعَرض الفرد للعقاب. وحتى تكون العقوبة مؤثرة وفعالة لا بد أن تردع و"تؤذى"، ولا يلزم أن يكون هذا أذى جسمانيًا، ذلك لأنه دون الردع تكون العقوبة نوعا من الرضا والسرور لمن يُنْزل العقوبة فقط. ومعنى ذلك أن الاندماج الاجتماعى للمخطئ فى حداثة السن يُفَضل كوسيلة للإقلال من الجريمة بدلاً من العقاب فى الكبر (فيما بعد)، إذ إن الأطفال يتأثرون بإظهار النفور منهم، مثل رفض الوالدين لسلوكهم، وهو ما لا يتأثر به الكبار. وتطبيق العقوبات مفيد وناجح حتى إن كان بمجرد الاعتراض والرفض. وفى حالة إظهار النبذ والإقصاء تكون فرصته فى النجاح أكبر مما لو انتظرنا حتى يحدث العنف ثم نبدأ رد فعلنا عليه. وينطبق ذلك سواء على طفل فى المدرسة يشتم ويسىء معاملة زملائه أو ديكتاتور يُوّجه لغة مقززة وجارحة لأعدائه.. وهناك كثير نستطيع فعله كى نمنع أو نكبح القسوة إذا تصرفنا فورًا وبحزم.

القسوة شىء طبيعى ولكنها ليست ثابتة أو غير قابلة للتغيير:

تنشأ قسوة البشر من الأسلوب الذى طوّر الناس به أنفسهم للبقاء كحيوانات اجتماعية، إنها نتاج القدرات أو الطاقات والدوافع نفسها التى تمنحنا السيطرة على والتحكم فى بيئاتنا، والتى تتيح لبعضنا على الأقل عمرًا أطول، وتقلل من المعاناة التى يُسببها المرض وسوء التغذية. وتطرد التهديدات التى شكلت القلق "والكوابيس"

لأسلافنا، فالقسوة لذلك شيء طبيعي مثل: الكسل أو التنافس، إنها تحمي الذات والنفس "الثمينة"، جسمانيا ورمزيًا، بأن نؤذي من لا نهتم بهم. إن القوانين الأخلاقية الأساسية، على خلاف القوانين الوضعية لـ "حقوق الإنسان، لا توافق على أن كل البشر متساوون.

إن بعض درجات من القسوة حتمية للوجود الإنساني، وكل ما نستطيع فعله تجاهها هو "مكافحة النيران". لكن، كما أسلفت، فنحن يمكننا أن نفعل أكثر بكثير مما نفعله الآن لنخفض المعاناة التي نسببها لبعضنا بعض إلى الحد الأدنى. وهناك أفراد تعساء وحظهم السيئ قد يدفعهم إلى المرض أو الضرر أو تجربة فظيعة أو إلى أن يقترفوا جرما ساديا مثيرًا وغير مألوف، لكن الغالبية العظمى من المجرمين ليسوا مرغمين أو مجبرين كهؤلاء. إن هذا مجرد سلوك- شيء يفعله الناس وليس جزءًا لا يتجزأ من ذواتهم- ومن ثم فالسلوك يتأثر بالحافز والدافع والثواب والعقاب الذي تطرحه مواقف معينة أو تفرضه الجماعات على أفراد في الجماعة. والقسوة، مثلاً، لو كانت رد فعل أو استجابة لهجوم على سمة عزيزة من الهُوية؛ فإنها تنخفض لو كانت الذات المهددة تدعمها وسائل أخرى مثل التفوق والامتياز في مجال آخر(٤). كما أن المعالجة السليمة للمواقف لو توافرت الإرادة السياسية من الممكن أن تخفف كثيرا من معاناة الضحايا.

وما هو ضروري ولازم هو القدر الذي نُرحل به القسوة إلى خبراء معينين- من يوفرون غذاءنا ويحاربون حروبنا مثلاً- أو من تحويهم أماكن منعزلة ثقافيا (جيتو) أو إلى مناطق نزاعات مثل: إسرائيل وفلسطين والصومال، أو جيران يثيرون المشكلات في أي مكان. وما يقوله إقصاء الآخر هو "القسوة تحدث منهم هناك، لكن ليس هنا. إن من يفعلها الآخرون وليس نحن"، وما يسمح به هذا ليس فقط التخلي عن المسئولية لكن التظاهر أن القسوة غير موجودة إلا في المناسبات النادرة

إذا هربت من حدود الآخر وعرفت طريقها لنا. ويمكننا أن نضيف إلى ذلك الأرباح الضخمة والثابتة كحق والتى تُستثمر من قسوة البشر، فى أمور مثل صناعة السلاح والصناعات التى تتولى إزالة آثار الدمار بعد الحروب والصراعات، وتسامحنا واحتمالنا لهذه الفظائع والشرور يتضح ويصبح معقولاً بعد ذلك.

قد يكون إقصاء الآخر مفيدًا:

لقد تطور هذا الإقصاء لأنه كان مفيدًا، فقد أتاح للجماعات أن تكسب المنافسات مع موارد ضئيلة بدعم وحدتها وقوتها والتغلب على ما يكبحها نفسيًا ويمنعها من التنافس. إن إقصاء الآخر ما زال شائعًا كأسلوب لحل الصراعات، والرجال الذين ماتوا جراء ذلك لن يمكنهم الجدل أو الانتقام، إلا أن إدماننا لاستخدام الرموز أفسح المجال للإقصاء وجعلنا عرضة لأن نُستغل بواسطة التهديدات المدمرة التى قد لا يكون لها وجود حقيقى. وما زعمه النازيون عن مؤامرة يهودية بلشفية ادعاء زائف، لكنه كان ذا تأثير كبير. لقد أوجد هدفًا للغضب والقلق الذى أثارته عوامل خارجة عن نطاق التحكم الفردى قدمت تفسيرات أيقظت تحيزات واضطهادات قديمة، ولهذا صدقها الناس بسهولة، لقد استدعى ذلك أفعالاً جماعية حتى يشعر الأفراد بأنهم أكثر قوة كجماعة، وقد زاد ذلك من إحساسهم بالتحكم والسيطرة بصورة أكبر بسبب البلاغة اللفظية والاستحواذ على الممتلكات. ولا عجب من أن أدولف هتلر "Adolf Hitler" كان يُقابل بالهتاف والتهليل فى الشوارع، على الأقل فى السنوات الأولى من حكمه.

ولو تم التكيف مع احتياجات المجتمع والمشاركة المجتمعية الكافية منذ الطفولة، لكان هذا يعلمنا الدرس المؤلم: إن القسوة تؤذى الشخص القاسى نفسه.

ويضيف التعليم إلى ذلك طبقة من مبادئ الأخلاق، إلا أن المعرفة الاخلاقية بأن القسوة فعل خطأ هى بالنسبة إلى معظمنا عازل من الجلد الرقيق يفصل بين الفكر والفعل، ومهما اختلفنا فى هذه الرؤية ولو رضينا بما يمليه ضعفنا الأخلاقى وسهولة انقيادنا للإثم واعترفنا بأن إقصاء الآخر شىء مفيد، فسوف نخطو الخطوة الأولى فى سبيل الدفاع عن أنفسنا ضد الإغراء بأن نمارس الإقصاء ونستخدم هذا الفكر، وهذا الدفاع شخصى واجتماعى أيضا. إن تخيل القسوة، سواء من الفرد أو فى مناظرة جماعية، قد يجعلها مؤهلة للحدوث لو تخيلنا أنها مجزية ومفيدة. وإن لم تكن كذلك فالتفكير فى الاحتمالات قد يجعلنا ندرك أن هناك بدائل أخرى للفعل والسلوك. وقد يمنحنا التخيل أيضا فرصة ومجالاً لإدانة أى قسوة قبل أن تحدث، أو يعطى الناس سبيلاً للتدخل من جانبهم كى يمنعوا حدوثها. ويفضل التدخل الفورى والمبكر؛ فهو سيتطلب مجهودًا أقل.

انحياز البشر يزيد من غلظة القلب:

لقد نشأ الجنس البشرى على معاملة العالم دون مساواة فى اعتبارات عديدة. فنحن بطبعنا وما جُبلنا عليه؛ نهتم بأقاربنا (أو الأقارب الرمزيين)، وبمن نرى أنهم أعضاء أقوياء فى جماعتنا، وبالمعتقدات التى تتفق مع ما نعتقده ونراه. إننا بالطبيعة نولى اهتمامًا أقل بالغرباء وللناس الأقل فى المكانة الاجتماعية أو للأفكار التى تتناقض مع معتقداتنا. ونحن محدودو القدرة على تنظيم المعلومات، ونجهل كثيرا مما "تخبرنا" به حواسنا؛ لأنها لا تتناسب مع ما نريد أن نعتقده وما يرضينا. كما أننا ننحرف ونميل عن الموضوعية فى رؤيتنا للحياة بمرور الوقت، ونعتبر النتائج المستقبلية والعواقب البعيدة شيئًا أقل فى الأهمية عن الأحداث المعاصرة أو القريبة (وهى ظاهرة يطلق عليها علماء النفس إسقاط الزمن من الاعتبار)[٥].

ولذلك عندما نختار أن نكون قساة، فغالبًا ما نختار على أساس مدخلات منحازة ونفشل في أخذ نتائج الضرر الذي نُحدثه في الاعتبار. ومكافآت القسوة لا تدوم طويلاً؛ فالغنيمة تُختطف، والتهديد من الضحية يزول، وموافقة الجماعة واضحة. أما عقوبات القسوة فعادة ما تستغرق وقتًا أطول كثيرًا- إذا وقعت بالفعل.

والابتلاء بالتحيز والميل لا يعني طبيعة كارثية مدمرة وثابتة، ويختلف التحيز والانحراف من شخص لآخر، ويعني ذلك أننا يمكن أن نعرف كيف نغيره إلى حد ما. والمعرفة قوة، فعلينا أن ندرك أن الانحيازات توجد قبل أن نبدأ في محاربتها، وعقولنا ليست قطعة من الصخر، فهي تحس وتستجيب للخبرات وتجارب الحياة. وعند لقائنا بمن نحتقرهم علينا أن نُعطي دليلاً جديدًا ونقدم الذهن المتفتح بدلا من أن نسخر منهم ونهزأ من "الهراء" الذي يقال. إننا، مرة أخرى، لدينا الكثير الذي نعمله بالفعل والأكثر الذي نستطيع فعله كي نتغلب على غرائزنا الأخلاقية الكامنة التي تميل بنا للتحيز.

اعتبار القسوة شرًا شيء مضلل:

يقودنا إقصاء الآخر بطبيعته إلى التفكير في الشر وهذا هو الذي تقود نهايته إلى السادية كجوهر وليس باعتبارها سلوكًا. نحن نرى الشر في الآخرين باعتبارها صفة في شخصيتهم أو طبيعة راسخة لا تتغير، أما في أنفسنا ومن نهتم بهم فنحن نتسامح مع الشر على أنه ليس متأصلاً فيهم وقد نغفله أو ننكره أو نعتبره "نوبة" من انفعال سيئ أو يرجع إلى ضرورة "سيئة". ولو كنا نحن قساة فهذا ما دفعتنا إليه الظروف. إن هذا تبرير خطير لقسوتنا على الآخرين الذين نظنهم يستحقون ذلك... فكيف كنا نتخلص من تهديدهم؟ ويشجعنا هذا أن ننظر إلى قسوتنا على أنها نوع من الاختيار، فهي شيء غريب فرض علينا ومبدئيا يمكن محوه وإزالته لنعود أنقياء.

ولو كان النازى قد أباد كل اليهود فى أوروبا؛ فهل كانت ستنتهى مشكلات هتلر فورا؟ ولو أن كل من له عقيدة دينية قتل مَن صبأ فهل كان ذلك سيحل كل المشكلات التى ابتلى بها العالم وما زالت توجع عالمنا إلى اليوم؟ بالطبع لا. فسوف تبقى المشكلات وسوف يستمر البحث عن "كبش فداء" جديد؛ لقد كان إقصاء الآخر دائما يجلب الفشل لأصحابه فى نهاية الأمر وكان نجاحه ذاته برهاناً على زيفه. وفى المجتمعات الحديثة نرى أن المستويات الفائقة من التعاون والتفاوض وتسوية النزاع وفق حل وسط؛ كلها تثبت أن احتمالات القوة والتحرر توجد عندما نحّد من النبذ والإقصاء.

ومع ذلك، فإن الأنانية والجهل والفكر المتبلد والحاجة المتقدة إلى السيطرة والتحكم؛ يمكن أن تقود الناس إلى استخدام الإقصاء حتى تغفل العيون عن فشلهم الكامن والمعتاد، كما أن هذا يعطيهم الرضا الآن وليس النجاح الذى قد يأتى فى المستقبل البعيد. والظهور بالقوة مع إظهار القسوة أيضا شيء مثير للغاية لمن يشاهدونهم، وبذلك تكون القسوة "أبهة" حقيقية وليست أسطورية، بدلاً من أن تبدو كقوة شريرة وظالمة تأتى نتيجة للبطء فى اتخاذ القرار والقدرة الإنسانية المحدودة. وعلى النقيض مما نتوقعه، فهذا الأداء يمنعنا من التفكير فى القسوة بطريقة جادة. إننا قد نرى القسوة شرًا وننسبها لـ "الآخر" فنحرر أنفسنا من المسئولية التى تقضى بأن نغّير سلوكنا، أو قد نضحك على الأفكار البدائية التى يطرحها "الرفاق" وننكر الإطار الأخلاقى للخير والشر الذى يُدين القسوة. فنصبح بذلك، متثقفين متكلفين من أتباع المذهب النسبى الذين ينسبون شرور البشر وأذاهم إلى عدم المساواة فى المجتمع، وسوء الآباء والوالدين، أو أى شيء آخر ما عدا الأشرار من الناس الذين يقصدون الإيذاء بالفعل.

وهنا نقول، مرة أخرى، إن التعليم يمكن أن يقلل من سيطرة المعتقدات الزائفة، فالمعرفة بالحقائق ومعرفة كيف نفكر سوف تساعدنا فى "كشف" ملايين الأشكال من "الهراء" الذى يقدمه من يستفيدون كثيرا من إقصاء الآخر. وسيمكننا بعد ذلك التدقيق فى البحث عن أى دليل على ما يشاع من افتراء أو قذف ضد الأعداء أو الأقليات، وسوف نستطيع أن نميز إذا ما كان أى ادعاء يستند إلى "نظرية الماهية والجوهر" تجاه الآخر - أى أن الآخرين جوهرهم فاسد - فنرفضهم، وبذلك سوف نتحدى "التنميطات". ويمكننا أيضا أن نُعلم أطفالنا التاريخ الصحيح والأفضل. وليس معنى ذلك أن نعيد سرد الأخطاء القديمة أو "نجلد" من ارتكبوها سواء كانت بريطانيا أو الولايات المتحدة، أو ألمانيا، أو اليابان أو غيرها، فمن المحتمل أن كل بلد ارتكب الفظائع وعانى منها. وتَعلم التاريخ يمكن، بدلاً من ذلك، أن يضع هذه الجرائم فى مضامينها ويُظهر أن هناك أسبابا لحدوثها ويطرح الأمل فى أن يتم تحاشيها فيما بعد.

المعتقدات هى "مركز" القسوة:

كيف نعرف ما نقدره ونقيمه ونرغب فيه؟ إن بعض احتياجاتنا أساسية مثل الحاجة إلى الطعام والبحث عن الأمان، لكن الكثير منها نكتسبه مما نعرفه عما يعتز به الناس الآخرون خصوصا الناس الذين نحبهم ونحترمهم. وعندما نرتكب أعمال القسوة كى نحقق رغبات أو ندافع عن معتقدات، فإن هذه الرغبات والمعتقدات تخضع لتفسير أناس غيرنا، فهم يفرضون تفسيرهم على الأنماط العصبية الأولية التى كانت قد بدأت فى ذهننا نحن، وبينما نتعلم ما نحدد ونصف به أفكارنا وعواطفنا، نكون قد غيرنا أنماطها.. هذا ما تمثله بالمخ مشكلة القياس حسب نظرية "ميكانيكا الكم"، والتى بمقتضاها تُغير طبيعة الملاحظة من الشىء

الذى نلاحظه). ويساعدنا التعلم من المجتمع، أو التبرير الذى يأتى فيما بعد، فى أن نرى أنفسنا كما يرانا الآخرون. وهذا أيضا "يُشكّلنا" فى صورة تتماثل - بشكل أفضل - مع مدركات الناس عنا و"ما يرونه" فينا. ويصل ذلك بنا إلى أن نتبنى توقعات الآخرين عنا كما لو كانت توقعاتنا نحن، فيصبح ما يتوقعونه لنا هو ما نصير إليه. إننا بذلك نشاركهم معتقداتهم ونرغب فيما علمونا أن نرغب فيه.

إن طواعية "التشكل" وسهولة الانقياد؛ عنصران حيويان ومهمان فى أسلوب الحياة الحديث؛ إن هذا يُبقينا متوائمين اجتماعيا . وليست كل احتياجاتنا حتمية كما تعلمنا أن نعتقد. لكن لسوء الحظ؛ فإن المعتقدات التى تخلق التحدى والصراعات من الغير يمكن أن تصبح قيمتها كبيرة نتيجة لذلك، وقد تُصعد أحيانًا إلى مرتبة المبادئ المقدسة، كما أن بعض المعتقدات يؤدى إلى الصراع، مثل فكرة أننا جميعًا لنا الحق فى أن تُحترم معتقداتنا القوية مهما كان محتواها. وهناك جماعة من الناس تُشجع إضفاء القداسة؛ على مبادئنا ومعتقداتنا؛ لأنهم هم الذين يستفيدون من ذلك، ويساوون بين نقد هذه المعتقدات وبين عدم الاحترام ويُلمّحون بأن الثروة والجمال المادى علامة الفضيلة والقوة الاجتماعية، ويفترضون أن النمو الاقتصادى واستهلاك السلع التجارية هما معيارا الجودة فى ذاته. والدعاية الماهرة تجعل ذلك فلسفة متماسكة قوية ولا يوجد من الأسباب ما يجعلنا نصدق ذلك.

هل الثراء يجعلنا أسعد أو فى حالة أفضل؟

وهل التحدى لعقيدتك أو مبادئك المفضلة يُقصد به دائما هجوم شخصى عليك؟ وهل حقوقنا تُهمنا أكثر من مسئولياتنا؟ إن هذه معتقدات قابلة للنقاش والجدال وليست حقائق ثابتة. وكى نناقشها علينا أولاً أن ندرك أهميتها ولزوميتها

للسلوك القاسى والأنانى. ويلزمنا أيضًا الاستعداد الذهنى القادر على الحكم على قيمة المناقشة مع الإرادة الكافية لتحدى الأفكار المزعجة والقلق الناشئ عن الصراع، معرفيًا واجتماعيًا.. وإذا توافر كل هذا سيكون بإمكاننا إضعاف كثير من العقائد السائدة بأن نتحداها كما فعل أسلافنا عندما عارضوا العبودية، وناقشوا حقوق المرأة، وسخروا من العقائد الغبية التى تدفع إلى العنصرية. وكما رأينا، فلن تتبدد أو تتشتت كل المعتقدات بمجرد التحديات، ففى عديد من الحالات تكون القوة الظاهرية لعقيدة ما قوة وهمية عظمت و"تضخمت" فقط؛ لأننا لم نشكك فيها. ولو طُرحت مناقشات ومناظرات جيدة حولها فسوف تتعمق ثقافات تُرسّخ المعتقدات الصالحة بسرعة فائقة. والمعتقدات التى تُشجع على القسوة لا تُبْدى جميعها تعصبا شديدًا يمكن أن يتحكم فى العقول.. إنها غالبًا مجرد افتراضات قابلة للسقوط بالنقد إذا كانت هناك أصوات معارضة قادرة على أن تجعل نفسها "مسموعة".

القسوة والمبادئ الأخلاقية تعززهما العواطف:

تستطيع المشاعر القوية، سواء كانت شعورا بالرعب أو الغضب أو الطمع أو التقزز أو الإثارة والاهتياج، أن تُشْعل فكرة إقصاء الآخر إلى أبعد حد. فتحول العقوبة إلى انتقام ثأرى، وتحول القانون إلى حكم الغوغاء والدفاع عن النفس إلى قسوة متوحشة. ويقضى السلوك المثالى بأن يمتنع الإنسان عن هذا العنف قبل أن يحدث، لكن العواطف القوية من الصعب منع تأججها أو إيقافها. ولو كان المحرك والحافز شديدًا (مثل التهديد بالموت)؛ فإن معظم الناس يمكنهم التحكم فى أنفسهم وتعلم كيف "ينظمون" ويحكمون عواطفهم لو توافر لهم الوقت والمصادر والميل والرغبة فى التعلم. أما إذا تصاعدت فكرة إقصاء الآخر لتصل إلى القسوة، فإن ذلك يخلق ضغوطًا تؤدى إلى فعل أسرع وأسرع، مما يدمر أى فرصة للتوقف

والتفكير. ويجعل ذلك – أيضا – المشاركين يشعرون بأنهم أكثرة قوة، ومن ثم أقل خوفا من قوة الآخرين.

وأحد الاختيارات البديلة هو أن يُعادل الإنسان فكرة الإقصاء بما يكبحها، أى بعواطف أخرى أقوى. وبلغة علم الجهاز العصبى، يعنى ذلك تقوية الأنماط المُثبطة التى يمنع تنشيطها السلوك القاسي– وتلك هى الأنماط التى نربط بينها وبين المعتقدات والتعاليم الأخلاقية والإدراك التعاطفى بأن الضحية إنسان ينتمى إلى الجنس البشرى، ولا يكفى هنا أن نؤكد مبدأ أخلاقيا مجردًا: إن قوة العواطف والتعاطف لا بد أن تسود، لكن هناك طريقة تدعم ذلك وهى أن نربط بين المعتقدات الأخلاقية لدى الفرد وبين إحساسه ووعيه بهويته. إن من الناس من يُقاوم ضغوط ارتكاب القسوة، وهم غالبًا من يأخذون فى اعتبارهم وفى عقيدتهم أن القسوة خطأ ويُرَسخون هذا الاعتقاد باعتباره جزءًا من كينونتهم، فتكون الحاجة والرغبة فى القسوة بالنسبة إليهم تهديدًا لذواتهم برمتها. أما من يعتقد أنه جزء أو فرد من جماعة لها عقائد أخلاقية معينة؛ فسوف يتخلى عن تلك الاعتبارات دون أى أضرار نفسية، لأن ذاته وكينونته تتبع الجماعة – إنها فى مكان آخر.

وإذا كانت المعتقدات الأخلاقية بالغة القوة؛ فسوف تنشط عندما يُواجه الإنسان بمفهوم القسوة، أما إذا ظلت الأخلاقيات عند مستوى المبادئ أو الأفكار المجردة فقد لا تنشط على الإطلاق، أو قد تنشط فى وقت متأخر جدًا، أو ربما تنشط فى الوقت المناسب ولكن ليس بالقوة الكافية لمنع السلوك القاسى من الانطلاق. إن هذه الأمور ينشأ عنها مجرمون يشعرون بالندم، وقد يساعد ذلك أو لا يساعد فى تحسن أخلاقياتهم، إلا أن ذلك لن يُصلح من الضرر الواقع فى ضحاياهم. لكنه قد يحول دون ارتكابهم أعمال القسوة فى المستقبل.

القسوة قد تتأثر بالتكنولوجيا أو تخضع لها:

لقد طرحنا معلومات عن كيفية عمل المخ؛ كي نفكر في نهج أو طريقة قد تقلل من السلوك القاسي. وقد قدم التناول العلمي للقسوة في علم دراسة الأعصاب إمكانية أخرى؛ إنه في المستقبل - غير البعيد - ربما يمكننا تعديل أو تغيير ما يجري في المخ مباشرة. إن تعديل وتغيير الذاكرة باستخدام الكيماويات والأدوية قد تم بالفعل في تجارب علمية على الحيوان[٦]. ولا يوجد هناك سبب يمنع إزالة أو نزع المعتقدات القوية والخطيرة من عقول البشر بقياسات علمية دقيقة من أن تكون معالجة حقيقية وواقعية. تخيل فقط أنك تستطيع أن تشفي المتعصبين في إسرائيل وفلسطين، أو تهدئ من انفعال المتأسلمين والعنصريين؛ كل هذا بقرص دواء أو برذاذ من رشاش أو أي علاج سريع آخر بدلاً من الكفاح المضني لتغيير المعتقدات وإعادة ترتيب وتنظيم الدوافع. وتخيل فقط موقفك من آداب المهنة عندما تحاول تجربة هذه المعالجات قبل اعتمادها، وتخيل بهجة وسرور حكومتك التي ستمول هذه الأبحاث.. وإضافة إلى ذلك، تخيل السرعة التي سوف تستعمل بها المؤسسة العسكرية هذه المعالجات والسرعة التي سوف يُطلق وينتشر التعريف بأنها "خطيرة". وقليل من الحكومات تستطيع أن تقاوم الإغراء بأن تعتبر المعتقدات التي تتعارض معها "مشكلة"، أما في حالة الدولة التي سوف تستطيع أن "تُشكل" أو تُعدل المعتقدات، فكم من الوقت ستبقى فيها المثل العليا دون أن تُمس أو تتبدل؟

إن القدرة على التحكم في القسوة بالتدخل المباشر في عمل المخ؛ سلاح ذو حدين، وهذا أقل ما يقال. فالتدخل سيكون ناجحا في مجال الحقائق الموضوعية، مثل: أورام المخ أو التهاب السحايا، لكن القسوة والتعصب الأعمى لا يمكن تتبعهما

بسبب الأبعاد الأخلاقية المرتبطة بهما، والشخص الذى يجهل عمق المسائل الأخلاقية يفترض - بسذاجة - أن أحكامه الأخلاقية عن الخير والشر هى أفضل المتاح. وسواء كان هذا الشخص عالما أو سياسيا أو معلقا إعلاميا؛ فإن افتراضه يحتمل أن يكون خطأ؛ وأعضاء هذه المهن لا يُعْرف عنهم التميز والسمو الأخلاقى.. إننا، على الأقل، نحتاج إلى مناقشة عامة عاجلة - أكبر مما هى موجودة الآن - عن أخلاقيات التقدم التكنولوجى الذى يهدد هويتنا وكياننا.

القسوة، والعلم، والمبادئ الأخلاقية:

إن المناقشة الأساسية فى هذا الكتاب فحواها، أن فهم القسوة يستلزم الإشارة إلى المبادئ الأخلاقية. ودراسة القسوة كعلم مستقل بذاته غير كافية؛ إذ يجب أيضا النظر بعين الاعتبار إلى النواحى الاجتماعية والأخلاقية فيما يتعلق بإلحاق الأذى والضرر بالبشر. لكن هل هذه هى القضية؟ ولو وضعنا كل فعل إنسانى فى منظومة من الأسباب، فهل سيكون أى ادعاء أخلاقى واضحا ومفهوما؟ ربما تكون المبادئ الأخلاقية؛ وهى واضحة فى إطار من المنطق والعقلانية - عرضة لأن تضعف وتذوى، مثل غيرها من المبادئ والعقائد، بفعل التحور والتطور. وقد سمعنا حتى فيما قبل القرن العشرين عن "التنوير" الذى عبر عنه بعض ممن رحبنا بهم "كأفضل من اتسموا بروح التحرر"، إذن كيف هاجم "الماركيز دى ساد" المبادئ الأخلاقية؟ فلنتدبر هذا التحدى كما ورد فى كلمات " دى ساد" نفسه. إن تجاوزاته فى مذهب "العدمية" الرافض لمبادئ الأخلاق؛ كما ظهرت فى روايته جوستين "Justine"، تطرح تحديا لمجتمعه ومجتمعنا. ونعرضها هنا بما تحويه من سخرية وتهكم شديد:

> إن الرجل الذى تنتابه رغبة غير عادية (تجاه القسوة) شخص مريض، كامرأة تنتابها الهستيريا. هل نعاقب مثل هذا الشخص؟ فلنكن عادلين عندما نتعامل مع من يزعجنا على هذا النحو. إنه يستحق العطف بدلاً من اللوم، وهذا اعتذار أو دفاع عنه ودون شك سيكون هناك تفسير جسمانى سهل لحالته. وعندما يصل علم التشريح إلى الكمال فسوف نستطيع دون مشقة أن نشرح العلاقة بين "تكوين" الإنسان وما يتأثر به من رغبات وميول. آه ! ماذا ستفعلون أيها المعلمون المتحذلقون والسجانون ومشرعو القوانين والغوغائيون عندما نفعل ذلك؟ وماذا يكون حال قوانينكم وأخلاقياتكم ودينكم ومشانقكم عندما يثبت أن هذه السوائل والأنسجة المختلفة ودرجة الملوحة أو الحموضة فى الدم تكفى كى تجعل الإنسان هدفًا لأحكامكم؟(٨).

ماذا ستكون الحال فعلاً لو أن أسبابًا جسمانية تحرك كل معتقداتنا ورغباتنا، إننا سنكون مجرد دمى تلعب بنا الطبيعة؛ فهى التى تجعلنا منعزلين أو انطوائيين، حاقدين أو قساة ومستبدين نرغب فى أخذ كل شىء ولا نعطى شيئًا. وإن كان الأمر كذلك فستكون الأنانية، حتى إن أوصلتنا للجريمة، شيئا طبيعيا بالتأكيد. وسيكون عدم وجود ضحايا لا قيمة له إذا لم يُقدم العزاء والمواساة العقلانية بين ما يؤثر فينا

أو فى غيرنا، فالأول تأثير جسدى و الثانى أخلاقى، و المشاعر الأخلاقية يقال إنهـا خادعة، فالحقيقة فى أحاسيس الجسد فقط.. إنها الطبيعة ولو كنا جزءا حقيقيا مـن الطبيعة فلا بد ألا يبالى أحدنا بالآخر:

> **فمن وجهة نظر الطبيعة لا شىء يخرج من الوعاء الضخم الـذى تـصهر فيـه كـل الاختلافات، ومهما تدخلنا فى هذه العملية فلن يغضبها أحد. إن يأسنا يزيدها قوة وطاقة. إنها تشكلنا وتعيد تشكيلنا، وهل يجرؤ أحـد علـى الاعتراض أو أن يطالب باهتمام أكبر لواحـد من المخلوقات عن غيره؟ ولو كانـت درجـة الارتباط بها أو عدم اهتمامها بنا واحدة، ماذا سيعنيها الأمر لو هاجم أحد الآخر أو أذاه؟**(١٠)

إن الاعتقاد فى الحب الأخوى بين البشر، كما يقول "دى ساد" ، هـو وهـم طالبتنا به المسيحية، وهى حالة تدعونا فيها إلى التسامح والتراحم، وتقـول إنـه لا اختيار لنا إلا أن نتمسك بهذه العلاقة الخيالية بين شخص وآخر. لقد أعلن "دى ساد" أنه يكره المسيحية وسماها "هذه الطائفة الدينية المرعبـة والمروعـة"، ووصـفها بالغموض وعدم المعقولية.

إنك الآن ربما تفكر أن رأيه هذا؛ يذكرنا بالملحدين فى العصر الحديث، وأن الوقت حان لبعث وتجسيد جديد ضد هذا الفكر. قاوم هـذا الإغـراء، فـإن مـن "يقودون" هذا الفكر من أتباع "دى ساد" يقولون إنهم عمليون ولهم آراء إيجابية جدا عن الطبيعة. إنهم يرون أن فى الإيمان بالعلم والعقلانية مبـررا كـافيا لمبـادئ

الأخلاق المتحضرة، وهم يتجهون إلى علم النفس التطـوري ليثبتـوا أن الإنـسان منحته الطبيعة خصيصة الحرص على التزام قواعد السلوك الشريف، أو على الأقل منحتنا القدرة على درجة محدودة من هذا الالتزام(١١).

إن "دى ساد" يلتزم برؤية "سوداء"، فهو يرى العالم الطبيعى ينبض بالقسوة، ففيه تقتل الحيوانات والبشر بعضها بعضا دون أى ندم، وغالبًا مـا تتـنـزل الألـم المبرح والممتد أثناء ذلك. إنه يتحدى أى شخص يحاول تبرير الـسلوك الأخلاقـى قائلا: "لماذا يتحتم علينا أن نهتم بالمبادئ والمشاعر الأخلاقية إطلاقا؟". ولماذا نقلق أنفسنا ونزعجها بهذا الإطار الأخلاقى، وموانعه ومحاذيره المقيدة والباعثـة علـى الضيق، والتى تُشعرنا بالذنب والحصر النفسى؟ لماذا لا نعتمـد، ببـساطة، علـى التفكير فى المصلحة الشخصية التى لا تراعى مصالح الآخرين ونحسب المكـسب والخسارة ونتصرف تبعا لذلك؟ وحتى لو كان "دى ساد" قد أخطأ بخصوص صحة هذا الرأى، وحتى إذا كان ما يقوله علماء الـنفس "التطوريـون" عـن المـشاعر الإنسانية الطيبة كجزء من طبيعة الإنسان قولا صحيحا، فإن هذا لا يعنى أننا يجب أن نسترشد بهذه الآراء فى سلوكنا. إن السلوك الشرير غير الأخلاقى يبـدو أنـه "تشوئى" وقد يتطور. وعلاوة على ذلك، فإن جزءا من طبيعة الإنسان تكـون لـه ملاحق و "ذيول"، لكننا نتصدى لها ونبترها بمجرد أن تبدأ فـى تهديـدنا وإنـزال الضرر بنا. ربما علينا أن نفعل الشىء نفسه مع المبـادئ والمـشاعر الأخلاقيـة ونعتمد على المصلحة الشخصية، فى اللطف أو البـذاءة، وإن قالـت المـصلحة: "جرّب القسوة"، فليكن الأمر كذلك.

ويشمل هذا التحدى من "دى ساد" اتجاهين مهمين. الأول، والـذى لا يتجـاوز اللغز الفلسفى القديم، هو مشكلة حرية الإرادة، فلو أن كل ما نفكر فيه ونشعر به ونفعله مُقّدر علينا، كجزء من سلسلة سببية، فكيف يمكن أن نكون عوامل فاعلة كمـا تتطلـب

مبادئ الأخلاق؟ أما الاتجاه الثاني: ففيه تساؤل عن لماذا نضايق ونرهق أنفسنا بالالتزام بقواعد الأخلاق. إن الدين هو ينبوع السلطة الأخلاقية، ولكن بما أن هذا "الوهم المروع" قد نبذه "دى ساد"، فلماذا يكون هناك أى سلطة لقواعد الأخلاق بالمرة؟

مشكلة الإرادة الحرة :

لقد قال الفلاسفة والعلماء وآخرون الكثير عن الإرادة الحرة والقدرية، مما لا يمكنني من عرضه هنا. ويكفي القول بأن بعض المفكرين يقولون إن الإرادة الحرة غير مطلوبة كى يتمكن الفرد من فعل ما تمليه القواعد الأخلاقية(١٢). وإن كانت الحال كذلك: فإن موقفنا من الإرادة الحرة لن يؤثر فى مفهومنا عن القسوة.

ومع ذلك ... فنحن نتأمل عجائب العلم الحديث عن دراسة المخ- والتى تتوق تصريحاته؛ لأن تُعلن أنه بمزيد من التمويل سوف يستطيع العلماء أن يكتشفوا ويفهموا سر هذه "الكرة الرخوة" ويُعدّلوها للأفضل- ونحن نراهم يتصيدون شروحا "ميكانيكية" لسر وراء سر فى "شِباك" أبحاثهم. ويبدو أننا فى النهاية نستطيع أن نتابع السلسلة السببية للقدرية فى مخ الإنسان، فإذا كان ما يجرى فى مخ الإنسان فيما بين الملاحظة والسلوك هو مجرد علاقات اقتران وتزامن سببى مُطّرد ومتواصل كما قال "دافيد هيوم" David Hume، أو علاقة إحصائية متبادلة – وهو البديل الحديث لنظرية "هيوم" الثورية – إلا تكون النفوس إذن مجرد مكان تطلق الأسباب فيه النتائج، أكثر من كونها عوامل فاعلة نشعر بوجودها (١٣)؟ وإذا لم يكن هناك ما هو موثوق به ومؤكد بعلم الوجود فى رءوسنا، فمن المؤكد أن مبادئ الأخلاق أيضا هى إحدى الرفاهيات التى يجب أن نتخلص منها. وإذا كانت "النفوس" غير حقيقية، وهم وزيف، فما الذى يقتل الضحايا الذين لا يملكون الدفاع

عن أنفسهم؟ وإذا كانت المُدخلات تُطلق المخرجات، فهل يُعتبر المجرمون مسئولين عن الفظائع التى يرتكبونها؟

وفى البداية، علينا أن ندحض فكرة أن القدرية تلغى "المعنى" فى الذهن؛ لو اعتبرنا أن الأفكار والرغبات ما هى إلا إشارات تقذف بها الخلايا العصبية فى المخ. ولنفكر فى ذلك بالقياس على اللغة(١٤). هل الكلمات حقيقية؟ إننى عندما أكتب كلمة "قطة"، فإنك لديك فكرة جيدة عما أعنيه، لأنك التقيت قططًا حقيقية وتعلمت التكلم عنهم. وعندما قال "تونى بلير" Tony Blair ، فى أثناء رئاسته للوزارة البريطانية، عن الإسلاميين: "إن ما نواجهه هنا هو مذهب فكرى شرير (أيديولوجية) فقد فهم مستمعوه المعنى الوارد فى هذه العبارة، ولم يكن فهمها ممكنًا إطلاقا لو حدثهم بلغة غير الإنجليزية(١٥). إن بلير بذلك كان يشير إلى معتقدات ليس مشاركًا فيها ولا يحبها. إننى أعرف هذا كما أعرف عن القطط، لأن كلمة "معتقدات" تشير إلى أشياء حقيقية كالقطط؛ إنها أنماط من نشاط عصبى بالذهن تصل بين مؤثرات خارجية واستجابات لها. وربما لم يكن ميسرًا لنا ملاحظة هذه "الكيانات" موضوعيًا دون التكنولوجيا المتقدمة. والحال كذلك فى أشياء مجردة (مثل سرطان المعدة أو فيروس الأنفلونزا)، إلا أن كل هذه الظواهر حقيقية.

وهل الكلمات مجرد أنماط من موجات صوتية، أو أشكال مكتوبة، أم هى بنى وأنماط عصبية بالذهن أو غير ذلك؟ بالطبع لا. إن هذه الصيغ ضرورية بالنسبة إلينا لنستطيع الاستحواذ على الكلمات ونستخدمها، لكن مسألة العلاقات والارتباطات هى أن هناك أمورًا متعلقة بها: أشياء مُدركة بالحواس، أحداثًا، سلوكًا من البشر، أو أى شىء آخر يخطر ببالك. وكى نفهم ما تعنيه أى كلمة فمعناه أن نفهم كيف يستخدم الناس هذه الكلمة، وكى نفهم ما العلاقة المتبادلة التى يرتبط بها نمط عصبى مع غيره؛ فمعناه أن تفهم كيف يعمل هذا النمط، ودون الإشارة إلى

هذه العلاقات والارتباطات السببية. فربما يصبح نشاط الخلايا العصبية مجرد "ضجة عشوائية بلا هدف"، ولكن هذا النشاط حقيقى (بفضل أدوات العلم الحديث لدراسة الجهاز العصبى) مثله فى ذلك مثل الكلمة المدونة على الصفحة. وكلاهما بلا معنى إلا إذا فهمنا كيف يُستخدمان، وما مظاهر الوجود التى يرتبطان بها. وإذا وضعناهما فى مضامين أخرى ثابتة لها صلة بالسلوك العصبى مع مؤثرات واستجابات- معتقدات ورغبات وأفكار وأهداف.... إلخ، فسيكون كل منهما حقيقيا وله مغزى.

مشكلة المبادئ الأخلاقية:

وماذا يفعل علم دراسة الجهاز العصبى بالنسبة إلى فكرة أن القدرية تقلل من شأن وقيمة المبادئ الأخلاقية؟ إن مصطلح "السلسلة السببية" فى حد ذاته يوحى بالقهر.. أليس كذلك؟

إن الحافز أو المؤثر الخارجى يسير خلال الأعصاب وأطرافها مثل جيش ديكتاتور والهزيمة، شىء حتمى فى خضم التشابكات العصبية. وأنت تنفعل أو تنتفض استجابة لذلك. دعنا ننحى جانبا حقيقة أن هذا تبسيط شديد ومضحك لما يحدث (كصورة لما يفعله المخ)، حتى إن كان ينطبق على ردود فعلك السريعة جدا، تلك التى لا تصل أبدا إلى أبعد من مركز الجهاز العصبى فى الحبل الشوكى. وفكر فى بديل لذلك: أنت الشخص الحقيقى تسير فى رضا تام فى الشارع، وفجأة تتحرك ذراعك دون أى سبب.. هل هذا يجعلك فعلاً إنسانا حرًا أو شخصا مُشوشًا أو مخبولاً يتخيل أنه يُذّرى القمح؟ إن الحرية بالتأكيد تتضمن القدرة على الفعل بالاختيار. أو بمعنى آخر، إننا نريد أن نفعل أى شىء لأسباب محددة، وليس لأى

خلل فى منظومة البدن أو الطاقة أو لتعطل مفاجئ فى قوانين "الفيزياء"؛ لأنها "فى إجازة"[٦٦].

والأسباب، بالطبع، أشياء يملكها ويُسَيرها الناس وليس المخ. إنها، أيضًا، مبررات ودواع وليست "مخلفات" لحياتنا الذهنية؛ فهى تؤثر فينا وتدفعنا للفعل بأساليب معينة. انظر إلى اللغة مرة أخرى وتأمل العبارات: ذهب "راف" إلى المتاجر ليشترى خبزًا، و"كريس" يغار من "سام" لأنه صديق "سوزى"، و"أليس" ارتعدت عندما رأت خيطًا على السجادة لأنها ظنت أنه عنكبوت. وبمعنى آخر لا بد أن تكون هناك علاقة سببية بين المبرر والفعل الذى يُحْدثه (وهل لو كان عندك سبب للفعل ولم يؤثر فى سلوكك فهل ستكون حرًا؟ لا ... إنك ستكون "دمية" لا تملك إرادة الحركة. والعقول هى التى تزودنا بـ "المادة" التى تُبْنَى منها هذه العلاقة السببية، تمامًا مثل الموجات الصوتية التى تمدنا بالمادة اللازمة للكلام والأفعال.

وأحد أسباب عدم السعادة التى يشعر بها الناس عندما نناقش هذه الأمور؛ هو الاستعارة الجبرية فى عبارة "السلسلة السببية". فإذا كانت كل خطوة من المدخل إلى المخرج تتحدد بالخطوة التى تسبقها؛ فأين الإرادة الحرة؟ وهل هذه الصورة – البشر مثل الدمى التى تتحكم فيها خيوط الخلايا العصبية– خادعة ومضللة؟ ولأحد الأسباب، إننا لا نستطيع أن نسميها "خيوطًا"، لأنه حتى فى أبسط حالات رد الفعل الانعكاسى فهذه الخيوط تتلقى تغذية مرتجعة من ذاتها وتُجَمع نفسها فى "عقد" وتتشابك بروابط لا تعد ولا تحصى. و"خيوط" الخلايا العصبية هى الأخرى ليست مثل الخلايا العادية بالمرة. وبدلاً من خيط واحد متصل تكون لدينا شرائح – خلايا عصبية– متصلة بوسائل متداخلة أو خط من نسيج (تشابكات النهايات العصبية)، مثل طريق طويل عليه عديد من "الكبارى"، كل منها قد يغيب أو يُفْقد ويضيع أو لا يضيع فى أى لحظة حسب تاريخه وحسب مستويات المرور الحاضرة أو السائدة

على هذا "الطريق" أو على كل الطرق التى يتصل بها. غير أنه ، مرة أخرى، لا يوجد لدينا أى تأكيدات هنا. وفى الختام يبقى كل "خيط" كما هو بسببك، أى ما فعلته وتدخلت فيه: جيناتك، غذاؤك، نزعاتك وميولك، ومعتقداتك، ومن قابلتهم من الناس فى طريقك فى هذه الفترة الزمنية المتصلة، وخبراتك وتجاربك فى الطفولة وهكذا ... بلا نهاية. إن "النفس" متعددة، والمخ سوق من الخلايا العصبية صانعة ومنتجة للضوضاء المزعجة، لكن الأفكار المتصارعة، والنوازع التى تشدك وتسحبك إلى اتجاهات معاكسة هى منك وملكك.

إنك متفرد وأنت المسئول(١٧). ومعظم ما تفعله لا تدركه بذاتك الواعية، لكنك أكبر بكثير من مجرد الذات الواعية. فى جسدك، مثلا، إنك تقوم بالأفعال لأسباب تبدو لك جيدة. وبإمكانك التفكير فى سلوكك، وأن تقرر فيما يتعلق بفعلك وتقرر أن تتصرف بصورة مختلفة فى المرة المقبلة، وتتنبأ بما سيأتى وسيحدث، وأن تغير رأيك، وتختار أن تجرب طعامًا آخر.. ماذا تريد أكثر من ذلك؟ هل تشعر بالفعل بأنك أقل حرية لأن مخك "يسبب" بعض سلوكياتك دون أن "تلحظه" أو تدرك ذلك؟ نعم؛ لأن مخك يُسّير حركة البنكرياس. وهل ستشعر بأنك أقل حرية لأن مخك يُسير أحشاءك الداخلية طوال الوقت؟ ومرض السكر الذى يطلب من المريض أن يُديره جزئيًا ويملك مظهرًا ضئيلاً من التعامل معه ولا يعرف ما الباقى! وهل ستشعر بالحرية أكثر لو حدثت بعض أفعالك بدون تدّخل هذه الخلايا العصبية المزعجة؟ لا ... إنها مجرد وسيلة تستطيع بها أنت أن تجعل أفعالك تحدث. ودونها لن تكون أفعالك حرة؛ لأنك لن تكون أنت سبب حدوثها، إنك ستكون مثل مريض "الشيزوفرنيا" أو انشطار وانفصام الشخصية الذى يعتقد أنه لا يتحكم فى حركاته؛ إلا إذا كان اعتقادك هذا صحيحا. إن هذا يعد حبًا للتملك أو الفوضى وغياب "حكومة"، وليس حرية.

ولو قلنا إن الناس تتأثر بكثير من العوامل والمواقف (ضغوط الجماعة، أفكار المسيطرين، أو حتى الألوان والأصوات بالبيئة، والروائح). فهذا ليس مثل قولنا إن هذه المتغيرات البيئية تسبب بالقدر الكافي سلوكا متعمدا مثل القسوة، لكن هناك بالطبع ردود أفعال ناشئة من شخصية الفرد: معتقداته التي يعتنقها، خلفيته الجينية، أو حالته الجسمانية، وخبرته السابقة... إلخ وكلها تسهم في النتائج. إن باقي الناس تشعر بأنها مختلفة عنك جدا، والشعور الواعي ليس إلا غثاء ورغوة سابحة على سطح محيط كبير، إلا أنها جزء منك، ابتعد اصطناعيا بفعل اللغة التي نستخدمها كي نصفها، وهذا الزبد والغثاء الذي يخصك لديه القوة على الغوص في المحيط وفهم تياراته، ويمكنه أحيانا حتى أن يغير قوته واتجاهه. إنه أيضا جزء من المحيط وأنت المحيط كله، وماذا ينتج عن ذلك إن لم نكن نحن عوامل فاعلة تسبب التغييرات في العالم- جزئيا وفي حدود- إننا عملاء منحازون، لكننا نحن عوامل فاعلة رغما عن ذلك[٢٨].

المبادئ الأخلاقية.. تخفيض، تكرار، أم تدوير؟

تقول نظريات "داروين" لقد طورنا المبادئ الأخلاقية؛ لأنها كانت مفيدة. وكان علينا التأني قبل التخلص منها، لأن الشيء الذي جُرّب واختُبر على مدى مئات من الأجيال لن يكون من السهل أن يُستبدل بشيء آخر يحل محله. ولن تستطيع القواعد القانونية أو الأعراف الاجتماعية تغطية كل الاحتمالات والحالات، كما أن العالم الحديث قد أضعف كثيرا من سلطتيهما. وحتى المجرمين الذين يرتكبون أفظع جرائم العنف مثل الاغتصاب والقتل؛ أصبح من المحتمل ألا يلقوا أي عقوبة قانونية، إنهم ربما يُنبذون من مجتمعاتهم، ولكن في عالم اليوم المتسيب

والمانع لم يعد هذا جزاءً رادعًا كما كان، بما أن التنقل بين الجماعات والتحايل على محو السمعة السيئة أصبح أسهل كثيرًا.

إننا نحتاج قوانين وعقوبات رادعة، لأننا كحيوانات اجتماعية نواجه مشكلتين لا فكاك منهما. الأولى: هى أننا لا بد أن نتفاعل مع بشر آخرين، وإن سببنا لهم ضررًا؛ فربما يضرّونا إن استطاعوا- وإن لم يستطيعوا فأصدقاؤهم أو أقاربهم، أو من لا يتوافقون معنا، قد يعاقبوننا نيابة عنهم. والمشكلة الثانية: هى أننا نقضى جزءًا كبيرًا من حياتنا معتمدين على النوايا الحسنة من الآخرين. فنحن فى الطفولة ضعفاء نحتاج الرعاية، وفى الكبر يُفْقدنا السن والمرض كثيرًا من دفاعاتنا. والقوة التى يمكننا أن نُجبر بها الناس على تحقيق النفع والخير لنا لا يمكن أن تدوم، ولا بد أن نجعلهم هم الذين يريدون أن يساعدوننا. وقواعد ومبادئ الأخلاق على الرغم من أنها تبدو مُحَددة للسلوك؛ لكنها لازمة عند من ينهج نهجًا أخلاقيا مستقلاً: افعل هذا فقط، راعى بناء الثقة، الاحترام المتبادل، المشاركة التى تجعل الفائدة والخير لمن نحبهم شيء يهمك. ولو كنت عضوًا ذا قيمة فى جماعة- ويُعْتَنى بك – فهذا يمدك بشكل من أشكال الضمان والأمان الاجتماعى الذى يمكن أن تكون له فائدة عظيمة فى أوقات الضعف. وكما أظهرت الدراسات مكررًا، فإن الشبكات الاجتماعية غير الفاعلة تمثل عامل مخاطرة لمن يعانون قصورًا فى الصحة البدنية أو العقلية، فهى تقلل من الشعور بالرضا وربما تسبب الوفاة المبكرة(١٩).

وكما يقول بعض الملحدين: "دون الدين لماذا نكون ملتزمين أخلاقيا؟"؛ ويبدو هنا الخط الثانى من التحديات التى طرحها "دى ساد" مغريا، لكنه يغفل خطأً جسيمًا فى افتراضاته. فإذا كانت القوة فوق الآخرين يمكن أن تكون مطلقة ودائمة، فلن يكون هناك مبرر للأقوياء بأن يهتموا بالضعفاء. وفى الواقع العملى القوة دائمًا غير مضمونة. فالناس تكبر فى السن وتشيخ، والتحالفات تتغير، والأنظمة تسقط، وتبقى

إمكانية التعذيب، مهما فعلنا لنحد منها، إلا أنه في يوم ما قد يجد الإنسان القوى السادى نفسه مضطرا إلى الاعتماد على الناس الذين اعتاد تعذيبهم.

إن مبادئ الأخلاق تحول دون نماذج كثيرة من القسوة. إلا أن المبادئ الأساسية للأخلاق، كما رأينا، مشروطة ولا يُرحب كل الناس بمآثرها وخيرها. كما أن المشاركة الوجدانية أو التعاطف يمكن أن تُكتم، أما إقصاء الآخر فيمكن أن يُصعّد، حتى تصبح القسوة شيئا عقلانيا ومنطقيا تماما، والمجرمون لا يفقدون السيطرة على شرورهم كلية، وقد يتغلبون عليها مؤقتا، وعندما أقنع ستانلى ميلجرام "Stanley Milgram" المتطوعين لإعطاء الصدمات الكهربية لشخص برىء لم يأخذوا الأمر بلا مبالاة ولكنهم احتجوا وتصبب منهم العرق وعانوا وتألموا. والضباط الألمان الذين قتلوا الأطفال اليهود ربما تحجرت قلوبهم لدرجة اللا مبالاة أو السادية بمرور الوقت، لكن كتاباتهم المعاصرة مليئة بالشكوى مما طُلب منهم فعله. وفي واحد من التقارير التى كتبها عضو فى إحدى فرق الجيش الألمانى قال: "إن بعض زملائه لم يستطيعوا أن يتواءموا مع الأوامر التى أعطيت لهم"، واستطرد قائلا فى تقريره:

> استسلم كثير منا لشرب الخمر، وعانى كثير من الانهيار العصبى والأمراض النفسية. وعلى سبيل المثال انتحر بعض، وفى حالات أخرى انهار الرجال وأطلقوا أسلحتهم بوحشية حول المكان حين فقدوا السيطرة على أنفسهم تماما. ولما حدث ذلك أصدر هملر "Himmler" أمرا بأن على كل من لا يمكنه تحمل الضغوط

> العصبية أن يبلغ رئيسه من الضباط. وكان هؤلاء الرجال "يسرّحون" ويُعفون من واجباتهم العسكرية ويقومون بأعمال أخرى فى الوطن. وعلى ما أتذكر، فإن "هملر" أقام مقرًا للنقاهة والاستشفاء قريبًا من برلين "Berlin" لمثل هذه الحالات. لقد صدر هذا الأمر كتابة، لقد قرأته وحفظته فى "الملف" بنفسى(٢٠).

ويصف الكاتب هذا الأمر الصادر من "هملر"؛ بأنه حيلة شريرة وماكرة: "ومَن مِن الضباط كان سيفضح نفسه بهذا الأسلوب؟ وعلى الرغم من ذلك فقد اختار بعض الأفراد أن يُعالجوا فى دار النقاهة، وحصلوا فعلاً على العلاج. وقد اعتنى أيضًا بالجنود المرضى والمصابين، إن النازى لم يتخل عن المبادئ الأخلاقية لكنه، ببساطة، ضيق من نطاقها".

ويستطيع البشر الحقيقيون والعاديون، بعكس من نبالغ فى أن ننسب لهم صفات سواء سلبا أو إيجابا، أن يكونوا رحماء وقساة أيضا؛ فإذا اعتبرنا القسوة كصفة شخصية لإنسان ما، فإن أى شاهد أو دليل على تراحمه أو طيبته حتما سيخفف من حكمنا الأخلاقى على قسوته، لكن إذا تقبلنا القسوة على أنها سلوك وليست صفة أخلاقية - فسيكون الإنسان مسئولاً عن سلوكه القاسى مثلما هى الحال فى سلوكه الطيب. وكثير من القوانين الأخلاقية الوضعية، مثل مبادئ الديانة المسيحية، تصر على هذا التمييز، فهى تفصل بين الفضائل الاجتماعية وبين الخطايا ضد المجتمع، وبين الناس وما يرتكبونه من خطيئة (وهذا عمليا معناه، أكره الخطيئة لكن أحب المخطئ، وهى واحدة من الوصايا التى نالت أكبر قدر من السخرية فى التاريخ)، ومثل هذه المبادئ الأخلاقية أيضا تعادل ما تحرص عليه

الجماعات من مبادىء الأخلاق الأساسية بأن تمتدح السلوك الجيد والسوى من الغرباء وليس من الأعضاء من داخل الجماعة.

وحتى المرضى النفسيين الذين لا يدركون القواعد الأخلاقية؛ يرون أن هذه القواعد وجدت من أجل الآخرين، وأن هناك سلوكيات معينة تعتبر خطأ وتعرض الإنسان للعقوبة، ولا تتوارى هذه المعرفة فى المواقف التى تؤدى إلى العنف. إنها قد تُغفل عن عمد أو تزاح على غير الرغبة، لكن الأنماط العصبية التى أسستها لم تتوقف عن الوجود لمجرد أن رغبات أخرى غمرتها. إن المبادئ الأخلاقية غير كاملة بلا شك، ولكن بالنسبة إلى الكائنات المتطورة يكون نقصان الكمال دائمًا هو الموقع الذى نبدأ منه المحاولة المتصلة لتغيير أنفسنا؛ إذ إن فهم الأساس الإنسانى للأحكام الأخلاقية هو الذى يتيح لنا أن نبدأ مخاطبة مشكلاتها الشاملة، إن هذا هو الهدف الواقعى للبحث العلمى وليس إبطال أثر المبادئ الأخلاقية.

إننى باعتبارى غربية علمانية عصرية تدربت فى معامل العلم، فإننى قد افترضت فى هذا الكتاب أن الفهم العلمى يستحق التحرى والأخذ به وأنه من الممكن أن يُطبّق فى أى مجال بحثى. حتى فى دراسة القسوة. ومهمتى الأخيرة هى التفكير فى مواجهة هذا الافتراض، وهذا التحدى أو المواجهة ليست علمية أو فلسفية، إنها أيضًا أخلاقية. إن القول هنا هو إننا لا يمكننا، ويجب علينا، ألا نحاول شرح وتفسير شرور الإنسان فى سياق علمى أو بلغة علمية فقط.

هنا لا يوجد تبرير، أو "لماذا":

ما أفظع المعاناة التى قد تحملها من تعرض للتعذيب مرارًا. لقد قُطِّعت أوصاله وظهرت به السجحات وبدا عليه الإنهاك، فلم

يستطع أن يرفع يده إلى فمـــه لعـــدة أســـابيع وتورم جسده من الالتهاب. وبعد إخلاء سبيله شعر بتأثير هذه القسوة طوال الفترة الباقيـــة من حياته، فكانت تنتابه رعشات موجعة بصفة متكررة والتى لم يصادفها أبـــدًا قبـــل مأســـاة وقوعه تحت يد السادة الدمويين القساة الذين استجوبوه فى التحقيق.

("جون فوكس" John foxe ، كتاب الشهداء)

هناك ادعاء بسيط: حتى نفهم القسوة فإننا نلغى مبادئ الأخلاق ونغفر للفظائع والأعمال الوحشية بأن نحاول أن نشرحها ونفسرها. ولو جعلنا المجرمين يبدون أقل شرًا؛ فإننا نقلل من شأن معاناة ضحاياهم.. وهذا، أخلاقيا، نوع من عدم الحياد مهمـــا حاولنا إظهاره بمظهر العلم المحايد. وكما جاء فى العبارة الشهيرة التى قالهـــا كلـــود لانزمان "Claude Lanzmann" فى فيلم "Shoah" [٢٠]، "هنا لا يوجد تبرير". وأســـوأ الأعمال الوحشية تتحدى فهمنا وتستعصى عليه، فهى لها قداسة خاصـــة ويجـــب أن تبقى بعيدًا عن يد العلم الضعيفة؛ لأنها لا يمكن فهمهـــا بـــسبب الرهبـــة والأســـرار المروعة التى تحذرنا من الاقتراب من هذه الشرور. ومرتكبو الجرائم قد عبروا إلى حدود الشر، والكلام فى ذلك فيه انتهاك لحرمة ذكرى من ماتوا.

ويأخذنا هذا مرة أخرى إلى جوهر الشر، بأن نرى قسوة البشر سادية مقيتة (وهى الابتهاج بتعذيب وتدمير الضحية) أكثر من أن نعتبرها فرضًا للقوة بدافع من جمود الفؤاد (لأسباب قد تبدو منطقية). وكما رأينا، فإن هذا المنهج يثير المشكلات، لكن علينا أن نفهم لماذا يُرْضى هذا النهج الذين يؤيدونه. إن أحد الأسباب بالتأكيـــد

يتعلق بمعاناتهم الشخصية. وسواء كانوا هم الضحية أو فقدوا من يحبـــونهم أو رأوا رموزهم ومثلهم الغالية والمقدسة تهاجم وهوياتهم المادية والمعنوية تنتهـــك؛ فهـــذا يجسد ألما شديدًا. ومصدر هذا الألم يطرح معنى كبيرًا، ونكران هذا المعنى نكران لمعاناتهم. ولن يكون للغة العلم الباردة وغير الأخلاقية مكـــان هنـــا، أى للمعـــانى المجردة.

وهناك فائدة أخرى من إضفاء جو من القداسة على القسوة التـــى تتعـــرض أنت لها، وليس ما يتعرض له الآخرون، فهذا يُسَهل من وقع المـــسئولية. فمعرفـــة كثير من الفظائع يُرَسخ الشعور بالذنب، حتى إن كُنت لا تـــستطيع منعهـــا، فمـــن الأفضل أن تركز على الألم الذى تعرفه أنت وجماعتك. ومعاملة معاناتك كـــشىء خاص - أى معاملة خاصة - من الممكن أن يعميك عن سلوكك الذى يفتقد الرحمة تجاه الآخرين. وضحايا العنف يمكن أحيانًا أن يتصرفوا كما لو كان عذابهم يتـــيح لهم ممارسة القسوة مستقبلاً، حتى ضد أهداف لا علاقة لها بالمجرمين الذين اعتدوا عليهم، وهذا قد يبرر لهم أيضًا أى إجراء حتى إن كان قتلاً للأبرياء (ومنطقهم: لا تعاقبنى فإن معاناتى هى التى جعلتنى أفعل ذلك)، فهل هناك منطق فى أن يتحـــول من أوذوا إلى قوم قساة!

وما نؤكده الآن أن معظم قسوة البشر ناشئة عـــن الطـــيش والـــلا مبـــالاة أو جمود وغلظة القلب، وليست سادية شيطانية، ولو نحينا جانبًا المـــشكلة التـــى لا حل لها بخصوص تحديد نوايا وأغراض المجرم، فإن الهالة التى نحيط بها أفعـــال العنف تجعل الضحايا مُحاصرين بمفهوم "الماهية والجـــوهر" - فطـــرة الـــصالح والطالح من الناس- ويلاحظ هذا بصفة خاصة فى حالات الإبادة الجماعيـــة، وإذا ارتبط معها اتهام بالسادية فسوف يجعل هذا الاتهام حادث الإبادة مثيرًا للجدال أكثر من أن يُقال إنها مجرد "مذابح"، بما أن الابادة الجماعية، مثل السادية، تلقى بـــاللوم

على فطرة وطبيعة من يرتكبها[٢٢]. إن الرغبة فى المحق والإبادة، والرغبة فى إحداث المعاناة يمكن أن تنبذ - بإقصاء الآخر - على أنها شر خالص، وقد يعفينا ذلك من مسئولية اعتبار القسوة، بشيء من الجدية، سلوكًا متغيرًا لا شرًا متأصلاً.

أما لو كان مفهومنا الأخلاقى يستدعى التركيز على الضحية من منطلق معاملة الضحية ديمقراطيًا كإنسان له حياة وكرامة ومحبون قد فقدهم، فسوف لا نهدر الوقت فى الاهتمام بدوافع المجرم وسنحاول إصلاح ومنع الضرر. ومن حُرموا وعانوا ليس عليهم المكافحة، ربما لسنوات، ليعترف الناس بما عانوه. إننا نرى القتل فى أى صورة كانت شيئًا بغيضًا جدًا، سواء كان فى إبادة أو مشاجرة أو مع سبق الإصرار. ونحن نحكم على القسوة بالنظر إلى الحالة النفسية لمن يتصرفون بقسوة، لكننا نقرن ذلك بمعاناة الضحية. غير أن اهتمامنا بالطرفين ليس متساويًا أو بالقدر نفسه، فالضحايا ليسوا على غرار واحد وإقصاء الغير قد يطال الضحية كما يمس المجرم. وإضافة لذلك، فاهتمامنا لن يكون بما حدث للناس فقط، ولكن بما قد يحدث لنا أيضا. إن ذلك، مع دهشتنا من الشر، قد يجعل التفكير فى الحالة الذهنية للقاتل تسيطر على فكرنا، ومهما كان شعورنا تجاه ضحايا القسوة فلن يجعلنا ذلك نتفق معهم على أن مصيبتهم لا مثيل لها. ولن يكون لدينا مبرر قاطع بأن نصنفها كإبادة، أو مذبحة، أو قتل فى محيط صاخب أو حالة سكر، أو أن نقيّمها أخلاقيًا وفق تدرج، كالأسوأ والأفضل. إلا أننا نفعل ذلك.

وعلى مر التاريخ لم يكن "الهولوكوست" هو أول إبادة جماعية، غير أن هذا المصطلح تمت صياغته استجابة لهذه الواقعة[٢٣]. لقد محا "يوليوس قيصر" قبائل بأكملها، قتل الكثير وباع من بقى كعبيد. ولم يكن "الهولوكوست" أول إبادة جماعية يرتكبها الألمان فى العصر الحديث؛ فقد افتتح الاستعمار الألمانى القرن العشرين بالنهب والتخريب- ولا أستطيع القول بأنهم أبادوا "عشرًا". بل أقول ثمانية أعشار

من قبائل الهرارى فى الدولة التى تسمى الآن "ناميبيا"[٢٤]، ولم تكن ألمانيا "المجرم" الأوروبى الوحيد، فقد أنزلت بلجيكا الخراب والدمار بجميع سكان الكونغو[٢٥].

وكما يقول بعض الناس، فهذا مثل ما حدث فى الهولوكوست، هل هو شر محض؟ حقاً؟ وهل نحن نريد بأمانة أن نقلل من شأن ما حدث فى رواندا وكمبوديا والمستعمرات فى إفريقيا، وفى الأمريكتين؟ وهل نريد حتى التفرقة بين الإبادة الجماعية والعمليات التى يتسبب فيها الإنسان فى القتل الجماعى، وبذلك نخفض درجة القسوة فيما حدث بالصين فى أثناء الحرب العالمية الثانية والمجازر فى أوكرانيا، والمجاعة فى أيرلندا وأندونيسيا فى الستينيات وغيرها كثير[٢٧]. إن هؤلاء الضحايا، الذين نسيناهم فى الغالب، مثلهم مثل يهود أوروبا الذين عانوا ولم ينعاهم ويحزن عليهم سوى من حرموا منهم – من أهاليهم. وقد نشر المغامر الأمريكى والتر هاردنبرج "Walter Hardenburg" تفاصيل ما رأى فى منطقة نهر "بوتوماى"(*) (من الأمازون) فى السنوات الأولى من القرن العشرين، عندما كانت مؤسسة عمال فى "بيرو" يدعمها مستثمرون بريطانيون تستخدم الأهالى (معظمهم من قبائل الهيتوتو)، من الهنود باعتبارهم عمالة جبرية بالسخرة لاستخراج المطاط.

لقد كتب "هاردنبرج" يقول:

> **كان الهنود المسالمون يُرغمون على**
> **جمع المطاط دون أجر أو طعام، وهم عراة.**
> **وكانت نساؤهم تُسرق وتغتصب ثم يقتلن.**

(*) نهر فى أمريكا الجنوبية ينطلق بين كولومبيا وبيرو عبر البرازيل ليتصل بنهر الأمازون – واسمه "برازيلى" وطوله ٩٧٥ ميلا.

وكان الهنود يُجلدون بالسياط حتى تظهر عظامهم إذا لم يطرحوا كمية كافية من المطاط، أو حاولوا الهرب. وكانوا يُتركون حتى يموتوا بالجراح التى تتقيح وترعى فيها الديدان، وتؤخذ جثثهم كطعام للكلاب. وكان جلد الرجال والنساء والأطفال بالسياط هو أقل أنواع التعذيب التى استخدموها، فكان الهنود يُقيّدون فى آلة التعذيب وتقطع أوصالهم بالمنجل ثم يصلبون ورءوسهم إلى أسفل وأرجلهم قد تبتر أو تستعمل كأهداف للتدريب على التصويب وإطلاق النار. كما كانوا يُغْمرون بالبترول ويتم حرقهم وهم أحياء، كل من الرجال والنساء.

هل فى هذا مبالغة من شخص انشق على جماعته واتخذ مسلكًا محايدًا ومستقلاً؟ ليست هذه هى المرة الوحيدة، فعندما أرسلت الحكومة البريطانية التى تساهم فى هذه المؤسسة المسئولة عن جمع المطاط، مبعوثها روجر كيسمنت "Roger Casement" – (وهو الذى كتب تقريرًا عن الجرائم الفظيعة فى الكونغو أيضًا– كى يتحرى الادعاءات عما حدث فى منطقة "بوتاماى"، كتب تقريرًا سبب احتجاجات عنيفة عندما نشرته الحكومة البريطانية عام ١٩١٣. فقد قدّر التقرير أنه فى اثنى عشر عامًا من اضطهاد البيض للأهالى انخفض عدد السكان نحو ثلاثين ألفًا(٢٩). ومن الآن يتذكر من أهل "بوتوماى"؟ ولم يُعتبر القتل إبادة جماعية، إنه فقط مجرد مثال وشاهد على ظلم واضطهاد المستعمرين. فهذه المؤسسة، فيما يبدو، كانت

تظن أن هذه السخرة في العمل ستكون بلا نهاية؛ لأن حياة هؤلاء الأفـراد رخيـصة جدا لا ثمن لها. ومن هذه القسوة البالغة الناشئة من جمود الفؤاد نشأت السادية التـي صدمت من كتبوا عنها، "هاردنبرج" ، "وكيسمنت"، ومن قرءوا كتاباتهم.

إن من أسوأ الأمور أن تقتل شخصا؛ لأنه يرمز لنوع من البشر قررت أنت أن وجودهم غير محتمل ولا تسامح معهم؛ لأنهم يحولـون بينـك وبـين الكـسب السريع، أو لأنهم يستنزفون مواردك أو لأن منهم الكثيرين. إن الإبادة الجماعيـة، في بادئ الأمر، هي فكر متسلط على ذهن المجرم، وبالنسبة إليه يُعتبـر "الآخـر" مجرد مصدر إزعاج. ومثل كل الأفعال الشريرة؛ فإنها تبحث عن "مغـزى" حتـى تجعل الناس تتواءم مع أسوأ ما يقدمه البشر للعالم.

هنا لا بد أن نسأل: لماذا؟

كيف يكون رد فعل الباحثين الذين يحاولون فهم فظاعة الأفعال الشريرة مع ما يعتريهم من انفعال عاطفي وآسي؟ يقول بعض: إن الألم جزء من معاناة الفـرد الذاتية في عالم الأخلاق الوهمي، بينما يتعامل العلم مع الحقيقة الموضوعية ولا بد أن يكون محايدًا كي يحقق النجاح. ويستدعي هذا الرأي الخطأ الطبيعي في الفكـر بأن رد الفعل الدفاعي المعروف هو أن نميز بين ما هو موجود كواقع (الحقـائق) وما يجب أن يكون (القيم)، وأن نُصرّ على التفريق بينهمـا. فالتفـسيرات العلميـة ليست تبريرات أخلاقية، ولذا فالنظريات العلمية عن القسوة لا لزوم لها ولا تلائـم ردود الفعل الأخلاقية.

فهل هذا صحيح؟ إن التناول العلمي يمكن أن يقدم الكثير لتوضيح وتفـسير أنماط السلوك القاسي، لكن القسوة بها جوانـب أخلاقيـة أيـضا تـشمل الفاعـل

والمسئولية. وتتأثر هذه النواحى بمفهومنا عن العوامل المسببة للقسوة بجانب العوامل الأخلاقية. فالقاتل الذى لديه إصابة فى قشرة الفص الجبهى ينال "تخفيفا" أخلاقيا مقارنة بغيره السليم جسديا. والحدود بين العلم والأخلاق ليست مغلقة غلقا محكمًا، أو بمعنى آخر، المعلومات العلمية يمكن أن تُغَيِّر الأحكام الأخلاقية. والمبادئ الأخلاقية، سواء الأساسية أو الوضعية، ليست هى رد الفعل البدائى غير القابل للاختراق أو التأثر الذى أوجدته ووضعته فى اعتقادنا الأصول القديمة. فقد أضافت الطبقات المتراكمة من الحكم والتحكم مرونة وفروقا باطراد. فالتفسيرات للأعمال الشريرة والوحشية قد لا تكون فى حد ذاتها تبريرات أخلاقية، لكنها من الممكن أن تؤثر فى هذه التبريرات. وتتغير الأحكام الأخلاقية كلما تغيرت المعلومات والمعارف، ولذلك فإن النظريات العلمية عن القسوة قد تكون لها نتائج وعواقب أخلاقية خطيرة، مع أن كثيرًا من الباحثين يتمنون ألا يحدث هذا.

وهناك ما يقابل هذا الاعتراض. وأحدها يشير إلى أن التعاطف الوجدانى له حدود لا مفر منها. فأنا لا يمكن أبدًا أن أشعر بألمك بدرجة الشدة نفسها التى تعانيها أنت، ولذا فإنه لن يهمنى أنا، أو أى شخص آخر، ما تعانيه إطلاقًا بالقدر نفسه الذى تهتم به أنت. وهذا هو ما جُبل البشر عليه واعتادوه. وما أستطيع فعله هو أن أفهم أنك تعانى وتتألم وأن معاناتك حقيقية ولها مغزى.. أى إننى أستطيع أن أحترمها وأرى أن لها قيمة ووزنًا أخلاقيا.

وهناك رد فعل آخر، وهو أن ذلك لا يعنى أننى لا أشعر بأى ألم بالمرة أو أننى لا أهتم إطلاقًا لمجرد أنك تشعر بالمعاناة أكثر منى، وقد تكون هناك دوافع كثيرة لمن يبحثون فى قسوة البشر، بما فى ذلك المشاركة الوجدانية والتعاطف تجاه الضحايا، فبعض فقد الأصدقاء وأفراد من الأسرة وأقارب فى هذه الجرائم المفجعة؛ إلا أن الاعتقاد بأن فهم قسوة البشر سوف يساعدنا فى التقليل منها لن يجد كثيرًا من يدافعون عنه. إن ضحايا جرائم القسوة وأصدقاءهم وأقاربهم لهم صوت

ومصداقية لا يضاهيها اى علم، لكن البحث العلمى ليس هدفه التعبير عن الألم، والعواطف ذاتها لن تساعدنا فى فهم أسباب حدوث الجرائم الفظيعة.

إن صرخة الألم يمكن أن تلقى الضوء على فعل شرير وتفسره وهذه مهمة ضرورية فى عالمنا المستغرق فى مشكلاته وهمومه. وإنه لمن السهل أن نحول اهتمامنا وننسى، وعلينا أن نتذكر الإبادة الجماعية فى "رواندا" بمعدل القتل المفزع الذى تعدى متوسطه فى كل يوم أكثر من ثلاثة أضعاف من قتلوا فى حادث الحادى عشر من سبتمبر- يوميًا ولمدة ما يزيد على ثلاثة أشهر(٣٠)، غير أننى من فترة وجيزة شاهدت اثنين من العلماء المتميزين من ذوى التعليم الرفيع والعقول المتحررة لم يستطيعوا أن يتذكروا حتى مجرد أسماء النزاع والمتحاربين فى هذه الواقعة المفزعة، فقد قال أحدهم: "هل كان اسميهم "التوتوس"؟ أيا ما كان الاسم!"، وأسرع فى سيره قدمًا. إن مثل هذا الجهل، وهو شائع وليس محدودًا، يؤكد ضرورة حاجتنا المستمرة لصرخة ألم تُذّكر الناس.

وما لا تستطيع فعله الأحزان والتذكر والصرخات والقسم "بأن هذا لن يحدث مرة أخرى"؛ هو أن تترجم هذه الدوافع الطيبة إلى منع فاعل وأكيد لقسوة البشر. إن أحد الدروس المأساوية من التاريخ هو أن البواعث الأخلاقية التى طُبعت وغرست بعناية فى ثقافة بعد أخرى يبدو أنه لا تأثير لها عندما تُرتكب الجرائم الفظيعة. فالمسيحية تُعلمنا أن نحب الآخرين، والإسلام يدعو إلى التسامح والسلام، والشيوعية تنادى بالمساواة والعدالة الاجتماعية، والديمقراطية والحرية شعار الثقافة الغربية الحديثة.. وكل هذه المنظومات العقائدية، مثل عقائد أخرى لم أذكرها، يرتكب أتباعها أفظع جرائم القتل وأعمال الإرهاب باسم المثل العليا، فإنه من الواضح أن القوانين الأخلاقية لا تمنع القسوة؛ كما أن محاولة فهم بواعث القسوة وأسباب حدوثها لن تمنعها أيضا، لكنها ربما تكون أكثر الطرق والوسائل للإقلال من السلوك القاسى.

ملخص وخاتمة:

لقد تطورت قواعد الأخلاق التى تثبتنا وتعاقبنا حتى تساعدنا فى التصرف بطرق تجلب لنا الفائدة على مدى طويل وتمنعنا من أن التصرف بطريقة تؤذينا على المدى الطويل أيضا. وقد فعلت ذلك بأن أرست استنباطات وأنماطًا عصبية تؤدى إلى كبت ومنع القسوة ودعم وتعزيز العطف والشفقة ورقة الفؤاد- أحيانا. ولذا بدأنا الآن أخيرًا نفهم الأسباب الدفينة التى تجعل أحكامنا الأخلاقية محددة وجبرية؛ وقد أعطانا هذا الإدراك القوة والقدرة على أن نغيرها. وعلى سبيل المثال فنحن يمكننا الاستعانة بفكرة التساهل والتسامح الأخلاقى فى اعتبار المسئولية ليست جامعة مانعة بل إن فيها تحيزًا وميلاً وتدبرًا. وقد نقضى بأن بعض العوامل، مثل حالات معينة من الأذى أو الإصابة بالمخ، تمنح المتهم معاذير وتخفيفا فى الحكم، بينما بعض آخر مثل: الإذعان للسلطة أو لنفوذ ما لا تمنحه ذلك. ويمكننا أن نمتد بتلك الأحكام لتشمل أنواعًا أخرى تماثلنا من المخلوقات. كما يمكننا أن نحرر معتقداتنا الأخلاقية من العوامل التى تضفى عليها سمات القداسة والحتمية فيما يخص الخير والشر، حيث ننظر إلى القسوة غالبًا على أنها مسألة ضعف إنسانى. ولو فعلنا ذلك فسوف نستطيع أن نتقبل ونسلم بالعيوب والنقائص التى تقودنا إلى الإخفاق والى النقائص الأخلاقية.

وما لا نستطيع أن نفعله هو هجر الأخلاق والتخلى عنها كلية، أكثر من أن نقرر ألا نكون هذا النوع من المخلوقات الذى يأكل ويتنفس ويحزن ويرغب فى القوة وينزع إلى العاطفة. والعدمية السادية التى تنكر مبادئ الأخلاق ليست هى الاختيار العملى السديد ما دمنا معرضون للثواب والعقاب وغير محصنين ضد قوة

وقهر الآخرين، أما عن ادعاء المذهب النسبى فى الأخلاق، بأنه لـــن يمكـــن لأى قانون أخلاقى أن طرح نفسه كأفضل القوانين وأنه أرفع مقامًا من أى قانون آخـــر، فذلك أمر مشكوك فيه. إن بعض القوانين الأخلاقية تناســبنا أكثـــر مـــن غيرهـــا، ومذهب المنفعة الذى يرى الأعمال صالحة إذا كانت نافعـــة، والأنانيـــة الكاملـــة، والأثرة التامة، مثلاً، يبدو أنها جميعًا لا تناسبنا بصفة خاصة. إن أخلاقنـــا حزمـــة مختلطة، نكيفها ونوائمها حتى تلائم الظروف والمناسبات؛ فعندما نـــشعر بـــالخطر نلجأ إلى جمود الفؤاد وإقصاء الآخر، ونرى الرحمة والمودة عندما ندرك أن علينا الاهتمام والاعتناء بالآخر.

إن باستطاعتنا محاولة الحد من النزوع إلى القسوة بأن نستفهم عن، ونـــشك فى، من يحذروننا ضـــد التهديـــدات الرمزيـــة وأن نتحـــدى نظريـــاتهم الفكريـــة و"أيديولوجياتهم" المريبة. وما يمنحنا الأمل للتطور والتحسين هو التعلـــيم وإعـــادة توزيع السلطة السياسية. إننا نستطيع أن نرفع من عقـــاب الحـــرب التـــى تنـــتعش وتزدهر فيها القسوة، على من يبدءها ويشنها. لكن الآلية الكامنة وراءها باقية، فهى جزء من موروثنا الذهنى والعصبى. والقسوة دائمًا هى الاختيار السهل ومن يقـــسو قد يشعر بالانتعاش والبهجة. وما علينا إلا أن نتقبل ذلك ونتعلم كيف نتعايش معه- إن استطعنا.

أما الإخفاق فى التعاطف مع الآخرين والتجاهل الأنـــانى لهـــم مـــع عـــدم الاكتراث بهم والكراهية للغير والقسوة الشنيعة كلها أمور يختص بها البـــشر مثـــل اللغة والحب والتضحية البطولية بالذات، والتى قد تجعلنا قساة أيضًا. والـــذين لـــم يصبحوا منا ضحايا للعنف أو مجرمين ممارسين له؛ عليهم شكر الحظ المهم الـــذى عافاهم، ولا نقول سريرتهم الرائعة، فاللطف والتهذب لا يقدمان إلا حمايـــة هـــشة للفرد. وفى الوقت نفسه فإن الحاجة إلى السيطرة والتحكم خلقت أسلحة غامضة من

الممكن أن تحوّل قسوة الجماعة تجاه الفرد إلى كارثة كونية. إن القسوة من الممكن أن "تبتلعنا" وتهلكنا قبل تمكننا من السيطرة عليها.

كم من الوقت بقي لنا؟ وهل سيتطور الإنسان هذا الكائن الاستثنائي (بوصفه نوعًا بيولوجيا) حتى يحيا بقدر أقل من الإيذاء والمفاسد والتعذيب، أم أن حكوماتنا سوف تستغل المعرفة العلمية عن القسوة لتجعل محاربيها وقادتها أشد قسوة وجمودا في الفؤاد، وتجعل مواطنيها أكثر فتورًا ولا مبالاة؟ وهل سيستمر المجرمون في المقامرة أو الرهان على غفلة ولا مبالاة المتفرجين ويكسبوا من ذلك، أم أن الملاحظين سوف يدعمون ويقوون احتجاجاتهم السياسية. ولو ناقشنا القسوة على أنها مفهوم أخلاقي؛ فإن ذلك لا يعني أن نغفلها ولا نأخذها مأخذ الجد. إننا مخلوقات "أخلاقية" ويمكننا الاهتمام بذلك أكثر مما هو واقع بالفعل، وألا نعامل السلوك القاسي باعتباره شرًا مستطيرًا يفوق قدراتنا على ضبطه، لكن على أنه شيء يمكننا أن نتعامل معه، حتى إن كان ذلك فقط بالاحتجاج والاعتراض والشكوى للأصدقاء أو في وسائل الإعلام، أو لدى الحكومات من أمثلة وأنواع كثيرة من القسوة. إننا نميل إلى استخدام الرموز. ونستطيع أن نغير سلوكنا وسلوك الناس الآخرين إذا ما فهمنا ذلك واستخدمنا أدوات العلم والسياسة.

ومع ذلك لن نستطيع إزالة أو محو قسوة البشر تماما. إنها قد تكون مفيدة ومغرية أحيانًا. لكننا، لو اخترنا، فبإمكاننا أن نقلل منها بإحداث تغييرات ثقافية تجعل غلظة القلب وجمود الفؤاد أمورًا لا يتقبلها المجتمع، لكن ذلك سوف يتطلب مجهودا كبيرا، وحتى الآن فإن هذا الجهد لم يبدأ، وبدلا من ذلك فإن القادة السياسيين قد تبنوا القسوة واستخدموها لصالحهم بترتيبات ونظم و"تكتيك" وموافقة واضحة وصريحة من مؤيديهم. وبما أن العلم الآن قد منحنا الفرصة لأن نفهم حدود القسوة، فإن المخاطرة هي أن مثل تلك المعرفة سوف يُساء استخدامها حيث

تجعل بعضنا- الجنود مثلا- أكثر قسوة. إلا أن البشرية لا يزال لديها متسع من الوقت؛ لأن تكون لها اختيارات مختلفة؛ إننا نستطيع جعله الناس أقل قسوة، لو توافر لنا الاهتمام الكافى بأن نفعل ذلك.

فهل سوف نفعل؟ إن وجهة نظرى هى أن أى تغييرات يمكننا تحقيقها ستكون ضئيلة، وبطيئة وغير كافية تماما لهذه المهمة. فالقسوة شىء فظيع، لكنها لمعظمنا ليست مفزعة الآن بالقدر الكافى.. إن من لديهم القوة ليحققوا اختلافا كبيرا قد يكونوا لأنفسهم دفاعات مهولة ضد أى هجوم من الآخرين. والقسوة لن تؤثر فيهم مباشرة ولذلك فهى ليست شيئا حقيقيا بالنسبة إليهم كما هى بالنسبة إلى من يعانون بالفعل منها. إن الأقوياء قد فعلوا ما يكفى كى يجعلوا الأشرار متحجرين فى أماكن العزل (الجيتو)، لذا فهم لا يشعرون بأى ضغوط تدفعهم لأن يفعلوا شيئا. وحتى لو فقدوا السلطة السياسية، فإنهم لن يتخيلوا العيش كما يعيش الضحايا. والرئيس ريتشارد نيكسون "Richard Nixon" لم يكن أبدا ليذهب إلى غابات فيتنام حيث تلقى قواته القنابل بأمر منه. أو ليذهب حتى إلى أحد الأحياء المنفلتة أمنيا والتى بلا قانون فى واشنطن العاصمة. وبما أنه محصن ومعزول تماما عن نتائج وآثار القسوة، فهل من المحتمل أنه (أو أننا) سوف نهتم بالموضوع؟ إلا أن أى قوة أو سلطة سياسية لن تستمر أو تدوم إلى الأبد، ففى يوم من الأيام ربما سنضطر إلى أن نهتم.

إن الناس ليسوا أنانيين تماما. فالحس الأخلاقى قد يرشدنا إلى التغيير الاجتماعى. ولاعتبارات عديدة فإن عالمنا اليوم أقل قسوة بكثير مما سبق. وعلى الرغم من ذلك، فإن أصحاب التعليم العالى والمترفين و"الشبعانين" و"المحميين" من البشر مستمرون فى إظهار القسوة الفظيعة أحيانا. وفهم أسباب قسوة البشر يتطلب الذكاء، وهو متوافر بكثرة لدى بنى الإنسان.. إنها مهمة شاقة، لكنها ليست

مستحيلة. وإذا كان الذكاء والمعرفة هما كل ما هو مطلوب فسوف نضمن أن تكون القسوة أقل غدًا. غير أن المعرفة ليست كافية، وأى قدر من التفكير البارع والماهر من الخبراء المنتدبين والمفوضين لن يُمكننا من إحداث التغييرات اللازمة، ولهـذا فنحن نحتاج الحكمة والشجاعة والإرادة وأن نبذل مجهودًا جبارًا دون أن نطلب أو ننتظر الجزاء الملموس والواضح. وهذه الخواص والسجايا من الصعب أن توجـد فى الجنس البشرى؛ وبما أنها تنقصنا، فسوف نبقى قَيد الخطر والمخـاطرة: بـأن نعانى من القسوة وأن نكون قساة.

الهوامش

مقدمة: عن سياقات القسوة ومضامينها

١- انظر مقال Boklage (1990). وفي دراسة على نطاق واسع من المراكز الأمريكية للتحكم في المرض؛ أفادت تقاريرها في عام ١٩٩٦ بأنه من بين ٦٢٤٠٠٠٠ حالة حمل كانت هناك حالات ولادة سليمة وإجهاض متعمد وفقد للجنين: كان في ٩٨٠٠٠ حالة فقد الجنين في ١٦% منها، ونجا وولد ٦٢% وتم الإجهاض في ٢٢% (ventura et al. 1999).

٢- انظر Nuland (1994) عن آليات الأنواع الشائعة من الموت. ويراعى الحذر في التعامل مع الإحصاءات الخاصة بحالات الموت نتيجة العنف. والمصدر الأساسي لها هو "R.J.Rummel : Death by Government". والأرقام الواردة به تزودنا بالمعرفة عن حجم الدمار الناجم عنها.

٣- في عمر الإنسان، يختلف تقدير احتمالات تعرضه للقتل باختلاف الثقافات: من ١ في ٢٠٠٠ (بريطانيا)، من ١ في ٢٠٠ (الولايات المتحدة)، من ١ في ٢٠ (كولومبيا وجنوب إفريقيا) وقد تزيد النسبة في ثقافات القبائل مثل قبائل (yanomama Duntley 2005).

٤- جاء في إحصاءات وزارة العدل الأمريكية (عام ٢٠٠٧) عن جرائم القتل؛ أنه في عام ٢٠٠٥ كان القتلة من الرجال عشرة أضعاف الإناث، والرجال يحتمل أن يكون القتلى منهم أربعة أضعاف من قتلوا من النساء وأيضا أربعة أضعاف من ماتوا في حوادث أو بالانتحار (Day 1984).

٥- (Fisk 2006).

٦- الكتاب الذى صور هذا الجرم الفظيع هو "Hannibal" والمؤلف (Harris1999). وعرض الفيلم عام ٢٠٠١ وأخرجه "ريدلى سكوت" Ridley Scott.

٧- يرى بعض المفكرين أن الفظائع التى حدثت فى القرن العشرين فى "أوشفيتز" و"هيروشيما" تتطلب تأملاً وفكرًا فى الدين المسيحى.. انظر Fasching 1992 وأيضًا Shklar 1984.

٨- كتاب Sade (ترجم عام ١٩٩١) ص ٦٩٨.

٩- مناقشة صغيرة عن الشر والقسوة فى كتاب Bakowitz (1999).

١٠- تقرير لجنة جواتيمالا لإيضاح التاريخ عام ٢٠٠٧: Guatemala: Memory of Silence.

١١- مثل Peter Kurten مرتكب عديد من جرائم السادية الجنسية فى العصر الحديث (Berg وترجم عام ١٩٣٨)، وقد حوكم وأعدم بألمانيا عام ١٩٣١، ولم يعرف عدد ضحاياه. وقد قتل "إيان برادلى" خمسة أطفال فى شمال إنجلترا بمساعدة صديقته "مايرا هندلى"- فى منتصف الستينيات (William 1967).

١٢- Rees 2005, P.8.

١٣- سوف أركز فى هذا الكتاب على القسوة "النشطة"، مع أن القسوة الناشئة عن الإهمال وعدم مراعاة المسئولية يمكن أن تعتبر فى هذا الإطار أيضا.

١٤- انظر Beck (1999)، Staub (2003)، Waller (2002) وأيضا Gregory stanton (1998). وعن الأفكار المرتبطة بالقبائل (Glover 2001). وانظر أيضا الفصل الثانى، ملاحظة رقم ٢٣.

١٥- ويبدو أن فكرة الإقصاء ظهرت مبكرًا في حياة البشر (Kinzler et al., 2007).

١٦- الأفعال والعواطف ليست نتاج المخ فقط أو العقول التي من مهامها التفكير، والعكس هو الأرجح، فالفكر نتاج ثانى لهذا النظام أكثر من كونه السبب الأساسى لوجوده . انظر (Maxwell and Davidson, 2007) .

١٧- Mackay (ed. 1973)، ص ١٠

١٨- انظر (2007) Sharot et al.، Taylor and Gollwitzer (1995)، وأيضًا Malle (2006).

١٩- Valdesolo and DeSteno (2007).

٢٠- فى علم النفس هناك المعارضة المألوفة بين الحتمية والظروف. والرأى القائل إن كل إنسان له جوهره الخاص الذى يحدد ماهيته وشخصيته عارضه علماء ودراسات علم النفس الاجتماعى الذين يرون أن كثيرًا من سلوكنا يتأثر بما يحدث حولنا (وقد لا نلاحظ معظمه). وفى الواقع يتخذ كثير من الباحثين موقفًا وسطًا بين الرأيين؛ يكون فيه الأفراد (أو الجماعات) لديهم استعداد مسبق لأن يتصرفوا بأسلوب معين، مثلاً بسبب اختلاف الجينات أو القيم الأخلاقية، دون أن يكونا ثابتين ولا يقبلان التغيير.

٢١- البعدان الزمنى والجغرافى يمكن أن يجعلا الناس عرضة للوقوع فى فخ الجوهر (انظر Nussbaum et al., 2003، وأيضًا Bandura 2002).

٢٢- Browning (1991).

٢٣- هناك عدة كتب عن المذابح الجماعية فى رواندا وقد أشرت إلى Gourevitch (2000) ، Dallaire (2004) ، Hatzfeld (trans. 2005) . وكان مصدرى الأساسى للمعلومات عن الفوضى بعد انفصال

يوغوسلافيا هو (1998 ، 1996) Noel Malcolm . انظر أيضا الفصل التاسع عن "سريبرينكا".

٢٤- (Aeschylus (trans. 1999، Euripides (trans. 1963) .

٢٥- Klee et al., (1991) , 42 .

٢٦- Keleman (2003) .

٢٧- بعض هذه الحكايات حقيقي، مثل الشائعات التي انطلقت من المعسكرات النازية لقتل الأطفال بعد انتزاعهم من الأمهات، وسرقة الأسنان الذهبية من الجثث واستخدام أجسادهم في صناعة الصابون، ولم يصدق أحد هذه الشائعات على نطاق واسع وما زال بعض الناس لا يصدقونها إلى اليوم. وقد تخدم هذه الحكايات أغراضا أخرى كما أنها تنقل معلومات (Mertus 1999) .

٢٨- Frankfurter (2006)، ص ٦-١٢.

٢٩- المرجع نفسه ص ١١.

٣٠- Fein (1990) .

٣١- Semelin (tc. 2007) .

٣٢- "علم متداخل" (مع غيره) هذا أحد الاصطلاحات الشائعة عند الأكاديميين، ولا يلزم القول "غير مميز"، فهذا الكتاب مثلاً يستثني عددا من التخصصات وقد يذكرها فقط: من التحليل النفسي إلى نظرية الفكر وإلى النقد الأدبي، والتي ربما تلزم لموضوع الكتاب. وكمثال للبحث في عدة علوم متداخلة خصوصا عن فظائع الحرب، انظر Kassimeris .

٣٣- التصوير الوظيفى بالرنين المغنطيسى (FMRI) يقيس التغييرات فى انسياب الدم بالمخ؛ بينما الشخص يقوم بعمل أو مهمة ما، أو حتى فى أثناء الراحة؛ والتغييرات ضئيلة جدا (نسبة مئوية قليلة) وعملية التحليل الإحصائى اللازمة لهذه المعلومات عملية صعبة وواسعة .

٣٤- إذا تحيرت من عدم الثقة فى ذلك؛ فربما يخدعك كثرة المعلقين الذين يتحدثون عن العلم كما لو كان كتلة من المعضلات والبراعة الفائقة، أو فلنقل "ميكانيكا الكم". هذا ليس صحيحا. فعلم دراسة الجهاز العصبى أعقد من علم "الفيزياء" الحديث لسببين، أولا: إن الموضوعات التى يدرسها معقدة كثيرا عن "الفيزياء" فى تعقيداتها الرياضية ونظرياتها، وثانيا: إن علماء الفيزياء لم يتقدموا لزمن طويل وربما يمتد بحثهم للإغريق القدامى، (عندما ظن بعضهم أن المخ عضو مشع (Aristotle, trans, 1937, Parts of Animals II. Vii)، لكن علم الجهاز العصبى بدأ فعلاً فى التطور كعلم بعد الملاحظات عن المخ بكثير (بفترة طويلة)، وما زال يبحث فى نواح كثيرة وغزيرة ولم يستقر بعد.

٣٥- Tilly (2003) .

٣٦- البحث العلمى المنبثق من علم دراسة الأعصاب عن العاطفة والسلوكيات والبحوث التطبيقية (السريرية)؛ قاربت على حزمة بعض من الاستنتاجات عن "أساس السلوك العدوانى أو العنيف الذى قد تعضده البيئة النفسية" (Bufkin and Luttrel, 2005, 187) .

٣٧- أعراض المرض النفسى وصفت فى Hare (1999) .

٣٨- البحوث العلمية عن العدوان والاضطرابات السلوكية والأمراض النفسية كثيرة، وهذه إشارة إلى بعضها: Anderson et al. (1997), Dadds et al.

(2006), Frick and Dickens (2006), Kramer et al, (2007), krueger et al., (2007), Lindsay and Anderson (2000)

٣٩- طورت دراسات العدوان ما جاء عن "نموذج العدوان العاطفى العـــام"، (Anderson et al 1995) والذى دعمه (kramer et al. 2007) . ولـــن أناقش هذا النموذج بالتفصيل؛ لأن هذا الكتـــاب عـــن القـــسوة ولـــيس العدوان. وسوف أركز بدلاً عن ذلك على ما كتب عن السلوك العدوانى والتقزز (انظر الفصل الخامس)؛ ومع ذلك فشبكة المخ المختصة بردود الفعل الفكرية والتأملية تجاه التقزز تتداخل كثيـــرًا مـــع ردود الفعـــل العدوانية، وكثيرًا مما قلته عن التقزز ينطبق على ما يحدث فـــى ردود الفعل تجاه تهديدات الغضب فى الفصل الثالث.

الفصل الأول

مـــا القســـوة؟

١- Klee et al., (1991) , 31-32.

٢- بالمقارنة يقدم قاموس أكسفورد للإنجليزية تتبعا لمعنى كلمتـــى "عـــدوان" و"هجوم" حتى القرن السابع عشر، وكلمة "بربرى" حتى القـــرن الـــسادس عشر، وكلمة "عنف" حتى القرن الثالث عشر. وكانت المرة الأولى تُـــسجل فيها كلمة "السادية" فى عام ١٨١٨، أى قبل أبحاث علاج الانحرافـــات الجنسية فى عيادات خاصـــة بواســـطة "Richardron krafft-Ebing" بنحو ٦٨ عاما، وقد نُشرت هذه الأبحاث فى جـــريدته "Psychopathia Sexuatis" عام ١٨٨٦، أى بعد وفاة "دى ساد" بأربعـــة أعـــوام فقـــط (Krafft-Ebing trans. 1905).

٣- Champlin (2003)، DeBoer and Maddow (2002). ويناقش "شاملبين" وصف "تاكيتس" Tacitus عن استخدام المـــسيحيين كـــشعلة للإضاءة بعد إشعال النار بهم (pp. 121-2).

٤- الإلياذة (II 63-70) ترجمة Robert Fagles - انظر Bernard Knox "المقدمة" ص: ٥ لمزيد من المعلومات.

٥- المقارنة المفيدة فى تحليل "Claudia Card" عن مفهوم الشر، وأنا أدين لهذا المصدر بالكثير (Card 2002).

٦- هناك دليل على أنه خلال الحرب شجع الألمان بعـــد مـــشاهد العـــداء للسامية. (انظر الفصل الثانى- ملاحظة رقم ٣٥)، وكان التـــأثير كلـــه

موجها ضد اليهود، وبأن الجماهير المحلية قد اتخذت خطوات من نفسيا كرد فعل ضد عقود من الاضطهاد لليهود والرعب الذى مارسه الشيوعيون. (klee et al., 1991, 24). وجُند لذلك بعض الليتوانيين بحافز أن تعاونهم قد يكْسبهم مراكز فى الحكومة بالمستقبل. ولا حاجة للقول بأن تقديم الحوافز مقابل سلوك معين يختلف عن الإجبار بالقوة على هذا السلوك.

٧- يمكن متابعة فكرة "القسوة كعقوبة بالغة" إلى الكاتب الرومانى "سينيكا" فى مقاله "De Clementia" والذى يناقش فيه "الرحمة لدى أصحاب السلطة – وجودها وغيابها" (Seneca – trans. 2007)، (Barrozo .2008)

٨- "قوانين الحرب" والذى يرجع إلى التقاليد المسيحية "للحرب العادلة" التى نصت عليها معاهدات "هيج" (Hague Treaties, (1899 and 1907 وفى مؤتمرات جنيف عام ١٨٦٤، ١٩٢٩ . انظر (Sorabji and Rodin لمعرفة هذه المناقشة لأخلاقيات الحروب وانظر (2006. (Haward et al., (1994) لمعرفة التناول التاريخى لها.

٩- لاحظ أن مسألة التبرير واستحقاق المثوبة ليسا الشيء نفسه. فالتبرير يخص المجرم والمثوبة تخص الضحية. فمن يرتكب اللواط، مثلا، فى بلد يعاقب هذا الفعل بالموت، لن يكون القتل فى هذه الحالة فورًا. فلا بد أن يُحاكم (وقد يكون شهود العيان كذابين). ولك أن تتخيل "سيناريوهات" أخرى "عويصة" ومبهمة. فقد يتّهم المجرم ضحيته زورًا ليبرر فعلته ومعاناة الضحية. دون أن يعلم أنه بالفعل ارتكب جريمة أخرى يستحق العقاب عليها بالعقوبة نفسها، وفى هذه الحالة لن يستطيع

المجرم الادعاء بأن فعله له ما يبرره، لكن الضحية، رغم ذلك، قد تستحق المعاناة التي وقعت لها.

١٠- انظر أيضا مناقشة تعريف "القسوة" في قاموس أكسفورد للإنجليزية في كتاب Kekes (1996)، فهذا المصدر يصحح التعريف بأن يؤكد أن الضرر "يجب أن يقع بطريقة تُعرّض للخطر قدرة الضحية على الفعل كإنسان ناضج (ص ٨٣٧)، لكنه لا يُوضّح كيف نُقيّم ذلك ولماذا يُفضل هذا المعيار في التعريف. ولرأيه عدة مشكلات، إذ كيف ينطبق ذلك على القسوة تجاه الأطفال أو المعاقين ذهنيا وهما ليسا في حكم "الإنسان الناضج"؟ إنني أعتمد فكرة القسوة باعتبارها شيئا يحدث كل يوم في الحياة الواقعية وليس اعتمادًا على مفاهيم فلسفية، وفي لغة الحياة اليومية نُطلق كلمة قسوة على أنواع ثانوية وغير خطيرة من القسوة. وبما أن فكرة "تعريض القدرة على الفعل للخطر" قد تختلف في الأطراف الثلاثة (المجرم، الضحية والفريق الثالث – أي المشاهد أو من يحكم)، فإنني سوف أترك مسألة تعريف القسوة الخطيرة جانبا، لأنها تثير إشكاليات أكثر من الحلول التي يمكن أن تقدمها.

١١- للمناقشة وكمثال على الأداء العصبي بخصوص الفرق بين "الألم" و"المعاناة"، انظر Damasio (1996), 262- 6 .

١٢- هناك نوع معين من الجينات يُحدث تحوله الوراثي غطلا في ملاحظة الألم وقد تم التعرف عليه (Cox et al., 2006, Goldberg et al., 2007)، ويبدو أن هؤلاء الأفراد يستطيعون التعاطف والمشاركة الوجدانية إلى حد ما (Danziger et al., 2006).

١٣- انظر Alicke (2000) . Borg et al., (2006) .

١٤- أجرى Fritz Heider 1944 ,Marianne Simmel تجربة على ما يدركه من عناصر فعل القسوة. وقد استخدموا "فيديو" بثلاثة أشكال هندسية متحركة (دائرة ومثلثان)، ووجدوا أن المشاركين فسروا الحركة على أنها أفعال مقصودة. ولكي ترى نسخة أحدث من التجربة (البحث) انظر Heberlein and Adolphs (2004). وانظر أيضا Gergely et al., (1995), Gauthier et al., (2000), Dennett (1989), Ulloa and Pineda (2007) وأيضا Epley et al., (2007).

١٥- Krumhuber et al ., (2007) Simion et al., (2008) . والشعور بالأداة والفاعل يمكن أن يؤثر فى حواسنا حتى إن كان الإدراك الواعى (الوعى) غير موجود. (Maruya et al., 2007). وقد وجدت بحوث فيما بعد أن انحياز الإنسان عند الاستدلال على الأشياء ليس بباعث من الخبرة، وقد يكون بفعل التطور الطبيعى وليس التعلم (New et al., 2007).

١٦- لمعرفة المزيد عن التفكير السببى (للبحث عن العلة والسبب) فى أنواع أخرى من الكائنات انظر Hauser (2006)، Dennett (1989) .

١٧- كمثال على عدم قدرة المجرم على تفسير سلوكه ما جاء فى اعتراف طبيب بيطرى يابانى فى الحرب قال إنه قتل أكثر من مئتى شخص. وقال: "لا توجد كلمات تفسر ما فعلته، لقد كنت شيطانا بالفعل" (Chang 1998, 59). وهذا قليل مما حدث فى حروب اليابان فى آسيا والصين، انظر (McArthur 2006). وربما كانت أكبر الفظائع ما ارتكب فى "Nanking" (الآن تعرف فى الغرب باسم Nanjing) والتى قتل فيها أكثر من ٣٥٠ ألف إنسان فى سبعة أسابيع مروعة. والأرقام مصدرها سلطات التحقيق فى جرائم الحرب: " المحكمة العسكرية الدولية للشرق الأقصى".

١٨- Nell (2006) التمييز بين الدوافع والأسباب التى تُحْدث الفعل وعدم التطابق بين العوامل التى تؤثر فينا وبين إدراكنا لها يُسهم فى تعقيدات الأحكام الأخلاقية.

١٩- المنهج الفلسفى فى تعريف المصطلحات مفيد جدًا؛ لأنه يوضح المفاهيم الباطنة، لكنه قد يُظْهِر اتجاهين يثيران المشكلات، الأول: يفضل التعريف الفنى على المفهوم اليومى ويقول للناس العاديين إن مفهومهم استولى عليه المتخصصون، والثانى: يقدم التعريف كما لو كانت له حدود أنيقة يمكن اكتشافها لأنها واضحة ومطلقة (أو ليست لها علاقة بمن يوضحها). ويبدو أن الاتجاهين يتبعان رؤية راسية للغة ووظيفة المخ. وفى الواقع فإن معظم التعريفات غامضة ومضللة، وكذا فهمنا لعبارة "علم دراسة الجهاز العصبى" باعتبار ما تؤكده بأنه قابل للاحتمالات. وفيما يخص القسوة فنحن نسعى لفهم كيف نفكر عمومًا فى هذا المصطلح- والذى قد لا تستقيم معانيه فلسفيًا – بدلاً من أن نحاول "فك" أى عقد منطقية لنعطى تعريفًا محددًا لهذا المصطلح .

٢٠- Hinton (2004) , 47.

٢١- Majdandzic et al., (2007).

٢٢- Merz- Perez and Heide (2003) 109.

٢٣- انظر Darby and Jeffers (1988), Devine et al., (2001) , Dumas and Teste (2006), Mckelvie and Coley (1993)

٢٤- Greene et al., (2004). إن التقسيم العلمى لمنظومتى الأخلاق يذكر بالتصنيف الذى وضعه عديد من الفلاسفة. انظر مثلاً مناقشة "توماس ناجال" – (Thomas Nagel) عن مذهب الاستبداد والحكم المطلق والمذهب النفعى للتحديات الأخلاقية فى أثناء الحرب (Nagel 1972).

٢٥- Bentham (ed. 2007).

٢٦- Thagard et al., (2006) .

٢٧- Greene et al., (2004) .

٢٨- Galliot et al. (2007).

٢٩- Thagard et al., (2006).

٣٠- Vaish et al., (2008) .

٣١- "دى ساد" و" نيتشه" مثلاً شجبا القوانين الأخلاقية السائدة في عصرهما. وكما قال "نيتشه" : " إنها نوع من الطغيان" (Nietzsche. Trans. 1937, P.92 كما يعتبر هذا الطغيان كما يرى "أن كل ما يعلو بقدر الإنسان فوق القطيع هو شر" (P. 105) .

٣٢- Hauser (2006) .

٣٣- Hauser (2006), de Waal (1996 a,b) .

٣٤- "تشومسكى" (1975) Chomsky، (2006) Hauser، وانظر Dupoux and Jacob (2007) .

٣٥- وليس غير معروف للناس أن "غيرة الذكور شيء طبيعي (ولها أصول تطورية)، بينما الشعور بالخزى "ثقافى" (ليس له أساس ثابت في علم الأحياء)؛ ولذا فإن الغيرة عاطفة أصيلة ولها مصداقية وشرعية أكثر من الخزى. فهذا منطق ضعيف وخطير أيضا إذا ما استخدم للدلالة على السلوك المهلك، غالبًا، لغيرة الذكور والذى يبررونه أخلاقيًا.

٣٦- العطف ورقة الفؤاد وحسن الضيافة للغرباء من النوع الذى عززته تقاليد بلاد الإغريق قديمًا (عند هومر على سبيل المثال) لا يتعارض مع الحذر والاحتراس، والمبدأ هو "هذه بتلك". والعطف على الغريب الذى يمثل

تهديدًا قد يفتح فرصًا للتفاعل المفيد والمتبادل بين الجماعات، مثل التجارة. وما دام لا يمثل الغريب عداء ما فالتلطف معه استراتيجية فاعلة. وإذا كان رد فعله العداء؛ فيعتبر هذا خداعا وخيانة اجتماعية لا بد أن تعاقب بشدة. وبالمثل كان قتل الغريب الذى يقبل الضيافة يُعْتَبر جريمة فظيعة فى التقاليد الإغريقية (Frankfurter 2006, 77).

٣٧- أوضح الفيلسوف "بيتر سنجر" Peter Singer، مثلاً، أن الناس قد يتفقون على أن بعض المشكلات الأخلاقية، مثل: وجود الفقر المدقع جنبًا إلى جنب مع الغنى الفاحش، يجب أن تعالج كنوع من الالتزام الأخلاقى . ويرفض نفس الناس التنازل عن أى شيء مما يزيد من ثرواتهم للتخفيف من الفقر بمجتمعهم (Singer 1971).

٣٨- Keeley (1996).

٣٩- Coates (1997) ، وفيه يناقش نظرية الحرب العادلة مع معيار النسبية.

٤٠- للاطلاع على مناقشة حديثة للديمقراطية فى "أثينا"، انظر .Raaflaub et al (2007) خصوصًا، ص: ١١- ١٢.

٤١- انتقد كثير من المعلقين اليساريين المحنكين، من أمثال "ناعوم تشومسكى" Noam Chomsky، المرتبطين بمؤسسات عالمية مثل "Amnesty"، سياسة الحكومة الأمريكية فى التعامل مع المسجونين الذين ألقى القبض عليهم كجزء من "الحرب على الإرهاب" خصوصا نزلاء سجن أبو غريب بالعراق وسجن خليج جوانتاناموا فى كوبا.

الفصل الثانى

من الــذى يــقــرر؟

١- انظر (1993) Sampson .

٢- تجربة سجن "ستانفورد" كما ذكرها "Philip Zimbardo" فى كتابه عــن هذه التجربة (Zimbardo 2007, 235) كانت تجربة مهمة فى تغيير الجــو الأخلاقى للبحث فى مجال علم النفس. وقــد صــرح "زيمبــاردو" بــأن التجارب فى علم الأخلاق تم تقييمها من قبل "الاتحــاد الامريكــى لعلــم النفس" فى عام ١٩٧٣. ومنذ ذلك الحين تغير الكثير، ولا يتم قبول مثــل هذه التجربة الآن.

٣- (2001) Baumeister . هذا مثال محدد عن تأثير "راشومون" حسب اسـم فيلم Akira Kurosawa الذى يحكى القصة نفسها من وجهة نظر أكثر من مشارك. والفيلم عن قصة قصيرة عنوانها "فى بستان الخيــزران" كتبهــا Ryunosuke Akutagawa – (Akutagawa trans. 2007).

٤- انظــر Boden – Albara et al., (2005)، Cocioppo and Hawkley (2003)

٥- الكتابات المعاصرة عن موضوع "لماذا جعلتنا الرأســمالية الاســتهلاكية أثرياء ولم تجعلنا سعداء" منها de Graaf et al., (2001)، James (2007)، Offer (2006).

٦- جاء فى كتاب Louis P. Lochner ماذا عن ألمانيا (١٩٤٣) نص لحديث هتلر فى أغسطس ١٩٣٩ للجمهور، بما فيه السؤال الــشهير أن اعتبــار

القتل الجماعى للأرمن فى عام ١٩١٥ حرب إبادة مسألة جدلية ومثيرة للجدال والخلاف بشدة، خصوصا فى تركيا. وربما كان الأتراك مثل هتلر قد اقتدوا بجنكيز خان (Dadrian 1995، ص: ٣-٤-٩). وكلمة "تغيير" فى حديث هتلر تحمل معنى التحويل إلى "لا وجود" أى الإفناء. وقد استخدم النازى هذه الكلمة لوصف الهولوكوست. وقد استخدم الألمان المصطلح نفسه فى مذابحهم لقبائل "الهرارى" فى إفريقيا والتى خفضت عددهم من ٨٠٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ – (Bridgman and Worley 2004) . وهل هذا المصطلح يطابق كلمة "إبادة جماعية"، إنه من الصعب إثبات ذلك فى المحكمة، لأن المجرمين يحرصون غالبًا على تحاشى إصدار أوامر مكتوبة (محررة) قد تستخدم ضدهم. وحتى فى وقائع مثل ما حدث فى رواندا والهولوكوست لم يقدم للعدالة سوى قليل جدًا (وبعض القادة الأتراك حوكموا وأعدموا بعد الحرب العالمية الأولى).

٧- فى الأبحاث العلمية التى استخدم فيها التوأم كان للإحساس بالعدل مؤثرات جينية بدرجة كبيرة، وأخرى بيئية بدرجة ضئيلة (Wallace et al., 2007).

٨- Nagel (1972) .

٩- انظر Browning (1991)، Milgram (1997)، Newman and Erber (2002)

١٠- Goldhagen (1997) .

١١- هناك عبارات ليس لها معنى مثل: "قطائع شائعة بالقطيع" أو "ضوء الشمس المظلم" وكلها لا تفيد بأى معلومة عن قدرة الإنسان على التحرر من الالتزام الأخلاقى .

١٢- Baumeister (2001).

١٣- جاء فى هذا الدفاع أن المعلقين ظنوا أن محامى المتهم ادعى (وهو ما لم يحدث بالفعل) أن استهلاك المدعى للغذاء الردىء أثر فى عقله ولذا قلل من مسئوليته عن سلوكه. والادعاء الحقيقى هو أن المتهم كان يعانى من الاكتئاب الذى قلل من مسئوليته، وهذا الغذاء السيئ كان دليلاً على مرضه بالاكتئاب (وكان غذاؤه قبل ذلك سليما) انظر Mikkelson and Mikkelsm (2007).

١٤- Shakespeare (ed. 1997).

١٥- Melson (1992) .

١٦- يوجد الكثير عن هذا الموضوع فى كتاب Jacques Semelin ، Purify and Destroy (Semelin, trans. 2007).

١٧- Rees (2005) P. 139.

١٨- الاقتباس التركى من كتاب Morgenthau (ed. 2000) . وهو "هنرى مورجنثو" سفير أمريكا فى تركيا عام ١٩١٥. وهو الذى أثار الانتباه إلى مذابح الأرمن عندما بدأت، والذى مات فيها أكثر من مليون (Dadrian 1995) وقد رفض الأتراك كتاب "مورجنثو" مثل كثير من الكتابات عن هذا الموضوع باعتباره دعاية. والاقتباس الثانى من كتاب Danner (2005), 75 ويشير إلى المذابح فى قرية "موزوت" فى السلفادور، وقد قيل إنها جاءت ردا على حرب العصابات، ولذا تم تدمير القرى التى تدعمها. وقد قتل الفلاحون، بصرف النظر عن الجنس والسن والحالة الصحية، بمعرفة جيش السلفادور بقيادة Domingo Monterrosa، وتم التعرف على ٥٠٠ من القتلى، ولم يتعرف على الكثير.

١٩- Abelson et al., (1998).

٢٠- فى نظام الخمير الحمر كان أشهر سجن هو "تول سلنج" Tuol Sleng وقتل فيه نحو مليونى من الكمبوديين (وعددهم نحو ٧ ملايين) خلال السبعينيات ولمعلومات أكبر انظر Hinton (2004)، وأيضا Rummel (1994) table 1.2.

٢١- تشمل الأمثلة تحيز البشر والنظرة المشوشة للأسباب (White 2006) وتقييم الأدلة مقابل المعتقدات المسبقة (Birch and Bloom. 2007)، (Woodward et al., 2007)، (Bernstein et al., 2007) والتحيز بسبب التعرف على أعضاء من نفس العشيرة أو الأعراق يبدو أنه يتطور فى العام الأول من حياة الإنسان (D.J.Kelly et al., 2007) .

٢٢- Conoroy (2001) .

٢٣- فكرة النظر إلى بعض على أنهم دون مستوى البشر (Castano and Giner- Sorolla 2006 ، (Cortes et al., 2005)، وهى فى هذين البحثين تذكر أن الناس تميل إلى أن ترى من هم خارج العشيرة (الزمرة أو الجماعة) دون مستوى البشر عمن هم داخل الجماعة. وهم يكّونون عواطف مثل الإعجاب بأنفسهم وبأعضاء عشيرتهم أكثر من الأعضاء من خارجها. وهناك بحث آخر يقترح أن تقسيم الناس على هذا النحو (طبقتين من البشر) قد ينعكس على مستوى وظائف المخ . انظر Harris and Eiske (2006).

٢٤- قد تتأثر الرؤية الأخلاقية بدليل على الإيذاء البدنى (Heekeren et al., 2005) .

٢٥- Sade (trans. 1991), 603 .

٢٦- المرجع نفسه.

٢٧- Frith and Frith (2006), Frith (2007) .

٢٨- كل هذه الاقتباسات من نص غير منشور من تسجيلات Himmler للحديث (الخطاب) (Himmler 2007) في موقع http://www.holocaust.history.org/himmler-poznan/speech-text.shtml .

٢٩- Klee et al., (1991) 163-71 .

٣٠- الاقتباس من المرجع السابق نفسه pp.x1x, 4-5, 174-5, 205.

٣١- Lochner (1943), 11-12.

٣٢- الاقتباس من Klee et al., (1991), 163,43 . والجدال حول أخلاقية الأيديولوجيات النازية، وأنها كانت لها اعتبارات أخلاقية معينة، لا يعنى إذا ما كان سلوكهم غير أخلاقى بمعاييرنا أو معاييرهم.

٣٣- للمزيد عن دور التقزز فى علم نفس الأخلاق انظر Haidt (2007)، Haidt et al., (1997) أو Miller (1997).

٣٤- انظر Gu and Han (2007).

٣٥- هذه الفرقة من الجيش الألمانى نخبة مختارة مرجع اتصالها مع هتلر (عن طريق "هملر" Himmler ونائبه "رينهارد هايدرخ" Reinhard Haydrich) بدلاً من الخضوع للقانون. وبعد دخول الجيش الألمانى أوروبا الشرقية كانت مهمتها تحويل الأراضى المهزومة وتجهيزها لحكم الإدارة الألمانية. وحتى يتحقق ذلك كانت هذه الفرقة تصادر الأسلحة وتجمع الوثائق التى تدينها. وكانت تتعقب وتعتقل من تعتبرهم ممن لا يعتمد عليهم- وتقتل بصورة منظمة السياسيين والقيادات الدينية والتعليمية والثقافية (Rhodes 2003, 4). ولا يلزم القول إنهم استهدفوا اليهود أيضًا.

الفصل الثالث

لمـــاذا تـــوجد القســـوة؟

١- انظر (Hebbes (ed. 1996، Rousseau (trans. 1973). وأنكـــر Hobbes هذه الوحشية لأنها غير عادلة ولأنه لا يرى أن البـــشر ليـــسوا أشـــرارًا بالفطرة. وهو يرى أننا نريد السلام مادام لا يتعارض مع مصالحنا، لكـــن لو نشأت صراعات تهدد كياننا فيجب حلها بالقوة والعنف. والتفريق هنـــا بين الرغبة فى الإيذاء والتى هى غريزية مثل الرغبة فى الأكل (وهذا ما يراه "دى ساد") والإيذاء كإستراتيجية فى مواقف معينة. والجدال حول ما إذا كان السلوك الشرير "اجتماعيًا" أو "غريزيًا" سيظل قائمًا، وربما تعتبـــر اختيارات هذه الآراء جزءًا من شخصيتهم، أو على الأقل توقعاتهم الخطأ بخصوص "طبيعة" الآخرين – أى أن المتفائلين هم من كانوا مـــن أتبـــاع رأى "روسو" والمتشائمون هم من كان رأيهم مثل "هويز".

٢- Attenborough et al., (2001) .

٣- eg.http:/www.world-science.net/exclusives/050209wafrm.htm.

٤- De waal (1996 a.b).

٥- Elliott (1996) يناقش أهمية تقييم المسئولية الأخـــلاقية حالة بحالة مع إشارة خاصة إلى حالة الاضطراب العقلى.

٦- دراسة وتجربة قام بها "Milgram" عام ١٩٦٣. وقد أمر المشاركين بـــأن يعطوا ما اعتقد أنه صدمة كهربية خطيرة ومميتة للناس، ولدهـــشته فـــإن نحو ثلثين من المتطوعين للتجربة أطاعوا ولو بشىء من التردد. وقد تنبأ

الخبراء الذين استشارهم قبل التجارب باستجابة فى حدود ٤% (Milgram 1997) . وقد تكررت التجربة.

٧- انظر الفصل الثانى وأيضا (2007) Zimbardo .

٨- (2001) Pincus.

٩- انظر (1989) Dennett . والمصطلح الخاص بعلم النفس "نظرية الفكر" يشير إلى القدرة الفائقة للإنسان على أن يخلق شروحا وتفسيرات لسلوكنا ولكل سلوك إنسانى، وللإطار الفكرى للمعتقدات والرغبات والنوايا... إلخ التى تستخدم لتفسير النشاط الإنسانى. ويستخدم هذا المصطلح على نطاق واسع فى علم دراسة الجهاز العصبى ونظرية المعرفة، خصوصا من العلماء الذين يبحثون فى هذا التخصص. وهناك مصطلح بديل هو "علم النفس الشعبى" وهو يدل على أن عامة الناس غير قادرين على التفكير السليم، ولذا يلزم أن يتغلب على ذلك الصفوة من الأكاديميين ويعلموهم كيف يفكرون بطريقة أفضل، وبالوقت سوف تنتهى الحاجة إلى "علم النفس الشعبى" (Churchland 1989).

١٠- فى الواقع هذه التقسيمات ليست فاصلة، والخلفيات قوية لدرجة أن الاستغناء عن اللغة غير العلمية فى التفسير ممكن، بصرف النظر عن محاولات تنظيم السلوك البشرى وهى صعبة أو غير ممكنة. وتهاجم خلايا "T" البروتين وتبحث الذرات عن حالة مستقرة كهربيًا. وحتى الوصف للانتخاب الطبيعى وفق نظرية داروين وصف نمطى لعملية لا هدف أو غرض لها، تضع "تصميماتها" وتختار نتائجها المختلفة. وليس الغرض هو "شخصنة" وتجسيد التطور، لكن وصفه يمثل تحديًا كبيرا ويبرهن على إصرارنا على تحديد "الفاعل" .

١١- D.J.Kelly et al., (2007)، Foster and Young (2001) .

١٢- Waller (2002).

١٣- Butler et al., (2007)، Le dous (1998)، Luo et al., (2007)، Nell (2006) .

١٤- لا نناقش الدهشة هنا أو المفاجأة بسبب ضيق المساحة. ويمكن القول إنها "آلية تحذير"، ورد فعل غريزى يساعد الكائنات فى التعرف على التهديدات بسرعة، وأى رد فعل واستجابة للتهديد لا بد أن يتراوح بين المهارة والسرعة (Ohman et al., 2007)، (muris et al., 2008) .

١٥- Dickenson and Kemeny (2004) .

١٦- المرجع نفسه.

١٧- Galliot et al., (2007) .

١٨- لدراسة دور الغضب فى التحيز ضد من هم خارج الجماعة انظر De Steno et al., (2004) .

١٩- سوف تصمم أجهزة الكمبيوتر يومًا ما على أن ترد على القسَم أو الهجاء وعندئذ سنحقق آليات شكسبير فى صورة حديثة.

٢٠- انظر Maner et al., (2005)، Van Honk and Schutter (2007).

٢١- Couppis and kennedy (2008) . وقد يكون مصدر التهديد قويًا بدنيًا ويمكن التحكم فيه (مثل: منافس بالمجتمع، مثير للغضب) أو قد يكون بلا قوة لكنه لا يمكن التحكم فيه (مثل صرصار سريع الحركة يثير القرف) . انظر Fischer and Roseman (2007).

٢٢- Curtis et al., (2004)، Fessler and Haley (2006)، Haidt et al., (1994)، Miller (2004)، وانظر أيضا Kolnai (ed. 2004) .

٢٣- للمعالجة الكلاسيكية لهذا الموضوع انظـــر (2002) Douglas وأيـــضا Parker (1983), Miller (1997) .

٢٤- Park et al., (2003) , Faulkner et al., (2004) .

٢٥- Rozin et al., (1986) .

٢٦- تفضيل من ينتمون للجماعة والذى يسمى أيضا "التركيز العرقى" هـــو سمة بشرية تنبع من الحاجة إلـــى الانتمـــاء الآمـــن لجماعـــة محـــددة Sumner (1907) 13-15 وأيضا Brewer (2007) ولا حاجة لأن تُعرف الجماعة تعريفا إثنيا (عرقيا) (Tajfel et al., 1971).

٢٧- Fehr and Gachter (2002)، Hauert et al., (2007)، Dreber et al., (1971) .

٢٨- Dunbar (1997) .

٢٩- الأثرة بأنواعها تتحدى أى إطار نظرى كنوع من اللا مبالاة بـــشعارات مثل: "البقاء للاصلح" و" الجين الأنانى" . وقد دافع مفكرون كثيرون فى أمريكا وأوروبا عن هذا الرأى فى القرن التاسع عشر وأوائـــل القـــرن العشرين (Black 2004) . وقد أزعجت بعض أفكار الصفوة العامة من الناس فى الغرب (مثل: حقوق العمال وحقوق المرأة كمطلب سياسى) . وفى البلدان المستعمرة كانت أفكار التفوق العنـــصرى تبـــرر الإبـــادة الجماعية، وكما أظهر من مارسوا هذه الفظائع عطفا على أقربائهم فى الوطن، وهذا التناقض فى السلوك وهذا العطف شيء غير عقلانى فى منطق "داروين" للتطور (Hamilton 1964). وقد ثبتت تنبؤات "هاملتن" فيما يخص الأثرة ورعاية الأقارب، وهى موضوعات جيدة للبحث فى

علم الأحيــاء (انظـــر Dugatkin 2006، Fehr and Rockenbach 2004) .

٣٠- Dennett (1995) فى اقتباس من Dennett 2006. P. 67 .

٣١- انظر Fehr and Gachter (2002)، Johnston.and Bahary (2007) .

٣٢- Ambrose (1998)، Gherman et al., (2007).

٣٣- انظر Schaltz et al., (1997) .

٣٤- يقول أعضاء هيئة التدريس "الأكاديميون" الذين يناضلون ليحصلوا على عقود عمل دائمة: إن الحصول عليها أثر فى زملائهم الأكبر سناً (كبار السن) يوازى الأثر الذى تتركه الصخرة على سمكة "الأخطبوط". وهذه فكرة جذابة ولكن بـــلا دليـــل. انظـــر Wolfe et al., (1996), Holley (1977) .

٣٥- Wolpert et al., (1998), Holy (2007). Bar (2007) .

٣٦- والقدرة على التوقع، مثلاً، عن سلوك الآخرين توجد لدى الإنسان منـــذ الطفولة، حتى قبل القدرة على الكلام (انظر Surian et al., 2007) .

٣٧- Kolnai (ed. 2006) p.61 .

٣٨- لمعرفـــة المزيـــد عـــن الأســـاس البيولـــوجى للـــسيطرة انظـــر Linser and Goschke (2007), Declerck at al., (2006) .

٣٩- Deaton (1997)، Kverage et al., (2007) .

٤٠- إن إشارة الخطأ التى تنشأ عن الصراع بسبب اختلاف التوقعات عـــن الواقع؛ قد ترتبط بالظاهرة المعروفة فى علـــم الـــنفس باســـم "التنـــافر المعرفى" والتى وصفها "ليون فـــستنجر" Leon Festinger (Cooper 2007, Festinger 1957) . وإن صح ذلك فستكون الفائدة للبحوث فـــى

إدارة الصراع المعرفى وفى دراسات نظرية المعرفة فى أبحاث علم دراسة الجهاز العصبى. ولمعرفة المزيد عن دور القشرة الحزامية فى إدارة الصراع انظر Botvinick et al (2004)، Braver et al., (2001)، May (2007) .

٤١- Croyle and cooper (1983)، Elliott and Devine (1994)، Foti (2008) والشيء نفسه قد يكون فى (Egan et al., 2007) .

٤٢- ومثل هذه الحكايات عن الأعضاء داخل الجامعة وأدوارهم المثالية شائعة فى العلوم كما هى فى جماعات أخرى. ويحكى "ريتشارد دكنز" Richard Dawkins فى كتابه هذا (Dawkins 2006) وفى كتابات أخرى طرفة مماثلة .

٤٣- والأفعال التى ترمى إلى إنجاز الحاجة إلى التحكم لا يلزم أن توجه ضد المصدر الذى يهدد الإحساس بهذا التحدى انظر Stets (1995) .

٤٤- المناطق الثلاث المهددة والعواطف الأولية المرتبطة بالاستجابة للتهديد هى: الوجود (الخوف)، القوة والمكانة (الغضب)، والهوية (الاشمئزاز)، وهى تشبه الموضوعات الثلاثة: الهوية، الأمان، الطهارة (النقاء) التى وصفها "جاك سملن" Jacques Semelin (Semelin, trans.2007).

٤٥- هذا الاقتباس من عالم الاجتماع "وليام جراهام سمنر" William Graham Sumner , (Sumner, 1907,2) .

الفصل الرابع

كيف نصل إلى مرحلة الفعل؟

١- لمعرفة الوصف المستفيض لتصرفات الخلايا العصبية انظر Byrne and Roberts (2005) .

٢- Jones et al., (2007) .

٣- انظر Taylor (2004) ch.10.

٤- انظر Sterzer et al., (2002) .

٥- هى دراسة تقليدية فى علم النفس الاجتماعى؛ لإثبات أهمية ضغوط الوقت فى جعل الناس أقل أثرة Darley and Batson (1973) .

٦- Wu and Huberman (2002) .

٧- الأفضلية للأفكار التى تناسب معلومة سابقة فى الذهن، وينعكس ذلك فى التعزيز السريع لها فى الذاكرة (Tse et al., 2007) .

٨- من الكتب الحديثة التى تعترف بمحدودية إدراكنا لوظيفة المخ كتاب Fine (2007), Wilson (2002) .

٩- مقال "كلاسيكي" عن عملية الرؤية فى Felleman and Van Essen (1991).

١٠- العبارة من إنجيل متى ٢٥ : ٢٩.

١١- انظر Brecht and Schmitz (2008) مثلاً.

١٢- إننى أوكد هنا على أعمال ثلاثة من غير علماء دراسة الجهاز العصبى وهم : الفلاسفة Ludwing Wittgenstein، Daniel Dennett، Peter Hacker.

١٣- Dennett (2003).

١٤- فى التقييم المتأنى والمتعمق يكون المضمون أقيم مما هو فى التقييم السريع الآلى (Cunningham and Zelazo 2007). وضغوط الوقت ليست هى سبب التوتر الوحيد. وفى المواقف التى تتطلب المشكلة فيها حلاً سريعا لن يتغير ذلك فى حالة الغموض وعدم اليقين، والحاجة الملحة إلى إنهاء المشكلة ينشأ عنها نفس الأثر الناشئ عن ضغوط الوقت، مثل: رفض الحل والاختيارات بدون روية وتفكير، والرغبة فى قيادة قوية (Pierro et al., 2002)

١٥- Buzsaki et al., (2007).

١٦- هناك درجات من عدم التوافق فى التحكم بالحركة، وعندما تؤمر بأن تحرك رأسك للأمام ولليسار مثلاً، فسوف يسمح لك ذلك بحل أسهل مما لو كنت أُمرت بأن تحركها للأمام ثم للخلف فورًا وفى الوقت نفسه.

١٧- Stern et al., (2007).

١٨- Lee et al., (1999).

١٩- Edelman (1987).

٢٠- عدم القدرة على اتخاذ القرار تعطلنا، لكن كما فى قصة "الحمار الأسطورى" الذى صوره "أرسطو" فى كتاب On the Heavens (Aristotle, trans. 1939) II. 13, P. 237. وكما فى الطبعة التى

ظهرت فى العصور الوسطى عن "حمار الفيلسوف" قيل إنه لا يتحرك إذا وُضع فى منتصف المسافة بين الطعام والشراب لأنه كان جائعا وعطشانا بالقدر نفسه. ونظريا فإن الحمار فى هذه القصة مات لأنه لم يستطع الاختيار (وربما هذا ما جعل الأمريكيين يستعملون مصطلح "حمار غبى" فى حالة مشابهة.

٢١- Sparrow and Wegner (2006)، Taylor (2001).

٢٢- Friston (2005)، Tayler (2001).

٢٣- انظر Block (1995)، Csikszentmihaly (2002).

٢٤- Egner et al., (2008).

٢٥- استعارة لفظ "تيار" الماء لتشبيه المدخلات إلى المخ يجعلنا نتخيل إمكان وجود "مسارات للهروب" إذا زاد عدد تداعيات المعانى فى الذهن قبل حدوث "اعتراض" لها. ويمكننا إذن أن نتنبأ بأن نشاط الخلايا العصبية يمكن أن ينحاز بصورة أسرع تجاه الأفكار الثرية بدلا من الأقل قيمة. وهناك دليل على ذلك (Pexman et al., 2007).

٢٦- Priston (2005).

٢٧- من أعراض هذا المرض عدم القدرة على التعرف على وجوه المألوفين من الناس، وقد يتقبل المريض أن من يقف أمامه يشبه زوجة أو صديقه، إلا أنه يصر على أن هذا الشخص إنسان آلى وليس إنسانا حقيقيا. وهذا المرض لا يستطيع فيه المريض التعرف على الوجوه (لكن لا يمكنه تمييز سمات الناس) أما مرضى "الزهايمر" فقد يفشلون فى التعرف على الوجوه كجزء من الخلل التام فى منظومة عمل الجهاز العصبى.

٢٨- Libet et al., (1999).

٢٩- Chen et al., (2008) وأسباب عدم الفعل قد تأتى من داخل الـــشخص أو من مصادر خارجية (Fishbach and Trope 2005) .

٣٠- أجريت دراسات كثيرة عن تأثير الانتباه والذاكرة والإدراك الاجتماعى . انظـــر Desimone (1996)، Fahy et al., (1993)، K.J. Jones (2006)، Stone and valentine (2005) .

٣١- Fogassi et al., (2005)، Haslinger et al., (2005) Jeaunerad and Frak (1999) .

٣٢- Browning (1991) .

٣٣- Martens et al., (2007) .

الفصل الخامس

كيف تتكون لدينا المشاعر والأحاسيس؟

١- Hellinbrand and Van Hemmen (2002)، Miyata (2007).

٢- انظر Edwards (1988)، Hornby (2001).

٣- إن التوتر الناشئ عن أى عمل صعب له تأثير ضار فى المرونة الذهنية. ويعتقد أن "النورأدرينالين" له دخل بهذا الضرر الناشئ (Compbell et al., 2008) .

٤- "رينيه ديكارت" Rene Descartes وكتابه <u>Discourse on the method</u> (Descartes, trans. 1999), P VIII.

٥- الوجه الفكرى للإيجابية المنطقية الذى يحدد إذا ما كانت العبارات صادقة أم زائفة. وأهم الكتابات فى هذا الشأن من Ludwig Wittgenstein فى كتابه الرائع The Tractatus Logica-philasiphicas (Wittgenstein, trans.2001) وفى كتابات "الفريد نورث" Alfred North Whitehead و"برتراند رسل" Bertrand Russell . وهذا المصطلح يعنى تقديس وتبجيل المنطق والرياضيات والعقلانية الإيجابية، ومنها التبرير العلمى للعنصرية ولوحشية المستعمر والحكومات غير الأخلاقية.

٦- من كتابات Wittgenstein التى مجدت كتابه الأخير، والذى نشر بعد مماته "تساؤلات فلسفية" Philosophical Investigations كان له اتجاه فلسفى جعله أحد أشهر المفكرين المؤثرين فى القرن العشرين (trans. 1974) .

لمزيد من التفاصيل انظر Ray monk فى كتابه عن السيرة الذاتية الخاصة بالمؤلف "وتجنشتين" Wittgonstein (Monk 1990) .

٧- لمعرفة المزيد عن تنوع / أو وحدة العواطف انظر Adolphs et al (2003)، Mesquita et al., (2007)، Barrett، Scherer (2006) Peper and Walbott (1994) .

٨- Darwin (1999) ، Ekman et al., (1969) .

٩- منظومة القشرة الحسية الجسدية مهمتها تحصيل المعلومات عن الإحساس باللمس، بنية الجسد، ووضع الجسد، والضغط عليه وما شابه . وهو جهاز للحس من خارج الجسد. عكس الأحاسيس والمعلومات الصادرة من الأحشاء الداخلية (وكلاهما مختلف ومميز عن الآخر) والمعلومات من داخل الجسد، مثلاً، تمر خلال الأعصاب الحسية التى لا يحيط بها غلاف من السائل النخاعى الذى يجعل الأعصاب تحمل الإشارات بسرعة. ولذلك فإن المعلومات من داخل الأحشاء تستغرق وقتًا أطول لتصل إلى المخ، أكبر من المدخلات الواردة من خارج الجسد (Castell et al., 1990). وانظر أيضًا (Aziz et al., 2000) .

١٠- Nordgren et al., (2002) .

١١- والدراسات عن تمدد الشرج والمستقيم موضوعات مهمة فى علم دراسة الجهاز العصبى (صدق أو لا تصدق) مثل (Eickhoff et al., 2006)، ويتم فحصها بأجهزة الأشعة المقطعية. (ولعله من دواعى سرور الباحثين أن لجنة أخلاق المهنة وافقت على مشاريعهم).

١٢- وهو مـــا ناقـــشه Damasio et al ., ،Bechara et al., (2000, 2005) (2000) فـــى ثلاثـــة كتـــب عـــن تكـــوين العواطـــف فـــى المـــخ Damasio 1999, 2000, 2003 .

١٣- ولا حاجة للقول بأن الربط بين الفكر بـــ (علاقات متبادلة)، ليس هـــو فقط الآلية التى يتعلم الأطفال اللغة من خلالها. ولمعرفة تفاصيل أكثـــر انظـــر Yu and Smith ،Barrett, Lindquist et al., (2007) (2007) .

١٤- PapaFragou et al., (2007) .

١٥- من الأبحاث ما يكشف أن حساسية الوالدين عن الاشمئزاز تـــؤثر فـــى فرص الأبناء فى الخوف من بعض الحيوانات (Darcy et al., 1993) .

١٦- انظـــر M.D. Liberman et al., (2007)، وأيـــضا Schachter and Singer (1962) .

١٧- Gregory et al. (2003) – والكلمات المكتوبة يتم تذكرها أفضل. ويبدو أن المخ يتعامل معها بطريقة مختلفة حتى فى أولى مراحل تنظيم الفكر (Kissler et al., 2007) .

١٨- Clore and Huntsinger (2007) .

١٩- وفروض "داماسيو" Damasio عن إشارات وشواهد الجسد كانـــت ذات تأثير كبير. والآن هناك نقد حديث لها. انظر Dunn et al., (2006) .

٢٠- Schachter and Singer (1962) .

٢١- Davey (1994)، Davey et al., (1998, 2003).

٢٢- Phillips et al., (1998) .

٢٣- التهديد بالقرف قد يكون له تأثير فى توصيل الحس بالجلد وقد يقلل من معدل ضربات القلب وضغط الدم Rozio and Fallon (1987) ، (Stark et al., 2005) وتغيير فى معدل التنفس بسبب مقاومة أعلى للجهاز التنفسى (Collet et al., 1997)، (Boiten, 1996) (Ritz et al., 2005) أو أعراض ألم بالجهاز الهضمى والأمعاء وشعور بالغثيان والقيء (Curtis et al., 2004) . وقد أظهرت الدراسات التى تقيس الموجات الكهربية بالمخ، والتى ترسلها الخلايا العصبية النشطة، أن الشعور بالقرف يثير أنماطًا من النشاط فى الطبقة الخارجية بالمخ التى ترتبط بالعواطف الأخرى. وهى موزعة عليها (Aftanas et al., 2006)، (Sarlo et al., 2005)، (Esstin et al., 2004).

٢٤- Kuniecki et al., (2003)، Levenson et al., (1990) .

٢٥- Saito et al., (2003) و Hornby (2001) .

٢٦- وقد تنشط أيضًا منطقة المؤخرة بالمخ مباشرة بتدفق تيار الدم.

٢٧- اقترح الباحثون نموذجًا للتنشيط المتوالى يكون فيه المستوى المبدئى للمدخلات إلى مراكز التحكم فى جذع المخ قادرًا على الوصول قبل حدوث القيء Hornby 2001 ، Edwards 1998) . ولا بد أن تتراكم إشارات المدخلات وترسل أعراضًا مصاحبة، مثل الغثيان، قبل تجمعها الكافى لبدء رد الفعل الكامل الذى يلزمه كثيرًا من الطاقة حتى تنتهى الإثارة بالاحتياج الحقيقى للقيء.

٢٨- تتصل نواة السبيل المنفرد (NTS) بمنطقة مؤخرة المخ (والعكس بالعكس)، وهى متصلة أيضًا بمناطق عديدة أخرى تشمل نواة ما تحت المهاد (فى منتصف المخ)، والمهاد، اللوزة، القشرة الحسية الجسدية

والحركية، القشرة الجزيرية. انظر Buller (2003) و Landis et al., (2006) و Saha (2005) و Sequeira et al., (2000)، Sewards (2004) .

٢٩- Broussard and Altschuler (2000)، Hornby (2001) .

٣٠- Travagli et al., (2003)، Travagli and Rogers (2001)، Cameron (2001) .

٣١- تتعامل القشرة الحسية الجسدية، خصوصا المنطقة الجزيرية، مع المعلومات الخاصة بالتذوق والألم وحالة الأحشاء والأعضاء الداخلية بالجسد. وقد أظهرت الدراسات التى سجلت إشارات كهربية من الخلايا العصبية فى المنطقة الجزيرية (فى بحوث عن مرضى الصرع) أن هذه الخلايا تنفعل وتتأثر كرد فعل فى منظر تعبيرات القرف لدى أشخاص آخرين. (krolak-salmon et al., 2003). وتتلقى المنطقة الجزيرية أيضا إشارات من الأعضاء فى دهاليز الأذن الداخلية التى يعتقد أنها تطلق حركة الإعياء. وفى الدراسات التى صورت الخلايا العصبية وكيفية رد فعل المخ تجاه مثيرات الاشمئزاز تختلف ردود فعل المنطقة الجزيرية تجاه الصور الثورية، والأفلام السينمائية، والروائح، والمذاق، والنصوص المقروءة، وحتى الأصوات. (Phillips et al., 2004, Wicker et al., 2003) . وختاما، فإن المثيرات للمنطقة الجزيرية عند الإنسان تغير ضغط الدم وعمل القلب، ويمكنها أيضا أن تطلق تعبيرات عن القرف ومشاعر وعلامات غير سارة فى الفم، وعلى الوجه وبالأمعاء أو بأجزاء من القناة الهضمية. (krolak- Salmon et al., 2003, Naidich et al., 2004) . والإثارة

الكهربية للمنطقة الحزامية الأمامية تُنتج بالمثل تغييرات لا إرادية فـــي معدل ضربات القلب وضغط الدم والتنفس، علاوة على استجابات أخرى بالأمعاء بما في ذلك الشعور بالغثيان والقيء (Benarroch 1997) .

٣٢- Harris et al., (2008)، Kermer et al., (2007)، Sterzer et al., (2007) .

٣٣- ومثال علـــى التفاعـــل مـــع العنـــف فـــي وســـائل الاعـــلام انظـــر C. Kelly et al., (2007) .

٣٤- يفضل بعض القراء كلمة "قطار" أو "ترام" بدلا مـــن كلمـــة "ترولـــي" ولوصف هذه المـــشكلة انظـــر (2001) . Green et al وانظـــر أيـــضا Waldman and Dieterich (2007) .

٣٥- الذي عرض هذه المشكلة أصلاً هو الفيلـــسوف Philippa foot (Foot 1978) في مقال نشر للمرة الأولى عام ١٩٦٧، وكانت عن ترام على شريط وعليه عمال. بدلاً من أشخاص يتجولون . وهذا لن يـــؤثر فـــي مناقشة المشكلة .

٣٦- Hassin et al., (2007) .

٣٧- كمثال على تأثيرات تطابق العواطف بما في ذلك الاشـــمئزاز، انظـــر Davey et al., (2006) وانظـــــــر أيـــــــضا Forgas (1998)، E.Jonas et al., (2006) . وكمثال على استخدام كلمات العواطف فـــي الدعاية انظر Taylor (2004) . P. 151 .

٣٨- Dennett (1989) .

٣٩- هناك دليل على أن الإصرار على القسوة لـــدى الأطفـــال لـــه علاقـــة بالاضطراب في السلوك والمـــرض النفـــسي والعنـــف فـــي الكبـــر .

انظـــــــــر (Hensley and tallichet 2005 a,b , 2008) . (Merz- perez and , Heide 2003)

٤٠- للمزيد عن العلاقة بين عاطفة الاشمئزاز والأحكـــام الأخلاقيـــة انظـــر Trafimow et al., (2005)، Wheatky and Haidt (2005)، Zhong and Liljenquist (2006)، Jones (2007) .

٤١- كما ذكرنا فيما سبق (انظر الفصل الاول، ملاحظة رقم ٢٣) هناك دليل على أن هذا التأثير قد يمتد إلى قاعة المحكمة مع هيئة المحلفين التى لا تُبدى تعاطفا مع المجرم غير الجذاب. وظهر من الأبحـــاث أن النـــاس يقرنونْ بين القبح والجرائم شديدة العنف وأيضا بين المـــرض العقلـــى. انظر Mckelvie and Coley (1993) . وهذا موضوع مثير للجدال فى البحث العلمى خصوصا بعد أعمال "Cesare Lombroso" التى تربط بين القبح الجسمانى والإجرام. وسواء وُجـــدت هـــذه العلاقـــة وهـــذا الارتباط أم لا، فهذه بالطبع مسألة منفصلة عن مدى انتشار هذا الرأى، وإذا ما كان له تأثير فى الأحكام الأخلاقية.

الفصل السادس

كيف تترسخ لدينا المعتقدات؟

١- Austin et al., (2006) .

٢- لقد عرفنا منذ فترة بوجود إرسال للمعلومات بعيدًا عن نقاط الاشتباك بالخلايا العصبية . انظر (Jourdain et al., 2007)، (Vizi and Mike 2006).

٣- للمزيد عن التعقيدات المزعجة المحيطة بالتغيير فى التشابكات بين الخلايا العصبية، انظر آراء (Lynch et al., (2007)، Massey and Bashir (2007)، Raymond (2007) أو Thiagarajan et al., (2007) .

٤- Hinton (2002) .

٥- Plaks et al., (2005) .

٦- كمقدمة عن المعالجة غير الواعية فى علم النفس انظر (Wyer (1997).

٧- Kveraga et al., (2007).

٨- هناك مرجع قديم عن "ديناميكية الجماعة" أعطانا هذا المصطلح "الفكر الجمعى" وهو (Janis (1982) .

٩- إذا شاهدنا التحديات تتراجع، فقد يسبب هذا النجاح زيادة التمسك بالمعتقدات (Tormala and petty 2002).

١٠-لمناقشة ونقد السياسات الذاتية انظر (Barry (2001) .

١١-(Barry (2001).

١٢-النظرية المؤثرة عن إدارة الفزع طرحها "جرينبرج" وزملاؤه (Greenberg et al., 1997) وقد ألهمت عديدًا من الدراسات عن العلاقة

بين تقبل فكرة الفناء والانتماء الاجتماعى انظر ، Florian et al., (2002) Arndt et al., (2002). وللإيجاز، فإن نظرية إدارة الفزع ترى أن كثيرا من سلوكيات البشر يمكن تفسيرها كردود فعل دفاعية للمعرفة بالموت كإشارة واضحة وبارزة، أو إدراك الفرد بأنه سوف يموت.

١٣- القياس فى هذه النظرية جاء من المقارنة التى عقدها "ريتشارد دوكنز" (Richard Dawkins) بين انتقال الثقافة والجينات والذى يفترض فيها أنه مثلما تحمل الجينات المعلومات بين الأجيال؛ فإن الدعاية تحمل المعلومات بين العقول، وقد قارن بينها وبين "الفيروسات" التى تنقل الأمراض (خاصة المعلومات التى لا يوافق عليها) . انظر Dawkins (1989)، Blackmore (2000) .

١٤- هناك بحث مهم يرى أن التطور الثقافى لا يحتاج إلى مؤثرات الدعاية وصاحبه (Henrich and Boyd (2002) . انظر أيضا Roger and Ehrlich (2008)

١٥- انظر Laqueur (2004) P. 175 .

١٦- الاقتباسان الأولان من "هتلر" Hitler (trans. 1969) P.54 ومن خطبة ألقاها "ماوتسى تونج" أمام مؤتمر المجلس الأعلى الشيوعى الصينى فى ٢٧ فبراير ١٩٥٧ (ونشر الحديث فى ١٩ يونيو من العام نفسه فى جريدة Peoples Daily والاقتباس عن "الجدرى" من كتاب "دوكنز" (Dawkins 1989, 330) . انظر أيضا (Cornwell 2003, 137-45)، (Dawkins 2006, 186-8) .

١٧- وصف الصينيون الشيوعيون أسلوبهم فى جعل أسرى الحرب الأمريكيين فى كوريا (١٩٥٠-١٩٥٣) يرفضون حكومتهم ويدينونها بأنه "إعادة تعليم". ورأت الحكومة الأمريكية، لأنها تدرك أهمية الدعاية، أن أسلوب

عدوها هو عملية "غسيل للعقول"، ووصفتهم بأنهم "التهديد الأحمر الأخير" (Taylor, 2004) .

١٨- الكاتدرائيات كمعكسر اعتقال، ربما؟ ولو رأيت أن هذه فكـرة مزعجـة، تذكر أن الكنائس أصبحت قبورا جماعية فى عديد من الأعمال الفظيعـة. (وفى الوقت الذى أسطر فيه هذا الكتاب تأتى الأنبـاء بـأن مثـل هـذه المجازر ترتكب فى كينيا).

١٩- انظر Bushman et al., (2007)، Loza (2007) .

٢٠- Hodson and Costello (2007)، Taylor (2007) .

٢١- يناقش كتاب "تيلور" Taylor (2006) دور وأساليب "غسيل العقـول" فـى زمن الحروب وفظائعها.

٢٢- Klee et al., (1991), 259 .

٢٣- إن التعليق القائل "وهذا ليس كل الحكاية"؛ قد يفيد كشعار لهـذا الكتـاب (وبالفعل لكل المناقشات العلمية) لقد قدمت بالضرورة كتابـات وبحوثـا كثيرة تتراوح بين البحوث عن كيفية إدارة الصراع فـى المـخ (انظـر Botvinick et al., 2003، Egner and Hirsch (2005)، وبين الدراسـات عن الخلايا العصبية وكيف تتغير تشابكات النهايات الطرفية للأعـصاب (انظر الفصل السادس ملاحظة ٣) لكى تعمل على التزامن بين الخلايـا العصبية ودور التذبذب والترجيح للأنماط (انظر Buzsaki 2006) وكـل هذا من المحتمل أن يصعب فيمه وعن كيف تحل وتنهى الخلايا العصبية اختلافاتها) .

٢٤- Case et al., (2006) .

٢٥- Langer (1999),2 .

٢٦- Green (2007), 192-211، Danner (2005), 52 . والمذبحة فـى قـرب "الموزوت" كانت جزءًا من "La Limpieza". (انظر الفصل الثانى، ملاحظة ١٨).

٢٧-تقترح البحوث أن هناك ترابطًا نفسيا وتداعيات بـين النقـاء الجـسمانى والأخلاقـى، وكـأن نظافـة البـدن تـوحى بنظافـة الخلُـق (Zhong and Liljenquist 2006) . وكان مُعتقد النازى على هذا النحو؛ واحدًا من عديد من هذه المعتقدات: إن صحة البدن تؤدى إلـى سـلامة الخُلق.

٢٨- Hitler, trans. 1969, 226, 396 .

٢٩-هذا الاقتباس عن التعليم من (Meinkampf (ibid. 389 . انظـر أيـضًا Klee et al., 1991, pxiv، Lifton 2000 . (وهذا الخطاب كان فى مقـر القيادة فى برلين).

٣٠- Lifton (2000).

٣١- هذا الاقتباس من (Fritz klein (ibid,16 .

٣٢- Hilberg (1985),18 . انظر أيضًا Lifton (2000),16 .

٣٣- Klee et al., (1991), 217 .

٣٤-فـى مـضمون "الـشعور بأنـه لا ضـرر" . انظـر Hippocrates "Epidemics, I,xi (Hippocrates, trans. 1923) .

الفصل السابع

لماذا نحن قساة القلوب؟

١- Card (2002) .

٢- كتاب "ميكيافيللى الأمير يقول: "إنه من الأفضل أن يخشاك الناس بدلاً من أن تكــون محبوبًــا، إن لـــم تـــستطع أن تجمـــع بـــين الاثنـــين" (Machiavelli, trans. 1961) ولكن يجب استعمال القسوة كعامل مساعد (مع غلظة القلب). والأمير عندما يقود ويأمر الجيش، مثلاً، يلزمه "سمعة" القسوة، لأنه دونها " لن يستطيع أبدًا أن يوحد جيشه وينظمه (ص: ٩٧)، ويقتبس "ميكيافيللى" من القائد "هانيبال" قوله: إن قسوته غيــر الإنــسانية وحدّت بين قواته المتباينة والضخمة.

٣- توجد القواعد الحديثة لإدارة المعــارك فـــى كتــابى قــوانين الحـــروب The ius ad bellum (متى تحدد القتال)، the ius in bello (كيف تختـــار المعركة)- انظر الفصل الأول ملاحظة (٨) .

٤- النقطة المفيدة للبداية فى نظرية الألعاب يمكن أن توجد فى كتابات أحـــد أهم من مارسوها "روبرت اكـــسلرود" Robert Axelrod. (Axelrod 1984, 2003),

٥- انظر Burris and rempel (2004). وردت فكرة "محيط الأفكـــار" فـــى كتاب سالمان رشدى "هارون وبحر الحكايات" (Rushdi 1991) .

٦- انظر Rejali (2008) عن كيف أن السرية، مع عدم موافقـــة الجمـــاهير، تؤدى إلى أن الديمقراطيات تُنشئ أساليب سرية للتعذيب.

٧- **D.Lieberman et al., (2002)، Platek et al., (2008)** .

٨- هناك شواهد على أن أولاد الزوج معرضـون بـشدة للإيـذاء المنزلـى أو الخطر أكثر من أبناء زوجة الأب (والأبناء البيولـوجيين) **Daly and Wilson (1998)** ويلزم دراسات أكثر فـى ثقافـات مختلفـة عـن هـذا الموضوع، لأن الثقافات تختلف بخصوص أهمية الأبنـاء مـن صـلب الأبوين (البيولوجيون). انظر أيضا **Buss (2005)**، **Kurt-Swanger and Petcosky (2003)** عن موضوع العنف الأسرى.

٩- انظر **Jenkins et al., (2008)** . التشابه النفسى بين شخصين قـد يـؤدى إلى التقدير المتبادل تمامًا، لكن هناك بعض التحذيرات بالطبع. فقد يكون هناك شخصان متشابهان تمامًا، مثلاً، إلا أنهما يكرهان بعضيهما لأنهمـا يختلفان بخصوص أمر ما أو مسألة تهم كل منهما. وعندما نُجرى مقارنة للتشابه، فهناك أيضا موضوع يخص السمات النفسية والذاتية، أهى مثالية أم واقعية، ومن يشارك فى سمة غير مرغوب فيها قد ينال قبولاً وتقديرًا أقل.

١٠-قد يتصارع كل من جماعات الأقارب ذوى القرابة المادية أو الرمزيـة، خصوصًا إذا كانت التهديدات الرئيسية التى يواجهونهـا ليـست الهجـوم البشرى ولكنها محدودية الموارد. ومعظم القسوة التى تحدث فـى هـذه الحالة قليلة نسبيًا (الإيذاء اللفظى). والإقصاء قد يكون شديدًا ويؤدى إلـى قسوة متزايدة. إلا أنه بما أن الإقصاء يشمل مشاركين يُفرِّقون بين أنفسهم وبين منافسيهم عن عمد، فالقرابة الرمزية عن التشابه مـن المحتمـل أن تتضاءل أو تُمحى كلما زاد الإقصاء.

١١- إن استخدام مصطلح "كثيف" أو "خفيف" فى الإشـــارة إلـــى الإشـــارات الثقافية مرتبط بفكر عالم "الإنثربولوجى" كليفورد جيرتـــز" Clifford Geertz اتخذه من الفيلسوف "جلبـــرت رايـــل" Gilbert Ryle، وقـــد استخدم "رايل" هذه المصطلحات ليشير إلى وصف الأفعال؛ فعلى سبيل المثال يمكن وصف "رمشة" العين على أنها انقباض "خفيف" للعـــضلة، أو قد توصف على أنها إشارة "كثيفة" تآمرية بمعنى مـــا. وقـــد نـــسب "جيرتز" هذا الاستخدام المختلف لاختلاف الثقافـــات. انظـــر Geertz (1973)، Ryle (1971 a,b)، أو لتناول حديث فى وصف الأفعال انظر Wegner (2002) .

١٢- كإشارة إلى مصادر ومراجع "هاملتون" Hamilton انظر الفصل الثالث ملحوظة رقم ٢٩.

١٣- Brogden (2001)، Buss (2005)، Hausfater and Hardy (1984).

١٤- عندما ينشأ صراع بين شخصين متشابهين سيكون الاختلاف بينهما فى بعض الأمور بارزًا وواضحًا لتميـــزه. كمـــا أن العواطـــف الـــسلبية المصاحبة سوف تجعل الاختلافات الأخرى الثانويـــة والأقـــل درجـــة أوضح وأكبر إذا ارتبطت هذه الاختلافات بالعواطف السلبية التى سوف تضخمها (نوقشت فى الفصل الخامس) .

١٥- Navarrete and Fessler (2006)، Stevenson and Repacholi (2005)

١٦- نوقش استخدام "Lazarhouse" كنوع من الـــضبط الاجتمـــاعى فـــى Moore (1987) .

١٧- رعاية المسنين من النساء بالتمريض وسيلة فاعلة لزيادة فرص المرضى منهن للنجاة، مع التقليل من مخاطر فشل الجماعة فى التكاثر وحماية الافراد .

١٨- Kruglanski et al., (2002) .

١٩- Blair (2005)، Shamay-Tsoory and Asharon-Peretz (2007) .

٢٠- Gallese et al., (1996)، Lesle et al., (2004)، Rizzolatti (2005) .

٢١- انظر Vignemont and Singer (2006)، Singer et al., (2004, 2006) ومن المهم ذكر أن الدراسات أشارت إلى أن اختلاف عمليتين ما (مثل تجربة الألم والتعاطف معه مثلا) تنشط المنطقة نفسها فى المخ، ولا يعنى هذا أن مجموعتين متطابقتين من الخلايا العصبية شاركت معًا، أو أن مناطق بالمخ تعمل بالطريقة نفسها. (انظر Morrison and Downing 2007) .

٢٢- تقترح البحوث في علم دراسة الجهاز العصبى الاجتماعى أن مرض "التوحد" يشمل أولا مشكلات فى الشعور والتعاطف الإدراكى والمعرفى، بينما وجد أن الخلل في المشاركة العاطفية يرجع إلى مرض نفسي. والناس الذين يعانون من التوحد يعانون من عواطف سلبية قوية مثل الخوف. أما المرضى النفسيون فيفهمون أن الخوف يؤثر فى غيرهم من الناس، لكنهم هم يشعرون بالخوف بدرجة أقل (Blair et al., 1997) . والتعاطف مع آلام الغير قد يقل إذا كان الشخص نفسه يعانى من الألم أيضا (Valeriani et al., 2008) .

٢٣- هذا المبدأ هو أساس استعادة العدل، ويهدف إلى أن "يشعر" المتهم، لا أن يفهم فكريًا وذهنيًا، الضرر الذى أحدثه. وإحياء العدالة. والذى

أصبح الآن أكثر استخدامًا وشيوعًا فى بريطانيا، يبدو أن له فاعلية فى كثير من القضايا. ولمزيد من المعلومات هناك "اتحاد واستعادة العدالة" (2007) أو فى نص حديث (Sherman and Strang 2007) .

٢٤- Klee et al., (1991), 142 .

٢٥- المرجع السابق ص ١٥٤. أدلى "Hafner" بهذه العبارة فى عام ١٩٦٥ وفى عام ١٩٧٣ حكم عليه بالسجن لمدة ثمانى سنوات .

٢٦- Arendt (1963) وتم اقتباسها فى Milgram (1997) , 23 .

٢٧- هذا الاقتباس من Klee et al., (1991) , 143- 51 .

٢٨- المرجع السابق نفسه.

٢٩- فى "بابى يار" بمنطقة الجبال القريبة من "كييف" وبها وادى ضيق منحدر رأى أحد مشاهدى المجزرة أن منطقة الإعدام كان طولها نحو ١٥٠مترًا، و٣٠ مترًا فى العرض وعمقها ١٥ مترًا" . ولها مدخل وحيد ضيق حتى تُعزل عن ساحة الانتظار والتى كان اليهود يخلعون ملابسهم فيها ويسلمون ممتلكاتهم. وفى ٢٩-٣٠ سبتمبر ١٩٤١، جُمع ٣٣٧٧١ رجلاً وامرأة وطفلاً فى الوادى وأطلقت عليهم النيران (المرجع السابق ٦٤-٦٨)، ثم دفنت الجثث بالوادى نفسه.

٣٠- الاقتباس من المرجع السابق ٩٦-٩٧ والتأكيد كما جاء بالمصدر .

٣١- الاقتباس من المرجع السابق ٨٩، ٩٥.

٣٢- Rees (2005) .

٣٣- للمعلومات عن مذابح "رواندا"؛ انظر المقدمة ملاحظة رقم ٢٣. والقتل الجماعى فى بولندا بقرية "جدوان" Jedwabne عام ١٩٤١ هو حالة صارخة من عدوان الجار على جاره اليهودى، وكتب بالتفصيل فى

Gross (2003) . أما الفظائع التى ارتكبتها القـوات الأمريكيـة ضـد الفلاحين فى "ماى لاى" (MyLai) عـام ١٩٦٨ فـى أثنـاء الحـرب الفيتنامية فقد أعلن عنها "سيمور هيرش" (Hersh 1972). وعن مأسـاة هيروشيما ونجازاكى انظر (1988) Rhodes .

٣٤- لقد انتشرت فى أوروبا بالعصور الوسطى دعاية "جريمة الدم" كتشهير باليهود يدعى أنهم يذبحون الأطفال المسيحيين كى يستخدموا دمـاءهم فى طقوس الاحتفال بعيد الفصح (انظـر Frankfurter 2006, 149)، وانتشرت حكايات مماثلة فى صحافة الصرب عن كوسوفا فـى عـام ١٩٨٥. وقد حكاها باختصار "نويل مـالكولم" (Malcolm 1998. 338) وغطاها بالتفصيل Julie Mertus (Mertus 1999, ch.2) .

٣٥- Frankfurter (2006) , 12 .

٣٦- Tilly (2003)، Valentino (2004) .

٣٧- حتى الإحساس المجرد بالأمان له شعور عصبى متلازم ويكون فى هذه الحالة فى قشرة الفص الجبهى الجانبية (Bender et al., 2007) .

٣٨- Prunier (1995, 171-2 وتم اقتباسه فى (2002) Hinton . انظر أيضا Gourevitch (2000), 96 .

٣٩- Atran et al., (2007)، Ginges et al., (2007) . وهنـاك مناقـشة مدهشة للموضوع فى (1983) Parker , Girard (trans. 2005) .

٤٠- تتبع مؤرخ الإرهاب "والتر لاكير" (Laqueur 2004) Walter liqueur جذور فكر "الجهاد" فى الإسلام حتى "ابن تيمية" (ولد عـام ١٢٦٨) . وقد اعتبرت وجهة نظره وآراؤه غير رسمية ومثيـرة للجـدال بـين معاصريه، وتفسيراتها من الإسلاميين الراديكاليين فى العصر الحـديث من سيد أبو الأعلى المودودى، وسيد قطب، وأسامة بن لادن، وأيمـن

الظواهرى وآخرين تحداها أيضا مسلمون آخرون. وهى ليست العـودة الأصيلة للمبادئ المؤسسة التى تُستشف من مصطلح "الأصولية". انظر أيضا (Burke (2004، Ruthren (2004) .

٤١- Schachter and Singer (1962) .

٤٢- Chirot and Mc Cauley (2006) .

٤٣- للتـيقن مـن دور "جنـون العظمـة" فـى الـسياسة انظـر Robins and Post (1997) .

٤٤- Dallaire (2004), 255 .

٤٥- Frankfurter (2006) .

٤٦- كانت معركة "كوسوفو" فى القرن الرابع عشر هى التى أثارت "صربيا" ضد الإمبراطورية العثمانية، وما زالت جزءا بـارزا مـن أسـطورة التاريخ الوطنى فـى صـربيا (Malcolm 1996, 1998 and Mertus 1999) وانظر المزيد (Weitz (2003 .

٤٧- Preston (1994) .

٤٨- Chirot and McCauley (2006), 36 .

٤٩- لم تكن جريدة الديلى ميل وحدها هى التى جعلت المناخ - فـى هـذا الوقت- معاديًا لليهود. فقد دعا رئيس تحرير جريدة التايمز مثلاً لطرد جميع اليهود من الوظائف العامة (Pugh 2006, 215)، وكما قال "مارتن بو" Martin Pugh: فإن الجريدتين كانتا تمثلان وتعكسان شعور معاداة السامية المنتشر والشائع فى هذا الوقت .

٥٠- لم يصل عديد من التعبيرات العنصرية إلى منظومة العدل. ومن فعلـوا ذلك هم (U K Home Office Figures for 2005/7)،

وقد اقترح أن http://www.homeoffice.gov.uk/rds/crimeew0607.html) الجرائم بسبب العنصرية أو الدين تمثل ٢% من الاعتداء دون إصابات، ١١% تهم مهاجمة (Nicholas et al., 2007) .

٥١- Fein (1990) .

٥٢- مثل العمل الفني الخاص بالفنان "مارسيل دوشامب" Marcel Duchamp وكما أعلم، فهناك عمل آخر للفنان "بيرو مانزوني" Piero manzoni، وكان في عام ١٩٦١ .

٥٣- انظر مثلا مناقشاتي لهذه النقطة في Taylor (2004) وكانت دعاية النازي مزعجة عندما شبهت اليهود بالفئران وبالسرطان... إلخ. وقد استعملت هذه التشبيهات من بعض الضباط في "السلفادور" عندما وصفوا الشيوعية بأنها سرطان (Danner 2005, 49). والمجرمون في مذبحة رواندا شبهوا ضحاياهم بفيروسات المرض والصراصير (Dallaire 2004, 142). أما الجنود اليابانيون فقد أجبروا النساء على البغاء في ثقافة تُقدّر بشدة طهارة المرأة، في أثناء الحرب العالمية الثانية، وكانوا يطلقون عليهم اسم "المراحيض العامة" (Chang 1998,53) .

٥٤- Parker (1983) .

٥٥- هذه خطة النازي لجزيرة "مدغشقر" والتي أُدينت بعد ذلك بأنها غير قابلة للتطبيق ومتعذرة التنفيذ (Rees 2005).

٥٦- يوجد مزيد من المعلومات عن "بابي يار" في الفصل السابع، ملاحظة رقم ٢٩. وكتب "هينتون" كثيرا عن طريقة تفكير الثقافة المحلية عن القتل الجماعي على طريقة "الخمير الحمر" (Hinton 2002) . والفصل الذي كتبه "تيلور" Christopher Taylor يعرض ما يراه علم الأجناس (الأنثروبولوجي) عن الإبادة الجماعية في "رواندا".

الفصل الثامن

لمــاذا تــوجد الســادية؟

١- الآراء الغربية عن السادية أو التحليل النفسى لها لن يُذكر هنا بسبب ضيق المجال، والذى لن يعطى هذا الموضوع حقه. ومناقشة السادية كشكل من أشكال القسوة يستثنى أيضًا المشاركة الطوعية كجــزء مــن الممارســة الجنسية، لأن الألم الذى توافق عليه الضحية ليس معاناة بــالمعنى الــذى يُصوّره هذا الكتاب.

٢- لمعرفة التعقيدات المتضمنة فيها انظر **Gary et al., (2003)** . ومــصطلح "اضطرابات الشخصية" يمثل إشكالية "فخ الأصل والجوهر". والصعوبات التى يثيرها الوصف بأنها حالة مرضية وليست فكرًا وشعورًا (كما هــى الحال فى الاكتئاب مثلاً) أو حتى حالة سلوكية (مثل داء السرقة). تعنــى أنه شىء يخص الشخصية بأسرها.

٣- إن بذرة الأبحاث عن السادية ليست بسبب طبيعة موضــوعاتها. وهنــاك اهتمام علمى شديد بهذه الموضوعات المرضــية **(Porter et al., 2005)** . وقد تكون لذلك علاقة بطغيان التحليل النفسى فى هــذه الدراســات عــن السادية حتى الآن، أو بسبب "الهالة " والجو الخاص الــذى يحــيط بهــا. وتعتبر الأمراض النفسية موضوعات علمية أكثر توقيرًا واحترامًا.

٤- انظر مثلاً وصف السادية الجنسية واضطرابات الشخصية الــسادية فــى كتب علم النفس. والجمع بين الشهوة والقسوة يــدين لدراســات "كرافــت إبينج" **(Krafft – Ebing)**. انظر أيضًا الفصل الأول، ملاحظة (٢) .

٥- Browning (1991)، و Zimbardo (2007) .

٦- لمناقشة تقديرات السادية وصعوبة الحصول عليها تجدها في (Porter et al., 2003) .

٧- Kinsey et al., (1953) . ولمنظور نفسي تحليلي ونقدي نظري عن العلاقة بين السادية والماسوشية انظر Deleuze (trans. 1971).

٨- في تسجيلات الفيديو عن التفجيرات الانتحارية يظهر المنتحر كبطل رجولي شجاع. وهذا ببساطة زيف. وإذا كانوا يعتقدون، كما يقال، أنهم سوف يثابون بعد الموت، فإن ما يجري بعد إطلاق الحزام الناسف لن يزيد عن كونه مخرجًا سهلاً لإنسان جبان. وليست كل حوادث الانتحار هذه بدافع ديني، وهذه الطريقة في قتل النفس ما زالت مؤكدة (مضمونة النتيجة) وأقل بُغضًا وسوءًا من طرق أخرى. فالمرأة المسنة التي تموت من السرطان تحتاج شجاعة أكثر من أي منتحر بالتفجير. وهذا الانتحاري قد يكون مثاليًا، أو يائسًا أو غاضبًا وثائرًا أو لديه تصميم "بارد" بلا مشاعر. وقد يرغب في مساعدة الآخرين ممن يلاحظ معاناتهم. وقد يكونون أذكياء ومتعلمين تعليمًا جيدًا (Gambetta 2005)، وقد يكون من يمارسون التعذيب بهذه الصفات نفسها، لكننا نرى هذا "التكتيك" نوعًا من الغباء. لكن كل من الإرهابيين والمعذبين يتظاهرون بأن سلوكهم مجرد فرع من حرب نبيلة، يلجأون فيها إلى من يمجدونهم بأنهم "شجعان" كي يؤدوا الأفعال الخسيسة، ولهم مصالحهم الشخصية.

٩- علينا جميعًا قبل أن نحتفي بأننا اجتزنا العصر البدائي البربري إلى نور الحداثة العلمية المدنية أن نتذكر تحذيرين: أولاً: العلماء والأطباء ليسوا دائمًا محصنين ضد الحاجة للتحكم والسيطرة ولا يتمسكون دائمًا بالقيم

المهنية. والأطباء النازى واليابانيون ارتكبوا الفظائع أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها. ومن تجارب وكالة المخابرات المركزية الامريكية "CIA" الفظيعة تجربة مرض الزهرى فى مدينة **Tuskegee** (بولاية آلاباما) وما قام به العلماء من تصميم أسلحة التعذيب والتدمير (انظر: **Rejali 2008**). وثانيًا: إن من يُطْلَق عليه اسم "سادى" فى الطب الغربى الحديث يُعْتَبر فورًا شخصًا خطرًا. وإذا لم يُشْف هذا الشخص فإنه سوف يرحل من المجتمع ويحرم من حماية المجتمع له. وقد يشمل هذا السجن لفترات طويلة أو الإعدام، أو الطرد لينتمى إلى جماعات بدائية لها تقاليد خاصة.

١٠- **Nisbett and Cohen (1996)** .

١١- إننى أقول "من المحتمل" لأننى لا أعرف بالتأكيد التأثير السببى لعلاج السادية فى الطفولة على الشخص عندما يصبح أبًا فيما بعد. هناك أبحاث كثيرة عن تأثير تجارب العنف فى الطفولة. انظر: **Arseneault et al., (2006)**، **Ballif – Spanvill et al., (2003)**، **Douglass (2006)**، **Koenan et al., (2003)**، **Ng-Mak et al., (2004)** و **Gershoff (2002)**

١٢- الجدال حول فكرة التطور يأتى من أنها لا يمكن اختيارها بطريقة مباشرة بسبب عدم قدرة الأطباء على إعطائنا "حالة" مرئية لمسيرة الزمن، وبالفعل فإنه يقال إن "النشوء والتطور" يمكن أن يفسر ويشرح أى شيء وبذلك لا يشرح شيئًا على الإطلاق. والجدال الذى يُثار حول القسوة يعتمد على افتراضات معينة يمكن أن نتحداها عمليا وتجريبيا. فتصوير البشر فى أزمان سابقة (بدائية) على أنهم يعيشون فى جماعات صغيرة تتنافس على الموارد قد يثبت عدم صحته بدليل من الحفريات أو علم دراسة الأجناس. والمقارنة مع أنواع من الكائنات مثل

الشمبانزى تعتمد على آثار جماعات صغيرة تعيش على موارد محدودة، وبعد اختبار التنبؤات عنها وافتراض أن القسوة تنشأ عن جمود القلب عندما يقترن بالإثابة من الداخل (باطن الفاعل) لا بد أن يُختبر، وقد لا يثبت صحة هذا الافتراض، وقد يكون من الصعب إجراء هذه البحوث لدواعى اعتراضات أخلاقية، وصلاحية البيئة لإجراء هذه البحوث أمر آخر. وأجهزة الرنين المغناطيسى حساسة بدرجة كبيرة لأى حركة ولا يمكن حملها والتنقل بها. ومع ذلك فهناك بحوث يستعد لها عن حروب بأسلوب "المحاكاة" (انظر: Salminen and Ravaja (2005)).

١٣- منطق الفاعلية مستقل الآلية، وينطبق على التطور الثقافى علاوة على انتقال الجينات.

١٤- Dennett (2006), 57 .

١٥- Jones and Fabian (2006)، Keeley (1996)، Mc Call and Shields (2008) .

١٦- من أمثلة القسوة المزعجة والصادمة ما نجده، مثلاً، فى مسرحية "يوريبيديس" Euripides (The Bacchae) والتى تقطّع فيها مجموعة من النساء أوصال الملك "بنثيوس" Pentheus، وفى أسطورة "Tereus" الذى اغتصب وسجن وعذب أخت زوجته. وعندما علمت بذلك زوجته انتقمت بأن قتلت ابنهما وقدمته كطعام للأب (Euripides, trans. 1973)، (Hughes 1997, 229-45) .

١٧- أظهر البحث فى "تخيل قتل البشر" أن ٩١% من الرجال و ٨٤% من النساء كانت لديهم - على الأقل- تخيلات واضحة عن قتل شخص ما (Buss 2005, 8).

١٨- هناك علاقة ثابتة بين إصابة المخ والسلوك المضاد للمجتمع على الأقل عندما اخترق سيخ حديدى رأس "جيج" Phinas Gage وأحدث به ثقبًا كبيرًا (وشهيرًا) دمر قشرة الفص الجبهى. وفى هذا الوضع تحول "جيج" من مواطن محترم إلى شخص معتوه أخلاقيًا. وتناقش هذه الحالة فى كثير من كتب علم دراسة الجهاز العصبى (مثل Damasia 1996).

١٩- وتعليقاتى على التأثير التحولى للسادية مجرد تأملات؛ لأن تأثير الإيذاء الجسدى والجنسى واللفظى فى الطفولة (وليس كله ساديًا بالطبع) على الفرد عند البلوغ لم يُفهم تمامًا. وليس كل فرد يُظهِر انحرافًا، ومعظمهم لا يتحولون إلى معتدين انظر Browne and Finkelhore (1986)، Dilillo and Damashek (2003)، Ertem et al., (2000)، Finkelhore (1990) .

٢٠- يعتقد أن النقص فى الغذاء يُسْهِم فى السلوك العدوانى (Gesch et al., 2002) .

٢١- انظر Kirsch and Becker (2007)، Manshall and kennedy (2003).

٢٢- Semelin (trans., 2007)، Valentino (2004).

٢٣- Foxe (ed.c, 1910) .

٢٤- لقد هاجم "نيتشه"، مثل "دى ساد" المسيحية، وبينما أكد "دى ساد" على محاولتها الحد من قسوة البشر والعدوان، اتهمها "نيتشه" باستعراض الدافع للتحكم والسيطرة قائلاً: "إن فيها حسًا معينًا بالقسوة تجاه الذات والآخرين، والكراهية لمن لا يفكر تفكيرًا مختلفًا، والرغبة والإرادة فى الاضطهاد" (Nietzsche, trans. 1968, 131) . ويتفق الكاتبان على أن المسيحية تحد من وتقوض فعالية حرية الإنسان وقوته قائلاً: "إنها

تكرس كره العقل، والكبرياء، والشجاعة، والحرية، وفجور وفسق العقل في المسيحية، وكره الحواس وكره النشوة من الأحاسيس والفرح عموما. من المسيحية " (المرجع السابق نفسه) انظر أيضا (1990) Miller .

٢٥- قصة "بروميثيوس" موجودة في (Aeschylus (trans. 1922 .

٢٦- للمزيد عن تفاصيل "تاريخ مباهج الحروب" انظر (2000) Bourke.

٢٧- كما صُور "هانيبال" في الكتب والأفلام. مثل ,H. lecter Hannibal ,and, The Silence of the Lambs ولم أشاهد الفصل الأخير في هذه الملحمة "Hannibal Rising" والذي فيه محاولة لتفسير شخصية البطل. وفي مثل هذه الحالة وهذا البطل تكون كثرة الحديث بالتفصيل الشديد عن شخصيته مدعاة للمجازفة "بتدمير" الإعجاب بهذه الشخصية.

٢٨- كما سنرى في الفصل التاسع، فإنه حتى إن لم ينج الضحايا؛ فإن هناك معنى للموت الواقع بفعل السادية ورغبة شريرة من الفاعل (انظر: Dutton, 2007, 123-9). والموت، خصوصًا الموت المفاجئ، يؤثر بشدة في نفس من حُرموا من المتوفى ويسبب لهم صدمة، مثلما يحدث في إصابات الجسد. وأحيانًا يُلام فاعل ما لتخفيف الآلام. وينطبق المنطق نفسه إذا كان الفاعل يُعتبر طيبًا وليس شريرًا، وإذا اعتبرت المعاناة نوعًا من "الدرس" – عندئذ سيكون الموضوع" أن الله يريد أن يُعلّمنا".

٢٩- Wyndham (1960), 98 .

٣٠- Berg (trans. 1938) .

٣١- لمزيد من التفاصيل عن طفولة Kurten انظر Barg (trans. 1938) ch.3 .

٣٢- للمزيد عن النواحي السياسية والتواصلية للإرهاب، وبالتحديد عن الانتحاريين، انظر Bloom (2005) .

٣٣- انظر Adam curtis في فيلمه التسجيلي The power of Nightmares .(Curtis 2004)

٣٤- Laqueur (2004), 403 .

٣٥- Burns (ed.1993) والكلمات المؤكدة كما جاءت في النص الأصلي .

٣٦- Pavlov (trans. 1941) .

٣٧- De Roos et al., (2004)، Hertel and Donahue (1995).

٣٨- Peter kurten (Berg trans. 1938, III).

٣٩- Firth et al., (2004) وفيه كل شيء يريد القارئ المهتم أن يعرفه عن "طيور التعريشة" . (bowerbirds) .

٤٠- من الممكن أن يكون اختيار الإناث لمن يحتمل التهديد بالاشمئزاز، إذ إن النساء والأطفال مُعّرضون للعدوى بالأمراض أثناء الحمل والفترة الأولى بعد الولادة، وعندئذ يكون من لديه استعداد من الذكور لأن يتعامل مع الأشياء المقززة شخص مفيد. (Fessler 2002. Fessler et al., 2005)، (Taylor 2007) وهذه إشارة على صلاحية هذا الفرد وقد يكون هذا أحد أسباب "التطورية" التي تجعل المجرم يُحّول ضحيته إلى شيء يثير الاشمئزاز، ويتصرف وكأن تحّمله لهذا المشهد المقزز نوع من البطولة، كأن يتصور مع جثة، كما فعل جنود أمريكا في سجن "أبو غريب" بالعراق بعد غزوها في عام ٢٠٠٣.

٤١- أخرجت قصة Las poquianchis كفيلم سـينمائى (أخرجهـا "فيليـب كازال" Felipe Cazals) . ثم كتبها كروايـة "جـورج إبرجينجوتيـا" .(Ibarguengoitia, trans. 1983) Jorge Ibarguengoitia

٤٢- Richardson and Hammock (2007) . ومثال على الاختلاف العرقى فى السلوك العام تجاه القتلة نجده فى وسائل الإعلام البريطانية وتعاملها مع من قتلوا المغاربة "ماريا هندلى" و"إيان برادى". ولم يُعامل الاثنـان بالإحساس نفسه، فلم يعامل "برادى" بالكره والاشمئزاز نفسيهما اللـذين عوملت بهما صديقته.

٤٣- القسوة من النساء أيضا لها ما يبررها إذا كانت تُظْهر القوة، فهذا دليـل على أن ذلك يحدث عندما تكون المرأة فى وضع يُعْطيهـا دورًا فـى المجتمع، وينتظر ويتوقع منها اتخاذ نوع من السلوك "الرجـالى"، وأن تتصرف بشىء من القسوة.

٤٤- هذا النزوع يسمى مرض "هيروستراتوس" (Herostratos syndrome) على اسم الرجل الذى أحرق معبدًا لكى يخلد ذكره (Borowitz 2005) .

٤٥- Gambetta (2005) وهو مرجع قوى فى البحث عن الانتحار الإرهابى .

٤٦- انظر Leknes and Tracey (2008) . وقد يستخدم الألم أيضا للتخفيف من الاكتئاب النفسى. انظر (Whitlock et al., 2006.

٤٧- Blair (2005) .

٤٨- إذا كانت السادية نوعا من الإدمان ستكون الإثابة الداخلية هدفا فى حـد ذاتها، وفى هذا تشابه بين المدمن والسادى وأنماط أخرى من الـسلوك "التصاعدى" . وإذا تصادف وجود أنواع متعددة من الإدمـان سـيكون الميل للإقلاع مبعثه ظروف معينة. وقد نتوقع أيضا أن نرى تغييـرات فى المخ تشمل تغييرا فى مرونة النهايات الطرفية للخلايـا العـصبية

وبعض المظاهر الشاذة فى التمثيل الكيميائى (الأيض) للدوبامين مع تغييّرات فى مناطق الإثابة بالمخ مثل: منحنى النواة وقشرة الفص الجبهى. (انظر Hayman et al., 2006، Kauer and malenka 2007 لمعرفة المزيد عن البناء العصبى وآليات الإدمان) . وذلك على الرغم من أن هذه افتراضات تحت الاختبار، حسب علمى، ولم يتم اختبارها حتى الآن.

٤٩- Nell (2006) .

٥٠- Pincus (2001) .

٥١- Cross and Matheson (2006) .

٥٢- Balakian (1998) وتم اقتباسها فى Waller (2002),52.

٥٣- إلصاق حدوة الحصان فى قدم الضحية كان دلالة على تعذيب شخص ذى حيثية من قائد تركى هو "Djevdet Bey" وقد كان لذلك "شهرة" شديدة، كما ذكر "هنرى مورجنثو" Henry Morgenthau سفير أمريكا لدى تركيا فى تقريره عن هذه المأساة (Morgenthau ed.2000, 204-5) وسواء كان "جيفديت بيه " Djevdet Bey هو المسئول عن هذا الفعل الفظيع بالذات، ولماذا اختار هذه الطريقة فى التعذيب، لا أعلم (ووفقا للاعتقاد التقليدى فإن حدوة الحصان تحمى من السحر و"العين" الشريرة) .

٥٤- Zimbardo (2007). 7 .

٥٥- يقدر "براوننج" نسبة القتلة الذين رفضوا أو تحاشوا الأوامر وواجباتهم فى القتل بأقل من ٢٠%، علمًا بأن هذا يشبه نتائج ظهرت فى عينة أصغر تم بحثها فى تجربة سجن "ستانفورد" (Browning 1991, Zimbardo 2007).

الفصل التاسع

هل بإمكاننا التوقف عن القسوة؟

١- للمزيد عن دور المشاهدين فى عمليات الإبادة الجماعية انظر Power (2003).

٢- لمناقشة مستفيضة للعوامل التى تؤثر فى العلاقة بين العنف واللا عنف انظر Barak (2003).

٣- فى بدائل أخرى مثل العقوبة الجسمانية، يمكن أن تُعطى القوة العاطفية المطلوبة، لكنها لن تحل مشكلات العمليات القانونية الطويلة وغير الفاعلة والتى قد تحيد عن العدل. وقد يمنع ذلك الجماهير من الإرشاد عن الأصدقاء والأقارب والسلوك القاسى الذى ربما يُبرر قانونا من بعض الأفراد. وعلاوة على ذلك فإن العنف المصرح به من الدولة قد ينتشر (Rejali 2008) وللإيجاز، هناك أسباب عديدة تؤكد أن العقاب البدنى ليس هو الحل لمشكلة السلوك الإجرامى.

٤- Cohen et al., (2007).

٥- للمزيد عن التخفيف فى المدة انظر Ainslie (2001)، Berns et al., (2007).

٦- Shema et al., (2007).

٧- مصدر هذا التملق والادعاء (عن روح الحرية التامة والتنوير) هو الشاعر الفرنسى Guillaume Apollinaire (Apollinaire ed. 1964, 194).

٨- Sade (trans. 1991), 602-3.

٩- المرجع السابق: ٤٩١، ٤٩٤، ٥١٨-١٩

١٠- الاقتباسات من المرجع السابق نفسه: 607-8، 497، 514.

١١- انظر مثلا Dawkins (2006)، Hauser (2006) .

١٢- انظر Slone (1990) .

١٣- Hume (ed.1975), 34.

١٤- يجب هنا أن أعترف بالجميل إلى " Wittgenstein" وكتابه Philosophical Investigations (Wittgen stein, trans. 1974) .

١٥- قال "بلير" هذه العبارة فى حديث عن الإرهاب بعد انفجار لندن فى ٧ يوليو ٢٠٠٥ (BBC, 2007) .

١٦- يوجد مزيد من التفاصيل عن هذا الرأى فى الفصل الحادى عشر من (Taylor, 2004)، انظر أيضًا Dennett (2003,b) .

١٧- تحديدًا، إذا كنت مسئولاً فسوف تدبر الأمر، وسوف يؤثر هذا فى سلوكك (Metcalfe and Greene 2007) .

١٨- Foster and Young (2001) يرون أنه حتى فى حالة الفاعل العاقل تمامًا، لن يمكن التنبؤ بالسلوك فى بعض الأحوال .

١٩- Wilkinson (2005) .

٢٠- Klee et al., (1991), 81-2.

٢١- انظر La Capra (1997) لمزيد من التفاصيل والمناقشة المستفيضة للعبارة "هنا لا يوجد لماذا" .

٢٢- إذا كان لديك شك، فربما ترغب فى أن تحاول البحث فى الشبكة الدولية للمعلومات عن "الإبادة الجماعية فى أرمينيا". وربما باستعمالى هذه العبارة أكون قد أعتبرت أن هذا الكتاب نُسى تماما فى تركيا، إلا أن

كثيرا من الأتراك يعترفون بأن هناك مذابح ارتكبت ضد الشعب الأرمنى. انظر أيضا الفصل الثانى، ملاحظة (٦).

٢٣- صاغ "رافائيل لمكن" Rafael Lemkin مصطلح "إبادة جماعية" من كلمة يونانية معناها "جنس من الناس"، أو "الشعب"، ومن كلمة لاتينية معناها "يقتل". وقد شكل حملة ناجحة كى تتم الموافقة على المصطلح كحقيقة قانونية فى "الأمم المتحدة".

٢٤- Bridgman and Worley (2004)، Gewald (1999) .

٢٥- Hochschild (1999) .

٢٦- للاطلاع على المناظرة عن استثنائية وتفرد الهولوكوست انظر Rosenbaum (2000) .

٢٧- إن الأمثلة التى ذُكرت فى النص تم اختيارها لإثبات الاشتراك الإنسانى فى المعاناة والألم على نطاق واسع وصعوبة إثبات المسئولية السببية والأخلاقية فى مثل هذه الحالات. لقد شملت مئات الآلاف من القتلى وتركت أثرا دائما فى شعوبها. إن فظائع معاملة الجنود الصينيين، والمدنيين (ودولاً أخرى هزمتها اليابان من ١٩٣٧) ما زالت تمثل شيئا مفزعا. انظر الفصل الأول، ملاحظة (١٧). وربما لم تشتهر بالقدر نفسه من المعاناة الفظيعة للمدنيين بعد أن تسلم السلطة الجنرال "سوهارتو" فى إندونيسيا (١٩٦٥) وقام بغزو تيمور الشرقية (١٩٧٥)، ويقال إن هذه الأحداث نتج عنها على الاقل ٦٠٠٠٠٠ من القتلى (انظر Rummel 1994 جدول 1.2.1.5) . وانظر أيضا http://nsers.erols.com/mwhite28/warstat3.htm#Indonesia وفى كلتا الحالتين كانت المسئولية واضحة؛ إنها القوات الرسمية للإمبراطورية اليابانية وللجنرال "سوهارتو"، على التوالى. ولم تكن

الوسيلة إطلاق النار دائمًا لكن الجوع حتى الموت ممكن والذى يمثـل معاناة أكبر للضحايا. وفيما بين ١٩٢٠ و ١٩٤٠ عانى الأوكرانيـون صعوبات شديدة، وخصوصا أثناء المجاعة ١٩٣٢-١٩٣٣ (Vallin et al., 2002) وهنا ما يسمى "القتل بالجوع". وقد أبتليت أيرلندا بالمجاعـة بعد دمار محصول البطاطس فى أواخر الأربعينيات من القرن التاسـع عشر (من ١٨٤٠) . وفى الحالتين تُدان سلطات ستالين وبريطانيا على التوالى. وقد أثار ذلك جدالاً كبيرًا عن دورهما فى هذه الكوراث. وكما قلت فى هذا الكتاب فإن من الصعب تحديد دوافع الجانى أو المجـرم، فالإهمال واللا مبالاة أو المحاولة المقصودة لإحداث المجاعة وتعميقها لا يمكن إثباتها أو فك طلاسمها، وقد تفتح هذه المحاولة المجال للتحيز "الأيديولوجى". وبما أننى لست خبيرة فى هذا التخصص، فإن انطباعى هو أن الاتهام بالمشاركة فى هذه الأحداث شىء لا يمكن تأكيده.

٢٨- Hardenburg (1912),28-9 .

٢٩- الوارد بهذه الجريدة عن الزيارة متاح تفـصيلاً فـى المـصدر وفـى Casement (ed. 2003) .

٣٠- وواحدة من الفظائع سيئة السمعة فى تاريخ الغرب الحديث هى مذبحـة سربرينكا "Srebrenica" والتى حدثت بعد تفكك دولة يوغوسلافيا. ففى عام ١٩٩٥ هجمت قوات الصرب على هذه المدينة، وقد كانت تحـت حماية الأمم المتحدة، وقُتل فيها أكثر مـن سـبعة آلاف (٧٠٠٠) مـن رجال وأطفال البوسنة. وقد حكمت محكمة العـدل الدوليـة أن هـذه الحادثة تعتبر إبادة جماعية (انظر
http://www:icj-cij.org/docket/files/91/13685.pdf

وكما أن هجوم القاعدة على المبانى الأمريكية (esp.paras.278-97) فـــى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ والذى ضربت فيه طائرات نفاثة مبنـــى مركز التجارة العالمى والبنتاجون، (طائرة أخرى اصطدمت بمبنى فـــى "بنسلفانيا") قد نجم عنه قتل ثلاثة آلاف نسمة.

ببليوجرافيا

Abelson, R. P., Dasgupta, N., Park, J., and Banaji, M. R. (1998). 'Perceptions of the collective other', *Personality and Social Psychology Review*, 2: 243–50.

Adolphs, R., Tranel, D., and Damasio, A. R. (2003). 'Dissociable neural systems for recognizing emotions', *Brain and Cognition*, 52: 61–9.

Aeschylus (trans. 1922). 'Prometheus Bound'. In *Suppliant Maidens; Persians; Prometheus; Seven against Thebes*, trans. H. W. Smyth. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 209-316.

——(trans. 1999), *The Oresteia: A New Version by Ted Hughes*. London: Faber & Faber.

Aftanas, L. I., Reva, N. V., Savotina, L. N., and Makhnev, V. P. (2006). 'Neurophysiological correlates of induced discrete emotions in humans: an individually oriented analysis', *Neuroscience and Behavioral Physiology*, 36: 119–30.

Ainslie, G. (2001), *Breakdown of Will*. New York: Cambridge University Press.

Akutagawa, R. (trans. 2007). *'Rashomon' and Seventeen Other Stories*, trans. J. Rubin. London: Penguin.

Alicke, M. D. (2000), 'Culpable control and the psychology of blame'. *Psychological Bulletin*, 126: 556–74.

Ambrose, S. H. (1998). 'Late Pleistocene human population bottlenecks, volcanic winter, and differentiation of modern humans', *Journal of Human Evolution*, 34: 623–51.

American Psychiatric Association (2000), *Diagnostic and Statistical Manual of Mental Disorders 4th Edition Text Revision: DSM-IV-TR*. Washington, DC: American Psychiatric Association.

Anderson, C. A., Deuser, W. E., and DeNeve, K. M. (1995), 'Hot temperatures, hostile affect, hostile cognition, and arousal: tests of a general model of affective aggression', *Personality and Social Psychology Bulletin*, 21: 434–8.

Apollinaire, G. (ed. 1964). 'Le Divin Marquis'. In *Les Diables Amoureux*, ed. M. Décaudin. Paris: Gallimard, 178–232.

Arendt, H. (1963), *Eichmann in Jerusalem: A Report on the Banality of Evil*. London: Faber & Faber.

ARISTOTLE (trans. 1937), 'Parts of Animals'. In *Aristotle: Parts of Animals. Movement of Animals. Progression of Animals*, trans. A. L. Peck and E. S. Forster. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 52–435.

—— (trans. 1939), *On the Heavens*, trans. W. K. C. Guthrie. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.

ARNDT, J., GREENBERG, J., SCHIMEL, J., PYSZCZYNSKI, T., and SOLOMON, S. (2002), 'To belong or not to belong, that is the question: terror management and identification with gender and ethnicity', *Journal of Personality and Social Psychology*, 83: 26–43.

ARSENEAULT, L., WALSH, E., TRZESNIEWSKI, K., NEWCOMBE, R., CASPI, A., and MOFFITT, T. E. (2006), 'Bullying victimization uniquely contributes to adjustment problems in young children: a nationally representative cohort study', *Pediatrics*, 118: 130–8.

ATRAN, S., AXELROD, R., and DAVIS, R. (2007), 'Sacred barriers to conflict resolution'. *Science*, 317: 1039–40.

ATTENBOROUGH, D. and FOTHERGILL, A. (dir.), *Coasts*. In the series *Blue Planet* (2001), shown on BBC 1. Details located at http://www.bbc.co.uk/nature/programmes/tv/blueplanet/.

AUSTIN, P. C., MAMDANI, M. M., JUURLINK, D. N., and HUX, J. E. (2006), 'Testing multiple statistical hypotheses resulted in spurious associations: a study of astrological signs and health', *Journal of Clinical Epidemiology*, 59: 964–9.

AXELROD, R. (1984), *Evolution of Cooperation*. New York: Basic Books.

—— (2003), 'The evolution of ethnocentric behavior'. Presented at the Midwest Political Science Convention, Chicago, IL. Located at http://wwwpersonal.umich.edu/~axe/research/AxHamm_Ethno.pdf.

AZIZ, Q., THOMPSON, D. G., NG, V. W., HAMDY, S., SARKAR, S., BRAMMER, M. J., BULLMORE, E. T., HOBSON, A., TRACEY, I., GREGORY, L., SIMMONS, A., and WILLIAMS, S. C. (2000), 'Cortical processing of human somatic and visceral sensation', *Journal of Neuroscience*, 20: 2657–63.

BALAKIAN, P. (1998), *Black Dog of Fate: A Memoir*. New York: Broadway.

BAILLIE-SPANVILL, B., CLAYTON, C. J., and HENDRIX, S. B. (2003), 'Gender, types of conflict, and individual differences in the use of violent and peaceful strategies among children who have and have not witnessed interparental violence', *American Journal of Orthopsychiatry*, 73: 141–53.

BANDURA, A. (2002), 'Selective moral disengagement in the exercise of moral agency', *Journal of Moral Education*, 31: 101–19.

BAR, M. (2007), 'The proactive brain: using analogies and associations to generate predictions', *Trends in Cognitive Sciences*, 11: 280–9.

BARAK, G. (2003), *Violence and Nonviolence: Pathways to Understanding*. London: Sage.

BARRETT, L. F., LINDQUIST, K. A., and GENDRON, M. (2007), 'Language as context for the perception of emotion', *Trends in Cognitive Sciences*, 11: 327–32.

BARRETT, L. F., MESQUITA, B., OCHSNER, K. N., and GROSS, J. J. (2007), 'The experience of emotion', *Annual Review of Psychology*, 58: 373–403.

BARROZO, P. (2008), 'Punishing cruelly: punishment, cruelty, and mercy', *Criminal Law and Philosophy*, 2: 67–84.

BARRY, B. (2001), *Culture and Equality: An Egalitarian Critique of Multiculturalism*. Cambridge: Polity.

BAUMEISTER, R. F. (2001), *Evil: Inside Human Violence and Cruelty*. New York: Owl Books.

BECHARA, A., DAMASIO, H., and DAMASIO, A. R. (2000), 'Emotion, decision making and the orbitofrontal cortex', *Cerebral Cortex*, 10: 295–307.

——— TRANEL, D., and DAMASIO, A. R. (2005), 'The Iowa Gambling Task and the somatic marker hypothesis: some questions and answers', *Trends in Cognitive Sciences*, 9: 159–62; discussion, pp. 162–4.

BECK, A. T. (1999), *Prisoners of Hate: The Cognitive Basis of Anger, Hostility, and Violence*. New York: HarperCollins.

BENARROCH, E. E. (1997), *The Central Autonomic Network: Functional Organization and Clinical Correlations*. Armonk, NY: Futura.

BENDER, S., HELLWIG, S., RESCH, F., and WEISBROD, M. (2007), 'Am I safe? The ventrolateral prefrontal cortex "detects" when an unpleasant event does not occur', *NeuroImage*, 38: 367–85.

BENTHAM, J. (ed. 2007), *An Introduction to the Principles of Morals and Legislation*, 1823 edn. Mineola, NY: Dover.

BERG, K. (trans. 1938), *The Sadist*, trans. O. Illner and G. Godwin. London: Acorn Press.

BERKOWITZ, L. (1999), 'Evil is more than banal: situationism and the concept of evil', *Personality and Social Psychology Review*, 3: 246–53.

BERNS, G. S., LAIBSON, D., and LOEWENSTEIN, G. (2007), 'Intertemporal choice—toward an integrative framework', *Trends in Cognitive Sciences*, 11: 482–8.

BERNSTEIN, M. J., YOUNG, S. G., and HUGENBERG, K. (2007), 'The cross-category effect: mere social categorization is sufficient to elicit an own-group bias in face recognition', *Psychological Science*, 18: 706–12.

BIRCH, S. A. J. and BLOOM, P. (2007), 'The curse of knowledge in reasoning about false beliefs', *Psychological Science*, 18: 382–6.

BLACK, E. (2004), *War Against the Weak: Eugenics and America's Campaign to Create a Master Race*. New York: Thunder's Mouth.

Blackmore, S. (2000), *The Meme Machine*. New York: Oxford University Press.

Blair, A., *Full text: Tony Blair speech on terror*. Located at http://news.bbc.co.uk/1/hi/uk/4689363.stm.

Blair, R. J. (2005), 'Responding to the emotions of others: dissociating forms of empathy through the study of typical and psychiatric populations', *Consciousness and Cognition*, 14: 698–718.

Blair, R. J. R., Jones, L., Clark, F., and Smith, M. (1997), 'The psychopathic individual: a lack of responsiveness to distress cues?' *Psychophysiology*, 34: 192–8.

Block, N. (1995), 'On a confusion about a function of consciousness'. *Behavioral and Brain Sciences*, 18: 227–87.

Bloom, M. (2005), *Dying to Kill: the Allure of Suicide Terror*. New York: Columbia University Press.

Boden-Albala, B., Litwak, E., Elkind, M. S., Rundek, T., and Sacco, R. L. (2005), 'Social isolation and outcomes post stroke', *Neurology*, 64: 1888–92.

Boiten, F. (1996), 'Autonomic response patterns during voluntary facial action', *Psychophysiology*, 33: 123–31.

Boklage, C. E. (1990), 'Survival probability of human conceptions from fertilization to term', *International Journal of Fertility (Stockholm)*, 35: 75–94.

Borg, J. S., Hynes, C., Van Horn, J., Grafton, S., and Sinnott-Armstrong, W. (2006), 'Consequences, action, and intention as factors in moral judgments: an fMRI investigation', *Journal of Cognitive Neuroscience*, 18: 803–17.

Borowitz, A. (2005), *Terrorism for Self-glorification: The Herostratos Syndrome*. Kent, Ohio: Kent State University Press.

Botvinick, M. M., Cohen, J. D., and Carter, C. S. (2004), 'Conflict monitoring and anterior cingulate cortex: an update', *Trends in Cognitive Sciences*, 8: 539–46.

Bourke, J. (2000), *An Intimate History of Killing: Face-to-face Killing in Twentieth-Century Warfare*. London: Granta.

Braver, T. S., Barch, D. M., Gray, J. R., Molfese, D. L., and Snyder, A. (2001), 'Anterior cingulate cortex and response conflict: effects of frequency, inhibition and errors', *Cerebral Cortex*, 11: 825–36.

Brecht, M. and Schmitz, D. (2008), 'Rules of plasticity', *Science*, 319: 39–40.

Brewer, M. B. (2007), 'The importance of being We: human nature and intragroup relations', *American Psychologist*, 62: 728–38.

Bridgman, J. and Worley, L. J. (2004), 'Genocide of the Hereros'. In S. Totten, W. S. Parsons, and I. W. Charny (eds.), *Century of Genocide: Critical Essays and Eyewitness Accounts*, 2nd edn. New York: Routledge, 15–51.

Brogden, M. (2001), *Geronticide: Killing the Elderly*. London: Jessica Kingsley.

Broussard, D. L. and Altschuler, S. M. (2000). 'Brainstem viscerotopic organization of afferents and efferents involved in the control of swallowing', *American Journal of Medicine*, 108: S79–86.

Browne, A. and Finkelhor, D. (1986). 'Impact of child sexual abuse: a review of the research', *Psychological Bulletin*, 99: 66–77.

Browning, C. (1991). *Ordinary Men: Reserve Police Battalion 101 and the Final Solution in Poland*. New York: HarperCollins.

Bufkin, J. L. and Luttrell, V. R. (2005). 'Neuroimaging studies of aggressive and violent behavior: current findings and implications for criminology and criminal justice', *Trauma, Violence, and Abuse*, 6: 176–91.

Buller, K. M. (2003). 'Neuroimmune stress responses: reciprocal connections between the hypothalamus and the brainstem', *Stress*, 6: 11–17.

Burke, J. (2004). *Al Qaeda: The True Story of Radical Islam*. London: I. B. Tauris.

Burns, R. (ed. 1993). 'To a louse: on seeing one on a lady's bonnet at church'. In *Robert Burns: Selected Poems*, ed. C. McGuirk. London: Penguin, 85–6.

Burris, C. T. and Rempel, J. K. (2004). '"It's the end of the world as we know it": threat and the spatial-symbolic self', *Journal of Personality and Social Psychology*, 86: 19–42.

Bushman, B. J., Ridge, R. D., Das, E., Key, C. W., and Busath, G. L. (2007). 'When God sanctions killing: effect of scriptural violence on aggression', *Psychological Science*, 18: 204–7.

Buss, D. M. (2005). *The Murderer Next Door: Why the Mind Is Designed to Kill*. New York: Penguin.

—— and Duntley, J. D. (2005). 'The plausibility of adaptations for homicide'. In P. Carruthers, S. Laurence, and S. Stich (eds.), *The Innate Mind: Structure and Contents*. Oxford: Oxford University Press, 291–304.

Butler, T., Pan, H., Tuescher, O., Engelien, A., Goldstein, M., Epstein, J., Weisholtz, D., Root, J. C., Protopopescu, X., Cunningham-Bussel, A. C., Chang, L., Xie, X. H., Chen, Q., Phelps, E. A., LeDoux, J. E., Stern, E., and Silbersweig, D. A. (2007). 'Human fear-related motor neurocircuitry', *Neuroscience*, 150: 1–7.

Buzsaki, G. (2006). *Rhythms of the Brain*. New York: Oxford University Press.

Buzsaki, G., Kaila, K., and Raichle, M. (2007). 'Inhibition and brain work', *Neuron*, 56: 771–83.

Byrne, J. H. and Roberts, J. L., eds. (2004). *From Molecules to Networks: An Introduction to Cellular and Molecular Neuroscience*. London: Academic Press.

Cacioppo, J. T. and Hawkley, L. C. (2003). 'Social isolation and health, with an emphasis on underlying mechanisms', *Perspectives in Biology and Medicine*, 46: S39–52.

Cameron, O. G. (2001). 'Interoception: the inside story—a model for psychosomatic processes', *Psychosomatic Medicine*, 63: 697–710.

Campbell, H. L., Tivarus, M. E., Hillier, A., and Beversdorf, D. Q. (2008). 'Increased task difficulty results in greater impact of noradrenergic modulation of cognitive flexibility', *Pharmacology Biochemistry and Behavior*, 88: 222–9.

Card, C. (2002). *The Atrocity Paradigm: A Theory of Evil*. Oxford: Oxford University Press.

Case, T. I., Repacholi, B. M., and Stevenson, R. J. (2006). 'My baby doesn't smell as bad as yours: the plasticity of disgust', *Evolution and Human Behavior*, 27: 357–65.

Casement, R. (ed. 1997). *The Amazon Journal of Roger Casement*, edited and with an Introduction by Angus Mitchell. London: Anaconda.

——(ed. 2003). *Sir Roger Casement's Heart of Darkness: The 1911 Documents; Introduction, Commentary and Footnotes by Angus Mitchell*. Dublin: Irish Manuscripts Commission.

Castano, E. and Giner-Sorolla, R. (2006). 'Not quite human: infrahumanization in response to collective responsibility for intergroup killing', *Journal of Personality and Social Psychology*, 90: 804–18.

Castell, D. O., Wood, J. D., Frieling, T., Wright, F. S., and Vieth, R. F. (1990). 'Cerebral electrical potentials evoked by balloon distention of the human esophagus', *Gastroenterology*, 98: 662–6.

Cavafy, C. P. (trans. 2007). *The Collected Poems*, trans. Evangelos Sachperoglou. Oxford: Oxford University Press.

Champlin, E. (2003). *Nero*. Cambridge, Mass.: Belknap.

Chang, I. (1998). *The Rape of Nanking: The Forgotten Holocaust of World War II*. London: Penguin.

Chen, C. Y., Muggleton, N. G., Juan, C. H., Tzeng, O. J. L., and Hung, D. L. (2008). 'Time pressure leads to inhibitory control deficits in impulsive violent offenders', *Behavioural Brain Research*, 187: 483–8.

Chirot, D. and McCauley, C. (2006). *Why Not Kill Them All? The Logic and Prevention of Mass Political Murder*. Princeton: Princeton University Press.

Chomsky, N. (1957). *Syntactic Structures*. The Hague: Mouton.

Churchland, P. S. (1989). *Neurophilosophy: Toward a Unified Science of the Mind/Brain*. Cambridge, Mass.: MIT Press.

Clore, G. L. and Huntsinger, J. R. (2007). 'How emotions inform judgement and regulate thought', *Trends in Cognitive Sciences*, 11: 393–9.

Coates, A. J. (1997). *The Ethics of War*. Manchester: Manchester University Press.

Cohen, G. L., Sherman, D. K., Bastardi, A., Hsu, L., McGoey, M., and Ross, L. (2007). 'Bridging the partisan divide: self-affirmation reduces ideological closed mindedness

and inflexibility in negotiation', *Journal of Personality and Social Psychology*, 93: 415-30.

COLLET, C., VERNET-MAURY, E., DELHOMME, G., and DITTMAR, A. (1997). 'Autonomic nervous system response patterns specificity to basic emotions', *Journal of the Autonomic Nervous System*, 62: 45-57.

COMISION PARA EL ESCLARACIMIENTO HISTORICO (last accessed 29 May 2008), *Guatemala: Memoria del Silencio* [Memory of Silence]. Report of the Comision para el Esclaracimiento Historico [CEH; Commission for Historical Clarification]. Located at http://shr.aaas.org/guatemala/ceh/report/english/toc.html.

CONROY, J. (2001). *Unspeakable Acts, Ordinary People: The Dynamics of Torture*. London: Vision.

COOPER, J. (2007). *Cognitive Dissonance: Fifty Years of a Classic Theory*. London: Sage.

CORNWELL, J. (2003), *Darwin's Angel: An Angelic Riposte to 'The God Delusion'*. London: Viking.

CORTES, B. P., DEMOULIN, S., RODRIGUEZ, R. T., RODRIGUEZ, A. P., and LEYENS, J. P. (2005). 'Infrahumanization or familiarity? Attribution of uniquely human emotions to the self, the ingroup, and the outgroup', *Personality and Social Psychology Bulletin*, 31: 243-53.

COUPPIS, M. H. and KENNEDY, C. H. (2008), 'The rewarding effect of aggression is reduced by nucleus accumbens dopamine receptor antagonism in mice', *Psychopharmacology*, 197: 449-56.

COX, J. J., REIMANN, F., NICHOLAS, A. K., THORNTON, G., ROBERTS, E., SPRINGELL, K., KARBANI, G., JAFRI, H., MANNAN, J., RAASHID, Y., AL-GAZALI, L., HAMAMY, H., VALENTE, E. M., GORMAN, S., WILLIAMS, R., MCHALE, D. P., WOOD, J. N., GRIBBLE, F. M., and WOODS, C. G. (2006), 'An SCN9A channelopathy causes congenital inability to experience pain', *Nature*, 444: 894-8.

CROSS, P. A. and MATHESON, K. (2006), 'Understanding sadomasochism: an empirical examination of four perspectives', *Journal of Homosexuality*, 50: 133-66.

CROYLE, R. T. and COOPER, J. (1983). 'Dissonance arousal: physiological evidence', *Journal of Personality and Social Psychology*, 45: 782-91.

CSIKSZENTMIHALYI, M. (2002). *Flow: The Classic Work on How to Achieve Happiness*. London: Rider.

CUNLIFFE, B. (2006). 'The Roots of Warfare', in M. Jones and A. Fabian (eds.), *Conflict*. Cambridge: Cambridge University Press, 63-81.

CUNNINGHAM, W. A. and ZELAZO, P. D. (2007). 'Attitudes and evaluations: a social cognitive neuroscience perspective', *Trends in Cognitive Sciences*, 11: 97-104.

CURTIS, A. (dir.). *The Power of Nightmares*. Shown on BBC 2 (2004). Details located at http://news.bbc.co.uk/1/hi/programmes/4202741.stm.

CURTIS, V., AUNGER, R., and RABIE, T. (2004). 'Evidence that disgust evolved to protect from risk of disease'. *Philosophical Transactions of the Royal Society Series B: Biological Sciences*, 271: S131–3.

DADDS, M. R., WHITING, C., and HAWES, D. J. (2006). 'Associations among cruelty to animals, family conflict, and psychopathic traits in childhood', *Journal of Interpersonal Violence*, 21: 411–29.

DADRIAN, V. N. (1995). *The History of the Armenian Genocide: Ethnic Conflict from the Balkans to Anatolia to the Caucasus*. Oxford: Berghahn.

DALLAIRE, R. (2004). *Shake Hands with the Devil: The Failure of Humanity in Rwanda*. London: Arrow.

DALY, M. and WILSON, M. (1998). *The Truth About Cinderella*. New Haven: Yale University Press.

DAMASIO, A. (1996). *Descartes' Error: Emotion, Reason and the Human Brain*. London: Papermac.

—— (2000). *The Feeling of What Happens: Body, Emotion and the Making of Consciousness*. London: Heinemann.

—— (2003). *Looking for Spinoza: Joy, Sorrow and the Feeling Brain*. London: Heinemann.

DAMASIO, A. R., GRABOWSKI, T. J., BECHARA, A., DAMASIO, H., PONTO, L. L. B., PARVIZI, J., and HICHWA, R. D. (2000). 'Subcortical and cortical brain activity during the feeling of self-generated emotions', *Nature Neuroscience*, 3: 1049–56.

DANNER, M. (2005). *The Massacre at El Mozote: A Parable of the Cold War*. London: Granta.

DANZIGER, N., PRKACHIN, K. M., and WILLER, J. C. (2006), 'Is pain the price of empathy? The perception of others' pain in patients with congenital insensitivity to pain', *Brain*, 129: 2494–507.

DARBY, B. W. and JEFFERS, D. (1988), 'The effects of defendant and juror attractiveness on simulated courtroom trial decisions', *Social Behavior and Personality*, 16: 39–50.

DARLEY, J. M. and BATSON, C. D. (1973). '"From Jerusalem to Jericho": a study of situational and dispositional variables in helping behaviour', *Journal of Personality and Social Psychology*, 17: 100–8.

DARWIN, C. ed. (1999). *The Expression of the Emotions in Man and Animals*, ed. P. Ekman. London: HarperCollins.

DAVEY, G. C. (1994). 'Self-reported fears to common indigenous animals in an adult UK population: the role of disgust sensitivity', *British Journal of Psychology*, 85: 541–54.

—— BICKERSTAFFE, S., and MACDONALD, B. A. (2006). 'Experienced disgust causes a negative interpretation bias: a causal role for disgust in anxious psychopathology', *Behaviour Research and Therapy*, 44: 1375–84.

DAVEY, G. C., CAVANAGH, K., and LAMB, A. (2003), 'Differential aversive outcome expectancies for high- and low-predation fear-relevant animals', *Journal of Behavior Therapy and Experimental Psychiatry*, 34: 117–28.

—— FORSTER, L., and MAYHEW, G. (1993), 'Familial resemblances in disgust sensitivity and animal phobias', *Behaviour Research and Therapy*, 31: 41–50.

—— MCDONALD, A. S., HIRISAVE, U., PRABHU, G. G., IWAWAKI, S., JIM, C. I., MERCKELBACH, H., DE JONG, P. J., LEUNG, P. W., and REIMANN, B. C. (1998), 'A cross-cultural study of animal fears', *Behaviour Research and Therapy*, 36: 735–50.

DAWKINS, R. (1989), *The Selfish Gene*, new edn. Oxford: Oxford University Press.

—— (2006), *The God Delusion*. London: Bantam Press.

DAY, L. H. (1984), 'Death from non-war violence: an international comparison', *Social Science and Medicine*, 19: 917–27.

DEACON, T. W. (1997), *The Symbolic Species: The Co-evolution of Language and the Human Brain*. London: Allen Lane.

DEBOER, S. L. and MADDOW, C. L. (2002), 'Emergency care of the crucifixion victim', *Accident and Emergency Nursing*, 10: 235–9.

DECLERCK, C. H., BOONE, C., and DE BRABANDER, B. (2006), 'On feeling in control: a biological theory for individual differences in control perception', *Brain and Cognition*, 62: 143–76.

DELEUZE, G. (trans. 1971), *Sacher-Masoch: An Interpretation*, trans. J. McNeil. London: Faber & Faber.

DENNETT, D. C. (1989), *The Intentional Stance*, new edn. Cambridge, Mass.: MIT Press.

—— (1995), *Darwin's Dangerous Idea*. New York: Simon & Schuster.

—— (2003a), *Consciousness Explained*. London: Penguin.

—— (2003b), *Freedom Evolves*. London: Allen Lane.

—— (2006), *Breaking the Spell: Religion as a Natural Phenomenon*. London: Allen Lane.

DESCARTES, R. (trans. 1988), *Selected Philosophical Writings*, trans. J. Cottingham, R. Stoothoff, and D. Murdoch. Cambridge: Cambridge University Press.

DESIMONE, R. (1996), 'Neural mechanisms for visual memory and their role in attention', *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, 93: 13494–9.

DESTENO, D., DASGUPTA, N., BARTLETT, M. Y., and CAJORIC, A. (2004), 'Prejudice from thin air', *Psychological Science*, 15: 319–24.

DEVINE, D. J., CLAYTON, L. D., DUNFORD, B. B., SEYING, R., and PRYCE, J. (2001), 'Jury decision making: 45 years of empirical research on deliberating groups', *Psychology, Public Policy, and Law*, 7: 622–727.

Dickerson, S. S. and Kemeny, M. E. (2004). 'Acute stressors and cortisol responses: a theoretical integration and synthesis of laboratory research', *Psychological Bulletin*, 130: 355–91.

DiLillo, D. and Damashek, A. (2003). 'Parenting characteristics of women reporting a history of childhood sexual abuse', *Child Maltreatment*, 8: 319–33.

Douglas, E. M. (2006). 'Familial violence socialization in childhood and later life approval of corporal punishment: a cross-cultural perspective', *American Journal of Orthopsychiatry*, 76: 23–30.

Douglas, M. (2002). *Purity and Danger*. London: Routledge.

Dreber, A., Rand, D. G., Fudenberg, D., and Nowak, M. A. (2008). 'Winners don't punish', *Nature*, 452: 348–51.

Dugatkin, L. A. (2006). *The Altruism Equation: Seven Scientists Search for the Origins of Goodness*. Princeton: Princeton University Press.

Dumas, R. and Testé, B. (2006). 'The influence of criminal facial stereotypes on juridic judgments', *Swiss Journal of Psychology*, 65: 237–44.

Dunbar, R. (1997). *Grooming, Gossip and the Evolution of Language*. London: Faber & Faber.

Dunn, B. D., Dalgleish, T., and Lawrence, A. D. (2006). 'The somatic marker hypothesis: a critical evaluation', *Neuroscience and Biobehavioral Reviews*, 30: 239–71.

Dupoux, E. and Jacob, P. (2007). 'Universal moral grammar: a critical appraisal', *Trends in Cognitive Sciences*, 11: 373–8.

Dutton, D. G. (2007). *The Psychology of Genocide, Massacres, and Extreme Violence*. Westport, Conn.: Praeger Security International.

Edelman, G. M. (1987). *Neural Darwinism: The Theory of Neuronal Group Selection*. New York: Basic Books.

Edwards, C. M. (1988). 'Chemotherapy induced emesis—mechanisms and treatment: a review', *Journal of the Royal Society of Medicine*, 81: 658–62.

Egan, L. C., Santos, L. R., and Bloom, P. (2007). 'The origins of cognitive dissonance: evidence from children and monkeys', *Psychological Science*, 18: 978–83.

Egner, T. and Hirsch, J. (2005). 'Cognitive control mechanisms resolve conflict through cortical amplification of task-relevant information', *Nature Neuroscience*, 8: 1784–90.

—— Etkin, A., Gale, S., and Hirsch, J. (2008). 'Dissociable neural systems resolve conflict from emotional versus nonemotional distracters', *Cerebral Cortex*, 18: 1475–84.

Eickhoff, S. B., Lotze, M., Wietek, B., Amunts, K., Enck, P., and Zilles, K. (2006), 'Segregation of visceral and somatosensory afferents: an fMRI and cytoarchitectonic mapping study', *NeuroImage*, 31: 1004–14.

Ekman, P., Sorenson, E. R., and Friesen, W. V. (1969), 'Pan-cultural elements in facial displays of emotion', *Science*, 164: 86–8.

Elliott, A. J. and Devine, P. G. (1994), 'On the motivational nature of cognitive dissonance: dissonance as psychological discomfort', *Journal of Personality and Social Psychology*, 67: 382–94.

Elliott, C. (1996), *The Rules of Insanity: Moral Responsibility and the Mentally Ill Offender*. Albany, NY: State University of New York Press.

English, R. (2007), *Irish Freedom: The History of Nationalism in Ireland*. London: Pan.

Epley, N., Waytz, A., and Cacioppo, J. T. (2007), 'On seeing human: a three-factor theory of anthropomorphism', *Psychological Review*, 114: 864–86.

Ertem, I. O., Leventhal, J. M., and Dobbs, S. (2000), 'Intergenerational continuity of child physical abuse: how good is the evidence?' *Lancet*, 356: 814–19.

Esslen, M., Pascual-Marqui, R. D., Hell, D., Kochi, K., and Lehmann, D. (2004), 'Brain areas and time course of emotional processing', *NeuroImage*, 21: 1189–1203.

Euripides (trans. 1963), 'Medea'. In *Medea and Other Plays*, trans. P. Vellacott. Harmondsworth: Penguin, 17–62.

—— (trans. 1973), 'The Bacchae'. In *The Bacchae and Other Plays*, trans. P. Vellacott. Harmondsworth: Penguin, 191–244.

Fahy, F. L., Riches, I. P., and Brown, M. W. (1993), 'Neuronal activity related to visual recognition memory: long-term memory and the encoding of recency and familiarity information in the primate anterior and medial inferior temporal and rhinal cortex', *Experimental Brain Research*, 96: 457–72.

Fasching, D. (1992), *Narrative Theology after Auschwitz: From Alienation to Ethics*. Minneapolis: Fortress Press.

Faulkner, J., Schaller, M., Park, J. H., and Duncan, L. A. (2004), 'Evolved disease-avoidance mechanisms and contemporary xenophobic attitudes', *Group Processes and Intergroup Relations*, 7: 333–53.

Fehr, E. and Gachter, S. (2002), 'Altruistic punishment in humans', *Nature*, 415: 137–40.

—— and Rockenbach, B. (2004), 'Human altruism: economic, neural, and evolutionary perspectives', *Current Opinion in Neurobiology*, 14: 784–90.

Fein, H. (1990), 'Genocide: a sociological perspective', *Current Sociology*, 38: 1 (special issue).

FELLEMAN, D. J. and VAN ESSEN, D. C. (1991), 'Distributed hierarchical processing in the primate cerebral cortex', *Cerebral Cortex*, 1: 1–47.

FERGUSON, M. J., BARGH, J. A. and NAYAK, D. A. (2005), 'After-affects: how automatic evaluations influence the interpretation of subsequent, unrelated stimuli', *Journal of Experimental Social Psychology*, 41: 182–91.

FESSLER, D. M. T. (2002), 'Reproductive immunosuppression and diet: an evolutionary perspective on pregnancy sickness and meat consumption', *Current Anthropology*, 43: 19–39.

—— and HALEY, K. J. (2006), 'Guarding the perimeter: the outside–inside dichotomy in disgust and bodily experience', *Cognition and Emotion*, 20, 3–19.

—— ENG, S. J., and NAVARRETE, C. D. (2005), 'Elevated disgust sensitivity in the first trimester of pregnancy: evidence supporting the compensatory prophylaxis hypothesis', *Evolution and Human Behavior*, 26: 344–51.

FESTINGER, L. (1957). *A Theory of Cognitive Dissonance*. New York: Row, Peterson & Co.

FINE, C. (2007). *A Mind of Its Own: How Your Brain Distorts and Deceives*. Cambridge: Icon.

FINKELHOR, D. (1990), 'Early and long-term effects of child sexual abuse: an update', *Professional Psychology: Research and Practice*, 21: 325–30.

FISCHER, A. H. and ROSEMAN, I. J. (2007), 'Beat them or ban them: the characteristics and social functions of anger and contempt', *Journal of Personality and Social Psychology*, 93: 103–15.

FISHBACH, A. and TROPE, Y. (2005), 'The substitutability of external control and self-control', *Journal of Experimental Social Psychology*, 41: 256–70.

FISK, R., 'What do you say to a man whose family is buried under the rubble?' *The Independent*, 9 Aug. 2006.

FLORIAN, V., MIKULINCER, M., and HIRSCHBERGER, G. (2002), 'The anxiety-buffering function of close relationships: evidence that relationship commitment acts as a terror management mechanism', *Journal of Personality and Social Psychology*, 82: 527–42.

FOGASSI, L., FERRARI, P. F., GESIERICH, B., ROZZI, S., CHERSI, F., and RIZZOLATTI, G. (2005). 'Parietal lobe: from action organization to intention understanding', *Science*, 308: 662–7.

FOOT, P. (1978). 'The problem of abortion and the doctrine of the double effect'. In *Virtues and Vices and Other Essays in Moral Philosophy*. Oxford: Basil Blackwell, 19–32.

FORGAS, P. (1998), 'On feeling good and getting your way: mood effects on negotiator cognition and bargaining strategies', *Journal of Personality and Social Psychology*, 74: 565–77.

Foster, D. P. and Young, H. P. (2001), 'On the impossibility of predicting the behavior of rational agents', *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, 98: 12848–53.

Foxe, J. (ed. c.1910), *Book of Martyrs*, ed. C. H. H. Wright; n.d. London: J. A. Kensit.

Frankfurter, D. (2006), *Evil Incarnate: Rumors of Demonic Conspiracy and Satanic Abuse in History*. Princeton: Princeton University Press.

Frick, P. J. and Dickens, C. (2006), 'Current perspectives on conduct disorder', *Current Psychiatry Reports*, 8: 59–72.

Friston, K. (2005), 'A theory of cortical responses', *Philosophical Transactions of the Royal Society Series B: Biological Sciences*, 360: 815–36.

Frith, C. B., Frith, D. W., and Barnes, E. (2004), *The Bowerbirds*. Oxford: Oxford University Press.

Frith, C. D. (2007), *Making up the Mind*. Oxford: Blackwell.

—— and Frith, U. (2006), 'The neural basis of mentalizing', *Neuron*, 50: 531–4.

Fromm, E. (1975), *The Anatomy of Human Destructiveness*. Greenwich, Conn.: Fawcett.

Gailliot, M. T., Baumeister, R. F., DeWall, C. N., Maner, J. K., Plant, E. A., Tice, D. M., Brewer, L. E., and Schmeichel, B. J. (2007), 'Self-control relies on glucose as a limited energy source: willpower is more than a metaphor', *Journal of Personality and Social Psychology*, 92: 325–36.

Gallese, V., Fadiga, L., Fogassi, L., and Rizzolatti, G. (1996), 'Action recognition in the premotor cortex', *Brain*, 119: 593–609.

Gambetta, D., ed. (2005), *Making Sense of Suicide Missions*. New York: Oxford University Press.

Gauthier, I., Skudlarski, P., Gore, J. C., and Anderson, A. W. (2000), 'Expertise for cars and birds recruits brain areas involved in face recognition', *Nature Neuroscience*, 3: 191–7.

Geertz, C. (1973), *The Interpretation of Cultures: Selected Essays*. New York: Basic Books.

Gergely, G., Nadasdy, Z., Csibra, G., and Biro, S. (1995), 'Taking the intentional stance at 12 months of age', *Cognition*, 56: 165–93.

Gershoff, E. T. (2002), 'Corporal punishment by parents and associated child behaviors and experiences: a meta-analytic and theoretical review', *Psychological Bulletin*, 128: 539–79.

Gesch, C. B., Hammond, S. M., Hampson, S. E., Eves, A., and Crowder, M. J. (2002), 'Influence of supplementary vitamins, minerals and essential fatty acids on the antisocial behaviour of young adult prisoners. Randomised, placebo-controlled trial.' *British Journal of Psychiatry*, 181: 22–8.

Gewald, J. B. (1999), *Herero Heroes: A Socio-political History of the Herero of Namibia, 1890–1923*. Oxford: James Currey.

Gherman, A., Chen, P. E., Teslovich, T. M., Stankiewicz, P., Withers, M., Kashuk, C. S., Chakravarti, A., Lupski, J. R., Cutler, D. J., and Katsanis, N. (2007). 'Population bottlenecks as a potential major shaping force of human genome architecture', *PLoS Genetics*, 3, p. e119. DOI. http://dx.doi.org/10.1371/journal.pgen.0030119.

Ginges, J., Atran, S., Medin, D., and Shikaki, K. (2007). 'Sacred bounds on rational resolution of violent political conflict', *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, 104: 7357–60.

Girard, R. (trans. 2005). *Violence and the Sacred*, trans. P. Gregory. London: Continuum.

Glover, J. (2001). *Humanity: A Moral History of the Twentieth Century*. London: Pimlico.

Goldberg, Y. P., MacFarlane, J., MacDonald, M. L., Thompson, J., Dube, M. P., Mattice, M., Fraser, R., Young, C., Hossain, S., Pape, T., Payne, B., Radomski, C., Donaldson, G., Ives, E., Cox, J., Younghusband, H. B., Green, R., Duff, A., Boltshauser, E., Grinspan, G. A., Dimon, J. H., Sibley, B. G., Andria, G., Toscano, E., Kerdraon, J., Bowsher, D., Pimstone, S. N., Samuels, M. E., Sherrington, R., and Hayden, M. R. (2007). 'Loss-of-function mutations in the Nav1.7 gene underlie congenital indifference to pain in multiple human populations', *Clinical Genetics*, 71: 311–19.

Goldhagen, D. J. (1997). *Hitler's Willing Executioners: Ordinary Germans and the Holocaust*. London: Abacus.

Gourevitch, P. (2000). *We Wish to Inform You That Tomorrow We Will Be Killed with Our Families*. London: Picador.

de Graaf, J., Wann, D., and Naylor, T. H. (2001). *Affluenza: The All-consuming Epidemic*. San Francisco: Berrett-Koehler.

Gray, N. S., Watt, A., Hassan, S., and MacCulloch, M. J. (2003). 'Behavioral indicators of sadistic sexual murder predict the presence of sadistic sexual fantasy in a normative sample', *Journal of Interpersonal Violence*, 18: 1018–34.

Green, T. (2007). *Inquisition: The Reign of Fear*. London: Macmillan.

Greenberg, J., Solomon, S., and Pyszczynski, T. (1997). 'Terror management theory of self-esteem and cultural worldviews: empirical assessments and conceptual refinements'. In M. P. Zanna (ed.), *Advances in Experimental Social Psychology: Volume 29*. New York: Academic Press, 61–139.

Greene, J. D., Nystrom, L. E., Engell, A. D., Darley, J. M., and Cohen, J. D. (2004). 'The neural bases of cognitive conflict and control in moral judgment', *Neuron*, 44: 389–400.

Greene, J. D., Sommerville, R.B., Nystrom, L.E., Darley, J.M., and Cohen, J.D. (2001). 'An fMRI investigation of emotional engagement in moral judgment', *Science*, 293: 2105–8.

Gregory, L. J., Yaguez, L., Williams, S. C., Altmann, C., Coen, S. J., Ng, V., Brammer, M. J., Thompson, D. G., and Aziz, Q. (2003), 'Cognitive modulation of the cerebral processing of human oesophageal sensation using functional magnetic resonance imaging', *Gut*, 52: 1671–7.

Gross, J. T. (2003), *Neighbors: The Destruction of the Jewish Community in Jedwabne, Poland*. Princeton: Princeton University Press.

Gu, X. and Han, S. (2007), 'Attention and reality constraints on the neural processes of empathy for pain', *NeuroImage*, 36: 256–67.

Hacker, P. M. S. and Bennett, M. R. (2003), *Philosophical Foundations of Neuroscience*. Oxford: Blackwell.

Haidt, J. (2007), 'The new synthesis in moral psychology', *Science*, 316: 998–1002.

—— McCauley, C., and Rozin, P. (1994), 'Individual differences in sensitivity to disgust: a scale sampling seven domains of disgust elicitors', *Personality and Individual Differences*, 16: 701–13.

—— Rozin, P., McCauley, C., and Imada, S. (1997), 'Body, psyche and culture: the relationship between disgust and morality', *Psychology and Developing Societies*, 9: 107–31.

Hajcak, G. and Foti, D. (2008), 'Errors are aversive: defensive motivation and the error-related negativity', *Psychological Science*, 19: 103–8.

Hamilton, W. D. (1964), 'The genetical evolution of social behavior, I and II', *Theoretical Biology*, 7: 1–52.

Hardenburg, W. V. (1912), *The Putumayo: The Devil's Paradise*. London: T. Fisher Unwin.

Hare, R. D. (1999), *Without Conscience: The Disturbing World of the Psychopaths among Us*. London: Guilford Press.

Harris, L. T. and Fiske, S. T. (2006), 'Dehumanizing the lowest of the low: neuroimaging responses to extreme out-groups', *Psychological Science*, 17: 847–53.

Harris, S., Sheth, S. A., and Cohen, M. S. (2008), 'Functional neuroimaging of belief, disbelief, and uncertainty', *Annals of Neurology*, 63: 141–7.

Harris, T. (1999), *Hannibal*. London: Heinemann.

Haslinger, B., Erhard, P., Altenmuller, E., Schroeder, U., Boecker, H., and Ceballos-Baumann, A. O. (2005), 'Transmodal sensorimotor networks during action observation in professional pianists', *Journal of Cognitive Neuroscience*, 17: 282–93.

Hassin, R. R., Ferguson, M. J., Shidlovski, D., and Gross, T. (2007), 'Subliminal exposure to national flags affects political thought and behavior', *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, 104: 19757–61.

HATZFELD, J. (trans. 2005). *A Time for Machetes: The Rwandan Genocide. The Killers Speak*, trans. L. Coverdale. London: Serpent's Tail.

HAUERT, C., TRAULSEN, A., BRANDT, H., NOWAK, M. A., and SIGMUND, K. (2007). 'Via freedom to coercion: the emergence of costly punishment', *Science*, 316: 1905–7.

HAUSER, M. (2006). *Moral Minds: How Nature Designed Our Universal Sense of Right and Wrong*. New York: HarperCollins.

HAUSFATER, G. and HRDY, S. B. (1984). *Infanticide: Comparative and Evolutionary Perspectives*. New York: Aldine.

HEBERLEIN, A. S. and ADOLPHS, R. (2004). 'Impaired spontaneous anthropomorphizing despite intact perception and social knowledge', *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, 101: 7487–91.

HEEKEREN, H. R., WARTENBURGER, I., SCHMIDT, H., PREHN, K., SCHWINTOWSKI, H. P., and VILLRINGER, A. (2005). 'Influence of bodily harm on neural correlates of semantic and moral decision-making', *NeuroImage*, 24: 887–97.

HEIDER, F. and SIMMEL, M. (1944). 'An experimental study of apparent behavior', *American Journal of Psychology*, 57: 243–59.

HENNENLOTTER, A. and SCHROEDER, U. (2006). 'Partly dissociable neural substrates for recognizing basic emotions: a critical review', *Progress in Brain Research*, 156: 443–56.

HENRICH, J. and BOYD, R. (2002). 'On modeling cognition and culture: why cultural evolution does not require replication of representations', *Journal of Cognition and Culture*, 2: 87–112.

HENSLEY, C. and TALLICHET, S. E. (2005*a*). 'Animal cruelty motivations: assessing demographic and situational influences', *Journal of Interpersonal Violence*, 20: 1429–43.

—— —— (2005*b*). 'Learning to be cruel?: exploring the onset and frequency of animal cruelty', *International Journal of Offender Therapy and Comparative Criminology*, 49: 37–47.

—— —— (2008). 'The effect of inmates' self-reported childhood and adolescent animal cruelty: motivations on the number of convictions for adult violent interpersonal crimes', *International Journal of Offender Therapy and Comparative Criminology*, 52: 175–84.

HERSH, S. M. (1972). *Cover-up: The Army's Secret Investigation of the Massacre at My Lai 4*. New York: Random House.

HERTEL, B. R. and DONAHUE, M. J. (1995). 'Parental influences on God images among children: testing Durkheim's metaphoric parallelism', *Journal for the Scientific Study of Religion*, 34: 186–99.

Hilberg, R. (1985), *The Destruction of the European Jews*, student edn. New York: Holmes & Meier.

Hillenbrand, U. and van Hemmen, J. L. (2002), 'Adaptation in the corticothalamic loop: computational prospects of tuning the senses', *Philosophical Transactions of the Royal Society Series B: Biological Sciences*, 357: 1859–67.

Himmler, H. (last accessed 29 May 2008), *Poznan speech*. Located at http://www.holocaust-history.org/himmler-poznan/speech-text.shtml.

Hinton, A. L., ed. (2002), *Annihilating Difference: The Anthropology of Genocide*. Berkeley: University of California Press.

—— (2004), *Why Did They Kill? Cambodia in the Shadow of Genocide*. Berkeley: University of California Press.

Hippocrates (trans. 1923), 'Epidemics I'. In *Hippocrates I*, trans. W. H. S. Jones. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 139–288.

Hitler, A. (trans. 1969), *Mein Kampf*, trans. R. Manheim. London: Hutchinson.

Hobbes, T., ed. (1996), *Leviathan*, ed. R. Tuck. Cambridge: Cambridge University Press.

Hochschild, A. (1999), *King Leopold's Ghost: A Story of Greed, Terror and Heroism in the Congo*. London: Macmillan.

Hodson, G. and Costello, K. (2007), 'Interpersonal disgust, ideological orientations, and dehumanization as predictors of intergroup attitudes', *Psychological Science*, 18: 691–8.

Holley, J. W. (1977), 'Tenure and research productivity', *Research in Higher Education*, 6: 181–92.

Holy, T. E. (2007), 'A public confession: the retina trumpets its failed predictions', *Neuron*, 55: 831–2.

Homer (trans. 1999), *The Iliad; The Odyssey*, ed. B. Knox and R. Fagles. London: Penguin.

van Honk, J. and Schutter, D. J. (2007), 'Testosterone reduces conscious detection of signals serving social correction: implications for antisocial behavior', *Psychological Science*, 18: 663–7.

Hornby, P. J. (2001), 'Central neurocircuitry associated with emesis', *American Journal of Medicine*, 11: S106–12.

Howard, M., Andreopoulos, G. J., and Shulman, M. R., eds. (1994), *The Laws of War: Constraints on Warfare in the Western World*. New Haven: Yale University Press.

Hughes, T. (1997), *Tales from Ovid*. London: Faber & Faber.

Hume, D. (1975), *Enquiries Concerning Human Understanding and Concerning the Principles of Morals*, ed. L. A. Selby-Bigge and P. H. Nidditch. Oxford: Oxford University

Press.

HYMAN, S. E., MALENKA, R. C., and NESTLER, E. J. (2006), 'Neural mechanisms of addiction: the role of reward-related learning and memory', *Annual Review of Neuroscience*, 29: 565–98.

IBARGÜENGOITIA, J. (trans. 1983), *The Dead Girls*, trans. A. Zatz. London: Chatto & Windus.

JAMES, O. (2007), *Affluenza: How to be Successful and Stay Sane*. London: Vermillion.

JANIS, I. L. (1982), *Groupthink: Psychological Studies of Policy Decisions and Fiascos*, 2nd edn. Boston: Houghton Mifflin.

JEANNEROD, M. and FRAK, V. (1999), 'Mental imaging of motor activity in humans', *Current Opinion in Neurobiology*, 9: 735–9

JENKINS, A. C., MACRAE, C. N., and MITCHELL, J. P. (2008), 'Repetition suppression of ventromedial prefrontal activity during judgments of self and others', *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, 105: 4507–12.

JOHNSTONE, R. A. and BSHARY, R. (2007), 'Indirect reciprocity in asymmetric interactions: when apparent altruism facilitates profitable exploitation', *Philosophical Transactions of the Royal Society Series B: Biological Sciences*, 274: 3175–81.

JONAS, E., GRAUPMANN, V., and FREY, D. (2006), 'The influence of mood on the search for supporting versus conflicting information: dissonance reduction as a means of mood regulation?' *Personality and Social Psychology Bulletin*, 32: 3–15.

JONAS, K. J. and SASSENBERG, K. (2006), 'Knowing how to react: automatic response priming from social categories', *Journal of Personality and Social Psychology*, 90: 709–21.

JONES, D. (2007), 'Moral psychology: the depths of disgust', *Nature*, 447: 768–71.

JONES, L. M., FONTANINI, A., SADACCA, B. F., MILLER, P., and KATZ, D. B. (2007), 'Natural stimuli evoke dynamic sequences of states in sensory cortical ensembles', *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, 104: 18772–7.

JONES, M. and FABIAN, A., eds. (2006), *Conflict*. Cambridge: Cambridge University Press.

JOURDAIN, P., BERGERSEN, L. H., BHAUKAURALLY, K., BEZZI, P., SANTELLO, M., DOMERCQ, M., MATUTE, C., TONELLO, F., GUNDERSEN, V., and VOLTERRA, A. (2007), 'Glutamate exocytosis from astrocytes controls synaptic strength', *Nature Neuroscience*, 10: 331–9.

KASSIMERIS, G., ed. (2006), *The Barbarisation of Warfare*. London: Hurst.

KAUER, J. A. and MALENKA, R. C. (2007), 'Synaptic plasticity and addiction', *Nature Reviews Neuroscience*, 8: 844–58.

KEELEY, L. H. (1996), *War Before Civilization*. Oxford: Oxford University Press.

KEKES, J. (1996), 'Cruelty and liberalism', *Ethics*, 106: 834–44.

Kelemen, D. (2003), 'British and American children's preferences for teleo-functional explanations of the natural world', *Cognition*, 88: 201–21.

Kelly, C., Grinband, J., and Hirsch, J. (2007), 'Repeated exposure to media violence is associated with diminished response in an inhibitory frontolimbic network', *PLoS ONE*, 2, p. e1268. DOI: http://dx.doi.org/10.1371/journal.pone.0001268.

Kelly, D. J., Quinn, P. C., Slater, A. M., Lee, K., Ge, L., and Pascalis, O. (2007), 'The other-race effect develops during infancy: evidence of perceptual narrowing', *Psychological Science*, 18: 1084–9.

Kinsey, A. C., Pomeroy, W. B., Martin, C. E., and Gebhard, P. H. (1953), *Sexual Behavior in the Human Female*. Philadelphia: W. B. Saunders.

Kinzler, K. D., Dupoux, E., and Spelke, E. S. (2007). 'The native language of social cognition', *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, 104: 12577–80.

Kirsch, L. G. and Becker, J. V. (2007), 'Emotional deficits in psychopathy and sexual sadism: implications for violent and sadistic behavior', *Clinical Psychology Review*, 27: 904–22.

Kissler, J., Herbert, C., Peyk, P., and Junghofer, M. (2007), 'Buzzwords: early cortical responses to emotional words during reading', *Psychological Science*, 18: 475–80.

Klee, E., Dressen, W., and Riess, V., eds. (1991), *'The Good Old Days': The Holocaust as Seen by its Perpetrators and Bystanders*. New York: Konecky & Konecky.

Koenen, K. C., Moffitt, T. E., Caspi, A., Taylor, A., and Purcell, S. (2003). 'Domestic violence is associated with environmental suppression of IQ in young children', *Development and Psychopathology*, 15: 297–311.

Kolnai, A. ed. (2004), *On Disgust*, ed. B. Smith and C. Korsmeyer. Chicago and La Salle: Open Court.

Krafft-Ebing, R. (trans. 1965), *Psychopathia Sexualis*, trans. F. S. Klaf, 12th edn. London: Staples Press.

Kramer, U. M., Jansma, H., Tempelmann, C., and Munte, T. F. (2007), 'Tit-for-tat: the neural basis of reactive aggression', *NeuroImage*, 38: 203–11.

Krolak-Salmon, P., Henaff, M. A., Isnard, J., Tallon-Baudry, C., Guenot, M., Vighetto, A., Bertrand, O., and Mauguiere, F. (2003), 'An attention modulated response to disgust in human ventral anterior insula', *Annals of Neurology*, 53: 446–53.

Krueger, R. F., Markon, K. E., Patrick, C. J., Benning, S. D., and Kramer, M. D. (2007), 'Linking antisocial behavior, substance use, and personality: an integrative quantitative model of the adult externalizing spectrum', *Journal of Abnormal Psychology*, 116: 645–66.

Kruglanski, A. W., Shah, J. Y., Pierro, A., and Mannetti, L. (2002). 'When similarity breeds content: need for closure and the allure of homogeneous and self-resembling

groups', *Journal of Personality and Social Psychology*, 83: 648–62.

KRUMHUBER, E., MANSTEAD, A. S. R., COSKER, D., MARSHALL, D., ROSIN, P. L., and KAPPAS, A. (2007), 'Facial dynamics as indicators of trustworthiness and cooperative behavior', *Emotion*, 7: 730–5.

KUNIECKI, M., URBANIK, A., SOBIECKA, B., KOZUB, J., and BINDER, M. (2003), 'Central control of heart rate changes during visual affective processing as revealed by fMRI', *Acta Neurobiologiae Experimentalis (Warszawa)*, 63: 39–48.

KURST-SWANGER, K. and PETCOSKY, J. L. (2003), *Violence in the Home: Multidisciplinary Perspectives*. New York: Oxford University Press.

KVERAGA, K., GHUMAN, A. S., and BAR, M. (2007), 'Top-down predictions in the cognitive brain', *Brain and Cognition*, 65: 145–68.

LACAPRA, D. (1997), 'Lanzmann's *Shoah*: here there is no why', *Critical Inquiry*, 23: 231–69.

LANDIS, B. N., LEUCHTER, I., SAN MILLAN RUIZ, D., LACROIX, J. S., and LANDIS, T. (2006), 'Transient hemiageusia in cerebrovascular lateral pontine lesions', *Journal of Neurology, Neurosurgery and Psychiatry*, 77: 680–3.

LANGER, L. L. (1999), *Preempting the Holocaust*. New Haven: Yale University Press.

LAQUEUR, W. (2004), *Voices of Terror: Manifestos, Writings and Manuals of Al Qaeda, Hamas, and Other Terrorists from Around the World and Throughout the Ages*. New York: Reed Press.

LEDOUX, J. (1998), *The Emotional Brain: The Mysterious Underpinnings of Emotional Life*. London: Weidenfeld & Nicolson.

LEE, D. K., ITTI, L., KOCH, C., and BRAUN, J. (1999), 'Attention activates winner-take-all competition among visual filters', *Nature Neuroscience*, 2: 375–81.

LEKNES, S. and TRACEY, I. (2008), 'A common neurobiology for pain and pleasure', *Nature Reviews Neuroscience*, 9: 314–20.

LESLIE, K. R., JOHNSON-FREY, S. H., and GRAFTON, S. T. (2004), 'Functional imaging of face and hand imitation: towards a motor theory of empathy', *NeuroImage*, 21: 601–7.

LEVENSON, R. W., EKMAN, P., and FRIESEN, W. V. (1990), 'Voluntary facial action generates emotion-specific autonomic nervous system activity', *Psychophysiology*, 27: 363–84.

LIBET, B., FREEMAN, A., and SUTHERLAND, K., eds. (1999), *The Volitional Brain: Towards a Neuroscience of Free Will*. Thorverton: Imprint Academic.

LIEBERMAN, D., TOOBY, J., and COSMIDES, L. (2007), 'The architecture of human kin detection', *Nature*, 445: 727–31.

LIEBERMAN, M. D., EISENBERGER, N. I., CROCKETT, M. J., TOM, S. M., PFEIFER, J. H., and WAY, B. M. (2007), 'Putting feelings into words: affect labeling disrupts amygdala

activity in response to affective stimuli', *Psychological Science*, 18: 421–8.

LIFTON, R. J. (2000), *The Nazi Doctors: Medical Killing and the Psychology of Genocide*. New York: Basic Books

LINDSAY, J. J. and ANDERSON, C. A. (2000), 'From antecedent conditions to violent actions: a general affective aggression model', *Personality and Social Psychology Bulletin*, 26: 533–47.

LINSER, K. and GOSCHKE, T. (2007), 'Unconscious modulation of the conscious experience of voluntary control', *Cognition*, 104: 459–75.

LOCHNER, L. P. (1943), *What About Germany?* London: Hodder & Stoughton.

LOZA, W. (2007), 'The psychology of extremism and terrorism: a Middle-Eastern perspective', *Aggression and Violent Behavior*, 12: 141–55.

LUO, Q., HOLROYD, T., JONES, M., HENDLER, T., and BLAIR, J. (2007), 'Neural dynamics for facial threat processing as revealed by gamma band synchronization using MEG', *NeuroImage*, 34: 839–47.

LYNCH, G., REX, C. S., and GALL, C. M. (2007), 'LTP consolidation: substrates, explanatory power, and functional significance', *Neuropharmacology*, 52: 12–23.

MCARTHUR, B. (2006), *Surviving the Sword: Prisoners of the Japanese, 1942–45*. London: Abacus.

MCCALL, G. S. and SHIELDS, N. (2008), 'Examining the evidence from small-scale societies and early prehistory and implications for modern theories of aggression and violence', *Aggression and Violent Behavior*, 13: 1–9.

MACHIAVELLI, N. (trans. 1961), *The Prince*, trans. G. Bull. Harmondsworth: Penguin.

MACKAY, C. (ed. 1973), *Selections from 'Extraordinary Popular Delusions and the Madness of Crowds'*. London: Unwin.

MCKELVIE, S. J. and COLEY, J. (1993), 'Effects of crime seriousness and offender facial attractiveness on recommended treatment', *Social Behavior and Personality*, 21: 265–77.

MAJDANDZIC, J., GROL, M. J., VAN SCHIE, H. T., VERHAGEN, L., TONI, I., and BEKKERING, H. (2007), 'The role of immediate and final goals in action planning: an fMRI study', *NeuroImage*, 37: 589–98.

MALCOLM, N. (1996), *Bosnia: A Short History*. London: Papermac.

—— (1998), *Kosovo: A Short History*. London: Macmillan.

MALLE, B. F. (2006), 'The actor observer asymmetry in attribution: a (surprising) meta-analysis', *Psychological Bulletin*, 132: 895–919.

MANER, J. K., KENRICK, D. T., BECKER, D. V., ROBERTSON, T. E., HOFER, B., NEUBERG, S. L., DELTON, A. W., BUTNER, J., and SCHALLER, M. (2005), 'Functional projection: how fundamental social motives can bias interpersonal perception', *Journal of Personality and Social Psychology*, 88: 63–78.

Marshall, W. L. and Kennedy, P. (2003). 'Sexual sadism in sexual offenders: an elusive diagnosis', *Aggression and Violent Behavior*, 8: 1–22.

Martens, A., Kosloff, S., Greenberg, J., Landau, M. J., and Schmader, T. (2007), 'Killing begets killing: evidence from a bug-killing paradigm that initial killing fuels subsequent killing', *Personality and Social Psychology Bulletin*, 33: 1251–64.

Maruya, K., Yang, E., and Blake, R. (2007), 'Voluntary action influences visual competition', *Psychological Science*, 18: 1090–8.

Massey, P. V. and Bashir, Z. I. (2007), 'Long-term depression: multiple forms and implications for brain function', *Trends in Neurosciences*, 30: 176–84.

Maxwell, J. S. and Davidson, R. J. (2007), 'Emotion as motion: asymmetries in approach and avoidant actions', *Psychological Science*, 18: 1113–19.

May, A. (2007), 'Neuroimaging: visualising the brain in pain', *Neurological Sciences*, 28: S101–7.

Melson, R. (1992), *Revolution and Genocide: On the Origins of the Armenian Genocide and the Holocaust*. Chicago: University of Chicago Press.

Mertus, J. A. (1999), *Kosovo: How Myths and Truths Started a War*. Berkeley: University of California Press

Merz-Perez, L. and Heide, K. M. (2003), *Animal Cruelty: Pathway to Violence against People*. Lanham, Md.: Altamira Press.

Metcalfe, J. and Greene, M. J. (2007), 'Metacognition of agency', *Journal of Experimental Psychology: General*, 136: 184–99.

Mikhail, J. (2007), 'Universal moral grammar: theory, evidence and the future', *Trends in Cognitive Sciences*, 11: 143–52.

Mikkelson, B. and Mikkelson, D. P. (last accessed 29 May 2008), *The Twinkie Defense*. Located at http://www.snopes.com/legal/twinkie.asp.

Milgram, S. (1963), 'Behavioral study of obedience', *Journal of Abnormal and Social Psychology*, 67: 371–8.

—— (1997), *Obedience to Authority*. London: Pinter & Martin.

Miller, J. (1990), 'Carnivals of atrocity: Foucault, Nietzsche, cruelty', *Political Theory*, 18: 470–91.

Miller, S. B. (2004), *Disgust: The Gatekeeper Emotion*. Hillsdale, NJ: Analytic Press.

Miller, W. I. (1997), *The Anatomy of Disgust*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.

Miyata, M. (2007), 'Distinct properties of corticothalamic and primary sensory synapses to thalamic neurons', *Neuroscience Research*, 59: 377–82.

Monk, R. (1990), *Ludwig Wittgenstein: The Duty of Genius*. London: Cape.

MOORE, R. I. (1987). *The Formation of a Persecuting Society: Power and Deviance in Western Europe, 950–1250*. Oxford: Blackwell.

MORGENTHAU, H. (ed. 2000), *Ambassador Morgenthau's Story*. Reading: Taderon Press, by arrangement with the Gomidas Institute.

MORRISON, I. and DOWNING, P. E. (2007), 'Organization of felt and seen pain responses in anterior cingulate cortex', *NeuroImage*, 37: 642–51.

MURIS, P., MAYER, B., HUIJDING, J., and KONINGS, T. (2008), 'A dirty animal is a scary animal! Effects of disgust-related information on fear beliefs in children', *Behaviour Research and Therapy*, 46: 263–9.

NAGEL, T. (1972), 'War and massacre', *Philosophy and Public Affairs*, 1: 123–44.

NAGENGAST, C. (2002), 'Inoculation of evil in the U.S.–Mexican border region: reflections on the genocidal potential of symbolic violence', in A. L. Hinton (ed.), *Annihilating Difference: The Anthropology of Genocide*. Berkeley: University of California Press, 325–47.

NAIDICH, T. P., KANG, E., FATTERPEKAR, G. M., DELMAN, B. N., GULTEKIN, S. H., WOLFE, D., ORTIZ, O., YOUSRY, I., WEISMANN, M., and YOUSRY, T. A. (2004), 'The insula: anatomic study and MR imaging display at 1.5 T', *American Journal of Neuroradiology*, 25: 222–32.

NAVARRETE, C. D. and FESSLER, D. M. T. (2006), 'Disease avoidance and ethnocentrism: the effects of disease vulnerability and disgust sensitivity on intergroup attitudes', *Evolution and Human Behavior*, 27: 270–82.

NELL, V. (2006), 'Cruelty's rewards: the gratifications of perpetrators and spectators', *Behavioral and Brain Sciences*, 29: 211–24, discussion, pp. 224–57.

NEW, J., COSMIDES, L., and TOOBY, J. (2007), 'Category-specific attention for animals reflects ancestral priorities, not expertise', *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, 104: 16598–603.

NEWMAN, L. S. and ERBER, R., eds. (2002), *Understanding Genocide: The Social Psychology of the Holocaust*. Oxford: Oxford University Press.

NG-MAK, D. S., SALZINGER, S., FELDMAN, R. S., and STUEVE, C. A. (2004), 'Pathologic adaptation to community violence among inner-city youth', *American Journal of Orthopsychiatry*, 74: 196–208.

NICHOLAS, S., KERSHAW, C., and WALKER, A., eds. (2007), *Crime in England and Wales 2006/07*. London: Research, Development and Statistics Directorate.

NIETZSCHE, F. W. (trans. 1968), *The Anti-Christ*. In *Twilight of the Idols and The Anti-Christ*, trans. R. J. Hollingdale. Harmondsworth: Penguin.

—— (trans. 1973), *Beyond Good and Evil*, trans. R. J. Hollingdale. Harmondsworth: Penguin.

NISBETT, R. E. and COHEN, D. (1996), *Culture of Honor: The Psychology of Violence in the South*. Boulder, Colo.: Westview.

NORDGREN, L. F., VAN DER PLIGT, J., and VAN HARREVELD, F. (2007), 'Evaluating Eve: visceral states influence the evaluation of impulsive behavior', *Journal of Personality and Social Psychology*, 93: 75–84.

NULAND, S. B. (1994), *How We Die*. London: Chatto & Windus.

NUSSBAUM, S., TROPE, Y., and LIBERMAN, N. (2003), 'Creeping dispositionism: the temporal dynamics of behaviour prediction', *Journal of Personality and Social Psychology*, 84: 485–97.

OFFER, A. (2006), *The Challenge of Affluence: Self-control and Well-being in the United States and Britain since 1950*. Oxford: Oxford University Press.

OHMAN, A., CARLSSON, K., LUNDQVIST, D., and INGVAR, M. (2007), 'On the unconscious subcortical origin of human fear', *Physiology and Behavior*, 92: 180–5.

OVERY, R. (2001), *Interrogations: The Nazi Elite in Allied Hands, 1945*. London: Allen Lane.

PAPAFRAGOU, A., CASSIDY, K., and GLEITMAN, L. (2007), 'When we think about thinking: the acquisition of belief verbs', *Cognition*, 105: 125–65.

PARK, J. H., FAULKNER, J., and SCHALLER, M. (2003), 'Evolved disease-avoidance processes and contemporary anti-social behavior: prejudicial attitudes and avoidance of people with physical disabilities', *Journal of Nonverbal Behavior*, 27: 65–87.

PARKER, R. (1983), *Miasma*. Oxford: Clarendon Press.

PAVLOV, I. P. (trans. 1941), *Lectures on Conditioned Reflexes*. Volume 2. *Conditioned Reflexes and Psychiatry*, trans. W. H. Gantt. London: Lawrence & Wishart.

PEPER, M. (2006), 'Imaging emotional brain functions: conceptual and methodological issues', *Journal of Physiology (Paris)*, 99: 293–307.

PEXMAN, P. M., HARGREAVES, I. S., EDWARDS, J. D., HENRY, L. C., and GOODYEAR, B. G. (2007), 'The neural consequences of semantic richness: when more comes to mind, less activation is observed', *Psychological Science*, 18: 401–6.

PFURTSCHELLER, G., NEUPER, C., RAMOSER, H., and MULLER-GERKING, J. (1999), 'Visually guided motor imagery activates sensorimotor areas in humans', *Neuroscience Letters*, 269: 153–6.

PHILLIPS, M. L., SENIOR, C., FAHY, T., and DAVID, A. S. (1998), 'Disgust—the forgotten emotion of psychiatry', *British Journal of Psychiatry*, 172: 373–5.

PHILLIPS, M. L., WILLIAMS, L. M., HEINING, M., HERBA, C. M., RUSSELL, T., ANDREW, C., BULLMORE, E. T., BRAMMER, M. J., WILLIAMS, S. C., MORGAN, M., YOUNG, A. W., and GRAY, J. A. (2004), 'Differential neural responses to overt and covert presentations of facial expressions of fear and disgust', *NeuroImage*, 21: 1484–96.

Pierro, A., Mannetti, L., De Grada, E., Livi, S., and Kruglanski, A. W. (2002), 'Autocracy bias in informal groups under need for closure', *Personality and Social Psychology Bulletin*, 29: 405–17.

Pincus, J. H. (2001), *Base Instincts: What Makes Killers Kill?* New York: W. W. Norton.

Plaks, J. E., Grant, H., and Dweck, C. S. (2005), 'Violations of implicit theories and the sense of prediction and control: implications for motivated person perception', *Journal of Personality and Social Psychology*, 88: 245–62.

Platek, S. M., Krill, A. L., and Kemp, S. M. (2008), 'The neural basis of facial resemblance', *Neuroscience Letters*, 437: 76–81.

Porter, S., Woodworth, M., Earle, J., Drugge, J., and Boer, D. (2003), 'Characteristics of sexual homicides committed by psychopathic and nonpsychopathic offenders', *Law and Human Behavior*, 27: 459–70.

Power, S. (2003), *'A Problem from Hell': America and the Age of Genocide*. London: Flamingo.

Preston, R. (1994), *The Hot Zone*. London: Doubleday.

Prunier, G. (1995), *The Rwanda Crisis*. New York: Columbia University Press.

Pugh, M. (2006), *'Hurrah for the Blackshirts!' Fascists and Fascism in Britain Between the Wars*. London: Pimlico.

Raaflaub, K. A., Ober, J., and Wallace, R. W., eds. (2007), *Origins of Democracy in Ancient Greece*. Berkeley: University of California Press.

Raymond, C. R. (2007), 'LTP forms 1, 2 and 3: different mechanisms for the "long" in long-term potentiation', *Trends in Neurosciences*, 30: 167–75.

Rees, L. (2005), *Auschwitz: The Nazis and the Final Solution*. London: BBC Books.

Rejali, D. (2008), *Torture and Democracy*. Princeton: Princeton University Press.

Restorative Justice Consortium (last accessed 29 May 2008), *Restorative Justice Consortium*. Located at http://www.restorativejustice.org.uk.

Rhodes, R. (1988), *The Making of the Atomic Bomb*. Harmondsworth: Penguin.

—— (2003), *Masters of Death: The SS-Einsatzgruppen and the Invention of the Holocaust*. New York: Vintage.

Richardson, D. S. and Hammock, G. S. (2007), 'Social context of human aggression: are we paying too much attention to gender?', *Aggression and Violent Behavior*, 12: 417–26.

Ritz, T., Thons, M., Fahrenkrug, S., and Dahme, B. (2005), 'Airways, respiration, and respiratory sinus arrhythmia during picture viewing', *Psychophysiology*, 42: 568–78.

Rizzolatti, G. (2005), 'The mirror neuron system and its function in humans', *Anatomy and Embryology (Berlin)*, 210: 419–21.

ROBINS, R. S. and POST, J. M. (1997). *Political Paranoia: The Psychopolitics of Hatred*. New Haven: Yale University Press.

ROGERS, D. S. and EHRLICH, P. R. (2008). 'Natural selection and cultural rates of change', *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, 105: 3416–20.

DE ROOS, S. A., IEDEMA, J., and MIEDEMA, S. (2004). 'Influence of maternal denomination, God concepts, and child-rearing practices on young children's God concepts', *Journal for the Scientific Study of Religion*, 43: 519–35.

ROSENBAUM, A. S., ed. (2000). *Is the Holocaust Unique? Perspectives on Comparative Genocide*, 2nd edn. Boulder, Colo.: Westview Press.

ROUSSEAU, J. J. (trans. 1973). *The Social Contract and Discourses*, trans. G. D. H. Cole. London: Dent.

ROZIN, P. and FALLON, A. E. (1987). 'A perspective on disgust', *Psychological Review*, 94: 23–41.

ROZIN, P., MILLMAN, L., and NEMEROFF, C. (1986). 'Operation of the laws of sympathetic magic in disgust and other domains', *Journal of Personality and Social Psychology*, 50: 703–12.

RUMMEL, R. J. (1994). *Death by Government*. New Brunswick, NJ: Transaction.

RUSHDIE, S. (1991). *Haroun and the Sea of Stories*. London: Granta.

RUSSELL, B. and WHITEHEAD, A. N. (1910–13). *Principia Mathematica*. Cambridge: Cambridge University Press.

RUTHVEN, M. (2004). *Fundamentalism: The Search for Meaning*. Oxford: Oxford University Press.

RYLE, G. (1971a). 'Thinking and reflecting'. In *Collected Papers*. Volume 2. *Collected Essays 1929–1968*. London: Hutchinson, 465–79.

—— (1971b). 'The thinking of thoughts: what is "Le Penseur" doing?' In *Collected Papers*. Volume 2. *Collected Essays 1929–1968*. London: Hutchinson, 480–96.

SADE, D. A. F., MARQUIS DE (trans. 1989). *120 Days of Sodom*, trans. A. Wainhouse and R. Seaver. London: Arrow.

—— (trans. 1991). *Justine, or Good Conduct Well Chastised*. In *Justine, Philosophy in the Bedroom and other Writings*, trans. A. Wainhouse and R. Seaver. London: Arrow, 447–743.

SAHA, S. (2005). 'Role of the central nucleus of the amygdala in the control of blood pressure: descending pathways to medullary cardiovascular nuclei', *Clinical and Experimental Pharmacology and Physiology (Victoria)*, 32: 450–6.

SAITO, R., TAKANO, Y., and KAMIYA, H. (2003). 'Roles of Substance P and NK1 receptor in the brainstem in the development of emesis', *Journal of Pharmacological Sciences*, 91: 87–94.

SALMINEN, M. and RAVAJA, N. (2008), 'Increased oscillatory theta activation evoked by violent digital game events', *Neuroscience Letters*, 435: 69–72.

SAMPSON, A. (1993), Acts of Abuse: Sex Offenders and the Criminal Justice System. London: Routledge.

SARLO, M., BUODO, G., POLI, S., and PALOMBA, D. (2005), 'Changes in EEG alpha power to different disgust elicitors: the specificity of mutilations'. *Neuroscience Letters*, 382: 291–6.

SCHACHTER, S. and SINGER, J. E. (1962). 'Cognitive, social, and physiological determinants of emotional state', *Psychological Review*, 69: 379–99.

SCHERER, K. R. and WALLBOTT, H. G. (1994), 'Evidence for universality and cultural variation of differential emotion response patterning', *Journal of Personality and Social Psychology*, 66: 310–28.

SCHULTZ, W., DAYAN, P., and MONTAGUE, P. R. (1997). 'A neural substrate of prediction and reward', *Science*, 275: 1593–9.

SEMELIN, J. (trans. 2007), *Purify and Destroy*, trans. C. Schoch. London: Hurst.

SENECA (trans. 2007), 'On Mercy'. In *Dialogues and Essays*, trans. J. Davie. Oxford: Oxford University Press, 188–218.

SEQUEIRA, H., VILTART, O., BA-M'HAMED, S., AND POULAIN, P. (2000), 'Cortical control of somato-cardiovascular integration: neuroanatomical studies', *Brain Research Bulletin*, 53: 87–93.

SEWARDS, T.V. (2004), 'Dual separate pathways for sensory and hedonic aspects of taste', *Brain Research Bulletin*, 62: 271–83.

SHAKESPEARE, W. (ed. 1997), *King Lear*, ed. R. A. Foakes. London: Arden Shakespeare.

SHAMAY-TSOORY, S. G. and AHARON-PERETZ, J. (2007), 'Dissociable prefrontal networks for cognitive and affective theory of mind: a lesion study', *Neuropsychologia*, 45: 3054–67.

SHAROT, T., RICCARDI, A. M., RAIO, C. M., and PHELPS, E. A. (2007), 'Neural mechanisms mediating optimism bias', *Nature*, 450: 102–5.

SHEMA, R., SACKTOR, T. C., and DUDAI, Y. (2007), 'Rapid erasure of long-term memory associations in the cortex by an inhibitor of PKM-zeta', *Science*, 317: 951–3.

SHERMAN, L. W. and STRANG, H. (last accessed 29 May 2008), *Restorative Justice: The Evidence*. London: Smith Institute. Located at http://www.esmeefairbairn.org.uk/docs/RJ_full_report.pdf.

SHKLAR, J. N. (1984), *Ordinary Vices*. Cambridge, Mass.: Belknap.

SIMION, F., REGOLIN, L., and BULF, H. (2008), 'A predisposition for biological motion in the newborn baby', *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, 105: 809–13.

Singer, P. (1971). 'Famine, affluence, and morality', *Philosophy and Public Affairs*, 1: 229–43.

Singer, T., Kiebel, S. J., Winston, J. S., Dolan, R. J., and Frith, C. D. (2004). 'Brain responses to the acquired moral status of faces', *Neuron*, 41: 653–62.

—— Seymour, B., O'Doherty, J. P., Stephan, K. E., Dolan, R. J., and Frith, C. D. (2006). 'Empathic neural responses are modulated by the perceived fairness of others', *Nature*, 439: 466–9.

Slote, M. (1990). 'Ethics without free will', *Social Theory and Practice*, 16: 369–83.

Sorabji, R. and Rodin, D. (2006). *The Ethics of War: Shared Problems in Different Traditions*. Aldershot: Ashgate.

Sparrow, B. and Wegner, D. M. (2006). 'Unpriming: the deactivation of thoughts through expression', *Journal of Personality and Social Psychology*, 91: 1009–19.

Stanton, G. H. (last accessed 29 May 2008). *The 8 stages of genocide*. Washington, DC: Genocide Watch. Located at http://www.genocidewatch.org/8stages.htm.

Stark, R., Walter, B., Schienle, A., and Vaitl, D. (2005). 'Psychophysiological correlates of disgust and disgust sensitivity', *Journal of Psychophysiology*, 19: 50–60.

Staub, E. (2003). *The Psychology of Good and Evil: Why Children, Adults, and Groups Help and Harm Others*. New York: Cambridge University Press.

Stern, E. R., Wager, T. D., Egner, T., Hirsch, J., and Mangels, J. A. (2007). 'Preparatory neural activity predicts performance on a conflict task', *Brain Research*, 1176: 92–102.

Sternberg, R. J., ed. (2005). *The Psychology of Hate*. Washington, DC: American Psychological Association.

Sterzer, P., Russ, M. O., Preibisch, C., and Kleinschmidt, A. (2002). 'Neural correlates of spontaneous direction reversals in ambiguous apparent visual motion', *NeuroImage*, 15: 908–16.

—— Stadler, C., Poustka, F., and Kleinschmidt, A. (2007). 'A structural neural deficit in adolescents with conduct disorder and its association with lack of empathy', *NeuroImage*, 37: 335–42.

Stets, J. (1995). 'Job autonomy and control over one's spouse: a compensatory process', *Journal of Health and Social Behavior*, 36: 244–58.

Stevenson, R. J. and Repacholi, B. M. (2005). 'Does the source of an interpersonal odour affect disgust? A disease risk model and its alternatives', *European Journal of Social Psychology*, 35: 375–401.

Stone, A. and Valentine, T. (2005). 'Orientation of attention to nonconsciously recognised famous faces', *Cognition and Emotion*, 19: 537–58.

Sumner, W. G. (1907). *Folkways: A Study of the Sociological Importance of Usages, Manners, Customs, Mores and Morals*. Boston: Ginn.

Surian, L., Caldi, S., and Sperber, D. (2007). 'Attribution of beliefs by 13-month-old infants'. *Psychological Science*, 18: 580–6.

Tajfel, H., Flament, C., Billig, M. G., and Bundy, R. P. (1971). 'Social categorization and intergroup behaviour', *European Journal of Social Psychology*, 1: 149–78.

Taylor, K. E. (2001). 'Applying continuous modelling to consciousness', *Journal of Consciousness Studies*, 8: 45–60.

Taylor, K. (2004). *Brainwashing: The Science of Thought Control*. Oxford: Oxford University Press.

—— (2006). 'On brainwashing'. In G. Kassimeris (ed.), *The Barbarisation of Warfare*. London: Hurst, 238–53.

—— (2007). 'Disgust is a factor in extreme prejudice', *British Journal of Social Psychology*, 43: 597–617.

Taylor, S. E. and Gollwitzer, P. M. (1995). 'Effects of mindset on positive illusions', *Journal of Personality and Social Psychology*, 69: 213–26.

Thagard, P., Kroon, F., Nerb, J., Sahdra, B., Shelley, C., and Wagar, B. (2006). *Hot Thought: Mechanisms and Applications of Emotional Cognition*. Cambridge, Mass.: MIT Press.

Thiagarajan, T. C., Lindskog, M., Malgaroli, A., and Tsien, R. W. (2007). 'LTP and adaptation to inactivity: overlapping mechanisms and implications for metaplasticity', *Neuropharmacology*, 52: 156–75.

Tilly, C. (2003). *The Politics of Collective Violence*. New York: Cambridge University Press.

Tormala, Z. L. and Petty, R. E. (2002). 'What doesn't kill me makes me stronger: the effects of resisting persuasion on attitude certainty'. *Journal of Personality and Social Psychology*, 83: 1298–1313.

Trafimow, D., Bromgard, I. K., Finlay, K. A., and Ketelaar, T. (2005). 'The role of affect in determining the attributional weight of immoral behaviors', *Personality and Social Psychology Bulletin*, 31: 935–48.

Travagli, R. A. and Rogers, R. C. (2001). 'Receptors and transmission in the brain–gut axis: potential for novel therapies: V. Fast and slow extrinsic modulation of dorsal vagal complex circuits'. *American Journal of Physiology—Gastrointestinal and Liver Physiology*, 281: 595–601.

—— Hermann, G. E., Browning, K. N., and Rogers, R. C. (2003). 'Musings on the wanderer: what's new in our understanding of vago-vagal reflexes? III. Activity-dependent plasticity in vago-vagal reflexes controlling the stomach', *American Journal of Physiology—Gastrointestinal and Liver Physiology*, 284: 180–7.

Tse, D., Langston, R. F., Kakeyama, M., Bethus, I., Spooner, P. A., Wood, E. R., Witter, M. P., and Morris, R. G. M. (2007). 'Schemas and memory consolidation'. *Science*, 316: 76–82.

Ulloa, E. R. and Pineda, J. A. (2007). 'Recognition of point-light biological motion: mu rhythms and mirror neuron activity', *Behavioural Brain Research*, 183: 188–94.

US Department of Justice (last accessed 29 May 2008), *US Bureau of Justice Statistics: Homicide Trends in the U.S. Trends by Gender*. Located at http://www.ojp.usdoj.gov/bjs/homicide/gender.htm.

Vaish, A., Grossmann, T., and Woodward, A. (2008). 'Not all emotions are created equal: the negativity bias in social-emotional development', *Psychological Bulletin*, 134: 383–403.

Valdesolo, P. and DeSteno, D. (2007). 'Moral hypocrisy: social groups and the flexibility of virtue', *Psychological Science*, 18: 689–90.

Valentino, B. A. (2004). *Final Solutions: Mass Killing and Genocide in the Twentieth Century*. Ithaca, NY: Cornell University Press.

Valeriani, M., Betti, V., Le Pera, D., De Armas, L., Miliucci, R., Restuccia, D., Avenanti, A., and Aglioti, S. M. (2008). 'Seeing the pain of others while being in pain: a laser-evoked potentials study', *NeuroImage*, 40: 1419–28.

Vallin, J., Meslé, F., Adamets, S., and Pyrozhkov, S. (2002). 'A new estimate of Ukrainian population losses during the crises of the 1930s and 1940s', *Population Studies*, 56: 249–64.

Ventura, S. J., Mosher, W. D., Curtin, S. C., Abma, J. C., and Henshaw, S. (1999). 'Highlights of trends in pregnancies and pregnancy rates by outcome: estimates for the United States, 1976–96'. *National Vital Statistics Reports*, 47: 1–9. Located at http://www.ncbi.nlm.nih.gov/entrez/query.fcgi?cmd=Retrieve&db=PubMed&dopt=Citation&list_uids=10635682.

de Vignemont, F. and Singer, T. (2006), 'The empathic brain: how, when and why?' *Trends in Cognitive Sciences*, 10: 435–41.

Vizi, E. S. and Mike, A. (2006), 'Nonsynaptic receptors for GABA and glutamate', *Current Topics in Medicinal Chemistry*, 6: 941–8.

de Waal, F. B. M. (1996*a*). *Good Natured: The Origins of Right and Wrong in Humans and Other Animals*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.

—— (1996*b*), *Our Inner Ape: The Best and Worst of Human Nature*. London: Granta.

Waldmann, M. R. and Dieterich, J. H. (2007), 'Throwing a bomb on a person versus throwing a person on a bomb: intervention myopia in moral intuitions', *Psychological Science*, 18: 247–53.

WALLACE, B., CESARINI, D., LICHTENSTEIN, P., and JOHANNESSON, M. (2007), 'Heritability of ultimatum game responder behavior', *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, 104: 15631–4.

WALLER, J. (2002), *Becoming Evil: How Ordinary People Commit Genocide and Mass Killing*. New York: Oxford University Press.

WEGNER, D. M. (2002), *The Illusion of Conscious Will*. London: MIT Press.

WEITZ, E. D. (2003), *A Century of Genocide: Utopias of Race and Nation*. Princeton: Princeton University Press.

WHEATLEY, T. and HAIDT, J. (2005), 'Hypnotic disgust makes moral judgments more severe', *Psychological Science*, 16: 780–4.

WHITE, P. A. (2006), 'The causal asymmetry', *Psychological Review*, 113: 132–47.

WHITLOCK, J., ECKENRODE, J., and SILVERMAN, D. (2006), 'Self-injurious behaviors in a college population', *Pediatrics*, 117: 1939–48.

WICKER, B., KEYSERS, C., PLAILLY, J., ROYET, J.P., GALLESE, V., and RIZZOLATTI, G. (2003), 'Both of us disgusted in my insula: the common neural basis of seeing and feeling disgust', *Neuron*, 40: 655–64.

WILKINSON, R. (2005), *The Impact of Inequality: How to Make Sick Societies Healthier*. New York: The New Press.

WILLIAMS, E. (1967), *Beyond Belief: A Chronicle of Murder and Its Detection*. London: Hamish Hamilton.

WILSON, T. (2002), *Strangers to Ourselves: Discovering the Adaptive Unconscious*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.

WITTGENSTEIN, L. (trans. 1974), *Philosophical Investigations*, trans. G. E. M. Anscombe, 3rd edn. Oxford: Blackwell.

—— (trans. 2001), *Tractatus Logico-Philosophicus*; Introduction by Bertrand Russell, trans. D. Pears and B. McGuinness. London: Routledge.

WOLFE, R. A., BEYER, J. M., BLACKBURN, R. T., GREENHALGH, L., NAYYAR, P. R., and SETH, A. (1996), 'Rethinking the tenure process: the influences and consequences of power and culture', *Journal of Management Inquiry*, 5: 221–36.

WOLPERT, D. M., MIALL, R. C., and KAWATO, M. (1998), 'Internal models in the cerebellum', *Trends in Cognitive Sciences*, 2: 338–47.

WOODWARD, T. S., BUCHY, L., MORITZ, S., and LIOTTI, M. (2007), 'A bias against disconfirmatory evidence is associated with delusion proneness in a nonclinical sample', *Schizophrenia Bulletin*, 33: 1023–8.

WU, F. and HUBERMAN, B. A. (2007), 'Novelty and collective attention', *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, 104: 17599–601.

WYER, R. S., ed. (1997). *The Automaticity of Everyday Life. Advances in Social Cognition. Volume 10*. Mahwah, NJ: Lawrence Erlbaum.

WYNDHAM, J. (1960). *The Midwich Cuckoos*. Harmondsworth: Penguin.

YU, C. and SMITH, L. B. (2007). 'Rapid word learning under uncertainty via cross-situational statistics', *Psychological Science*, 18: 414–20.

ZHONG, C. B. and LILJENQUIST, K. (2006). 'Washing away your sins: threatened morality and physical cleansing', *Science* 313: 1451–2.

ZIMBARDO, P. (2007). *The Lucifer Effect: Understanding How Good People Turn Evil*. London: Rider.

المؤلفة فى سطور:

د/ كاثلين تايلور Kathleen Taylor

- باحثة وكاتبة فى العلوم .
- بريطانية الجنسية وتعيش فى مقاطعة " Warwickshire" بإنجلترا.
- عضو هيئة تدريس فى قسم الفسيولوجى والتشريح وعلم الوراثة – جامعة "أكسفورد".

- بكالوريوس فى العلوم من أكسفورد (ب. ت).
- ماجستير من جامعة Stirling فى الأدوية وتأثيرها فى الجهـــاز العـــصبى Neuropharmacology.
- دكتوراه من أكسفورد فى " Computation neuroscience"

الأعمال المنشورة:

١- كتاب : غسيل الأدمغة (٢٠٠٤) – (ترجم إلى ٨ لغات)–
Brainwashing, Oxford Univ. Press, November, 2004

٢- القسوة (٢٠٠٩) – ترجم فى مصر
Cruelty. OxFord Univ. Press, February 2009

٣- كتاب آخر بدأته عام ٢٠١٠ ولم ينته بعد.

* كاتبة نشطة ولها لقاءات ومحاضرات وأحاديث إعلامية متعددة. ونشرت نحـــو عشرين بحثًا. تبدى اهتمامًا بدراسة العقل البشرى وكيف تتفاعل الجماعات داخـــل المجتمع. رؤيتها للحياة متشائمة؛ لأنها تفكر بطريقة واقعية. ولا تعتقـــد أن العلـــم يستطيع أن يجد حلولا لمشكلات البشر، وهذا هو رأيها الذى ذكرته فـــى موقعهـــا على شبكة المعلومات الدولية

http://www.Taylorsciencewriter.com

المترجمة فى سطور:

أ.د./ فردوس عبد الحميد البهنساوى

- ليسانس من قسم اللغة الإنجليزية- كلية الآداب- جامعة القاهرة .
- ماجستير فى الأدب الأمريكى (جامعة أريزونا / وأسيوط) .
- دكتوراه فى الأدب الإنجليزى (الأدب المسرحى) .
- شغلت منصب رئيس قسم اللغة الإنجليزية .

ثم عميدة كلية الآداب بأسيوط من ١٩٨٠-١٩٩٩.

- شهادات أخرى: فى اللغويات (معهد اللغويات التطبيقية بأدنبرة) وفى تعليم الإنجليزية للأغراض الخاصة (بليموث).
- عضو اللجنة القومية المركزية للغة الإنجليزية للأغراض الخاصة ESP.
- عضو مجلس إدارة جمعية لسان العرب لرعاية اللغة العربية.
- عضو مجلس إدارة مركز تطوير تدريس اللغة الإنجليزية CDELT – جامعة عين شمس.
- أسست وأدارت مركز اللغة الإنجليزية ووحدة معامل اللغة ومركز الترجمة والبحوث اللغوية بجامعة أسيوط ووضعت لائحتها الإدارية.
- عضو مجلس إدارة مركز دراسات المستقبل جامعة أسيوط.
- لها مؤلفات بالإنجليزية والعربية فى الأدب المقارن- أدب المسرح- النقد الأدبى- علم الأسلوبية- علم تحليل الكلام- وأعمال وبحوث فى الترجمة.

التصحيح اللغوى : كــريمـــان البــدرى
الإشـــراف الفنى : محســـــن مصطفـــى